

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الرواية الفائزة بجائزة «مان-آسيا» الأدبية لعام 2007

رمز الذئب

THE WOLF TOTEM



بيعت
أكثر من مليوني
نسخة من طبعته
الأصلية

رواية

يانغ رونغ

رمز الذئب

Wolf Totem



رمز الذئب

Wolf Totem

الرواية الفائزة بجائزة مان آسيا الأدبية

لعام 2007

تأليف

يانغ رونغ

Jiang Rong

ترجمة

مصطفى ناصر

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Wolf Totem
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Viking, an imprint of Penguin Books, PENGUIN GROUP
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-864-5

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مقدمة المترجم

وصـف الـنقاد في جميع أنحاء العالم **رمز الذئب** بالرواية الظاهرة. لقد بيع منها أكثر من عـشرين ملـيون نـسخة داخل الصين وحدها. بالإضافة إلى عدد يناهز هذا الرقم من النسخ المقرصنة. لقد أصبحت هذه الرواية موضوعا مثيرا للجدل والمناقشة استمر طويلا، ونالت نصيبا واسـعا من الدراسة، وأُلقيت عنها محاضرات كثيرة في المحافل الثقافية، وتناولتها وسائل الإعلام كافـة، وهي الآن تدرّس في أعرق الجامعات، وتصدر حولها مئات من الأطروحات الأكاديمية. حتى إن وزير الدعاية الصيني أثنى على أسلوبها الفريد، وربما كان ذلك سببا في إنقاذها من قرار بمـنع صـدورها، والـذي كـان من المحتمل أن تواجهه في أي لحظة. كل ذلك كان بسبب موضـوعها الحـساس، والتاريخ الحافل لمؤلفها، الأستاذ الجامعي المتقاعد، متعدد الاهتمامات، والـذي كان قد أمضى فترة من الزمن في السجن بعد احتجاجات ميدان تيانانمين الشهيرة التي حدثت في العام 1989.

ترجمت رواية **رمز الذئب** للكاتب الصيني يانغ رونغ، بعد عام فقط من صدورها، إلى 26 لغـة عالمية. ويذكر أن شركة بيتر جاكسون منتجة الفيلم الشهير **سيد الخواتم** اشترت حقوق الـرواية لـتحويلها إلى فيلم سينمائي. لقد حققت الرواية، التي نشرها مؤلفها باسم مستعار، إنجازا. إذ منذ صدورها باللغة الصينية في العام 2004 وهي تحصد الجوائز الأدبية الكبرى. حيث بلغ عدد الجوائز التي نالتها حتى الآن عشر جوائز. أبرزها جائزة آسيا الأدبية الأولى لعام 2007، *Man Asian Literary Prize*، كمـا أن بيع ملايين النسخ منها في فترة زمنية قياسية يُعتَبر شيئا يفـوق أكثر التوقعات تفاؤلا. إذ من المعلوم أن أحسن رواية لا يطبع منها في الصين (التي يبلغ تعداد سكانها مليار وأربعمئة مليون نسمة) أكثر من أربعة آلاف نسخة. وأكثر الكتب مبيعا في هذا البلد، على غرار **شيفرة دافنشي وهاري بوتر**، لم تتجاوز طبعاتها 5 إلى 6 ملايين نسخة.

تمثل رواية **رمز الذئب** مرافعة بليغة دفاعا عن الحرية كقيمة إنسانية عليا. وتستند أحداثها إلى تجارب من حياة مؤلفها في مناطق المراعي التي تقع في أعماق منغوليا خلال الفترة بين عامي 1966 و1976، وهـي فترة الثورة الثقافية، ومحاولة سبر أغوار تأثيراتها التي هدفت إلى تغيير نمط حياة البداوة. إنها تستثمر فضائل وأخلاق البداوة في منغوليا، وتسعى لإنتاج توازن يمكّن البشر مـن العـيش في أحـضان الطبيعة، حتى مع الذئاب التي تفترس قطعانهم بين حين وآخر. هذه الطـريقة في الحـياة تتعرض لتهديد الحياة المادية التي تعيشها الفئات الأخرى من المجتمع، والتي تتسبب بتدمير البيئة، وتنتج ثقافة سياسية ظالمة تمثل نقيضا للبداوة وروح الذئاب.

لقد أكد المؤلف، في حوار نادر أجري معه في بكين بتاريخ 26 نوفمبر 2007، أنه كان قد أمضى ثلاثين عاماً وهو يفكّر في موضوع هذه الرواية، وستة أعوام في كتابتها. وقال إن وقائع روايـــته تمثل في الواقع ترجمة أمينة لحياة وتجارب وفلسفة مؤلفها، وأن الطالب الصيني شن زن بطل الرواية ما هو إلاّ شخصية خيالية أو معادلاً رمزيًا للروائي نفسه. وأضاف أن الرواية يمكن أن تعدّ خطوة جادة أولى على طريق تحرير شعب الصين من معتقدات الكونفوشيوسية التي تعود إلى القـــرون الوسطى، والتي جعلت هذا الشعب يتعامل مع الحرية كشرط إنساني تعاملا باردا وســـلبيا. تتـــناول الـــرواية في جملة موضوعاتها المتنوعة مسألة تدمير البيئة، والحرية في ممارسة الطقـــوس الـــروحية، والتهديد الذي تشكله الحداثة على حياة البساطة في الريف والبداوة. إنها بمجملـــها عبارة عن نقاش وجداني يتناول العلاقة المعقدة بين الطبيعة والثقافة. إن السرد الذي يـــتطور بشكل بطيء ومدروس بعناية، يعطي تفاصيل حيوية، وتأثيرا قويا متراكما يشدّ القارئ إليها، ويجعلها من الروايات التي لا يمكن أن تُنسى حقا.

يمكن وصف رواية **رمز الذئب** أيضا أنها مقاربة فلسفية تفكيكية للغز تاريخي محيّر، يكمن في ذلك السر العجيب الذي جعل 120 ألف فارس منغولي في زمن جنكيزخان ينتصرون بشكل مطلق ولعشرات السنين على كل من شعوب الصين وروسيا والشرق الأوسط وأوروبا، حيث كـــان يحدوهم في ذلك الاعتقاد الراسخ بفلسفة الذئاب المبجلة للحرية التي تأثر بها المؤلف إلى درجة الانبهار.

وفقا لتصور الروائي يانغ رونغ، فإن السماح له بطبع ونشر روايته يمثل منعطفا لافتا للنظر، ومكـــسبا ثمينا في مجال حرية التعبير في الصين، طالما أن الرواية ذاتها تذهب بعيدا في انتقاد أبرز التقالـــيد والمعتقدات، مع التذكير أن الشعب الصيني، الذي تمثل سلالة الهان تسعين بالمئة منه، يـــتكون في مجمله من الفلاحين والمثقفين والموظفين في الإدارة، والطبقة الأخيرة تعتقد بالمذهب الفلـــسفي الكونفوشيوســـي الذي يعزز في النفس روح الخضوع والاستسلام، أما بالنسبة إلى الفلاحين، فإن هدفهم في الحياة تحقيق احتياجاتهم الأساسية ورغبتهم في الأمن والاستقرار، الأمر الـــذي يفـــسر، حسب رأي المؤلف، فشل كل الحركات المناشدة للحرية في هذا البلد مترامي الأطراف.

الطـــريف في الموضـــوع أن رواية **رمز الذئب** لم تترجم إلى اللغة المنغولية، وهي لغة البلد الذي تدور فيه أحداث الرواية، إلا في العام 2007، وتلقى المؤلف حينها سيلا من رسائل الشكر والثـــناء أرســـلها إلـــيه كتّاب هذا البلد وقراؤه، وقد تم تكريم الكاتب أيضا عبر تشييد نصب تذكاري في المكان الذي كان يقيم فيه في منغوليا، وكتب عند قاعدته عبارة **بلاد رمز الذئب**، كما أن الوكالات السياحية الصينية صارت تستخدم في إعلاناتها التجارية شعار **رحلة إلى بلاد رمز الذئب**.

إذا، استطاع يانغ رونغ، في مغامراته الروائية، أن ينتقل في وقت قصير من كاتب مجهول إلى أكثر الكتاب الصينيين المعاصرين شهرة ونجاحا بعد تأليفه لرواية طويلة واحدة. إنّ فكر هذا الروائي، الذي اسمه الحقيقي لو جيامن، هو في الأصل نتاج خليط من أفكار أدباء عالميين من أمثال جاك لندن، وروسو، وستندال. وتظل من أبرز السمات التي تطبع شخصيته الغامضة مقته الشديد للشهرة والأضواء، بحيث إنه يرفض حتى اليوم إجراء أي مقابلة صحفية معه، إذ إن ذلك بالنسبة إليه سيركّز على الجانب الشخصي من حياته، وهو الذي تطلع من خلال عمله الروائي إلى تغيير الذهنيات، ونمط التفكير المكرس منذ قرون في بلاده، لغرض الانطلاق نحو ما هو أفضل وأسمى وأكثر إنسانية، وما سوى ذلك فهو في تصوره من الأشياء التي لا جدوى منها.

ولد يانغ رونغ في يانغسو في العام 1946، وانتقل مع عائلته في العام 1957 إلى بكين حيث كان يعمل والده، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية التحق بأكاديمية الصين الوسطى للفنون الجميلة في العام 1966. اضطر إلى قطع دراسته بسبب الأحداث السياسية في الصين وأعمال الشغب، فتطوع الشاب البالغ من العمر 21 عاما في العام 1967 للعمل في سهوب منغوليا الداخلية، وبالتحديد ضمن لواء أوجيمشن الشرقي، حيث عاش وعمل مع السكان المحليين من البدو حتى بلغ الثالثة والثلاثين من عمره. كان قد أحضر معه في ذلك الوقت صندوقين يحتويان على كتب من الأعمال الكلاسيكية للثقافة الغربية المترجمة إلى اللغة الصينية، وأمضى 11 عاما منهمكا بدراسة مكثفة خاصة لتاريخ الشعب المنغولي، وتقاليده، وثقافته. تطور لديه تدريجيا انبهار بالميثولوجيا، وخاصة تلك التي تحيط بالذئاب المنتشرة في السهوب المنغولية، وكان يمضي الكثير من أوقات فراغه بالاستماع إلى القصص والأساطير المتوارثة هناك، والتي تدور بمعظمها حول الذئاب، وقد ربّى بالفعل جرو ذئب صغير كي يدرس عن قرب سلوكه، ويعرف سرّ تبجيل سكان سهوب منغوليا للذئاب والدروس التي كانوا قد استنبطوها منها في تاريخهم القديم الذي حققوا من خلاله الانتصارات، وهي محاولة فريدة من نوعها لمعرفة الأسرار عميقة الأغوار التي تكتنف تاريخ وحضارة العالم.

بعد عودته إلى بكين في العام 1978، انشغل يانغ رونغ بدراسة العلوم السياسية في الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، نال شهادة الماجستير في القانون عام 1982، وعمل أستاذا في جامعة بكين. حاليا هو متقاعد عن العمل، ويعيش مع زوجته في بكين.

حاول يانغ رونغ في روايته هذه أن يسبر أغوار الطبيعة البشرية، ويعطي تفسيرا للانتصارات والإخفاقات التي اكتنفت تاريخ الصين بشكل خاص، بل وتاريخ العالم أيضا. بالإمكان القول إنه أراد لروايته أن تكون دستورا للحياة من شأنه أن يسلّط الأضواء على حقيقة ذلك الصراع الأزلي الذي نشب منذ بداية الخليقة، حتى بين هابيل وقابيل كما يقول بعض المؤرخين، بسبب العلاقة المعقدة بين البشر من فلاحين وبدو، بسبب خلافاتهم حول ملكية

الأرض التي يعيشون عليها، فهؤلاء يريدون الأرض لزراعتها بالمحاصيل، وأولئك يريدوها لرعي مواشيهم، بالنظر إلى العشب الذي ينمو على سطحها بالدرجة الأولى، وهو صراع مستمر حتى الآن على المـوارد الطبيعية بين البشر، وخاصة حول المياه، ويبدو أن لا نهاية منظورة له. لقد استخلص المؤلف دروسا من حياة البداوة سجلها بين دفتي كتابه، شملت فنونا من المعارف والأفكار في مختلف جوانب المعرفة، وكان منذ البداية متعاطفا مع أولئك الناس في محاولاتهم للبقاء في بيئتهم القاسية التي كانوا، بالرغم من كل شيء، يحبونها ويحترمونها، ولا ينتهكون حرمتها مثلما يفعل أولئك الذين يدّعون أنهم متحضرون. كان الرمز الذي يبجّله سكان السهوب هو الذئب الحامي للطبيعة، وسيد الحكمة، وروح السهوب الوثّابة التي لا تقهر، وهم كانوا تلامذة للذئاب، تعلموا منها دروسا في الحياة وفي حب الطبيعة، والوقوف بحزم ضدّ من كان يريد لها الدمار من أجل منافع مؤقته غير مدروسة. أراد بطل الرواية أن يحلّ ذلك اللغز، وأن يتعمق في دراسة رمزهم ذاك في رغبة مخلصة لتقديم وصفة ناجعة لأمراض البشرية، فحاول أن يربي جرو ذئب ليكون صديقا له عندما يكبر، مقتفيا في ذلك أثر قصص، ربما كانت خرافية، عن أطفال البشر الذين ربتهم الذئاب، وهي قصص معروفة حتى في ثقافتنا العربية، على سبيل المثال كتاب **حي بن يقظان** لابن طفيل. ولكن هل نجح في مسعاه؟

في نهاية هذه الرواية، يحرق البطل الصفحة الأولى من كتابه الذي كان ثمرة بحثه الطويل عن الحل، يحرق اسمه وعنوان كتابه بعود البخور الذي أشعله لأرواح المدافعين عن السهوب. تُرى هل تقف الحضارة موقفا معاديا للطبيعة؟ إنه سؤال أزلي حاول يانغ رونغ أن يقدّم له جوابا، ولكن يبدو أنه، حتى بطل روايته نفسه، كان قد أسهم عن غير قصد في الإساءة إلى الطبيعة من خلال الطريقة القاسية التي اتبعها في دراستها، ولذلك تبقى عقدة الذنب تطارده حتى النهاية. ينبغي للحضارة ألاّ تؤدي إلى فقدان الشخصية العرقية للمجتمع أو ألا تقوده إلى التضحية بقدرته على التطور، كيف يمكن لمن يتسبب بالأذى لأمنا الأرض أن يعدّ متحضرا؟ حين انقرضت الذئاب من السهوب بسبب الحملات التي شنّها البشر لإبادتها، حلت محلها الفئران التي حفرت لها جحورا في كل مكان على الأرض، وزحفت الرمال الصفراء، وحلت محل العشب الأخضر...

أقدّم إلى القارئ العربي الكريم هذه الترجمة العربية لرواية مهمّة تُرجمت إلى لغات عديدة في مختلف أنحاء العالم، عسى أن أكون قد وفقت فيها، وألتمس منه العذر إذا وُجدت هناك أي إخفاقات، فقد بذلت ما في وسعي من جهد، مرتكزاً في ذلك على مثابرتي وصبري إزاء الصعوبات الجمة التي واجهتني خلال الترجمة، والتي لا تُخفى على كل من يعرف ظروف الحياة التي نعيشها في بلادنا، كل ذلك تحقق بعد الاتكال على الله تعالى. وينبغي لي التنويه إلى أنني قد اعتمدت، في كتابة قسم من هذه المقدمة، على معلومات مستقاة من مقال نُشر في جريدة

العــرب القطــرية، 6 مارس 2008، فلكاتب المقال شكري وتقديري. وأشكر كذلك **صديقي** المتــرجم والشاعر سهيل نجم لمساندته المستمرة وتشجيعه لي على ترجمة الرواية **وما قدكان له** دور مهـــم في إنجازها. ولا بد لي من ألاّ أنسى جهد الأستاذ الفاضل ماجد السامرائي في تدقيق مــسودة الترجمة، ومساعدته المفيدة كثيرا على صياغتها بشكلها النهائي الذي هي عليه... ومن الله تعالى التوفيق.

مصطفى ناصر

مقدمة الترجمة الإنكليزية

في العـــام 1969، استجاب أحد الشباب الصينيين المثقفين من مدينة بكين لدعوة الرئيس ماو لسكان المدن لأن يتوجهوا إلى أعالي الجبال وأعماق الأرياف، حيث انضم إلى الحملة مثله مـــثل مئات من الشباب المحبين للاستطلاع في رحلة شاقة طويلة إلى إحدى بقاع الصين النائية، والـــتي تتّسم بطابع *بدائي* أكثر من غيرها؛ تقع تلك المنطقة في القسم الشمالي من وسط منغوليا الداخلـــية. في الـــوقت الذي كان فيه أغلب الشباب، الذين بلغ عددهم آنذاك خمسة عشر إلى عشرين مليون شاب، ممن تركوا مدنهم وأبعدوا إلى الأرياف، يحلمون على الدوام بالرجوع إلى ديـــارهم، وكانوا قدر استطاعتهم يتحاشون إقامة علاقات صداقة قوية مع مضيفيهم الريفيين، فقـــد تعلـــم يانـــغ رونغ أشياء كثيرة من الرعاة الذين عاش وعمل معهم، وعقد صداقات مع الكـــثيرين منهم. لقد أمضى مؤلف هذه الرواية أكثر من عقد من الزمن يعمل راعيا على أرض أولونبولاغ التي تقع ضمن لواء أوجيمشن، وتسكنها أعداد قليلة من الناس الذين كانوا يعيشون في بقاع متباعدة عن بعضها، وهي المنطقة التي تدور فيها أحداث هذه الرواية، لقد درس المؤلف عن كثب طبيعة تلك الحياة بالغة القسوة التي يعيشها الناس هناك، إنه مكان تعتبر فيه الحياة شيئا غير قابل للتصور من حيث صعوبتها وقسوتها على من يتواجد هناك، من البشر والبهائم.

وبالـــرغم من ذلك الموقع النائي والبيئة القاسية، إلا أن منغوليا الداخلية لم تكن بمنأى عن الـــتأثيرات الخطيرة للثورة الثقافية (1966–1976) التي وصلت إليها، عندما كانت الأمة الصينية في ذلـــك الـــوقت، حسب تصورات الثورة، في حالة حرب، أرادت أن تقف صفا واحدا ضدّ الأعـــداء المحليين للدولة والأعداء العالميين لها، سواء أكانوا حقيقيين أم خياليين. كانت *الأشياء الأربعـــة القديمـــة* كما عرفت (الفكر، والثقافة، والعادات، والممارسات) تواجه هجوما عنيفا، وكانـــت تُستهدف بشدة، وقد اعتبرت من الناحية الإيديولوجية أشكالا *متخلفة* من المعتقدات الخرافية التي تعتقد بها المجتمعات الريفية المحافظة. عندما كانت أجنحة الحرس الأحمر تتأخر أحيانا في ملاحقـــة وتصفية الشخصيات المهمة من السياسيين، والعسكريين، والمثقفين، كانت تمضي وقـــتها في تعذيب المواطنين العاديين. كانت الأنظمة ذات الصبغة العسكرية في جوهرها تسعى جاهـــدة لتغـــيير النظام القبلي التقليدي، حيث أضحت المصطلحات العسكرية متداولة، وكان القـــادة من العسكريين، بغض النظر عن مستوى كفاءاتهم، يحتلون المناصب الرفيعة التي تسيطر على نشاطات الإنتاج في منغوليا. كان ذلك زمنا ثقيل الوطأة على الناس الذين تركّزت طبيعة حـــياتهم على احترام أساليب العيش التقليدية ومن ضمنها الخرافات التي توارثوها عن أسلافهم.

كانـــوا يشعرون بالفخر البالغ بالانتصارات العسكرية التي حققها أسلافهم - تلك الحشود من القـــبائل المنغولية بأعدادها الهائلة التي اجتاحت العالم في القرن الثاني عشر والثالث عشر - ولم يكن من السهل عليهم التأثر بإيديولوجيات الرئيس ماو وأتباعه، أولئك الذين لم يكن أسلافهم من الهان أندادا للمحاربين من الفرسان في جيوش جنكيزخان. يبدو أن السر الذي من شأنه أن يفـــسر النجاح المذهل الذي حققه جنكيزخان، ومَن خلفه مِن قادته، حسب الأساطير المنغولية المتوارثة، ومثلما اكتشف مؤلف الرواية بنفسه خلال السنوات التي أمضاها على أرض السهوب، يتمـــثل في الذئب، على أنه الحيوان المفترس الوحيد الذي كان قادرا على إلهام الناس للارتباط بالأرض، والذي استطاع أن يبقى ويزدهر كرمز للعنفوان لآلاف السنين.

لقـــد أسرت الذئاب خيال الناس في كل مكان، ولكن من النادر أن تكون قد نالت قدرا مـــن التبجـــيل مماثلا لذلك الذي أضفاه عليها أهل السهوب المنغولية. كان دورها الذي يبدو متناقـــضا في حياة الناس - المفترس والفريسة في وقت واحد، الذئاب التي كانت تلتهم المواشي (أنـــواع الحياة الصغيرة) والتي تحمي بيئة السهوب (الحياة الكبرى)، التي يخاف منها البشر وفي الـــوقت نفـــسه يبجلونها - هو المعادلة التي تشكل المحور الواقعي والرمزي لهذه الرواية الرائعة. الـــذئاب، تلـــك الحيوانات الشجاعة والضارية، والمخلصة لتشكيلة القطيع، والتي تحترم بيئتها، توصف هنا على اعتبار أنها الترياق الناجع لما يعاني منه المجتمع الصيني؛ وهو مجتمع يقارنه، بطل الـــرواية الـــشبيهة بالسيرة الذاتية، بالخراف التي كان يرعاها، والتي توجب عليه أن يحميها من الـــذئاب الـــتي كانت تثير انبهاره بذكائها، وبخططها البارعة في الخداع، والتي تكاد تتمتع بقدرة تتفوق بها على نواميس الطبيعة. هناك علاقة ذات طابع رمزي بين الرعاة والذئاب، والتي تشارك بدورها في نشاط بيئي دقيق ومتوازن لإبعاد شبح صحراء غوبـــي عن الغرب والصينيين من الجنوب، وتتصدى لانتهاكاتهما معا لحرمة الطبيعة. كانت رواية **رمز الذئب**، التي بيعت منها ملايين النسخ في الصين - سواء في الطبعات الشرعية أو طبعات القرصنة - قـــد بـــشّرت بمناقـــشات محتدمة بشأن *الشخصية* الصينية. إنها عمل يربط على نحو مليء بالتحدي بين وجدان الروائي الذي عاش بنفسه أحداث القصة التي يسردها من ناحية، وبين آرائه الفكرية في ما يتعلق بعرق إنسان دخيل على ذلك المجتمع، ومع ذلك فهو يتعاطف معه من ناحية أخرى.

في العـــام 1979، عـــندما كان المجتمع الصيني يحاول أن يخلّص نفسه من تأثيرات الثورة الثقافية، كان يانغ رونغ قد التحق بأكاديمية العلوم الاجتماعية كطالب جامعي. وفي العام 1988 ، أصـــبح أستاذا للعلوم السياسية في جامعة بكين، وحين بدأ بكتابة هذه الرواية كانت تسكنه هواجس قصة كانت تفاصيل حوادثها قد بقيت في ذاكرته طوال عشرين سنة؛ بعد ذلك بستة أعوام انتهى من كتابتها، وسرعان ما لاقت الرواية نجاحا منقطع النظير.

في أثـــناء تـــرجمة **رمــــز الـــذئب**، كنت قد حصلت على مساعدة من قبل العديد من الأشخاص. أولا وقبل كل شيء، من المؤلف وزوجته اللذين استجابا برحابة صدر وحماسة من خـــلال الإجابـــة عن استفساراتي المتعلقة بالنص وبالمسائل الثقافية كافة. وقد استعنت، لغرض معرفة معاني الكلمات التي هي في الأصل باللغة المنغولية بجيغشين، وهو طالب يدرس الإنكليزية في جامعـــة منغوليا الداخلية. أما في دار بنغوين، فقد حظيت كل من الرواية والمترجم بالمساعدة مـــن جو لوسبـــي في بكين وليزا دارنتون في نيويورك، وينبغي لي أن أذكر أيضا الجهود الرائعة التي بذلتها بينا كاملاني في التحرير. ولقد كان لتشجيع ساندي كيسترا دورٌ مهمٌ في ابتداء هذا المـــشروع. وأخيرا، أود التنويه بمساهمة سلفيا لين في قراءة الترجمة، وإبداء ملاحظاتها السديدة بشأنها. إلى كل هؤلاء أقدم الشكر من قلبـــي.

هوارد غولدبلات
2008

جمهورية الصين الشعبية

جمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية

منغوليا

أولان باتور

منغوليا الداخلية

إقليم يتمتع بحكم ذاتي

سهل منشوريا

هوهوت

بكين

كوريا الشمالية

كوريا الجنوبية

البحر الأصفر

بحر الصين الشرقي

بحر الصين الجنوبي

نيبال

بوتان

الشمال

0 ملم 250 500

0 كلم 500

1

حينما نظر شن زن عبر المنظار المقرب من مكانه الذي كان يختبئ فيه داخل مغارة الثلج، لمح النظرة المحدقة الثاقبة لأحد ذئاب السهوب المنغولية. انتصبت شعيرات جسده الدقيقة، وكأنها أشواك شيهم[1] حادة مما جعل قميصه يبتعد قليلا عن جلده. كان العجوز بلغي إلى جانبه هناك. في هـــذه المرة لم يشعر شن زن كما لو أن روحه كانت تتسلل منفلتة من جسده، لكن العرق رشـــح مـــن مسامات جلده. لقد عاش سنتين في السهوب؛ لكن خوفه من الذئاب المنغولية لم يتبدّد، خاصة عندما تكون قطعانا. أما وقد أصبح وجها لوجه مع قطيع كبير منها وسط الجبال، بعـــيدا عـــن المخـــيم، فقد صار سديم أنفاسه يتلاحق ويرتعش في الهواء. لم يكن هو ولا بلغي مـــسلحين؛ ليس معهما بنادق، ولا سكاكين، ولا أنشوطات صيد، ولا حتى شيء بسيط مثل زوج مـــن الـــركاب المعدنية. كل ما كان معهما عصوان يسوقان بهما القطيع، وإذا التقطت الذئاب رائحتهما، سيحين أوان دفنهما باكرا على نحو غير متوقع.

زفـــر شـــن بعصبية، وهو يستدير لينظر إلى الرجل العجوز، الذي كان يراقب حركة الذئب المطوقة عبر المنظار الآخر. "تحتاج إلى شجاعة أكبر من ذلك"، قال بلغي بهدوء. "تبدو مثل الخروف. هـــناك خوف من الذئاب يسري عميقا في عظامك الصينية. ذلك هو التفسير الوحيد للسبب الذي جعـــل شعبكم لا ينتصر أبدا في أي نـــزال حدث هنا". عندما لم يتلقَّ الرجل العجوز أي جواب، انحنى قليلا وهمس "تمالك نفسك. إذا اكتشفت الذئاب أي حركة لنا، فسنكون في مأزق حقيقي". أومأ شن برأسه، واغترف حفنة من الثلج، حيث ضغطها بين يديه حتّى صارت كروية الشكل.

كـــان قطـــيع الغزلان المنغولية يرعى على منحدر قريب، غير منتبه إلى حشد الذئاب التي كانـــت تعمـــل على تضييق نطاق الأنشوطة، مقتربة أكثر فأكثر من مغارة الثلج التي يقبع فيها الرجلان. لم يجرؤ شن على أن يتحرك، تجمد في مكانه، شعر بأنه تمثال من الجليد. هذه كانت المواجهة الثانية لشن مع قطيع من الذئاب منذ مجيئه إلى السهوب. تدفق سيل من مشاعر الخوف في عروقه جعله يرتجف من ذكرى مواجهته الأولى.

قـــبل ذلـــك بسنتين، في أواخر تشرين الثاني، كان قد وصل إلى مراعي الإقليم الحدودي عـــضوا في فـــريق للإنتاج أتى من بكين؛ كانت الثلوج تغطي سطح الأرض إلى مسافة بعيدة

(1) الشيهم أو النيص: حيوان شائك من القوارض. (المترجم)

بامتداد ما يمكن أن يصل إليه مرمى البصر. تقع أولونبولاغ جنوب غرب سلسلة جبال كزنغان العظمى، إلى الشمال مباشرة من بكين؛ إنها تتاخم منغوليا الخارجية في حدودها. أما من الناحية التاريخية فهي تمثل الممر الجنوبي بين منشوريا والسهول المنغولية، وهكذا فقد غدت مسرحا لمعارك طاحنة نشبت بين مختلف الشعوب والقبائل البدوية، فضلا عن كونها مقاطعة، فقد كانت الصدامات فيها من أجل فرض الهيمنة على الأرض بين البدو والفلاحين مشهدا حاضرا على الدوام.

لم تكن خيم اليورتة[1] قد خُصّصت بعد لإيواء الطلاب الذين أتوا من بكين، أو من كانوا يُعرفون بالشباب المتعلّمين، لذلك أُرسل شن ليعيش مع العجوز بلغي وعائلته، وكُلف بأداء واجبات راعٍ للخراف. ذات يوم، وبعد أن مضى أكثر من شهر تقريبا على وصوله، كُلف بالذهاب برفقة الرجل العجوز إلى مقرّ القيادة، على بعد ثمانين لي[2] تقريبا، لجلب موادّ دراسية، وشراء مستلزمات المعيشة اليومية. قبل عودتهما تماما، استُدعي الرجل العجوز لحضور اجتماع تعقده اللجنة الثورية. ولأن مقر القيادة أوصى بضرورة تسليم المواد الدراسية من دون أي تأخير، فقد طلبوا من شن أن يعود وحيداً.

عندما أوشك على المغادرة، قام الرجل العجوز بمبادلة حصانيهما، فأعطاه حصانه الضخم، الأدهم، وهو حصان سريع يعرف الطريق جيدا. أوصى بلغي شن محذرا إيّاه بألاّ يسلك دربا مختصرا لأن هناك مخيمات تنتشر كل عشرين أو ثلاثين لي، بل عليه أن يتبع الطريق الذي تسلكه العربات خلال عودته؛ فمن المحتم أن يتمكن من إنهاء الرحلة من دون وقوع حادث يذكر.

حالما اعتلى السرج، وبدأ يشق طريقه، أدرك شن مدى قوة حصانه المنغولي، فوخزه لينطلق ويعدو بأقصى سرعة. عندما وصل إلى مرتفع شاهق استطاع أن يشاهد قمة جبل شاغانول، حيث يقع مقر فرقة الإنتاج، نسي تحذير الرجل العجوز له، وترك الطريق المحدد - الذي يلتف حول الجبل مضيفا مسافة عشرين لي للرحلة - كي يسلك دربا مختصرا يؤدي مباشرة إلى المخيم.

بدأت درجة الحرارة بالانخفاض، وحينما أصبح على بعد حوالى نصف المسافة من المخيم، خفّ ضوء الشمس وبهت، وكأنما الشمس ترتعش من البرودة المتوغلة في أعماقها قبل أن تجرجر أذيالها وتتوارى وراء الأفق مختفية عن الأنظار. شعر شن بهواء الأرض المثلجة القارس، إذ تصلّب مئزره الجلدي وجعله قابلاً للتكسر بسهولة، وتغطى جلد حصانه بطبقة رقيقة من الصقيع. تباطأت خطوات الحصان مع تكاثف الثلوج، وبرزت تلال ثلجية صغيرة في الدرب. كان في مكان قصيّ من أعماق البراري، بعيدا عن أي أثر للسكنى. استمر الحصان يعدو وئيدا، على نحو

(1) اليورتة: خيمة جلدية أو لبادية دائرية الشكل من خيم بدو سيبيريا المنغوليين.

(2) لي: حوالى ثلث ميل أميركي.

متواصل وهادئ، لذلك أرخى شن يديه المشدودتين على سير العنان، ليتيح للحصان مجالا كي يحدّد مواضع الخطى والاتجاه، بالإضافة إلى مدى الجهد الذي يريد أن يبذله في المسير. ولسبب غير واضح، اعترى شن التوتر فجأة؛ ارتجفت أوصاله، توجّس خيفة من أن يُضلّ الحصان طريقه، وخشي أن تسوء حالة الجو أكثر، وأن تداهمه عاصفة ثلجية، ويتجمد حتى الموت على السهوب الجليدية. الشيء الوحيد الذي نسي الخوف منه هو الذئاب.

قبل أن يصل إلى وادٍ سحيق شديد الانحدار بوقت قصير، توقف الحصان وهو يومئ برأسه باتجاه بقعة محدّدة في أسفل الوادي. رفع الحصان رأسه بحركة مباغتة، وأصدر صوتا كالشخير، لم تعد خطواته مستقرة كالسابق. لم تكن لدى شن زن، الذي لم يسبق له أن توغل وحيداً في أعماق السهوب التي تكللها الثلوج، أي فكرة ولو بسيطة عن الخطر الذي يُحدق به. لكن الحصان الهائج، وقد اتسع منخراه، وجحظت عيناه، استدار ليتجه بعيدا عما كان يكمن أمامهما. أخفق شن في استيعاب غريزة الحصان، فأخذ يشد سير العنان ليحول رأس الحيوان، ويبقيه يعدو خببا[1] إلى الأمام. أضحت خطوات الحصان أكثر تشنجا، ومزيجا شاذا من الخطى، وعدوا خفيفا، وحركة مضطربة كما لو أنه أوشك أن ينفلت هاربا في أي لحظة. عاد شن يشد سير العنان بإصرار.

كما لو أن الحصان قد أصيب بالإحباط لعدم الالتفات لإشاراته التحذيرية، أدار رأسه، وصار يعضّ على حذاء اللباد الذي كان ينتعله راكبه، في تلك اللحظة بالذات تنبّه شن إلى الخطر المحدق به من خلال الخوف الذي ارتسم في عيني الحصان. لكن الوقت أصبح متأخرا جدا، لأن الحصان حمله على قوائم مرتعشة إلى هوة عميقة متموجة في انحدارها تؤدي إلى وادٍ مظلم.

نظر شن إلى أسفل الوادي، وداهمه الرعب بحيث كاد يسقط عن صهوة الحصان. هناك على منحدر مغطى بالثلج على بعد لا يتجاوز الخمسين ياردة رأى قطيعا من الذئاب المنغولية ذات لون ذهبي يوحي مظهرها بالشراسة والاستعداد التام للفتك، كانت تراقبه بصورة مباشرة أو بأطراف عيونها، وحفرت نظراتها الحادة أخدودا في أعماقه مثلما تفعل الإبر. كانت الذئاب الأقرب هي الأضخم، من السهل مضاهاتها بحجم النمور، وبأقل تقدير هي بضعف حجم الذئاب التي كان قد رآها في حديقة حيوان بكين، وتفوقها أيضا في ارتفاعها وطولها بمقدار النصف، من الخطم إلى الذنب. جثم اثنا عشر ذئبا ضخما أو نحو ذلك على الأرض الثلجية، لكنها نهضت على الفور، وقد انتصبت ذيولها، وكأنها سيوف توشك أن تُستل من أغمادها، أو سهام مشدودة على أوتار أقواسها. اتخذت وضع التأهب للانقضاض. كان الذكر الأكبر لقطيع الذئاب، الذي أحاطت به الذئاب الأخرى، ذئبا رمادي اللون بينما اكتست رقبته،

---

(1) الخبب: ضرب من عدو الفرس ينقل فيه قوائمه اليمنى واليسرى معا تقريبا. (المترجم)

وصــــدره، وبطـــنه ببياض يكاد يرسل بريقا لامعا كأنه ذهب موشّى بلون أبيض. كان القطيع يتألف من ثلاثين أو أربعين ذئباً.

في وقـــت لاحـــق، عندما استرجع شن وبلغي ملابسات تلك المواجهة مع الذئاب، فرك الـــرجل العجـــوز حاجبه، الذي تصبب منه العرق، بأصابعه وقال: "لا بد من أنها كانت تعقد جلـــسة للتـــشاور. من المحتمل أن الذكر الأكبر للذئاب كان يوزع المهام استعدادا لهجوم على قطيع من الأحصنة في الجانب الآخر من التل. كنت ستدرك مدى حسن حظك لو كنت تعلم أن لمعان جلودها يعني أنها ليست جائعة".

في الحقيقة، كان ذهن شن عاجزا تماما عن التفكير في أي شيء عندما اكتشف موضعها، والـــشيء الأخير الذي تذكره هو صوت مكتوم لكنه مثير للرعب ارتفع إلى قمة رأسه، لم يكن يختلف كثيرا عن الصفير الخفيف الذي يسمعه المرء نتيجة النفخ على حافة قطعة نقد معدنية. لا بـــد مـــن أن ذلك كان الأزيز الذي أصدرته روحه وهي تشق طريقها عبر جمجمته متجهة إلى خارج جسده. شعر بأن حياته قد توقفت للحظة أو أكثر من ذلك.

بعـــد ذلك بزمن، كلما تذكر مواجهته تلك مع قطيع الذئاب، كان يشكر في سره بلغي وحـــصانه الأدهم. السبب الوحيد الذي كان وراء عدم سقوطه هو أن الحصان كان قد أمضى حـــياته كلـــها في مقاطعة تعج بالذئاب، فقد كان حصاناً مجرباً في المعارك يصلح بصورة مثالية للـــصيد. في اللحظة الحرجة، وفيما كانت حياتاهما تتأرجحان على كفة ميزان، ازداد الحصان هدوءا بشكل غير طبيعي. تصرف كما لو أنه لم يشاهد على الإطلاق قطيع الذئاب، أو أن لديه أي نـــية لأن يقطـــع علـــيهم اجتماعهم، تابع السير بخطى وئيدة، غير مبالٍ ليس إلاّ. مع كل الـــشجاعة التي كان الحصان يمتلكها، وسيطرته التامة على حركة حوافره، لم يسعَ للإقدام على خطوة مفاجئة سريعة، لم يُقحم نفسه في حركة هروب يشوبها الفزع، لكنه حمل راكبه بخطوات راسخة، أتاحت لشن الثبات في جلسته من جديد.

ربما كانت شجاعة الحصان الفريدة من نوعها هي التي ساهمت في استرداد روح شن التي أوشـــكت علـــى الرحيل، لكن حينما عادت تلك الروح إلى جسده، بعد أن ظلت ترفرف في الهواء القارس للحظة، شعر أنه قد وُلد من جديد، وهدأت أعصابه بشكل رائع.

أجـــبر نفسه على الجلوس بثبات على السرج. وعندما كان منهمكا بتلقي توجيهاته من الحصان، تظاهر بأنه لا يرى قطيع الذئاب، بالرغم من أنه أبقاها ضمن مجال رؤيته متجاهلا الهلع الذي استبدّ به. كان يعرف كل شيء عن مدى سرعة الذئاب على السهوب المنغولية. لم يكن الأمر يتطلب إلاّ ثوانيَ معدودة لأن تطوّقه من كل جانب، وتغلق كل ثغرة تتيح له الهروب منها. أدرك كم من المهمّ ألاّ تبدو عليه أي علامات للخوف. تلك هي الطريقة الوحيدة لتلافي هجوم تشنه قتلة السهوب هذه.

شعر بأن الذكر الأكبر لقطيع الذئاب كان يحدّق إليهما هناك من أعلى تلٍّ خلف الذئاب؛ وقد استدارت جميع ذئاب القطيع بآذانها المستدقة في الاتجاه ذاته، وكأنها رادار يقفل على هدف محدد. انتظرت الذئاب الأوامر بصمت، فيما انسل الرجل الأعزل وحصانه برباطة جأش مارين بها؛ لم يكن الذكر الأكبر للقطيع وأتباعه من الذئاب على بينة من أمرها بشأن ما يمكن أن تفعله إزاء هذا.

بهتت ألوان الغروب ببطء حتى كاد الضوء يتلاشى فيما اقترب الرجل والحصان من الذئاب أكثر. شكّلت الخطوات القليلة اللاحقة من تلك المسافة القصيرة أطول رحلة في حياة شن زن. بعد بضع خطوات من تلك الرحلة، شعر بأن أحد الذئاب انطلق يجري إلى أعلى المنحدر المغطى بالثلج من خلفه، وأدرك فطريا أنه مستكشف أرسله الذكر الأكبر لقطيع الذئاب ليرى ما إذا كان هناك أشخاص آخرون يقبعون منتظرين في مكان قريب. شعر شن بأن روحه تكاد تترشح من جسده لترحل عنه مجددا.

اضطرب الحصان في مشيته قليلا؛ كانت ساقا شن ترتعشان مع اهتزاز خاصرة الحصان. وجّه الحصان أذنيه إلى الوراء، مصغيا بعصبية إلى حركات ذئب الاستكشاف. تخيل شن نفسه يمرّ من خلال فم ذئب هائل الحجم، تنتشر على جانبيه صفوف من الأسنان الحادة كالشفرة من الأعلى ومن الأسفل؛ وحالما يصبح في الوسط، سينطبق عليه الفم بشدة. بدأ الحصان يركّز قوته في قائمتيه الخلفيتين، مستعدا لخوض غمار اشتباك قاتل. لكن الحمل الذي تنوء به صهوته جعله في وضع شاق لا يحسد عليه.

على حين غرة، وجد شن زن نفسه يبتهل، مثلما يفترض بأي راعي خراف مثله، إلى تينغر الذي يبتهل إليه المنغوليين، في لحظة مشحونة بالهلع: "أيها المقتدر تينغر، لتكن قريبا مني، وتمدّ لي يدك". بعد ذلك استجمع في ذهنه ملامح صورة بابا بلغي وسط أنفاسه اللاهثة. في اللغة المنغولية كانت كلمة *بلغي* تعني (الإنسان الحكيم). وتمنى لو تمكن الرجل العجوز فقط من إيجاد سبيل لأن يرسل خبرته بالسهوب بحيث تصل مباشرة إلى دماغه. ليس ثمة ضوضاء في أي مكان من شأنها أن تعكّر صفو الأثير في أولونبولاغ. نظر شن إلى الأعلى نحو السماء وقد استحوذ عليه اليأس، أراد أن يكون آخر شيء تقع عليه عيناه هو جمال السماء الزرقاء الذي اختلط لونها بلون الجليد.

بعد ذلك كأنما هبط من السماء لفظ كان قد تفوه به بابا، ووقع على طبلة أذنه كالصاعقة: "الذئاب تخاف البنادق، وأعمدة الأنشوطات، وأي شيء مصنوع من المعدن". لم تكن لديه بندقية ولا عمود أنشوطة، ولكن هل لديه شيء مصنوع من المعدن؟ شعر بدفء يسري في قدميه. نعم! تحت قدميه زوج من الركاب المعدنية الكبيرة. ارتعشت ساقاه بانفعال.

كان بابا بلغي قد أعاره حصانه، لكن السرج لشن، وليس من المستغرب أن يكون الرجل العجوز قد اختار له أكبر ما في وسعه الحصول عليه من الركاب منذ البداية: كما لو أنه أدرك

أنها ذات يوم ستنقذ حياة شن. في ذلك الوقت، عندما كان يتعلم ركوب الحصان، قال له الرجل العجوز إن الركاب الصغيرة لا تجعل البقاء على السرج صعبا فقط، ولكن إذا طرحك الحصان أرضا، ربما تعلق قدمك بالركاب، ويجرك الحصان معه، مما قد يتسبب لك بجروح خطيرة أو حتى بالموت. إن هذه الركاب، بفتحاتها العريضة وقعرها المستدير، يصل حجمها إلى ضعف حجم مثيلاتها الأكثر انتشارا ذات الفتحات الصغيرة، والقعر المسطح، وهي ضعف وزنها أيضا.

كان قطيع الذئاب ينتظر تقرير ذئب الاستكشاف؛ صار الحصان والراكب قبالتها تماما. انتزع شن قدميه بسرعة من فتحتيّ الركاب، مدّ يديه، وسحبهما من أشرطتهما الجلدية، فيما كان يمسك واحدا من الركاب بكل يد، وفيما استجمع كل ما أوتي به من قوة، التف بالحصان مسرعا حول نفسه، فأطلق الحصان صهيلا هادرا، وتحرك باتجاه قطيع الذئاب، رفع شن زوج الركاب الثقيل إلى مستوى الصدر، وضرب أحدهما بالآخر.

رن رن...

رنين حاد يصم الآذان، مثل وقع مطرقة على سندان، اخترق سكون الهواء الجاثم على السهوب، وشقّ طريقه مباشرة إلى أذني ومربض كل ذئب جسور في القطيع، وكأنه السيف الصارم. تُسبب الفوضى غير الطبيعية، التي تصدر بغتة عن طرق المعادن ببعضها بعضا، الخوف لدى الذئاب أكثر من أي عاصفة رعدية؛ إنها تطلق صوتا له الأثر الأقوى والأشد تدميرا عليها من فرقعة فخ الصياد.

ارتجفت الذئاب عندما ترددت أولى الرنات الصاخبة من ركاب شن في الهواء. جعلتها الرنّات العنيفة التي تفجّرت لاحقا تدور حول نفسها وتهيم بعيدا؛ فرت بقيادة ذئبها الأكبر نحو الجبال كأنها عاصفة صفراء، فيما نتأت آذانها كالأوتاد على جنبات رؤوسها، وكادت أعناقها أن تقتلع من أكتافها. حتى ذئب الاستكشاف، ترك مهمته، ولحق بأفراد القطيع الآخرين الذين لاذوا بالفرار.

بالكاد استطاع شن زن أن يصدق عينيه وهو يراقب الذئاب التي أفزعها زوج من الركاب المعدنية. عندما استجمع شجاعته لاحقا، ضرب زوج الركاب ببعضهما بعضا بشدة، ثم أدار ذراعيه بحركة تشبه دوران طاحونة هوائية مثلما يفعل الرعاة عادة وصاح: "أسرعوا! أسرعوا! ذئاب في كل مكان!".

ذلك لأن من ضمن الأشياء التي كان يعرفها أن الذئاب تفهم اللغة المنغولية، وتدرك مغزى الإشارات التي تصدر عنهم؛ ربما تتفرق مرعوبة بسبب ما تفترض أنه فخ نصبه الصيادون.

لكنها تفرقت بسياق منتظم، محافظة على وحدة التنظيم الراسخة في القدم، وتشكيل المجموعة الذي هو من الخصائص المميزة لذئاب السهوب: فالأفراد الأشد ضراوة فيها يكونون

في الطلـــيعة، والذكر الأكبر للقطيع يبقى متقدما عليها، فيما تتجمع الذئاب الأضخم في القطيع خلفه. ليس هناك من أثر، مطلقا، لأي علامات تدل على الارتباك، والتي تُرى عادة عند الطيور حين تهرب فزعة أو عند حيوانات البراري. كان شن حقا منبهرا ومفتونا بالمشهد الذي رآه.

توارى قطيع الذئاب عن الأنظار في لحظة من دون أن يترك وراءه أثرا يذكر، كل ما تبقى في الوادي غمامة بيضاء اللون وندفٌ مدومة من الثلوج.

في غـــضون ذلـــك كـــان الليل قد أرخى سدوله. وقبل أن يتمكن شن من وضع قدميه بالكامـــل في فـــتحتي الركاب من جديد، اندفع حصانه يعدو كأنه طلقة نارية، مسرع الخطى صـــوب أقـــرب مخيم. تسلل الهواء البارد إلى باطن ياقة شن وضبط كميه؛ وتحول العرق البارد الذي غطى جسمه إلى جليد.

بعـــد أن نجـــا من حوصلة الذئب، وجد نفسه يهتدي فوراً إلى سبل التقوى والولاء التي تُكـــرّس لتينغر، تماما مثلما يفعل مضيفوه المنغوليون. كذلك فقد أبدى موقفا مشوبا بشيء من الغمـــوض والتعقـــيد إزاء مشاعر الوجل، والإجلال، والافتتان بالذئب المنغولي. لقد حرك كل ذلـــك وجدانه ولامس روحه. ترى كيف يمكن للذئب أن يحوز على مثل هذا السحر المشوب بالاقتدار؟

لم يلمـــح شن قطيع ذئاب آخر في السنتين التاليتين. خلال النهار كان يرعى خرافه، وبين الفيـــنة والأخـــرى كان يقع نظره على ذئب وحيد، وربما ذئبين، بعيدا عنه بمسافة. حتى عندما يخرج بعيدا عن المخيم، لم يشاهد أبدا أكثر من أربعة أو خمسة منها في وقت واحد. لكنه كثيرا مـــا صادف بقايا أشلاء خراف أو ماشية أو أحصنة فتكت بها الذئاب، سواء أكانت منفردة أو قطعانـــا. ربمـــا عثر هناك على خروف ميت أو خروفين، بقرة أو ثلاث بقرات، وربما ثلاثة أو أربعـــة أحـــصنة؛ لكن في بعض الأحيان كانت الجثث تتناثر على مساحة واسعة من الأرض. وعندما كان يذهب لزيارة بعض الأشخاص، كان يرى على الدوام جلود ذئاب مسلوخة معلقة على أعمدة طويلة، كأنها رايات ترفرف في مهب الريح.

* * *

في ذلك الوقت كان بلغي يستلقي باسترخاء في مغارة الثلج من دون أن تتحرك أي عضلة في جـــسده، وتسمّرت عيناه على الغزلان التي كانت ترعى عند المنحدر، وعلى قطيع الذئاب الـــذي كان يزحف خلسة مقتربا أكثر فأكثر. "حافظ على الهدوء"، همس إلى شن. "أول شيء تحتاج إلى تعلمه كي تصبح صيادا هو أن تتحلى بالصبر".

حـــين يكون بلغي إلى جانبه فذلك شيء يبعث بالارتياح في نفسه. فرك شن عينيه لإبعاد الغـــشاوة عـــنهما، ونظر بهدوء بعينين ما زالتا تطرفان إلى بلغي، بعدها رفع منظاره من جديد ليراقب الغزلان والذئاب. لم يكن قطيع الذئاب قد كشف عن نفسه بعد.

منذ مواجهته المبكرة مع الذئاب، صار يفهم أن سكان السهوب من البدو لم يكونوا أبدا بمنأى عن مداهمة الذئاب التي تحيط بهم من كل جانب. في كل ليلة تقريبا كان يكتشف وجود شبح لأحد الذئاب، وخاصة خلال الشتاء القارس؛ كان يلمح زوجين أو ثلاثة، ربما خمسة أو ستة، وقد تصل إلى دزينة من الأضواء الخضراء المزدوجة البراقة تتحرك حول المنطقة المحيطة بالمراعي، على بعد يصل إلى مئة لي أو أكثر. ذات ليلة أحصى هو وزوجة ابن بلغي التي كان اسمها غاسماي، وبوساطة المصابيح الكاشفة، خمسة وعشرين زوجا منها.

مثل مقاتلي حرب العصابات، يكافح البدو من أجل الاستمرار بمزاولة نمط حياتهم البسيطة. خلال الشتاء، تتخذ حظائر الخراف شكل أنصاف دوائر تحيط بها العربات والأسيجة القابلة للتحريك، مع أغطية كبيرة من قطع اللباد تفيد كمصدات للريح لكنها لا تقوى على منع الذئاب. تحرس الفتحات الواسعة من جهة الجنوب قطعان من الكلاب، بالإضافة إلى النساء في نوبات مراقبة. من حين إلى آخر، تخترق الذئاب الحظائر، وينشب قتال بينها وبين الكلاب. غالبا ما كانت الأجساد ترتطم على جدران الخيم فيصدر عنها صوت مكتوم، يوقظ النائمين في الطرف الآخر؛ حدث ذلك مرتين لشن زن، وما منع الذئب من أن يستقر على الفراش بجانبه هو ذلك الجدار. غالبا ما لا يفصل البدو عن الذئاب شيء أكثر من بعض قطع لباد الحظائر.

في الليل، عندما تخرج الذئاب للصيد، كان شن ينام نوما خفيفا. لقد أخبر غاسماي أن تستدعيه إذا ما اقتحم أحد الذئاب الحظيرة حين تتولى واجب الحراسة ليلا، وأكد لها أنه سيساعدها على طرد الحيوان، سيقاتله ممسكا به من الرأس إذا تطلب الأمر ذلك. كان بلغي حينها يسوّي لحيته الصغيرة والخفيفة إنما المشذبة، يبتسم، ويقول إنه لم يشاهد مطلقا رجلا صينيا يهتم بالذئاب إلى هذا الحدّ. بدا أنه كان يعبّر عن سروره إزاء الاهتمام غير العادي الذي أبداه الطالب القادم من بكين.

في وقت متأخر من إحدى الليالي المثلجة، وخلال الشتاء الأوّل الذي يمضيه هناك، شهد شن، على ضوء مصباح كاشف حمله بيده، وقائع معركة دارت رحاها بين ذئب وكلب وامرأة في مكان قريب.

– شنشين! شنشين!

استيقظ شن على صيحات غاسماي المرتعبة ونباح كلاب مسعورة. بعد أن انتعل حذاءه طويل الساق المصنوع من اللباد، وزرّر رداءه المنغولي، ولف جسده بمئزره الجلدي، اندفع يجري إلى خارج الخيمة على ساقين مرتعشتين، ممسكا المصباح الكاشف وعصا الرعي بيديه. تكسر شعاع الضوء على الثلوج ليكشف عن غاسماي وهي تتشبث بذيل أحد الذئاب، كانت تحاول إبعاده عن الخراف المتراصة قرب بعضها. حاول الذئب عبثا أن يستدير بجسده ليوجه أنيابه نحوها. في هذه الأثناء تجمعت الخراف البلهاء السمينة مع بعضها بعضا، وقد شلّت حركتها

خوفا من الذئب، وكادت تتجمد مع هبوب الريح، وبقيت تتراجع إزاء السياج الواقي، كانت متراصة بحيث تحولت الكتل الثلجية التي بين أجسادها إلى بخار. كان النصف الأمامي من الذئب مشلول الحركة؛ لم يكن في وسعه إلا أن ينبش الأرض ببراثنه، وينهش الخروف الذي أمامه، وفي الوقت نفسه كان قد اشتبك بصراع عنيف مع غاسماي. أسرع شن وهو يترنح محاولا تقديم المساعدة لكنه لم يعرف ما الذي يمكن أن يفعله. كان كلبا غاسماي محاصرين وسط الخراف المحتشدة. بما أنهما لم يقدرا على الوصول إلى الذئب الضخم، فقد لجأا إلى نباح وحشي عقيم. في الوقت ذاته، كانت كلاب الصيد الخمسة أو الستة التي يمتلكها بلغي، إلى جانب كلاب المناطق المجاورة، تقاتل ذئابا أخرى في الجهة الشرقية من الحظيرة. هزت أصوات النباح، وعواء الكلاب المحتضرة الأفق. أراد شن تقديم العون إلى غاسماي، لكن ساقيه كانتا مرنتين لدرجة أنه بالكاد استطاع تحريكهما. تبددت رغبته في أن يلمس ذئبا ما زال على قيد الحياة، حل محلها خوف يبعث على الشلل.

صرخت غاسماي بلهفة، "ابقَ في مكانك! لا تقترب منا! ستنهشك الذئاب. اجعل الخراف تتحرك! دع الكلاب تأتي!".

كانت غاسماي تسحب جاهدة الذئب من ذيله، وتكاد تسقط إلى الوراء، تصبّب جبينها عرقا. تسبب تشبّثها بذيل الذئب بكثير من الألم له بحيث اضطر إلى أن يزدرد الهواء البارد عبر فمه الذي تغطيه الدماء. بعد أن شعر باليأس من الاستدارة وتمزيق معذبته ببراثنه، وعندما رأى أنه من غير المتاح له الاندفاع إلى الأمام، تراجع الذئب على حين غرة، التفّ حول نفسه، وواجه غاسماي، وقد كشر عن أنيابه. تمزق النصف الأسفل من ردائها الفروي محدثا في أثناء تمزقه صوتا عاليا. ومض في عينيها المنغوليتين بريق كأنما هو صادر من عيني نمر، وأصرت على عدم التخلي عن الذيل. وثبت إلى الوراء وهي تجذب الحيوان بعنف أكبر، وبدأت تسحبه معها باتجاه الكلاب.

رفع شن مصباحه الكاشف، وقد باغتته نوبة ذعر، صوّبه إلى غاسماي والذئب ليساعدها على الرؤية بشكل أفضل، وتفادي التعرض للنهش؛ بعدها خبط عصا الرعي التي يحملها على رأس الخروف القريب منه. أدى ذلك إلى إثارة الفوضى في قطيع الخراف. كافحت الخراف، وقد أفزعها الذئب في حلكة الظلام كي تتجمع قبالة الضوء الذي سطع مخترقا صفوفها؛ كان شن قد فشل في أن يجعلها تتحرك. الأسوأ من ذلك أنه شاهد أن غاسماي كانت على وشك أن تخسر نزالها العنيف مع الذئب الذي استمر يدفعها إلى الأمام.

- "أمي! أمي!" مزقت صرخات الطفل الخائف سكون الليل.

اندفع ابن غاسماي الذي يبلغ التاسعة من عمره، ويدعى بايار، خارجا من الخيمة. في اللحظة التي رأى فيها ما كان يحدث، تغيرت نبرة صرخاته. ركض مباشرة إلى أمه، وكما لو أنه كان يعتلي حصانا خشبيا قفز فوق الخروف، وهبط قريبا منها، حيث اختطف منها ذيل الذئب.

- "أمسك قائمته!" صاحت.

تــرك بايار الذيل، وأمسك بإحدى قائمتي الذئب الخلفيتين، وجذبها إلى الخلف مخففا من زخــم اندفاعــه إلى الأمـــام إلى أن استطاع كلاهما إيقافه تماما. تشبثت الأم والابن بشراسة بمكانـــيهما، حرصا على ألاّ يتمكن الذئب الضخم الذي يمسكان به من إخراج أي خروف من وقاء الريح الذي تشكله قطع اللباد.

في ذلـــك الوقت، وصل بلغي إلى قطيع الخراف، أزاحها عن طريقه وهو يستدعي كلبه: "بـــار! بار!" (وتعني كلمة *بار* في اللغة المنغولية النمر)؛ كان كلب بلغي من أكثر كلاب صيد الـــذئاب ضـــخامة وأشدها ضراوة في المخيم. لم يكن طوله من الفم إلى الذيل يماثل طول أحد الذئاب الكبيرة، لكن صدره أكثر ضخامة وعرضا منها، وذلك بفضل أصله الذي يرجع جزئيا إلى التيبت. لدى الصيحة الأولى باسمه، انسحب من المعركة التي كانت تدور رحاها في الخارج، واندفع مسرعا إلى جانب سيده، حيث توقف وقد تضرج فمه بدم الذئاب. انتزع بلغي المصباح الكاشـــف من يد شن زن، وسلّط ضوءه على الذئب، الذي كان لا يزال منحشرا وسط قطيع الخـــراف. ارتدّ بار زاحفا بمحاذاة ظهور الخراف، عابرا فوق الرؤوس طوال الطريق، متدحرجا ومتسلقا كي يبدأ هجومه على الذئب.

- "ادفـــع الخـــراف باتجـــاه الذئب"، صاح بلغي. "سنحبسه في الحظيرة لئلا يتمكن من الفرار!". أمسك بيد شن زن، وقادا الخراف معا باتجاه الذئب وغاسماي.

أخيرا، صار بار، وقد تلاحقت أنفاسه المنهكة وتفجرت الدماء من أنفه، يقف بجانب غاسماي، لكـــن الذئب بقي محاصرا بشدة وسط الخراف. كان يجري تدريب كلاب الصيد المنغولية على عدم عضّ الذئاب في الظهر أو في أجزاء أخرى من الجذع، وذلك لغرض المحافظة على جلد الحيوان. لقد جن جنون بار من أجل أن يعثر على بقعة ينشب فيها أسنانه. بعد أن رأت غاسماي أن بار كان قريبا مـــنها، اســـتدارت جانبيا، رفعت إحدى ساقيها، وأمسكت ذيل الذئب بيديها معا، ثم وضعته على ســـاقها. بعدها طقطقت الذيل على ركبتها وهي تطلق صرخة مدوية. أرخى الذئب براثنه المتشبثة بـــالأرض الموحلة، وأطلق عواء ينم عن الشعور بالعذاب والألم، مما أتاح للأم وابنها أن يدفعاه بعيدا عن الخراف. استدار الحيوان الضخم، وقد تشنج جسده من الألم، لينظر إلى ذيله الجريح، مما منح بار فرصة للوصول إلى حنجرته. ترك بار الذئب يخدش ببراثنه كما يشاء، وداس بقائمتيه الأماميتين على رأس الحـــيوان وصدره، وفيما كان الذئب مستمرا في النهش، انبجس تياران من الدماء من شرايين الذئب السباتية. نازع الذئب بشكل مسعور لدقيقة أو اثنتين قبل أن يترنح متهاويا على الأرض وقد تـــدلى لسانه الطويل الدامي خارجا من بين أسنانه. مسحت غاسماي دماء الذئب عن وجهها وهي تلهث. بدا وجهها لشن محمرّا من شدة البرد، كما لو أن صبغة حمراء من دم الذئب قد علته. صدمه منظرها وكأنها صورة لامرأة من عصور ما قبل التاريخ؛ شجاعة، وقوية، وجميلة.

تصاعدت الرائحة النتنة من دماء الذئب الميت في الهواء، وتوقفت فجأة الأصوات الصادرة عن الكلاب التي توغلت بعيدا إلى ناحية الشرق بعد أن فرت الذئاب الأخرى متلاشية في عتمة الليل. بعد ذلك بلحظات، تناهى من جهة المستنقعات في الشمال الغربي عواء حزين من ذئاب كانت تنفّس عن كربها بعد أن فقدت واحدا منها.

– "إنني شخص عديم النفع، بل أسوأ من ذلك"، قال شن وهو يتنهد، كان يشعر بخجل عميق. "جبان مثل خروف. الكلب أكثر نفعا مني، ولا حاجة إلى أن أذكر ما فعلته إحدى النساء. حتى إن فتى في التاسعة من عمره قد فضحني".

هزت غاسماي رأسها وهي تبتسم. "كلا"، قالت. "لو لم تخرج للمساعدة، لنهشت الذئاب خرافنا".

ابتسم بلغي أيضا. "هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها طالبا صينيا يساعد على تحريك الخراف وإنارة المنطقة بمصباحه الكاشف".

انحنى شن زن ولمس الجسد الدافئ الهامد للذئب الميت. كره نفسه لعدم امتلاكه الشجاعة لمساعدة غاسماي على سحب الحيوان من ذيله عندما كان لا يزال على قيد الحياة، وعلى تضييع فرصة لا تتاح إلاّ مرة واحدة في العمر بالنسبة إلى طالب صيني ألا وهي أن يعرف ما يمكن أن يكون عليه نوع شعوره حين يقاتل ذئبا بيديه المجردتين. بدا منظر الذئب مخيفا وهو ميت مثلما كان عليه وهو على قيد الحياة. داعب شن رأس بار الضخم، ثم وجد في نفسه الشجاعة لأن يجلس القرفصاء، وأخذ يقيس بإبهامه وخنصره طول الذئب الميت، من مقدمة رأسه إلى طرف ذيله. كان أطول منه. استنشق نفسا عميقا من الهواء البارد.

تفحّص العجوز بلغي قطيع الخراف مستعينا بالمصباح الكاشف. كانت الإلية الكثيفة لثلاثة أو أربعة منها قد تعرضت للنهش وقد التهمها الذئب، مما ترك فوضى من الدماء المبعثرة التي كانت قد تجمدت آنذاك. "إن مبادلة بضع إليات خراف بهذا الذئب تعتبر صفقة رابحة"، قال فيما كان يسحب بمساعدة شن الذئب المقتول إلى الخيمة لإبعاد الكلاب الجشعة القريبة ومنعها من أن تصبّ جام غضبها عليه فتتلف الجلد.

كانت أكف الذئب أضخم بكثير من أكف الكلب؛ وعندما قارن شن واحدة منها مع راحة يده، رأى أنها تساويها في الحجم تقريبا. لا غرابة في أن الذئاب تعدو هكذا من دون كلل على الثلوج وعبر التلال الصخرية.

– "غدا"، قال بلغي، "سأعلمك كيف تسلخ جلد الذئب".

حملت غاسماي قدرا كبيرة مليئة باللحم إلى خارج الخيمة لتكافئ بار والكلاب الأخرى. فيما تبعها شن زن، مسّد على رأس بار الضخم، وربت بخفة على ظهره، الذي هو بحجم طاولة صغيرة. هزّ الكلب ذيله بامتنان.

– "هل كنت خائفة وأنتِ هناك؟". سألها شن.

– "بالتأكـــيد"، قالـــت غاسمـــاي، وقد ندت عنها ضحكة خفيفة. "طبعا كنت خائفة. خـــشيت أن يدفع الذئب الخراف إلى خارج الحظيرة. عندها سأخسر جميع نقاط العمل[1] التي حصلت عليها. إنني أترأس فريقا للإنتاج، وبإمكانك أن تتخيل أي نوع من الذل سيلحق بـــي إن فقـــدت خرافي". انحنت كي تربّت على رأس الكلب وقالت، "سين بار" (بار الطيب)، مرة بعـــد الأخرى. أسقط بار العظمة التي كان يمصّها، ورفع رأسه حتى لامس برفق يد سيدته، ثم ألـــصق أنفـــه على كمها، وهو يهز ذيله بحبور، وينفث دوامات صغيرة من الهواء. "شنشين، ســـأعطيك جـــرو كلب بعد حلول العام الجديد"، قالت غاسماي. "هناك وسائل كثيرة لتربية الكلاب. ابذل جهدا جيدا، وسيكبر الجرو ليصبح مثل بار".

شكرها مرارا.

هـــناك في الخـــيمة، اعتـــرف شـــن أنه كان مرعوبا حتى الموت. ضحك العجوز بلغي. "استطعت أن أعرف ذلك عندما أمسكت بيدك. كنت تهتز مثل سعفة. هل تتصور أن بإمكانك أن تستخدم سكينا في قتال مثل ذلك؟ إذا كنت تنوي البقاء في السهوب، عليك أن تتعلم كيف تصبح أكثر ضراوة من الذئاب. ذات يوم سآخذك معي لنصطادها. في وقت مضى حينما شكل جنكيزخان[2] فرق جيشه، كان دائما يختار لقيادتها أفضل صيادي الذئاب".

أومأ شن برأسه. "أتصور ذلك، يمكنني حقا تصور ذلك. لو امتطت غاسماي حصانا، ودخلـــت مـــيدان المعركة، ستكون أكثر إثارة للخوف من هوا مولان التي كانت بمنصب جنرال".

– أنتم الصينيون ليس لديكم كثير من النساء مثل هوا مولان، لكن هناك كثير من النساء المنغوليات مثل غاسماي. على الأقل توجد واحدة في كل عائلة.

ضحك الرجل العجوز مجددا، وكأنه أحد ذكور الذئاب الكبيرة.

بعد تلك الحادثة، انتابت شن زن رغبة ملحة في الاقتراب من الذئاب قدر الإمكان بحيث يـــستطيع دراسة طبيعتها عن كثب. أحس أنه من خلال فهم طبيعة الذئاب فقط سيتمكن من اســـتيعاب السهوب المنغولية والناس الذين يعيشون هناك. حتى إنه لم يستبعد من ذهنه فكرة أن يخطف ذات يوم جرو ذئب من وجاره ويربيه.

---

(1) نقاط العمل: المكافآت المالية مقابل العمل التي تمنحها الدولة للسكان في الأرياف.

(2) جنكيـــزخان: حاكم منغولي محارب اشتهر بشدة بأسه وبراعته الحربية وحبه للتعلّم. جمع القبائل البدوية لتـــشكل منغوليا الموحدة. قاتلت جيوشه في أماكن شاسعة تمتد من ساحل الصين على المحيط الهادئ إلى البحـــر الأدرياتيكـــي في أوروبـــا. شكّل في أقل من عشر سنوات واحدة من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ. قتل سنة 1227 في إحدى حملاته العسكرية. (المترجم)

بالرغم من أن بلغي كان أكثر الصيادين شهرة في أولونبولاغ، إلاّ أنه نادرا ما كان يخرج للصيد، وعندما يفعل، فالغرض من وراء ذلك هو اصطياد الثعالب، وليس الذئاب. كان الناس قـــد ساروا في ركب الثورة الثقافية خلال السنوات القليلة الماضية بحيث إن الحياة التقليدية في السهوب – وهي مزيج من تربية الخراف وصيد الحيوانات البرية – كانت قد انقلبت رأسا على عقب، وكأن الناس كانوا قطيعا من الخراف قد تبعثر بعد أن داهمته عاصفة ثلجية هوجاء. بعد ذلك بفترة من الزمن، وفي شتاء تلك السنة، حدث أن هاجرت قطعان من الغزلان المنغولية عبر الحدود إلى داخل أولونبولاغ، وقرر الرجل العجوز أن الوقت قد حان للوفاء بوعده الذي قطعه لشن بأن يصطحبه لرؤية الذئاب من مسافة قريبة، كي يعزّز شجاعة الشاب، وينمّي معرفته.

* * *

أحس شن زن بالرجل العجوز يلكزه بمرفقه، ورآه يشير إلى منحدر تغطيه الثلوج. صوّب شن منظاره نحو البقعة المحددة. كانت الغزلان لا تزال ترعى وهي بحالة توجّس واضطراب. أخذ يـــراقب المشهد، فيما ترك أحد الذئاب بقية أفراد القطيع، وجرى بعيدا متجها إلى الجبل الذي يقع في جهة الغرب منها. غاص قلب شن في أعماقه. "أعتقد أنها لن تهاجم"، قال هامسا. "يبدو أننا جعلنا أنفسنا نتجمد عبثا".

– "لـــن يضيّع قطيع الذئاب فرصة مثل هذه"، قال بلغي. "لا بد من أن قائد الذئاب شعر بـــأن هـــناك الكثير الكثير من الغزلان، لذلك أرسل مبعوثا على جناح السرعة ليأتي بالمزيد من القوات. ربما لا تسنح فرصة مثل هذه إلاّ مرة كل خمس أو ست سنوات، ويبدو لي أن الذئاب تتمتع بشهية بالغة. إنها تستعدّ لخوض معركة كبرى. سترى أن هذا الأمر كان يستحق الانتظار. مثلما سبق أن قلت، *الصبر هو المفتاح الذي يفضي إلى صيد وفير*".

2

انــضم ستة أو سبعة من الذئاب بهدوء إلى عملية التطويق، اكتمل تشكيل جوانب الطوق الــثلاثة، وأصــبحت الخطة جاهزة للتنفيذ. غطى شن زن فمه بكُمّ مئزره الفروي الثقيل الذي يشبه حدوة الحصان، وقال بصوت منخفض: "هل ستُحكم الذئاب إغلاق الطوق الآن؟".

- "لم يَحِــن الــوقت بعــد"، أجاب بلغي بهدوء. "الذئب الأكبر للقطيع ينتظر اللحظة المناسبة. الذئاب شديدة التدقيق بشأن نوع التشكيلات التي تتبعها في التطويق أكثر منا. انظر إذا كــنت تستطيع أن تستنتج الشيء الذي ينتظره قائدها". في كل مرة يرتعش فيها حاجبا الرجل العجــوز الكثّان الأبيضان تتساقط ندف من الصقيع على الأرض. كانت قلنسوة مصنوعة من جلــد الثعالب ذات حواشٍ يكللها الصقيع تتدلى على كتفيه، وتغطي جبهته، وجزءا كبيرا من وجهــه، لكــنها لا تحجب عينيه بلونهما البني الفاتح اللتين كانتا ترسلان بريقا حادا وكأنهما قطعتان من الكهرمان.

كانا يختبئان في المغارة الثلجية منذ بعض الوقت، والآن حوّلا انتباههما ناحية الغزلان التي كانت ترعى على المنحدر. كان عدد قطيع الغزلان كبيرا جدا يصل إلى قرابة الألف، فيما بقي العديــد مــن ذكور الغزلان الضخام ذوات القرون الطويلة السوداء تراقب المكان وهي تشمّ الروائح التي يحملها الهواء. أما الغزلان الأخرى فكانت ترعى الأرض المعشوشبة من تحت غطاء الثلج.

تلــك المنطقة كانت تمثل مراعيَ احتياطية لفصل الشتاء بالنسبة إلى فرقة الإنتاج[1] الثانية، وخطــا دفاعيا في مواجهة الكوارث الطبيعية. كانت تبلغ مساحتها عشرين ميلا مربعا تقريبا، وتــضم مراعيَ جبلية شاسعة، حيث إنها محمية من الرياح، وتكاد تخلو من الثلوج نسبيا، وتنمو الأعشاب جميلة المنظر عليها حتى تصبح طويلة وكثيفة.

- "راقــب بعناية، وستفهم"، همس الرجل العجوز. "هذه بقعة نموذجية، إنها منفتحة على الــرياح الشمالية الغربية التي تمنع الثلوج من التراكم. عندما كنت في الثامنة من عمري، داهمت أولونــبولاغ أكــبر عاصفة ثلجية تحصل منذ قرون، كارثة بيضاء حقيقية. لقد غطت الثلوج خيَمــنا. لحــسن الحــظ، وتحت قيادة بعض الرجال المتمرسين من كبار السن، استطاع بعض

---

(1) فــرقة الإنــتاج: وحدة إنتاج في لجنة ثورية أو كوميون والتي تعتبر أصغر وحدات التقسيم الإداري في العديد من البلدان مثل فرنسا وإيطاليا وسويسرا ومنها الصين.

الأشخاص وقسم لا بأس به من الحيوانات الخروج منها بسلام. عندما كان ارتفاع الثلج لا يتجاوز ركبنا، تم إخراج أحصنتنا التي تبلغ أعدادها عدة آلاف لتشق بحوافرها ممرا في الثلج. بعد ذلك داسته بضع عشرات من الثيران أكثر، حيث فتحت مسلكا تتمكن خرافنا وعرباتنا من التحرك عبره. تطلب الأمر منا ثلاثة أيام بلياليها حتى وصلنا إلى هذه المراعي بأمان. هنا لم يكن عمق الثلج يتجاوز قدما أو قدمين، مما أتاح لأطراف الأعشاب الطويلة أن تخترقه. اندفعت الأبقار والخراف والأحصنة، التي كادت تنفق من شدة البرد والجوع، لاهثة صوب تلك الأعشاب حالما صارت ضمن مدى البصر. أما بالنسبة إلى البشر، فقد ألقوا أنفسهم على الثلج وهم ينتحبون، ثم خروا برؤوسهم على الأرض شاكرين تينغر، حتى تغطت وجوههم بالثلوج. كانت الخراف والأحصنة تعرف كيف تزيح الثلج عن طريقها لتصل إلى العشب، بينما اقتفت الأبقار الأكثر بلادة أثرها بكل بساطة التماسا للعلف. كان ذلك شيئا كافيا للحفاظ على سلامة النصف الأكبر من الحيوانات إلى أن ذابت الثلوج مع حلول فصل الربيع. لقد خسر الناس حيواناتهم عندما لم ينقلوها في الوقت المناسب. هم أنفسهم نجحوا في الوصول إلى بر الأمان، لكن حيواناتهم كانت قد دفنت بسبب العاصفة الثلجية. لولا هذا الامتداد الفسيح من المراعي لكان جميع من في أولونبولاغ، قد واجهوا الهلاك مع حيواناتهم. لقد توقفنا عن الشعور بالخوف من الكوارث البيضاء بعد ذلك؛ عرفنا أنه إذا حلت بنا واحدة منها، ففي وسعنا الانتقال إلى هذه المراعي باعتبارها ملجأ لنا".

تنهد الرجل العجوز. "هذه البقعة هبة لشعب وحيوانات أولونبولاغ من راعينا تينغر. في الأزمنة الماضية، كان الرعاة يقومون برحلة على عربات تجرها الثيران متوجهين إلى قمة ذلك الجبل لتبجيل تينغر وسيد الجبل. لكن في ظل الوضع السياسي الراهن، لم يجرؤ أحد على الصعود إلى هناك منذ بضع سنين. لكننا لا نزال نؤدي الطقوس نفسها في قلوبنا. هذا جبلنا المبجل. حتى إذا حصل جفاف في الأرض و لم تعد تتوفر أعشاب العلف، يبقى الجبل ممنوعا على الرعاة من فصل الربيع إلى فصل الخريف. إن صيانة حرمة الجبل شيء صعب خاصة على الناس الذين يقومون بتربية الأحصنة. الذئاب أيضا تصون حرمة الجبل، وتجري كل خمس أو ست سنين مناورة صاخبة باذخة لقتل الغزلان، قرابينها التي تقدمها إلى سيد الجبل وإلى تينغر. الجبل لا ينقذ الناس وحيواناتهم فحسب؛ بل إنه ينقذ الذئاب أيضا، التي تعتبر أذكى منهما. في الماضي كانت الذئاب تُحرِز تفوّقا على الناس وحيواناتهم، فخلال النهار كانت تختبئ بين الصخور على القمة أو خلف الجبل، حيث تحولت الثلوج إلى جليد. ثم تعود ليلا لاستخراج الأبقار والخراف التي تجمّدت حتى الموت. لم تكن الذئاب تضايق الناس، والحيوانات التي لديهم ما دامت تحصل على طعام تلتهمه".

طافت في الأعالي رُقعٌ من الغيوم. حدّق الرجل العجوز عاليا إلى السماء نحو الزرقة الجليدية التي كلّلت تينغر، ارتسمت على وجهه نظرة تعبّر عن ولاء شديد.

كانت الثلوج قد تساقطت مبكرا هذه السنة، وعطلت الحركة، غطت النصف الأسفل من العـشب قبل أن يتحول لونه إلى اللون الأصفر؛ الآن صار العشب يشبه أوراق نباتات الزينة المرصّعة بالجليد. انبعث الأريج العبق للأعشاب ذات المنظر الخلاب من بين سيقان النباتات الجوفاء والشقوق التي تتخلل الثلج. جذبت رائحة العشب الغزلان المتضوّرة جوعا من وراء الحدود، فتدفقت حشودها قادمة من الأراضي المجاورة التي دمرها العاصفة الثلجية في الشمال؛ بالنسبة إليها كانت هذه البقعة عبارة عن واحة شتوية؛ صارت تأكل إلى أن بدت بطونها المستديرة أشبه بالطبول، مما جعل الركض السريع شيئا مستحيلا بالنسبة إليها حتما.

كان بلغي وذكر قطيع الذئاب الأكبر فقط يدركان أن الغزلان كانت قد اقترفت خطأ مأساويا.

لم يكن ذلك القطيع كبيرا من الغزلان بشكل متميز. وخلال السنة الأولى التي أمضاها شن في السهوب كثيرا ما شاهد قطعانا تتألف من عشرة آلاف غزال أو أكثر. قال أحد منتسبي مقر فرقة الإنتاج إنه خلال السنوات الثلاث العجاف[1] في الستينيات جاء جنود من المناطق العسكرية في الشمال على عربات، وقتلوا أعدادا هائلة من الغزلان باستخدام بنادق رشاشة لغرض تأمين الطعام لقطعاتهم؛ ونتيجة لذلك فقد دفعوا بالغزلان التي تمكنت من النجاة إلى مغادرة المنطقة. لكن في السنين الأخيرة، وبسبب الوضع العسكري المتأزم على المناطق الحدودية، توقفت عمليات الصيد واسعة النطاق، وشهدت أولونبولاغ عودة للغزلان بأعداد مذهلة. كثيرا ما صادف شن قطعانا كبيرة من الغزلان فيما كان يرعى خرافه، بحر شاسع متلاطم من اللون الأصفر يقفز على سطح الأرض، ويمرّ قريبا من خرافه بخفة وابتهاج، لكن ذلك كان يجعل حيواناته تتجمع متراصّة قرب بعضها بعضا من الخوف، وتبقى عيونها القلقة تراقب بمزيج من الوجل والغبطة فيما يعدو أبناء سلالتها الذين يسكنون البراري وهم يسابقون الريح.

تتجاهل الغزلان المنغولية البشر غير المسلحين. في إحدى المناسبات لحق شن زن، وهو يمتطي حصانه قطيعا هائلا من الغزلان حتى دخل في وسطها، وقد راودته حينها فكرة أن يسرق أحدها لكي يتذوق لحم الغزال. لكنه أخفق في مسعاه. يستطيع الغزال، وهو أسرع الحيوانات ذات الأربع قوائم في السهوب، أن يتغلب في سرعته على سرعة كلاب الصيد، وحتى الذئاب. ضرب شن حصانه بالسوط ليعدو مسرعا، وطارد قطيع الغزلان، لكنها استمرت تعبر من كلا الجانبين، لم تكن تبعد عنه أكثر من عشر أو اثنتي عشرة ياردة، بعد ذلك عادت تتدفق مجتمعة وهي تمر من أمامه ماضية في طريقها بعيدا. لم يكن في وسعه أن يفعل شيئا، سوى أن يراقب المشهد وهو يشعر بالرهبة.

---

(1) السنوات الثلاث العجاف: ثلاث سنوات ما بين 1959 و1962م، التي أعقبت الحركة التي عرفت بـ "الوثبة العظيمة إلى الأمام" 1958م وما بعدها حيث توفي عشرون مليون فرد من الصينيين بسبب المجاعة.

ربما لم تكن الغزلان، التي كانا يراقبانها الآن، تؤلف إلاّ قطيعا متوسط الحجم، إلا أن شن كـــان واثقا من أن ذلك عدد كبير جدا على قطيع من الذئاب لا يتجاوز عدده بضع عشرات فقـــط. لقـــد أخبره الناس بأنه ليس هناك من حيوان أكثر عزما وإصرارا من الذئاب، ولم يكن متلهفا لأن يرى كيف يمكن أن تبدو شهية الذئاب عظيمة وتصميمها شديدا فحسب، بل أراد أن يعرف أيضا أي نوع من الصيادين تمثله الذئاب.

بالنسبة إلى الذئاب، فقد اعتبرت أن هذه فرصة عظيمة للغاية، ينبغي عليها عدم إهدارها. كانـــت حركاتها خفيفة وبطيئة. عندما كانت ذكور الغزلان ترفع رؤوسها وتنظر إلى الأعلى، تنبطح الذئاب على الأرض ولا تبدي حراكا؛ حتى البخار الذي ينبعث مع أنفاسها كان ينساب بوهن ورقة.

اســـتمر قطـــيع الغزلان يرعى بقنوط، وربض المراقبان في موضعيهما بانتظار ما يمكن أن يحدث.

- "الغزلان تشكل بلاء على السهوب"، همس الرجل العجوز. "إنها تجري بسرعة الريح، وتأكل طوال الوقت. لقد عملت فرقة الإنتاج كل ما في وسعها من أجل أن تبقى هذه المراعي بحالة جيدة، لكن الغزلان يمكن أن تدمّر نصفها تقريبا في غضون أيام قليلة. إذا ما وجدت بضعة قطعـــان أخـــرى مـــن الغزلان مثل هذه ستنقرض الأعشاب. كانت الثلوج كثيفة هذه السنة، والعاصفة الثلجية احتمالا قائما دائما. من دون وجود هذه المراعي كاحتياطي، ربما لن نتمكن من البقاء على قيد الحياة؛ سواء أكنا نحن أو الحيوانات. لحسن الحظ أن هناك قطيعا من الذئاب. خلال أيام سيطرد قطيع الغزلان هذا، تلك الغزلان التي لم تقتل، هذا ما أعنيه".

نظـــر شـــن إلى الـــرجل العجوز مستغربا هذا الكلام، وقال، "لا غرابة في أنك لا تصيد الذئاب".

- "آه، إنني أصطادها"، رد الرجل العجوز. "لكن ليس بكثرة. إذا قتلناها جميعها ستموت السهوب، وعندئذ كيف يمكننا البقاء على قيد الحياة؟ هذا شيء لا تفهمونه أنتم الصينيون".

- "بدأ الأمر يتضح لي"، قال شن. كان يشعر بالإثارة، من دون أن يعرف السبب تماما. تشكّلت الصورة المبهمة لرمز ذئب في رأسه. قبل أن يغادر بكين منذ سنتين، كان قد جمع وقرأ كتبا مختلفة عن سكان السهوب، وأدرك أنهم يبجلون رمز الذئب، لكنه الآن فقط تلقى تلميحا عن السبب الذي جعلهم يتعاملون مع الذئب - وهو سلف من البهائم، حيوان يزدريه الصينيون وكل الناس الذين يفلحون الأرض - على أنه رمزهم.

نظر الرجل العجوز إلى شن؛ حولت ابتسامته العريضة عينيه إلى مجرد شقين ضيقين. "أنتم الطـــلاب الذين قدمتم من بكين نصبتم خيمكم منذ أكثر من سنة"، قال، "لكن ليس لديكم ما يكفـــي مـــن اللبّاد لتبطين الحواف التي تحيط بها. سنأخذ بضعة غزلان إضافية عندما نرجع إلى

ديارنـــا هـــذه المرة، ونبادلها في مركز التسوق ببعض قطع اللباد. بتلك الطريقة ستشعرون أنتم الأربعة بدفء أكثر إلى حدٍّ ما في هذا الشتاء".

- "ذلـــك شيء رائع"، قال شن. "لدينا طبقتان من اللباد فقط في الوقت الحاضر، وحتى المحابر التي لدينا تتجمّد داخل الخيمة".

ابتسم الرجل العجوز مجددا. "حسنا، راقب جيدا، لأن قطيع الذئاب هذا سيمنحك هدية رائعة".

حيـــنذاك في أولونـــبولاغ، كـــان الغزال الكبير المجمد، يباع بلحمه وجلده مقابل عشرين يوان[1]، وهو ما يعادل أجر أحد الرعاة لأسبوعين. بما أن الجلود مادة تشتهر بجودتها، فقد كانت تـــستخدم لصنع سترات الطيارين. لكن لم يكن باستطاعة الطيارين في الصين الحصول عليها، لأن جلـــود الغـــزلان التي تُنتج في منغوليا الداخلية[2] مخصّصة للتصدير فقط، إنها سلعة تدخل ضمن صـــفقات التـــبادل التجاري مع الاتحاد السوفييتي والبلدان الأوروبية الغربية مقابل الحصول على الفولاذ، السيارات، والذخائر. كانت قطع اللحم الممتازة تعلب وتصدّر إلى الخارج. أما ما يتبقّى مـــن اللحـــم والعظام فتخصّص للاستهلاك المحلي، لكن يمكن رؤيتها أحيانا في محال اللحوم التي تنتشر في أقاليم الألوية[3] المنغولية، حيث يتطلب الحصول عليها توفّر قسائم التموين.

في شـــتاء ذلـــك العام، تقاطرت أعداد غزيرة من الغزلان عبر الحدود، مما أحدث شعورا متـــزايدا بالإثـــارة والحماس وسط قياديي العديد من الألوية المنغولية. خصّصت مراكز التسوق أمـــاكن محددة في مخازنها للاحتفاظ بجثث الغزلان فيها. كان المسؤولون، والصيادون، والرعاة يتصرفون وكأنهم صيادو أسماك سرت بينهم إشاعة أن هناك أسرابا من الأسماك في طور الهجرة. لقـــد أسرج جميع الصيادين والرعاة تقريبا أسرع ما لديهم من أحصنة، وتوجهوا بمرافقة كلاب الـــصيد يحملون البنادق لقتل أكبر عدد ممكن من الغزلان. لم يشمل ذلك الأمر شن زن، الذي كان منشغلاً تماما بالاهتمام بخرافه، وبالطبع لم تكن لديه لا بندقية ولا ذخيرة. إلى جانب ذلك، فراعي الخراف تعطى له أربعة من الأحصنة فقط، بينما يتوافر لدى راعي الأحصنة سبعة أو ثمانية مـــنها، وربمـــا وصل العدد إلى اثني عشر حصانا لاستخداماتهم الخاصة. لذلك لم يكن في وسع الطلاب إلا أن ينظروا بعيون منبهرة إلى الصيادين وهم ينطلقون في رحلتهم.

قبل ذلك ببضع ليالٍ كان شن قد زار خيمة الصياد لامياف. لم يمضِ على وصول الغزلان إلى المـــنطقة إلاّ أيام قليلةٌ، ومع ذلك فقد اصطاد لامياف أحد عشر غزالا، وذات مرة كان قد

---

(1) يوان: وحدة نقد في الصين، تبلغ قيمة أربع منها في ذلك الوقت (السبعينيات) نحو دولار أميركي.

(2) منغوليا الداخلية: إقليم مستقل يقع شمال شرق الصين يتمتع بالحكم الذاتي منذ العام 1947، انفصلت عن منغوليا الخارجية في العام 1912. (المترجم)

(3) اللواء: وحدة ضمن التقسيمات الإدارية في الصين تماثل مقاطعة تقريبا.

قـتل اثـنين منها بطلقة واحدة. خلال بضعة أيام من حملة الصيد كسب تقريبا ما يحققه راعي الأحـصنة في ثلاثة أشهر. أخبر شن بتفاخر إنه حصل مسبقا على مكسب يكفي لتموين نفسه بالـشراب والسجائر لمدة سنة. بعد أيام قليلة أخرى من رحلة الصيد في السهوب، كان يخطط لـشراء راديو ترانـزستور من نوع *الفانوس الأحمر*، حيث إنه كان قد ترك الراديو الجديد في منـزله، وجلب الراديو القديم معه إلى خيمة الرعاة المتنقلة. في تلك الليلة، وللمرة الأولى في حـياته، انتاب شن شعور بمتعة حقيقية على السهوب البرية. لم تكن الغزلان تكتنـز كثيرا من الشحوم في أجسامها، ويمكن أن يعود السبب في افتقار لحومها إلى الدهون ومذاقها الذي يشبه لحم الطرائد، إلى نـزالاتها الدائمة مع الذئاب.

عـندما هاجـرت الغزلان إلى أولونبولاغ، هبطت منـزلة طلاب بكين إلى مواطنين من الدرجـة الثانـية. خلال السنتين اللتين أمضوهما على السهوب كانوا قد تعلموا رعاية الأبقار والخـراف بالاعـتماد على أنفسهم، لكنهم لم يصبحوا بعد صيادين أكفاء، وضمن نمط حياة الـبداوة لدى الناس في شرق منغوليا الداخلية، يحتل الصيد مرتبة أعلى من رعي المواشي. كان أسـلاف المنغوليين يمارسون الصيد في الغابات التي تحيط بالامتدادات العليا لنهر هيلونغ[1]، وقد هاجروا بشكل تدريجي بطيء إلى السهوب، حيث عاشوا كصيادين ورعاة. كان الصيد يشكل مـصدرا مهمـا للـدخل، وغالبا ما اعتبر بمثابة المصدر الرئيسي. في أولونبولاغ، احتل رعاة الأحـصنة المكانـة العلـيا وسـط فئات الرعاة، وكان أغلب الصيادين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعـية. لم يكـن من السهولة على أي من طلاب بكين أن يرتقي إلى ذلك المستوى، أما بالنسبة إلى أولئك القلائل الذين عملوا في ذلك المجال، فأفضل شيء كان في وسعهم التطلع إليه هـو أن يـتدربوا على يد راعي أحصنة متمرس. وهكذا، ففي عشية رحلة الصيد الكبيرة كان جميع الطلاب، الذين بدأوا يعتبرون أنفسهم سلالة جديدة من الرعاة، قد تخلفوا عنها.

بعـد أن أنهى شن تناول وجبة طعامه حمل ساق الغزال التي أعطاه إياها لامياف، وركض مسرعا إلى خيمة بلغي وهو يحس بوقع كآبة غريبة تعتمل في نفسه.

بالـرغم من أن الطلاب في الوقت الراهن كانوا قد حصلوا على خيمتهم الخاصة بهم، إلا أن شن غالبا ما كان يذهب لزيارة بلغي، الذي كانت خيمته أكثر سعة، وأكثر جمالا ودفئا إلى حدٍّ كبير. علّقت على جدران الخيمة منسوجات مزدانة بالرسوم والصور ذات المضامين الدينية المنغولـية التبتـية، وفرشـت الأرضية ببساط اتخذ شكل ظبـي أبيض اللون؛ وكانت الصينية والأواني الفضية التي وضعت على الطاولة المنخفضة والأواني البرونـزية وإبريق الشاي المصنوع مـن الألمنيوم التي وضعت جميعها في النضد تبدو صقيلة الصنع ويصدر منها بريق محبب للنفس.

---

(1) نهـر هـيلونغ (أو جـيانغ): نهر (التنين الأسود) الذي سميت باسمه أكبر مقاطعة في شمال شرق الصين. (المترجم)

في هذه المنطقة النائية، حيث "الفردوس في الأعالي، والإمبراطور بعيد"، لم تكن الرغبة المتقدة في نفوس الحرس الأحمر لتدمير الأشياء الأربعة القديمة[1] – الأفكار، والثقافة، والعادات، والتقاليد – قد طالت بعد منسوجات بلغي المزينة أو بساطه المزخرف.

كان الطلاب الأربعة، الذين يشاركون شن خيمته، زملاء دراسة تلقوا تعليمهم في إحدى مدارس بكين الثانوية؛ ثلاثة منهم كانوا أبناء *رأسماليين مستغلين من لصوص وقطاع طرق*[2]، أو ينتمون إلى *سلطة أكاديمية رجعية*، وقد جمعت بينهم ظروف حياتية، وإيديولوجية مماثلة، وامتعاض مشترك إزاء الحرس الأحمر المتطرف، الغارق في دياجير الجهل. وهكذا في بواكير شتاء العام 1967، ودّعوا صخب بكين، ورحلوا متجهين إلى السهوب سعيا وراء حياة يسودها السلام، حيث حافظوا على أواصر الصداقة التي ربطت في ما بينهم.

بالنسبة إلى شن، كانت خيمة العجوز بلغي تبدو وكأنها مقر شيخ قبيلة، حيث كان يستفيد من إرشادات مضيفه واهتمامه الذي يوليه إياه؛ إنها بمثابة ملجأ آمن مفعم بالألفة والمودة. هناك كان يلقى تعاملا يشعره وكأنه فرد من أفراد العائلة؛ كان صندوقا الكتب اللذان جلبهما معه من بكين، وخصوصا تلك الكتب التي تتناول التاريخ المنغولي، والتي كتبت باللغتين الصينية والإنكليزية، قد أرست رابطة وثيقة بينه، وهو صيني من الهان[3]، وبين مضيفه المنغولي، الذي كثيرا ما كان يكرم وفادة ضيوفه. من بين أولئك الضيوف كان هناك عازفو موسيقى تزخر أغانيهم بعبق التاريخ والأساطير المنغولية. حالما رأى بلغي كتب شن، وخصوصا تلك التي زُودت بالخرائط والرسوم التوضيحية، حتى أصبح مهتما بالأحداث التاريخية المنغولية التي كتبها باحثون صينيون، وروس، وفرس، وغيرهم. بالاستفادة من النزر المحدود الذي يعرفه من اللغة الصينية، انتهز كل فرصة متاحة لأن يعلم شن اللغة المنغولية، أراد أن يشرح له كل شيء مدوّن في الكتب؛ وقد قابل ذلك أيضا بسرد القصص المنغولية لشن. خلال السنتين كانت هذه المحادثات التي دارت بالمنغولية والصينية بين الاثنين – الرجل العجوز والآخر الشاب – تمضي باطراد وسلاسة.

---

(1) الأشياء الأربعة القديمة: كانت هناك حملة في الصين تحمل شعار "دمروا الأشياء الأربعة القديمة" انطلقت في العام 1966 لتغيير الأفكار والعادات والتقاليد، والثقافة المتوارثة بشكل عام. خلال ذلك كان الحرس الأحمر يشكل مصدرا للرعب في المناطق الريفية.

(2) رأسماليين قطاع طرق: يشير المؤلف إلى طبقة من المسؤولين الكبار في الحزب الذين طبقوا سياسات اقتصادية براغماتية في الأرياف، وذلك ردا على حركة سببت لهم الكوارث عرفت باسم (الوثبة العظيمة إلى الأمام). كان رئيس الحزب ليو شاوكي يسمى "الرقم واحد بين الرأسماليين من قطاع الطرق في الحزب". وأصبح هذا المصطلح شعارا لحملة مطاردة السحرة خلال الثورة الثقافية.

(3) الهان: سلالة الإمبراطورية الثانية في الصين (206ق. م – 220ب. م) تميزت فترة حكمها بالازدهار الثقافي حيث أرست ما اعتبر في ما بعد بالثقافة الصينية بحيث إن الكلمة صارت تطلق على الشعب الصيني عموما في لغة الصين الشمالية خصوصا وسط البلاط والطبقات الرسمية العليا. (المترجم)

لم يكـــن شن راغبا في أن يترك العيش في خيمة بلغي، لكن عدد الحيوانات في **قطيعه** ظل يتنامى على المراعي المزهرة. تجاوز عدد الخراف في قطيعه الثلاثة آلاف بعد ولادة آخر دفعـــة مـــن الحملان، وهو عدد أكبر مما يتمكن أي راعٍ بمفرده من الاعتناء به. لذلك تم تقـــسيمها إلى قطعان أصغر، مما جعل شن مضطرا إلى أن يترك خيمة أستاذه ويسعى وراء خرافه. قام مع ثلاثة من زملائه بنصب خيمة، وبدأوا يعيشون مستقلين مع بعضهم بعضا. لحـــسن الحظ كان المخيمان قريبين من بعضهما بعضا لدرجة كافية بحيث إن ثغاء الخراف ونباح الكلاب في أحد المخيمين يمكن أن يُسمعا في المخيم الآخر، لذلك كانا يلتقيان وهما في الطريق إلى الخروج صباحا وخلال رجوعهما ليلا. كان في وسع الرجل منهما أن يصل إلى مسكن جاره قبل أن يدفأ موضعه على سرجه. وكثيرا ما كان شن يذهب لزيارة الرجل العجـــوز في خيمـــته لاستكمال أحاديثهما السابقة، إلاّ أنه في هذه المرة أراد أن يتحدث بالذات عن الغزلان والذئاب.

أزاح شـــن ســـتارة المـــدخل، وكانـــت عبارة عن قطعة سميكة من اللباد تمّت حياكتها وزخـــرفتها بأشكال مبهجة للنظر باستخدام شعر الجمال، وانضم إلى بلغي لاحتساء كوب من الشاي بالزبدة.

- لا تغـــبط الناس لمجرد أنهم اصطادوا غزلانا. غدا سآخذك معي، وفي وسعك الحصول علـــى حمولة عربة لك وحدك. كنت في الجبال خلال الأيام القليلة الماضية، وأعرف أين يمكننا العثور عليها. ستكون هذه فرصة مناسبة لك لاكتساب معرفة ميدانية عن قطيع للذئاب. ذلك مـــا كـــنت تتوق إليه، أليس كذلك؟ أنتم الصينيون لديكم شجاعة الخراف، التي تقتات على الأعـــشاب. نحن المنغوليون ذئاب تأكل اللحوم، ويمكنك أن تجني بعض الفائدة لو تعلمت شيئا قليلا من شجاعة الذئاب.

في وقـــت مبكـــر مـــن صباح اليوم التالي رحلا معا إلى منحدر جبلي في ناحية الجنوب الغربـــي، واختبأا لغرض المراقبة. لم يجلب الرجل العجوز معه لا بندقية ولا كلبا، جلب منظاره المقرب فقط. كان شن قد خرج للصيد مع بلغي من قبل، ولكن لصيد الثعالب ليس إلاّ، وهذه كانـــت المرة الأولى التي يخرج فيها الرجل العجوز وهو أعزل من السلاح. "لن نجرب أن نقتل غزالا بواسطة منظار، أليس كذلك؟".

ابتسم الرجل ولم يتفوه بكلمة. كان دائما يشعر بالسعادة حينما يأتي فتيانه الذين يعلمهم أصول الصنعة وهم محمّلون بالفضول والهواجس.

أخـــيرا، عندما اكتشف شن بمنظاره حركة الذئاب التي تمارس من خلالها عملية تطويق، أضحت خطة الرجل العجوز في الصيد واضحة، وشعر شن بالابتهاج. ارتسمت فجأة ابتسامة ماكرة على ثغر بلغي. نسي شن برودة الجو في اللحظة التي حدد فيها موضع الذئاب؛ بدا وكأن

الـــدماء كانت تتسارع متدفقة في عروقه، وتلاشت آثار الرعب الذي عرفه في المرة الأولى التي شاهد فيها الذئاب الضخمة.

* * *

لم تكـــن ثمة نسمة رياح تنساب في أعماق الجبال؛ كان الهواء باردا وجافا، حتى كادت قدما شن زن تتجمدان. ازداد هبوب الهواء البارد شدة. تمنى لو أن لديه جلد ذئب فقط ليستلقي علـــيه! اســـتدار نحو الرجل العجوز وهمس له بشيء طالما شغل باله: "الجميع يقولون إن جلود الذئاب تصنع منها أكثر أنواع الفرش دفئا والتي يمكن للمرء العثور عليها في أي مكان، والناس في هذه الأصقاع، من صيادين ورعاة، يقتلون الكثير من الذئاب. لكنني لم أشاهد جلودها أبدا في خيمة أحد الرعاة. ما السبب في ذلك؟ الجلود الوحيدة التي شاهدتها كانت عبارة عن ممسحة أرجـــل من جلد الذئاب في منـــزل دورجي، وزوج من بناطيل رعاة البقر الجلدية التي يلبسها أبوه فوق سراويله المصنوعة من جلد الخراف، حيث تكسوها طبقة فرو من الخارج".

أجاب الرجل العجوز، "دورجي منغولي من الشمال الشرقي. إنهم فلاحون يمتلكون قليلا مـــن الأبقـــار والخراف، لكنهم كانوا قد تنقلوا في أرجاء المناطق الصينية منذ مدة طويلة حتى صاروا يتبعون عادات الهان. الناس الذين يأتون من الخارج ليسكنوا هنا قد نسوا الأسياد المنغولية ونـــسوا أصـــولهم أيضا. عندما يموت شخص من عائلتهم يضعونه في صندوق ويدفنونه تحت الأرض، بدلاً من أن يصبح طعاما للذئاب، لذلك فهم بالطبع لا يجدون بأسا من استخدام جلود الـــذئاب في صنع البناطيل. هنا على السهوب، تتميز جلود الذئاب في أنها الأكثر سمكا وفروها أكثر كثافة، وليس هناك شيء أفضل منها للتخلص من البرد. إذا وضعت جلود خراف عديدة فـــوق بعـــضها الآخر لن تدفئك مثل جلد ذئب واحد. لكننا لا نستخدمها كفرش. إننا نحترم الـــذئاب كـــثيرا. أي منغولي لا يعتقد بذلك هو ليس منغوليا أصيلا. في هذا المكان، يمكن أن يتجمد المنغولي حتى يموت ولا ينام على جلد ذئب، لأن مثل هذا العمل من شأنه أن يسيء إلى الأسياد المنغوليين، ولن تحلق أرواحهم أبدا حتى تصل إلى تينغر. لماذا يضفي تينغر حسب رأيك بركاته على الذئاب؟".

– "ألم تقل أن الذئاب هي الأرواح التي تحرس السهوب؟". تساءل شن زن.

– "صحيح"، قال الرجل العجوز، بينما كانت ابتسامته العريضة تعمل على تضييق عينيه. "هـــذه هي المسألة بالضبط. تينغر هو الأب، السهوب هي الأم، والذئاب لا تقتل إلاّ الحيوانات التي تلحق الأذى بالسهوب. كيف يمكن لتينغر ألاّ يهب بركاته للذئاب؟".

دبّـــت حركة وسط قطيع الذئاب، ووجه الرجلان منظاريهما إلى زوج من الذئاب أطلا برأســـيهما إلى الأعلى. أخفضت الحيوانات رؤوسها مسرعة. استكشف شن منطقة الأعشاب الطويلة لكنه لم يلحظ مزيدا من الحركة تصدر عن الذئاب.

قـــدّم الرجل العجوز نظارته لشن ليتمكن من مشاهدة الموقف بمنظار مزدوج العدسات. كانـــت النظارات الفاخرة ذات الإطار المتين منتوجا عسكريا سوفييتيا. لقد عثر بلغي عليها في أولونـــبولاغ مـــنذ عشرين عاما في ميدان معركة قديم يعود لأيام الحرب السوفييتية – اليابانية. خلال الحرب العالمية الثانية كانت قد وقعت معركة كبرى بين الروس واليابانيين في مكان قريب يقـــع في جهـــة الـــشمال. حين أوشكت الحرب أن تضع أوزارها، كانت أولونبولاغ تشكل الـــشريان العـــسكري الرئيسي للجيش الروسي – المنغولي الذي يؤدي إلى منشوريا. حتى هذا الـــوقت لا تـــزال هناك أخاديد عميقة في الأرض خلفتها الدبابات، فضلا عن هياكل الدبابات والعربات المصفحة الروسية واليابانية.

كان جميع الرعاة الكبار في السن تقريبا يمتلكون حرابا، وقربا، ومجارف، وخوذا، ومناظير ثنائـــية العينين روسية أو يابانية الصنع، وغيرها من التجهيزات العسكرية. لقد أُخذت السلسلة الطـــويلة، التي اعتادت غاسماي أن تربط بها العجول، من عجلة آلية تعود إلى الجيوش الروسية. لكن من بين كل المعدات العسكرية التي خلفها الروس واليابانيون وراءهم كانت المناظير ثنائية العيـــنين الـــشيء المفضل بالنسبة إلى الرعاة، وقد أصبحت أداة مهمة من الأدوات المساعدة في عملية الإنتاج.

كان الرعاة، الذين يدخرون بحرص الأشياء التي ليس في وسعهم إنتاجها بأنفسهم، يقومون عـــادة بفصل المناظير ثنائية العينين لعمل زوج من (المناظير)، لأن الحجم المتقلص يجعلها سهلة الحمل، ويضاعف مجالات استخدامها. "ساعدتنا هذه المناظير على الصيد"، قال بلغي، "وجعلت العـــثور على الأحصنة الضائعة أكثر سهولة. لكن يبدو أن مدى إبصار الذئاب قد تحسن أيضا، وإذا راقبت ذئبا من خلال أحد هذه الأشياء، سترى أحيانا أنه يرد على نظراتك مباشرة".

ذات يوم بعد أن كان قد مضى على إقامة شن في خيمة الرجل العجوز ستة أشهر، أخرج بلغي منظارا من صندوق العربة، وأعطاه إياه.

كان المنظار روسي الصنع قديما، وقد تلف سطحه النحاسي المتغضّن، وفقد ملمسه الناعم في أمـــاكن عديدة منه، لكن العدسات القوية كانت من أرقى الأصناف. احتفظ شن بالهدية، لفهـــا بقطعة قماش من الحرير أحمر اللون، حيث صار يستخدمها فقط عندما يساعد على لملمة قطعـــان الأبقار الشاردة، أو يساعد رعاة الأحصنة في العثور على أحصنتهم الضائعة، أو عندما يذهب إلى الصيد مع بلغي.

اســـتطلع شن أرجاء المنطقة عبر منظاره؛ تنبهت فطرته الكامنة في الصيد حين صار ينظر عـــبر *عين الصياد* التي حاز عليها. أحس بأن فطرة الصيد هذه قد تيقظت في وقت متأخر للغاية من حياته، وكابد وطأة الحزن لأنه كان قد وُلد ضمن طبقة من الفلاحين. لقد أصبح الفلاحون جبـــناء مـــثل الخراف بعد عشرات، وحتى مئات من الأجيال المتعاقبة التي كانت تقتات على

الحبوب والخضروات، مما تنتجه المجتمعات الزراعية؛ ففقدوا رجولة أسلافهم من البدو، وعادوا أدراجهـــم إلى حضن الإمبراطور الأسطوري الأصفر[1]. وبعد أن تخلوا عن مهنة الصيد، صاروا يمثلون الطريدة...

لا يـــزال قطـــيع الذئاب ساكنا لا تبدو عليه أي علامات لهجوم وشيك، وبدأ شن يفقد صـــبره بسبب قدرة الذئاب الاستثنائية على الصبر. "هل ستكمل التطويق اليوم؟". سأل. "هل تنتظر أن يحل الظلام لتشن الهجوم؟".

- "الحـــرب تـــتطلب صبرا"، رد الرجل العجوز بهدوء. "الفرص تكون من نصيب الذين يتحلون بالصبر، سواء أكانوا بشرا أم بهائم، وهؤلاء وحدهم هم الذين يُحسنون استغلال هذه الفـــرص. كـــيف تتخيل أن جنكيزخان تمكن من دحر جيوش سلالة جن[2] العظمى بقلة من الفرســـان المحاربين؟ وأن ينتصر على كل الأمم التي خضعت لسلطانه؟ أن تمتلك سطوة الذئاب لـــيس شـــيئا كافيا. عليك أيضا أن تتحلى بالصبر. حتى أكبر وأقوى الجيوش يمكنها أن تواجه حالات من الفوضى والارتباك. إذا أصيب الحصان القوي بالاضطراب، يكون تحت رحمة حتى ذئـــب صغير. من دون الصبر، لن تكون ذئبا، لن تكون صيادا، ولن تكون جنكيزخان. تقول دائما إنك تريد أن تفهم طباع الذئاب وتفهم جنكيزخان. حسنا، إذا، امكث في مكانك هنا، وتحلَّ بشيء من الصبر".

كانـــت هناك نبرة انفعال حادة في كلام الرجل العجوز. لذلك حاول شن أن يستجمع صبره قليلا. صوّب منظاره إلى ذئب كان قد تنبّه إليه عدة مرات من قبل. كان الذئب يستلقي هناك كما لو أنه ميت. بعد بضع لحظات، تغيرت لهجة الرجل العجوز فصارت أكثر رقة وقال: "بعد بقائنا هنا طوال هذا الوقت هل استنتجت ما الذي قد تنتظره الذئاب؟".

هز شن رأسه.

- "إنها تنتظر أن تأكل الغزلان حتى التخمة ويغلبها النعاس". قال بلغي.

- "هي حقا ذكية إلى هذا الحدّ؟". تساءل شن باندهاش.

- أنتم الصينيون لا تعرفون شيئا عن الذئاب. البشر ليسوا بمثل ذكائها. والآن اسمع هذا، سأختبرك. هل تعتقد أن ذئبا وحيدا، حتى وإن كان كبيرا، يستطيع بمفرده أن يقتل غزالا؟

فكّر شن للحظة قبل أن يجيب: "كلا، سيتطلب الأمر ثلاثة ذئاب، اثنين يطاردانه والثالث يربض في كمين متربصا به. لا يستطيع أي ذئب أن يفعل ذلك بمفرده".

---

(1) الإمبراطور الأصفر: المؤسس الأسطوري للعنصر الصيني.

(2) سلالة جن: سلالة كبرى حكمت الصين في مرحلتين، الغربية (317-265 ق. م) والشرقية (420-317 ق. م) وتعتـــبر الأخـــيرة واحدة من السلالات الست التي حكمت بين سقوط الهان 220ق. م وتأسيس سلالة سوي 581م. (المترجم)

هزّ الرجل العجوز رأسه. "هل تصدّق أن ذئبا مفترسا يستطيع أن يقتل غزالا بمفرده ليس إلاّ؟".

– "جميعا؟". قال شن وقد وجد أنه من الصعوبة تصديق ذلك. "لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكن أن يحصل ذلك".

– الذئاب طورت مهارات خاصة. في النهار يمكن لأحد الذئاب أن يركز انتباهه على غزال منفـــرد، لكـــنه لا يفعل شيئا يذكر حتى الليل، عندها يبحث الغزال عن مكان تنمو فيه أعشاب طـــويلة يكون بعيدا عن اتجاه الرياح لكي يستلقي فيه وينام. ومع ذلك فإن الوقت لم يأزف بعد لتوجـــيه الضربة، ربما يكون الغزال نائما، إلا أن أنفه وأذنيه تبقى في حالة تأهب. عند أول علامة تـــنذر بالخطر سينهض بسرعة ويلوذ بالفرار، ولن يقدر الذئب على اللحاق به. لهذا يبقى الذئب منتظـــرا، طـــوال اللـــيل، جاثما في مكان قريب. لدى شروق الشمس ينهض الغزال وقد امتلأت مثانته، وحينئذ يكون الذئب متأهبا للانقضاض. لا يستطيع الغزال أن يفرغ مثانته وهو يركض، إذ مـــا إن يركض إلى مسافة بعيدة، حتى تتفجر مثانته، وتتشنج قوائمه الخلفية، ويتوقف في مكانه. أتـــرى، يـــستطيع الغزال أن يعدو بسرعة الريح، ولكن ليس في كل الأوقات، والذئاب الكبيرة الحكيمة تعرف أن ذلك هو الوقت المناسب الذي تستطيع فيه أن تقتل غزالا وحيدا. تمتاز الغزلان الأكثـــر فطنة بالحكمة لدرجة كافية بحيث تتخلى عن دفء النوم لكي تنهض وتفرغ مثانتها ليلا. إنها لا تقلق أبدا بشأن ذئب يمكن أن يطاردها. ينهض صيادو أولونبولاغ باكرا في الصباح لالتقاط الغزلان التي فتكت بها الذئاب، وعندما يفتحون بطونها، يجدون البول منتشرا بداخلها.

ضـــحك شن زن بهدوء. "ما كنت أستطيع أن أستنبط مثل تلك الاستراتيجية في مواجهة تهديد بالموت. ذلك شيء مذهل. لكن الصيادين المنغوليين ماهرون أيضا!".

ضحك الرجل العجوز. "إننا تلامذة نتلقى دروسنا من الذئاب، فلا بد من أن نكون ماهرين".

أخيرا، رفعت أغلب الغزلان رؤوسها لتنظر إلى الأعلى. كانت "طبولها" أكثر انشدادا من أي وقـــت آخـــر، بعد أكثر من ليلة تمضي بمثانة مليئة. كانت مثانات بعضها مليئة إلى حدّ أن ســـيقانها صارت تتمايل في أربعة اتجاهات. نظر الرجل العجوز عبر منظاره، وقال. "إنها مليئة بحيث لا تستطيع أن تركض. راقب عن كثب. حان وقت الهجوم بالنسبة إلى الذئاب".

توترت أعصاب شن. كان قطيع الذئاب يضيّق محيط شبه الدائرة ببطء؛ الآن كانت هناك ذئاب إلى الشرق، والشمال، والغرب من الغزلان. وهناك سلسلة من الجبال تمتد جنوبا. افترض شن أن الذئاب التي في الجانب الآخر من الجبل تنتظر أن تقوم القوة الرئيسية بدفع الغزلان باتجاه المكان الذي تربض فيه، وعندئذ ستبدأ المذبحة. لقد قال الرعاة إن الذئاب كثيرا ما تستخدم هذه الحيلة. "بابا"، قال: "ترى كم عدد الذئاب التي خلف الجبال بحيث تكفي لإغلاق الطوق على كل الغزلان؟".

– "لـــيس هناك ذئاب خلف الجبل"، أجاب الرجل العجوز بابتسامة ماكرة. "لن يرسل الذكر الأكبر للقطيع أي ذئب إلى هناك".

– "إذا كيف ستغلق الذئاب الطوق؟". سأل شن بارتياب.

– في هذا الوقت، وفي هذا المكان، بإمكانها أن تكسب شيئا أكبر بإجراء عملية تطويق من ثلاثة جوانب مقارنة بما تحصل عليه من عمل دائرة كاملة.

– إذا فأنا لا أفهم ما الذي تفعله الذئاب.

– يقـــع أحد أكبر وأشهر المنحدرات الثلجية على أرض أولونبولاغ في الجانب الآخر من ذلك الجبل. إن الأرض التي ترعى فيها المواشي تنحدر مع اتجاه الريح، وخلال أي عاصفة ثلجية ستندفع الثلوج نحو الجانب الآخر من الجبل مما يؤدي لتحويله إلى حوض يمتلئ بالثلج الذي يصل إلى عمـــق يتـــراوح من الخصر إلى أعلى من سارية العلم. بعد وقت قصير جدا ستدفع الذئاب بقطيع الغزلان إلى الجانب الآخر من الجبل. وخلال اندفاعها إلى الأمام ستعمل على تضييق محيط الدائرة. ما رأيك في الأمر؟

تحـــول كل شيء إلى ظلام بالنسبة إلى شن، كما لو أنه سقط في لجة انهيار ثلجي حجب كـــل أثر للضوء. لو كان جنديا من جنود الهان في الأزمنة الغابرة، هكذا فكّر، لما تمكن من أن يـــستنبط مثل هذه الاستراتيجية، وهذا الفخ. الآن بدأ يفهم السبب الذي جعل جنرال المنغ[1] العظـــيم كـــزو دا، الـــذي دحر المنغوليين حتى تقهقروا باتجاه السهوب، ينتصر في كل معركة خاضها جنوب السور العظيم، لكنه رأى جيوشه تتعرض للإبادة على أرض السهوب. فهم أيضا لمـــاذا كـــان جنـــرال المنغ الآخر كيو فو، بجنوده الذين يبلغ عددهم المئة ألف، قد دفع القبائل المنغولـــية نحـــو نهـــر كيرولين في منغوليا الخارجية، لكي يقعوا في الفخ ليس إلاّ. وعندما قتل تدهورت معنويات جيشه، ووقع جميع جنود الهان في الأسر.

– "في الحـــرب"، قـــال الـــرجل العجوز، "الذئاب أذكى من الرجال. تعلمنا منها نحن المنغولـــيون كـــيف نمارس الصيد، وكيف نفرض حصارا، وحتى كيف نخوض حربا. لا توجد قطعان ذئاب في المكان الذي تعيشون فيه أنتم الصينيون، لذلك لم تتعلموا كيف تقاتلون. ليس بإمكانكم الانتصار في حرب ما فقط لأن لديكم مساحات شاسعة من الأراضي، والكثير جدا من البشر. كلا، المسألة تعتمد على ما إذا كنت ذئبا أم خروفا".

كـــان الهجـــوم قـــد بدأ. قاد الذئب رمادي الرقبة والصدر ذئبين ضخمين على الجناح الغربـــــي في صولة صاعقة باتجاه مرتفع من التلال قريبا من قطيع الغزلان. من الواضح أن هذه كانـــت الثغرة الأخيرة التي ستغلق ضمن عملية التطويق من ثلاثة جوانب. باحتلال هذا التل،

(1) مـــنغ: ســـلالة حكمت الصين ما بين 1368 و1644 خلال فترة فاصلة للحكم المحلي بين عصر سيطرة المنغول وهيمنة شعب المانشو الذي احتل الصين. (المترجم)

أحكم الذئاب الطوق. كانت هذه الحركة المباغتة كأنها إشارة تعطى من خلال النفخ في البوق لمجبهات الثلاث لكي تهاجم. انتفضت الذئاب التي كانت تربض منتظرة بفارغ الصبر منذ مدة طويلة، وخرجت من بين الأعشاب، وبدأت تطارد الغزلان من الشرق، والغرب، والشمال. لم يشاهد شن زن أبدا شيئا مماثلا لهذا الهجوم المرعب من قبل. عندما يطارد الرجال العدو، يصيحون "هجوم!"، أو "اقتلوهم!"، أما هجمات الكلاب فيرافقها نباح مسعور لكبت الخوف الكامن في داخلها. لكن عندما تهاجم الذئاب، فهي تفعل ذلك بصمت؛ ليس هناك من صيحات، ولا نباح وحشي. إنها ذئاب محاربة حقا!

خرجت الذئاب من وسط الأعشاب المرتفعة، وانطلقت كأنها طوربيدات مسلحة بأكثر الأنياب حدة وأكثر النظرات المتوعدة بالخطر، وأكثرها إثارة للخوف، متوجهة فورا صوب قطيع الغزلان.

داهم الغزلان الذعر وقد اتخمت من كثرة الأكل. بعد أن حرمت من سلاحها الأساسي – السرعة – لم تكن الآن أكثر من خراف، لا شيء سوى لحم يدوس على حافر. تخيل شن رعبها الكبير. ربما كانت الأرواح قد فرت مسبقا من أجساد معظمها، وشقت طريقها إلى تينغر. جُمد الكثير منها في أماكنها وقد تزلزل كيانها من الرعب؛ تهاوت غزلان أخرى على الأرض كما لو أنها تركع، وبرزت ألسنتها خارج أفواهها، وارتعشت ذيولها القصيرة.

كان شن شاهد عيان على دهاء وصبر الذئاب، ودقة تنظيمها وعمق انضباطها. بعد أن سنحت لها فرصة قتالية لا تلوح إلاّ مرة واحدة كل بضع سنوات، ولا تزال قادرة على الانتظار بطول أناة، تكبح جوعها وشهيتها، ثم تجرّد العدوّ – قطيع الغزلان – من سلاحه بسهوله ويسر.

الآن صار يفهم كيف كان ذلك العبقري العسكري الأمي، العظيم جنكيزخان، والقادة العسكريون الأميون أو شبه المتعلمين من الشعوب مثل كوانترونغ، والهون، والتنغوس، والأتراك، والمنغول، والجورشين، قادرين على أن يجعلوا الصينيين (الذين أبدع حكيمهم العسكري العظيم صن تزو[1] كتابه **فن الحرب** الذي نال شهرة عالمية) يركعون، ويواجهون وضعا قاسيا ومزريا في مناطقهم، وأن يقطعوا تتابع سلالاتهم الحاكمة. كانت لدى تلك الأقوام أعظم الشخصيات من بين جميع المعلمين في مجال الاستراتيجيات العسكرية؛ كانوا يتمتعون بطراز خاص رائع وواضح المعالم من القتال الميداني؛ ولديهم تاريخ طويل من المنازلات مع قوات تفوقهم ضراوة. بالنسبة إلى شن، أثبتت هذه الساعات من التعبئة القتالية، التي تصلح لأن تكون نموذجا يقتدى

---

(1) صن تزو: منظر استراتيجي صيني وجنرال خدم الدولة في الفترة ما بين 770 و476 ق. م اشتهر بتأليف أقدم بحث معروف عن الحرب والعلوم العسكرية **فن الحرب** لا يزال يعتبر إلى الآن مصدرا أساسيا في هذا الميدان. (المترجم)

بـــه، أنها أكثر فائدة من سنوات تُمضيها في قراءة كتب صن تزو أو كلاوزرويتز[1]. لقد ابتلي بدراســـة الـــتاريخ منذ زمن مبكر جدا من حياته، وراودته هواجس التوصل إلى حل للأسرار الكبرى التي تكتنف تاريخ العالم، أين تعلم ذلك العرق من البشر الذي كان يتألف من فئة ضئيلة جـــدا اجتاحت آسيا وأوروبا، وشكّلت الإمبراطورية المنغولية العظمى، التي شملت أكبر مساحة من الأراضي في تاريخ العالم، أين تعلموا أسرارهم العسكرية؟ لقد طرح ذلك السؤال على بلغي أكثـــر من مرة، وأجاب هذا الرجل العجوز، الذي كان مستواه التعليمي متواضعا، لكن معرفته كانت واسعة، تدريجيا عن كل أسئلته وذلك بتنوير بصيرته من خلال اطلاعه على مناهج القتال الـــتي تتـــبعها الذئاب. كان يساور شن عندها شعور بالتبجيل لذئاب السهوب، والناس الذين يبجلون رمز الذئب.

استمرت المعركة، وكذلك عملية المراقبة.

أخـــيرا، حانت اللحظة التي بدأ فيها الارتباك يدب في صفوف قطيع الغزلان. كانت تلك الحيوانات الأكبر سنا في قطيع الغزلان والتي لديها خبرة ميدانية سابقة، بالإضافة إلى قادة القطيع فقط هي التي تمكنت من مقاومة إغراء أعشاب أواسط الشتاء المفعمة بالأريج، و لم تأكل كمية يمكن أن تعيق سرعتها؛ لقد انطلقت على الفور تجري صوب الجبال، في الوقت نفسه فقد كانت تحـــث بقية أفراد القطيع لأن ينجوا بحياتهم. لكن لم تتوافر لدى هؤلاء فرصة للنجاة، بالنظر إلى بطونها المتخمة، والثلج العميق، والزاوية الحادة التي يتخذها المنحدر. كان ذلك أشبه بحمّام دم، عقـــوبة فرضها الطرف الحكيم على الطرف الأبله المهمل. ومن وجهة نظر بلغي، كانت هذه عملية تطهير مبجلة لأرض السهوب، وصنيعا يهدف للخير.

تجاهلـــت الذئاب تلك الغزلان التي سقطت أرضا بعد أن التهمت الشيء الكثير بحيث لم تعد تستطيع أن تركض، اتجهت مباشرة إلى تجمعات الحيوانات التي تسمّرت في مكانها. فتكت الـــذئاب الأضـــخم حجما على عجل بالضحايا، وخرقت رقابها، فتصاعدت إثر ذلك تيارات قرمزيّة شقّت طريقها في الهواء، ولطّخت الثلج. كانت الغزلان، بالرغم من حاستي البصر والشم الحادتين لديها، مرتعبة للغاية بفعل هذه الاستراتيجية – قتل الدجاج لإخافة القرود – فتشتّتت وهـــي تعـــدو في طريقها إلى الجبل. قاد العديد من ذكور الغزلان الكبيرة عوائل منها إلى أعلى المـــنحدر، حيث توقفت، وصارت تركض هنا وهناك في شكل حلقات، مترددة في الهبوط إلى الجانـــب الآخـــر. بدا واضحا أن الغزلان التي في الطليعة قد اكتشفت الخطر الذي يكمن عند المـــنحدر الثلجي الأبيض، حيث إنها لم تشاهد ساق عشب واحدة؛ كانت الغزلان الأكبر سنا، التي تآلفت مع طبيعة المكان، قد استنتجت الاستراتيجية التي اتّبعتها الذئاب.

---

(1) كارل فون كلاوزرويتز: جنرال وكاتب بروسي اشترك في الحروب النابليونية وأصبح بعدها مديرا لكلية الحرب. أبرز كتبه **في الحرب** عن الاستراتيجية ألفه ما بين 1832 و1837. (المترجم)

على حين غرة، استدارت مجموعة الغزلان المحتشدة قرب بعضها بعضا، وعاودت النزول؛ اندفعت وكأنها انهيار صخري، بعد أن خمّنت عُشر أو نحو ذلك من ذكورها الكبيرة الخطر الذي يحدق بها. قررت اتباع الاختيار الأقل خطورة وذلك بتحويل وجهتها لاختراق الطوق.

أدركت ذكور الغزلان أن مصيرها يتأرجح على كفّ عفريت. تراصفت كتفا إلى كتف في مجموعات تتألف كل واحدة منها من أربعة أو خمسة من الغزلان، وأحنت رؤوسها مكونة كتيبة مسلحة بقرون قاتلة، وشنت هجوما على الذئاب. أما الغزلان الأخرى التي لا يزال بإمكانها الركض فقد تخلفت وراءها.

أدرك شن مدى الأذى الذي يمكن أن تلحقه تلك القرون. على أرض السهوب كان الرعاة يستخدمون قرونها كصنارات لخياطة الجلود؛ فهي حادة لدرجة؛ أنها تخترق جلود البقر، ولن يكون جلد الذئاب مشكلة بالنسبة إليها. نجح الهجوم المقابل حينما فتحت الغزلان ثغرة في الطوق، اندفع عبرها سيل أصفر اللون. أحس شن زن بالتوتر، وتوجّس خيفة من أن يؤدي انشقاق الصفوف هذا إلى فشل خطط قطيع الذئاب.

لكنه بعد ذلك رأى قائد قطيع الذئاب يقف بقامته منتصبا قريبا من الموضع المخترق في الصفوف، وهو يلقي نظرة غير مبالية كأنه رجل يفتح ثغرة في السدّ ليتخلّص من مياه الفيضان. حالما عبرت الغزلان التي واظبت على سرعة جريانها، وأبقت قرونها بارزة أمامها، وشقت طريقها عبر السدّ المفتوح، قاد قواته لكي يغلق الثغرة التي تم اختراقها. الآن لم يعد الطوق يحتوي إلا على غزلان ليس باستطاعتها أن تجري بسرعة، ليس لديها سلاح، وليست ذكية جدا. اندفعت حشود هوجاء من بينها، بعد أن أرعبتها مواجهة الذئاب المهاجمة، إلى أعلى المنحدر، ومن ثم توغّلت إلى الأسفل في الانجرافات الثلجية. عرف شن على الفور كيف سيؤول إليه مصير الحيوانات المطاردة؛ بأظلافها المدببة، وقوائمها الثقيلة، وبطونها المتخمة بالعشب.

اختفت كل من الغزلان والذئاب في الموضع الذي التقى فيه الجبل بالأفق. وفي الوقت الذي ركض فيه ألف غزال هارب لينجو بحياته، ساد السكون في أرجاء منطقة التطويق التي أضحت مشبعة بالدماء. ارتمت سبع أو ثماني جثث على المنحدر المغطى بالعشب؛ نازعت حيوانات جريحة أخرى من قطيع الغزلان بجهد واهن. لم تمضِ أكثر من عشر دقائق منذ اللحظة التي انطلق فيها الهجوم وحتى انتهاء المعركة. بدا لشن أنه قد حبس أنفاسه طوال الوقت؛ كان قلبه ينبض بسرعة فائقة.

نهض الرجل العجوز وتمطى، ثم جلس القرفصاء وسط الأعشاب النابتة عند طرف مغارة الثلج حيث أخرج غليونا له فم مصنوع من حجر اليشب[1] من جيب حذائه الجلدي الطويل.

---

(1) اليشب: حجر كريم أزرق اللون. (المترجم)

عـــبأه بالتبغ، أشعله، وبعد أن غطى الفتحة بغطاء من عملة فضية قديمة، استنشق ملء فمه عبوة من الدخان.

كـــان شـــن يعـــرف أن بلغـــي في فترة شبابه قد أعطى تاجرا صينيا من الهان، جاء من زانغـــياكو، عشرين قطعة من جلود الثعالب مقابل هذا الغليون؛ واعتبر الطالب أن تلك كانت صفقة خاسرة، لكن الغليون كان واحدا من أثمن مقتنيات الرجل العجوز، وقد تعاطف وقتها مع التاجـــر الذي اضطر إلى أن يقطع كل تلك المسافة إلى منغوليا للمتاجرة، معرضا نفسه لمخاطر الموت على أيدي قطاع الطرق طوال الطريق.

اســـتمر الـــرجل العجوز بنفث دخان غليونه. "يمكننا الرجو ع إلى المخيم بعد انتهاء هذا الغليو ن"، قال.

لكـــن شـــن كان لا يزال غارقا في نشوة الصيد. "ألن نلقي نظرة على الجانب الآخر؟". تساءل بلهفة. "أود أن أرى كم هو عدد الغزلان التي طوقتها الذئاب".

– ذلـــك شيء محفوف بالمخاطر كثيرا. على كل حال، إنني أعرف ذلك من دون أن أنظر. سيكون هناك المئات منها. باستثناء الغزلان الصغار، بالإضافة إلى الغزلان النحيفة، وتلك التي يمكن أن يحالفهـــا الحظ وتستطيع النجاة بطريقة ما إلى خارج الركام الثلجي، فالبقية مصيرها أن ترحل إلى تينغر. لا داعي لأن تقلق. لن يقدر هذا القطيع من الذئاب على التهام كل الغزلان التي قتلها، وحتى بعد أن تذهب مجموعتنا وتأتي بكل ما تستطيع أن تحمله، سيتبقى الكثير منها هناك.

– الغزلان الصغيرة، والضعيفة منها، كيف ستتمكن من النجاة؟

تغـــضنت عيـــنا الرجل العجوز وهو يبتسم ويقول: "الحيوانات الصغيرة نحيفة، مما يجعل أجسامها خفيفة الحركة، لذلك فهي لن تغطس عميقا في الثلج. إنها تتمكن عادة من العثور على سبيل للخلاص، ولن تذهب الذئاب في إثرها". ابتسم بابتهاج. "يا ولدي، أنت اليوم شاهدت فضائل الذئاب. فهي لا تحرس وتحافظ على السهوب فقط، لكنها جلبت لنا هدية العام الجديد. بفـــضلها سيكون هذا العام عاما طيبا. هناك قانون للسهوب يسود هنا، وهو أن غنائم الصيد تكـــون مـــن نصيب من يجدها أولا. ما دمت أنا وأنت كنا شاهدين فسأحرص على أن تحظى خيمـــتك بحصّة أكبر إلى حدّ ما. نحن المنغوليون نولي أهمية كبيرة لتسديد الديون ويرافق ذلك شـــعور بالامتـــنان. في المستقبل، لا تهدر وقتك بالكلام عن صيد الذئاب مع أشخاص صينيين آخرين أو غيرهم من الدخلاء".

* * *

بالكـــاد تمكـــن شن زن من احتواء شعوره بالانبهار؛ كان يتلهف كثيرا لأن يملأ إحدى العـــربات بأشـــلاء الغزلان ويرجع بها إلى الخيمة. "في السنتين اللتين أمضيتهما هنا"، قال، " لم تسبّب الذئاب شيئا سوى المتاعب. لم أتوقع أبدا أن أجني فائدة ذات يوم من جهودها".

- "نحـــن المنغولـــيون نستفيد من جهودها طوال الوقت"، قال الرجل العجوز. رفع عصا الراعــــي، وأشار إلى سلسلة جبال تقع خلفهما. "هناك سلسلة جبال أخرى خلف تلك الجبال. إنهـــا ليست جزءا من مراعينا، لكنها مشهورة في هذه الأرجاء. يقول الناس من كبار السن إن الجنـــرال العظـــيم موكالي من جيش جنكيزخان كان قد خاض إحدى المعارك هناك. لقد دفع بآلاف عديدة من فرسان قبائل الجورشين المحاربين الذين هم من سلالة جن العظمى ليسقطوا في انجراف ثلجي، وفي الربيع اللاحق عاد لإرسال الرجال لكي يجمعوا غنائم الحرب. كانت هناك جـــبال مـــن الـــسيوف والـــرماح والأقواس والنبال، بالإضافة إلى الخوذ والدروع، والسروج والفوانيس. من أين كان بمقدوره أن يتعلم ذلك سوى من الذئاب؟ إذا رجعت إلى كل المعارك الرئيـــسية التي لها علاقة بالمنغوليين، فإن أكثر من نصفها استُخدمت فيها مهارات مكتسبة من الذئاب".

عاد الرجلان مشيا إلى الوهاد التي خلفهما، وعندما رأى الحصان الأدهم سيّده، صار يهزّ رأســـه بعنف إلى الأعلى والأسفل بابتهاج. في كل مرة يرى فيها شن هذا الحصان، الذي أنقذ حياته ذات مرة، كان يربت على رأسه ليعبّر له عن امتنانه مرة أخرى. ردّ الحصان غريزيا على شـــكره أن دفـــع كتف شن برفق. لكن شن في هذه المرة شعر برغبة قوية في الربت بطريقة أو بأخرى على رأس أحد الذئاب.

رفعا الأربطة المصنوعة من جلود الأبقار عن حوافر الحصانين، وامتطيا صهوتي حصانيهما، فانطلق الحصانان يعدوان بخبب مريح عائدين بهما إلى المخيم.

نظـــر الرجل العجوز إلى السماء، وقال "سيستمر هذا الجو إلى يوم غد. إذا هبت عاصفة ثلجية هذه الليلة لن نحصل على غزال واحد".

3

كــان صباح اليوم التالي جيدا. ارتفع دخان المطابخ من الخيم وكأنه أشجار بتولا بيضاء نحــيفة تعانق أطراف أغصانها المرتفعة جدا عنان السماء، وتطل على الأراضي التي يشملها تينغر بــرعايته. كانــت الأبقار والخراف تجتر ما أكلته بتكاسل، وبددت الشمس هواء الليل البارد، والصقيع المتراكم على جلود الحيوانات تحول لتوه إلى ندى، ثم إلى سديم ضبابــي تصاعد لاحقا من أجسامها.

طلب شن زن من جاره غومبو أن يرعى خرافه بدلا منه في ذلك اليوم. وبما أن غومبو كان في وقت مضى يمتلك قطيعا من الخراف، فقد تم وضعه تحت المراقبة، وسلب منه حقه في رعــي الخراف؛ لكن الطلاب الأربعة من بكين كانوا يطلبون منه أن يهتم بالخراف التي لــديهم كلما أمكن ذلك، وبهذا تستطيع غاسماي أن تجعله يكسب نقاطا مناسبة في إنجاز العمــل. جهّز شن وأحد الرعاة الآخرين، وهو يانغ كي، عربة خفيفة واتجها بها إلى خيمة بلغي.

كان يانغ، زميلهم في الصف الذي يعيش في خيمة شن زن، ابنا لأستاذ معروف في إحدى أكثــر جامعــات بكين عراقة. كانت لديهم في المنــزل كتب كثيرة تشكل مكتبة صغيرة. في المدرســة الثانوية، كثيرا ما تبادل شن الكتب معه. وكانا يتناقشان حول وجهة نظر كل منهما بشأنها عندما ينتهيان من قراءتها، لقد ربطت بينهما عرى صداقة وطيدة. في بكين، كان يانغ فتى خجــولا، هادئ الطبع، يحمر وجهه خجلا كلما التقى بشخص غريب. لم يتوقع أحد أنه، بعد ســنتين من أكل لحم الحمل وشرائح لحم البقر والجبن، وبعد أن احترق جلد وجهه تحت أشعة الــشمس المنغولــية القوية فصلا بعد آخر، بأنه سيتحول إلى رجل مفتول العضلات من أبناء الــسهوب، وقد صار وجهه الذي لفحته حرارة الصيف يشبه وجوه الرعاة المحليين، ونسي كل شيء عن طباعه المستمدّة من مطالعة الكتب التي جلبها معه.

بــدا يانغ أكثر استثارة من شن، وفيما كان يمسّد على ظهر الثور قال: "لم أنم مطلقا ليلة البارحة. في المرة المقبلة عندما يصطحبك بلغي إلى الصيد، احرص على أن تدعني أرافقك، حتى لو اضطررت إلى البقاء هناك يومين كاملين. هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن ذئاب تؤدي عمــلا طيــبا للناس، وما كنت لأصدق ذلك حتى أخرجت بنفسي إحدى جثث الغزلان من الثلج. هل نستطيع جميعا أن نحصل على حمولة عربة كاملة ونعود بها معنا؟".

– "هل يمكن أن أكذب عليك؟". ابتسم شن. "قال بابا إنه مهما يكن إخراجها من الثلج صعبا إلاّ أننا سنضمن الحصول على حمولة عربة، ويمكننا مقايضتها بأشياء أخرى، مثل مستلزمات الاحتفال بالعام الجديد، وبعض القطع الكبيرة من اللباد لخيمتنا".

كان يانغ مبتهجا لدرجة أنه صار يدعك ظهر الثور بعنف إلى أن حملق فيه الحيوان غاضبا. "يبدو لي أن السنتين اللتين أمضيتهما منبهرا بالذئاب بدأت تعطي ثمارها"، قال. "ينبغي لي أن أبدأ بدراسة أساليبها الفنية في الصيد بنفسي. من يدري، ربما ستثبت أنها ذات فائدة في معركة حقيقية يوما ما... ما قلته لي يمكن أن يكون سياق عمل. إذا عشت في السهوب على المدى الطويل، مثل أي بدوي، فلن يغدو شيئا مهما إلى أي عرق تنتمي، ذلك لأنك عاجلا أم آجلا ستبدأ بتبجيل الذئاب، وتعاملها على أنها معلم ناصح مخلص. ذلك هو الذي حصل مع الهونز[1]، والووسن[2]، والأتراك، والمنغول، وغيرهم من الأقوام. أو هكذا يقولون في الكتب. لكن الصينيين يعتبرون استثناء في هذا المجال. أؤكد لك أن في وسعنا نحن الصينيون أن نعيش هنا لأجيال من دون أن نهتم ونقيم رمزا للذئب".

– "ربما، وربما لا"، قال شن وهو يشد سير عنان حصانه. "انظر إلي أنا، على سبيل المثال. لقد استحوذ الاهتمام بالذئاب عليّ خلال مدة لا تتجاوز السنتين إلاّ قليلا".

– "لكن معظم الصينيين هم أناس ريفيون"، قال يانغ معترضا، "أو إننا ولدنا من أصل ريفي. يتمتّع الفرد الواحد من الهان بعقلية ريفية من المستحيل أن تتزعزع، وإذا انتقلوا إلى هنا، يمكن أن أشعر بالاستغراب إذا لم يسلخوا جلود الذئاب التي على السهوب عن آخرها. إننا نتحدر من عنصر فلاحي، ويكمن الخوف والكراهية للذئاب في عظامنا. كيف يمكننا أن نبجّل رمزا للذئب؟ نحن شعب الهان نبجّل الملك التنين، ذلك الموكل برعاية سبل حياتنا الزراعية – إنه رمز التنين – بالنسبة إلينا، الذي ندين له بالولاء، والذي نرنو إليه بخشوع متطلّعين إلى التسامي. كيف تتوقع من شعب مثل هذا أن يتعلم من الذئاب، وأن يحميها، ويبجّلها، ومع ذلك فهو يقتلها، مثلما يفعل المنغوليون؟ إن الرمز الذي يبجّله شعب ما ينبغي حقا أن يوقظ روح الشعب وشخصيته الإثنية، سواء أكان تنينا أو ذئبا. الاختلافات بين الشعوب القروية والبدوية كبيرة جدا بكل بساطة. في الماضي، عندما كنا غارقين في خضمّ المحيط الصيني الشاسع من شعب الهان، لم يكن لدينا معرفة بتلك الاختلافات، لكن مجيئنا إلى هنا جعل نقاط الضعف المتأصّلة في

---

(1) الهونز: شعب من البدو الرعاة ظهروا من آسيا الوسطى، وغزوا الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا عام 370م.

(2) الووسن: أو أبناء البقرة، وهم قبيلة بدوية كانت وفقا للتاريخ الصيني تعيش شمال غرب الصين ثم فروا في العام 176 ق. م إلى منطقة نهر أيلي وبحيرة إيسيك كول حيث شكلوا قوة بعد أن دحرهم شعب زيونغنو وبقوا هناك على الأقل خمسة قرون. (المترجم)

خلفيتـــنا الفلاحية تبدو واضحة للعيان. بالتأكيد، فإن أبـــي أستاذ جامعي مرموق، لكن جده وجدة أمي كانا قرويين".

– "في الأزمنة القديمة"، قال شن وقد التقط طرف الخيط، "كان تأثير المنغوليين على العالم أعظـــم بكثير من تأثير الهان، الذين يفوقوهم في العدد بنسبة واحد إلى مئة. وحتى الآن، يعتبرنا الـــناس في الغـــرب أننا ننحدر من عنصر منغولي، ونحن نتقبل ذلك. لكن في زمن غابر حينما وحّـــدت سلالات الهان والكين[1] بلاد الصين، لم تكن كلمة *منغولي* موجودة. سأخبرك شيئا، إنـــني أشـــعر بالأسف على الصينيين ممن هم من الهان. لقد بنينا السور العظيم وتبجّحنا ببراعة الإنجاز الذي شيدناه، اعتبرنا أنفسنا مركز العالم، مملكة المركز. لكن في عيون الغربيين الأوائل لم تكـــن الصين إلا بلد الحرير، وبلد الخزف الصيني، وبلد الشاي. حتى الروس كانوا يعتقدون أن قبيلة كيتان الصغيرة هي الصين، وإلى يومنا هذا ما زالوا يسمون الصين كيداي".

– "يـــبدو أن انبهارك بالذئاب يستحق العناء"، قال يانغ. "إنه شيء ينتقل بالعدوى. الآن حـــين أقرأ التاريخ، وأطيل التأمل في القبائل البربرية التي تعيش في أرجاء المعمورة، أشعر بشيء يغريني للبحث عن صلاتها بالذئاب".

– "انظـــر إلى نفسك"، قال شن. "تكاد تكون منغوليا. كل ما تحتاج إليه فقط أن تمتزج دماؤك بدماء الذئاب. الهجناء مخلوقات متفوقة على الدوام".

– لا أستطيع أن أصف لك مدى شعوري بالسعادة لأنك دفعتني للمجيء إلى السهوب. أتذكـــر مـــا قلـــته لي، لقد لامس تلك البقعة الحساسة في داخلي؟ لقد نسيت، أليس كذلك؟ ســـأذكرك، لقـــد قلت: "إن السهوب تحتوي على أكثر مظاهر البدائية والحرية اكتمالا من أي مكان آخر".

أرخى شن سير عنان حصانه وقال: "أعتقد أنك تنسب لي كلمات لم تخرج من فمي".

ضحكا بحبور. تناثر الثلج من وقع دوران عجلات العربة فيما كانت تمضي مسرعة.

* * *

شكّل البشر، وهم يسوقون الكلاب، والعربات مشهدا على الثلج كأنه كرنفال للفجر. أرسل كـــل عـــضو في مجموعة غاسماي – التي تتألف من أربعة هوتات (كل خيمتين متجاورتين تشكلان هوتا) أي ما مجموعه ثماني خيم – رجالا وعربات. حُمّلت العربات لبادا، وحبالا، ومجارف، ومواد لإضرام النار، وخطافات ذات مقابض خشبية. ارتدى الجميع ملابس قديمة قذرة لأداء العمل المنهك المليـــيء بالقذارة، الذي ينتظرهم، ملابس قذرة لدرجة أن قذارتها تألقت، وقديمة لدرجة أن لونها قد اســـودّ، ومـــرقّطة برقع من جلود الأغنام. لكن الناس والكلاب كانوا مبتهجين وكأنهم القبائل التي

---

(1) كين: (221–207 ق. م) السلالة التي أسست أول إمبراطورية عظيمة في الصين.

كانـــت تتبع الحشود المنغولية القديمة وهي تكتسح ميادين المعارك لالتقاط غنائم الحرب. كان يجري تمريـــر قواريـــر الشراب من مقدمة الموكب إلى الجزء الخلفي منه، فتنتقل من أيدي النسوة إلى أفواه الـــرجال. ملأت الأثير أصوات الموسيقى: أغانٍ فولكلورية منغولية، وأناشيد مديح، وأناشيد حربية، وأغـــاني السكارى، وأغاني العشق والغرام؛ لقد تدفق سيل المياه بعد أن تهاوى السدّ. كانت الكلاب المنغولية، المكتسية بالفراء والتي يصل عددها إلى أربعين أو خمسين كلبا، تتصرف على غرار الأطفال، وتـــسعى لأن تلفـــت الأنظـــار بطيش في هذه المناسبة النادرة والسعيدة، تتراكض حول العربات، وتتمرّغ في الوحل، وتمارس ألعابا قتالية، وتتغازل مع بعضها بعضا.

تجمّـــع شن زن واثنان من رعاة الخيل، هما باتو ولامياف، بالإضافة إلى خمسة أو ستة من رعاة الأبقار والخراف، متحلقين حول بلغي، كأنهم حراس شخصيون لشيخ قبيلة. قال لامياف، وهـــو رجل ذو وجه عريض، وأنف مستقيم، وعينين تركيتين، موجها الكلام إلى بلغي، "ربما أكون أفضل رامٍ موجود في أي مكان، ومع ذلك لن أكون نظيرا لك. من دون أن ترمي طلقة واحدة جعلت كل عائلة في الفريق تتمكن من الاستمتاع بعطلة عام جديد عامرة بالولائم. حتى مع انشغالك بطالب متدرب مثل صديقنا من الهان شن زن، لم تنسَ طلابك المنغول القدامى. ما كنت أتوقع أبدا أن تبدأ الذئاب بشن هجومها هنا يوم أمس".

حملق فيه الرجل العجوز. "في المستقبل، عندما تحقق نجاحا في الصيد، ينبغي لك ألا تنسى الكـــبار في السن وطلاب بكين الذين ينتمون إلى الفريق. لم أشاهدك أبدا تعطي اللحم لأحد. أعطـــيت شن زن فقط قائمة غزال لأنه زار خيمتك. أهكذا نتعامل مع ضيوفنا؟ في أيام شبابنا، يكون أول غزال أو قضاعة[1] ثلوج نصطادها في السنة دائما من نصيب كبار السن والضيوف. الـــشباب في أيامـــنا هـــذه نسوا العادات التي انحدرت إلينا من عهد الخانات العظماء[2]. دعني أســـألك، كـــم ذئـــبا عليك أن تقتل كي تصل إلى مكانة بوهي، الصياد العظيم في لجنة بايان غوبـــــي؟ أنـــت تريد أن تقرأ اسمك في صفحات الجرائد، أن تسمعه يذاع في الراديو، وتفوز بجائـــزة، ألـــيس كـــذلك؟ إذا كنت تصيد الذئاب لأجل أن تحقق تميزا، فأين تظن أن روحك ســـتذهب بعـــد موتك؟ لا تقل لي إنك تريد أن تكون مثل الهان، تدفن في حفرة بالأرض! إذا فعلت ذلك، لن تصل روحك إلى تينغر على الإطلاق".

– "باتـــو هو ابنك"، قال لامياف فيما لمس الطرف الخلفي من قلنسوته المصنوعة من فرو الثعالب. "ربما لا تصدقني، لكنك حتما تصدقه. اسأله إن كان لدي أي اهتمامات في أن أصبح

---

(1) قضاعة أو ثعلب الماء: حيوان طويل الذنب قصير القوائم. (المترجم)

(2) الخانات العظماء: الخان لقب خلفاء جنكيزخان. كان هذا اللقب يطلق على أي رئيس لقبيلة منغولية. في ما بعد حصل تمييز بينه وبين الخان العظيم. استخدم لقب خان من قبل السلاجقة وسلالات شاه خوارزم كلقب لشخص يتمتع بمنـــزلة رفيعة، أو أي مالك أراض شاسعة لدى المسلمين. (المترجم)

صيادا عظيما. لقد جاء صحفي من الاتحاد المنغولي[1] إلى وحدة الخيل لرؤيتي يوم أمس الأول. باتو كان موجودا هناك؛ يمكنك أن تسأله لتتأكد أنني ذكرت له نصف عدد ما اصطدته فقط".

– "هل ذلك صحيح؟". استدار الرجل العجوز، وسأل ابنه.

– "نعـــم"، أجاب باتو، "لكن الرجل لم يصدقه. سأل الناس في مركز التسوق عن عدد جلود الذئاب التي باعها لامياف. تعلم أنهم بعد أن يتفحصوا نوعية الجلود لغرض تحديد السعر، يعطون البائع عشرين رصاصة. ولديهم سجلات موثقة. بعد أن عاد الصحفي إلى الاتحاد، قال علـــى المـــلأ إن لامياف يكاد يصل إلى مرتبة بوهي، الأمر الذي أفزع لامياف بحيث طلب من بعض الأشخاص الآخرين أن يبيعوا جلوده بدلا منه".

قطّب الرجل العجوز جبينه. "إنكما تصيدان الذئاب بكثرة. تقتلان أكثر من أي شخص في المراعي".

قال باتو مدافعا عن نفسه: "الأرض التي يرعى فيها قطيع خيلنا هي الأقرب إلى الحدود مع منغولـــيا الخارجـــية، وذلك هو المكان الذي تتجمع فيه أغلب الذئاب. إذا لم نصطدها ستعبر الحدود بأعداد أكبر. لم تتمكن أغلب المهرات من البقاء على قيد الحياة في تلك السنة".

– لِمَ أنتما موجودان معا هنا؟ هل تركتما القطيع برعاية زانغ جيوان؟

"الـــذئاب تأتي ليلا"، قال باتو، "لذلك نحن نعطيه مجالا للراحة في ذلك الوقت. لم يحصل على غزلان أبدا خلال اليوم الماضي، لذلك أتينا بدلا منه. يمكننا العمل بشكل أسرع".

هـــبطت شمس الشتاء متراخية في السماء، بدت مستقرة قريبا من الأرض. تحولت السماء الـــزرقاء إلى لون أبيض، مثلما حصل للأعشاب الجافة؛ بدأ سطح الثلج بالذوبان، شكل مرآة بـــراقة. أضـــفى المنظر على البشر، والكلاب، والعربات مسحة طيفية. وضع الرجال نظاراتهم الشمـــسية على عيونهم، في الوقت الذي غطت فيه النساء والأطفال عيونهم بأكمامهم المتهدلة. أغمض بضعة من رعاة الأبقار، الذين عانوا من عمى شمسي مؤقت، عيونهم، ولكن ليس الوقت مناسبا للحيلولة دون تدفق سيل من الدموع. من ناحية أخرى كانت الكلاب الكبيرة إما تراقب الأرانب الوحشية بعيونها الواسعة وهي تقفز هنا وهناك، أو تشم حافات الدرب، حيث تركت الثعالب آثارها مؤخرا على الثلج.

في الوقت الذي اقتربت فيه الكلاب من الموقع الذي جرت فيه عملية التطويق، اكتشفت شـــيئا جديـــدا على المنحدر، وأسرعت تعدو باتجاهه، مخلفة صيحات نباح مسعورة في إثرها. نهشت تلك الكلاب التي كانت لا تزال جائعة جثث الغزلان التي خلفتها الذئاب وراءها. لكن بـــار، كلـــب بلغي، وعددا قليلا من أفضل كلاب الصيد في الفريق، ركضت وقد تطاير شعر

---

(1) الاتحاد: وحدة إدارية تماثل تقريبا الولاية.

أعـــناقها صـــوب المكان الذي خلفت فيه الذئاب فضلاتها على الثلج، حيث أخذت تنقب في أرجـــاء المـــنطقة لكي تحدد أعداد الذئاب الموجودة هناك، ومدى قوتها، وأي ذئب ذكر كان يقودها. "يميز بار رائحة أغلب ذئاب أولونبولاغ"، قال بلغي، "وهي أيضا تميز رائحته. الطريقة التي ينتصب فيها الشعر على رقبته تمثل علامة مؤكدة على أن قطيع الذئاب كبير".

حيـــنما ولج الخـــيالة منطقة الصيد صعقهم المشهد المأساوي فأحنوا رؤوسهم ينظرون إلى الأرض. كل ما تبقى من أغلب الغزلان على المنحدر كانت رؤوسا وعظاما متناثرة. أشار بلغي إلى الآثـــار الواضـــحة على الثلج وقال: "بعض الذئاب قد عادت ليلة البارحة"، بعد ذلك أومأ باتجـــاه نتف صفراء اللون مائلة إلى اللون الرمادي من فراء الذئاب وقال: "تقاتلت بضعة قطعان مـــن الـــذئاب مع بعضها بعضا هنا. ربما كان قطيعا أتى من الجانب الآخر من الحدود بعد أن اقتفى أثر رائحة الغزلان. إن نقص الغذاء هناك يجعلها أكثر ضراوة من أي وقت مضى".

في الـــنهاية تمكـــن فريق الخيالة من الوصول إلى قمة التلال، حيث تصرفوا كما لو أنهم اكتـــشفوا بـــستانا وفـــير الثمار، احتفلوا بصخب كالمجانين. أشاروا بقبعاتهم إلى العربات التي خلفهم. قفزت غاسماي من عربتها، وأمسكت سير عنان الثور رصاصي اللون لتجعله يسرع في المـــسير. كـــذلك فعلت النسوة الأخريات. تابعوا مسيرهم مسرعين، لأن الثيران كانت سريعة والعربات خفيفة.

عندما رأى لامياف المنظر الذي في الأسفل، جحظت عيناه. "يا للهول!". قال مستغربا. "لقـــد تطلـــب الأمـــر قطيعا مذهلا من الذئاب حتى استطاع أن يسوق ذلك العدد الكبير من الغـــزلان إلى حـــتفه. في السنة الماضية احتجنا إلى أكثر من عشرين فردا منا نحن الرعاة لنطوّق ثلاثين غزالا، لقد أوشكت أحصنتنا أن تتهاوى على الأرض من الإعياء فيما كنا نحاول ذلك".

شـــدّ بلغي لجام حصانه، وأخرج منظاره متفحصا التلال الثلجية والجبال المحيطة. أوقف الجميع أحصنتهم أيضا، وصاروا يتلفتون حولهم، انتظروا سماع ما ينوي أن يقوله.

اســـتطلع شـــن المنحدر عبر منظاره. كانت أعداد لا تحصى من الغزلان قد دفنت تحت الركام الثلجي الذي ربما كان أيضا موقعا دفن تحته محاربون قدامى. بدا وسط الانجراف الثلجي صقيلا نسبيا، كأنه بحيرة جبلية حجزها الثلج والجليد. رقطت اثنتا عشرة أو نحو ذلك من جثث الغزلان المنطقة المنحدرة التي تحف بالبحيرة، لكن المنظر الذي بعث على الذهول عبارة عن سبع أو ثماني بقع صفراء اللون طفت على البحيرة، ولا يزال بعضها يتحرك. أدرك شن زن أن تلك الـــبقع كانت مجموعة من الغزلان انجرفت نحو البحيرة، ولكن لم يبتلعها الثلج. امتلأت المنطقة المحـــيطة بالبحيرة بالحفر، بعضها كبيرة، وبعضها صغيرة، في مواضع تمتد إلى مسافة بعيدة، وهي الآثـــار الوحـــيدة التي بالإمكان رؤيتها للغزلان التي غرقت في محيط الثلج. وعلى العكس من بحيرات الماء، فإن بحيرات الثلج تشير إلى الأماكن التي سقطت فيها الضحايا من الغرقى.

قـــال بلغـــي لـــباتو، "ابدأ أنت وبعض الأشخاص الآخرين بإزاحة الثلج لتفسحوا المجال للعربات بالاقتراب". ثم قاد شن زن ولامياف حتى ضفة البحيرة. "احرصا على تتبع آثار الغزلان والذئاب قبل القيام بأي خطوة، وتجنبا البقع التي تخلو من الأعشاب".

امتطيا صهوتي حصانيهما، وسارا بحذر متجهين إلى أسفل المنحدر. كان الثلج يزداد عمقا، و لم يشاهدا العشب إلاّ نادرا. هبطا إلى مسافة أبعد قليلا. ترقط سطح البحيرة بفتحات تقارب في عرضها أطراف العيدان التي يتناول بوساطتها الصينيون طعامهم. انبثقت سويقات أعشاب صفراء بإصــرار مـــن كل فتحة. قال بلغي: "لقد منح تينغر فتحات التهوية تلك للذئاب. كيف كانت تستطيع من دونها أن تتعقب رائحة ضحاياها الميتة تحت تراكم الثلج على هذا العمق؟".

ابتــسم شن زن وهز رأسه. كانت الفتحات وسيقان العشب تشكل علامات أمان. بعد بـــضع خطـــوات إلى أسفل المنحدر اختفت الأعشاب، ولكن بقيت هناك آثار غزلان وذئاب. اخترقت حوافر الأحصنة المنغولية القوية الثلج الصلب إلى عمق ثلاث بوصات، واستقرت داخل ركام من الثلج فيما اقتربت من بحيرة الثلج متجهة إلى الغزلان الميتة الأكثر قربا منها.

أخـــيرا، لم تـــتمكن الأحـــصنة من المضي إلى مسافة أبعد. نـــزل الرجال عن صهواتها، واندفعـــوا يكسرون السطح الصلب، وغطست أقدامهم عميقا في الثلج. كافحوا ليدوسوا الثلج بقـــوة فيـــشكلون أرضية متماسكة تمكنهم من الاستدارة. كان ثمة غزال نهشت الذئاب نصف جسده يرتمي عند إحدى حافات طبقة متكسرة من الثلج إلى جانب قدم شن زن. كان كل ما حوله مجرد عشب متجمد يختلط بأحشاء الغزال. انتشرت بقايا ثلاثين أو أربعين غزالا كانت قد قتلت، والتُهمت أجسادها في المساحة القريبة منها مباشرة. ذلك أقصى مدى كانت قد وصلت إليه الذئاب.

حدّق شن زن إلى المشهد الأكثر مأساوية الذي ربما يكون قد رآه في حياته. وقفت ثمانية أو تـــسعة غزلان صغيرة ترتعش فوق البحيرة على بعد مئة ياردة أو نحو ذلك عنه، أحاطت بها ثغـــرات مفـــتوحة في الثلج، حيث دفنت غزلان أخرى قبل الآن. هذه الغزلان الناجية كانت مرتعبة للغاية بحيث لم تعد تقوى على الحركة، لكن البقعة الصغيرة من الثلج الصلب التي وقفت عليها كانت على وشك الانهيار في أي لحظة. كانت هناك غزلان أخرى دفنت قوائمها النحيفة في الـــثلج لكـــن أجسادها بقيت مستندة إلى قشرة صلبة. كانت لا تزال على قيد الحياة لكنها مـــشلولة الحركة. هذه الأرواح الحرة ذات القوائم سريعة الحركة على السهوب أصبحت الآن تعاني من الجوع والبرد، لم تكن قادرة على الحركة، وهي تواجه شوطا أخيرا من عذابات الموت ذاته الذي ظل يطاردها.

لكـــن المنظـــر الذي يفطر الفؤاد أكثر من غيره هو سلسلة من رؤوس الغزلان التي نتأت خـــارج الـــثلج، بينما غمر الثلج أجسادها بالكامل. ربما وقفت على رابية صغيرة أو ربما على

جثث رفاقها. باستخدام المنظار، تصور شن أن في وسعه رؤية أفواه الغزلان تتحرك، كما لو أنها كانت تصرخ طلبا للنجدة، بالرغم من أن صوتا لم يخرج من أفواهها.

تلألأ سطح البحيرة الصلب وكأنه الجليد، كان جميلا إلاّ أنه لا يخلو من الغدر والقسوة، إنها هبة أخرى من تينغر للذئاب والبشر، سلاح خفي فتاك يحرس السهوب. لقد نتجت القشرة الصلبة عن عواصف الثلج الشتوية وتأثير الشمس. الرياح التي تندفع عبر الأرض كأنها مكائن غربلة، عملت على تحريك مسحوق الثلج الناعم من جديد مخلفة وراءها بساطا كثيفا من الحبيبات التي شكّلت ملامح المشهد الموشّى بالثلج. خلال الصباحات التي تخلو من هبوب الرياح، قريبا من منتصف النهار، تحت أشعة الشمس الكثيفة، يبدأ الثلج بالذوبان، لكن رياح ما بعد الظهيرة الباردة تعود لكي تجمّده مجدّدا. بعد هبوب العديد من العواصف الثلجية على المشهد الطبيعي، تتشكل قشرة تصل سماكتها إلى ثلاث بوصات تقريبا، وتكون مزيجا من الجليد والثلج، إنها أكثر صلابة من الثلج؛ لكنها أكثر هشاشة من الجليد؛ إنها قشرة ملساء وزلقة، وعمقها غير منتظم. في الأماكن الأكثر سماكة فيها، يمكنها أن تتحمل ثقل رجل، ولكن هناك أماكن قليلة فيها لا يمكنها أن تتحمل الحوافر الحادة للغزلان المنغولية.

جعل ذلك المشهد شن يرتعش فزعا. لقد سحبت الذئاب كل الغزلان التي استطاعت أن تأخذها معها إلى خارج الثلج، مما شكّل ممرات طويلة وسمت حافات الثلج العميق بخطوط متقاطعة حين ساقت الذئاب ضحاياها إلى مكان بعيد. كانت النهايات البعيدة للممرّات عبارة عن مسالخ ومناطق للتريّض في الهواء الطلق. لم تؤكل إلا الأحشاء واللحم المنتقى بعناية فائقة؛ أما ما تبقى فقد نُبذ كفضلات. من الواضح أن الذئاب قد سمعت صوت اقتراب الناس والكلاب، وغادرت المكان مسرعة، ذلك لأن حبيبات الثلج كانت لا تزال تتحرك على السطح، والبقع التي تغوطت فيها الذئاب لم تتجمد بعد.

تقاتل الذئاب المنغولية ببراعة فائقة في ميدان ثلجي، فهي تدرك تماما محدوديّات النزال. إنها تتجاهل الغزلان التي تكون في مكان بعيد على الثلج، تلك التي على السفوح والتي غطست عميقا تحت سطح الثلج. لم يكن هناك من أثر يذكر لغزال يمكن أن تكشف عنه عملية تقصٍّ بمسبار خارج حدود المنطقة الآمنة. يمكن للغزلان التي جرى سحبها إلى خارج الثلج أن تطعم قطعان عديدة من الذئاب الكبيرة؛ أما الجثث المتجمدة التي تم التغاضي عنها فهي تمثل الطعام الطازج المضمون لقطيع الذئاب، ذلك لأنها ستبقى مخزونة هناك حتى ذوبان الثلج في فصل الربيع، حيث تعود الذئاب من أجل أن تتناول مزيدا من الوجبات الطازجة اللذيذة. هذا الركام الثلجي الهائل والبحيرة الثلجية يشكلان مستودعا مجمّدا طبيعيا لقطيع الذئاب. قال العجوز بلغي، "هناك مستودعات للذئاب تحت الجليد والثلج في أنحاء متفرقة من أولونبولاغ. ليس هذا سوى المستودع الأكبر. كثيرا ما تخزّن الذئاب فرائسها في أماكن مثل هذه لكي تبعد عنها شبح

التضوّر جوعا في السنة اللاحقة. تعتبر لحوم الغزلان المتجمّدة هذه طعاما ينقذ حياة الذئاب التي تغـــدو هزيلة أكثر في فصل الربيع، وتكون في أجساد هذه الغزلان كمية من الشحوم أكثر حتى من الغزلان التي ما زالت على قيد الحياة، التي هي أكثر نحافة". أشار الرجل العجوز إلى إحدى الفتحات وقال ضاحكا، "الذئاب التي هنا تعرف حقا كيف تعيش حياتها. لسنا كفؤا لها. حين يحـــل الـــشتاء مـــن كل عام يذبح الرعاة أبقارهم وخرافهم قبل أن تبدأ بفقدان الشحوم التي اكتنـــــزتها في الخريف وبعدها يخزنون لحومها، التي تكفيهم طوال الشتاء. لقد تعلموا ذلك من الذئاب".

عـــندما حدد بار وكلاب أخرى مواضع غزلان ما زالت على قيد الحياة، تحفزت غرائز الـــصيد لـــديها وعـــدت باتجاهها. لكن عندما وصلت إلى البقعة التي اختفت فيها آثار خُطى الـــذئاب، توقفت. بعد أن حرمت الكلاب من لذة القنص، مدّت أعناقها وأخذت تنبح بجنون باتجاه الغزلان. كانت بعض الغزلان المستهدفة مرعوبة إلى درجة أنها اقتحمت بحيرة الثلج. لكن قـــبل أن تـــصل إلى مسافة بعيدة تخلخلت القشرة من تحتها، وغطست داخل الثلج الذي يشبه الرمال المتحركة، وكافحت لفترة قصيرة قبل أن تختفي عن الأنظار. تحرك الثلج الذي من فوقها كأنـــه رمـــل ينساب في ساعة رملية، إلى أن شكل قمعا. برز أحد الغزلان مخترقا القشرة، دفع بقائمتـــيه الأماميـــتين إلى الخارج مستندا إلى النصف الأمامي من جسده بينما غطس النصف الخلفي داخل الثلج. لقد أنقذت نصف حياة؛ حتى تلك اللحظة.

شـــق الفريق ممرا لفسح المجال للعربات بالنـــزول قريبا من المنحدر، وعندما وصلت عربة الريادة إلى نقطة لا يمكن تجاوزها توزع صف من العربات خلفها. نـــزل الرجال أولا، وصاروا يجرفون الثلج من حولهم حتى يمكنهم تفريغ ما تحمله العربات.

ســـار الـــرجال متجهين إلى بلغي. "أنتم جميعا، انظروا كيف تجمد الثلج الذي في ناحية الغرب وصار صلدا؟". قال. "لا توجد كثير من الفتحات هناك، لكن يوجد الكثير من فضلات الغزلان وآثارها، وذلك يعني أن الكثير منها قد هرب".

قـــال راعي الخراف سانجاي ضاحكا، "يمكنني أن أرى الذئاب تخطئ التقدير أحيانا أيضا. لو كان الذئب الأكبر للقطيع قد أرسل أربعة أو خمسة من الذئاب إلى هنا لإغلاق هذا الممر، لما استطاعت تلك الغزلان الفرار بهذه السهولة".

- "لـــو كـــنت أنـــت الذئب الذي يقود القطيع"، قال بلغي بصوت ينمّ عن الازدراء، "ستتـــضور جـــوعا حتى الموت. إذا قتلت جميع الغزلان مرة واحدة، ما الذي ستأكله في السنة التالية؟ الذئاب ليست جشعة مثل البشر، إنها تعرف كيف تقيّم الأمور كبيرة الأهمية!".

- "هناك أعداد كبيرة جدا من الغزلان هذه السنة"، قال سانجاي. "يمكن أن تقتل ألفا أخرى ومع ذلك يبقى لديك المزيد. أريد الحصول على نقود تكفي لإقامة خيمة جديدة، وأن أتزوج".

حملق الرجل العجوز فيه وقد اعتراه الغضب، "عندما تتزوجون أنتم الأبناء والأحفاد وتنقرض الغزلان، فما الذي قد يحدث؟ أنتم الشباب ستصبحون بالتدريج مثل أولئك الدخلاء طوال الوقت".

بعد أن رأى بلغي أن النساء كن قد أفرغن العربات، وقمن بشق ممرات تؤدّي إلى أماكن بعيدة من بحيرة الثلج وذلك بإزاحة الأغوار التي عملتها الذئاب عندما أخرجت جثث الغزلان من أعماق الثلج، وإنهن عملن أيضا ضفّة من ركام الثلج، نظر نحو السماء، وترنّمت شفتاه بشيء ما. خمّن شن زن أنه كان يطلب من تينغر التصريح لهم بدخول بحيرة الثلج، واستخراج الغزلان الميتة.

أغمض الرجل العجوز عينيه لوهلة، ثم فتحهما مجددا وقال: "هناك عدد وفير من الغزلان المتجمدة عند قاع الثلج، لذا لا تكونوا جشعين. عند وصولكم إلى ذلك المكان عليكم أولا أن تخلصوا الغزلان التي استطاعت أن تنجو من الموت، جميعها، قبل أن تستخرجوا المتجمّدة منها. لم يشأ تينغر لتلك الحيوانات أن تموت، لهذا يتوجب علينا إنقاذها". أحنى رأسه وقال موجها كلامه لشن زن ويانغ كي، "عندما انتهى جنكيزخان من إحدى عمليات التطويق خلال ممارسته رياضة الصيد، ترك عددا قليلا من الحيوانات تذهب في حال سبيلها. لقد قاتل المنغوليون بتلك الطريقة قرونا من الزمن، وذلك هو السبب الذي جعلنا نحصل على هذه الطرائد سنة بعد أخرى، مثلنا مثل الذئاب، نحن لا نقتل كل الفرائس".

خصص بلغي قاطعا يحتوي على مجموعة من الغزلان لكل عائلة، ثم تركهم يباشرون العمل معتمدين على أنفسهم. اتبع كل منهم عادات الصيد، وذلك بأن تركوا الفتحات الأقرب والأكثر وفرة بالغزلان للطلاب ولبلغي الذي قاد شن ويانغ حتى وصلوا إلى عربته حيث أفرغوا منها حزمتين كبيرين من اللباد كل واحدة منهما عرضها ياردتان تقريبا، وطولها أربع ياردات. بدا أن اللباد قد جرى رشه بالماء في وقت سابق، لأنه كان متجمدا صلبا. سحب كل من شن ويانغ حزمة منه إلى الممر الذي تم تمهيده، فيما حمل بلغي عصا طويلة من شجر البتولا ثبّت بطرفها خطاف معدني. كان كل من باتو وغاسماي يحملان أيضا حزما كبيرة من اللباد باتجاه منطقة الثلج العميقة؛ مشى بايار الصغير خلف والديه، وقد حمل خطافا على كتفه.

بعد أن وصلوا إلى حافة الثلج العميق أعطى بلغي توجيها إلى شن ويانغ بأن يفرشا إحدى حزم اللباد على قشرة الثلج الصلدة، ثم طلب من يانغ، وهو الأثقل وزنا بينهما، أن يرى ما إذا كانت ستتحمل ثقله. بدت قطعة اللباد وكأنها لوح تزلج ضخم. داس يانغ على قطعة اللباد، فصدرت أصوات طقطقة عن الثلج الذي تحتها، لكن لم تظهر علامات توحي بالخطر. قفز يانغ عليها عدة مرات. غطس اللباد من تحت قدميه قليلا ولكن ليس بشكل محفوف بالمخاطر. سارع الرجل العجوز طالبا منه أن يتوقف. "لا تفعل ذلك عندما تخرج إلى الثلج العميق. إذا اخترق

جسمك اللباد ستصبح أنت نفسك غزالا مجمدا، ولا تعتبرها مزحة. بما أن شن زن أخف وزنا منك، سأذهب معه لنستخرج بعض الغزلان. بعد ذلك يمكن أن تذهبا معا بمفردكما".

قفـــز يانـــغ وساعد الرجل العجوز على الصعود إلى قطعة اللباد. تبعه شن. تحمل اللباد بسهولة ثقل الرجلين وبدا أنه سيصمد تحت وطأة الثقل الإضافي لبعض الغزلان. حالما استقرا في وضعهما، سحبا حزمة اللباد الثانية وفرشاها أمام القطعة التي وقفا عليها. جعلا القطعتين تتخذان شـــكل زاوية قائمة مع بعضهما بعضا، ثم انتقلا إلى القطعة الثانية. بعد أن ركّزا عمود الخطاف للأسفل، صارا يكرران العملية، وذلك بتحريك القطعة الأولى لتخرج من أمام الثانية. فعلا هذا مرة بعد أخرى كما لو أنهما كانا يبحران على قاربين من اللباد، متوجهين بحركة انسيابية باتجاه غزال لا يزال على قيد الحياة.

في آخـــر الأمـــر، صار شن زن يركب على متن واحد من تلك الابتكارات المذهلة التي اختـــرعها ســـكان السهوب للانتقال عبر الثلج، والفرار من العواصف الثلجية التي تؤدي إلى كوارث. كان عدد لا يحصى من الرعاة المنغوليين قد ركبوا مثل هذه القوارب طوال ألف عام، هاربين من متاهة الثلج، ومنقذين معهم أعدادا هائلة من الخراف والكلاب. لقد أتاحت لهم هذه الوسيلة أيضا أن يستخرجوا ضحايا حملات الصيد التي تشنها الذئاب، وكذلك البشر، والتقاط غـــنائم الحرب التي تترك فوق بحيرات ثلجية. وبدلا من أن يُبقي بلغي هذا السر المنغولي خافيا على شخص غريب، كان يعلّم طلاب بكين كيف يمكنهم الاستفادة منه. هكذا حظي شن زن بالفرصـــة الرائعة لأن يصبح أول صيني من الهان يبحر بالفعل على متن واحد من تلك القوارب البدائية القديمة.

من وقت إلى آخر، ومع اكتساب قارب اللباد شيئا من السرعة، كان الثلج الصلب الذي تحتهما يتشقق ويتهشّم، وشعر شن كأنه على بساط سحري، ينـــزلق عبر البياض الثلجي الذي تحته، يرتجف من الخوف، منبهرا بتوقع خطر محدق، يطفو مثل كائن أسطوري، ويشعر بالامتنان البالغ للذئاب والبشر من سكان السهوب؛ لأنهم جعلوه يتعرف إلى نوع يكاد يكون خياليا من الحـــياة البدائية. تجمعت ثمانية قوارب من اللباد، ستة عشر بساطا طائرا مقتربة من بعضها بعضا علـــى بحيرة الثلج كما لو أن كلا منها كان يطارد الآخر، أثارت سحبا من المسحوق الثلجي. نـــبحت الكلاب، وتعالت صيحات الناس. ارتسمت ابتسامة على ثغر تينغر. وعلى حين غرة مـــرت سحابة داكنة ثقيلة فوق الرؤوس، جعلت درجة الحرارة تنخفض بصورة حادة، فتحوّل الثلج الذي كان قد باشر بالذوبان فورا إلى جليد هش، وساعد على تصلب السطح الذي كان صـــلبا أصلا، وضاعف نسبة الأمان في عملية استخراج الغزلان، مع عدم وجود ضرورة لتغيير الخطـــط. أزاح الرجال نظاراتهم الشمسية، فتحوا عيونهم على اتساعها، ووجهوا أنظارهم عاليا نحـــو السماء. "تينغر!"، صاحوا بابتهاج. "تينغر!". اكتسبت القوارب الآن سرعة أكبر، تشجّع

ملاحــوها، وفي تلك اللحظة شعر شن فعلا بوجود تينغر، ذاك الذي داعبت صورته روح شن مرة أخرى.

بعـــد ذلــك، ومــن دون سابق إنذار، انطلقت صيحات ابتهاج من يانغ كي وبايار من خلفهمـــا، التفت شن. "أمسكنا واحدا!"، صاح يانغ وبايار معا. "أمسكنا واحدا!". وجّه شن مــنظاره إليهما ورأى ذلك بشكل أو بآخر، وبتوجيه من بايار، استطاع يانغ أن يُخرج غزالا كبيرا من الثلج. كانا يسحبانه من قائمته عائدين به إلى العربة، فيما هرول آخرون وهم يحملون المجارف على أكتافهم.

مــضى قارب اللباد إلى مسافة بعيدة عن الساحل الآمن، واقترب أكثر من أحد الغزلان، وهــي أنثــى حامل كانت ترتسم في عينيها نظرة خوف وجزع، نظرة تعبّر فيها عن التضرع. وقفـــت أنثـــى الغزال وقد أحاطت بها ثقوب في الثلج على بقعة صلبة ليست أوسع من طاولة صـــغيرة يمكـــن أن تـــتقوض في أي لحظة. "مدّ الخطاف ببطء إلى الجانب الآخر"، قال الرجل العجوز. "لا تفزعها. إننا نتعامل مع كائنين ما زالا على قيد الحياة هنا. الحياة في السهوب صعبة علينا جميعا، ومن المهم أحيانا إنقاذ الحيوانات الحية".

أومأ شن، واستلقى على بطنه، وحرّك قطعة اللباد برفق إلى الأمام مرورا بالثقوب إلى أن أصبحت بجانب قدمي أنثى الغزال. تحملت قشرة الثلج الصلبة ثقلها. ربما جرى إنقاذ الغزال من قبل، أو ربما أدركت أنثى الغزال وجود فرصة ضئيلة لنجاة الجنين الذي تحمله في بطنها، لكنها علـــى كل حال، وثبت على قطعة اللباد، واستقرت مباشرة على ركبتيها وهي ترتجف بشكل مستمر. بدت مشلولة الحركة من الإنهاك، متجمدة تقريبا، وتكاد تفقد صوابها من شدة الخوف.

ندت عن شن تنهيدة ارتياح عندما وضع الرجلان أقدامهما برفق على القطعة الأمامية من اللـــباد، وأخذا يسحبان القطعة الخلفية بحذر حول الثقوب التي في الثلج، دافعين إياها إلى ناحية الغـــرب، حـــيث الـــثلج أشد صلابة. بعد تكرار المناورة عشر مرات أو نحو ذلك، وصلا إلى مـــنحدر، مـــن السهولة اجتيازه، حيث استبدلت الثقوب التي في الثلج بفضلات الغزلان وآثار قـــوائمها. "حسنا"، قال الرجل العجوز، "دعها تذهب. إذا سقطت في أحد الثقوب الآن فتلك مشيئة تينغر".

اقتـــرب شـــن من أنثى الغزال ببطء، ونظر إلى عينيها. لم يشاهد غزالا؛ رأى أيلا سهل الانقـــياد على وشك أن يصبح أما. كانت أنثى الأيل تحمل جمال الأمومة في عينيها الواسعتين الرقيقتين. مسّد قمة رأسها؛ فتحت عينيها تماما، الآن بدت وكأنها تستجدي الرحمة. ربّت شن بلطـــف على المخلوق الضعيف العاجز الذي يجثو عند قدميه، وأحس بقلبه يرتعد. لماذا لم يبذل جهـــدا من أجل أن يحمي هذه الحيوانات الرقيقة الجميلة المسالمة التي تقتات على الأعشاب بدلا مـــن أن يـــتّجه باهتمامه تدريجيا نحو الذئاب، تلك التي كان من طبيعتها القتل؟ بعد أن أمضى

حياته وهو يستمع إلى حكايات تضفي على الذئاب طبيعة عدوانية، قال من دون تفكير: "هذه الغزلان مخلوقات تستحق الشفقة حقا. الذئاب حيوانات شريرة، إنها تفتك بالأبرياء، لا تعرف أي قيمة للحياة. إنها حقا تستحق أن يصطادها المرء، وأن يسلخ جلودها".

تبدلت تعابير وجه بلغي العجوز فجأة، وابتلع شن بعصبية بقية الكلام الذي كان على وشك أن يفوه به. عرف أنه قد اقترف إساءة ضد الرجل العجوز والرمز المبجل لدى سكان السهوب. لكن الكلمات كانت قد خرجت من فمه، و لم يعد هناك ما يمكن أن يفعله إزاء ذلك الآن.

حدّق الرجل العجوز إلى شن، وقال وقد اعتراه الغضب: "هل يعني ذلك أن العشب ليس نوعا من أنواع الحياة؟ وأن لا حياة في السهوب؟ في هذا المكان، يعتبر العشب والسهوب جوهر الحياة، الحياة الكبرى، وكل ما عدا ذلك ليس إلاّ نوعا من أنواع الحياة الصغرى التي تعتمد على الحياة الكبرى في البقاء. حتى الذئاب والبشر هم من أنواع الحياة الصغرى. المخلوقات التي تقتات على العشب أسوأ من المخلوقات التي تلتهم اللحوم. بالنسبة إليك فإن الغزال يستحق الشفقة، أما العشب فلا يستحق الشفقة، أليس كذلك؟ الغزال لديه أربع قوائم سريعة الحركة، وفي أغلب الأحيان تنزف الذئاب دما من الإعياء وهي تحاول الإمساك بها. حين تعطش الغزلان تجري نحو النهر لتشرب، وحين تشعر بالبرد تذهب إلى بقعة دافئة في الجبل من أجل أن تتشبع أجسادها بشيء من دفء الشمس. لكن ماذا عن العشب؟ العشب الذي يمثل الحياة الكبرى، ومع ذلك فهو أكثر أنواع الحياة هشاشة، أكثرها تعاسة وبؤسا. إن جذوره لا تتوغل عميقا في التربة، ولا تكون التربة التي ينمو فيها صلبة، ومع أنه ينمو على الأرض، إلا أنه لم يُعطَ القدرة على الفرار. يستطيع أي مخلوق متحرك أن يدوس عليه، ويأكله، ويجتره، ويسحقه. بإمكان حصان يبول على العشب أن يفسد بقعة كبيرة منه. وإذا نبت العشب في الرمل أو الشقوق التي تتخلل الصخور، يكون قصيرا أيضا، لأنه لم يعطَ القدرة على تكوين الأزهار، مما يعني أنه لن ينشر بذوره. بالنسبة إلينا، نحن المنغوليون، ليس هناك شيء يستحق الشفقة أكثر من العشب. إن شئت أن تتحدث عن القتل فالغزلان تقتل من العشب أكثر مما تستطيع أي ماكنة حصاد أن تقوم به. عندما ترعى الغزلان على الأرض، أليس ذلك قتلا؟ أليس ذلك سلبا للحياة الكبرى من السهوب؟ عندما تقتل الحياة الكبرى للسهوب، فكل أنواع الحياة الصغرى تتعرض للهلاك. الضرر الذي تُلحقه الغزلان يفوق إلى حدٍّ كبير أي ضرر تسببه الذئاب. إن الغزلان الصفراء هي الأكثر فتكا، لأنها تستطيع أن تقضي على حياة الناس هنا". ارتعشت لحية الرجل العجوز الرفيعة المشذبة بطريقة أسوأ من ارتعاش الغزال الممدّد عند أقدامهما.

كان شن زن يبدو متأثرا بعمق بمونولوج الرجل العجوز؛ لقد لامست كلماته فؤاده بشدة، وكأنها وقع طبول تقرع للحرب، تتكرر أصواتها بإصرار وتعبّر عن ألم دفين. لقد تفوق

سكان السهوب كثيرا على الفلاحين، ليس فقط من ناحية استراتيجيات المعارك وقوة الشخصية؛ لكن في أنماط التفكير أيضا. هذا المنطق العريق في القدم كان يمثل السبب الجوهري الذي وراء حدوث صراعات مستمرة وعنيفة وقعت خلال ألف عام بين آكلي اللحوم وآكلي الأعشاب. ألقى الرجل العجوز مونولوجه وكأنما كان يقف على الهضبة المنغولية الفسيحة، ويلقي نظرة إلى الأسفل على سهول شمال الصين: يصدر أوامره، وقد كشّر عن أنياب ذئب، بصوت قوي رنان، حاد النبرات ومقنع. لم يكن في وسع شن، بالرغم من أنه مجادل بارع، أن يفوه بكلمة. تقوّضت الكثير من وجهات نظره بشأن العالم، والتي استندت إلى ثقافة الهان الزراعية، وهي تواجه منطق وثقافة السهوب. إن السكان من البدو يحرسون *الحياة الكبرى* – حيث بقاء السهوب والطبيعة أكثر قيمة من بقاء البشر. وكان الناس الذين يفلحون الأرض، من جهة أخرى، يحرسون *أنواع الحياة الصغرى* – التي يعتبر البشر أثمن ما فيها، ويعتبر بقاؤهم على قيد الحياة الشيء الأكثر أهمية من غيره. لكن، كما قال بلغي، من دون الحياة الكبرى، تواجه أنواع الحياة الصغرى الهلاك. أعاد شن التأمل في هذا مرة تلو الأخرى، وسبب له ذلك ألما وعذابا إلى حدٍّ ما. لكنه استذكر بعدها المذابح الكبرى التي تعرض لها من كانوا يفلحون الأرض من قبل البدو على مر التاريخ، والأعمال الشنيعة التي اقترفوها لغرض إعادة تحويل الأراضي الزراعية إلى أراضٍ للرعي، وساورته الشكوك من جديد. كان دائما يعتبر مثل هذه الأعمال متخلفة، ورجعية، وبربرية. لكنه اضطر إلى إعادة النظر في موقفه بعد التأنيب الذي تلقاه من الرجل العجوز، الذي استخدم معيار الحياة الكبرى وأنواع الحياة الصغرى. يشير كل من الغربيين والشرقيين جميعا إلى الأرض على أنها أم البشرية. إذا، كيف يمكن لأي إنسان يتسبب بإلحاق الأذى بأمنا الأرض أن يعد متحضرا؟

تساءل بصوت يعتريه الوجل: "إذا، لماذا تعتقد بأنه من المهم جدا بالنسبة إليك أن تطلق هذه الغزلان؟".

– "الغزلان تجتذب الذئاب"، قال الرجل العجوز. "الذئاب تصطاد الغزلان، وذلك يؤدي إلى تقليل الخسائر التي تلحقها بالأبقار، والخراف، والأحصنة. توفّر الغزلان أيضا دخلا إضافيا للرعاة. في الحقيقة، يعتمد كثير من المنغوليين على ما يكسبونه من صيد الغزلان في تشييد خيمهم، لكي يستطيعوا أن يتزوجوا، وينجبوا الأطفال. المنغولي يكرس نصف حياته للصيد. إذا لم نتمكن من الصيد ستغدو حياتنا أشبه باللحم بلا ملح، حياة لا طعم لها. نحن المنغوليون يجن جنوننا إن لم نمارس مهنة الصيد، ويرجع جزء من السبب في ذلك إلى الرغبة الدفينة فينا في حماية الحياة الكبرى للسهوب. إننا نصطاد الحيوانات التي تأكل أعشابنا أكثر بأضعاف المرات من تلك التي نصطاد فيها الحيوانات التي تأكل اللحوم". قال وهو يتنهد. "هناك كثير من الأمور التي لا تفهمونها أنتم الصينيون. إنكم تقرأون الكتب، لكن ما تجدونه فيها مجرد أفكار وهمية. الصينيون

يؤلفون كتبهم من أجل دعم قضايا خاصة بالصين. أما المنغوليون فيعانون لأنهم لا يستطيعون تأليف الكتب. لو كان بوسعك أن تتحول إلى منغولي وتؤلف لنا كتبا فإن ذلك سيكون شيئا رائعا".

أومأ شن برأسه فيما انشغل ذهنه بالتفكير، وتذكر كل الحكايات الخرافية التي كان قد قرأها في طفولته. كانت *الذئاب رمادية اللون* مخلوقات غبية، وجشعة وشرسة، بينما الثعالب ذكية وجديرة بالمحبة. لم يدرك إلا حينما أتى إلى السهوب أنه ليس في الطبيعة من حيوان متوحش تطوّر ليغدو أكثر تساميا وكمالا من الذئب رماديّ اللون. أدرك أن الكتب، وخصوصا الحكايات الخرافية، غالبا ما تضلل الناس.

ساعد الرجل العجوز أنثى الغزال على الوقوف على قدميها ولكزها لتنطلق نحو الثلوج، إلى بقعة ترابية انبثقت فيها أطراف أعشاب برية قليلة مخترقة السطح. انحنت أنثى الغزال الحامل الجائعة وانتزعتها. سحب شن رقعة اللباد على عجل. تقدمت أنثى الغزال بضع خطوات متعثرة، تنبهت إلى آثار الغزلان الأخرى، وانطلقت تعدو باتجاه سلسلة الجبال من دون أن تلتفت إلى الوراء؛ وسرعان ما توارت عن الأنظار بين الجبال.

جلب باتو وغاسماي أيضا غزالا لا يزال على قيد الحياة، غزالا نصفه بني اللون. تمتمت غاسماي، "هوليهي، هوليهي"، (الرحمة، الرحمة)، بينما التقطته عن الأرض وحملته بين ذراعيها، ثم وضعته على الأرض الثلجية، وأطلقته ليجري باتجاه سلسلة الجبال بعد أن ربتت على ردفه.

أعطى شن لغاسماي إشارة بإبهامه معبرا فيها عن الإعجاب بما فعلته. ضحكت وقالت: "لقد وقعت أمه داخل حفرة في الثلج، وبقي يحوم ويركض حول البقعة ليس إلاّ، لم يكن يريد أن يترك المكان. مرت علينا لحظات عصيبة فيما كنا نحاول أن نمسك به، إلى أن استطعنا إسقاطه أرضا بأنشوطاتنا".

اقتربت قوارب الثلج الأخرى، وشكّلت الغزلان الناجية فوق سطح الثلج في نهاية الأمر حشدا صغيرا اتخذ سبيله نحو سلسلة الجبال حتى توارى عن الأنظار. قال الرجل العجوز: "تعلمت تلك الحيوانات شيئا ما هنا. في المستقبل، لن تستطيع الذئاب الإمساك بها".

4

في نهاية الأمر، استطاع الناس تجميع مؤنهم التي استحقوها عن جدارة للسنة الجديدة. كان الهـــواء الـــذي يبعث على التجمد فوق البحيرة الثلجية قد أصبح أثقل وطأة، والثلج الذي على السطح أكثر صلابة. قال الرجل العجوز للصيادين: "تينغر يحثنا على أن نتحرك بسرعة". لذلك هـــرول الـــرجال إلى مواقعهم، وتصاعد البخار نتيجة الحماس والنشاط مرة أخرى من منطقة الـــصيد. قـــاد بلغي شن زن إلى فتحة متوسطة الحجم في الثلج، حيث توقفا. "لا تبحث عن الفتحات الأكبر حجما"، قال، "لأنها تحتوي عادة على سبعة أو ثمانية غزلان مختنقة، وكل تلك الحرارة تمنعها من التجمد فورا. عندما يزداد ارتفاع درجات الحرارة بين عشية وضحاها تتفسخ أجـــساد الحـــيوانات، وتتصلب قوائمها، ويتحول لون جلد بطونها إلى لون أرجواني. يصبح ما يقارب نصف لحم أبدانها رديئا في الوقت الذي تتجمد فيه أخيرا. هكذا فإن ما تحصل عليه هو غـــزال متجمد نصف لحمه لا يصلح للأكل. في مركز التسوق، ستحصل على أقل من نصف ســـعر غزال كبير، نقودا مقابل الجلد فقط، ولا سنت مقابل اللحم. لكن اللحم المتعفن يكون مفضلا لدى الذئاب، وستبقى الغزلان التي دفنت هنا في أذهانها طوال الشتاء. لذا سنترك صفوة الطعام الذي تفضله الذئاب لها وحدها".

تمدد الرجل العجوز على قطعة اللباد، ودس عمود الخطاف الذي كان يحمله داخل فتحة في الـــثلج، حـــيث كانت بعمق ست أقدام على الأقل. ظل يسبر غورها إلى أن انتزع العمود بـــشكل مفاجئ. "أمسكت واحدا"، قال لشن. "ساعدني على رفعه". بدأا برفع الحيوان، كانا يـــسقطانه إلى الخلف قليلا بين الحين والآخر وذلك لغرض السماح للثلج المزاح لأن يملأ الثغرة الـــتي تتـــشكل تحته. انتصبا واقفين على اللباد، انحنيا لسحب العمود؛ قبل مضي وقت طويل، اخترق السطح رأس غزال ميت مغطى بالثلج. علّق الخطاف بالغزال من بلعومه، مما حافظ على سلامة الجلد. انحنى شن، أخرج الغزال (الذي كان وزنه يصل إلى خمسين أو ستين كيلوغراما) ممـــسكاً إيـــاه من الرأس، وسحبه إلى قطعة اللباد. كان الغزال متجمدا بالكامل، لم تكن بطنه منـــتفخة ولا أرجوانية اللون؛ لقد مات وتجمد بسرعة. "إنها عينة مثالية"، قال الرجل العجوز. "سيباع بأعلى سعر".

– "يـــوجد المزيد هناك"، قال وهو يستنشق نفسا عميقا من الهواء. "حاول أن تستخرج واحـــدا. ذلك يشبه انتشال دلو من قاع بئر. عندما تعثر على البقعة المناسبة من جسده وتمسكه

منها، اجذب بكل قوتك. لا تغرز الخطاف في موضع بحيث تفسد الجلد مما يجعل السعر ينخفض". وافق شن بلهفة، تناول العمود، ودفعه إلى داخل الفتحة، وبدأ يستكشف العمق. كان في وسعه أن يستشعر وجود غزالين أو أكثر هناك لكنه استمر يحرك العمود في أرجاء الموضع لكي يرسم في ذهنه معالم شكل أحدها. عندما شعر بمكان البلعوم، نخع العمود إلى الأعلى إلى أن بدا عالقا بشكل جيد. بعد طول انتظار، تمكن شن من اصطياد سمكة كبيرة من بحيرة ثلجية في السهوب المنغولية. كان الغزال يزن أيضا حوالى خمسين أو ستين كيلوغراما، طريدة كانت تستطيع مسابقة حتى أسرع الأحصنة. صاح وقد غمره الابتهاج ليانغ كي، الذي لا يزال عند ساحل البحيرة، "انظر، أمسكت بواحد، غزال كبير جدا! كانت معركة حقا!".

- "ارجع إلى هنا، هلا فعلت؟". أجاب يانغ كي، وقد بدا عليه التلهف لتحقيق التعادل. "ارجع ودعني ألقي نظرة عليه! ودع بابا يأخذ قسطا من الراحة".

تعالت صيحات ابتهاج على البحيرة والمنحدر عندما استخرجت غزلان كبيرة ذات لحم وفير وجلود سليمة إلى السطح، وتسابقت الأطواف الثلجية الواحد تلو الآخر للوصول بسرعة إلى الساحل. كان قلة من أسرع العمال قد انطلقوا حينئذ في رحلتهم الثانية. كان الطوف الذي يعتليه باتو، وغاسماي، ولامياف أكثر الأطواف كفاءة. لقد استخرجوا أكثر الغزلان ضخامة وحجما من دون وقوع خطأ يذكر وبسرعة مذهلة. عندما كانوا يسحبون حيوانات متوسطة أو صغيرة، أو كبيرة الحجم لكنها ذات بطون منتفخة أو أرجوانية اللون، تلك التي لن تأتي بأسعار جيدة، كانوا يقذفون بها مجددا نحو التجويف. كانت حملة حصاد وفير، لا يُرى لها مثيل عادة إلا في الربيع، حين تولد الحملان الصغيرة، وتنتشر بأعدادها الكثيرة على الهضبة الثلجية الجرداء. حتى المفترس منها يتحول أحيانا إلى فريسة، فكّر شن في ذلك بارتياح مشوب بالتجهّم.

أبحر شن والرجل العجوز بطوفهما، الآن بعد أن أثقل وزنه بغزالين كبيرين، عائدين إلى الساحل، حيث قدّم يانغ كي المساعدة لبلغي على النزول. دفع شن بالغزالين إلى خارج الطوف، وجرها الرجال الأربعة إلى عرباتهم. هناك اكتشف شن أن العربتين كانتا محملتين مسبقا بأكداس من الغزلان الكبيرة، وسأل عن سبب ذلك. قال يانغ كي، "استخرجنا أنا وبايار أحدها. البقية هدايا من بعض العوائل الأخرى. إنها عادة متبعة في أولونبولاغ، هكذا قالوا". ضحك. "التعلق بأذيال بابا حقق لنا حصصا إضافية".

اشترك بلغي في الضحك. "إنكما من مواطني السهوب أيضا"، قال. "عليكم أن تتعلموا عاداتنا، وتتمسكوا بها". جلس الرجل العجوز القرفصاء، وقد بدا عليه التعب بوضوح بجانب العربة لينفث دخان غليونه. "اذهبا أنتما معا"، قال، "لكن كونا حذرين. إذا حدث أن سقطتما افتحا سيقانكما، وأخرجا أذرعكما على الفور، واحبسا أنفاسكما. بتلك الطريقة لن تغطسا عميقا جدا. أيا كان الذي يبقى على الطوف، عليه أن يغرز العمود في القاع، لكن عليه أن

يتوخى الحذر لئلا يصيب الآخر بالخطاف في وجهه. ذلك سيفسد عليكما طموحاتكما في الزواج". اختنق بضحكته. ثم أخبر بايار أن يبحث عن شيء يضرم به نارا للطهي.

اندفع كل من شن ويانغ بحماسة، سارا حتى وصلا إلى طوف اللباد، وعند اقترابهما من منطقة الثلج العميق على مقربة من الساحل، وجد شن فتحة بدت وكأنها نفق يمتد في أعماق البحيرة الثلجية. قال يانغ كي ضاحكا: "لم أشأ قول شيء قبل لحظة، لأن بابا كان قريبا منا، لكن هذه الفتحة في الثلج كنت قد حفرتها مع بايار، إنه المكان الذي وجدنا فيه ذلك الغزال الضخم. سأخبرك شيئا، ربما يكون بايار ذاك صغيرا، لكنه شجاع. عندما رآكم هناك فرش معطفه الفرو، ولأنه خفيف الوزن، فقد زحف على الثلج من دون أن يسقط. عثر بايار على إحدى الفتحات في الثلج قبل أن يجتاز مسافة خمس أو ست ياردات فقط، وهكذا عاد زاحفا وحفرنا نفقا في الثلج. لم نضطر إلى الحفر إلى مسافة بعيدة من أجل الوصول إلى الغزال، بعدها نزل، وربط حبلا حول إحدى قوائم الغزال. عندما رجع قمت بسحب الغزال إلى خارج الثلج. لم يكن بايار خائفا، ولكن طوال الوقت الذي بقي فيه هناك كنت قلقا من أن يتهاوى الثلج فوقه ويدفنه".

– "ذلك لا يثير استغرابي"، قال شن. "أي فتى لا يخاف من الإمساك بتلابيب ذئب بيديه المجردتين لن يرتجف خوفا من سقوطه في حفرة في الثلج. الآن أنت تعرف ما الذي بإمكان طفل منغولي أن يفعله. تصور فقط ما الذي سيصبح عليه حين يكبر!".

– "عندما أخبرته ألا ينزل إلى داخل الثلج"، قال يانغ، "قال إنه عندما كان في السابعة من عمره زحف إلى داخل وجار للذئاب وسرق بطنا[1] من الجراء، لذلك لا تعتبر مغارة الثلج شيئا مهما! قلت إنك تريد جرو ذئب، أليس كذلك؟ حسنا، خذ بايار معك واقتنصا واحدا".

– "لست أنا من يفعل هذا"، أجاب شن. "هؤلاء منغوليون، كل ما أستطيع القيام به هو الوقوف متفرجا من بعيد، وإبداء إعجابي بهم".

عندما اعتلى الطالبان طوفهما الثلجي المنغولي، بدا وجه يانغ متغضنا بالبهجة. "لا يمكنني التصور كم هو شيء عظيم أن يمارس المرء الصيد في السهوب. إن رعي الخراف يبعث على الضجر كثيرا. حالما دخلت الذئاب في الصورة، صارت حياتنا أكثر متعة وإثارة بكثير".

– "هذه مقاطعة شاسعة مترامية الأطراف، غير مكتظة بالسكان"، قال شن. "أحيانا لا يجد المرء خيمة واحدة منصوبة ضمن مسافة تمتد أميالا. من دون الذئاب وممارسة الصيد، ستكون الحياة شيئا سخيفا هنا. لقد أدمنت على القراءة في الأيام الأخيرة، ويبدو لي أن هؤلاء الناس كانوا يبجلون رمز الذئب منذ آلاف السنين".

---

(1) البطن: مجموع الجراء التي تلدها أنثى أحد الحيوانات دفعة واحدة. (المترجم)

بعد أن تناولا لحم الغزال المطبوخ، وشربا الشاي في ذلك الصباح، أضحت لديهما طاقة مضافة، لذلك انزلقا على سطح الثلج فيما كانت تندفع من فاهيهما سحب من البخار الأبيض، واحتضّت أذرعهما وسيقانهما باضطراب كأنهما متسابقان في زوارق التنين، وكانت الرقعتان اللتان تشكلان طوفهما اللبادي تتبادلان المواقع بسرعة. أخيرا، تمكن يانغ أيضا من اقتناص غزال بالخطاف، وشعر بحماسة كبيرة لدرجة أنه كاد يقلب الطوف رأسا على عقب، مما حدا بشن أن يندفع، وقد تصبب منه عرق بارد، ليهدئ من روع صديقه. صاح يانغ وهو يوجه لطمة بيده على جسد الحيوان المتجمد، "ظننت أنني كنت أحلم عندما رأيت الناس يمسكون هذه الأشياء بالخطاف ويخرجونها من فتحات الثلج، لكنني تيقنت الآن من أنه ليس حلما. هذا شيء رائع! والفضل كله يعود لك أيتها الذئاب. الذئاب! الذئاب!".

رفض يانغ أن يعطي الخطاف لشن، الذي كان مهتما جدا بتأمين سلامتهما بحيث تجاهل حتى المشاجرة بشأنه، واكتفى بأن يقوم بدور القوة العضلية المؤازرة لصديقه. على كل حال، أمسك يانغ بثلاثة غزلان واستبدت به نشوة الإدمان على ما كان منهمكا به من عمل بحيث إنه لم يرغب في الرجوع إلى الساحل. قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة توحي بالخبث: "دعنا نستخرج بعض الغزلان الأخرى ونعود بها كلها في وقت واحد. تلك طريقة أكثر جدوى". ومن دون أن ينتظر ليفكّر ولو لثانية، ألقى الأشلاء المتجمدة على سطح الثلج المتصلب.

هناك على الساحل كان بلغي قد انتهى من نفث دخان غليون من التبغ، وطلب من الناس أن يشكلوا فسحة واسعة، حيث كوّمت النساء من كل عائلة ألواحا محطمة، ومحاور عجلات خشبية، وما شابه ذلك لإضرام النار فيها. بعد ذلك فرشت قطع لباد قديم في أرجاء المكان، وكُومت عليها أكداس من قناني الحليب والشاي والشراب العازلة للحرارة، وأواني منزلية خشبية، وخوابي ملح. ذبح سانجاي واحد الصبيان زوجا من الغزلان التي كانت تشرف على الموت، كان كل من الغزالين قد انكسرت قوائمه. لا يأكل الناس في أولونبولاغ إلاّ لحم حيوانات مذبوحة توا، لذا فهي ستكفي لإعداد وجبة منتصف النهار للصيادين. حدّقت الكلاب، التي أتخمت بلحوم الغزلان المقتولة التي خلفتها الذئاب وراءها، بلا مبالاة إلى الغزالين المسلوخين اللذين انتزعت أحشاؤهما وتصاعد منهما الدخان. قطع بلغي والنساء والأطفال شرائح غليظة من اللحم الطري، وخزوها بأسياخ معدنية وخشبية، أضافوا إليها الملح، وحملوها فوق المشعلة المضطرمة. بعد ذلك عادوا للجلوس ليأكلوا اللحم ويرتشفوا الشاي؛ انتشر أريج الشاي المغري، إلى جانب تلك الروائح المنبعثة من الشراب واللحوم عبر أرجاء البحيرة، وجذب انتباه الصيادين فعادوا للأكل والراحة.

خلال منتصف النهار، كانت جميع الأطواف قد قامت برحلتين أو ثلاث إلى الساحل لتفريغ حمولتها من الطرائد. وحملت كل عربة تابعة لإحدى العوائل أكداسا عالية تتألف من

ستة أو سبعة غزلان متجمدة. حان الوقت بالنسبة إلى الرجال أن يحوّلوا العمل إلى النساء والأطفال الذين تغذوا جيدا، فصعد هؤلاء على متن أطواف اللباد، وانطلقوا إلى سطح البحيرة الثلجية ليجلبوا المزيد من الغزلان.

يعتبر لحم الغزال الطازج المشوي وجبة طعام مترفة في السهوب المنغولية، وخصوصا بعد رحلة صيد، عندما يُشوى اللحم ويؤكل في مكانه. من الناحية التاريخية، كان ذلك طعاما مفضلا للخانات وطبقة النبلاء، وطُقسا أساسيا في تجمعات الصيادين العاديين. بما أنهما صيادان معترف بهما منذ مدة قصيرة، فقد تمت دعوة شن زن ويانغ كي للمشاركة في الوليمة. جعلت بهجة الصيد، إلى جانب الإعياء المطبق، شن يشعر بشهية بالغة بحيث تصور أنه يعرف قيمة المناسبة أكثر من أي خان منغولي؛ كانت وليمة تقام في الهواء الطلق للبشر على أثر وليمة سابقة كان قد أقامها قطيع ذئاب متوحشة في الهواء الطلق أيضا. انتزع شن ويانغ، اللذان شعرا في تلك اللحظة بالتحرر والاقتدار مثل أي رجل منغولي، القوارير على نحو متهور من أيدي رفاقهما الصيادين الذين كانوا يحتسون الشراب ويأكلون ويغنون بحماسة وهيام، واحتسيا جرعات كبيرة من الشراب.

قال بلغي وقد تفجرت عنه ضحكة مباغتة: "سأشعر بالخوف من الذهاب لرؤية والديك في بكين بعد سنة من الآن، لأنني في غضون ذلك الوقت سأكون قد حولتك إلى صفوف المنغوليين المتوحشين".

"يمكننا نحن الهان أن نحتسي كؤوسا مترعة من الشراب المنغولي"، قال يانغ كي وقد فاحت رائحة قوية من أنفاسه.

صاح شن زن بصوت جهوري *بابا*، ثلاث مرات، رفع القارورة بيده فوق رأسه، واقترح شرب نخب شيخ *القبيلة المبجل*. شرب الرجل العجوز ثلاث جرعات من قارورته، وترنم منشدا *مينيبو*، *مينيبو*، *مينيسابيو* (طفلتي، طفلتي، طفلتي الحبيبة).

صفع باتو، وقد استبد به طيش السكارى، شن على قفاه، وقال، "أنت... أنت لست إلا نصف منغولي، عـ... عندما، تتزوج فتاة منغولية... امرأة، تصبح أبا، ويكون عندك ط... ط... طفل منغولي مزعج، عندها ستصبح منغوليا حقيقيا. إنك، إنك تقف في الجانب الضعيف، لا فائدة، لست جيدا، لست جيدا بما يكفي، النساء المنغوليات تحت... تحت ملاءات السرير، يردن منك أن تبذل جهدا، إنهن أسوأ من ذئب... ذئاب. الرجال المنغوليون، معظمنا، نخاف منهن، وكأننا نحن الخراف".

- "في الليل"، أطلق سانجاي صفيرا حادا، "يصبح الرجال خرافا، والنساء ذئابا. وخصوصا غاسماي".

هدر جميع الصيادين ضاحكين.

كان لامياف يتمتع بروح معنوية عالية بحيث دفع يانغ كي بقوة فارتمى على كومة من الثلج. "عندما... عندما يمكنك أن تفعل ذلك لي"، قال متلعثما، "أي عندما... في اليوم الذي تصبح فيه منغوليا". أمسك يانغ بتلابيب لامياف، وحاول أن يرميه على الأرض، لكنه انقلب رأسا على عقب ثلاث مرات أخرى. ضحك لامياف. "أنتم... أنتم الصينيون من الهان آكلو أعشاب، مثل الخراف. نحن المنغوليون آكلو لحوم، مثل الذئاب".

فيما كان ينفض الثلج عن ملابسه، قال يانغ: "عليك أن تنتظر فقط. في السنة المقبلة سأشتري ثورا ضخما وآكل كل قطعة منه بمفردي. إنني أنوي أن أجعل جسمي ينمو حتى أصبح أطول منك كثيرا، عندها ستكون أنت مثل خروف".

- "نعم!"، صاح الصيادون الآخرون موافقين. "إنه رد بارع!".

يعرف عن منغوليي السهوب قدرتهم على احتساء الشراب أكثر من شهيتهم لأكل اللحوم. بعد بضع جولات من الشراب، فرغت جميع القوارير السبع أو الثماني. بعد أن رأى يانغ أنه لم يعد هناك المزيد من الشراب، نادى بجرأة على لامياف: "يمكنك أن تغلبني في المصارعة، ولكن دعنا نرى من الذي سيتغلب على الآخر في الشراب".

- "أنت تلعب دور الثعلب، أليس كذلك؟". ردّ لامياف على التحدي بمثله. "حسنا، في هذا المكان الذئاب أذكى من الثعالب. أنتظر هنا. لدي مزيد من الشراب". اتجه راكضا إلى المكان الذي يقف فيه حصانه، وأخرج زجاجة من الشراب الصافي من حقيبة سرجه المصنوعة من اللباد، بالإضافة إلى قدحين. لوّح بالزجاجة أمام يانغ قائلا: "كنت أدخر هذه لـ... للضيوف، ولكن الآن سأحتسيها لمعاقبتك".

- "عاقبه!"، هتف الصيادون. "عاقبه! امنحه ما يستحقه!".

بابتسامة مشوبة بالإحراج، قال يانغ كي: "يبدو أن هذا التعلب ليس ندا للذئب. سأتقبل عقوبتي".

- "اسمع... اسمع جيدا"، قال لامياف. "من أجل أن تتبع عاداتنا عليك أن تحتسي عددا من الكؤوس بقدر ما أطلب منك ذلك. أخطأت ذات مرة في التعبير عن نفسي، وتغلب عليّ في الشرب صحفي كان يعرف عادات كل من المنغوليين والهان. سأحرص هذه المرة على أن تتذوق طعم الهزيمة". ملأ كأسا وهو يترنم بلكنة صينية تكاد أن تكون مفهومة: "تحلق قبرات المروج أزواجا، نشرب كأسين مقابل كل جناح".

شحب وجه يانغ كي، "أربعة أجنحة تضرب في كأسين، ها! ذلك يساوي ثماني كؤوس! ما رأيك بكأس واحدة مقابل كل جناح؟".

- "إذا لم تلعب حسب القوانين"، أجاب لامياف، "سأجعلها ثلاثا، أعني... ثلاث كؤوس مقابل كل جناح".

صاح حشد الصيادين، ومن ضمنهم شن زن، بصوت إيقاعي: "اشرب! يجب أن تشرب!".

بعد أن وجد أنه لا بدّ له من المواجهة اندفع يانغ ليحتسي ثماني كؤوس، واحدة تلو الأخرى. ضحك الرجل العجوز. "إن حاولت خداع صديق لك هنا فستتورط بالمتاعب في كل مرة"، قال.

انتزع شن ويانغ أسياخا من اللحم المشوي من يد الرجل العجوز، وأكلا باستمتاع شديد، فيما كان الدهن الممزوج بالدم يقطر من ذقنيهما.

- "بابا"، قال شن، "هذه هي المرة الأولى التي آكل فيها طعاما تأكله الذئاب، وهو أفضل شيء أكلته في حياتي، أفضل لحم تذوقته على الإطلاق. الآن أصبحت أعرف السبب الذي جعل الكثير من الأباطرة وأبنائهم صيادين جشعين. كان تايزونغ من سلالة التانغ[1]، إمبراطور الصين الأعظم، يعشق الصيد. وقد اعتاد ابنه، وريث عرشه، على المجيء إلى السهوب بمرافقة حراسه الأتراك لركوب الأحصنة والصيد، حتى إنه كان ينصب خيمة وفقا للطراز المتبع في السهوب في باحة القصر، حيث كان مثلكم يذبح الخراف ويأكل لحمها، ويسلخ شرائح اللحم عن العظام بسكينه الخاصة. بالنسبة إليه، كانت الحياة في السهوب أفضل من منصب الإمبراطور. كل ما كان يريده هو أن يمارس الصيد برفقة حراسه الأتراك تحت رايته التي تحمل صورة ذئب تركي، أن يعيش كإنسان تركي في السهوب. في آخر الأمر، خسر حقه في المطالبة بالعرش، واختار أبوه أخاه وريثا لعرشه. الحياة هنا يمكن أن تستحوذ حتى على اهتمام إمبراطور".

استمع الرجل العجوز باهتمام وقد اتسعت عيناه. "لم تخبرني بذلك أبدا"، قال. "إنها قصة جيدة. سيكون شيئا رائعا لو استطعتم أنتم الهان جميعا أن تعرفوا قيمة السهوب مثل ذلك الأمير، غالبا ما كان أباطرة سلالة الكنغ[2] يأتون إلى هنا للصيد، أو للبحث عن فتيات منغوليات للزواج بهنّ. ولم يكونوا يسمحون لرعاياهم من الهان بأن يجعلوا أرض السهوب متاحة لزراعة المحاصيل فيها. في تلك الأزمنة لم تكن هناك حالة قتال بين المنغوليين والصينيين؛ كنا نعيش فترة سلام في ما بيننا".

كان بلغي يحب الاستماع إلى حكايات شن التاريخية، واعتاد على أن يردّ الدين الذي يترتب إثر ذلك في عنقه بسرد حكايات من منغوليا. "أي شخص لا يأكل الطعام الذي تأكله الذئاب هو ليس منغوليا حقيقيا من السهوب. ربما لن يبقى هناك منغوليون من دون وجود الذئاب. في الأيام الماضية، حينما جرت عملية مطاردة للمنغوليين حتى وصلوا إلى شفير الدمار،

---

(1) تانغ (618-907م) سلالة حكمت الصين مباشرة بعد سلالة سوي التي لم يدم حكمها طويلا، وشكّلت فترة حكمها عصرا ذهبيا ازدهر خلاله الشعر، وأعمال النحت وانتشرت الديانة البوذية. (المترجم)

(2) كنغ (1644-1912م) هي السلالة الأخيرة ضمن السلالات الإمبراطورية التي حكمت الصين. (المترجم)

تمكنوا من النجاة لأنهم كانوا يتناولون طعام الذئاب المخزّن تحت تراكم الثلوج. لقد كان أحد أسلاف جنكيزخان، الذي تسلل إلى أعماق الجبال، على وشك أن يموت جوعا، عاش هناك مثل إنسان بدائي عادي. بلغ به الأمر أنه كان يتتبع الممر الذي تسلكه الذئاب؛ كلما فتكت بفريسة، كان ينتظر إلى أن تأكل الذئاب ما يكفيها وترحل، ثم يقتات على ما تخلفه وراءها. عاش على ذلك المنوال وحيدا في الجبال لسنوات عديدة، إلى أن عثر عليه أخوه وعاد به إلى بلاده. الذئاب هي صاحبة فضل على المنغوليين، أحيانا تنقذ حياتهم. من دونها ما كان ليحيا لا جنكيزخان، ولا منغوليون. إن طعام الذئاب لذيذ المذاق. انظر إلى ما منحتنا إياه الذئاب في الاحتفال في عامنا الجديد... بالرغم من أن ذلك لا يتحقق بمثل هذه السهولة في أغلب الأحيان. ذلك هو الدرس الذي ستتعلمه يوما ما".

تم التهام لحم الغزالين عن آخره، وبدأت النيران المشعلة بالخفوت محدثة حسيسا، طلب بلغي من الناس أن يخمدوا النار بالثلج.

تكاثف ستار الغيوم، وبدأ هبوب الرياح المشبعة بالثلوج يصل إليهم من أعالي الجبال، مما شكّل حجابا ضبابيا شفافا. ركب أكثر الصيادين قوة عضلية أطوافهم الثلجية، وانطلقوا متوجهين إلى بحيرة الثلج. كان من الضروري تحميل العربات قبل أن تملأ الثلوج الفتحات التي على سطح البحيرة. كل غزال يستخرج بالخطاف كان يعني إمكانية شراء ست أو سبع كتل مضغوطة من الشاي السيلاني، أو دزينة أو نحوها من كارتونات سجائر هايهي التي تأتي من تيانجن، أو خمس عشرة أو ست عشرة زجاجة من الشراب المنغولي الرائق. تحت قيادة بلغي جرت المناورة باستخدام جميع الأطواف من قبل الصيادين من الجزء الأعمق في البحيرة إلى البقع الأكثر ضحالة، حيث كان من السهولة أكثر استخراج الغزلان المتجمدة. وزع الرجل العجوز الناس أيضا إلى فرق، فالأشخاص الأكثر مهارة في استخدام الأعمدة كانوا يركّزون على استخراج الحيوانات بالخطاف، وأولئك الأكثر براعة في المناورة بالأطواف يهتمون بنقل الحيوانات والعودة بها إلى حيث توقفت العربات. عندما اقتربت الأطواف من الساحل، استخدمت الحبال، حيث وقف عدة رجال عند حافة البحيرة وكانوا يلقونها وكأنها حبال المرساة نحو الأطواف المحملة بالأشلاء، ثم يربط الصيادون طرف الحبل بالطوف ويلقون بالطرف الآخر إلى الوراء حتى يتمكن الرجال الذين كانوا هناك من سحبها إلى حافة البحيرة. تكررت العملية مرة بعد الأخرى.

في الوقت الذي غرقت فيه الظلال البشرية التي كانت تقف على البحيرة الثلجية كافة تحت ظل الجبل كانت الأطواف قد حمّلت بأكداس عالية، لكن قلةً من الرجال أرادت البقاء لاقتناص الغزلان ليلا على ضوء المصابيح، وليجمعوا المزيد من الغزلان على حافة البحيرة، بمعاونة حراس مسلحين، على أن يرجعوا لأخذها في صباح اليوم التالي. أوقفهم بلغي. "لقد

وهبـــنا تينغـــر يوما طيبا"، قال لهم موبخا، "تينغر يتصف بالعدالة. ما دامت الذئاب قد التهمت خرافنا وأحصنتنا فهذه هي التعويضات التي نستحقها. الآن أطلق تينغر الرياح لتعصف بالمكان، إنه يخبرنا أن نترك الغزلان المتبقية للذئاب. أي واحد منكم مستعد لأن يعصي تينغر؟ أي واحد منكم على استعداد لأن يتخلف عن الركب وسط هذا الركام من الثلوج؟ إذا خرجت الذئاب مع عاصفة ثلجية في هذه الليلة، أتساءل من الذي سيبقى منكم إلى صباح الغد؟".

قـــوبلت تصريحاته بالصمت. أعطى الأمر بالعودة على الفور. دفع الناس المنهكون، لكن الـــسعداء، الأطواف بحمولتها الثقيلة لمساعدة السائقين على الملاحة عبر الكثبان والمرتفعات، ثم اعتلوا صهوات أحصنتهم أو صعدوا إلى العربات واتجهوا عائدين إلى المخيم.

أحـــس شن زن بالعرق يتفصد من جسده المقشعر. لم يستطع التوقف عن الارتجاف. في كل مكان – على البحيرة وهناك بعيدا، على المرتفعات والممرات التي تتخلل الثلج –كان البشر قـــد تركوا آثارهم: رماد النيران التي أضرمت، أعقاب السجائر، وزجاجات الشراب، بالإضافة إلى آثار العجلات على طول طريق العودة إلى المخيم. لكز شن حصانه بركبته ليقترب أكثر من بلغـــي. "بابا، هذه المرة مُنّيت الذئاب بالخسارة. هل تسعى لتأخذ ثأرها؟ كنت دائما تقول إنها تتمتع بذاكرة قوية. إنها تتذكر مواقع طعامها ومعاركها؛ ماذا عن أعدائها؟".

– اســـتخرجنا الكـــثير من الغزلان، لكننا تركنا أكثر من نصف العدد للذئاب. في الربيع المقـــبل ستقيم الذئاب الولائم على الغزلان المتجمدة، ولن تظل تتسكع في الجوار لتزعجنا. إلى جانـــب ذلـــك، فهي قد أسدت لنا معروفا، ويجب أن نترك لها شيئا. لا تقلق، إن قائد الذئاب يعرف ما الذي يتوجب عليه القيام به.

* * *

اجتاحت عاصفة ثلجية المنطقة ليلا، واهتزت جدران خيمة الطلاب. وضع شن زن كتاب **الـــتاريخ الـــسري للمنغوليين** الذي كان يقرأ فيه جانبا، وقال ليانغ كي: "الرجل الذي ذكره بلغـــي، ذلـــك الـــذي كـــان يقتات على الطعام الذي كانت تخلفه الذئاب وراءها كان اسمه بودونشير، وهو الجد الأعلى لجد أب الجد الأعلى لجد أب جنكيزخان. كانت عائلة جنكيزخان تـــشكل جـــزءا من قبيلة بورجيغن، وبودونشير ذاك يعتبر مؤسسها التاريخي. يبدو أن الأجيال اللاحقة ستشهد تغيرات مذهلة".

"ذلـــك يعـــني أنـــه لـــولا الذئاب، أولئك المستشارون وقادة الحرب البواسل، لما كان جنكيـــزخان، ولا قبـــيلة ذهبية، وبالطبع لا خيالة محاربون منغوليون شجعان"، قال يانغ. "لقد لعبت الذئاب حتما دورا بارزا في كتابة تاريخ الشعب المنغولي".

– لماذا تتوقف هناك؟ لقد لعبت الذئاب دورا بارزا حتى في حياة الصينيين، وفي حياة كل شعوب العالم. إن ظهور جنكيزخان وخيالته المنغوليين على مسرح الأحداث قاد إلى إعادة كتابة

تـــاريخ الـــصين، ابتداء من سلالة جن وسلالة سونغ[1] في الجنوب فصاعدا. وذلك ينطبق على تـــواريخ أواسط آسيا، وبلاد فارس، وروسيا، والهند. كان البارود، الذي اخترع في الصين قد أُدخل إلى الغرب على يد قبائل البدو المنغولية عندما اكتسحت موجاها الدموية أوروبا وآسيا، مقوضـــة قلاع الإقطاع في الغرب، ومكتسحة كل العقبات، وصولا إلى موطن النظام الرأسمالي الـــذي كــان في طور النشوء. لقد عاد البارود إذا، يشق طريقه إلى الشرق، حيث فجر البوابة لاقـــتحام الصين، وأهى أخيرا عرش حكم خيالة المنغوليين، وقلب العالم كله رأسا على عقب. لكن المؤرخين كانوا قد تجاهلوا التأثير التاريخي الذي أحدثته الذئاب. لو أن تينغر هو الذي قام بتدوين تلك الحوادث لكان للذئاب على السهوب المنغولية مكانتها في حوليات التاريخ.

لم يتمكن غاو جيانـــزونغ، راعي الأبقار، من احتواء انبهاره بمجيء الهبات السخية. "ما الـــذي تفعلانـــه أنـــتما معا، تنبشان أنقاض الماضي القديم؟ ينبغي لنا أن نضع ضمن أولوياتنا استخراج الغزلان من قاع الثلج، وأن نصبح أثرياء".

قـــال شن زن: "إنّ السماء تضع الذئاب نصب عيوها، وينبغي لنا أن نشعر بالامتنان لأننا حـــصلنا على حمولة عربة من هذه الغزلان. ستهب العاصفة الثلجية على مدى ثلاثة أيام على الأقل، مما قد يضيف أقداما من الثلج المتراكم، وتملأ الفتحات التي على سطح البحيرة بالثلوج. سيكون البحث عن الغزلان في ذلك الجو مثل التفتيش عن إبرة في القش".

خرج غاو من الخيمة، ونظر إلى السماء. "ستهب العاصفة لثلاثة أيام فعلا"، قال ذلك وهو في طريق عودته إلى الداخل. "كان ينبغي لنا الذهاب إلى هناك اليوم. عليّ اللعنة إن لم أكن قد غـــرزت الأعمـــدة في أكبر الفتحات". قال متنهدا. "أتصور أنه عليّ الانتظار حتى يأتي فصل الـــربيع. لكن حتى حلول ذلك الوقت سأخرج للصيد، وأملأ عربة عن آخرها، وأقودها بنفسي إلى مركز التسوق في لجنة بايان غوبـــي. وإذا لم تتفوها أنتما معا بشيء فلن يعرف أي شخص آخر بالأمر".

* * *

تمكـــنت الماشية من أن تنجو خلال النصف الأخير من الشتاء من دون حادثة تذكر. لقد تـــبع قطيع ذئاب أولون الغزلان متوغلا إلى مسافة بعيدة، حيث تشتت هناك. لم هب العاصفة الثلجية الكبيرة.

طـــوال فصل الشتاء الموحش، عندما لم يكن شن زن منشغلا برعي الخراف ولا الحراسة لـــيلا، اعـــتاد القيام بجولات على السهوب متقصيا حكايات الذئاب، حيث كان يمضي أغلب

(1) ســـونغ: ســـلالة حكمت الصين في الفترة (960–1279م) وقامت بتوحيد البلاد كلها حتى عام 1127م وضـــمت إلـــيها القسم الجنوبـــي عام 1279م في فترة كانت فيها الصين الشمالية تخضع لسيطرة قبائل الجوشين. (المترجم)

أوقاتـــه يفكّر في أسطورة *الذئاب الطائرة*. وبما أنها كانت أسطورة معروفة في أماكن متفرقة من أولونبولاغ، فقد وجدت لها جذورا تمتد إلى زمن قريب، ومثلما تبيّن فإن أحداثها قد وقعت في مـــنطقة فـــرقة الإنتاج ذاتها التي ينتمي إليها شن. كان قد وطّد العزم على الوصول إلى معرفة حقـــيقة تلـــك الأسطورة، وإشباع فضوله من خلال معرفة الطريقة التي تمكنت بها الذئاب من الطيران فوق أرض أولونبولاغ.

بعـــد وقت قصير من وصول الطلاب أخبرهم الرعاة أن تينغر هو الذي أرسل الذئاب من المكان الذي يتواجد فيه إلى الأرض، مما يعني أنها تستطيع الطيران كوسيلة للعودة إليه. على مدى القـــرون، عندما كان أحد الرعاة يلقى حتفه، كان يحمل جثمانه إلى البراري، ويطرح هناك في العـــراء مكـــشوفا حتى تلتهمه الذئاب. تكتمل دورة واحدة حين تكون الذئاب قد أكلت كل قطعة من البقايا البشرية. لقد سموا الدورة الواحدة بالدفن في السماء بسبب الاعتقاد السائد أن الـــذئاب تستطيع التحليق في الفضاء، تماما مثل النسور السحرية في التيبت. ولكن عندما أطلق الطـــلاب على هذا الأمر صفة الخرافة، واعتبروه واحدا من *الأشياء القديمة الأربعة* التي هاجمتها الـــثورة الثقافية، أصر الرعاة على أن الذئاب تستطيع الطيران. حتى وقت قريب، يعود إلى السنة الثالثة من الثورة الثقافية، قالوا إن قطيعا من الذئاب قد طار فدخل المنطقة المسيجة بالحجارة التي تخـــص شيرندورجي والتابعة لفرقة الإنتاج الثانية، حيث التهمت حوالى اثني عشر من الخراف، وقـــتلت أكثر من مئتين منها. وبعد أن شبعت طارت وحلقت بعيدا. كان سور الحجارة على ارتفاع ست أو سبع أقدام، كان عاليا إلى درجة أنه ليس بإمكان أي شخص تسلقه، إذا كيف وصلت الذئاب إلى هناك لو لم تحلق؟

لقد اصطحب المدير أوليجي معه جميع القادة ليشاهدوا بأعينهم، ومن بينهم رئيس مركز الـــشرطة، هاربار. بعد التقاط الصور وتقدير المسافات، اتفقوا جميعا على أن السور مرتفع جدا بالنـــسبة إلى الذئاب بحيث إنها لا يمكن أن تقفز من فوقه، ولاحظوا عدم وجود أي ثغرات من المحـــتمل أن تكون الذئاب قد دخلت منها. لم تتمخض أيام عدة من التحقيق عن إعطاء تفسير مقبول للطريقة التي استطاعت الذئاب من خلالها أن تدخل ثم تخرج. لكن الرعاة كانوا يعرفون السر.

بقـــيت الحكاية عالقة بذهن شن مدة طويلة؛ والآن، حين تزايد انبهاره بالذئاب، عادت الحكايـــة لـــتطفو على السطح. لذلك أسرج حصانه، وانطلق لكي يلقي نظرة على السور بأم عينيه. بعد أن تفحصه باهتمام لم يقترب من أي تفسير على وجه التحديد أكثر من أي شخص آخر، فذهب ليتحدث مع الرجل الطاعن في السن شيرندورجي.

– "مـــا زلت أجهل أي واحد من أبنائي الأغبياء قد اقترف إساءة بحق تينغر"، قال الرجل العجوز، "لكن اللعنة حلت بعائلتي حتى اليوم".

قـــال ابن الرجل العجوز، الذي كان في المدرسة المتوسطة: "ربما يقع اللوم في المسألة على تشريعات تتسم بالغباء في ما يتعلق بالمراعي. لم تكن هناك مثل هذه الأسوار في أولونبولا غ من قـــبل، لكـــن القيادة قررت بناء مناطق مسيجة بالحجارة في المرج الذي تم تخصيصه للاستيلاد، وذلـــك لحماية الخراف، وخفض النفقات أيضا من خلال تقليص نقاط العمل التي تعطى مقابل مـــناوبات الحراســـة ليلا. لا تستطيع الذئاب أن تتسلق الأسوار، هكذا قالوا، لهذا لم تعد هناك حاجـــة إلى حراس ليليين، وفي وسع أي شخص أن ينام مرتاحا في الليل. لذلك أوصدنا البوابة، ولـــزمنا خيمتنا. في تلك الليلة سمعت الكلاب تنبح، وعرفت أن ثمة شيئا يدعو للارتياب، كأنما كـــان هـــناك قطيع ذئاب في الجوار. لكن، ولأن القيادة أصدرت أمراً أن لا حاجة إلى القيام بالحراســـة، لم نخرج حتى للتأكد من الأمر. لسوء الحظ، عندما فتحنا البوابة في الصباح، صدمنا منظـــر كل تلك الخراف الميتة، وتلك التي كانت لا تزال تحتضر. كانت الدماء تنتشر في أرجاء الأرض، وقد وصلت سماكتها إلى إصبعين في بعض الأماكن، إضافة إلى كمية كبيرة من الدماء كانـــت تلطخ السور الحجري. لقد بدت علامات أربعة أنياب واضحة على رقاب الحيوانات الـــنافقة الـــتي تـــدفقت دماؤها إلى خارج السور. كانت هناك أيضا عدة أكوام من فضلات الـــذئاب... في وقـــت لاحق، غيرت القيادة التعليمات، فطلبت من الأشخاص الذين يعيشون بالقـــرب مـــن إحدى المسيجات إعادة العمل بالحراسات الليلية، التي تمنح مقابلها نقاط عمل. وشيئا فشيئا شيدت مناطق مسيجة بالحجارة وسواتر ترابية حول المروج التي تلد فيها المواشي في الـــسنوات الأخيرة، وما دام الحراس الليليون قد عادوا إلى العمل من جديد، فلم يعد هناك مزيد من القصص التي تروى عن ذئاب تطير إلى داخل منطقة مسيجة لتأكل خرافنا".

لكـــن ذلـــك لم يكن كافيا بالنسبة إلى شن زن، الذي استمر في تجواله، يسأل رعاة آخرين وقد أخبروه جميعهم – رجال ونساء، شباب وكبار في السن – أن الذئاب تستطيع الطيران.

في نهايـــة الأمر تم إطلاق سراح رئيس الشرطة هاربار من المعتقل في وحدة الاستجواب التابعة للواء، وعاد ليتسلم مهام منصبه مجددا. بعد أن أخذ شن علبة سجائر بكينية الصنع معه، ذهب في زيارة إلى رئيس الشرطة للحصول على تفسير للطريقة التي *طارت* بها الذئاب إلى داخل المنطقة المسيجة ثم خرجت منها.

قال رئيس الشرطة هاربار، وهو خريج أكاديمية الشرطة المنغولية، ويتحدث اللغة الصينية بطلاقة، "القضية قد تم إغلاقها. لكن للأسف، فإن التفسير العلمي لا يحظى بالقبول على أرض السهوب، ولا يصدقه أغلب الرعاة. كان الجميع، باستثناء نفر قليل فقط من الصيادين المتعلمين والمتمرسين، الذين تقبلوا نتائج التحقيق، على اقتناع أن الذئاب يمكنها الطيران. وإذا كنا نحترم معـــتقدات وعادات السكان المحليين"، أخذ يضحك "عندئذ تكون الذئاب قد طارت إلى داخل

المـــنطقة المسيجة. هناك شيء من الحقيقة وراء ذلك أيضا، لأن الذئاب بالفعل يمكنها أن تقطع مسافات طويلة عندما تقفز في الهواء".

"كان الرعاة يمرون بحالة اهتياج في ذلك اليوم"، تابع كلامه، "معتقدين أن تينغر قد غضب لدرجة كافية لأن يرسل إليهم سوط العقاب. تركوا قطعانهم في أعالي الجبال، واندفعوا راجعين لــرؤية مــا حدث. جثا الرجال والنساء وكبار السن على ركبهم تبجيلا لتينغر. كان الأطفال مرتعبين كثيرا إلى حدّ أنهم لم يتمكنوا من البكاء حتى عندما صفعهم الكبار. شعر المدير أوليجي بالقلــق مــن أن يؤثر الاضطراب بصورة غير ملائمة على كمية الإنتاج، فأعطاني مهلة يومين للتوصــل إلى حــل للقــضية. استدعيت فريق العمل من أجل حماية الموقع، ولكنه كان مدمرا مــسبقا. كــل الأدلة التي كان من الممكن أن تؤدي إلى حل اللغز على مسرح الجريمة خارج المنطقة المسيجة كانت قد طمست من قبل الناس والخراف، وتحتم عليّ أن أتفحص كل بوصة مــن الــسور الحجري بعدسة مكبرة. وأخيرا، وجدت على الجهة الخارجية من الركن الشمالي الشرقي للسور أثرين باهتين لبراثن الذئاب، كانت تغطيهما الدماء. وقاد ذلك إلى حل للمسألة. هل يمكنك أن تخمّن كيف دخلت الذئاب؟".

هز شن رأسه نفيا.

– "لقد توصلت إلى استنتاج ما"، قال رئيس الشرطة هاربار، "وهو أنّ ذئبا ضخما واحدا كـــان قد ثبت براثنه الأمامية على السور، وقوائمه الخلفية في الأرض، وجعل من جسده منصّة للقفز. كانت الذئاب تجري بأقصى سرعة، تقفز على ظهره وكتفيه، وتطير في الهواء حتى تدخل المـــنطقة المسيجة. إذا نظرت إليها من الداخل، ألا يبدو لك المشهد وكأنها تطير حتى تدخل إلى المكان؟".

قال شن وهو منبهر بما سمعه، "ذئاب أولونبولاغ تلك ذكية إلى درجة مذهلة. حالما أقيمت المـــناطق المسيجة بالحجارة في السهوب استطاعت أن تبتكر طريقة للتعامل معها. يبدو كما لو أنها مسحورة... لا يذهب الرعاة بعيدا كثيرا عندما يقولون إن الذئاب تستطيع الطيران. وعندما كانـــت تهبط وتقع وسط الخراف لا بدّ من أن قطيع الخراف آنذاك كاد يموت من الرعب. من الـــسهولة أن نفهم ما تبقى. بعد ثورة من القتل المسعور، التهمت الذئاب الخراف حتى امتلأت أكراشـــها، كلها عدا الذئب المسكين الذي كان جسده بمثابة منصة للقفز في الجانب الآخر من السور. لم يحصل على شيء. لا بد أنه حيوان من طراز خاص، كرّس نفسه للتضحية من أجل القطيع، ومن الواضح أنه كان من الذكور الكبيرة التي تقود القطيع".

ضحك رئيس الشرطة هاربار من قلبه. "خطأ"، قال. "وفقا لما استنتجته، فإن ذاك الذئب كان قد طار أيضا إلى الداخل، وأكل بقدر ما أكلت الذئاب الأخرى. ينبغي لك أن تعرف أن هذه الذئاب لديها روح جماعية قوية؛ إنها تحافظ على التماسك في ما بينها، وليس من طبعها أن

تتخلـــى عن واحد منها. اقترب ذئب من السور في الداخل وجعل من جسده منصة قفز لذئب آخـــر أكـــل ما يكفيه من الخراف، ثم قفز عبر السور. بعد ذلك عمل منصة قفز للذئب الجائع لكـــي يطير ويدخل المنطقة المسيجة ويأكل كفايته. إن الأثرين اللذين تركتهما البراثن وغطتهما الدماء كانا يعودان للذئب الثاني. أي سبب آخر يمكن أن يفسر الدماء التي كانت تغطيهما؟ لم يشترك الذئب الأول في القتل عندما كان يمثل منصة للقفز خارج المسيجة، لذلك كانت براثنه نظـيفة، لم تـتلطخ بالدماء بعد. أليس كذلك؟ فكّر مليا في الأمر. لقد مارست الذئاب خدعة بارعة على الناس. كان قطيع الذئاب الذي دخل المنطقة المسيجة يمارس القتل على هواه مع توفر إمكانـــية لأخلائه على الفور. لقد شيد الناس السور من أجل أن يبعدوا الذئاب عنهم، ولكن انتهـــى بهم المطاف في أن تُبعَد كلاب الرعي بدلا من ذلك. أؤكد لك أن كلاب شيرندورجي مـــن شدة غضبها كادت أفواهها أن تنخلع من مفاصلها. لم تكن الكلاب ذكية بما يكفي لأن تحـــذو حـــذو الذئاب؛ ولن تفعل ذلك حتى لو كانت ذكية، لأنها عندما تطير إلى الداخل، لن تصبح ندا للذئاب التي تفوقها ذكاء".

- "إنهـــا أذكى مني أيضا"، قال شن. "لكن تبقى هناك مشكلة واحدة. كيف خرج آخر ذئب في القطيع بأمان؟ ما هو نوع منصته التي قفز عليها؟".

أثـــار السؤال ابتهاجا في نفس هاربار. "الناس حقا أكثر غباء من الذئاب"، قال. "هذا ما حير الجميع آنذاك أيضا. أقصد، إلى أن دخل المدير أوليجي المنطقة المسيجة، وأخذ يفتش باحثا عن أدلة عبر كل تلك الدماء. لقد اكتشف كومة مؤلفة من أشلاء ستة أو سبعة خراف مكدسة إزاء الـــسور الـــشمالي الشرقي، واستنتج الجميع أن الذئب الأخير كان واحدا من أذكى قادة القطعـــان وأكثـــرها كفـــاءة. واعتمادا على نفسه فحسب، عمل منصة قفز من كومة أشلاء الخـــراف، وطار إلى خارج المنطقة المسيجة. كان هناك أشخاص لم يصدقوا أن باستطاعة ذئب القيام بذلك بمفرده، وأن العديد منها قامت بتكديس الأشلاء، ثم وثبت إلى الخارج. عندما انتهى كـــل شيء، جمع المدير أوليجي قادة الفريق، وذهب معهم إلى الموقع ووصف لهم كيف قفزت الـــذئاب إلى داخـــل المنطقة المسيجة، ثم كيف قفزت مجددا إلى الخارج. أدى ذلك إلى شعور بالـــسكينة في المراعي. لم يتعرض شيرندورجي للعقاب، لكن المدير أوليجي انتقد نفسه، معترفا أنه قلل من أهمية الذئاب، وأنه قد استخف بها كثيرا".

انتـــصب شعر شن زن فزعا. وبالرغم من أنه تقبل استنتاج رئيس الشرطة، إلا أن صورا خيالية مخيفة عن ذئاب طائرة كثيرا ما كانت منذ ذلك اليوم تزوره في أحلامه، وكثيرا ما نهض فـــزعا من نومه وهو يتصبب عرقا باردا. لم يعد منذ ذلك الوقت يتعامل مع أساطير السهوب ببساطة على أساس أنها مصادر للتسلية.

* * *

مرت أيام عديدة، وقرر شن بعد ذلك أن يلقي نظرة عن قرب إلى الموقعين التابعين لفرقة الإنتاج اللذين يُستخدمان للدفن في الهواء الطلق. كان أحدهما يقع على المنحدر الشمالي لجبل شاغانتولاجاي، والآخر على المنحدر الشمالي الشرقي لجبل بلاك روك. من النظرة الأولى بدا موقعا الدفن يشبهان إلى حدٍّ ما غيرهما من المراعي التي تقع على سفوح التلال. ولكن عند الاقتراب منهما، ظهرت اختلافات مميزة بين المراعي وبينهما. كلاهما كان يقع بعيدا عن الممرات القديمة التي كان يسلكها البدو، في موقع أجرد كئيب شمال الجبال المبجلة في السهوب، وقريبا من إقليم يعج بالذئاب، وقريبا أيضا من تينغر، وبذلك تقل المسافة التي يتوجب على الأرواح أن تسلكها لتصل إلى السماء. فضلا عن ذلك، كانت الأرض وعرة وغير ممهدة، ولا تصلح لمسير العربات.

منذ قرون في أولونبولاغ، حين كان يموت أحد الرعاة، ينزع الناس عنه كل ثيابه، ويلفون جسده بقطعة من اللباد، بالرغم من أنهم كانوا في بعض الأحيان يتركون الجثة بملابسها للاستفادة من اللباد. بعد ذلك تحمل الجثة، وتوضع على لوح خشبي طويل يمتد عبر عريش العربة، ويتم تأمينه من السقوط. في الساعات التي تسبق الفجر، يسوق العربة شخصان كبيران في السن من الذكور واللذان ينتميان إلى عائلة الفقيد، يمسك كل منهما بطرف من اللوح ويتوجهان إلى موقع الدفن، حيث يضربان حصانيهما بسوطين ليعدوا بسرعة. فكان من المتعذر اجتناب سقوط الميت من العربة، وعندها تكون تلك البقعة التي يسقط الميت عليها هي المكان الذي ستنطلق منه الروح عائدة إلى مثواها الأخير. ينزل القريبان من العربة، فإذا كانت الجثة عارية، يفتحان قطعة اللباد، ويطرحان الميت هناك على العشب، بمواجهة السماء، تماما على النحو الذي أتى (أو أتت) فيه إلى العالم، عاريا وطاهرا من كل الخطايا. في تلك اللحظة يترك أمر الميت إلى الذئاب، وإلى الأسياد. فإذا لم يتبقَّ أي شيء من الجثة بعد انقضاء تلك المدة سوى العظام، تكون روح الميت قد ولجت إلى عالم تينغر. لكن إذا بقي جسد الميت، بشكل أو بآخر بحالة سليمة، عندها تصاب العائلة بالذعر. ولكن يوجد على كل حال الكثير من الذئاب في أولونبولاغ، ولم يطرق سمع شن أبدا أن شخصا واحدا لم ينتهِ به المطاف إلى عالم تينغر.

كان شن يعرف أشياء كثيرة عن طقوس مثل هذه المدافن في التيبت، لكنه لم يكتشف، إلاّ عندما جاء إلى السهوب أنها ممارسات طقوس منغولية أيضا، حيث تحل الذئاب محل النسور كمتعهدين للدفن. ولأن جميع رعاة أولونبولاغ كانوا يعلمون أن مصيرهم سيؤول ذات يوم إلى أجواف الذئاب عبر طريقة الدفن هذه، فقد تعايشوا منذ ألف عام في حالة سلام مع فكرة الموت.

تغلب حب الاستطلاع على شعور شن بالرهبة. بعد أن عرف مواقع الدفن من أصحاب العربات الذين كانوا ينقلون مواد الإنتاج، ذهب سرا مرتين ليراقب مراسم الدفن. لكن في كل

مرة، لسوء حظه، كان الثلج يغطي مواقع الدفن، وفشل في رؤية ما كان يأمل أن يراه. لكن بعد ذلـــك، وذات يوم من الأيام، وفيما كان فصل الشتاء على وشك أن يفسح المجال لحلول فصل الـــربيع، اكتـــشف شن آثار حوافر أحصنة ودواليب عربات على الثلج تؤدي مباشرة إلى أحد مواقـــع الدفن. تتبع الآثار إلى أن عثر على جثة رجل عجوز مات ميتة طبيعية، وعلى ما يبدو، فقد تم وضعه هناك منذ مدة قصيرة. كانت آثار جديدة لحوافر حيوانات وأقدام بشرية بالإضافة إلى آثـــار عجـــلات قـــد عكّرت صفو الثلج؛ حتى الثلج الناعم لم ينجرف بعيدا. كان الرجل العجـــوز مـــسجى هناك منبطحا على ظهره، وقد بدت عليه علامات السلام والبراءة، وتغطي جـــسده طبقة خفيفة من المسحوق الثلجي، ارتسمت نظرة جامدة توحي بالتقوى على وجهه الأملس الذي بانت ملامحه من وراء حجاب.

حـــلّ محل التلهف والرهبة اللذين شعر بهما شن وهو في طريقه إلى المكان شعور تدريجي بالتبجـــيل. لم تظهـــر على الرجل الميت أي علامة توحي أنه في مواجهة مع الموت، بل كانت العلامات تشير إلى أنه شخص يحضر مأدبة تقام في مملكة تينغر، ويتلقى تعميدا آخر، ويولد من جديـــد. في تلـــك اللحظة شارك شن منغوليي السهوب شعورهم بالتبجيل الذي يكنونه لرمز الذئب. في نهاية رحلة حياة شخص ما، يقدم الجسد قربانا متجردا من مظاهر الزينة والبهرجة، ليوفر حالة انعتاق تتصف بالنقاء والتكامل المطلق؛ الآن فهم شن سر التبجيل العميق الذي يكنه المنغولـــيون لتينغر، وللذئاب، والأرواح التي يودعونها في عهدتها. لم يكن لديه فؤاد يقوى على الـــبقاء طويلا في ذلك المكان المحفوف بالتبجيل، خشي من أن يزعج روح الفقيد، وأن يدنس المعتقدات التي يبجلها الناس في السهوب؛ قاد حصانه، بعد انحناءة احترام للرجل العجوز، مبتعدا عن موقع الدفن.

بعـــد ذلك بثلاثة أيام لم يعد لدى عائلة المتوفى شيء لتقلق بشأنه، الأمر الذي بعث على الارتياح في نفس شن زن لدرجة كبيرة. ذهبت العائلة، متبعة في ذلك العرف المحلي، إلى المدفن للـــتحقق، ولا بـــد من أنها شاهدت آثار كائن دخيل بين آثار أقدام الرجال وحوافر الأحصنة؛ لكـــن أحـــدا منهم لم يوجه أصابع الاتهام لشن زن. كان تصرفهم سيختلف لو لم تكن الأمور تجري على خير ما يرام. بعد أن أدرك شن أن فضوله واهتمامه بدأا يتقاطعان مع الرموز المبجلة لدى مضيفيه ومحرماتهم، بات يتوخى الحذر، وصار يركز اهتمامه على خرافه والعمل باجتهاد، حـــتى عـــندما كان يسعى إلى التقرب أكثر من الناس الذين يلفهم الغموض، ويشعر بالفضول لمعرفتهم أكثر، ويعبر لهم عن احترامه العميق.

* * *

حـــل فـــصل الربيع مبكرا بشكل غريب في تلك السنة، قبل أوانه المعتاد بأكثر من شهر. حـــوّلت الـــرياح الدافئة أرض أولونبولاغ إلى لون ذهبـــي. انبثقت أعشاب الخريف، بعد أن

ضـــغطتها ثلـــوج شـــتاء كامل في التربة، نابتة إلى السطح، وعلى بعض المنحدرات التي تواجه الشمس نبتت أعداد قليلة متناثرة من البراعم الخضراء. هبت رياح جافة، وحلت أيام دافئة قاسية عقـــب هذه التغيرات، وعندما توجهت فرق الإنتاج إلى المروج المخصصة للاستيلاد التي تعمل فـــيها، انشغل الناس باتخاذ الإجراءات لتفادي حدوث حرائق كبيرة ومكافحة الجفاف لحماية الحيوانات حديثة الولادة.

كان غاو جيانـــزونغ قد وصل متأخرا جدا إلى مبتغاه. لقد شاهد العمال، وأعدادا غفيرة مـــن البدو الرحل الذين تدفقوا إلى المدينة للعمل في فرق النقل والبناء في وقت مبكر من السنة، وقـــد انـــتابهم الحـــسد، ذلك المشهد المثير الذي تجلى حينما قدم فريق غاسماي بعربات محملة بالغـــزلان إلى مركز التسوق. احتشدوا حول الصيادين محاولين معرفة مكان وجود الصيد. بعد أن قيل لهم إن كل الغزلان المتجمدة تم استخراجها، اقتربوا من بايار، وعرضوا عليه أصنافا من الحلـــوى أوتي بها من المناطق الشمالية الشرقية، لكنه أرشدهم إلى وادٍ جبلي أجرد. أخيرا، عثر هـــؤلاء الـــرجال، الذي كان أغلبهم منغوليين دخلاء جاؤوا من مزارع منشوريا، على نقطة الضعف لدى منغوليي السهوب ألا وهي الشراب. جعلوا الراعي سانجاي يحتسي الشراب حتى الـــثمالة وعرفوا موقع الغزلان. بعد أن انطلقوا مسرعين، تمكنوا من الوصول قبل قطيع الذئاب، وقبل غاو جيانـــزونغ تماما في الوقت الذي كانت فيه جثث الغزلان تخترق سطح الثلج الذائب. شـــيدوا مخـــيما قريبا من الموقع، وخلال يوم واحد استخرجوا جميع ما تبقى من الغزلان، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، بحالة جيدة أم فاسدة. بعد ذلك حمّلوها على عربات، ونقلوها بين ليلة وضحاها إلى مركز التسوق في لجنة بايان غوبـــي.

في غضون الليالي العديدة اللاحقة، سمع رعاة الأحصنة أصداء عواء حزينة غاضبة صدرت عـــن ذئـــاب جائعـــة تتـــردد في أرجاء الوادي. اعتراهم التوتر، ففرضوا حراسة مشددة على أحصنتهم، و لم يسمحوا لها مطلقا أن تغيب عن أنظارهم. أما نساؤهم الحبيبات اللاتي تركوهن وراءهـــم في المخيم، فبعد أن عرفن أن ثمة ثمنا باهظا يتوجب عليهم دفعه مقابل جوع الذئاب، أخذن يضربن مواشيهن بغضب، وينشدن أغانٍ حزينة ذات ألحان مفعمة بالمرارة والجزع.

بعد ذلك بوقت قصير، وصلت إشارة رسمية من مقر القيادة تعيد تشريع تقليد كان ذات يوم يمارس سنويا في السابق، ويتعلق بسرقة جراء الذئاب. كانت المكافآت التي ستعطى أعلى قيمة من مثيلاتها في السنوات السابقة، بفضل التدخل الشخصي لممثل الجهات العسكرية باو شنغوي. قيل إن جلـــود جـــراء الذئاب ستباع بسعر أفضل من أي وقت مضى. تلك الجلود الرقيقة والبراقة، النادرة والثمينة، من شأنها أن تستخدم في صناعة ستر جلدية للنساء، وتعتبر من مستلزمات مظاهر التـــرف بالنسبة إلى زوجات موظفي الدولة في الشمال؛ كذلك فهي توفر عملة صعبة للموظفين ذوي الرتب الدنيا الذين يرغبون بمزاولة الأعمال التجارية من وراء الكواليس.

كـــان بلغي صامتا، ينفث دخان غليون الواحد تلو الآخر. تناهى إلى سمع شن صوته وهو يتمتم، "سرعان ما ستأخذ الذئاب بثأرها".

5

شقت سحب قاتمة كثيفة طريقها قادمة من الأفق الشمالي، تتهادى وتتماوج في مسارها عبر السماء الزرقاء، واندفعت بشراسة كأنها دخان كثيف، أو نيران سوداء اللون قاتمة. في غضون ثوانٍ معدودة، ابتلعت السحب أميالا كثيرة من المساحات الجبلية، وكأنها يد جبارة سوداء اللون تضغط بثقلها على أرض المراعي. هناك، بعيدا إلى جهة الغرب، لم تكن الشمس، التي اصطبغت باللون البرتقالي، قد استنفدت طاقتها بعد، بينما هبّت رياح من الشمال حملت معها مسحوقا ثلجيا سرعان ما اكتسحت أصقاع أولونبولاغ الشاسعة. تلألأت رقائق ثلجية مدومة داخل حزم الأشعة الذاوية التي كانت تنبعث من ضوء الشمس وكأنها سيل من الجراد الجائع.

هناك مثل منغولي يقول: الذئاب تقتفي أثر الرياح. لعقود من الزمن، كان قطيع ذئاب أولونبولاغ، الذي خاض حروب عصابات على كلا جانبي الحدود، قد استفاد من الربيع الذي نادرا ما كان يأتي مبكرا في الجنوب، فوثب عبر الثغرات التي تتخلّل الحرائق، وشقّ طريقه مجتازا طرقا عامة فرضت عليها حراسة لكي يعود إلى السهوب. عانت الذئاب من مرارة البرد، وبسبب قلة العشب، وشحة الفرائس، فقد كانت تتضور جوعا. أما المخزون المخبأ من الغزلان المجمدة في إقليمها الأصلي فكان قد تعرّض للنهب، بينما اجتاحت المجاعة المناطق البعيدة عن إقليمها، مما جعل الإمساك بالغزلان خفيفة الحركة أمرا مستحيلا. شكلت أعداد ضخمة من الذئاب الجائعة قطيعا تجمع عند الحدود، كانت عيونها تقدح شررا أحمر وهي تقتحم الإقليم؛ وبلغت شهيتها للالتهام حدا هائلا، الأساليب التي تتبعها في الفتك لا أثر فيها للرحمة، فسلوكها لا يقيم وزنا للعواقب. قادت ذكور الذئاب الكبيرة، التي امتلأت رؤوسها بهواجس الانتقام والاستعداد للموت من أجل الحصول على الطعام، القطيع مقتربة أكثر فأكثر، في الوقت الذي كان فيه الناس منشغلين بغارات قنص جراء الذئاب بحيث غفلوا عن الكارثة المحدقة بهم.

خلال النصف الأخير من فترة الستينيات، بينما كان الناس يتوقعون هطول المطر، حلّ موسم جفاف؛ إن نهارا مشرقا صافيا أوشك أن يغدو على الأبواب، لن تشرق الشمس على الإطلاق. "تقارير المناخ تلك ليست إلاّ مزحة"، علّق المدير أوليجي. باستثناء بلغي وبعض الرجال الآخرين من كبار السن، الذين ساورهم القلق من أن قيادة المراعي كانت قد أبعدت الكثير من الناس عن مزاولة أعمالهم من أجل أن يشنوا غارات على جراء الذئاب، فلم يكن أحد

يـــتوقع أن يـــأتي الربيع مبكرا، أو أن تحل كارثة تسببها الذئاب. فشل الرجال في نقطة حراسة الحـــدود، وهـــم الذين عبروا دائما عن قلقهم للقادة ومنتجي المواشي، في إعطاء الإنذار المبكر بشأن ما كان يجري على الطريق. في الماضي، عندما كانوا يكتشفون آثارا لقطيع من الذئاب في أثـــناء جولاتهم، كانوا يعلمون مراكز القيادة والرعاة. لم توفر التلال المنخفضة التي تتخلل أرض المراعـــي الحدودية غطاء ضروريا ولا حواجز واقية، وأدت التيارات القادمة من القطب الشمالي إلى تولـــيد عواصـــف ثلجية كانت تعرف محليا بالرياح ذات الشعر الأشيب. كثيرا ما كانت الذئاب، التي لا يضاهيها أحد في حرب تستغل فيها الظروف المناخية، تشن هجمات صاعقة في أوقات العواصف الثلجية.

كـــان قطـــيع جديـــد من الأحصنة قد اقتيد مؤخرا إلى بقعة خصبة من أرض المراعي في أولونـــبولاغ، يتألف من سبعين أو ثمانين من أفضل أنواع الأحصنة وسط عشرات من قطعان الأحـــصنة الأخرى التي تعود لأحد أفواج ميليشيا الخيالة المنغولية. لقد جرى إرسالها إلى هناك بانتظار نتائج الفحوصات الطبية. وفي حال عدم اكتشاف أن أحد الأحصنة يعاني من الرعام[1]، فـــيمكن عندئذ استخدامها للتنقل على الطرقات. امتطى الرعاة صهوات أحصنتهم وقد توترت أعـــصابهم وهـــم يضعون نصب أعينهم التحضيرات للحرب، وبدا عليهم اهتمام كبير بتحمل المـــسؤولية الجسيمة. اختار ممثلو القيادة العسكرية واللجنة الثورية على وجه التحديد أربعة من الرعاة الذين يعتمد عليهم، اليقظين والشجعان، والذين كانوا أيضا خيالة ممتازين، وزعوهم إلى فـــريقين، وأوكلـــوا إليهم مهمة حراسة الأحصنة لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. تولى قيادة الفريقين باتو، الذي كان آمر سرية في مجموعة الميليشيا الثانية. ولغرض منع الأحصنة من العودة إلى قطعانهـــا الأصـــلية، أمر باتو أن تتحرك جميع القطعان الأخرى إلى مسافة تبعد عدة أميال. كانـــت النسائم تهب بخفة، وهواء فصل الربيع دافئا، والمياه صافية، والأعشاب مورقة؛ وبزغت بواكير براعم السنة الجديدة، مما جعل كل شيء مهيأ لقطيع من أحصنة الحرب كانت تبدو قانعة بالبقاء مع بعضها والشعور بالسعادة. نفذ الرعاة الأربعة واجبهم بجدية، وكل شيء كان يجري على ما يرام لعدة أيام.

علـــى حين غرة تبدلت النسائم الرقيقة إلى رياح كاسحة هوجاء. اندفعت مياه البحيرة، وانهمـــرت فوق السهوب، فهربت المواشي من حظائرها. تقوضت الخيم التي كانت قد نصبت على طريق أنفاق الرياح وقلبت رأسا على عقب، وتحولت إلى أوانٍ هائلة أخذت تتشقلب عدة مـــرات قـــبل أن تتمزق إلى قطع صغيرة. فقدت العربات التي كانت تسير باتجاه الريح أغطيتها اللـــبادية التي طارت بعيدا. كان هبوب الثلوج كثيفا إلى درجة أنه لم يعد في وسع أي شخص على ظهر حصان أن يرى رأس دابته أو ذيلها، ولسع الثلج الوجوه كأنه رشاش يطلق سيلا من

(1) الرعام: مرض يصيب الأحصنة فيجعل مخاطها يسيل.

الرصاص، أطلق صفيرا مدويا في الهواء وخلف ملايين الندب البيضاء على صفحة السماء. قال العجـــوز بلغي إنه في الأزمنة الغابرة كان هناك راصدٌ للأحوال الجوية هتف مرة قائلا، "عاصفة ثلجـــية، عاصفة ثلجية، عفريت أشيب مجنون أشعث الشعر!". بقيت كلمات راصد الأحوال الجـــوية تتردد في الذاكرة حتى وقت قريب. في كل مكان بين السماء والأرض على السهوب كـــان مجـــرد ذكر العاصفة الثلجية يثير الفزع في نفوس البشر والبهائم. صرخ الناس، وصهلت الأحـــصنة، ونـــبحت الكلاب، وثغت الخراف؛ معزوفة متنافرة النغمات تجمعت لتشكل صوتا واحدا: عزيف مجنون لعاصفة ثلجية وحشية من النوع المسمى بذات الشعر الأشيب.

تـــشتت الـــرعاة الذين كانوا يتهيأون ليشنوا غاراقم الليلية على جراء الذئاب في أصقاع الجـــبال، بقوا محتجزين هناك. أضاع الصيادون الذين كانوا متوجهين إلى منازلهم معالم الطريق. بقـــي العمـــال، وكبار السن، والمرضى، والنساء، والأطفال الذين تخلفوا لغرض رعاية المواشي منـــشغلين بمطـــاردة الحيوانات الشاردة وإرجاعها إلى الحظائر. على السهوب، غالبا ما كانت القـــدرة علـــى التمسك بالمدخرات الثمينة التي تراكمت عبر سنوات من الجهد المضني تخضع للاختبار ضمن فترة من الزمن لا تتجاوز نهارا واحدا أو ليلة.

كان الهدف الأساسي من وراء هجوم منظم يشنه قطيع الذئاب الذي اجتاز الحدود يتمثل في الانقضاض على قطيع أحصنة الحرب التي بلغت مستوى رائعا من النمو. أحس بلغي، الذي كان يفترض أن الأحصنة قد أرسلت إلى مكان بعيد حسب الأوامر، بابتهاج خفي عندما هبت العاصـــفة الثلجية. لكنه عرف في ما بعد أن رحيل قطيع الأحصنة قد أرجئ يوما آخر، بانتظار وصول التقرير الطبـــي، وأن الشخص الذي كان من المفترض أن يسلم التقرير اختار بدلا من ذلك اللحاق بممثل الجهات العسكرية إلى أعالي الجبال للبحث عن جراء الذئاب. تم العثور على عدد كبير منها في تلك السنة أكثر من المعتاد، إذ إن أكثر من مئة جرو تم اقتناصها من اثني عشر وجـــارا على الأقل، أما الأمات الحزينات من الذئاب التي سلبت منها جراؤها فقد انضمت إلى قطيع الذئاب، وبذلك ساهمت في تحويله إلى كيان مسعور لا يعرف أثرا للرحمة بشكل ليس له مثيل.

قال بلغي، "منح تينغر قائد الذئاب هذه الفرصة. ليس هناك من شك في أن ملك الذئاب الأبيض، الذي يعرف أولونبولاغ حق المعرفة، قد اختار هذا الممر ليحقق الانتقام".

عند أول صفير للريح اندفع باتو إلى خارج الخيمة الصغيرة التي خصّصت للرعاة المؤقتين. بعد ليال عديدة من الحراسة المشتركة كان يفترض أن يكون هذا اليوم يوما لراحته. كان منهك القـــوى، مثله مثل حصانه، لكنه لم يستطع النوم ولم يغمض له جفن طوال اليوم. وبما أنه نشأ وتـــربى وســـط الأحصنة، فقد عرف مقدار المعاناة التي نتجت عن كثير من العواصف الثلجية الســـابقة وقد قدّمت الكثير من الضحايا للذئاب. لكن الآن وضعت الأيام الهادئة على المحك،

كانت أعصابه مشدودة كأنها وتر عود منغولي. كانت حتى أكثر النسائم رقة، ومجرد تمايل الأعشاب تجعل أذنيه تصدران أزيزا. حفظ جميع الرعاة المتمرسون عن ظهر قلب حكمة خاصة بالسهوب، كتبت بالدماء: على السهوب المنغولية السلام لا يعقب السلام لكن الخطر دائما يعقب الخطر.

في اللحظة التي وثب فيها باتو إلى خارج الخيمة، لم يكن في وسعه أن يشم رائحة العاصفة الثلجية الآتية، لكنه عندما تبيّن اتجاه الريح تحول وجهه المتورد العريض إلى لون أرجواني ضارب إلى اللون الرمادي، وومضت عيناه الكهرمانيتان ببريق يوحي بالخوف. أسرع عائدا إلى الخيمة، ولكز رفيقه النائم لاسورنغ. بعد ذلك، وبترتيب سريع التقط مصباحه الكاشف، وعبأ بندقيته بالذخيرة، معلقا عصا الراعي في معصمه، ومرتديا مئزره الفروي، أطفأ نار الموقد، والتقط سترا من الفرو من أجل الرجلين اللذين كانا يحرسان الأحصنة. اعتلى هو ورفيقه صهوتي حصانيهما، وقد علّقا البنادق في كتفيهما، وحملا مصابيح كاشفة طويلة، وانطلقا يحثان الخطى نحو الشمال حيث كان يرعى قطيع الأحصنة.

حالما توارت الشمس غاربة خلف الجبال، تلفعت أرض السهوب بعباءة من الظلام. لم يكد الراكبان أن يصلا إلى قاع أحد المنحدرات حتى داهمتهما العاصفة الثلجية مباشرة من الأمام، كأنها موجة مدّ عاتية أو انهيار ثلجي. ابتلعتهما بالكامل. اختنق الرجلان بعصف الرياح إلى أن اصطبغ وجهاهما بلون أرجواني؛ أجبرتهما كريات الثلج المندفعة بعنف على أن يغمضا عيونهما. استسلم الحصانان أيضا للفزع، ألقيا رأسيهما إلى الأعلى في محاولة يائسة للاستدارة والفرار من وجه الريح. كان الرجلان قد خرجا في بداية الأمر وهما متجاوران كتفا إلى كتف، لكن باتو، الذي لم يتمكن من رؤية يده التي أمام وجهه، صرخ بعصبية بالغة؛ لم يكن هناك جواب من لاسورنغ. استنفدت الريح والثلوج كل شيء في زخم عوائها المسعور. شدّ باتو سير عنان حصانه، مسح الصقيع عن جبهته، وحاول أن يهدئ من روعه. بعد ذلك ثبت المصباح الكاشف تحت ذراعه وأضاءه. كان من المعتاد أن يضيء المصباح الكاشف أرجاء المنطقة كأنه مشعل كهربائي، مرسلا شعاعا يمكّنك من أن ترى حصانا على بعد مئة ياردة أو أكثر، أما الآن فلم يستطع باتو أن يرى أكثر من بضع ياردات أمامه؛ غطت جدائل كثيفة منسدلة أفقيا من الشعر الأبيض مجال بصره. فجأة، دخل شبح رجل ثلجي وحصان ثلجي ضمن نطاق الشعاع، وفي الوقت ذاته، أرسل ضوءا واهنا إلى ناحيته. عمل الرجلان دوائر ضوئية في الهواء بمصباحيهما الكاشفين فيما كانا يجاهدان للسيطرة على حصانيهما اللذين استبد بهما الرعب. وأخيرا، اقترب الرجلان من بعضهما مجددا.

أمسك باتو بتلابيب لاسورنغ، رفع أحد غطائي الأذنين، وصاح في أذنه، "ابق هنا، لا تتحرك. هذا هو المكان الذي يجب أن نوقف قطيع الأحصنة فيه. ثم نسوقه شرقا. علينا تفادي

البحيرة الصغيرة التي عند جبل جيازي مهما كلف الأمر. كل شيء سيضيع هدرا إذا لم نفعل ذلك".

أجاب لاسورنغ صارخا: "حصاني يجفل، على النحو الذي يتصرف فيه عندما تكون هناك ذئاب في المنطقة. إن كانت هناك ذئاب في مكان قريب، كيف نستطيع نحن الأربعة من النجاة؟".

- "كما لو أن حياتنا تعتمد على ذلك"، صاح باتو. وجها مصباحيهما الكاشفين إلى جهة الشمال وحركاهما إلى الأمام والخلف في إشارة إلى رفيقيهما.

ظهر حصان رمادي اللون داخل شعاعي الضوء؛ تباطأت خطواته، ووقف إلى جوار باتو، كما لو أنه عثر على منقذه. كان الحصان رمادي اللون يصهل باهتياج. لقد تعرض للعض تحت الرقبة، والدماء كانت تنزف من الجرح الذي تصاعد منه البخار مما شكّل خيوطا من الجليد الأحمر. جعل منظر الدم حصان لاسورنغ يجفل، صار يدوس على الأرض بشكل مسعور، ثم أحنى رأسه، دفع عنقه إلى الأمام، وانطلق يعدو بعيدا على غير هدى مسابقا الريح. التف باتو حول نفسه، وأسرع يجري خلف رفيقه؛ ركض الحصان رمادي اللون مقتحما ستار الثلوج التي تعمي الأبصار.

في الوقت الذي تمكن فيه باتو من اللحاق بلاسورنغ والإمساك بسير عنان حصانه، أصبح قطيع الأحصنة بجانبهما تماما. كانت جميع الأحصنة التي استطاع رؤيتها بمساعدة مصباحه الكاشف قد داهمها الفزع مثل الحصان رمادي اللون الضخم. صهلت في وجه الرياح، وركلت بحوافرها المرتعشة بجنون، فأثارت موجات ثلجية حجبت الزوبعة العاتية التي كانت تتخلل أسفل خواصرها. عندما سلّط باتو ولاسورنغ بخوف ضوءيهما إلى هناك، أفقد المنظر لاسورنغ رباطة جأشه بحيث هوى إلى الأمام، ولفّ ذراعيه حول رقبة حصانه، مما منعه من السقوط. لم تكن أشعة الضوء باهتة إلى درجة أن الراعيين اللذين يتمتعان ببصر حاد لم يقدرا على تمييز الملامح البارزة للذئاب، التي كان واحد منها أو أكثر ينشب أنيابه في جسد كل حصان استطاع الرجال رؤيته. كان فراء الذئب الذي يقود القطيع مرصعا بالثلج الذي جرفته الرياح إلى هناك، فتحول الذئب إلى كتلة بياض طيفية. بدت أجساد الذئاب أضخم من المعتاد، ضخمة بشكل مرعب، وبيضاء للغاية بحيث جعلت أبدان الرجال تقشعر. قطيع ذئاب بيضاء، قطيع ذئاب شبحية، قطيع ذئاب متلبس بالشر أثار الفزع في نفوس الرعاة حتى كادوا يلفظون أنفاسهم. كانت الذئاب التي تستدير عادة، وتهرب خوفا من الأضواء الكاشفة موطدة العزم على الانتقام حتى إنها أضحت ضارية ولا تهاب شيئا بشكل غير مألوف، بقيادة الذكر الأكبر للقطيع والذئاب الأمات.

عندما أدرك باتو ولاسورنغ أنه لم يعد للراعيين الآخرين أي أثر يمكنهما رؤيته، افترضا أنهما ربما قد شارفا على التجمد في العاصفة الثلجية، أو ربما انطلقت بهما دابتاهما المرعوبتان إلى

مكـــان بعـــيد. بمـــا أنهما كانا يقومان بواجب المراقبة نهارا، فلم يكونا مسلحين وليس لديهما مـــصابيح كاشـــفة؛ وليسا محميين بستر من الفراء. اضطر باتو إلى أن يتخذ قرارا مؤلما. "انسَ أمرهما"، قال. "إنقاذ الأحصنة أكثر أهمية من ذلك!".

كان قطيع الأحصنة لا يزال يعدو تحت شعاع الضوء المنبعث من مصباح باتو، سبعون أو ثمانـــون مـــن أحـــصنة الحرب التي جلبت من يوجيمشن، كنـــز يتكون من اثني عشر قطيعا وعشرات من الرعاة؛ ثروة من الدماء النبيلة، ذاع صيتها كأحصنة حرب طوال التاريخ المنغولي، كانـــت تعرف تاريخيا بالأحصنة التركية. بما أنها أحصنة مطهمة جميلة المنظر، فقد كانت قادرة على تحمل أعباء العمل القاسي المرهق؛ لم تكن تخشى الجوع ولا العطش؛ وتصمد على نحو جيد في أجواء الحرارة التي قد تصل إلى درجة الغليان تماما كما تصمد في البرد القارس. كانت قادرة على أن تجري إلى مسافات طويلة وبسرعة عظيمة، ولا يمتطيها عادة سوى رعاتها وقادة مقرات القـــيادة. لـــو انتهى بها المطاف لأن تغدو طعاما للذئاب أو أن تغرق في البحيرة خلال الفرار، سيمزق الرعاة الآخرون باتو ورفاقه إربا مثلما تفعل الذئاب تماما.

بعد أن رأى باتو أن لاسورنغ كان يتراجع، غرز ركبتيه في خاصرة حصانه بقوة، فانطلق يعدو، ولطم رفيقه على الرأس، ثم وكز حصان لاسورنغ ليجري باتجاه قطيع الأحصنة. صوَّب مصباحه الكاشف إلى وجه الرجل الآخر وصرخ، "إذا هربت سأقتلك بنفسي!".

"إنني لست خائفا"، رد لاسورنغ صارخا، "لكن هذا الحصان خائف". جذب سير العنان لكـــي يـــسيطر على الحصان، وبعدها نقر مصباحه الكاشف فأضاءه، هز عصا الراعي بحركة مـــتماوجة فـــوق رأســـه، وهجـــم باتجاه قطيع الأحصنة. قاد برفقة باتو الأحصنة على ضوء مـــصباحيهما، ضربا الحيوانات المتمردة بعصويهما، وجعلاها تتبع بقية القطيع إلى جهة الشرق بدلا من أن تعدو مع الريح. خمن باتو أنهما قد اقتربا من البحيرة الصغيرة، التي كانت على بعد لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أميال. لم تكن الأحصنة المخصية الضخمة، عريضة الصدور تعرف أيا من الأعباء التي أنهكت الأحصنة العادية. كانت رشيقة القوائم بحيث إن قطيع الأحصنة بأكمله يمكـــن أن يعلـــق بأكملـــه في البحيرة الموحلة خلال أقل من نصف ساعة. المشكلة الأكبر التي واجههـــا الرجال هي أن البحيرة كانت تضيق من الشمال إلى الجنوب وتتوسع من الشرق إلى الغـــرب، ممـــا يعني أنها تتوسّع مع امتدادها الأفقي أمامهما مباشرة، وأن من الصعوبة الالتفاف حولها إلا إذا تغير اتجاه الريح. في ذهن باتو، اتخذت البحيرة صورة فم مفغور لعفريت عملاق، منتظرا وليمة من الأحصنة السمينة أتت بها الرياح وتينغر.

لم يـــتغير – إلى الجنوب مباشرة – اتجاه العاصفة الثلجية، وتعالى عن الريح دمدمة مطردة مـــسعورة. حتى في الظلام، كان في وسع باتو أن يشعر بطوبوغرافيا المكان من خلال التغيرات التي تطرأ على الطريقة التي يدوس بها حصانه على العشب. كان في وسعه أن يخمّن موقعه وإلى

أيـــن يتجه من خلال توزع الأخاديد على سطح الأرض والطبيعة الإسفنجية لها. كان في حال تجـــاوز فيها القلق، شعر بأن إناث الذئاب التي نهبت جراؤها أكثر سعارا حتى من الذكر الأكبر لقطـــيع الذئاب. لم يبالِ في حقيقة أنه كان محاطا بالذئاب، تجاهل احتمال أنها يمكن أن تطيح بحـــصانه في أي لحظـــة، ولم يفكّر في احتمال أن تزل قوائم حصانه ويسقطه وسط قطيع من الـــذئاب يستـــشيط غيظا، ويتلهف للانتقام، ويتضور جوعا. تجاهل كل ذلك في أثناء زعيقه وصراخه، وتشبث بعصاه بجنون. كانت تراود ذهنه فكرة واحدة ليس إلاّ، أن يحافظ على تناسق حـــركة الأحصنة وبقائها متماسكة فيما هو يسوقها شرقا، ملتفا حول البحيرة، ومن هناك إلى المخيم، حيث بإمكان الرجال والكلاب أن يقاتلوا الذئاب ويبعدوها.

على أضواء المصابيح الكاشفة اقتيدت الأحصنة، وضربت بالسياط من قبل الراعيين اللذين رفـــضا التخلي عنها، واستعادت توازنها تدريجيا. احتل حصان أبيض اللون موقع الريادة، حيث رفـــع رأســـه، وصهل عاليا كعلامة على أنه تسلم قيادة قطيع الأحصنة. سلّط باتو ولاسورنغ ضـــوءي مـــصباحيهما مباشـــرة على هذا القائد الجديد، الذي أعطى وجوده حافزا للأحصنة الأخرى لإعادة ترسيخ التماسك والانضباط على عجل بين صفوف أحصنة الحرب المنغولية، في الوقت الذي نظّمت فيه صفوفها حسب سياق المعركة التقليدي المناسب لمقاتلة هذا العدو. ردّد حصان القيادة صرخة المعركة مما جعل القطيع يتجمع حوله، ويشكّل متراسا منيعا من الأحصنة. ضربت مئات الحوافر على الأرض بقوة شديدة، كانت تدوس بقوة، وتسحق، وتركل. فقدت الـــذئاب على حين غرة بعد أن صعقتها المفاجأة تفوقها التعبوي. لم تستطع الأعداد القليلة التي حبـــست داخل الحلقة أن تخرج من تحت بطون الأحصنة، تكسرت قوائمها، وتهشمت أعمدتها الفقرية، وسحقت رؤوسها. كانت أصوات العويل الصاخبة، التي تنم عن التألم والعذاب أكثر بشاعة من هدير العاصفة الثلجية. بدأ باتو يلتقط أنفاسه بسهولة أكبر من السابق بقليل، عرف أن مـــا لا يقـــل عـــن ثلاثة من الذئاب قد قتلت أو جرحت بحوافر الأحصنة. حدد الموقع في ذاكـــرته، ذلك لأنه سيرجع، حينما تخفت شدة الريح، وتصبح السماء صافية من جديد، لكي يـــسلخ جلود الضواري التي سقطت ميتة. بهذه المهارات التي دعمت موقفها، جعلت الأحصنة صـــفوفها تـــتقارب، وبقـــيت الأحصنة الأكثر جبنا في القطيع تحت حماية صف خارجي من الأحصنة الأقوى. شكّلت باستعمال قوة تفجرت عنها بعنف خطا دفاعيا ضد قطيع من الذئاب يماثل سلسلة من القبضات الحديدية.

كانـــت البحيرة تزداد اقترابا، وتقبل باتو التشكيل الذي اتخذه قطيع الأحصنة، الذي جعل مـــن الـــسهولة إعطـــاء الأوامر؛ ما دام باستطاعته السيطرة على حصان الطليعة، ويمكنه حتما الوصـــول إلى الـــضفة الشرقية للبحيرة بأمان. لكن بقيت آثار للخوف عالقة في قلبه، لأن هذا القطيع ليس قطيعا عاديا من الذئاب. إن التصادم مع ذئب مجنون لا يؤدي إلا إلى تفاقم وحشيته

ويؤدي بالتالي إلى مزيد من القتل المسعور. كان كل من يعيش في السهوب يخاف من النـــزعة الانتقامية لدى الذئاب المسعورة. لا بد وأن يكون قطيع الذئاب بأكمله قد سمع عويل التألم من الجرحى، عندها فالخطر كامن في كل حدب وصوب. رأى باتو أن الكثير من الأحصنة كانت جـــريحة. لكن هذه الأحصنة هي حرب ممتازة، شحذت هممها في المعارك مع الذئاب، وهكذا ســـواء أكانـــت جريحة أم لم تكن، فقد استمرت تعدو في تشكيل متماسك، رافضة أن تفسح المجال لحدوث ثغرة تنفذ منها مزيد من الهجمات.

بعـــد ذلك كله، واجه قطيع الأحصنة صدعا مهلكا. وبسبب كونه يتألف من أحصنة مخـــصية على وجه التحديد، فقد كان يفتقر إلى وجود *حصان ابن*، حيوان قوي غير مخصي يمكـــن الاعـــتماد عليه في تحمل أعباء مقاتلة الذئاب. على السهوب المنغولية، كانت قطعان الأحصنة تتألف من اثنتي عشرة عائلة أو أكثر، كبيرة وصغيرة، وكل عائلة يقودها ما يعرف بالحـــصان الابن. هذه الأحصنة، التي يصل شعر أعناقها المنسدل إلى ركبها، وأحيانا يلامس الأرض، كانـــت أطول بقدم من الأحصنة الأخرى في العائلة، إنها ذكور باسلة تصلح كقادة حقيقـــيين وقتلة لا تهاب شيئا. كلما واجهت عوائل الأحصنة الذئاب كانت الأحصنة الأبناء تعمل على تنظيم القطيع بشكل حلقة، تجعل الإناث والأحصنة الفتية في الداخل، والذكور في الخـــارج، بينما تبقى هي عند الحافات لتقاتل العدو وجها لوجه، حيث يتطاير شعر أعناقها، وتطلـــق خطومها المتسعة شخيرا، وتتقهقر على قوائمها الخلفية، فيتساقط جبل من الأجساد فـــوق الـــذئاب. حين يهجم حصان مثل هذا مصحوبا بهدير كالرعد، كان يسحق رؤوس الـــذئاب وجـــذوعها بحوافره الضخمة. وإذا ارتد ذئب ما على أعقابه وولى هاربا، يطأطئ الحـــصان رأســـه ويتعقب أثره، يركله بعنف ويعضه من جنبيه. لقد عرف عن أضخم هذه الأحصنة وأشدها ضراوة أنها تلتقط الذئاب بأسنانها وتقذفها عاليا في الهواء، وتنتظرها إلى أن تـــرتطم بالأرض وبعدها تدوسها حتى الموت. لم تكن حتى أكثر الذئاب وحشية تعتبر أندادا للأحصنة الأبناء التي تبقى يقظة تراقب قطعانها، ليلا ونهارا. تولت حماية عوائلها ليس فقط من قطعـــان الذئاب، ولكن من ضربات الصواعق وحرائق البراري أيضا، وبذلك خفضت نسبة الإصـــابات التي تحدث للأزواج من الأحصنة، والنسل، والأحصنة التي تقدم بها العمر كثيرا وكانت تقودها على الدوام إلى بر الأمان.

تمـــنى باتـــو لو أن لديه حصانا ابنا في تلك اللحظة، لكن الحصان أبيضُ اللون الذي تولى القيادة كان مخصيا، مثل جميع الأحصنة الأخرى؛ في الوقت الذي كان فيه مفعما بالقوة بصورة واضـــحة، إلاّ أنها تفتقر إلى الشراسة، مما يعني نـــزعة كامنة أقل استعدادا للهجوم. دمدم باتو متذمـــرا في داخله. كانت قد مضت سنوات منذ مجيء العسكر إلى السهوب لغرض استخدام الأحـــصنة في الجندية، فأهمل الناس عواقب عدم إبقاء حصان ابن ضمن قطيع أحصنة الحرب.

وحتى إذا كانوا قد فكّروا جديا في الأمر، فسيتصورون أن الأحصنة ستؤخذ في غضون أيام في جميع الأحوال، وعندئذ لن يكون للمراعي دور إضافي تؤديه. كان ثمة فرصة ضئيلة ليس إلاّ لوقوع خطأ ما، ومع ذلك فقد عثرت الذئاب على ثغرة تنفذ منها. وجد باتو نفسه مضطرا إلى أن يبدي إعجابه ببصيرة قائد الذئاب، فمن المحتمل أنه قد أدرك عدم وجود حصان ابن بين صفوف قطيع الأحصنة هذا.

اندفع باتو مسرعا إلى المقدمة، وضرب حصان الطليعة بالسوط بما استطاع من قوة ليجعله يتحرك باتجاه الشرق، في الوقت نفسه حوّل يديه ليمسك ببندقيته شبه الأوتوماتيكية وينتزع صمام الأمان؛ سيطلق النار فقط في حال الضرورة القصوى، لأن هذه الأحصنة هي أحصنة حرب غير متمرسة ومن شأن إطلاق النار أن يجعلها تتشتت. وعلى غرار باتو، استعد لاسورنغ لما سيحدث. ازدادت العاصفة الثلجية شدة، وكان الراكبان منهكين لدرجة أنهما لا يقويان على التلويح بعصويهما إلا بصعوبة. لكن البحيرة قرُبت أكثر. في ظروف اعتيادية، وخلال هذا الوقت يكون في وسعهما عادة استنشاق الرائحة القلوية.

قرر باتو وقد احمرت عيناه من الاهتياج أن يواجه النار بالنار. اعتدل على السرج، خبط حصان الطليعة على الرأس، وأطلق صفيرا متقطعا مصحوبا بصيحة حادة. بدا كما لو أن جميع الأحصنة قد فهمت تحذير قائدها؛ كانت البحيرة التي تقاد الأحصنة إليها لتشرب مرة كل يومين تقريبا تقع إلى الجنوب مباشرة. كان فصل الربيع قد تميز بالجفاف، وجفت مياه البحيرة تقريبا. أحاطت بالبحيرة أرض موحلة، وفي موضعين ليس إلاّ، حيث كانت الحيوانات التي تأتي للارتواء قد داست الوحل، تتوفر نسبة من الأمان؛ في كل مكان سوى ذلك ثمة فخ للموت. منذ بداية فصل الربيع، غطس واختنق عدد من الحيوانات الأليفة في الوحل، أو ماتت جوعا عندما لم تتمكن من تخليص نفسها منه. وفي كل مرة تذهب فيها الأحصنة للشرب، كانت تقاد بأعصاب متوترة عبر ممرات آمنة إلى الناحية التي تتوافر فيها المياه من خلال صافرات يطلقها رعاها. لم تكن تندفع مطلقا باتجاه البحيرة بهذه السرعة من تلقاء ذاتها، حتى خلال النهار.

لكن صفير باتو حقق الخدعة. فهمت الأحصنة، التي تآلفت كثيرا مع السهوب، أن الخطر ينتظرها جنوبا. صهلت بجزع، اهتزت أجسادها وهي تجري في أرجاء المكان؛ توقفت، وغيرت الاتجاه، ومع الرياح العاتية التي هبت عليها جانبيا في ذلك الوقت، صارت تركض إلى الجنوب الشرقي بكل ما أوتيت به من قوة. إلى الجنوب مباشرة امتد فخّ من الأوحال اللزجة؛ وإلى الشمال مباشرة هناك الاتجاه الذي تهب منه الريح وتنتظر فيه الذئاب الضارية، مما ترك جهة الجنوب الشرقي فقط طريقا ميسرا للأمان. ملأ الفزع عيونها المتسعة فيما كانت تعدو بجنون وقد خفّضت رؤوسها. حلت أصوات أنفاس مجهدة مكان الصهيل حين تسابق قطيع الأحصنة مع الموت تحت سحابة ملبدة بالتوتر والرعب.

غيّر التحول في الاتجاه ملامح وجه المعركة. ففي الوقت الذي اتجه فيه التشكيل نحو الجنوب الشرقي كانت أكثر الأحصنة ضعفا في القتال، تلك التي لا تمتلك إلاّ أضعف وسائل الدفاع، قد انكشفت فجأة أمام الريح والذئاب، بينما أصبحت تلك الأحصنة، التي يمكن لحوافرها الخلفية أن تشتت الموت والجراح بكفاءة، في وضع غير ملائم. عملت الريح الهوجاء على تباطؤ خطوات قطيع الأحصنة، وإضعاف قدرته على صد أسلحة عدوها الذئب. منحت الريح أجنحة للذئاب. في ظروف اعتيادية، تتمكن الذئاب من التغلب على الأحصنة في الجري، سواء أكانت الريح معها أو ضدها. لكن مع وجود الريح، حتى إذا كانت الذئاب أسرع جريا، لن تجرؤ على مهاجمة الأحصنة من الخلف، خوفا من ملاقاة حصان ذكي ربما ينقض بحركة مباغتة فيهاجمها من الأمام، مما يجعل الذئب الذي يستهدف ظهر فريسته يسقط تحت حوافره؛ وتكون الجروح أو الموت شيئا محتما. فمن أجل أن تحرز الذئاب النجاح، عليها أن تهاجم من الجانبين. لكن ذلك من شأنه أن يؤثر على سرعة الهجوم. حتى إذا تمكنت بصورة ما أن تقفز فوق ظهر الحصان، سيكون غرز المخالب والأنياب في جسد الحصان مستحيلا ليس إلاّ؛ في أسوأ الأحوال ستترك بضعة جروح فقط بعد أن يفشل الهجوم. لكن هذا التغيير في الاتجاه أعطى قطيع الذئاب فرصة مثالية لتنفيذ عمليات القتل. بما أن الريح كانت تهب من خلفها، وهناك قطيع أحصنة متباطئ الحركة، فلم تكن هناك حاجة إلى الهجوم بشكل منحرف. كانت الذئاب بحاجة فقط إلى أن تقفز من الجانب، إن الريح ستدفعها نحو ظهور الأحصنة وأعناقها، حيث بإمكانها أن تنشب مخالبها، وتغرز بإحكام في المناطق الحيوية من أجساد الأحصنة أنيابها الحادة كالشفرة، ثم تثب إلى الأرض. إذا حاول أحد الأحصنة أن يزيح الذئب، وذلك بالتدحرج على الأرض، ستكون خسارة ذئب واحد شيئا هينا، لكن بقية قطيع الذئاب ستمارس القتل وفق سياق مطرد.

ارتفعت صرخات يائسة من قطيع الأحصنة عندما كانت الذئاب تمزقها واحدا تلو الآخر؛ شخبت الخواصر والصدور بالدماء، جعلت رائحتها الكريهة الذئاب المفترسة المسعورة تقترف أفعالا فريدة في قسوتها ووحشيتها. لم يكن اللحم النيء الذي علق بأفواه الذئاب يعني شيئا بالنسبة إليها؛ الشيء الذي كان له معنى هو محض التمزيق الإجرامي للحم الأحصنة. عانت المزيد من الأحصنة جروحا مؤلمة وهي تواجه موجة بعد موجة من الذئاب المهاجمة. كانت الذئاب التي تقود كل هجمة، وتلك التي تأتي في أثرها، متوحشة بكل ما في الكلمة من معنى؛ كانت تقفز على ظهور الأحصنة، وتستجمع قواها، وتغرس مخالب قوائمها هناك، وتثب بحيوية في هذا الاتجاه أو ذاك كأنها نوابض حلزونية مشدودة وهي تمزق قطعا غليظة من الجلد، والشعر، واللحم بأسنانها الصارمة مثل الشفرة. بعد أن تلفظ ما أمسكت به من أفواهها، تقفز إلى الأرض، وتقوم بحركة شقلبة، وتقع مجددا على قوائمها، تعدو بضع خطوات، ثم تقفز على

حصان آخر. اتبع قطيع الذئاب بأكمله المنوال ذاته الذي سارت عليه ذكورها التي تقودها. كان كل ذئب يقدم عرضا كاملا مفعما بالحيوية ضمن مشهد من غرائز القتل التي انحدرت إليه من أسلافه القدامى.

هلك القسم الأكبر من الأحصنة؛ ولطخت الدماء الثلج على الأرض. أضحت السهوب عديمة الرحمة مرة أخرى كأنها ستارة خلفية لمشاهد مسرحية وحشية، تماما مثلما كانت عليه منذ آلاف السنين. اختطفت قطعان الذئاب أعدادا لا حصر لها من الأرواح الغضة، بعد أن كانت جيلا بعد جيل، قد تركت بصماتها الدموية على المنحدرات التي تغطيها الأعشاب النحيفة.

على هدي الضوء الشاحب المضبب المنبعث من مصباحيهما الكاشفين، كان الراعيان شاهدين على المجزرة. بالرغم من أن الأمر بدا وكأنه طقس يمارس سنويا، إلا أنه كان من الصعب تقبله هذه المرة أكثر من أي وقت مضى، لأن هذه الأحصنة ذائعة الصيت، التي تمثل مجد أولونبولاغ، كان من المفترض أن يجري تسليمها إلى الجيش، وقد أفلحت حتى ذلك الوقت في الخلاص من كل مذابح الذئاب؛ كانت تجسد كبرياء الرعاة الذين دأبوا على رعايتها بجهد وحماسة حتى بلغت سن النضج. بعد أن شاهدا الأحصنة تتعرض للذبح تعذر على باتو ولاسورنغ أن يذرفا الدموع. اختنقا بثورات من الغضب والهياج، لكنهما عرفا أن عليهما التغلب على ذلك برباطة جأش، وأن يكبحا جماح انفعالاتهما، وأن يبقيا هادئين، ويفعلا كل شيء يستطيعان القيام به لحماية الأحصنة التي لا تزال على قيد الحياة. تفاقمت مشاعر باتو بالقلق. أعلمته سنوات من الخبرة أن هذا القطيع لم يكن قطيع ذئاب عادي. كان في قيادته ذئاب ماكرة تعرف أولونبولاغ حق المعرفة، ويتضمن ذكور ذئاب فقدت صوابها من الحقد الذي نتج عن سلب طعامها، وتقودها علاوة على ذلك إناث مخبولة فقدت البطون التي ولدتها. لكن الذكر الأكبر لقطيع الذئاب كان بعيدا عن أن يكون مجنونا. اتضح مخططه من خلال الطريقة التي كان فيها قطيع الذئاب يدفع بالأحصنة إلى الجنوب. كان الذئب الأكبر موطدَ العزم على سحب قطيع الأحصنة إلى البحيرة مهما كلف الثمن. تلك كانت استراتيجية مألوفة تتبعها الذئاب. تفاقم شعور باتو بالذعر. لقد رأى في السابق ذئابا توقع غزلانا في فخ من الوحل، ورآها من حين إلى آخر تدفع أبقارا وأحصنة صوب أراضٍ موحلة. كان قد سمع من كبار السن عن ذئاب توقع الأحصنة في فخ من البرك، وتساءل إن كانت هذه هي الليلة التي قدر له فيها أن يواجه واحدا من قطعان الذئاب تلك. ترى هل يمكنها أن تبتلع قطيعا كاملا من الأحصنة؟ أجبر نفسه على التوقف عن الاستمرار في استعراض تلك الأفكار.

بعد أن أعطى الإشارة إلى لاسورنغ بمصباحه الكاشف لأن يلحق به، انطلق باتو يعدو مسرعا بقنوط خلف قطيع الأحصنة مجتازا المسافة كلها باتجاه الشرق لكي يقطع على القطيع طريقه؛ أخذ كلا الرجلين يلوحان بجنون، يضربان بسوطيهما ويفزعان الذئاب بعصوي الرعاة

وبالمصباحين الكاشفين اللذين لديهما. كانت الذئاب تخاف من الضوء البراق؛ إنه يعمي أبصارها. ومن خلال متابعة الجري إلى الأمام والخلف بشكل سريع، وتسليط حزم أضواء مصباحيهما الكاشفين، تمكن الراعيان من السيطرة على صف الأحصنة الذي إلى الشرق، حيث بدا أن إحساسها بالرعب انخفض قليلا. وسرعان ما استقامت حركتها واسعة الخطى، وانطلقت تجري باتجاه الضفة الشرقية للبحيرة؛ هذه ستكون فرصتها الأخيرة. أدرك قطيع الأحصنة أن عليه فقط أن يطوف حول البحيرة، عندها يمكنه أن يعدو مع اتجاه الريح طوال الطريق نحو الحوض المخصص لاستيلاد المواشي، حيث هناك الكثير من الخيم والكثير من الناس الذين يمكنهم أن يطلقوا صيحات تفزع الذئاب ويوجهوا أضواء تعمي الأبصار، وحيث ينتظر الأصدقاء الطيبون؛ كلاب شرسة، تكشّر عن أنيابها وتقاتل الذئاب إلى أن يأمرها سادتها بالتوقف.

لكن الذئاب مقاتلة متمرسة لها ممارسة لا تصدق في تحديد وترقب الفرص. وعندما تأتي تلك الفرص فهي تستغلها وتعتصرها حتى لا يتبقى منها شيء سوى اللب. الآن بعد أن أعدت المسرح المناسب، وعثرت على الفرصة المناسبة، توجب عليها أن تستغلها، وأن تفعل أي شيء تتطلبه الفرصة بحيث لا تسمح لحصان واحد من أن يتملص هاربا من الشرك.

تراكض الرجلان، وغدت الأحصنة، والذئاب واحدا خلف الآخر. أوقف قطيع الذئاب الهجوم لفترة وجيزة. كانت يدا باتو تتصببان عرقا من الإمساك بزند بندقيته. ألهمته عشر سنوات من العناية بالأحصنة أن الذئاب كانت تحتشد استعدادا لتندفع في موجة أخيرة؛ ستضيع الفرصة لبلوغ ذروة هجوم ناجح إن لم تفعل ذلك، ولم يكن مزاج قطيع الذئاب هذا يوحي باحتمال هدر فرصته السانحة للانتقام.

لكن قبل أن يتمكن باتو من السيطرة على ارتعاشه بشكل يكفيه لأن يطلق النار، انطلقت أصوات صهيل مرتعبة من قطيع الأحصنة، وبدا أن حصانه كان يتعثر. فرك عينيه المتوهجتين المغرورقتين بالدموع، وسلّط ضوء المصباح الذي يحمله إلى الأمام، ورأى في الضوء العديد من الذئاب التي كانت تتقافز أمام حصانه. عندما استدار باتو لينظر خلفه، رأى لاسورنغ يواجه المأزق ذاته. كافح ليهدئ من روع حصانه في اللحظة ذاتها التي بدأت فيها الذئاب بالهجوم، أعطى إشارة وميض للاسورنغ أن يلحق به، لكن حصان لاسورنغ كان مرتعبا لدرجة لا يقوى معها على عمل أي شيء سوى الرفس ومحاولة طرح راكبه أرضا. تناوبت الذئاب في الانقضاض على حصانه، كانت تنهش اللحم من جسده. في نهاية الأمر، تمزقت حاشية مئزر لاسورنغ حتى تلاشت عن آخرها، مما سبب له ذعرا بحيث إنه بالكاد كان يعرف أين هو. ألقى بعصا الراعي بعيدا، بعد أن كفت منذ مدة عن أن تكون ذات جدوى، واستعمل المقبض السميك لمصباحه الكاشف كسلاح، فصار يكيل الضربات بعنف على رؤوس الذئاب المتواثبة. انطفأ الضوء، تحطم المقبض، انشقت رؤوس الذئاب، لكن الهجوم المتناوب لم يتوقف. أخيرا،

انتزع أحد الذئاب الأكثر ضخامة قضمة من كتف الحصان مما جعل الحيوان ينتفض بجنون من شدة الألم. تغاضى الحصان عن محاولة راكبه لتعزيته وهو في نوبة الغضب، عض على الشكيمة داخل فمه، وأحنى رأسه، وانطلق يجري باتجاه الجنوب الغربي، ناجيا بحياته. أخفق لاسورنغ من أن يجعله يتراجع، بالرغم من أنه حاول جاهدا سحب سير العنان بقوة. حين أدركت الذئاب أنها تمكنت من إخراج مقاتل مزعج من ميدان المعركة توقفت عن المطاردة، واستدارت، وارتدت على أعقابها نحو قطيع الأحصنة.

الآن بعد أن صار باتو وحيدا، حاصرته الذئاب من كل جانب. تصرف بدافع من اليأس ليس إلاّ، وحول نفسه من راع إلى محارب منغولي. كان هو والذئاب وجها لوجه في قتال حتى الموت، وللمرة الأولى منذ مدة طويلة، استعد لاستخدام مهارات قتال الذئاب ووسائل مخادعة انحدرت إليه من أسلافه عبر القرون. كانت عصاه طويلة مثل سيف الفرسان، سلاح أعطاه إياه بلغي من النوع الذي كان يستخدمه أسلافه في مقاتلة الذئاب والفتك بها. كان طرف العصا القوية، التي تماثل في سماكتها مقبض مجرفة، مزودا بصفوف من الأسلاك الحديدية المبرومة، وقد تلطخت الفسحات التي بينها بدماء جافة تعود إلى أجيال من الذئاب. تناوبت العديد من الذئاب الضخمة في الوثب على حصانه من كلا الجانبين مما منحه الزوايا الضرورية لاستخدام عصاه، أفضل فرصة توافرت لديه في تلك الليلة لقتل الذئاب. كان كل شيء يعتمد على تماسك أعصابه ودقة تصويبه على الهدف.

أصبح على أهبة الاستعداد. استنشق نفسا عميقا من الهواء، ثم حوّل ضوء مصباحه إلى اليمين، ورفع العصا عاليا فوق رأسه. وبعد أن لمح ثغرة لف ذراعه عدة مرات، وهوى بالعصا بأقصى ما يستطيع من قوة على أكثر البقع صلابة لكن أكثرها عرضة للتأثر في رأس أحد الذئاب؛ على أنيابه. تهشمت أربع أنياب بكاملها للذئب، الذي كان محمولا في الهواء وقد جرد من براثنه، بقوة ضربة قاتلة.

سقط الذئب على الأرض المثلجة، حيث صار يلعق جرعات الدماء التي ملأت فمه، ورفع رأسه إلى السماء ليطلق عواء حادا، كان الصوت الذي ينم عن العذاب أكثر إثارة للقشعريرة من صرخة الموت. على السهوب كانت أنياب الذئب تحافظ على حياته دائما. من دونها يتعرض الذئب للضياع. لن يغدو بإمكانه أن يصطاد فريسته المفضلة، من حيوانات داجنة كبيرة؛ لن يغدو بإمكانه أن يدافع عن نفسه ضد كلاب الصيد أو الذئاب المنافسة؛ لن يغدو بإمكانه أن ينتف ويمزق، وأن يستمتع بولائم من قطع اللحم الغليظة وجرعات ملء الفم من الدماء؛ لن يغدو بإمكانه أن يستعيد طاقته بشكل كافٍ على السهوب التي لا تسامح من يقترف الأخطاء.

بعد أن حاصرته نتانة الموت، إثر تعرض حصان بعد آخر للقتل، صمم باتو على قتل الذئاب وجعل قطيعها يتذوق طعم شراسة ساكن السهوب. وقبل أن تتمكن الذئاب الأخرى

من إعادة التحشد، أبصر ثغرة أخرى وقام بتسديد ضربة قوية. لكن بالرغم من أن ذراعه كانت بعـــيدة، إلاّ أنه استطاع أن يضرب الحيوان على خطمه، فأزال اللحم عن العظم. سقط الذئب علـــى الأرض المثلجة، حيث صار يلتف حول نفسه مشكلا كرة ملتوية من الفراء. مع وجود عنـــصرين ضخمين من قطيع الذئاب يعويان من الألم، بدت الذئاب الأخرى كأنما انتابها الفزع مؤقتا وهي في طريقها للخضوع بفعل الإصابات التي ألحقها بها باتو نتيجة مهاراته وشدة بأسه. لكنها انتفضت على حين غرة في نوبة غضبها، توقفت عن الوثوب والانقضاض؛ إلاّ أنها بقيت ضمن الحيز الذي بين باتو وقطيع أحصنته.

الآن بعـــد أن دحر باتو الهجوم، ألقى نظرة شاملة على قطيع الأحصنة، فشعر بأن الوقت كـــان يـــنفد بالنـــسبة إليها، لكنه في الوقت نفسه أدرك أن الذئاب التي خلفها قد عانت من انتكاسة. أطلقت الذئاب غمغمة مرتعشة كأنها الريح التي تطلق صفيرا خلال مرورها عبر أسلاك كهربائية، صوتا مليئا بالذعر المميت والهيجان المروع.

ومـــع ذلك شن قطيع الذئاب، بأمر من قائده، هجوما آخر مستخدما فيه أكثر الوسائل قـــسوة، وأكثـــرها دموية، وأكثرها انتحارية بشكل لا يمكن تصور وجوده في ترسانة أسلحة الذئاب المنغولية. أخذت تقفز واحدا بعد الآخر، وخصوصا الإناث منها والتي فقدت جراءها، على ظهور الأحصنة، تنشب أنيابها في أكثر البقع رقة تحت الكتف، ثم تتعلق هناك بكل ثقلها، وتـــبدي استعدادا للتضحية بأرواحها. شكّل هذا التكتيك خطرا على كل من الحصان والذئب معـــا. حين يركض الحصان يصبح النصف الأسفل من جسم الذئب مثبتا كأنما دقّ بإسفين بين قـــوائم الحـــصان الخلفـــية، وبذلك عندما تحاول الضحية المذعورة أن تلقي بمعذبها بعيدا عنها، فـــيمكن لحوافـــرها القوية من أن تحطم عظام المهاجم، وتمزق جلده، وحتى أن تنتزع أحشاءه. تمكنت الذئاب الأضخم والأقوى من غيرها فقط أن تتعلق هناك من دون أن تتأرجح، وفي نهاية الأمـــر تمزق بطن الحصان أنيابها وبعدها تسقط على الأرض بأمان. إذا فشل الحصان في ركل الذئب وإبعاده عن جسده فإن ثقل الذئب المفترس سيبطئ من حركته إلى أن ينقض عليه قطيع الـــذئاب ويفترسه. أما إذا تمكن من ركل الذئب، فيمكن للقوة الإضافية أن تعمل بشكل جيد على توسيع الجرح المهلك الذي يصيب بطنه.

بعـــد أن واجهـــت الأحصنة هجوما على هذا النحو، فضلا عن المهاجمين الانتحاريين، ارتجفت أوصالها جميعا حتى بلغت حالة يأس مأساوية.

كانـــت أغلـــب الذئاب التي أطاحت بالأحصنة، مقابل خسارة حياتها، من الإناث. إنها أخف وزنا من الذكور، مما جعل من الأصعب عليها أن تشق بطون الأحصنة ببساطة من خلال التعلق، لذلك توجب عليها الاعتماد على قوة الحصان نفسه. قدّمت حياتها قربانا بعد أن استبد بها هاجس الانتقام، كانت تحدّق مباشرة إلى وجه الموت بكل هدوء، مكرسة نفسها لقضيتها،

فامتـــزجت الـــدماء بالحليب. واجهت إناث الذئاب خطر التعرض لجروح مهلكة في البطون، والـــصدور، والأعضاء، وحلمات ضروعها باستعداد للموت جنبا إلى جنب مع الأحصنة التي كانت تفتك بها.

كانـــت الأحـــصنة التي تمزقت بطونها، وانفتحت من قبل الذئاب، قد ملأت معداتها للتو ببواكير براعم العشب لتلك السنة، ممتزجة ببعض العشب الذي تبقى من الخريف الفائت، حيث كانـــت بطـــونها مـــشدودة وتتدلى إلى مستوى منخفض؛ عندما مزقت أنياب الذئاب البطون اندلقت والأحشاء المعوية اللينة إلى الخارج، وانتشرت فوق الثلج.

حطمت الصولة المهووسة الأخيرة التي شنّتها الذئاب مقاومة قطيع الأحصنة. لقد تحولت أرض الـــسهوب إلى مسلخ. تمدد حصان بعد آخر، بعد أن أخرجت أحشاؤه، واندلقت تحت حوافره، وهو يتلوى على الثلج، وتهاوى إلى حطام في نوبات من التشنج. خلال ثوانٍ معدودة، كانت الصدور التي تدفقت بداخلها دماء حارة قبل لحظات قد أضحت ممتلئة بالجليد. لطخت الـــدماء المتدفقة بغزارة من الأحصنة ثوب الثلوج التي كانت تلتف كالدوامة. لقد شلت حرب الانـــتقام الانتحارية للذئاب حركة باتو من الخوف؛ تجمد العرق البارد على جسده، وأدرك أن كل شيء قد تبدد وذهب أدراج الرياح. تجلت أمنيته الوحيدة الآن في إنقاذ بضعة أحصنة. بعد أن جـــذب شكيمة حصانه بشدة ليبطئ حركته مؤقتا غرز أعقابه فجأة في جانبـــي الحصان، حـــرر قبضته من الشكيمة، وانطلق يجري مارا بصف الذئاب التي بينه وبين ما تبقى من قطيع الأحـــصنة، مـــتجها صوب حصان القيادة، كان قطيع الأحصنة قد تبعثر مسبقا بفعل هجوم الذئاب، مثل جيش يمر بحالة فرار جماعي، يعدو مع الريح، أحصنة داهمها الذعر حتى إنها نسيت أن البحيرة تقع أمامها مباشرة إلى الجنوب.

عمل منحدر على سفح الجبل يؤدي إلى البحيرة على زيادة سرعتها، ودفعتها العاصفة الثلجية بـــشدتها المتفاقمة إلى الجري بشكل أسرع، حتى إنّ حوافرها بالكاد كانت تلامس الأرض، أحدث زخـــم اندفاعها الذي يشبه انهيارا ثلجيا جلبة صاخبة وهي تنحدر على سفح التل ومن ثم تخوض في أحـــد المـــستنقعات. تناثرت طبقة رقيقة من الجليد من تحت حوافرها، وتطاير الطين اللزج؛ أوشك المستنقع أن يبتلع ما تبقى من الأحصنة، كانت تصهل بيأس، وتكافح للاستمرار في الحركة، وبلغت شـــدة خوفها ونفورها من قطيع الذئاب ذروتها. الآن وقد غطست في وحل المستنقع، ترددت قليلا قـــبل أن تـــستجمع قواها لتتقدم بإجهاد إلى داخل الجزء الأعمق، بعد أن اختارت موتا ومدفنا في المـــستنقع تلحقه بنفسها بإرادتها على أن تترك الذئاب تنهش لحمها وتكون هي الغالبة في مساعيها للانـــتقام. هـــذه الأحصنة، والتي أخصيت من قبل البشر، تلك التي فقدت فحولتها بحد السكين، كانت ستنهي حياتها بعملية مقاومة أخيرة ليس إلاّ: سترد على هجوم الذئاب بتنفيذ انتحار جماعي. عند هذه اللحظة بالذات كانت الأحصنة تمثل أكثر قوى الحياة جسارة على السهوب القديمة.

لكـــن السهوب القاسية كانت تحتقر الضعفاء، وترفض أن تمنحهم حتى أدنى مستوى من الـــشفقة. حـــين أرخى الليل سدوله، حولت درجة الحرارة المنخفضة بحدة بالغة سطح البحيرة الموحل إلى طبقة رقيقة من الجليد بني اللون. تجمدت ضفاف البحيرة بصلابة، لكن الجليد الذي غطـــى وســـط المستنقع لم يكن سميكا لدرجة كافية ليتحمل ثقل الأحصنة؛ كسرت حوافرها الجلـــيد وهي تتحرك داخل مياه أكثر عمقا، وأوحال أكثر سماكة، صارت المياه والأوحال أكثر سماكة من المعتاد بفعل الثلوج المدومة والهواء البارد المرير. لقد وقعت الأحصنة في الفخ، بالرغم من أنها استمرت في النـــزاع، إلا أن كل خطوة كان يرافقها العذاب جلبت معها كذلك ثلوجا أكثـــر وهـــواء بـــاردا تسرب نحو الثغرات التي فتحت ما بين الحافر والوحل. حوّل نـــزاعها المـــستنقع إلى شرك متجمد. وأخيرا، كان من المحتم أن تستنفد قواها، و لم تستطع بعد ذلك أن تبدي أي حراك. بعد أن حرمت من الموت السريع الذي كانت تسعى إليه جاهرت الأحصنة في التعبير المفعم باليأس عن عذابها؛ شكّلت أنفاسها غمامة من البخار، وتغطت جلودها بالصقيع. أدرك كل واحد منها أن الخلاص مستحيل، وأنه ليس بإمكان أي شيء ولا أي شخص أن يمنع المجزرة الآتية لا محال.

جـــذب باتو سير عنان حصانه بحذر عند جرف البحيرة، إلاّ أنه في اللحظة التي لامست فـــيها الحوافر سوداء اللون الكبيرة الماء، صهل الحصان خائفا، أحنى رأسه، وصار يرمق بعصبية ذلـــك المشهد الموحل الذي تجلى أمامه، لم يجرؤ على الاقتراب أكثر. وجه باتو ضوء مصباحه الكاشف منيرا سطح البحيرة فرأى الأشكال الضبابية للأحصنة العالقة حيث خفت حدة الثلوج المتطايرة للعاصفة الثلجية هنا وهناك. تمايلت رؤوس بضعة منها بوهن. وكز عقبـــي جزمته في جانبـــــي حصانه ليقترب أكثر. لكن قبل أن يمضي الحصان أكثر من خمس أو ست خطوات، اختـــرقت حوافره الجليد وغطس في الوحل، كان ذلك تحذيرا جعله يتراجع إلى الأرض الصلبة. في هـــذه المرة ضرب باتو حصانه عند الخاصرة بعصا الراعي، لكن الحصان رفض أن يتحرك. فكّـــر في التـــرحل، في أن يـــزحف مسافة فوق الجليد، وأن يقف حارسا على أحصنته حاملا بندقيـــته. لكـــنه عـــرف أنه حالما يبتعد عن حصانه ويصبح وسط قطيع الذئاب، سيفقد موقع القـــيادة الذي يستطيع منه استخدام عصاته والركاب الحديدية لحصانه كأسلحة؛ وحالما تكف الذئاب عن الخوف منه سيتمزق الرجل والحصان إربا إربا. إلى جانب ذلك، كانت لديه عشر رصاصـــات ليس إلاّ، وحتى مع البراعة التامة في الرماية، فإن قتل ذئب بكل طلقة سيترك الكثير مـــنها هـــناك. غطت خديه دموع جليدية وهو ينظر ناحية الشرق، ويدير رأسه إلى السماء. تينغـــر، تينغـــر ألهمـــني الحكمة وامنحني القدرة على إنقاذ هذا القطيع! رد تينغر على ذلك أن انـــتفخت أوداجـــه وأرســـل عصفا أشد قسوة، مما جعل صوت باتو يتبدد مع زمجرة العاصفة الثلجية ذات الشعر الأشيب.

مسح باتو الدموع عن خديه بكم مئزره، وعلّق عصا الراعي في رسغه مجددا، وصوب بندقيته، واحتضنها بيده اليسرى مع مصباحه الكاشف منتظرا وصول الذئاب. راودت ذهنه فكرة واحدة: قتل أكبر عدد ممكن من الذئاب.

مرّ الوقت، وجلس باتو وهو يكاد يتجمد على سرجه. تسللت الذئاب من دون سابق إنذار مقتربة منه أكثر، كانت تتحرك بمستوى منخفض وبهدوء وكأنها ريح طيفية، قطعت مسافة فوق الجليد. توقفت عند الحافة الشرقية، حيث أخفاها عن الأنظار ركام ثلجي مختلط بالضباب. وبعد وهلة، برز ذئب نحيف من لجة الضباب واقترب من حصانه، كان ينقل خطوة متوجسة إثر أخرى، مختبرا مدى تماسك الجليد. توقف باتو عن إطلاق النار. كان الذئب صغيرا جدا. بعد عشر خطوات أو أكثر، رفع الذئب رأسه، وركض باتجاه الأحصنة التي وقعت في الفخ. لكنه لم يكد يبدأ بالركض حتى تصاعدت دوامة ريح بيضاء اللون على حافة البحيرة، واندفعت بسرعة باتجاه قطيع الأحصنة؛ عندما وصلت دوامة الريح إلى الأحصنة صارت تدور حولها، أثارت سحبا من الثلوج والسديم، مخفية كل أثر للسماء والأرض.

ارتعش باتو، وقد أعمته الثلوج، من شدة البرد الذي يشل الحركة. كان حصانه – الذي يتمتع بحاسة شم حادة، ملفوفا بدوامات من الثلوج ويرتعش من البرد؛ وقد أحنى رأسه – يصهل معبرا عن عذاباته. وسط ظلام الليل الدامس، غطت العاصفة الثلجية ذات الشعر الأشيب التي انفلتت من عقالها مرة أخرى مسلخا، حيث تجمدت الدماء المتدفقة على الجليد.

أطفأ باتو مصباحه الكاشف بحماس فاتر، فيما تجمدت أوصاله تقريبا وتصلب جسده، لكي يتوارى في الظلام. خفّض رأسه، صوب بندقيته باتجاه البحيرة، إلاّ أنه بعد ذلك رفع السبطانة فجأة وصوبها نحو السماء وأخذ يطلق النار على نحو بطيء؛ مرة، مرتين، ثلاث مرات...

6

أشرقت الشمس بوهن من خلال الغيوم القاتمة المتباعدة، وسقط رذاذ الثلوج المنجرف على أصـــقاع أولونـــبولاغ الشاسعة. بعد انقضاء نهارين وليلتين دامية رافقتها العاصفة الثلجية ذات الـــشعر الأشيب، فقدت السماء قدرتها على إرسال المزيد من الثلوج؛ لا بشكل حبيبات، ولا رقاقات. انـــزلق على مهل زوج من العقبان من بين الغيوم. تدفق سيل من هواء بواكير الربيع الدافـــئ علـــى المناظـــر الطبيعية، فتحول إلى سديم حملته الرياح بعيدا. حلّق سرب من طيور الطـــيهوج الحمراء والبنية التي يميل لونها إلى لون الرمال خارجا من أيكة شجيرات تشبه المرجان أبـــيض اللـــون، ممـــا جعل فروع الشجيرات تخشخش، اهتزت ثلوج مخملية كأنها هندباء برية وتساقطت، وانكشف اللون الأحمر الغامق لأشجار صفصاف السهوب. بالنسبة إلى الناظر، بدا المـــشهد شـــبيها بمرجان أحمر وسط حوض من البياض؛ لوحة زاخرة بالألوان، مبهرة للعيون. اختـــرقت سلسلة الجبال التي في جهة الشمال نطاق سماء صافية، حيث ارتفعت سحب زرقاء اللـــون حـــتى لامـــست البياض المبهر للثلوج التي تكلل قمم الجبال. كان السلام قد عاد إلى أولونبولاغ القديمة.

عالج كل من لاسورنغ وشن زن آثار قضم الصقيع في جسم باتو، وبقيا معه طوال اليوم. ولكـــن كـــان من الصعب عليهما تصديق حكايته المهولة التي حدثت على السهوب فيما هم جالـــسون تحت سماء صافية جميلة. بالطبع كان كل شخص يعمل على أرض المراعي قد صارع العاصفة الثلجية ليومين بلياليهما، لكن شن لم يقتنع بما أخبرهما به باتو.

كـــان استنـــشاق هواء الربيع البارد شيئا مساعدا على المواساة، ذلك لأن تساقط الثلوج الثقيلة معناه أن الجفاف الربيعي سيبلغ نهايته. لقد شهد كل يوم رياحا جافة، غبارا جافا، عشبا جافا، وسمادا جافا حتى شعر شن بأن عينيه تلسعانه وأنهما كانتا يابستين؛ الآن انتهى كل ذلك. عقـــب انـــتهاء العاصفة، تحول الثلج الذائب إلى مياه تدفقت إلى الأنهار والبحيرات، ونبتت في الـــسهول الأعـــشاب الخضراء والزهور الجميلة، وكانت هذه علامة على أن المواشي ستنمو، وتمتلئ أبدانها في فصل الربيع. كان العجوز بلغي يحب أن يقول إن وقت الربيع هو الأفضل من بـــين المواســـم الـــثلاثة بالنسبة إلى المواشي لكي تتراكم الشحوم في أبدانها. فإذا فشلت في أن تكتنـــز الشحم في الربيع، فلن تقدر على اكتناز ما يكفي منه في الصيف وهو ما يسمّى بشحم الـــشتاء، ولـــن تبقى لديها فرصة لإضافة شحم في الخريف. إذا لم تتراكم في أبدانها طبقة من

الشحم تبلغ سماكتها ثلاثة أصابع في الخريف، قبل أن يتحول العشب إلى الاصفرار، من المحتمل أنها لن تقوى على البقاء طوال مدة الشتاء التي تمتد إلى سبعة أشهر. سيكون من الضروري بيع تلـــك الخراف بثمن بخس في الصين قبل حلول الشتاء. في السنين التعيسة، يضطر الناس إلى بيع نصف عدد القطيع، وأحيانا أكثر من ذلك، قبل مداهمة الشتاء. كان الربيع بمثابة الفصل الحاسم على أراضي السهوب، وتمنى الجميع أن تعوض ثلوج الربيع بعض الخسائر التي لحقت بهم سابقا.

ذهب شن زن وطلاب آخرون، من وحدته ووحدات أخرى، إلى الموقع الذي حدثت فيه المجـــزرة إلى جانب فريق التقصي عن الكارثة الذي تم إرساله من مقر القيادة وفرقة الإنتاج. في الطـــريق إلى هـــناك كانت نظرات الكآبة تملأ وجوه قادة اللجنة الثورية – باو شنغوي، ممثل الجهات العسكرية، وأوليجي، مدير المراعي – والراعيين باتو ولاسورنغ، وجميع ممثلي المنظمات الجماهيرية الأخرى؛ حتى الرعاة الشباب مفتولو العضلات كانوا قد استقدموا إلى هناك لغرض إزاحة الثلج عن الموقع. غطس قلب شن في أعماقه عندما فكّر مليا في الغضب الذي أبداه القادة العسكريون والمحليون لدى معرفتهم أن قطيع الأحصنة بأكمله قد تعرض للضياع قبل تمكنه من الالـــتحاق بالخدمة العسكرية. امتطى باتو حصانا آخر، فقد كان حصانه أسود اللون الضخم يخضع للعلاج من قبل الطبيب البيطري بعد أن كابد جروحا أوهنت قواه. لم تكن الدهون التي تغطي وجه باتو قادرة على إخفاء التشوه الذي بدا فظيعا للغاية حين ينظر المرء إليه. كان الجلد الـــذي على أنفه ووجنتيه قد اسودّ من قضمة الصقيع[1] وانتشرت عليه ندب مجعدة ينـــز منها الصديد. أحدث الجلد القرنفلي الجديد الذي شق طريقه إلى السطح تغيرا مروعا في سحنة وجهه بنـــية اللون. كان ثمة مقبض مجرفة خشبـــي كبير يلتصق عبر حزامه بظهره وهو يمضي بتكاسل على حصانه بجانب باو شنغوي.

كان لاسورنغ قد وجد باتو خلف حظيرة حيوانات مهجورة عند الطرف الجنوبـــي من البحيرة الكبيرة بعد أن استمر هبوب العاصفة الثلجية طوال الليل ونصف اليوم اللاحق. لم يكن حصانه، الذي عانى جروحا بالغة، يقوى على الحركة، وقد شارف باتو على الموت من التجمد. أفلـــح لاسورنغ في الرجوع بالحصان وراكبه إلى الديار. ومن أجل أن يوضح لفريق التقصي ما الـــذي حدث بالضبط، اضطر باتو إلى أن يمتطي حصانه، ويدلهم على الطريق عائدا إلى الموقع، وإن كـــان ذلـــك شيئا مثيرا للألم. خضع الراعيان الآخران، بعد أن عانيا هما أيضا من قضمة الصقيع بشكل بالغ السوء، للاستجواب مسبقا كل على انفراد.

امتطى شن زن صهوة حصانه، وسار إلى جانب بلغي خلف الجماعة الرئيسية. "بابا"، قال بصوت رخيم، "ترى كيف سيعاقبون باتو؟".

---

(1) قضمة الصقيع: أثره الذي يسبب جروحا في ناحية من الجسم.

مسح الرجل العجوز قطرات الندى عن لحيته الرفيعة المشذبة بكمه، بدت نظرة عطوفة عميقة الغور في عينيه. ومن دون أن يدير رأسه حدّق بعيدا إلى الجبال النائية وقال بنبرة بطيئة، "هل تتصورون أنتم الطلاب أنه ينبغي لنا معاقبته؟". استدار وأضاف قائلا، "إن مقر القيادة وممثلي الجهات العسكرية يهتمون بأفكاركم. ولذلك السبب فقد دعوكم للمجيء معهم".

– باتو رجل طيب. كرس كل حياته تقريبا لرعاية أحصنة الحرب تلك. لم يحالفه الحظ قط. إنني شخصيا أعتقد أنه بطل سواء أنجح في إنقاذها أم لا. لقد عشت في بيتك لمدة سنة، والجميع يعرفون أنني أعتبر باتو أخا كبيرا لي. لكن يمكنني أن أتفهم موقف باو شنغوي، لذلك فإن رأيي ربما لن يكون مهما. إلى جانب ذلك، فنحن الطلاب لا نتفق في ما بيننا على رأي. لذلك أتصور، بما أنك ممثل عن الرعاة المساكين وعضو في اللجنة الثورية وشخص يصغي الجميع إلى كلامه، ينبغي أن تكون لك الكلمة الفصل.

– "ما الذي يقوله الطلاب الآخرون؟". سأل الرجل العجوز، بدا واضحا أنه كان مهتما بالأمر.

– أغلب الذين ينتمون إلى وحدتنا لديهم أشياء طيبة يقولونها عن باتو. ما حصل هذه المرة، مع وجود ثلوج قاتلة، ورياح قاتلة، وهجوم ذئاب قاتلة، لم يكن في وسع أي إنسان تفادي الأمر، وهم لا يعتقدون أنه ينبغي معاقبة باتو. لكن هناك البعض ممن يقولون إن الرعاة ربما استغلوا كارثة طبيعية لأغراض شريرة، عملية مضادة للعسكر، مضادة للثورة، وإن خلفيات الرعاة الأربعة تحتاج إلى مراجعة عن كثب.

بدا بلغي متجهما. لم يتفوه بشيء بعد ذلك.

* * *

بعد الطواف حول الحافة الشرقية للبحيرة، وصل الفريق إلى البقعة التي كان باتو يطلق فيها النار من بندقيته. حبس شن زن أنفاسه، وهيأ نفسه وجدانيا لما كان على وشك أن يراه.

لم تكن هناك قطرة من الدم في أي مكان؛ لقد غطت طبقة من الثلج الجديد تصل سماكتها إلى قدم المشهد الدامي عقب ليلة المجزرة تلك. لم تكن هناك رؤوس أحصنة تبرز إلى خارج سطح البحيرة، لا شيء سوى ركام ثلجي متماوج في عدة مواضع، كان الثلج في ما بينها عميقا بصورة مميزة. انتشرت الانجرافات الثلجية في كل مكان، نحتتها رياح هبت ليلا لتغطي جثث الأحصنة التي كان ينبغي رؤيتها بوضوح تام. تابع الناس النظر بصمت، كانوا جالسين على سروجهم، غير راغبين بسحب هذا الدثار من الثلج. حاول الجميع استحضار صورة في أذهانهم لما جرى في تلك البقعة.

كسر بلغي جدار الصمت. "يا للأسف". قال وهو يشير إلى الحافة الشرقية من البحيرة بعصا الراعي التي يحملها، "انظروا إلى هناك، إلى ذلك المدى كانت الأحصنة قريبة من النجاة. لم

يكن شيئا سهلا على باتو أن يسوق قطيعه من السهوب إلى الشمال حتى هذه البقعة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الرياح العاتية وكل تلك الذئاب. حتى وإن لم يكن خائفا، فالحصان الذي يمتطيه حتما كان مرتعبا. لقد بقي في مكانه مع قطيعه من البداية حتى النهاية، بقي يقاتل الذئاب طوال الوقت. أدى ما يفترض به أن يؤديه".

وجد الرجل العجوز أنه من السهولة مناقشة قضية ابنه.

تقدم شن تدريجيا ووقف بمحاذاة باو شنغوي. "لقد قاتل باتو الذئاب طوال الليل من أجل حماية الملكية التي تعود لعامة الشعب"، قال، "وكاد أن يلقى حتفه في العملية. ينبغي أن يرشح اسمه إلى السلطات بوصفه بطلا -".

حملق باو في شن غاضبا، "تقول بطلا؟". صاح بصوت هادر. "البطل كان سيحمي القطيع". استدار نحو باتو. "لماذا كان القطيع شمال البحيرة في ذلك اليوم؟ مع كل خبرتك في رعاية الأحصنة، كيف لا تعرف أن الريح ستدفعها باتجاه البحيرة بالضبط؟ ذلك هو الذي أدى إلى ما حدث هنا".

لم يكن باتو يستطيع أن ينظر إلى باو في الوجه. "إنها غلطتي"، قال، "كلها، لو أنني سقت القطيع إلى المراعي الشرقية قبل حلول الظلام لما كان سيحدث شيء من هذا".

نخس لاسورنغ حصانه بالمهماز تعبيرا عن الرفض. "أخبرونا في مقر القيادة أن نرعى الأحصنة هناك، قالوا إن ذلك هو المكان الوحيد الذي تتوافر فيه كميات وفيرة من أعشاب الخريف، وحيث كانت أعشاب الربيع الجديد تبرعم مسبقا. أخبرونا أن نحرص على جعل رجال الميليشيا، الذين سيأتون لاسترداد الأحصنة، يفرحون بوجود أحصنتهم. أتذكر أن باتو نهض في اجتماع "استوعبوا الثورة، ارتقوا بالإنتاج"، وقال إن ترك الأحصنة ترعى عند الطرف الشمالي من البحيرة ليس آمنا. والآن بعد أن تبيّن لك صواب ما توقّعه باتو، كيف تلقي باللوم على كاهله؟".

تابع قادة مقر القيادة النظر بهدوء، إلى أن تنحنح أوليجي وقال: "ما يقوله لاسورنغ صحيح. ذلك ما حدث. أراد الجميع للأحصنة أن تكبر وتشتد قوتها وهذا يمكنها أن تقطع مسافات كبيرة وتساهم بشكل أكبر في تحقيق الخطط الاستراتيجية. من الذي كان في وسعه أن يتوقع هبوب عاصفة ثلجية ذات شعر أشيب؟ عاصفة تهب من الشمال، تذكروا ذلك. بالإضافة إلى قطيع من الذئاب، طبعا. لولا الذئاب لاستطاع باتو أن يسوق قطيع الأحصنة إلى بر الأمان، ذلك شيء مؤكد. رياح قاتلة، وثلوج قاتلة، وهجوم ذئاب قاتلة، إنها سلسلة من الحوادث التي لا تحصل إلا مرة كل قرن، هكذا إذا! إنني مسؤول عن الإنتاج، فإذا كان هناك أي شخص يوجه إليه اللوم، فهو أنا".

أشار باو شنغوي بسوطه إلى أنف لاسورنغ. "أنت لن تنجو من اللوم في هذا الشأن"، قال. "كان بلغي على حق عندما قال إنها كانت قريبة من الوصول إلى بر الأمان. لو لم تهربوا

أنتم الثلاثة من ميدان المعركة وبقيتم بدلا من ذلك مع باتو لتجعلوا القطيع يستمر بالتحرك، لما حـــدث شـــيء من هذا. السبب الوحيد الذي دعاني لعدم إرسالك إلى الاستجواب هو أنك انطلقت بحصانك وأنقذت حياة باتو".

مدّ بلغي يده، وخفض سوط باو بعصاه. "أيها السيد باو، ممثل العسكر"، قال وقد بدت على محياه نظرة صارمة، "بما أنك منغولي من إقليم زراعي، ينبغي لك على الأقل أن تكون على درايـــة بعاداتـــنا هنا. ينبغي لك ألاّ تشير بسوط إلى أنوف الناس حين تتكلم معهم. ذلك كان امتيازا اقتصر فقط على الملوك ونبلاء المراعي".

أنــــزل بـــاو سوطه، وحوله إلى يده اليسرى. أشار في البداية إلى لاسورنغ، ثم إلى باتو بـــسبابته اليمنى. "أنت!"، قال بصوت كالنباح. "وأنت! لماذا لم تذهبا إلى هناك لتجرفا وتكنسا الثلج؟ أريد أن أرى تلك الأشلاء الباقية. أريد أن أرى حجم الذئاب التي نتكلم عنها. لا تحاولا إلقـــاء اللـــوم بـــشأن مـــا حدث على الذئاب. يقول لنا الرئيس ماو إن الإنسان هو العنصر الأساسي!".

نـــزل الرجال عن أحصنتهم؛ التقطوا مجارفهم ومواسحهم، ومكانسهم؛ وبدأوا بتنظيف المقبرة. امتطى باو شنغوي حصانه وتجول في أرجاء المنطقة وهو يلتقط الصور بكاميرا من نوع سيغل لتكون دليلا فيما كان يصدر الأوامر: "أزيحوا الثلج جيدا، نظفوا المكان تماما! سيأتي فريق تحقيق من المقاطعة واللواء إلى هنا في غضون أيام قليلة".

رافق شن زن، كلا من أوليجي، وبلغي، وباتو، ولاسورنغ، باتجاه العديد من المواضع التي تراكم فيها الثلج وسط البحيرة، حيث كان الجليد صلبا والثلج ينسحق تحت أقدامهم. "من أجل أن نحدد مدى ضراوة أي قطيع من الذئاب، كل ما نحتاج إلى معرفته هو ما إذا كانت الأحصنة المدفونة هناك قتلتها الذئاب"، قال بلغي.

"كيف ذلك؟". تساءل شن.

"فكّـــر في الأمر على هذا النحو"، قال أوليجي. "كلما مضيت مسافة أبعد، زاد الخطر. سيكون الوحل الذي هناك آخر شيء يتعرض للتجمد، ولن يجازف أي من الذئاب باحتمال أن يتعـــرض للغـــرق. إذا، لو كانت الذئاب هي التي قتلت تلك الأحصنة فذلك يخبرنا عن مدى ضراوة قطيع الذئاب الذي نتعامل معه".

استدار الرجل العجوز نحو باتو، "ألم يكن مجديا أن تطلق النار من بندقيتك؟".

"كلا"، قال باتو وقد بدا الحزن على وجهه. "كانت لدي عشر طلقات فقط، ونفدت في وقـــت لا يكـــاد يذكر. ابتلعت الرياح الصوت. لكن حتى لو كنت قد أفزعتها وولت هاربة، لعـــادت عندما نفدت ذخيرتي. كان الظلام دامسا، وبهت ضوء مصباحي الكاشف. لم أستطع رؤية شيء".

"لكنني لم أكن أفكّر في ذلك حينئذ". مدّ باتو يديه، ولمس الجلد الذي قضمه الصقيع على وجهه. "استمرت الثلوج بالتساقط. كنت أخشى أن أصيب الأحصنة. كنت آمل أن تخف شدة الرياح وألا تتجمد البحيرة بحيث تبقى الذئاب متقهقرة. بتلك الطريقة يمكن لبعض الأحصنة من أن تنجو. أتذكر أنني رفعت زاوية بندقيتي قدما أو نحو ذلك".

تنهد بلغي وأوليجي بعمق.

عــندما كانوا واقفين وسط البحيرة، تردد باتو قبل أن يزيح الثلج عن رؤوس الأحصنة. حــبس الــرجال أنفاسهم. كان نصف الرقبة المكشوفة لحصان أبيض اللون ضخم قد تعرض للــنهش، وســحب الرأس والتوى حتى استقر على صهوة الحصان. طبعت على عيني الحصان الجاحظــتين، اللتين تجمدتا حتى أصبحتا تقريبا كأنهما بيضتان شفافتان من جليد أسود اللون، نظــرة الجزع والخوف التي لاحت له في اللحظات الأخيرة، منظر يثير الرهبة في النفوس. تلطخ الــثلج الذي تحت الرأس باللون الأحمر للدماء المتجمدة، كان قاسيا بحيث لم تفلح الأدوات التي اســتخدمها الرجال في تكسيره. أخذ الرجال يحفرون ويزيحون الثلج بعيدا من دون أن يتفوهوا بكلمة، مما كشف عن نصف الجثة. بدا لشن كما لو أن بطن الحصان قد فتحت وتشققت بفعل انفجار، وليس أنياب ذئب.

وقفــوا في تلــك الأرجاء وقد فغروا أفواههم اندهاشا من المنظر. كانت يدا شن وقدماه باردة كالجليد، توغلت القشعريرة عميقا في عظامه.

ظهــر بلغي وهو يحمل ماسحة في يديه مستغرقا بأفكاره. "ربما يكون هذا ثاني أو ثالث أكــبر قطيع للذئاب سبق أن واجهته"، قال. "لست بحاجة إلى أن أشاهد المزيد، ما دام الحصان الأكثر توغلا في الثلج تمزق إلى نتف هكذا. لم ينجُ حصان واحد من المذبحة".

تنهد أوليجي وقد ارتسمت على وجهه ملامح الاكتئاب: "كنت أمتطي هذا الحصان مدة سنتين"، قال. "اصطدنا معا ثلاثة ذئاب. كان واحدا من أسرع أحصنتنا. لم أمتطِ على الإطلاق صــهوة حصان أفضل منه، ولا حتى عندما كنت أشترك في قمع قطاع الطرق كآمر سرية في وحــدة للخيالة. ما كان أي سارق للأحصنة يقدر على ابتكار استراتيجية من التكتيكات التي استخدمها قطيع الذئاب هذا. استثمرت الذئاب الرياح والبحيرة، مما يتيح لكم التشكيك بمدى ذكائــنا لــيس إلاّ. لو أنني كنت أذكى بقليل ربما كان هذا الحصان ما يزال على قيد الحياة، ويتوجب عليّ تقبل بعض اللوم على ما حصل هنا. لو كنت فقط أكثر صرامة بشأن ملاحظاتي التي أبديتها لباو العجوز في ذلك اليوم".

أزيح الثلج عن النصف الأكبر من موقع المذبحة. انتشرت الجثث الملقاة في أنحاء مختلفة من البحيرة، بجليدها الذي اصطبغ بلون الدم. تناثرت الأعضاء المتكسرة في كل مكان، كما لو أنها كانــت تنتــشر في ميدان معركة بعد قصف مكثف. جلس راعيا الأحصنة على أعقابهما فوق

الجليد، كانا ينظفان رؤوس أحصنتهم المفضلة بأكمام يحف بها الفراء وبحواشي مئزريهما، وهما لا يكفـان عـن النحيب. ذهل كل رجل في الفريق من المشهد التعس. حملق شن زن وطلاب آخرون في بعضهم، لم يكونوا قد شهدوا مطلقا ما قد تتركه إحدى المعارك من نتائج دموية أو الأثـر الـذي يخلفه هجوم للذئاب، اصطبغت وجوههم بلون شاحب مثل شحوب الموتى من الذعر الذي تغلغل في أحشائهم.

كانت تعاسة الرجل العجوز بادية للعيان. "أنتم الصينيون ضعفاء في الفروسية. عندما يغدو الركوب صعبا لا تتمكنون حتى من الثبات على السرج".

بمـا أنه لم يكن معتادا على التعرض لتوبيخ بلغي، فقد فهم شن التلميح الذي وراء تعليق الرجل. لقد احتل رمز الذئب مكانة لا تتزعزع في روحه أكثر من مكانته لدى فارس بارع على صـهوة حصان منغولي. بعد آلاف السنين، انقرضت خلالها أعراق من البشر غير ذات أهمية لا يعرف عددها، أو تشردت بعد أن اكتسحتها غيرها من الأعراق بشكل عنيف، لم تكن تساور سكان السهوب الشكوك أبدا في رمزهم المفترس، الذي سيبقى رمزهم المبجل الوحيد حتى بعد أن قتل سبعين أو ثمانين من أفضل الأحصنة. ذلك الأمر جعل شن يتذكر أقوالا مأثورة "يتسبب النهـر الأصفر بمئات الكوارث لكنه يمنح الخصب لكل شيء يلامسه"؛ "حين تفيض مياه النهر الأصـفر على ضفافه يصبح الناس سمكا وسلاحف"؛ "النهر الأصفر نهرنا الأم"؛ "النهر الأصفر مهـد العـرق الصيني". لا ينكر الصينيون أبدا أن النهر الأصفر كان مهدا للعرق الصيني أو أنه عنصر حاسم في بقاء وتنامي عرقهم حتى وإن فاضت مياهه في بعض الأحيان، وغمرت ضفافه وابـتلعت هكتارات من الأراضي الزراعية، وآلافا من الأرواح. لقد استحق رمز ذئب سكان السهوب أن ينال التبجيل وفقا للنهج ذاته.

تجول باو شنغوي، الذي توقف عن إصدار الأوامر بالصراخ، وهو يمتطي حصانه في أرجاء المكـان لتكوين صورة كاملة عن المذبحة. وفيما كان باو يلتقط الصور الفوتوغرافية للمشهد، لاحظ شن زن أن يديه ترتعشان بشدة؛ كان يواجه متاعب في إبقاء كاميرته بوضع ثابت.

* * *

كـان بلغي وأوليجي يجرفان الثلج في منطقة انتشرت فيها العديد من الجثث التي تركت ملقاة هناك، حفرا هنا وأحدثا ثقبا هناك، وكأنهما كانا يبحثان عن دليل. أسرع شن ليقدم لهما يد المساعدة. "ما الذي تبحث عنه، بابا؟"، سأل.

– "الممر الذي سلكته الذئاب"، أجاب الرجل العجوز. "علينا أن نتابع العمل بحذر".

انحـنى شن، تقدم بخطوات وئيدة، وساعدهما على البحث. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا. هناك على الأرض اكتشفوا ممرا تراكم فيه الثلج بكثافة فوق الوحل المتجمد. بعد إزاحة وتنظيف المـسحوق الثلجي الذي تراكم عليه، ورأينا آثار أقدام ذئاب كبيرة كأنها حوافر ثور، وأخرى

صغيرة كأنها آثار قوائم كلب ضخم. كانت هناك بقايا دماء على بعض الآثار التي تركتها الأعقاب.

نادى أوليجي وبلغي الآخرين للمساعدة على إزاحة الثلج عن ممر الذئاب؛ وحسب رأي بلغي، فإن ما استنتجوه من تفحص الممر يجعلهم قريبين أكثر من معرفة حجم قطيع الذئاب. مع انكشاف الممر تدريجيا، رأوا أنه اتخذ شكلا منحنيا، وليس مستقيما، وبعد مسافة أكبر لاحظوا أنه صار يشكل شبه دائرة. تطلب الأمر أكثر من ساعة لإزاحة الثلج عن محيط الممر كله، ليكتشفوا أنه يمتد في دائرة كاملة، من الجليد والدماء، ومن الثلج الملطخ باللون الأحمر الكثيف الذي تبلغ سماكته سماكة قبضة يد؛ وشكّل الوحل المتجمد أسود اللون وأحمره والجليد أحمر اللون منظرا يبعث على الرهبة في النفوس، وكأنه نوع من الكتابة خطتها يد شريرة. ارتعش الرجال فزعا من أعماقهم، كانوا يرتجفون وهم يناقشون الشيء الذي اكتشفوه.

– عشت زمنا طويلا، لكنني لم أشاهد أبدا مثل هذه الأعداد الكبيرة من آثار الذئاب في مكان واحد.

– لم تكن هذه آثار قطيع للذئاب؛ إنها عصابة.

– الأعداد مخيفة.

– أربعون أو خمسون منها على الأقل.

* * *

– باتو، أنت رجل شجاع، لأنك صمدت أمام هذا القطيع. لو كنت مكانك، لسقطت عن صهوة حصاني رعبا، واتخذت طريقي على الفور إلى بطون تلك الذئاب.

– "كان الظلام حالكا في تلك الليلة، والثلوج تتساقط؛ لم يكن في وسعي رؤية شيء. كيف كان في وسعي أن أعرف حجم قطيع الذئاب؟". قال باتو.

– من شأن هذا أن يجعل الأمور صعبة في مراعينا من الآن فصاعدا.

– لن تجرؤ النساء على الخروج والمشي ليلا.

– اللعنة على هؤلاء الأغبياء في مقر القيادة على نهبهم طعام الذئاب الذي دفنته لأيام الربيع العجاف. ذلك هو السبب الذي جعلها تأتي محاولة الانتقام. سأفعل الشيء نفسه لو كنت الذكر الأكبر في قطيعها. لكنني كنت سأسعى للفتك بخنازيرهم ودواجنهم.

– بإمكان مقر القيادة أن يفعلوا شيئا صائبا مغايرا وذلك بتنظيم حملة لصيد الذئاب. إذا لم نقتلها الآن سنكون البند التالي على لائحة طعامها.

– إنني أؤيد عقد اجتماعات أقل، والقيام بعمليات صيد ذئاب أكثر.

– من خلال الطريقة التي اتخمت بها نفسها هذه المرة، يبدو أنه لم يتبقَ لنا من الحيوانات ما يكفي لإشباع شهيتها.

– أرســـلوا إلينا أشخاصا من الأراضي الزراعية ليكونوا قادة لمراعينا، وكل شيء يفعلونه غير صحيح. بعث تينغر الذئاب لكي يعطينا درسا.

– انتبه إلى كلامك، وإلا ستكون جلسة الانتقاد المقبلة[1] مكرسة لك.

* * *

تفحـــص بـــاو شنغوي الممر برفقة كل من بلغي وأوليجي، كان يتوقف أحيانا ليتجاذب أطراف الحديث مع الرجلين المحليين فيما هو يلتقط الصور. تراخت حدة ملامح وجهه تدريجيا، وظـــن شن زن أن بلغي تفوه ببعض الأشياء التي قوضت مفهومه عن *الإنسان باعتباره العنصر الأساسي*. هل استطاع الإنسان أن ينجح في صدّ هجوم الذئاب الفتاك هذا، في منع وقوع هذه الكارثـــة الطبيعية؟ في وسعك أن ترسل جميع فرق التقصي التي تشاء إرسالها، لكن نظرة واحدة إلى المذبحـــة الـــتي حصلت هنا تكفي لإقناعك أن الإنسان عجز عن أن يمنع هذا من الحدوث، وخـــصوصا عـــندما تأخذ العاصفة الثلجية في الحسبان. انحسر اهتمام شن بأوليجي وباتو تدريجيا.

تحـــول ليلقي نظرة فاحصة أكثر دقة إلى الممر الذي سلكته الذئاب. جعل الشكل الدائري الغـــريب الـــذي اتخذه الممر شعره ينتصب فزعا؛ التف الممر حول قلبه، كما لو أن قطيعا من الذئاب التي تلبستها الجن كانت تعدو داخل صدره، حتى إنه صار يلتقط أنفاسه بصعوبة. ترى لَمَ هـــذه الدائرة؟ ما الذي حاولت الذئاب أن تفعله؟ ما الذي كانت تهدف إليه؟ من المستحيل تخمين نوايا ذئاب السهوب. كل مفتاح لحل شيفرة سلوكها أفضى إلى لغز جديد.

هـــل كان الغرض من ذلك التخلص من شدة البرد؟ هل جعلها العدو تشعر بالدفء إلى حدٍّ ما؟

أم كـــان ذلك لمساعدتها على الهضم؟ ربما عمل إحراق الطاقة الزائدة على تسريع حاجتها إلى الـــتهام لحـــم الأحصنة مرة أخرى. ذلك أيضا شيء ممكن. على العكس من كائنات حية أخـــرى في السهوب، مثل سناجب الأرض وكلاب المروج ذات اللون الذهبـــي، فالذئاب لا تختزن الطعام. إنها تترك ما لا تتمكن من أن تلتهمه من الفريسة، لذلك، ومن أجل الحصول على أقصى مغنم من فرائسها فهي تأكل بشراهة إلى أن تصبح عاجزة عن التهام المزيد. بعدها تعدو من أجل تسهيل عملية الهضم، ولكي تختزن أكبر قدر ممكن من الطاقة الغذائية، ثم تفرغ معداتها لتعود وتأكل المزيد.

أم كـــان ذلـــك استعراضـــا عسكريا استعدادا لمعارك مستقبلية؟ حتى ذلك شيء ممكن. أوضحت آثار الحوافر أن الذئاب كانت منظمة ومنضبطة إلى درجة عالية من الإتقان. من أحد

---

(1) جلسة انتقاد: هي لقاء يعقد عادة بهدف العقوبة على أخطاء تمس بسياسة الدولة، والهدف منها إصلاح سلوك الفرد، والمعايير التي يعتمد عليها في ذلك هي أعمال ماوتسي تونغ.

أطــرافه إلى الطرف الآخر لم يتجاوز عرض الممر أكثر من ياردة إلا بقليل، و لم تكن توجد أي آثار خارج نطاقه. إن لم تكن مسيرة قوات عسكرية لاستعراض القوة، فأي شيء هو هذا؟ فكّر شـن مليا. غالبا ما تقاتل الذئاب كل على انفراد، بالرغم من أنها تصيد كذلك بشكل قطعان صـغيرة تـتألف من ثلاثة إلى خمسة ذئاب، أو تمارس عملياتها في السلب والنهب ضمن عوائل تتألف من ثمانية إلى عشرة ذئاب. ما حصل هنا، مع وجود جيش صغير من الذئاب، كان شيئا نـادرا. قـررت الذئاب أن تنظم نفسها بتشكيل جيش ميداني من أجل خوض حرب سيارة. خـلال سـنوات الحرب في الصين، خضع كل من الجيش الثامن السيار والجيش الرابع الجديد لعملية تغييرات واختبارات شاملة، كانت مهمة هرقلية جبارة. هل انتقل هذا النوع من عمليات إعادة التنظيم بصورة طبيعية إلى الذئاب؟

إذا، مـرة أخـرى، هل كان ذلك احتفالا بالنصر؟ أم علامات على نشوة وحشية تسبق وليمة فخمة؟ ذلك شيء أكثر احتمالا أيضا. في هذا الهجوم الإجرامي ذُبحت جميع الأحصنة. لم يـتمكن حـصان واحد من الهرب. إنه الانتقام، تشبع بالكراهية حتى النخاع. انتصار مطلق. خـلاص من أعباء دفينة. كيف لا تحتفل الذئاب بقتل هذا العدد الكبير من الأحصنة؟ لا بد من أن مستوى الإثارة كان قد بلغ ذروة التطرف حين أحاطت الذئاب بمجموعة الأحصنة المحاصرة، وقامت بأداء رقصتها التي كان عنوانها الموت.

اكتشف شن أنه من خلال التمعن في سلوك الذئاب من منظور بشري، يمكن فهم مغزى بعـض أنمـاط السلوك المحيرة وتفسيرها منطقيا. الكلاب تبدي خصائص بشرية، الناس يبدون خـصائص الـذئاب، أو العكس بالعكس. تشكل كلٌّ من السماء، والأرض، والإنسان وحدة متماسـكة؛ من المستحيل إجراء تصنيف بات غير مقيد بشرط بين الناس من جهة، والكلاب، والذئاب من جهة أخرى. وإلا، كيف عسى المرء أن يفسر حقيقة وجود ذلك العدد الكبير من آثار أقدام بشرية متداخلة بشكل خفي في موقع هذه المذبحة الفظيعة؟ حين يواجه البشر بعضهم بعضا، يتحولون جميعا إلى ذئاب وذلك تعبيرا عن وفاء بالعهد.

فيما تبع صف الرجال والأحصنة باتو متجهين شمالا بعيدا عن مشهد الواقعة، اقترب شن رويدا من بلغي. "بابا"، قال، "لماذا عملت الذئاب ذلك الممر؟".

نظر الرجل العجوز حوله، وشد سير عنان حصانه لكي يتخلف عن أفراد الفريق الآخرين. "عشت أكثر من ستين عاما على أرض أولونبولاغ". قال بهدوء، "وكنت قد رأيت دوائر مثل تلـك التي صنعتها الذئاب بضع مرات من قبل. طرحت ذلك السؤال نفسه على والدي ذات مرة. أخبرني أن تينغر أرسل الذئاب إلى السهوب لتحمي جبل بايان أوول المبجل وأولونبولاغ. يغـضب تينغـر والجـبل المبجل كلما تعرضت السهوب للخطر، والذئاب مرسلة لقتل وإبادة المـسيئين. في كـل مرة تتلقى فيها الذئاب هذه المهمة السماوية، تركض بمرح في دوائر حول

ضـحيتها حـتى تشق ممرا مستديرا يشبه الشمس والقمر. يرمز ذلك الممر المستدير إلى اعترافها بفـضل تينغـر، إنـه نوع من رسالة تعبّر فيها عن الشكر. عندما يتم استلام رسالة الاعتراف بالامتـنان تـبدأ الوليمة. تشتهر الذئاب بأنها تعوي وهي ترفع رؤوسها باتجاه القمر، ذلك هو نـداؤها لتينغر. إذا بدت هالة حول القمر، فإن ريحا ستهب في تلك الليلة وستكون الذئاب في حالـة تـنقل مـستمرة من مكان إلى آخر. إنها خبيرة بالمناخ أفضل منا. إنها تعمل دوائر تمثل انعكاسا لتلك الدوائر التي في السماء. بعبارة أخرى، هي في حالة تناغم رائعة مع السماوات".

بما أن شن زن كان معجبا بالأساطير الشعبية، فقد بعث ذلك السرور في نفسه. "إنه شيء مـذهل"، قـال، "مذهل حقا. الشمس يمكن أن تحيط بها هالة، وكذلك القمر، وعندما يشير الرعاة إلى شخص ما في مكان بعيد عنهم يرسمون دائرة في الهواء بذراعهم. يبدو فعلا أن الدائرة علامـة روحـية. ما تقوله لي يجعل شعري ينتصب من الفزع. أن تكون الذئاب التي هنا ذات قدرات تواصل روحي هكذا بحيث ترسم دوائر كإشارات لتينغر، فذلك شيء مهول صراحة".

- "إنهـا كائنات خارقة للطبيعة"، قال الرجل العجوز. "لقد تعاملت معها طوال حياتي، وكـنت دائما أحرز مرتبة تالية لها من حيث الأفضلية. لكن حتى أنا لم أتوقع أبدا أن أرى شيئا مثل هذا. الذئاب تظهر في الأوقات والأماكن التي يندر أن تتوقع ظهورها فيها، وغالبا ما تكون بأعداد هائلة. كيف يمكن للمرء أن يتوقع تمتعها بتلك القوة الخارقة من دون مساعدة تينغر؟".

توقـف الرجال الذين سبقوهما، وترجل البعض منهم، وبدأوا يحفرون في الثلج. استحث شـن وبلغـي حـصانيهما ليلحقا بهم. كانت هناك المزيد من الجثث، لكنها تبعثرت بشكل فوضـوي، فكل أربع أو خمس منها في ناحية. فجأة، صاح أحدهم، "ذئب! يوجد ذئب ميت هنا!".

- "حـسب قول باتو، لا بد وأن يكون هذا هو المكان الذي شنّت فيه الذئاب هجومها الانتحاري على بطون الأحصنة"، قال شن مخمنا، "والذي تحول فيه مسار طوفان المعركة، بداية النهاية بالنسبة إلى الأحصنة". بدأت نبضات قلبه بالتسارع أكثر فأكثر.

لوّح باو شنغوي بسوطه في الهواء وصاح وهو على السرج، "لا تذهبوا بعيدا. عودوا إلى هنا، أنتم جميعا. احفروا لاستخراج بعض هذه الأحصنة. الأحصنة أولا، والذئاب لاحقا".

تجمعوا كلهم هناك، وبدأوا بالحفر.

عـندما أصـبح بالإمكان رؤية الحيوانات، كان واضحا أنها قد داست وشقت أعضاءها الداخلية بقوائمها الخلفية، وبعثرتها على مسافة كبيرة. اتضح أيضا أن الذئاب تركتها على حالها بعـد أن نفقت. في ذلك الوقت ربما تكون قد التحقت بالمذبحة التي جرت على البحيرة. هذه الأحصنة التي اكتشفت مؤخرا كانت قد أنقذت مؤقتا من بلاء محتم. لكن بالنسبة إلى شن زن، الـذي كان يحفر إلى جانب الآخرين، فهذه الأحصنة قد واجهت موتا أكثر تراجيدية من تلك

التي على البحيرة، يمثل موتها تحديا لكل شيء. كانت أمارات العذاب والخوف التي تجمدت في عيونها الميتة أكثر بروزا مما هو عليه في عيون جثث البحيرة.

- "هذه الذئاب شديدة البأس وقاسية جدا"، صاح باو شنغوي بغضب. "عرفت أن كل ما عليها القيام به هو أن تشق البطون، وتترك الأحصنة تموت تحت حوافر الأحصنة الأخرى. لم يسبق لي أن رأيت شيئا أكثر شؤما، وأكثر وحشية من هذا في حياتي. تلك الذئاب تجسد روح الساموراي الياباني. لا تشكل الهجمات الانتحارية بالنسبة إليها أي شيء يدعو إلى القلق، وذلك ما يجعل الذئاب المنغولية أكثر مدعاة للخوف من أي ذئاب سواها. لن يهدأ لي بال حتى أقتلها عن بكرة أبيها!

- "إذا كـــان الإنـــسان أو عنصر البشر يفتقر إلى روح الموت قبل الاستسلام، وإلى الاستعداد للموت جنبا إلى جنب مع العدو، عندئذ تكون العبودية هي النتيجة الحتمية"، قال شن. "أيا كان الشخص الذي يتخذ الروح الانتحارية للذئاب نموذجا يقتدى به فمصيره أن يموت بطلا، وسيؤبن بالأناشيد والدموع. إن تعلم الدروس غير الصحيحة يؤدي إلى فاشية الـــساموراي، لكن أي شخص يفتقر إلى روح الموت قبل الاستسلام سيخضع دائما لفاشية الساموراي".

حبس باو شنغوي أنفاسه للحظة. "لديك وجهة نظر"، قال.

قال أوليجي وقد بدا عليه الوقار: "كيف استطاع باتو والآخرون التصدي لهجوم انتحاري مثل هذا؟ قاتل الذئاب ابتداء من أرض المراعي في الشمال وطوال الطريق إلى هنا. لست أدري كـــيف فعل ذلك. لقد نجا بفضل رعاية تينغر. عندما ترى فرق التقصي هذا، فأنا واثق من أنهم سيتوصلون إلى الاستنتاج الصحيح".

أحـــنى باو شنغوي رأسه موافقا. استدار نحو باتو. "ألم تكن خائفا أن تفعل الذئاب هذا بحصانك؟"، سأل بنبرة استرضاء.

- "كنت أركز انتباهي على محاولة جعل قطيع الأحصنة يلتف حول البحيرة، لم يكن لدي وقت للتفكير في أي شيء آخر"، ردّ بسذاجة. "كنا قريبين جدا من بعضنا بعضا".

- "ألم تتجه الذئاب نحوك؟". سأل باو.

رفـــع باتو عصا الرعاة بحلقاتها الحديدية، وعرضها أمام ناظري باو. "هشمت أنياب أحد الذئاب بهذه"، قال، "وكسرت خطم ذئب آخر. كان كلاهما سيتمكنان مني لو لم أفعل ذلك. ولأنـــه لم يكـــن لـــدى لاسورنغ والآخرين عصا مثل هذه، لم تكن هناك معهم وسيلة لحماية أنفسهم. إنهم لم يتركوني".

أخـــذ باو عصا الرعاة منه وتلمس نتوءاتها. "عصا جيدة!" هتف بقوة. "عصا جيدة جدا! يـــتطلب الأمر جرأة حقيقية لتهشيم أنياب ذئب بهذه العصا. شيء جيد! كلما كان المرء أشد

ضراوة كان أفضل، حين يتعلق الأمر بالذئاب. باتو، إنك شجاع، وتعرف كيف تقاتل. عندما يرسلون فريق التقصي، أريد منك أن تخبرهم كيف قاتلت الذئاب، أخبرهم بالقصة كاملة".

أعـــاد باو عصا الرعاة واستدار نحو أوليجي. "إن ذئابكم هذه خارقة لنواميس الطبيعة"، قـــال. "إنها أذكى من البشر. فهمت كيف نفذت عملها. كان لديها هدف واضح في الذهن؛ وهو أن تسوق الأحصنة إلى البحيرة مهما كلف الثمن. انظر..."، بدأ يعد على أصابعه. "إليك بعض الأمور التي كانت تعرفها الذئاب: المناخ، الطوبوغرافيا، الفرصة المواتية، مدى قوتها وقوة عـــدوها، الاســـتراتيجية والتعبئة العسكرية، القتال عن قرب، القتال الليلي، حرب العصابات، القتال السيار، غارات بعيدة المدى، الكمائن، غارات صاعقة، وتركيز قوتها لغرض إبادة العدو. لقـــد وضـــعت خططا، وحددت أهدافا، وشنت حملة محسوبة بدقة من أجل تحقيق إبادة تامة. كانت لديها خطة معركة تنفّذ وفقا لأسلوب منهجي. أنت وأنا عسكريان، ومن وجهة نظري، باستثناء الحرب المنظمة وحرب الخنادق، كانت الذئاب تعرف تكتيكات حرب العصابات مثل جيـــشنا الـــثامن السيار. كنت أتصور عادة أن الذئاب تقاتل بتهور، وتسعى وراء خروف أو دجاجة تصادفها في طريقها. من الواضح أنني كنت غير مصيب".

– "لم أشـــعر بأنني بعيد أبدا عن ميدان القتال منذ أول يوم أرسلت فيه للعمل هنا"، قال أوليجي. "إنني أقاتل الذئاب على مدار السنة. أصطحب معي بندقيتي أينما ذهبت، وقد أصبحت بارعا في الرماية بشكل أفضل مما كنت عليه وأنا جندي. إنك على حق، الذئاب تعرف الاستراتيجية والتعبئة العسكرية، على الأقل إنها تعرفُ العناصر التي على جانب كبير من الأهمية منها. بعد القتال معها لأكثر من عقد من الزمن تعلمت الشيء الكثير. لو صدر لي أمـــر للخـــروج في حملـــة أخرى للقضاء على قطاع الطرق سأكون واحدا من أفضل المقاتلين".

– "هل تعني بكلامك أن الرجال تعلموا كيف يشنون الحرب من الذئاب؟". سأل شن زن وقد ازداد اهتمامه.

ومـــضت عيـــنا أوليجي ببريق. "نعم. إن الكثير مما نعرفه عن خوض الحروب تعلمناه من الـــذئاب. في الأيام الغابرة هنا على أرض السهوب، قاتل الرعاة ضد شعب من الفلاحين الذين جـــاؤوا مـــن الجـــنوب باستخدام خطط تعلموها من الذئاب. أنتم الصينيون تعلمتم أشياء من الـــشعوب الـــبدوية أكثر من مجرد طريقة ارتداء الملابس القصيرة، أو كيف تستخدمون القوس والـــسهم وأنتم تمتطون صهوات أحصنتكم، أي ما تسمونه "لباس البرابرة والرماية بالسهم فوق صهوة الحصان". تعلمتم أيضا الشيء الكثير جدا عن الحرب. عندما كنت أدرس تربية مواشي المـــزارع في هوهوت قرأت كتبا عن الحرب، ومن وجهة نظري هناك اختلاف ضئيل بين فنون الحرب التي وصفها صن تزو وتلك التي تستخدمها الذئاب".

- "ولكـــن ليس هناك ذكر لشعب السهوب أو الذئاب في الكتب الصينية عن الحرب"، قال شن زن. "ذلك ليس عادلا".

- "نحن المنغوليون نعاني من تخلف ثقافي"، أجاب أوليجي. "الكتاب الوحيد الذي ينطوي على أي قيمة قدمناه للعالم هو **التاريخ السري للمنغوليين**".

- "على ما يبدو"، قال باو لأوليجي، "حين انشغلتم بتربية المواشي في المزارع هنا كنتم في حاجة إلى دراسة الذئاب، وكيفية شن الحرب. وإن لم تفعلوا ذلك، ستدفعون الثمن غاليا. لقد تأخـــر الوقت. ما رأيك في أن نذهب كي نلقي نظرة على ذلك الذئب الميت؟ أحتاج لالتقاط المزيد من الصور".

* * *

بعد أن امتطى القائدان صهوتي حصانيهما ورحلا، توكأ شن زن على مجرفته، وأخذ يحدّق إلى الفـــضاء. كان التحقيق الذي جرى في موقع المعركة قد زاد من انبهاره بسكان السهوب، والمعجزات العسكرية التي حققها جنكيزخان. كيف كان له ولذريته أن يكتسحوا آسيا وأوروبا بأقـــل من مئة ألف من المقاتلين؟ لقد أبادوا حشودا من سلاح الفرسان المدججين بالدروع من ســـلالة زيا[1] في الغرب، قوات بلغ عددها قرابة مليون مقاتل من سلالة جن العظمى، ومليون مقاتـــل مـــن القوات المحمولة بالسفن والخيالة من سلالة سونغ في الجنوب، وشعب الكبشاك[2] الروســـي، والتوتون[3] في روما. احتلوا أواسط آسيا، وهنغاريا، وبولندا، وأصقاع روسيا كافة؛ هاجمـــوا أمما متحضرة كبيرة مثل بلاد فارس، إيران، والصين والهند. إلى جانب ذلك، اقتبسوا العـــرف الصيني في تزويج بناهم برجال من قوميات من الأقلية، وأجبروا إمبراطور روما الشرقية علـــى أن يزوج الأميرة ماريا بابن حفيد جنكيزخان. لقد أسس المنغوليون أعظم إمبراطورية في تـــاريخ العـــالم. كـــيف كان لعرق من شعب بدوي، غير متحضر، متخلف ليس لديهم نظام للكتابة، أناس كانوا يستخدمون السهام التي يثبتون العظام في أطرافها، وليس الفولاذ، أن يحوزوا علـــى مـــثل هذه القدرات العسكرية المتقدمة، وهذه الحكمة؟ كان ذلك السؤال من بين أحد الأسئلة الكبرى التي لا جواب عنها في التاريخ.

كانت تجربة شن مع الذئاب خلال السنتين اللتين أمضاهما في السهوب، والحكايات التي لا حـــصر لهـــا التي جمعها، بالإضافة إلى عملية الإبادة المذهلة التي تعرض لها قطيع الغزلان، والتي

---

(1) زيـــا Xia: (2070 – 1600ق. م) سلالة شبه أسطورية تعتبر الأولى في الصين، سبقت سلالة شانغ، في التاريخ الصيني يقال إنها أسست من قبل يو وضمت 17 حاكما. (المترجم)

(2) الكبـــشاك: شعب تركي قديم كان في الأصل يعيش في سيبريا. ثم رحل في أواسط القرن الحادي عشر باتجاه أوروبا. (المترجم)

(3) الـــتوتون: قبيلة جرمانية ورد ذكرها في مؤلفات الإغريق والرومان، وعلى الأخص سترابو وبطليموس. يعتقد أنهم كانوا يعيشون في اسكندنافيا أو شمال الدنمارك بالتحديد. (المترجم)

شـــهدها بأم عينيه والنموذج الكلاسيكي للحرب ضد قطيع الأحصنة، كلها قد أقنعته إلى حدٍّ كـــبير أن الجـــواب عن السؤال التاريخي الكبير المطروح حول الإنجازات العسكرية لجنكيزخان يكمن في معرفة وثيقة لطباع وعادات ومهارات الذئاب.

على أرض السهوب ليس هناك وجود للنمور أو الفهود الهندية أو بنات آوى أو الدببة أو الأســـود أو الفيلة. كان شن زن يفكّر. ليس بإمكان هذه الحيوانات أن تتحمل العيش في المناخ القاســـي؛ ولكن حتى لو عاشت هناك، فما كان بإمكانها أن تتكيف مع الحروب الضارية من أجل البقاء، ولن تقدر على تحمل صولات تشنها ذئاب السهوب وبشر السهوب، الذين وصلوا معـــا إلى المـــرحلة النهائية في المنافسة لاحتلال موقع الصدارة على السهوب. الذئاب هي الند الوحـــيد للبـــشر في الصراع من أجل البقاء. بالرغم من أن هناك ذئابا في كل مكان تقريبا من الأرض، إلاّ أنهـــا تتركز بكثرة على السهوب المنغولية، حيث لا يوجد خنادق مائية أو متاريس تـــرابية، تلك الأشياء المألوفة في المجتمعات الزراعية المتقدمة، أو أسوار عظيمة وقلاع قديمة؛ إنها بقعة الأرض التي نشب فيها أطول صراع بين مقاتلين حكماء وشجعان، من الرجال والذئاب.

شـــعر شـــن زن بنفسه يقف عند مدخل جوف نفق يمتد إلى خمسة آلاف سنة في أعماق التاريخ الصيني. في كل يوم وكل ليلة، هكذا أخذ يفكّر، كان الرجال يتقاتلون مع الذئاب على الهـــضبة المنغولـــية، مناوشة بسيطة تحصل هنا، معركة ضارية هناك. لقد فاق معدل تكرار هذه المصادمات معدل جميع المعارك التي حدثت في أوساط جميع الشعوب البدوية في الغرب بعيدا عن معارك الذئب والإنسان، علاوة على الحروب العنيفة طويلة الأمد بين قبائل بدوية، ونـــزاعات بين القوميات، وحروب تشن لأغراض عدوانية؛ ذلك هو الذي قوى وطور كفاءة المحاربين في هـــذه المعارك. إن شعب السهوب مقاتلون أفضل وأكثر خبرة واطلاعا من أي عرق آخر من الفلاحين أو أي قبيلة بدوية في العالم. في تاريخ الصين – ابتداء من سلالة زهاو[1] مرورا بدول وورنغ[2]، وحتى سلالات كين، هان، تانغ، وسونغ – كثيرا ما كانت، تلك المجتمعات الزراعية العظيمة كافة، بأعداد سكانها الهائلة وقوتها المتفوقة، تتعرض لهزائم ساحقة في منازلات مع قبائل بدوية أقل شأنا، كانت تواجه الانحدار والكوارث والذل. عند نهاية سلالة سونغ، قامت قبائل البدو المنغولية بقيادة جنكيزخان بغزو السهول الوسطى، وبقيت في السلطة قرابة قرن من الزمن. كانـــت آخر سلالة إقطاعية في الصين، سلالة كنغ، هي بحد ذاتها قد أسسها البدو. لقد تلاشى عـــرق الهـــان، بالرغم من الروابط التي كانت تشده بالأرض، من دون وجود تعاليم عسكرية

(1) زهـــاو (1046–256 ق. م) ســـلالة من الحكام الصينيين والتي أعطت الصين سماتها التاريخية المميزة من النواحي السياسية والثقافية. (المترجم)

(2) دول وورنغ (475–221 ق. م) في التاريخ الصيني هي فترة سادت فيها الكثير من النـــزاعات بين ممالك صغيرة أو إقطاعيات من أجل الهيمنة. (المترجم)

متفوقة يعطيها مدرب ميداني من الذئاب، وحرم من ممارسات تدريبية صارمة متواصلة. كان لدى الصينيين القدماء صن تزو الذي أنجبوه، وأطروحته العسكرية، لكن ذلك كان فقط على الورق. إلى جانب ذلك، فحتى تلك الأوراق اعتمدت جزئيا على فنون الحرب الضارية المأخوذة عن الذئاب.

لقد مات الملايين من الصينيين بفعل الغزوات التي شنتها شعوب الشمال عبر آلاف السنين، وشعر شن بأنه اكتشف السبب الذي كان وراء ذلك التاريخ المحزن. تصور أن العلاقات التي كانت تسود بين الكائنات التي تعيش على الأرض قد أملت سياق التاريخ ونمط المصير الذي ستؤول إليه. تعتبر المواهب العسكرية التي يتمتع بها شعب من الشعوب في حماية موطنه وكيانه كأمة أمورا جوهرية في نشوئه واستمراره في البقاء. لو لم تكن هناك ذئاب على السهوب المنغولية، هل ستكون الصين ويكون العالم مختلفين عما هما عليه اليوم؟

* * *

على حين غرة، صار الجميع يتراكضون ويصيحون، مما أذهل شن وعكّر عليه تتابع أفكاره. وثب جالسا على السرج وتبع الحشد.

كان قد تم استخراج ذئبين ميتين بعد عمليات التنقيب، إنها جزء من تكلفة مطاردة الأحصنة والإيقاع بها في البحيرة. توجه شن حتى صار قريبا من أحد الذئبين فيما كان باتو ولاسورنغ يزيحان الثلج عن إحدى الجثث، ويصفان المعركة الانتحارية لشق البطون. كان الذئب أكثر نحولا من أغلب الذئاب الأخرى، وتبيّن أنه أنثى. سحقت حوافر الأحصنة النصف الخلفي من جسدها ببشاعة، لكن حلمات ضروعها ما زالت قابلة للرؤية.

– "يا للعار"، قال بلغي. "سرقت جراؤها من وجارها، ذلك شيء مؤكد. هي والأمات الأخريات التي فقدت نسلها قامت باستدعاء وجمع هذا القطيع من الذئاب لتحقيق انتقامها. بالنسبة إليها، لم يكن هناك من سبب يدعو للاستمرار بالعيش. على السهوب لا تعتبر فكرة الإفراط في عمل أي شيء جيدة. إن أرنبا محاصرا في زاوية ما سيحاول أن يعض ذئبا، إذا، كيف يمكن لأنثى ذئب مسعورة ألا تقاتل حتى الموت؟".

استدار شن إلى بعض الطلاب. "تخبرنا كتب التاريخ أن لدى الذئاب غرائز أمومة قوية"، قال. "هناك حالات مسجلة لذئاب قامت بتربية أطفال من البشر. كان الأسلاف القدامى للهون، والغاوجو، والأتراك أطفالا للذئاب، كلهم ربتهم أمات من الذئاب".

– "ما كل هذا الهراء بشأن أطفال الذئاب؟". قاطعهم باو شنغوي. "الذئاب تقتل وتأكل البشر؛ إنها لا تربيهم كأطفال لها. فيما يتعلق بالبشر والذئاب، إنها علاقة حياة أو موت؛ إما أنت أو أنا. إنني الشخص الذي كان قد أعطى أمرا إلى الناس بالانطلاق وسرقة جراء الذئاب. في السنوات الغابرة، كانت تلك عادة صيد سنوية جعلت المواجهات المأساوية مع الذئاب

تنخفض إلى أدنى مستوى، إنه تقليد رائع. ولكن لا يكفي أن تبقى تلك المواجهات في أدنى مستوى لها؛ بل نحتاج إلى أن نبيدها عن وجه الأرض! هل سندعها تحصل على انتقامها؟ سنرى كيف ستفعل ذلك بعد أن أقتلها جميعا! لن أنقض أمري. عندما ننتهي من هذا العمل سأرسل الناس مرة أخرى. كل عائلتين ستكونان مسؤولتين عن جلب فراء جرو ذئب، وإذا لم تستطع تنفيذ ذلك يمكنها أن تستبدله بفرو ذئب بالغ. إن لم يتم تنفيذ ذلك فسأحسم من نقاط عملها!".

التقط باو صورة للذئب الميت، ثم أمر بتحميل الجثة على عربة.

بعد ذلك انتقل الرجال إلى الذئب الثاني. في السنتين اللتين أمضاهما شن في السهوب، رأى الكثير من الذئاب، أحياء وأموات، وكميات وفيرة من فراء الذئاب، ولكن لا شيء كان يشبه الذئب الذي يتمدد عند قدميه. كان رأسه يشبه تقريبا رأس فهد، وصدره أعرض أيضا. عندما أزيح الثلج عنه، وانكشف فراؤه الأصفر المائل إلى اللون الرمادي بالكامل، لاحظ شن وجود شعيرات سوداء اللون سميكة لا حصر لها كأنها الإبر ناتئة من خلال الفراء أصفر اللون الذي نما فوق الرقبة وأسفل ظهره. كان النصف الخلفي من الجذع قد تعرض للركل الدموي بحوافر الأحصنة، مما ترك حوضا من الجليد الأحمر على الأرض.

دفع باتو الحيوان المتجمد، لكنه لم ينجح في تحريكه. "هذا الذئب لم يكن ذكيا مثل الآخرين"، قال وهو يمسح العرق المتصبب من جبهته. "لم يصب هدفه بشكل جيد. لو أنه فعل ذلك، مع وجود رأس ضخم مثل هذا، لكان بسهولة قد شق بطن الحصان، ثم تشقلب على الأرض، وولى هاربا من دون أن يتعرض لأي جرح. ربما كان قد ارتطم سهوا ببعض العظام. ذلك أشبع رغبته تماما!".

قرفص بلغي على قدميه، وأخذ يتفحص الحيوان عن كثب، سحب الفراء الذي على ظهره إلى الوراء كي يكشف عن ثقبين داميين يبلغ عرضهما عرض إصبعين. كان الطلاب مندهشين. لقد رأوا ثقوبا مثل تلك من قبل، على رقاب خراف فتكت بها الذئاب. اثنان منها على كل جانب، علامات لأربعة أنياب اخترقت الشرايين السباتية.

– "هذا الذئب لم يمت بسبب ركلة حصان"، قال بلغي. "ربما تعرض لجروح مميتة، ولكن قتله ذئب آخر بعد أن أكل ما يكفيه من لحوم الأحصنة".

– "الذئاب أسوأ من الخارجين على القانون!"، قال باو شنغوي لاعنا. "تقتل حتى جرحاها!".

حدّق بلغي إلى باو. "الأموات من الخارجين على القانون لا يصعدون إلى السماء. الذئاب الميتة تفعل ذلك. كان هذا الذئب قد تعرض لجروح قاتلة من قبل حصان. لم يمت على الفور، ولكن لم تكن لديه فرصة للحياة. ما الشيء الأفضل، التشبث بالحياة والمعاناة، أم الموت؟ الذئب

الحـــي يتعذب عندما يرى واحدا من أبناء جنسه في هذه الحال، ولكي يخلصه من تعاسته، يطلق سـراح روحـــه لـــتذهب إلى تينغر. تلك رحمة، وليست قسوة، هي وسيلة لإبعاد الحيوان عن الوقـــوع في يـــد البشر، مما قد يعرضه لبعض أنواع التعامل المهين. الذئاب مخلوقات لا تعرف الاستـــسلام. إنهـــا تحبذ الموت على أن تعاني من الذل. وما كان الذكر الأكبر للذئاب ليسمح بحـــدوث مثل ذلك لفرد من أفراد قطيعه. أنت تنحدر من مجتمع فلاحي. كم منكم من الرجال سيختار الموت على المذلة؟ إن كبار السن هنا يذرفون الدمع عندما يتأملون في هذه الناحية من طبيعة الذئاب".

بعد أن لاحظ نظرة استياء على وجه باو، قال أوليجي، "هل تساءلت عن السبب الذي جعل هذه الذئاب مقاتلة بارعة؟ إن أحد العوامل المهمة يتمثل في أن الذكر الأكبر للذئاب لن يتردد في قتل أحد رفاقه الجرحى، مما يخفف العبء عن كاهل القطيع ويضمن الكفاءة المستمرة لجميع القوات. إذا فهمت هذه الميزة ستتمكن من الوصول إلى تقييم أفضل للموقف خلال أي قتال مع الذئاب".

هز باو رأسه. "ربما تكون على حق"، قال. "يحتاج الجنود الجرحى إلى من يحمل النقالات، ومـــضمدين، وحراس، وممرضات، وإلى أطباء. ويحتاج المرء إلى سيارات إسعاف ومراكز لتقديم الإســـعافات الأولية. كنت جنديا في الخطوط الخلفية لسنوات كثيرة، وقد استنتجنا أن جنديا جريحا واحدا يحتاج إلى خدمات يقدمها على الأقل اثنا عشر شخصا. خلال وقت الحرب، يؤثر كادر الإسناد هذا على الكفاءة القتالية. وفقا لذلك المنظور، فالذئاب تكون في حال مرنة أكبر. لكن الكثير من الجنود الجرحى هم مقاتلون شجعان، وعندما تلتئم جروحهم غالبا ما يشكلون العمود الفقري لوحدهم. ألا يؤثر قتل جرحاك على كفاءتك القتالية؟".

تنهد أوليجي. "بالطبع هناك تفسيرات لهذا السلوك. كبداية نقول، إن الذئاب تتمتع بمعدل ولادات مرتفع. إذ يمكن لأنثى الذئب أن تلد سبعة أو ثمانية جراء، وأحيانا يصل العدد إلى اثني عـــشر أو أكثـــر من الجراء في بطن واحدة. وإن نسبة بقائهم على قيد الحياة تكون عالية. في خـــريف سابق رأيت ذئبة يرافقها أحد عشر صغيرا، ولدوا في ذلك الربيع. كانوا يماثلون أمهم تقـــريبا في الحجـــم وبإمكانهم العدو بمثل سرعتها. تبدأ الإناث منها بولادة صغارها في غضون ســـنتين. أمـــا بالنـــسبة إلى الأبقار فهي تلد بمعدل خمسة عجول كل ثلاث سنوات. وحسب تـــصورك كـــم عدد إناث الذئاب التي تولد في الفترة ذاتها؟ فرقة كاملة منها. وتصبح الذئاب مستعدة للقتال حين يصل عمرها إلى سنة. خلال الربيع الثاني، تصل إلى مرحلة البلوغ، وتصبح حـــيوانات كاملـــة التأهيل. يستطيع الكلب الذي يبلغ عمره سنة واحدة أن يصطاد الأرانب، والـــذئب في ذلك العمر يمكنه أن يصطاد الخراف، بينما الطفل الذي عمره سنة واحدة لا يزال بحاجة إلى حفاضة. البشر متأخرون في السباق. ومع وجود كل تلك القوات تحت تصرفها، فهي تقـــتل جرحاها. ومن وجهة نظري، فإن الذئاب تقتل أبناء جنسها لأن ذلك شكل طبيعي من

أشـــكال الـــسيطرة على النوع. وتضمن تصفية القوات في أن يحتوي قطيع الذئاب فقط على مقـــاتلين مـــتفوقين. ذلـــك يفسر، من حيث الجوهر، الطريقة التي تمكنت بها من الحفاظ على هيمنتها على السهوب لقرون عديدة".

تراخى حاجب باو شنغوي المتغضن الكث. "بفضل رحلة التقصي هذه"، قال، "أستطيع أن أدرك أن الذئاب خصوم لا يستهان بها. تساعدنا التوقعات الجوية على التقليل من حالات الدمار الـــتي تحـــدثها تقلبات المناخ، لكن التوقعات لا تجدي نفعا حين يتعلق الأمر بالذئاب. ليس لدى أولئك الأشخاص، الموجودين بيننا ممن يتحدرون من مجتمعات فلاحية، فكرة بشأن ما تستطيع أن تفعله الذئاب. هذه الحادثة في الواقع كانت خارج نطاق السيطرة. ستتفهم ذلك فرق التقصي".

- "من أجل الحصول على صورة واضحة يحتاجون إلى معرفة كل شيء"، قال أوليجي.

- لكـــن ذلـــك لا يغير من حقيقة أنهم سيقومون بحملات لصيد الذئاب. فإن لم يفعلوا، ستصبح مراعينا مطعما صغيرا للذئاب. سأطلب تعزيزات من الذخيرة من مقر القيادة.

في جانب بعيد من المكان، انهمك بعض الطلاب بنقاش محتدم. قال طالب مدرسة متوسطة تابـــع للفريق الثالث، وهو قائد من الأعوان في الحرس الأحمر من جناح بكين دونجيو يدعى لي هونغوي، بصوت يشوبه الانفعال: "الذئاب هي الأعداء الطبقية الحقيقية. إن الرجعيين في أنحاء العـــالم جميعهم ذئاب نهمة. الذئاب لديها قسوة وحشية. إذا تغاضينا عن مذبحتها التي تمارسها ضد ممتلكات الناس - أحصنتنا، وأبقارنا، وخرافنا - فهي تذبح حتى بعضها بعضا. إننا بحاجة إلى أن نـــنظم مجمـــوعات لتقوم باصطيادها بكثافة، وأن نطبق دكتاتورية البروليتاريا ضد جميع الـــذئاب. علينا أن نمحوها بشكل صارم وشامل عن وجه الأرض! علينا أيضا أن نخضع جميع الأفكـــار القديمـــة، والأعراف، والعادات - مثل التعاطف مع الذئاب، استرضاء الذئاب على حساب المبادئ، وإطعام الذئاب بجثث موتانا - إلى نقد صارم".

بمـــا أنـــه كان متأكدا من أن ذلك الشخص كان على وشك أن يشير بإصبع الاتهام إلى بلغـــي، فقـــد تدخل شن قبل أن يتمكن من إنهاء كلامه: "ذلك من شأنه أن يبعد الأمور عن مسارها بعض الشيء، أليس كذلك؟ إن التمايزات الطبقية تنطبق على الحيوانات ذات القائمتين. إن كنت تصر على إدخال الذئاب ضمن النظام الطبقي، عندئذ ماذا تكون أنت، إنسانا أم ذئبا؟ ألـــست خائفا من إدخال قادتنا البروليتاريين ضمن الفئة ذاتها للذئاب؟ عندما يقتل البشر بشرا آخـــرين، ألـــيس في ذلك ذبحا لأبناء جنسك؟ البشر يقتلون بشرا آخرين أكثر بكثير مما تقتل الـــذئاب ذئابـــا أخرى. الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، اللتان بلغت فيهما أعداد الموتى عشرات الملايين. بدأت عادة قتل المخلوقات لأبناء جنسها عند إنسان بكين[1]. إذا نظرنا

---

(1) إنـــسان بكين: بقايا بشرية متحجرة عثر عليها عالم الآنثروبولوجي الكندي دافيدسون بلاك في العام 1927م في موقع زوكوديان الأثري جنوب غرب بكين ويعود إلى ما بين 230 و460 ألف سنة ماضية. (المترجم)

إلى الأمـــر مـــن مـــنظور الغرائز الطبيعية، فالإنسان أقسى من الذئب. أنصحك أن تتابع قراءة الكتب".

أشـــار الـــشخص الذي من الحرس الأحمر بسوطه إلى شن بغضب، وقال: "تتصور أنك شـــخص ذكـــي جدا فقط لأنك أنهيت دراستك الثانوية! تلك الكتب التي تقرأها، والتي تمتلئ بقمامـــة الرأسماليين، والإقطاعيين، والتعديليين[1]، ليست سوى أعشاب سامة! إنك تشبه ذلك العجـــوز الذي تلازمه ملازمة الكلب لصاحبه. في المدرسة كنت منطويا على نفسك، فردا من أفـــراد الطبقة المترفة، لكنك هنا في أكثر البقاع بدائية وتخلفا من العالم، تصطاد في الماء العكر. أنت تصلح تماما لأن تصنف ضمن الأشياء الأربعة القديمة!".

شعر شن بالدماء تتصاعد إلى رأسه، أراد أن يندفع على الفور، مثل ذئب، ويغرس أسنانه في جسد عضو الحرس الأحمر ويجره حتى يسقطه عن حصانه. لكنه، بعد أن تذكر صبر الذئاب الـــذي لا ينفد، لم يفعل شيئا سوى أن حملق في الرجل، وصفق جوانب جزمته بصوت مرتفع، وجرى بحصانه بعيدا.

انتشرت عتمة الغسق، وكان الطلاب الذين اعتادوا أكل اللحم وارتشاف الشاي صباحا، وتـــناول وجبة كاملة في المساء، يكادون يتضورون جوعا ويرتعشون من البرد. تأخر قادة فريق التقـــصي الـــذي جـــاء من مقر القيادة وأغلب رجال الميليشيا والطلاب وراء العربة التي تحمل الـــذئاب الميتة في طريق عودهم إلى المخيم. ذهب شن زن، وباتو، ولاسورنغ للبحث عن عمود أنشوطة باتو الثمينة، في الوقت نفسه تطلعوا للعثور على المزيد من الذئاب التي قتلتها أو جرحتها الأحصنة التي انهالت عليها بحوافرها.

---

(1) التعديليين revisionists: أتباع التعديلية، وهي حركة في الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بروح التطور. (المترجم)

7

تحـــدث أكثر حملات صيد الذئاب على السهوب المنغولية في أوائل الشتاء. في غضون ذلـــك تكون حيوانات المرموط[1] قد بدأت سباها. كان المرموط، لأنه أكثر بدانة وتغذية من الأرانـــب، مـــن بين الأطعمة المفضلة لدى الذئاب. لكن حين يدخل المرموط إلى جحوره، تتحول الذئاب باهتمامها إلى المواشي المنـــزلية، فتجبر سكان المراعي على أن يشنوا هجمات مـــضادة. في هذا الوقت من السنة تكون الذئاب قد اكتست معاطف شتوية جديدة، وطرية، وخالـــية من الشوائب، وبراقة، وسميكة. كانت قطع لباد هذا الفصل من السنة تثمّن بأعلى الأسعار. وتشكل حملات صيد الذئاب في أوائل الشتاء المصدر الأساسي للدخل، خارج نطاق نقـــاط العمل، بالنسبة إلى رعاة المواشي، وفرصة رائعة للصيادين الشباب لعرض مهارات في العـــسكرية والشجاعة؛ كانوا يشحذون قدراهم التي اكتسبوها في الكشافة، وذلك لاختيار المكـــان والوقت المناسبين للقتال. في الماضي استخدمت حملات صيد الذئاب في أوائل الشتاء مـــن قـــبل شـــيوخ القبائل، قادة الجماعات البربرية، والخانات، والخانات العظماء في تعليم وتـــدريب شـــعوبهم ميدانيا. بقي هذا التقليد، الذي انحدر منذ آلاف السنين، متبعا حتى في الأزمـــنة الحاضرة. استكملت جميع الاستعدادات للصيد على أثر هطول أولى الثلوج بشكل كثـــيف في تلك السنة، حين صارت آثار الذئاب على الثلج أكثر وضوحا. حتى مع قوائمها الطويلة، لا تستطيع الذئاب أن تركض بسرعة كبيرة على الثلوج الندية التي سقطت توا، مما يمـــنح الأفـــضلية للأحصنة، التي هي أطول بكثير. يعتبر الشتاء المبكر، بثلوجه الجديدة، فصل موت الذئاب، ويستخدمه الرعاة لجعل الذئاب تدفع ثمن غطرستها، ويتيح للناس أن ينالوا ثأر سنة كاملة من المتاعب.

يفهم الناس عادات السهوب، وكذلك تفهمها الذئاب. ولأن معالم حملة الصيد هذه لا بد وأن تكون واضحة، فقد صارت الذئاب أكثر ذكاء في السنوات الأخيرة، وحالما تستقر حبات الثلج الأولى على الأرض، وتتحول السهوب من الاصفرار إلى البياض، فإن الذئاب إما أن تجتاز الحدود الشمالية، وتتوغل في أعماق الجبال لاصطياد الغزلان والأرانب البرية، أو تبقى في براري البلاد عندما تسد الثلوج الطرق المؤدية إلى أعالي الجبال. تتحمل الذئاب

---

(1) المرموط أو الغرير: سنجاب أرضي كبير من القوارض. (المترجم)

جـــوعها، وتمر عليها أيام وهي تقضم عظام الحيوانات أو الجلود الجافة النتنة لفرائسها التي قتلتها من قبل. بعد ذلك، حين تكتسب الأرض بعض الصلابة، تصبح الذئاب قادرة على أن تعدو بسرعة مرة أخرى، وبما أنها تشعر أن الناس فقدوا روحهم القتالية، فهي تعود لمزاولة أعمال السلب والنهب.

في اجـــتماع مقر القيادة قال أوليجي: "في حملات صيد أوائل فصل الشتاء التي حصلت خــلال السنوات القليلة الماضية، كنا قد عدنا أساسا بحيوانات لا تزال في طور النمو وصغيرة، وبضعة حيوانات كبيرة. لذلك فمن الآن وصاعدا نحتاج إلى أن نتشبه بالذئاب أكثر، وأن نتخلى عـــن التكتـــيكات التقليدية. إننا نصطاد في أي وقت وأي مكان حالما نشعر بالرغبة في ذلك ونعمـــل علـــى مباغتة الذئاب، نتوقف لفترة قصيرة، ثم نعود لصيد أعداد قليلة منها، ننتصر في القـــتال عندما نتصرف بعشوائية وبطريقة غير قابلة للتوقع. على ذلك النحو لن تتمكن الذئاب مـــن تحديـــد أنماط السلوك ولا يمكنها الاحتراز منا. إننا عادة لا نـــزاول الصيد في الربيع، لذا أقتـــرح أن نكسر التقليد، ونقوم بعملية صيد ربيعية، وأن نحضّر لهجوم مباغت. ربما لا تكون جلود الذئاب جيدة مثل تلك التي نحصل عليها في أوائل الشتاء، ولكن سيتطلب الأمر شهرا قبل أن تبدأ بطرح فرائها القديم، وحتى إذا لم نحصل على أسعار عالية، سنكافأ بتجهيزات إضافية من الذخيرة".

كـــان قـــد تقرر في الاجتماع أنه لغرض التقليل من الانطباع الفظيع الذي تركته المذبحة الشاملة التي تعرضت لها الأحصنة، وتنفيذا للأوامر الصادرة عن المراجع العليا بشأن إبادة ذئاب أولونـــبولاغ الشريرة، ستجري تعبئة جميع منتسبـــي المقرات القيادية اللائقين جسمانيا لحملة كـــبرى ضد الذئاب. "ما دام الوقت ربيعا، فأنا أدرك أنكم جميعا منشغلون بولادات المواشي، وليس من السهل إبعادكم عن عملكم"، قال باو شنغوي، "ولكن إذا لم نقم بعمل هجومي على الذئاب فسنكون قد فشلنا في القيام بواجباتنا".

- "مـــن الأمـــور التي اعتدنا عليها"، قال أوليجي، "بعد أن يخوض قطيع الذئاب معركة كـــبرى، يغـــادر القسم الرئيسي منه المنطقة، ما دامت تعرف أننا سنقابلها بالمثل. افترض أنها موجـــودة في مكان ما من المنطقة الحدودية، وحالما تعتقد أن شيئا ما يجري تدبيره هنا، ستندفع لتعـــبر الحـــدود. نحتاج إلى الانتظار قليلا، على الأقل إلى أن تكون لحوم الأحصنة التي التهمتها واتخمت بها مجرد ذكرى، وتبدأ بالتفكير في الطعام المجمد الذي تركته خلفها. لم يخرج المرموط وفئران الحقول من جحورها بعد، لذا ليس هناك شيء آخر متبقٍّ كي تأكله الذئاب. ستجازف بالمواجهة وتعود لتناول المزيد من لحوم الأحصنة، أنا واثق من ذلك".

أحنى بلغي رأسه موافقا. "سأنصب بعض الفخاخ حول الأحصنة الميتة كوسيلة للخداع"، قـــال. "ســـيحدد الذكر الأكبر لقطيع الذئاب مكان الفخاخ، ويفترض أننا لا نخطط للهجوم.

عـــندما نظّمت القيادات حملات صيد في الماضي كانوا دائما يأخذون قطيعا من الكلاب معهم حـــين ينصبون الفخاخ. هذه المرة سنقوم بنصب الفخاخ قبل أن نشنّ الهجوم، الأمر الذي من شـــأنه أن يربك حتى أكثر ذكور الذئاب الكبيرة فطنة. إذا أمسكنا ببضعة ذئاب في الفخاخ لن تعـــرف بقية القطيع ما الذي ستفعله. ستبتعد وتنظر إلى لحوم الأحصنة من مسافة بعيدة، ولن تجرؤ على الاقتراب، لكنها لن تكون مستعدة للمغادرة. ذلك هو الوقت المناسب الذي نحاصرها فـــيه. ســـنجعلها تكون تماما في المكان الذي نريدها فيه، أغلبها على كل حال، وفي هذه المرة سنغنم العديد من ذكور الذئاب الكبيرة".

استدار باو شنغوي نحو بلغي، "سمعت أن الذئاب التي هنا تتفادى الأماكن التي فيها فخاخ أو سموم، وأن تلك الحيوانات الأكبر في العمر، أو قادة القطيع، تضع علامات أنيابها على اللحم المسمم لتضمن أن تأكل الإناث والصغار فقط خارج نطاق المنطقة المسممة. حتى إنني سمعت أن هـــناك ذكور ذئاب كبيرة بوسعها أن تجعل الصياد يصاب بالجنون وذلك بإزالة فخاخه كما لو أنها ألغام أرضية. هل ذلك صحيح؟".

- "لـــيس تماما"، أجاب بلغي. "إن السم الذي يباع في الجمعية التعاونية له رائحة قوية، وإذا كانت الكلاب تستطيع أن تشم رائحته، فلا بد أنك تعلم أن الذئاب أيضا تستطيع ذلك. إنني لا أستعمل السموم، لأن هناك دائما احتمالا أن أقتل الكلاب. أُفضّل الفخاخ. لدي طريقة خاصة في نصبها بحيث لا يكاد يتمكن أي ذئب من التقاط رائحتها".

شـــعر باو أن تعيين أوليجي، آمر إحدى سرايا الخيالة، في أرض السهوب كان يمثل القرار الصائب. وأن إرسال باو ممثلا عن الجهات العسكرية كان أيضا قرارا صائبا الذي تم اتخـــاذه. نقـــر على قدحه بطرف قلمه، وأعلن قائلا، "إذا، ذلك هو السياق الذي سننفذ العملية وفقا له!".

أعطيت الأوامر ألاّ يقوم أحد من الناس باصطياد الذئاب شمال أرض المراعي من دون موافقة مقرات القيادة، وخصوصا باستخدام البنادق التي سترعبها وتبعدها. تم إخبار الجميع أن يكونـــوا على أهبة الاستعداد للانطلاق في حملة للإبادة في أي لحظة يتلقون فيها إشعارا بذلك.

بدأ الناس يختارون أحصنتهم، ويطعمون كلابهم، ويصلحون أنشوطاتهم، ويشحذون ســـكاكينهم، وينظفون بنادقهم، ويجهزون ذخائرهم. سار كل شيء قدما بإيقاع هادئ، وكـــأنهم كانوا يهيئون المواشي حديثة الولادة لاحتفال كنغمنغ، أو يستعدون لجز صوف الخـــراف في منتـــصف الصيف، أو لرزم القش في منتصف الخريف، أو لذبح الحيوانات في بواكير الشتاء.

* * *

في الصباح الباكر، تكاثفت الغيوم فجعلت السماء قاتمة، وضغطت بثقلها على الجبال النائية، لامست القمم برفق خلال عبورها. بدت أولونبولاغ أكثر انبساطا وهدوءا من أي وقت مضى، وأكثر قتامة وكآبة. التفت دوامات الثلوج المتساقطة بخفة؛ بالكاد كان المرء يستبين هبوب الريح. نتأت المداخن المعدنية مخترقة سقوف خيم اللباد كأنها ضحايا الربو الذين يكافحون لالتقاط أنفاسهم، انطلق عنها بين الفينة والأخرى سعال وهي ترسل نفثات من الدخان تستقر بعد ذلك مخلفاته على الأرض التي حول الثكنات، تلك الأماكن التي غطتها ثلوج رقّطت بفضلات الحيوانات، وحزم من الشعر، وبقع العشب الميت. كانت جبهة الهواء البارد لأواخر الربيع لا تزال بالانتظار، لا تبدي أي علامة على رغبة يمكن أن تؤدي إلى الدفء. لحسن الحظ، كانت المواشي لا تزال تحتفظ بطبقة من الشحم تكفي لإبقائها دافئة إلى أن تذوب الثلوج ويتبرعم العشب مع حلول الربيع. كان ثمة براعم جديدة قريبة من السطح لدرجة كافية بحيث كان بإمكان الخراف التقاطها وذلك بإزاحة الثلج بعيدا عنها.

تمددت الخراف بهدوء في حظائرها، بدت متكاسلة وهي تمضغ طعامها الذي اجترته، قانعة بالبقاء في أماكنها. تكومت ثلاثة كلاب حراسة تعاني من البرد والجوع بشدة قرب بعضها بعضا بعد أن نبحت طوال الليل وهي ترتعش عند مدخل الخيمة. عندما فتح شن زن الباب انتصب الكلب المسمى *أصفر* واقفا، واستقرت كفاه على كتفي شن فيما كان يلعق ذقنه، ويهز ذيله بشراسة، مستجديا الطعام. وضع شن على الأرض طبقا كبيرا فيه عظام. اختطفتها الكلاب، وانبطحت على الأرض، أمسكت العظام من أطرافها، وبدأت بالقضم والمضغ. صدرت أصوات طحن ترافقت مع الاختفاء التدريجي للعظام، ازدادت العظام نحافة حتى تلاشت.

أخرج شن أيضا بعضا من لحم الضأن من داخل الخيمة لبير، وهي أنثى ذات شعر أسود اللون براق. مثل الكلب *أصفر*، كانت يير كلبة صيد من جبال كزنغان العظمى، لها رأس ضخم، وجسم طويل، وقوائم طويلة، وخصر ضيق، وفراء قصير. كان كلا الحيوانين قد ولدا صيادين، فهما سريعان، رشيقا الحركة ويمكنهما أن يلحقا ضررا بالغا عندما يستخدمان أنيابهما. كانا صيادي ثعالب ممتازين، وخصوصا *أصفر*، الذي كان كلبا أصيلا، سريع التعلم ويتمتع بمهارات فريدة. لم يكن ينخدع أبدا بالطريقة التي يهز بها الثعلب ذيله الكثيف، لكنه يمسكه بفمه، ثم يعمل أسنانه الطاحنة ويترك الثعلب يكافح من أجل أن يتحرر من قبضته ويولي هاربا. بعد أن يفتح الكلب فمه فجأة يطلق سراح الثعلب فيجعله يتعثر ويتشقلب في حركته، بينما تتجه رقبته وبطنه إلى الأعلى. لم يكن على *أصفر* إلا أن يهرول، ويغرس أنيابه في رقبة الثعلب، ويمنح الصياد مكافأة هي عبارة عن جلد ثعلب لا عيب فيه. عندما يواجهان أحد الذئاب، كان

أصفر وبير يشاغلانه بيقظة وحذر، بحركات رشيقة، من دون تردد أو وجل، يعضانه ويتشبثان به، لكنهما دائما يتمكنان من تفادي التعرض للعض، ويستمران لما يكفي من الوقت حتى يلحق بهما الصياد والكلاب الأخرى.

لقد أعطي الكلب *أصفر* إلى شن من قبل بلغي وغاسماي، وكان يانغ كي قد جلب يير من المكـــان الـــذي يسكن فيه صاحب الأرض الذي يعمل لديه. كان مستوطنو أولونبولاغ دائما يعطون الطلاب أفضل ما لديهم، وعندما بلغ هذان الكلبان مرحلة النضج، تفوقا على الكلاب الأخـــرى في كل مجال. غالبا ما كان باتو يدعو شن ويانغ للذهاب إلى الصيد، بسبب الكلبين بالأساس. منذ الشتاء السابق فقط، اصطاد *أصفر* وبير خمسة ثعالب كبيرة. لم تكن قبعات الفرو التي يرتديها شن ويانغ في الشتاء إلاّ هدايا من كلبيهما المفضلين.

ولـــدت يـــير بطنا من الجراء عددها ستة بعد وقت قصير من ذكرى الاحتفال الربيعي. اخـــتطف ثلاثة منها على الفور من قبل بلغي، ولامياف، وأحد الطلاب. مما ترك أنثى واحدة واثـــنين مـــن الذكور، أحد هذين الذكرين أسود اللون والآخران صفراوان. كانت حيوانات قصيرة القوام مكتنـــزة جذابة.

بما أن يانغ كي شخص حريص بطبيعته، فقد صار يتودد إلى كلبته وجرائها الثلاثة. كان يهيـــئ مرقا باللحم يتألف من حبوب الدخن ولحم الضأن المقطع من أجل يير كل يوم تقريبا، مستهلكا نصف الحصة التموينية الشهرية المخصصة للخيمة من الحبوب، وهي حصة تستند إلى القياس المتبع في بكين؛ ثلاثون مكيالا في الشهر لكل شخص: ثلاثة من *الأرز المطبوخ* (حبوب ذرة ودخـــن مطـــبوخة)، عشرة من الطحين، والمكاييل السبعة عشر المتبقية من الدخن. ذهب أغلـــب الدخن على تغذية يير، لذلك توجب على الطلاب أن يكيفوا أنفسهم وفق نمط معيشة المنغوليين من خلال جعل اللحم العنصر الأساسي في كل وجبة. كان يعطى للرعاة تسعة عشر مكـــيالا من الحبوب شهريا، كلها من الدخن. علمت غاسماي كل من يانغ وشن كيف يعدان الطعـــام لأنثـــى كلب وجرائها الوليدة. ونتيجة لهذا فقد توافر لدى يير حليب غزير، مما جعل جراءها أصلب عودا من تلك التي تربت في كنف الرعاة المنغوليين.

كان كلب الحراسة الثالث أسود اللون يشبه كلاب الأسكيمو عمره خمسة أو ستة أعوام مـــن نسل منغولي له خطم كبير وفم عريض، صدره ضخم، وجسده طويل، وهو من الذكور، صوته يهدر كأنه نمر، ويتسم بالضراوة البالغة. غطت جسده آثار المعارك التي خاضها، مما ترك بقعـــا خالـــية مـــن الشعر على رأسه وصدره وظهره، كل ذلك جعله يبدو قبيح المنظر ومثيرا للخـــوف. كـــان له في وجهه حاجبان صفراوان فوق عينيه، لكن واحدا منهما لم يعد له أثر يذكر، ربما اختفى بفعل صراعه مع أحد الذئاب. الآن بدا تقريبا وكأن الكلب له ثلاث عيون، وكان شن يدعوه باسم إيرلانغ، على غرار شخصية خيالية في الأدب الكلاسيكي.

في طريق رجوعه ذات يوم من جمعية تعاونية مجاورة، أحس شن بقشعريرة تسري في ظهره، شيء ما كان قد جعل الثور الذي في مقدمة العربة مذعورا. استدار لينظر، وكاد يسقط من العربة عندما وجد نفسه وجها لوجه مع كلب قبيح المنظر تبدو عليه علامات الشر ويماثل الذئب في حجمه، تدلى لسانه خارجا من جانب فمه. حاول أن يفزع الكلب، ويبعده بالعصا الطويلة التي يرعى بها الأبقار، لكن ذلك لم ينفع، وتبعه الكلب طوال الطريق إلى المخيم. تعرف العديد من رعاة الأحصنة على الكلب. قالوا إنه حيوان خبيث اعتاد أن يهاجم الخراف. كان أيضا قد تعرض للطرد من قبل صاحبه. نصحه الرعاة أن يطرد الكلب بعيدا، لكن شن شعر بالأسف عليه، وأثارت اهتمامه حقيقة أن ذلك الكلب استطاع أن يعيش مع الذئاب، وبقي حيا، وتحمل فصول الشتاء القاسية. لا بد من أن يكون ثمة شيء متميز بشأن الحيوان. في ذلك الوقت أيضا، منذ أن غادر خيمة بلغي وفقد الاتصال مع الكلب الرائع بار، شعر شن أنه فقد ذراعه اليمنى. "الكلاب التي لدى الطلاب"، قال للرعاة، "هي كلاب صيد، إنها سريعة لكنها غير ناضجة، وتفتقر إلى الضراوة التي يمتلكها كلب كبير مثل هذا، الذي لديه خبرة في حراسة حظائر المواشي. أعتقد أنني سأحتفظ به في مكان قريب وأرى كيف يتصرف. إذا قتل خروفا آخر سيدفع حياته ثمنا لذلك".

انقضى شهران، ولم يمس إيرلانغ خروفا آخر، صار في وسع شن القول إن الكلب كان يصارع من أجل التغلب على رغباته الدفينة وذلك أن يبقى بعيدا عن الحظائر. "في السنين الماضية"، قال بلغي لشن ذات يوم: "حدث تدفق للعمال استمر فترة قصيرة، كاد هؤلاء أن يبيدوا الكلاب البرية التي تعيش في السهوب، والتي لم تكن أعدادها كثيرة إلى ذلك الحدّ بالأساس. كانوا يغرونها لأن تدخل إلى بيوت مشيدة من الطوب، وهناك يعلقونها بحيث تتدلى رؤوسها إلى الأسفل، ويصبون الماء في جوفها حتى تكاد تختنق. بعد ذلك يسلخون جلدها ويأكلون لحمها. يبدو أن هذا الكلب قد هرب من مصير مماثل؛ لقد توقف عن تشرده، وسيطر على طبيعته الوحشية. الكلاب البرية لا تخاف من الذئاب التي تأكل الخراف، لكنها تخاف البشر الذين يأكلون الكلاب".

حرس إيرلانغ الخراف وأبعد المهاجمين المحتملين بنباحه شديد الضراوة، ولم يكن يتردد مطلقا في خوض غمار قتال يبلي فيه بلاء حسنا؛ غالبا ما كانت تشاهد آثار دماء للذئاب على أنفه حين يأتي الصباح. انقضى فصل الشتاء، وكانت بضعة من خراف شن أو يانغ قد سلبتها أو قتلتها الذئاب.

كانت هناك أوقات شعر فيها شن أن إيرلانغ أكثر شبها بذئب بدلا من أن يكون كلبا. الذئب سلف بهيمي للكلب. كان أحد السكان القدماء في شمال غرب السهوب – من عرق كوانرونغ – يقول إن أسلافهم الأصليين يعودون إلى زوج من الكلاب البيضاء. هؤلاء كانوا

يعتبرون الكلب رمزهم. غالبا ما تساءل شن عن السبب الذي جعل سكان السهوب يبجلون الحيوان الأليف – الكلب – واستنتج أن كلاب السهوب كانت حيوانات متوحشة قبل قرون عديدة، وحوشا شرسة لم تنحسر عنها طبيعتها الذئبية، أو ذئابا لديها بعض خصائص الكلاب. ربما كانت الكلاب التي يبجلها شعب كوانرونغ أيضا زوجا من الذئاب البيضاء. ترى هل يكون هذا الحيوان الضاري الذي جلبه معه إلى المخيم واحدا من تلك الكلاب ذات الغرائز الذئبية القوية؟ أم ربما هو ذئب ذو غرائز كلبية؟

بعد أن صمم شن على التقرب أكثر من الكلب، غالبا ما كان يقرفص على الأرض ليدعك جسده ويفركه، لكن نادرا ما يكون هناك أي رد فعل. بالنسبة إلى شن كان الحيوان لغزا محيرا، لكن ذلك لم يمنعه من التعامل معه بصورة طيبة ويتعلم المزيد عنه في أثناء استمرار علاقته معه. أراد أن يصبح صديقه.

فيما كان شن ينتظر نهوض يانغ وغاو من النوم، بقي شن خارج الخيمة يطعم الكلاب، ويلعب مع الجراء، ويربت على إيرلانغ الذي لا يظهر عليه أي تعبير واضح.

لقد اشترك زملاء الدراسة الأربعة الذين جاؤوا من بكين – أحدهم راعي أحصنة، والآخر راعي أبقار، واثنان رعاة خراف – في خيمة لباد واحدة منذ مدة تجاوزت السنة.

كان راعي الأحصنة، الذي يسعى إلى الكمال الأخلاقي[1] زانغ جيوان، يتولى مسؤولية قطيع يتألف تقريبا من خمسمئة حصان برفقة كل من باتو ولامياف. ولأن شهيتها كانت كبيرة للغاية، قادوا الأحصنة نحو الجبال حتى لا تنافس الأبقار أو الخراف في رعي الأرض. إنها بلاد تعج بالذئاب. عاش رعاة الأحصنة هناك في خيمة لباد صغيرة جدا تكفي لينام فيها شخصان في كل مرة؛ في مطبخهم المؤقت، كانوا يستخدمون لطهي طعامهم فرنا صغيرا يوقد بروث الأحصنة. تلك حياة بدائية، محفوفة بالمخاطر من كل صوب، ومنهكة للقوى بسبب المسؤوليات الثقيلة، وذلك هو السبب الذي جعل وضعهم وسط غيرهم من الرعاة محترما إلى حدٍّ ما. كانوا يشكلون الأشخاص الأكثر شعورا بالفخر وسط الناس الذين يمضون الكثير من وقتهم على صهوات الأحصنة.

يعد اقتناص الأحصنة بالأنشوطة فنا يتطلب رشاقة ومهارة وهو يمت بصلة وثيقة ورائعة إلى فن الحرب الذي يتعلق باصطياد الذئاب وقتلها. ولغرض تبادل الأحصنة، بين بعضهم بعضا أو مع غيرهم، أو قطع شعر أعرافها أو تطبيبها، أو إخصائها أو فحصها أو ترويضها، تحتم على الرعاة أن يمسكوا الأحصنة بالأنشوطة كل يوم تقريبا. منذ أزمنة بعيدة، كان خيالة السهوب خبراء في استخدام الأنشوطة؛ فهم يمدون العمود الطويل أمامها في الوقت الذي يجرون فيه

---

(1) الكمالية perfectionism: مذهب يقول إن الارتفاع بالأخلاق إلى مرتبة الكمال هو أسمى الغايات الأخلاقية. (المترجم)

بسرعة على صهوات الأحصنة، ثم يدخلون حبلا كأنه المشنقة يربط في الطرف البعيد للعمود حول رقبة الحصان الذي يطاردونه. نادرا ما يخطئ الخيال البارع الهدف. عندما يكون الهدف ذئبا، فما دام الحصان سريعا لدرجة كافية للحاق به، أحيانا تساعده على ذلك كلاب الصيد، تكون نسبة النجاح مماثلة تقريبا. توثق الأنشوطة حول رقبة الذئب؛ بعد ذلك يكبح الراكب جماح حصانه ليتأخر خلف الذئب، فإما أن يخنقه حتى الموت أو يترك الكلاب تنهشه. كانت الذئاب ترتعب حقا من أعمدة الأنشوطة، وإن اكتشفت راكبا يحمل واحدة منها نهارا، تلوذ بالفرار أو تختبئ وسط الأعشاب. ربما ذلك هو السبب الذي يجعل الذئاب تقاتل ليلا فقط.

كانت الأعمدة ذات الأنشوطة في أولونبولاغ الأكثر جودة وكفاءة من بين أنواعها التي سبق لشن رؤيتها على الإطلاق. إنها أطول، وأكثر إتقانا في الصنع، وعملية أكثر من تلك التي يؤتى بها من ألوية أخرى، وكان يراها على صفحات المجلات في وطنه؛ كان خيالة أولونبولاغ فخورين بشكل له ما يبرره بأعمدتهم. إن النصف الشمالي من إقليم نهر ماجوزي هو المكان الذي تربى فيه أحصنة الحرب الأصيلة، التي يسمونها أوجيمشن، على مدى التاريخ المنغولي. أما بالنسبة إلى المنغوليين، فالأحصنة ليست رفاق درب وحسب، لكنها رفاق في السلاح أيضا؛ البقاء على قيد الحياة هو الذي تطلب ذلك. في هذا النمط من العيش تعتبر أعمدة الأنشوطة من الأشياء الأساسية. تكون أعمدة الأنشوطة طويلة عادة، ومستقيمة جدا، وصقيلة بحيث تلمع. تصنع الأعمدة – التي يتراوح طولها من عشر إلى اثنتي عشرة قدما – من خشبتين طويلتين من شجر البتولا ملصقتين مع بعضها بعضا بالغراء من البداية إلى النهاية. رأى شن واحدة يبلغ طولها خمسا وعشرين قدما تقريبا؛ من الطبيعي أنه كلما كان العمود أطول كان من الأكثر سهولة اقتناص الحصان أو الذئب. إنها تكون مستقيمة مثل ساق الخيزران الذي يخلو من أي فروع. ومن أجل أن تصبح على ذلك النحو، يجب على الخيال أن يشذب العقد وغيرها من الشوائب الطبيعية، بعد ذلك يسخن العمود بالنار فوق روث بقر محترق؛ حالما يغدو الخشب مرنا، يسحب بأداة خاصة بحيث يصير مستقيما. تثبت عصا رفيعة طولها حوالى خمس أقدام على طرف العمود الطويل، مع جدائل شعر مأخوذة من عنق فرس تربط في نهاية العصا. تضاف بعد ذلك أنشوطة غير قابلة لأن تنقطع بسهولة إلى الجديلة. لا تجري حياكة حبال الأنشوطة باستخدام أشرطة من جلد البقر، لكن من أمعاء الخراف، لذلك فهي الجزء الوحيد من عمود الأنشوطة الذي لا يصنعه الخيالة أنفسهم، إذا أخذ المرء بعين الاعتبار المهارة التي تدخل في تركيبتها. يشتري الخيالة أمعاء الخراف من قسم خاص في الجمعية التعاونية. عندما يتم الانتهاء من فرك الفضلات الطرية للخراف على العمود باستخدام صوف خروف إلى أن يتحول لونه الأبيض إلى لون السماد، ثم يجفف ويصقل بقطعة قماش حتى يصير لامعا مثل برونز قديم.

عـــندما يمتطي الخيال حصانه وعمود أنشوطته يمتد إلى الأمام، يسبب ثقل الأنشوطة ارتخاء قليلا في طرفها؛ فتتمايل مع حركة العمود، حيث ترتفع وتهبط بحركة رشيقة، كأنها الأفعـــى، انسجاما مع حركة الخيال. كانت الذئاب قد رأت أبناء جلدتها يختنقون بإحدى الأنشوطات تلك، حيث من المحتمل أن تفترض أنها نوع من الأفاعي السحرية المرعبة. خلال ساعات النهار، عندما يتوغل الخيال وحيدا في البراري أو أعالي الجبال - سواء أكان رجلا، امـــرأة، كـــبيرا في الـــسن، أو شابا يافعا - يمكن أن يمضي في سبيله من دون أن يتعرض للإزعاج إذا كان يحمل عمود أنشوطة، كما لو أن الأنشوطة بطاقة للعبور الآمن أعطاها لهم تينغر!

كان يخصص لكل واحد من الخيالة المتمرسين ثمانية أو تسعة من الأحصنة السريعة، بغض النظـــر عـــن الأحصنة البرية التي لا تعود لأحد على وجه التحديد، والتي تكون جميعها متاحة للـــركوب. ونـــادرا مـــا كانوا يمتطون حصانا واحدا لأكثر من يوم، وكثيرا ما كانوا يبدلون الأحـــصنة أكثـــر من مرة في اليوم. الشيء الأخير الذي كانوا يقلقون في شأنه هو أن تصاب أحصنتهم بالتعب؛ كانوا يتجولون وهم يمتطون صهوات أحصنتهم بزهو وافتخار في كل مكان. وفي الـــوقت الذي كان يزور فيه أحدهم إحدى خيم اللباد، كانت تنهال عليه الطلبات لتنفيذ الأمنيات: مبادلة الأحصنة، تسليم الرسائل أو إعادة بعض الأشياء، أن يصطحب معه طبيبا، أو أن يسرد ما يعرفه عن آخر الشائعات. يتلقى رعاة الأحصنة دائما أكثر الابتسامات من الفتيات، الـــشيء الـــذي يـــثير حفيظة الرجال الآخرين، الذين ليس لديهم إلا أربعة أو خمسة أحصنة، ويـــشعرهم ذلـــك بالحـــسد. بسبب كل ذلك، كان رعي الأحصنة من أكثر الأعمال صعوبة وأشـــدها خطـــورة علـــى السهوب، ولم يكن فريق الإنتاج يختار إلا الأفراد الأشداء، والأكثر شـــجاعة، والأكثر ذكاء، والأكثر دهاء ويقظة ليكونوا رعاة أحصنة، الرجال الذين لا يخافون الجوع أو العطش، الرجال الذين يمكنهم تحمل قسوة البرد وشدة الحرارة؛ الرجال الذين يتمتعون بالتكوين الجسماني لذئب مفترس أو محارب جسور. واحد فقط من بين كل أربعة رجال كان يحالفه الحظ في أن يتم اختياره ليصبح راعي أحصنة؛ كانت المراعي التي يجوبون أرجاءها تشكل خط الجبهة الأمامي في القتال مع قطعان الذئاب. كان مصدر الكثير من حكايات الذئاب التي جمعهـــا شـــن زن مـــستمدا من زانغ جيوان. كلما عاد زانغ من المراعي يأتي شن له بالطعام والشراب ويعامله كضيف يستحق ترحيبا خاصا؛ بعد ذلك يجلسان فيتحدثان عن الذئاب حتى منتـــصف الليل، وبين الفينة والأخرى كان يحتدم بينهما النقاش لدرجة الانفعال. قبل أن يتوجه عائدا إلى قطيعه، وكان زانغ عادة ما يستعير منه بعض الكتب.

كان غاو جيانـــزونغ راعي أبقار في عهدته 140 رأسا منها. ذلك هو أقل الأعمال التي تـــسبب الإنهاك بين جميع الأعمال على السهوب، وقد اعتاد الناس القول إن راعي الأبقار لن

يبادل عمله حتى مع حاكم مقاطعة. كانت الأبقار، التي تخرج باكرا وتعود في وقت متأخر، تعـــرف أين تقع الأرض التي ترعى فيها وكيف ترجع إلى حظائرها. تربط العجول أمام الخيم بحبال مجدولة تصنع من شعر عنق الفرس، بانتظار عودة أماها لتغذيتها. أما الثيران فإن عددها قليل. إنها تتوجه مباشرة إلى أفضل البقاع من المراعي ولا تشعر مطلقا بالتلهف لأن ترجع إلى حظائـــرها. من أصعب الأعمال التي لدى رعاة الأبقار هي محاصرة الحيوانات الشاردة. إنها مخلـــوقات عنـــيدة، فـــإذا لم تشعر بالرغبة في التحرك، ففي وسع راعي الأبقار أن يكيل لها الـــضرب كما يشاء، ولا تفعل شيئا سوى أن تمد أعناقها، وترتعش أجفانها، وتبقى واقفة في مكانها. لكن رعاة الأبقار كانوا يتمتعون بأوقات فراغ كثيرة، لذلك كلما احتاج أحد رعاة الخراف إلى مساعدة، فهو يعرف إلى أين يتوجه. لم تكن أي خيمة تستغني عن الأبقار قادرة علـــى أن تـــستمر بالحـــياة. إنهـــا تجـــر العربات وتنقل الحاجات؛ ويشرب الناس حليبها ويستخدمونه في الطهي، ويحرقون روثها، ويسلخون جلودها، ويأكلون لحومها. كل الأمور المنـــــزلية مـــرتبطة بالأبقار. الناس الذين يمضون الكثير من حياتهم على صهوات الأحصنة كانـــوا يحـــتاجون إلى الأبقـــار من أجل عوائلهم. كان لدى كل من رعاة الأبقار، ورعاة الخـــراف، ورعاة الأحصنة، واجباتهم الخاصة وكلها ترتبط مع بعضها بعضا، وكل منهم لا يستغني عن الآخر.

تـــولى شـــن زن ويانغ كي مسؤولية رعاية أكثر من سبعمئة خروف، جميعها تقريبا من خراف أولونبولاغ التي تتميز بإلية كثيفة، والتي تشتهر في أنحاء مختلفة من الصين. كانت إلياتها عريضة مثل حوض صغير، يكاد شحم إلية الخروف أن يكون شفافا، فهو سمين وهش لكنه ليس مـــشبعا بالـــدهن، اللحـــم طري وله عطر لا يشبه الرائحة المميزة للحم الضأن. وحسب رأي أوليجـــي، فإن أعشاب أولونبولاغ هي الأفضل من أي مكان آخر في الاتحاد، مما جعل خرافهم هي الأفضل أيضا. في الأيام الغابرة كانت الخراف تعطى جزية للإمبراطور، وهي من الحيوانات الـــتي كـــان يفضلها قبلاي خان[1] بعد أن دخل إلى بكين. حتى الوقت الحاضر هي من ضمن أنواع الأطعمة التي تقدم في المآدب التي يقيمها القادة الوطنيون لوجهاء العرب المسلمين في قاعة الشعب الكبرى. تساءل شن زن عما إذا كان السبب الذي جعل ذئاب أولونبولاغ تغدو ذات رؤوس كـــبيرة جدا. وتتفوق على البشر بسهولة بالغة في الذكاء، إنها كثيرا ما تتغذى على لحم ضأن أولونبولاغ. هناك نوع ثان من الحيوانات التي يضمها القطيع وهو خراف محسنة النسل من زنغـــيانغ، وهـــو نـــوع هجين نتج عن تزاوج بين خراف محلية وخراف زنغيانغ ذات الصوف الممتاز. تنتج هذه الخراف كميات كبيرة من الصوف الممتاز، ويباع بسعر أعلى بثلاثة أو أربعة

(1) قـــبلاي خان: حفيد جنكيزخان ولد عام 1215م ومات عام 1294م. احتل الصين وأسس سلالة يوان أو سلالة المغول. (المترجم)

أضعاف سعر الصوف الذي يؤخذ من الخراف المحلية. لكن لحومها كانت هشة لدرجة أنها ذات مادة مخاطية ونتنة الرائحة، و لم يحب الرعاة أكلها.

بعد ذلك هناك الماعز، التي لم تكن أعدادها تتجاوز 4 أو 5 بالمئة من القطيع بأكمله. وهي التي كانت تلحق أغلب الأضرار بالسهوب، بسبب الطريقة التي ترعى بها، لكن قماش الكشمير الناعم الذي ينتج من شعرها يباع بسعر مرتفع. علاوة على ذلك، فتلك الحيوانات المخصية لا تهـــاب شيئا. بوجودها في القطيع، كانت الثعالب والذئاب التي تأتي على انفراد تبتعد عادة عن طـــريقها، فهي تريد ألا تجرب التأثير الذي تلحقه بها قرون الماعز الحادة. ولذلك السبب، فقد كـــان دور حيوانات الطليعة يسند إلى ثمانين أو تسعين رأس من الماعز في قطيع شن. إنها تعرف موقـــع المراعي، وتعرف كيف تعود أدراجها إلى حظائرها ليلا، ولكنها صعبة الإرضاء. عندما تقـــاد إلى أراض معـــشوشبة تغرس أقدامها هناك وتبدأ بالرعي؛ وإذا كان العشب نادرا، تبتعد بسرعة عن المكان. تتفوق الماعز على الخراف في ناحية إضافية: عند أول علامة هجوم للذئاب تصدر ثغاء، وبذلك فهي تعطي الإنذار المبكر لرعاة الخراف. وبما أن الخراف تكون عادة جبانة وبلـــهاء، فلن تطلق أي صوت حتى عندما تشق الذئاب بطونها، وتتقبل الذبح بشكل سلبـــي. اســـتنتج شن زن أن لدى الرعاة مستوى مذهلا من الخبرة والدراية في تقييم سلبيات وإيجابيات كل حيوان، وفي وضع كل منها ضمن موقعه المناسب بحيث يتحقق أقل ضرر ممكن وأكثر فائدة ترتجـــى. كانـــت الفـــوائد مذهلـــة من وراء استثمار نقاط القوة التي يتمتع بها كل حيوان في السهوب.

عمـــل راعيا الخراف معا: كان أحدهما يرعى القطيع؛ والآخر يتولى واجب المراقبة ليلا. كانـــت تعطـــى لهما عشر نقاط عمل مقابل رعاية القطيع، وثماني نقاط مقابل الحراسة الليلية. تناوبا في تنفيذ جدول الواجبات. إذا احتاج أحدهما إلى أن يذهب لغرض ما، فبإمكان الآخر أن يقوم بواجب المناوبة نهارا وليلا، وأحيانا ليومين على التوالي. وإذا كانت الحظيرة في حال جيدة، مع وجود كلاب جيدة تحرسها، فمن الملائم النوم خلال نوبة الحراسة ليلا، على الأقل في فصل الـــربيع. ولكن خلال الفصول الثلاثة الأخرى، عندما كانوا في مرحلة تنقل، بعيدا عن الحظائر المـــسيجة التي تستخدم للتوالد، تبقى الخراف ضمن شبه حلقة مكونة من العربات وقطع اللباد الكبيرة كحاجز يصدّ هبوب الريح، لكن ذلك لا يجدي نفعا في إبعاد الضواري. عندما تتجول الـــذئاب خلسة تتطلب مناوبة الحراسة في الليل مجهودا صعبا ومنهكا، وعدم تذوق طعم النوم، والقـــيام بجولات مستمرة على ضوء المصباح الكاشف وقطيع من الكلاب تنبح طوال الوقت. كـــان الهـــدف الأساسي من الحراسة الليلية حماية الخراف من الذئاب، كما قال أوليجي. يبلغ مجمـــوع نقاط العمل التي تعطى للحراس الليليين تقريبا ثلث النقاط الإجمالية التي تعطى خلال السنة. كانت تلك تمثل نفقات باهظة، ويعود الفضل في ذلك إلى الذئاب.

شكّلت مناوبات الحراسة ليلا عملا مهما بالنسبة إلى النساء في السهوب المنغولية. كانت النساء يبقين طوال الليل يقظات يحرسن القطيع، بعد ذلك ينجزن أعمالهن المنـــزلية الرتيبة خلال الـــنهار، ممـــا يعني أنهن نادرا ما يتمتعن بنوم هنيء ليلا. كان الناس يزاولون أعمالهم في النهار؛ والذئاب تخرج للصيد ليلا. أصيب الناس بالإنهاك والحاجة إلى النوم، أما الذئاب فبقيت مفعمة بالنشاط ومرتاحة جيدا. قلّبت الذئاب حياة الناس رأسا على عقب، أخمدت جذوة همة النساء في العـــوائل عائلة بعد أخرى، جيلا بعد جيل. ذلك هو السبب الذي جعل النساء في كثير من الخيم يصبن بالأمراض كثيرا ويتوفين وهن في ريعان الشباب، بالرغم من أن النظام كان يفرض أهمية إيجاد نساء قويات لا يتعرضن بسهولة للانكسار. تضاعفت الذئاب بصورة سريعة، بينما ظل عدد سكان السهوب لا يتزايد إلا على نحو ضئيل، مما كان السبب وراء عدم إجراء عملية واســـعة النطاق لاستصلاح الأراضي بغية توفير الغذاء للناس عبر التاريخ. لقد هيمنت الذئاب على معدل النمو التدريجي لمن يسكن السهوب من البشر.

تعتـــبر الخـــراف الركن الأساسي في تربية مواشي المزارع في السهوب. إنها توفر اللحوم للتغذية، والجلود للملبس، والروث لإضرام نار الطهي، ومجموعتين من نقاط العمل. لقد ضمنت الخراف الاستمرارية في نمط حياة البداوة. لكن رعاية الخراف كانت عملا يبعث على الضجر، عمـــلا منهكا يكبل حركة الناس. منذ الصباح حتى المساء، على الأرض الخضراء أو في البراري المغطاة بالثلوج، لا يكون لدى الرجل سوى قطيع من الخراف يبعد عنه الوحشة. إذا تسلق إلى بقعـــة مرتفعة ونظر إلى ما حوله فلن يشاهد أي إنسان آخر لمسافة أميال في جميع الاتجاهات. كانـــت الأرض الـــتي تغطيها الأعشاب البرية قد ربطت نفسها بوثاق مع الإنسان المستوحش وكأنها المرض. شعر شن زن أنه أصبح طاعنا في السن إلى درجة كبيرة جدا، جدا. لم يطرأ أي تغيير على السهوب منذ زمن سحيق، ولا على نمط حياة البداوة؛ فسكانها استمروا يتنافسون مع الـــذئاب علـــى الطعـــام، قتال لا رحمة فيه، ولن ينتصر فيه أي طرف على ما يبدو. وجدت أولونـــبولاغ في زمن متجمد حيث غطت السهوب طبقة من الصدأ القديم. هل يمكن أن تكون الذئاب هي التي تسببت في حدوث ذلك؟

* * *

بالنسبة إلى شن لم تكن هناك ميزة واضحة المعالم وراء رعي الخراف. منحته الوحدة متـــسعا من الوقت لأن يترك أفكاره تطوف بلا قيود. كان صندوقا الكتب اللذان جلبهما معه من بكين، بالإضافة إلى الحكايات التاريخية التي يرويها له يانغ كي، كل ما يحتاج إليه مـــن مصادر تستدعي إطالة التفكير والتأمل، مثله في ذلك مثل الخراف التي تجتر طعامها، تهضم محتوياته بشكل بطيء. كل ليلة كان ينهي قراءة أحد الكتب الكلاسيكية، القديمة منها أو الحديثة، تحت ضوء المصباح؛ وفي النهار، كان يتسلى بقراءة بعض من أروع النماذج في

الكــتابة، سواء أكانت محلية أو أجنبية، فيما هو يراقب قطيعه. أضحت الأوراق المتقادمة للكتاب الذي يقرأه جديدة غضة، وزاخرة بالفوائد والعبر كأنها العشب الأخضر. كانت ثمة أوقــات ينتهي فيها من قراءة بضع صفحات في وقت قصير، ولكن بعد أن يتأكد فقط من عدم وجود ذئاب في المنطقة. الناس يخرجون في الضوء، أما الذئاب فتبقى هناك في الظلام. يمكــن لعواء الذئاب عادة أن يسمع من مسافة بعيدة ليس إلاّ. تنامت فكرة لم تكن بعيدة أبــدا عن ذهن شن حتى أصبحت أكثر قوة في الأيام الأخيرة؛ لقد وطد العزم على أن يعثر على جرو ذئب ويربيه في خيمته، يراقبه نهارا وليلا وهو يكبر، عسى أن يؤدي ذلك التآلف إلى الوصول إلى فهم أكبر.

* * *

فكّر شن زن في الذئبة التي سرقت أحد حملانه قبل بضعة أيام، وفي الجراء التي لا بدّ من أن تكون مخبأة داخل وجار في مكان ما في الجوار.

وقــتها كان قد عاد لتوه من تفحص قطيع الخراف، وبدا له كل شيء اعتياديا. استلقى علــى الأعشاب، وصار يحدّق بشكل ثابت إلى العقبان التي تحلّق في السماء الزرقاء. فجأة، سمع جلبة وسط الخراف فوثب على قدميه، تماما في الوقت الذي رأى فيه ذئبة كبيرة تمسك حملا من رقبته. بحركة خفيفة من رأس الذئبة إلى الجانب، ألقت فريستها على ظهرها، ثبتتها هناك وهي تمسكها بفمها، وركضت عبر أحد الغدران نحو جبل بلاك روك، حيث توارت عن الأنظار. في الأوقات الاعتيادية تصدر الحملان صوت ثغاء صاخبا متماوجا، ويؤدي صوت ثغاء أحدها إلى رد فعــل مباشر من مئات الحملان الأخرى ومن أماتها، مما يملأ السماء بالضجيج. لكن الذئبة حين غرست أنيابها في رقبة الحمل كتمت الصرخة، وتمكنت من الفرار بعيدا من دون أن تعكر صــفو قطــيع الخراف. لم يكد أي من الخراف يعرف ما الذي حدث قبل قليل، وربما حتى أم الحمـــل نفـــسها لم تكن واعية لما فقدته لتوها. لولا سمع شن الحاد ويقظته، ما كان ليدري أن أحـــدها قـــد ضـــاع إلى أن يحصي عددها في ذلك المساء. بما أن الأمر حصل، فقد شعر شن بالصدمة كما لو أنه كان ضحية لنشال محترف.

حـــين عادت أنفاسه تتردد بشكل اعتيادي، امتطى حصانه، وتوجه إلى المكان الذي أخذ إلـــيه الحمل. هناك اكتشف منخفضا في الأرض. كان العشب الممهد كل ما احتاج إلى رؤيته لـــيدرك أن الذئبة لم تنـــزل من الجبال؛ لو أنها نـــزلت من الجبال فلربما اكتشف وجودها من قـــبل. كلا، لقد كمنت في المنخفض، تنتظر أن يقترب قطيع الخراف قبل أن تقوم بأي خطوة. نظـــر شن إلى الأعلى ليرى موقع الشمس في السماء. خمّن أن الذئبة كمنت مختفية عن الأنظار لأكثـــر مـــن ثـــلاث ساعات. خلال ذلك الفصل كانت إناث الذئاب فقط هي التي يمكن أن تقتنص حملا في وضح النهار، إنه درس من دروس الصيد التي تعطيها لجرائها الصغار. بالإضافة

إلى ذلــك فإن الحمل أكثر الحيوانات خفة ورقة، وأكثر أنواع اللحوم سهولة في الهضم بالنسبة إلى الجراء التي لم تفتح عيوهُا بعد، ولا تزال ترضع.

مــع أن شـــن كـــان يستشيط غيظا، إلاّ أنه شعر بالرغم من ذلك أنه محظوظ. في الأيام الأخيرة، اعتاد هو ويانغ كي، على أن يخسر حملا كل بضعة أيام، وتساءل إن كانت النسور أو العقبان هي التي تقتنصها وتذهب بها بعيدا. كانت الطيور السارقة التي تهبط من السماء تضرب ضربتها على عجل، غالبا ما كانت تنتهز غفلة الرعاة عن الحراسة بحيث يتسنى لها حينئذ وقت طـــويل يكفي للتحليق بعيدا وقد التقطت أحد الحملان. لكن سربا منها كان ينقض هابطا من الـــسماء يثير موجات من الفزع في صفوف قطيع الخراف، التي كانت ترد على ذلك بأصوات ثغـــاء لا يمكن أن يغفل الراعي عن الانتباه إليها. كان سرا غامضا لم يقدر هو ولا يانغ كي أن يجدا تفسيرا له. الآن بعد أن رأى ذئبة تجري بعيدا وقد اقتنصت حملا، وبعد أن اكتشف المنحدر على الأرض، انحلت خيوط اللغز. لن تضيع المزيد من الحملان بعد اليوم بتلك الخدعة.

بغـــض النظر عن مدى يقظته، لم يستطع شن أن يضمن عدم وقوع مزيد من الحوادث. كانـــت الـــذئاب تـــستخدم خدعا تتماشى مع الموقف. في الوقت الذي تفتقر فيه إلى أجنحة العقـــبان، إلاّ أنها لصوص طائرة حقيقية على أرض السهوب. وقتا بعد آخر كانت تبتكر طرقا تفاجئ بها الناس، ودائما كان يؤدي ذلك إلى يقظة متزايدة وحكمة إدراك متأخّر.

حـــك شـــن جلد إيرلانغ برفق من خلف الأذن، إزاء ذلك لم يتلقَّ أي علامة تدل على الامتنان.

كانـــت رقاقات الثلوج تدوم في الهواء عندما دخل إلى الخيمة، وبرفقة كل من يانغ كي وغـــاو جيانـــزونغ، اقترب من الموقد ليدفئ نفسه، حيث يحترق هناك روث مجفف. ارتشفوا الشاي وأكلوا لحما دسما وشيئا من خثارة اللبن التي كانت قد جلبتها غاسماي. ما دامت تتوافر لهـــم ساعات من الفراغ، حاول شن أن يقنعهم بالذهاب للبحث عن جرو ذئب. بدت حجته، كما تصور، مقنعة: النـــزاعات مع الذئاب أمور حتمية، لهذا ومن خلال تربية واحد منها يكون تابعا لنا يمكننا الوصول إلى فهم أفضل لما يجعلها تحرز نقاطا تتفوق بها علينا. بعد ذلك سنعرف العدو مثلما نعرف أنفسنا.

بـــدت على وجه غاو جيانـــزونغ، الذي كان يطهي اللحم، نظرة انـــزعاج. "إن سرقة جـــرو ذئب ليس لعبة أطفال"، قال، "بالأمس الأول أجبر لامياف وبعض الرجال الآخرين ذئبة علـــى الخـــروج من أحد الأوجار بأن جعلوها تختنق بالدخان عندما كانوا يحاولون سرقة أحد جرائها، وكادت الذئبة تنهش ذراعه قبل أن يتمكن ثلاثة من رعاة الأحصنة، وأحد رعاة الأبقار وسبعة أو ثمانية كلاب من قتلها. كان الوجار عميقا جدا بحيث تطلب الأمر منهم يومين، وهم يعملون ضمن فرق متناوبة، حتى وصلوا إلى مكان الجراء. حتى الخروف يدافع عن صغاره. أما

بالنسبة إلى الذئب، فهي مسألة قتال حتى الموت. إننا لا نمتلك بندقية. هل تتوقع منا أن نهاجم ذئبا بالمجارف وعصيّ الرعاة؟ إلى جانب ذلك، فإن حفر وجار للذئاب عمل متعب. في المرة الأخيرة التي خرجت فيها مع سانجاي، حفرنا ليومين كاملين ومع ذلك لم نصل إلى النهاية. في نهاية الأمر، أوقدنا نارا وأغلقنا الفتحة، تصورنا أننا سنجعل الجراء التي في الداخل تختنق. قال سانجاي إن الذئبة الأم ستعرف كيف تحجز الدخان، ولا بد من أن يكون هناك مخرج سري في مكان ما. حتى هذا الوقت لا بد أنك صرت تدرك كيف تتمكن الذئاب من خداعنا. الرعاة يقولون، "وجار ذئاب، وجار ذئاب، فارغ تسع مرات من عشر". الذئاب تنتقل من أوجارها طوال الوقت. إذا كان الأمر صعبا على السكان المحليين إلى ذلك الحد، فما الذي يجعلك تعتقد أننا قادرون عليه؟".

أما يانغ كي من جهة أخرى، فكان يعتقد أنها فكرة عظيمة. "سأذهب معك"، قال. "عندي عصا غليظة مدببة كأنها حربة. لا أتصور أننا سوية لا نستطيع تدبر أمر ذئبة واحدة. سنأخذ معنا فأسا أيضا وبعض المفرقعات النارية ذات الانفجار المزدوج. من خلال الضرب بالفأس وإطلاق المفرقعات ليس هناك من ذئب على قيد الحياة لا يمكننا أن نسبب له الذعر. وإذا استطعنا قتل ذئب في العملية سيتحدث الجميع عنا".

– "استمر في الأحلام"، قال غاو ساخرا. "تحتاج إلى أن تحذر لئلا يحولك الذئب إلى تنين أعور، أو يصيبك بداء الكلب. ذلك من شأنه أن يضع نهاية لحياتك البائسة".

هز يانغ رأسه. "عندما كنا في أيام المدرسة، خلال المنازلات مع زمرة الحرس الأحمر، أصيب أربعة من بين الأفراد الخمسة الذين تتألف منهم مجموعتنا بجروح. وتمكنت من النجاة من دون أن يصيبني خدش. لذلك أعرف أن الحظ يقف إلى جانبي. يحب لامياف القول إنني خروف من آكلي العشب، وإنه ذئب يأكل اللحوم. لكن إذا خرجنا وعدنا بجرو ذئب لن يقدر على قول ذلك بعد الآن. سأفعل ذلك حتى لو كلفني الأمر أن أفقد عينا".

– "عظيم!". قال شن. "ستشترك في العملية؟ لا تتراجع في ما بعد".

ضرب يانغ قدحه على الطاولة. "متى نذهب؟ كلما كان الموعد أقرب كان أفضل. بعد هذا الوقت، ربما يسمحون لنا أن ننضم إلى حملتهم لتطويق الذئاب واصطيادها، إنه شيء طالما حلمت أن أقوم به".

نهض شن. "ما رأيك بالخروج حالما ننتهي من الأكل؟ نحتاج إلى استطلاع بعض في البداية".

بعد أن مسح فمه، قال غاو، "على غومبو أن يحرس القطيع بدلا منكما، وذلك يعني أن خيمتنا ستخسر نقاط عمل يوم".

أجاب يانغ باحتقار، "إنك حقا تافه. تتذكر تلك المرة التي عاد فيها شن بحمولة عربة من الغزلان؛ كم كان ذلك يساوي من نقاط العمل؟ إنك تثير الشفقة!".

كـــان شـــن ويانغ يسرجان حصانيهما حين جاء بايار وهو يمتطي حصانا ضخما أصفر اللون. أخبر شن أن جده، بابا بلغي، يرغب في رؤيته. "لا بد أن يكون هناك أمر مهم إذا أرسل بابا في طلبـــي"، قال شن.

– "ربمـــا هو شيء يتعلق بحملة الصيد"، قال يانغ. "اذهب. في الوقت الذي تمضيه هناك يمكنك الحصول على بعض التلميحات بشأن ما نحتاج إلى فعله كي نقتنص أحد تلك الجراء".

قفـــز شن إلى السرج. ولأن بايار كان قصير القامة بحيث يصعب عليه امتطاء حصانه لوحده، عرض عليه يانغ أن يرفعه. رفض بايار. قاد الحصان متوجها إلى العربة، صعد إلى إحدى الدعامات، وتشبث حتى استقر على السرج. انطلق الحصانان يعدوان مبتعدين عن المكان بسرعة بالغة.

8

قـــبل أن يترجل شن عن حصانه، تسربت إلى أنفه رائحة اللحم الذي كان يُطهى داخل خـــيمة الرجل العجوز. لكن الشيء الذي أثار استغرابه أن الرائحة لا تشبه رائحة لحم الضأن، لذلك اندفع إلى الداخل، "لا تسرع هكذا"، هدر صوت بلغي. توقف شن ولاحظ على الفور أن ثلاثة أطراف من بساط الأرضية كانت ملفوفة، وأن جلد حصان جديد قد فرش في الوسط، استقرت فوق ذلك البساط سبعة أو ثمانية فخاخ لصيد الذئاب. امتلأت الخيمة بالبخار المتصاعد مـــن القـــدر مصحوبا برائحة عبقة؛ داخل القدر كان ثمة سائل أسود اللون غني بالدهن يفور، وتتـــصاعد منه الفقاعات. كانت غاسماي تجثو على ركبتيها قرب الموقد، تغطى وجهها بعرق ملطـــخ بالسخام فيما هي تلقّم النار قطعا من الروث المجفف. كانت ابنتها التي في الخامسة من عمرها، شيشغ، تلعب بعظام الخراف، ستين أو سبعين منها. انشغل باتو، الذي لا يزال يقضي طـــور الـــنقاهة في الخيمة، وقد ترقط وجهه ببقع الجلد الجديد، بتلميع الفخاخ بمساعدة زوجة بلغي، إيجي. جلس شن بجوار الرجل العجوز.

– "ما الذي تطهيه؟". سأل مازحا. "لا بد أن لديك أسنانا قوية".

ضـــاقت عينا بلغي وهو يضحك. "تكاد تكون على حق. إنني أطبخ فخاخا، لكن أسناني ليست في حال جيدة. إذا كنت تبحث عن أسنان جيدة انظر إلى الفخاخ. إنها جيدة، ألا ترى ذلك؟".

– "لكن لماذا تطهيها؟" سأل شن.

– "لنـــصيد الـــذئاب"، أجاب بلغي. "دعني أختبر حاستك في الشم. أي نوع من اللحم ذلك؟". أشار بلغي إلى طبق قرب الموقد. هز شن رأسه نافيا معرفته به.

– إنه لحم أحصنة. أتيت به من البحيرة المتجمدة. في البداية طهيت لحم الأحصنة في قدر، وبعدها طهيت الفخاخ في الحساء. أتعرف لماذا؟ هكذا أتخلص من رائحة الصدأ.

– "فهمـــت!". ازداد شن انبهارا. "إذا، هكذا تجعل الذئاب تدوس على فخاخك. أتصور أننا أكثر ذكاء من الذئاب، بعد كل هذا".

مسّد الرجل العجوز على لحيته رمادية اللون، "كلا، إذا كنت تتصور ذلك. لدى الذئاب حاســـة أكثر حدة للرائحة من الكلاب، وإذا كان هناك شيء ولو قليل من أثر للصدأ أو رائحة البشر، تكون قد أهدرت وقتك. ذات مرة بعد أن أنهيت تنظيف فخاخي حتى لم تتبقَّ بقعة من

الصدأ في أي مكان. لم تأتِ الذئاب. لاحقا، استنتجت السبب. بعد أن نصبت الفخاخ، سعلت فخـــرج قليل من البلغم من فمي، لو كنت قد أزحته مع كل الثلج الذي حوله، ربما كان ذلك أفضل. لكنني دست عليه مما جعله يتغطى بالثلج، وتصورت أن ذلك يكفي. لكن الذئاب شمت رائحته".

- "ذلك شيء لا يصدق!"، قال شن بإعجاب.

- الذئاب بالغة الذكاء. وذلك ما يجعلها عدوا بشعا.

أوشـــك شـــن أن يطرح سؤالا عندما نهض الرجل العجوز على ركبتيه ليخرج فخا من القـــدر. بعد أن ساعده شن على التقاطه، وضعاه على كيس من الخيش ملطخ بالدهون ووضعا فخـــا آخر في القدر. كانت الفخاخ كبيرة وثقيلة جدا بحيث يمكنه طبخ واحد منها فقط كل مـــرة. "جعلت كل أفراد العائلة ينظفون الفخاخ يوم أمس"، قال: "كنت قد طبختها مرة قبل ذلـــك؛ هـــذه هي المرة الثانية. ولن يكون هذا نهاية للأمر. عما قريب سأمسحها بزيت أمعاء حـــصان وسأســـتخدم شـــعيرات مـــن عنق حصان، ثم أكرر العملية. عندها ستصبح مهيأة للاستخدام. سأرتدي قفازات، وأضيف روث خيل مجفف عندما أنصب الفخاخ. مقاتلة الذئاب تـــشبه خـــوض الحرب. إذا لم تتوخَ الحذر عندها ستواجه الضياع. تحتاج إلى أن تكون أكثر وسوسة من المرأة، أكثر وسوسة حتى من غاسماي"، أضاف وهو يصدر ضحكة خافتة.

نظرت غاسماي إلى الأعلى، وأشارت إلى إبريق على الرف. "أعرف كم تحب الشاي الذي أصـــنعه وأضيف إليه الزبدة"، قالت. "يداي قذرتان، لذلك اخدم نفسك". لم يكن شن يحب الـــدخن الذي يقلى مع الاستمرار بالتحريك، لكنه كان مغرما بصورة خاصة بخثارة اللبن التي تـــصنعها غاسمـــاي. وضع أربع أو خمس قطع من الزبدة في كوب، أنـــزل إبريق شاي دافئ، وصب كوبا من الشاي المخفوق بالزبدة. "كان بابا سيصطحب باتو لنصب الفخاخ، لكن باتو لا يستطيع الخروج ووجهه على تلك الحالة، لذلك فسيصطحب بابا معه الصيني من الهان الذي يحبه".

ضـــحك شـــن. "كلما تعلق الأمر بالذئاب لا يستطيع بابا أن يمنع نفسه من التفكير فيّ. صحيح ذلك، بابا؟".

- "أيهـــا الشاب"، قال بلغي، "أعتقد أن الذئاب قد استولت عليك. إنني رجل كبير في السن، لذلك أنقل ما لدي من معرفة إليك. تعلم هذه الأشياء جيدا، وستصطاد الذئاب بنفسك ذات يـــوم. لكـــن لا تنسَ ما أخبرتك به، إن تينغر أرسل الذئاب لتحمي السهوب. من دونها تختفي السهوب".

- "بابـــا، ما دامت الذئاب هي الحامية المبجلة للسهوب"، سأل شن، "فلم تقتلها؟ أعرف أنك وافقت على حملة الصيد في اجتماع القيادة".

– "إذا، كان هناك الكثير جدا منها، ستفقد قدرها المبجلة وتتحول إلى شريرة. لا بأس من أن يقتل الناس المخلوقات الشريرة. إذا قتلت الذئاب جميع الأبقار والخراف، لن نستطيع الاستمرار في العيش، وستضيع السهوب. نحن المنغوليون أرسلنا من قبل تينغر أيضا لحماية السهوب. من دونها، لن يكون هناك منغوليون، ومن دون المنغوليين لن تكون هناك سهوب".

– "هل تعني أن الذئاب والمنغوليين يحمون السهوب معا؟". سأل شن، وقد بدا متأثرا بما قاله الرجل العجوز.

طافت نظرة حذرة في عيني الرجل العجوز. "ذلك صحيح"، قال، "لكنني أخشى أن يكون هناك شيء لا تستطيعون أنتم... أنتم الصينيون أن تفهموه".

– بابا، تعلم أنني معارض لشوفينية الهان، وأنني أعارض سياسة إرسال الناس إلى هنا لتشييد المزارع.

انبسط حاجب الرجل العجوز المتغضن، وقال وهو يدعك فخ الذئاب بشعر عنق الحصان: "حماية السهوب أمر شاق بالنسبة إلينا. إن لم نقتل الذئاب فسيتبقى منا القليل. لكن إذا قتلنا الكثير جدا منها فسيتبقى منا عدد أقل بكثير أيضا".

بدا وكأن هناك حقيقة تكاد أن تكون صوفية تختفي وراء كلمات الرجل العجوز، حقيقة ليس من السهولة استيعابها. ازدرد شن بقية أسئلته، أحس بوجود شيء يتعذر عليه التيقن من كنهه.

عندما أصبحت الفخاخ جاهزة، تحول الرجل العجوز إلى شن: "تعال معي لنصب هذه الفخاخ"، قال، "راقب جيدا كيف أفعل ذلك". لبس بلغي زوجا من قفازات القنب، وناول زوجا آخر لشن. بعد ذلك التقط أحد الفخاخ، وحمله إلى الخارج حيث كانت عربة خفيفة تقف بالانتظار. كان قاع العربة مغطى بقطعة بالية من اللباد، نقعت بشحم أمعاء حصان. تبعه شن وبايار حاملين معهما المزيد من الفخاخ؛ حالما صاروا في الخارج، تجمد الشحم متحولا إلى طبقة دهنية خفيفة مما جعل المعدن غير مرئي. عندما تم تحميل جميع الفخاخ، ذهب الرجل العجوز إلى جانب الخيمة، ثم عاد وهو يحمل كيسا من روث الأحصنة المجفف، وضعه في العربة أيضا. بعد أن أصبح كل شيء جاهزا، صعد الثلاثة على سروجهم. ولكن قبل أن ينطلقوا، هرولت غاسماي إلى الخارج وصاحت: "شنشين، تصرف بحذر مع تلك الفخاخ. يمكن أن تحطم ذراعك بسهولة". افترض أنها قالت ذلك في الواقع حرصا على ابنها.

حالما اكتشف بار وبعض الكلاب الكبيرة الأخرى رائحة الفخاخ حتى استثيرت غرائزها للصيد ودفعتها للتحرك، وكانت على وشك أن تعدو وراءهم عندما أمسك باتو ببار من الرقبة ولفّت غاسماي ذراعيها حول واحد من الكلاب الأخرى. أمر بلغي الكلاب أن تبقى. بعد ذلك تحرك الرجال الثلاثة ومعهم أربعة من الأحصنة على مهل باتجاه البحيرة أمام العربة المحملة.

كانت الغيوم تضغط بثقلها على قمم الجبال؛ تساقطت ثلوج خفيفة، ذات لون مخملي وملمس جاف. ارتد الرجل العجوز إلى الوراء ليترك الثلوج تتساقط على وجهه، حيث ذابت سريعا. بعد أن خلع قفازا، أمسك المزيد من الثلج، وفركه على أنحاء وجهه. "كنت منشغلا كثيرا خلال الأيام القليلة الماضية"، قال، "نسيت حتى أن أغسل وجهي. الثلج يؤدي نتيجة محترمة، ويشعر المرء بالانتعاش. يصبح وجهي مليئا بالسخام حين أجلس قرب الموقد لمدة طويلة. الثلج يزيل الرائحة، ويجعل العمل ينجز بشكل أسهل".

غسل شن وجهه بالثلج أيضا، وبعد ذلك أخذ يشم رائحة كم سترته. اكتشف وجود رائحة خفيفة لروث الخراف. "هل تشكل رائحة الدخان هذه اختلافا؟"، سأل.

– ليس تماما. ستتلاشى عندما نصل إلى المكان الذي نذهب إليه. فقط تذكر، لا تدع معطفك أو بنطالك الجلدي يلامس لحم الأحصنة المتجمدة وستكون على ما يرام.

– "مقاتلة الذئاب عمل منهك"، قال شن. "بقيت الكلاب والذئاب تتبادل النباح والعواء في الليلة الماضية، كانت تطلق صيحات غاضبة، ولم يغمض لي جفن".

– "في بلادكم، أنتم الصينيون، تنامون نوما هانئا مثلكم مثل الخراف كل ليلة. لكن هنا أنت في ميدان معارك، ونحن المنغوليون محاربون، ولدنا للقتال. الناس الذين يحتاجون إلى السلام والسكينة من أجل أن يناموا يكونون جنودا ضعفاء. عليك أن تتعلم كيف تغط في النوم حالما يطأ رأسك الوسادة، وأن تنهض في اللحظة التي تسمع فيها نباح الكلاب. الذئاب تنام وآذانها منتصبة، وعند أول علامة للخطر تنهض وتولي بعيدا. عليك أن تكون هكذا أيضا إن كنت تريد أن تقاتلها. بالنسبة إليّ، فأنا ذئب عجوز". ضحك. "إنني آكل، أقاتل، أنام، وأعرف كيف أنام نوما خفيفا مثل القط. تكره ذئاب أولونبولاغ كل شيء يتعلق بي، وعندما أموت ستمضغ جسدي عن آخره، العظام وكل شيء. سأرحل إلى تينغر أسرع من أي شخص آخر. ها ها...".

تثاءب شن وقال: "الطلاب هنا بدأوا يعانون من انهيارات عصبية. أعيدت إحدى الفتيات إلى بكين قبل مدة. وفقا لهذا المعدل لن يتطلب الأمر سنوات كثيرة قبل أن تعيد الذئاب على الأقل نصف عددنا إلى الجنوب. لن أدع الذئاب تأكل لحمي عندما أموت. أريد أن تحرق جثتي".

كان الرجل العجوز لا يزال يضحك. "أنتم شعب الهان مبذرون، حشد من الناس المثيرين للمتاعب. يموت الإنسان منكم ويحتاج إلى تابوت، مما يهدر الخشب الذي يمكن أن يستخدم في صنع عربة".

– "لن أحتاج إلى تابوت"، قال شن. "ادفعوا بجثماني فقط إلى النار".

– "لكن النار تحتاج إلى خشب أيضا"، قال الرجل العجوز. "ذلك هدر، هدر حقا. نحن المنغوليون ثوريون مقتصدون. نضع أجسادنا على عربة عندما نموت، الرأس يكون باتجاه

الجنوب، وحين يقع الجسد من العربة فذلك هو المكان الذي تحصل فيه الذئاب على وجبتها التالية".

- هل تقصد أنه إلى جانب ترك الذئاب تلتهم الجسد حتى تذهب الروح إلى تينغر، فذلك العمل يهدف إلى إنقاذ الأشجار أيضا؟ لا توجد أشجار في هذا المكان.

- الأمر أكثر من مجرد إنقاذ للأشجار، من المهم تحويل آكلي اللحوم إلى لحم يؤكل.

- "آكلو اللحوم إلى لحم يؤكل؟". تلك كانت عبارة جديدة تطرق سمع شن، وتلاشت الأفكار المتعلقة بالنوم من ذهنه. "ما معنى ذلك بالضبط؟".

- نحن سكان السهوب نأكل اللحوم طوال حياتنا، ومن أجل ذلك فنحن نقتل الكثير من المخلوقات. بعد أن نموت، نتبرع بلحمنا، ونرده إلى السهوب. بالنسبة إلينا، يبدو هذا الإجراء شيئا عادلا ليس إلاّ، ومفيدا لأرواحنا عندما نصعد إلى تينغر.

- "إنك على حق"، قال شن. "إنه شيء عادل. إذا فشلت الذئاب من أن تجعلني أعود إلى بكين ذات يوم، ربما أوافق وحسب أن أتركها تأكل جسدي عندما أموت. مع وجود قطيع كامل من الذئاب تشترك في التهام جسد واحد، لا بد من أن تكون وجبة سريعة، ربما أسرع من حرق الجثة".

أثار هذا الكلام البهجة في نفس الرجل العجوز، لكن سرعان ما لاحت نظرة قلقة رسمت أمارات الحزن على وجهه فبدا قاتما. "في الماضي لم يكن هناك كثير من الصينيين يأتون إلى أولونبولاغ على الإطلاق. كان الناس الذين يبلغ عددهم سبعمئة أو ثمانمئة شخص الذين كانوا يسكنون في مئة وثلاثين أو مئة وأربعين خيمة كلهم من المنغوليين. بعد ذلك حدثت الثورة الثقافية، ووصل مئة منكم أنتم الطلاب من بكين. تبعكم جنود وعربات كبيرة، مع سائقين، والآن ها هم يشيدون المباني. إنهم يكرهون الذئاب، عدا ما يتعلق بالجلود المدبوغة، التي يحبونها، عاجلا أم آجلا ستضع بنادقهم نهاية للذئاب. عندئذ لن تستطيع أن تقدم جسدك طعاما للذئاب حتى وإن أردت ذلك".

- "لا تقلق"، قال شن بحماسة. "عندما تقع الحرب الكبيرة ذات يوم من أيامنا هذه، ستقضي القنبلة الذرية علينا جميعا، الناس والذئاب، ولن يتبقى أحد ليطعم أي أحد".

رسم الرجل العجوز دائرة في الهواء بيده. "ذرة... القنبلة الذرية، ما هذا؟".

أعطى شن زن ما في وسعه، من ضمن ذلك استخدام الإيماءات، لغرض شرح الأمر، ولكن بلا جدوى؛ لم يتمكن الرجل العجوز من استيعاب ذلك.

وصلوا تقريبا إلى الطرف الشمالي من البحيرة المتجمدة، حيث كانت الأحصنة قد لقيت حتفها. شدّ بلغي سير عنان حصانه، وطلب من بايار أن يوقف العربة وينتظر هناك. ذهب برفقة شن على حصانيهما، وقد أخذا معهما فخين ومجرفة صغيرة، بالإضافة إلى حقيبة تحتوي على

روث الأحصنة المجفف، متجهين إلى المكان الذي ترقد فيه الأحصنة الميتة. توقف بلغي من وقت إلى آخر ليلقي نظرة فاحصة على المنطقة. بالطبع كانت الأحصنة الميتة قد تعرضت للنهش، وكان في وسعهما رؤية المواضع التي غرست فيها الحيوانات أسنانها من تحت الغطاء الخفيف للثلج، بالإضافة إلى آثار قوائمها التي تركتها على الثلج. "هل عادت الذئاب؟". سأل شن.

تفحص الرجل العجوز بضع جثث. "ليس قطيع الذئاب الكبير"، أجاب. "كان أوليجي محقا عندما قال إن قطيع الذئاب ربما يكون هناك إلى الشمال خلف الطريق العام. إنها خبيرة في الانتظار بصبر لا ينفد".

- "إذا، ماذا عن هذه الآثار؟". سأل شن وهو يشير إلى الأرض.

- "أغلبها آثار ثعالب، بالإضافة إلى آثار ذئبة واحدة. لا بد من وجود العديد من إناث الذئاب هنا مع جرائها، كل منها تعمل على انفراد". فكّر للحظة، ثم أضاف، "كنت آمل الإمساك بالذكور الكبيرة التي تقود قطيع الذئاب، وبعض الذكور الضخمة الأخرى أيضا، لكن مع كل هذه الآثار للثعالب المنتشرة في أرجاء المكان، لن يكون ذلك سهلا".

- هل أضعنا وقتنا سدى؟

- ليس تماما. أهم عمل لدينا الآن هو أن نخدع قطيع الذئاب، ونجعلها تفكّر في أننا ما دمنا ننصب الفخاخ، فنحن لا نهتم في أن نشن هجوما لتطويقها. بتلك الطريقة ستعود لكي تنهي على هذه الأحصنة عن آخرها. سنفاجئها.

- هل هناك فرصة لأن نقتنص ذئبا بأحد الفخاخ هذه، بابا؟

- بالتأكيد هناك فرصة. دعنا ننصبها للحيوانات الكبيرة، الذئاب وليس الثعالب.

تجوّل الرجل العجوز مرتين في المنطقة بحركة دائرية قبل أن يختار بقعة قريبة من إحدى الجثث. ترجل شن عن صهوة حصانه، وبدأ يحفر في الثلج، بينما قرفص بلغي وخط بمجرفته الصغيرة دائرة محيطها قدم ونصف القدم تقريبا وعمقها بوصات قليلة. ثم حفر منخفضا في الوسط. بعد أن ارتدى قفازات لطخت بشحم أمعاء الأحصنة، وضع فخه على الجليد، ووقف وقد مدّ رجليه على أطراف الحفرة، وذلك لكي يفتح النوابض التي تبدو وكأنها زوج من الملاقط الضخمة، أخذ يسحب جانبي الفخ بقوة، بأسنانها المدببة، فتحها وضغطها إلى الأسفل حتى وصلت إلى مستوى الأرض. بعد ذلك وضع حشوة قماش، شكّلها مثل إطار مزخرف، فوق المنخفض، لكن تحت القاعدة المعدنية للفخ. أخيرا ثبت قضيبا معدنيا داخل الحشوة.

كان شن يراقب الرجل العجوز، وقد بلغ قلبه حنجرته، وهو يكمل إنجاز العمل المنهك المحفوف بالخطر، ينصب فخا يمكن أن يحطم ذراع الرجل في أي لحظة، كان بلغي يلتقط أنفاسه بصعوبة، ويتصبب عرقا. مسح العرق بكمه بعناية، لم يكن يريد له أن يتساقط على لحم الحصان الميت. الآن بعد أن خرج شن في رحلته الأولى لنصب الفخاخ برفقة الرجل العجوز، استطاع

أن يرى كيف يمكن أن تكون النتيجة. عندما يدوس ذئب ما على حشوة القماش، يضغط بثقله إلى الأسفل، ويحرك القضيب المعدني من مكانه الذي يتعلق فيه. عندها ستفرقع النوابض، وتنطبق نهاياتها المسننة على قائمة الحيوان، مما يهشم العظام، ويمزق الأوتار العضلية. لا غرابة في أن الذئاب كانت تخاف الفخاخ. لو لم تكن تخاف صوت فرقعة معدن الفخاخ وهي تنطبق، لمات شن حتما خلال مواجهته السابقة مع قطيع الذئاب.

كل ما تبقى عمله هو أن يغطي الفخ، ويمحو كل أثر له. هذا العمل أيضا ينبغي له أن ينجز بعناية فائقة. بعد أن التقط أنفاسه، قال بلغي، "لا يمكنك أن تغطي هذا بالثلج، إنه ثقيل جدا، سيضغط على الحشوة. علاوة على ذلك، فإذا أشرقت الشمس سيذوب الثلج، وتتجمد أجزاء المعدن، ولن ينغلق الفخ. ناولني روث الأحصنة".

تناول بلغي الكيس، أخذ قبضة من الروث المجفف، كوره وحوله إلى كرات صغيرة جدا، ونشرها فوق القماش. ملأ الروث الذي يتخلله الهواء تدريجيا كل الثغرات، وبقيت الحشوة معلقة فوق الفخ؛ لم يكن هناك خوف من الثلج الذائب. الشيء الأخير الذي فعله الرجل العجوز هو أنه علّق السلسلة المربوطة بالفخ بأحد عظام الأحصنة، وأخبر شن أن في وسعه تغطية تلك السلسلة بالثلج. بعد أن علمه كيف يغطي جميع الأجزاء المكشوفة، نثر قليلا من الثلج على الروث، وسوى السطح بقطعة من جلد الخراف إلى أن بدا منظره طبيعيا.

استمرت ثلوج خفيفة بالتساقط، محت بصورة سريعة كل أثر لعملية نصب الفخاخ التي أنجزت. "كيف يمسك الفخ بالذئاب، وليس الثعالب؟". سأل شن. "وضعت القضيب المعدني أعمق من المعتاد"، ردّ بلغي. "الثعلب خفيف جدا بحيث إن ثقله الخفيف لا يجعل نوابض الفخ تنفلت. لكن هذا لا ينطبق على الذئب".

استطلع الرجل العجوز أرجاء المنطقة مجددا، ومشى خطوات قليلة. "افعل ذلك بنفسك هذه المرة"، قال بعد أن وقع اختياره على البقعة الثانية. "سأشرف على عملك".

– لماذا يكون الفخان قريبين من بعضهما هكذا؟

– الذئب يمكن أن يتصرف بشكل عديم الرحمة حتى بجسده. إذا أطبق الفخ على إحدى قوائمه، فسينهشها حتى يقطعها ويهرب بثلاث قوائم. ولكن الهدف من نصب فخين قريبين هو أنه إذا وقعت إحدى القوائم في الفخ الأول، فإن الألم سيجعل الحيوان يدور حول نفسه في حلقات، مما يسحب السلسلة، وبهذا يمكن أن تتعثر قائمته الخلفية بالفخ الثاني الذي أنصبه عند الطرف البعيد من السلسلة. وإذا وقعت قائمتان أمامية وخلفية في الفخ، حتى إذا قطعهما الذئب معا، فلن يتمكن من الهرب.

شعر شن بقلبه ينقبض، وشعره ينتصب فزعا فيما هو يحاول أن يستبين معالم القسوة التي تكمن في خضمّ الحرب بين الإنسان والذئب. كان الجانبان يستخدمان القسوة في التصدي،

والدهاء لإحباط الدهاء. ومهما كانت كراهية شن لضراوة الذئاب، فإنه حين تأمل الطريقة القاسية في استخدام الفخ الذي كان ينصبه لإلحاق أذى مفرطا، ارتعشت يداه. سيغدو الفخ مموها تماما إلى جانب إغواء لحم حصان الذي لا سبيل إلى مقاومته، في مكان لا تعبق فيه إلا روائح لحم، وشحوم، وروث الأحصنة تنتشر في الهواء؛ ليس ثمة روائح للبشر أو المعدن. فكر شن، في أنه حتى أكثر الذئاب دهاء ستقع في الفخ، وستعاني من ألم قائمة مكسورة، وينتهي بها المطاف لأن تسلخ جلودها، ويلقى بجثثها الملطخة بالدماء منزوعة الجلد إلى البراري. تذكر كل جيوش الهان، من زهاو مرورا بسلالات كين، وهان، وتانغ، وسونغ، ومنغ، التي توغلت في أعماق السهوب، بفضل فخاخ جرى نصبها ببراعة وجاذبية، ثم واجهت الإبادة. لم يكن المحاربون الذين يمتطون صهوات الأحصنة في الأيام الغابرة يعتمدون على الأعداد الهائلة في اكتساح صروح الحضارات المتقدمة عليهم في التطور. لقد استخدم المدافعون الحقيقيون عن أرض السهوب البراعة والحكمة العسكرية التي تعلموها من الذئاب في حماية إقليمهم في مواجهة النار والفولاذ، كانت المجارف والمحاريث هي التي تصطف خلف جيوش الهان المهاجمة. الرجل العجوز يقول الحق، ولكن لم يستطع شن أن يمنع يديه من الارتعاش.

ضحك بلغي بحماسة. "قلبك رقيق قليلا، إنني أتفهم ذلك. هل نسيت أن السهوب هي ميدان للقتال، وأنه لا يمكن لمن يخاف من منظر الدماء أن يسمي نفسه محاربا؟ ألا يزعجك أن تبيد تلك الذئاب قطيعا كاملا من الأحصنة؟ إذا لم نستخدم وسائل عنيفة، كيف نقدر على دحرها نهائيا؟".

بعد أن اعترف بالحقيقة التي وراء كلمات الرجل العجوز، تنفس شن بعمق، وبالرغم من مشاعره المشوشة، حفر في بقعة من الثلج والجليد. ولكن عندما كان يضع الفخ داخل الفجوة، ارتعشت يداه مجددا؛ هذه المرة خوفا مما يمكن أن يحدث لو لم يتوخَّ الحذر في إنجاز محاولته الأولى هذه. كان الرجل العجوز يقف إلى جانبه ويعطي التعليمات، دسّ عصاه في جوف الفخ المفتوح؛ إذا حدث أن انغلق الفخ مصادفة، فستحمي العصا يد شن من الوقوع في الفخ. أحس بتيار دافئ يسري في أنحاء جسده؛ بوجود الرجل العجوز واقفا على أهبة الاستعداد لتقديم المساعدة، استطاع أن يوقف ارتعاش يديه، ونصب فخه الأول من دون حادث يذكر. في الوقت الذي مسح فيه حاجبيه، اكتشف أن بلغي هو الآخر كان يتصبب عرقا أكثر منه.

– "أيها الشاب"، قال بلغي بعد أن تنفس الصعداء، "انصب الفخ التالي بنفسك. أعتقد أنك صرت مهيأ لأن تفعل ذلك".

أومأ شن برأسه، ورجع إلى العربة ليحضر فخين آخرين. حدد بقعة قريبة من جثة حصان آخر، ونصب الفخ الثالث بحذر؛ بعد ذلك جلب كل منهما فخين آخرين من الأربعة المتبقية وقاما بنصبها كل على انفراد، طلب الرجل العجوز من بايار أن يساعد شن.

ظلت السماء غائمة مع انتشار عتمة الغسق. بعد أن تفحص الرجل العجوز عمل شن، ابتسم وقال: "لقد أحسنت إخفاءها. لو أنني كنت ذئبا لاصطدتني حتما. لكن الوقت قد تأخر. ما الذي سنفعله الآن؟".

– حسنا، أفترض أننا ربما نستخدم مكنسة لإزالة آثار أقدامنا، ونتأكد من أدواتنا لئلا نترك أي أثر خلفنا.

– "تعلمت شيئا من الدهاء"، قال الرجل العجوز موافقا.

بدأوا يكنسون، من الموضع الذي وصلوا إليه رجوعا إلى العربة، وتأكدوا من دقة عملهم خلال تقدمهم تدريجيا. "كم هو عدد الذئاب التي تتصور أننا سنصطادها بوساطة هذه الفخاخ؟"، سأل شن فيما كان يحمل الأدوات على العربة.

– لا تسأل عن الأعداد عندما تمارس الصيد. لن تصطاد شيئا إذا فعلت ذلك. بعد أن يؤدي الناس ما عليهم القيام به، يتركون البقية لتينغر.

امتطوا أحصنتهم، وبعد أن سحبوا العربة وراءهم مضوا في طريقهم مبتعدين عن المكان.

– "هل سنعود غدا صباحا لنرى نتيجة عملنا؟"، سأل شن.

– لا نستطيع أن نعود، سواء أحصلنا على شيء أم لا. إذا أمسكنا بذئب، فسنحتاج إلى أن نمنح الذئاب وقتا كافيا كي ترى ما الذي يجري. ستدب الشكوك في نفوسها عندما لا يأتي أحد ليأخذ فريسته، ومن ثم ستحيط بموقع الحصان الميت لغرض استنتاج ما الذي ستفعله لاحقا. العمل الذي أوكل إلينا لا يقتصر على إيقاع القليل من الذئاب في الفخ، ولكن أن نمحو القطيع بأكمله. لا داعي لأن تأتي إلى هنا غدا. سأستطلع الأمور من بعيد.

شقوا طريقهم عائدين إلى المخيم وهم يتمتعون بمزاج طيب. كان شن يفكّر في شأن بطن الجراء التي ولدها الذئبة، وخطط أن يستفسر من بلغي عن الطريقة التي ينبغي له فيها المضي بشأن محاولة الحصول على واحد منها، عرف أن ذلك نوع من الصيد المحفوف بالمخاطر والصعوبات، ويتطلب مهارة استثنائية، لكنه اعتبره أيضا من أكثر الوسائل أهمية للسيطرة على النمو الهائل لأعداد قطعان الذئاب. إن إخلاء أحد أوجار الذئاب من الجراء يعني التخلص من أحد قطعان الذئاب التي تسبب القلق. لكن الذئاب تستجمع أقصى ما لديها من قدرات الذكاء، وتستخدم أكثر المهارات ضراوة في الحفاظ على سلامة صغارها. كان شن قد سمع حكايات عن مغامرة مماثلة لاقتناص وسرقة جراء ذئاب لم يحالف الحظ أصحابها إلا بالفرار، لكنه صار مهيأ ذهنيا للمضي في تقبل التحدي. مضى ربيعان منذ مجيء المئة طالب أو أكثر إلى السهوب، ولم يحاول أي واحد منهم أن يسرق بمفرده بطنا من جراء الذئاب. أدرك شن أنه ليس هناك ما يضمن له أنه سيكون الرابح الأول، إلاّ أنه خطط لأن يستمر في مرافقة بلغي في أوقات كثيرة كلما استدعت الضرورة ليتعلم منه كيف يمكن له أن ينجز الأمر. لكن بعد عملية

قـــتل قطـــيع الأحصنة لم يتوافر لدى الرجل العجوز وقت للتفكير في جراء الذئاب، وكل ما استطاع شن فعله هو أن يطلب منه نقل خبرته إليه.

- "بابـــا"، قال، "عندما كنت أرعى الخراف يوم أمس الأول، سرقت ذئبة أحد حملاني الصغيرة أمام عيني تماما، وحملته متوجهة به إلى سفح جبل بلاك روك. حتما لديها وجار هناك، وأنا أفكّر في الذهاب إلى هناك غدا. كنت أنوي أن أطلب منك المجيء معي...".

- "لا أســـتطيع غدا"، قال بلغي. "هناك الكثير من الأعمال الضرورية التي يتوجب عليّ إنجازها هنا. تقول إنها ذهبت إلى جبل بلاك روك؟".

- نعم.

مسّد الرجل العجوز لحيته. "هل تبعتها؟".

- كلا. كانت سريعة جدا لأن ألحق بها. لم يكن هناك متسع من الوقت.

- "ذلك شيء جيد. لو أنك تبعتها لجعلتك تطاردها في محاولة عقيمة كأنك تطارد إوزة بـــرية. إنها لن ترجع إلى أوجارها إذا شعرت بأنها مطاردة". توقف الرجل العجوز عن الكلام للحظـــة. "إنها ذئبة ذكية"، قال. "في فصل الربيع الفائت عثرت فرق الإنتاج على ثلاثة أوجار لجراء في ذلك المكان؛ لهذا لن يرجع ذئب في هذه السنة إلى هناك. أستغرب أن تذهب ذئبة إلى هناك كي تلد جراءها. يمكنك الذهاب غدا، لكن اصطحب معك أشخاصا آخرين، وكثيرا من الكلاب. احرص على أن يرافقك رعاة شجعان ومتمرسون. لا أريد منك أنت ويانغ أن تحاولا عمل ذلك بمفردكما؛ الأمر خطير جدا".

- "ما هو أعظم تحدٍّ يمكن أن يواجهنا؟"، سأل شن.

- "هـــناك الكثير من الأشياء التي ينبغي لك أن تقلق بشأنها"، رد الرجل العجوز، "لكن العثور على وجار للذئاب هو الأصعب. سأخبرك كيف تتدبر ذلك. عليك أن تنهض قبل بزوغ الفجر، وتبحث عن بقعة في أعالي الجبال، امكث هناك إلى ما قبل شروق الشمس تماما، بعدها استطلع المنطقة بالمنظار. عندما تخرج الذئبة للصيد وتبقى طوال الليل، ستعود لتطعم جراءها. إذا رأيـــت المكـــان الـــذي تذهب إليه، فذلك هو وجارها. ابدأ بعملية تنقيب دائرية برفقة بعض الكـــلاب الجـــيدة، ولا بد من أن تتمكن من تحديد موقع الوجار. لكن عندئذ ستواجه الشيء الصعب الذي يتمثل في إخراج مجموعة الجراء فعلا، لأن ذلك يعني التعامل مع أم ذئاب ضارية. كـــن على حذر". غطت عينيه غمامة. "لولا خسارة تلك الأحصنة"، قال، "ما كنت لأدعك تفعل هذا. حتى كبار السن في أولونبولاغ يترددون عادة بالتفكير في سرقة جراء الذئاب".

لم يجـــرؤ شن على طرح المزيد من الأسئلة. كان بلغي قد غضب حين تم اتخاذ قرار القيام بغارة واسعة النطاق على جراء الذئاب؛ وخاف شن أن يمنعه من الذهاب إذا تابع استفساره عن الأمـــر بإصـــرار. مع ذلك فإن سرقة جراء الذئاب تتطلب الكثير من المعرفة؛ لكن ما دام هدفه

تربية ذئب صغير، وليس قتله، فإن عليه أن يتحرك بسرعة، وألا ينتظر حتى تفطمها أمها وتفتح عيونها. قرر التشاور مع باتو، أفضل صياد للذئاب في فرقة الإنتاج. لا يزال باتو غاضبا بشأن خسارة الأحصنة، فهو بالتأكيد لن يبخل بنقل خبرته إلى شن.

* * *

كان الليل قد أرخى سدوله حين عادوا إلى خيمة الرجل العجوز. داخل الخيمة، كان البساط قد أعيد إلى حالته السابقة؛ أضاءت الخيمة الفسيحة ثلاثة فوانيس يحترق بداخلها زيت من شحوم الخراف، ووضعت الطاولة المنخفضة في الوسط، وقد وزّعت عليها أطباق كبيرة تحتوي على السجق الدامي[1] الذي أخرج للتو من القدر، وهو مكون من معدة وأمعاء خراف، ولحم غني بالدهون، كلها كان ينبعث منها بخار مفعم برائحة مغرية. دمدمت بطون الرجال الثلاثة المنهكين من العمل. خلع شن مئزره، وجلس إلى الطاولة؛ وضعت غاسماي طبقا كبيرا مليئا بالأحشاء المعوية للخراف أمامه، لأن ذلك هو الطبق المفضل بالنسبة إليه، بعدها تناولت طبقا من الطعام الذي يفضله الرجل العجوز، وهو صدر الخروف، ووضعته أمامه. ثم أعطت شن طبقا صغيرا من الصلصة المكونة من عجينة فول صويا بكين وفطر السهوب؛ كان يجب أن يغمّس لحم الضأن الدهني في هذه الصلصة. كانت التوابل تعتبر صنفا رئيسيا من المطيبات في كلا الخيمتين. قطع شن شريحة لحم، غمّسها في الصلصة، ودسها فيه؛ أحسّ بطعم لذيذ مما جعله ينسى كل شيء عن جرو الذئب. لم يكن ما يسمونه بالأحشاء المعوية السمينة للخراف، وهي أفضل أنواع اللحوم المتوافرة في السهوب، غنية بالدهون أبدا. يصل طول الأمعاء إلى قدم تقريبا، وهي محشوة بشرائح رفيعة من معدة الخروف التي تخلو من الدهون أيضا، أحشاء معوية ضئيلة، وشرائح من الحجاب الحاجز. باختصار، في الوقت الذي كان فيه طبق الأحشاء المعوية مصنوعا من أجزاء الخروف التي تنبذ عادة، إلاّ أنه يعد طبقا أساسيا ضمن أي مأدبة منغولية، فهو طعام هش وسهل المضغ، سمين لكنه ليس غنيا بالدهون.

- أنتم المنغوليون لستم مبذرين إذا تعلق الأمر باستهلاك الخراف. فبدلا من رمي الحجاب الحاجز فإنكم تحولونه إلى طبق لذيذ.

- "عندما تأكل الذئاب الجائعة لحم الخراف"، قال الرجل العجوز وهو يومئ برأسه، "فهي تنهيه عن آخره"؛ الفراء، والحوافر، وكل شيء. وحين تحل كوارث طبيعية في السهوب لا يكون العثور على الطعام شيئا سهلا، بالنسبة إلى الناس والذئاب، لهذا السبب فكل جزء من الخروف يستهلك".

- "لا بد من أنكم إذا تعلمتم كيف تأكلون الخراف من الذئاب"، قال شن.

---

(1) السجق الدامي: المحتوي على نسبة كبيرة من الدم. (المترجم)

ضـــحكوا جمـــيعا. "نعم، ذلك صحيح إلى حدٍّ ما"، قالوا موافقين. أكل شن ثلاث قطع طويلة أخرى من أمعاء الخراف المحشوة.

ضحكت غاسماي بحبور، وتذكر شن قولها له إنها تفضل الضيوف الذين يلتهمون طعامهم حتى آخره فلا يبقون على شيء منه. ولكن عندما فكّر في إمكانية أن يبدو منظره مستهجنا شعر بالإحراج، و لم يجرؤ على أن يأكل المزيد. كان يعرف إلى أي حدّ يحب بلغي وعائلته هذا الطعام الـــشهي بالتحديد، وقد أنهى مسبقا على نصف ما في الطبق. تناولت غاسماي قطعة من السجق الدامـــي والتقطت قطعة طويلة أخرى من الأمعاء المحشوة بطرف سكينها. "كنت أعلم أنك لن تـــستعجل في المغادرة"، قالت وهي تبتسم، "لذلك طبخت قطعتين طويلتين من الأمعاء. واحدة لـــك، كلها، وأتوقع منك أن تكون مثل الذئب، لا تترك شيئا". ضحك جميع الجالسين حول المائـــدة حين مدّ بايار يده، وأخذ القطعة الثانية من غاسماي. خلال السنتين اللتين أمضاهما شن هـــنا لم يكـــن يعرف شيئا عن شكل العلاقة التي ينبغي أن تربطه مع غاسماي. بدت امرأة الأخ الكـــبير بالنسبة إليه علاقة مناسبة أكثر من غيرها، لكنه شعر في بعض الأحيان بأنها تشبه أخته الكـــبيرة أكثر، بينما في أحيان أخرى بدت وكأنها خالة عجوز حنون أو عمة مرحة أصغر في العمر. كانت في طبيعتها المرحة تشبه السهوب ذاتها؛ كبيرة القلب وبريئة.

أنهـــى شن التهام قطعة أمعاء محشوة طويلة عن آخرها، أنـــزلها إلى جوفه بمساعدة نصف كـــوب مـــن الشاي المخفوق بالزبدة. "بايار لا يخاف من الإمساك بذيل ذئب أو الزحف إلى داخل وجار ذئب أو امتطاء حصان بري"، قال. "ألا تخافي أن يحدث له شيء ما؟".

– "نحن المنغوليون هكذا"، قالت غاسماي بابتسامة. "كان باتو في صغره أكثر شجاعة من بايـــار. لم يكن هناك ذئب كبير في الوجار الذي زحف بايار إلى داخله، ولأن جراء الذئاب لا تعض، فإن إفراغ الوجار من جراء الذئاب ليس شيئا يستحق أن يتفاخر به. لكن عندما زحف باتو إلى داخل أحد الأوجار، كانت الأم لا تزال في الداخل. وكانت لديه الشجاعة الكافية لأن يسحبها إلى الخارج".

تعجـــب شـــن من هذا الخبر المقتضب، وسأل باتو: "كيف حدث أنك لم تخبرني بذلك مطلقا؟ أريد أن تخبرني الآن، بشكل مفصل".

كان الضحك خلال تناول وجبة الطعام قد جعل باتو يتمتع بروح مرحة قليلا، لذلك تناول جرعة كبيرة من الشراب في كأسه، وقال، "كنت في الثالثة عشرة من العمر. عثر بابا وبعض من الـــرجال الآخرين قبل ذلك بوقت قصير على وجار للذئاب بعد بحث طويل. كان الوجار كبيرا جـــدا، وعميقا للغاية، لم يكن هناك مجال لحفر مسافة كافية للوصول إلى الداخل، لذلك قرر بابا التأكد ما إذا كانت الذئبة الأم داخل الوجار أم لا وذلك لجعلها تختنق بالدخان فتخرج. لكن حتى بعـــد أن انجلى كل أثر للدخان، لم يظهر أي ذئب، وافترضنا أن الوجار كان فارغا. لذا أخذت

معـــي بعض الثقاب وكيسا من الخيش، وزحفت إلى داخل الوجار لاقتناص الجراء. لم أكد أدخل هـــناك حـــتى أبصرت عيني الذئبة، لم تكن تبعد عني أكثر من قدمين، وكدت أبول في ملابسي الداخلـــية. أشعلت عود ثقاب، ورأيت أن ذلك أفزعها، كان ذيلها يهتز بين قائمتيها مثل كلب خائف. بقيت ممددا هناك، لا أجرؤ على الحركة، لكن حالما انطفأ عود الثقاب هجمت الذئبة. لم يكن لدي وقت للانسحاب، وتصورت أنها ستهاجمني. تخيل مدى دهشتي عندما اكتشفت أنها لم تكن متجهة نحوي لكنها أرادت أن تقفز من فوقي لكي تخرج جراءها من الوجار. حسنا، كنت أعـــرف أن الأشخاص الذين في الخارج لا يتوقعون ذلك، ولم أكن أرغب في أن تصل الذئبة إلى بابا، لذلك وجدت في نفسي الجرأة بشكل أو بآخر لأن أستقيم في جلستي، وأغلق عليها الطريق. ارتطـــم رأسي برقبتها، اندفعت وألصقت رأسها بسقف الوجار. الآن لم تعد تستطيع الخروج أو الهـــرب. صـــارت تنشب براثنها بجنون، تمزق ملابسي، لكن المسألة كانت إما أنا أو هي، لذلك جلـــست مستقيما، جعلت رقبتها ورأسها يتسمران بالسقف لأمنعها من العض، بعد ذلك مددت يـــدي، وتمكنت من الإمساك بقائمتيها الأماميتين. حينذاك لم تستطع الوصول بأسنانها أو مخالبها إلي. لكنني انحشرت في مكان ضيق أيضا. لم أتمكن من التحرك، بينما كانت قوتي تخور".

كـــان باتـــو يـــسرد تجربته بأعصاب باردة، كما لو أنها حدثت لشخص آخر. "في تلك الأثـــناء، كان الأشخاص الذين في الخارج يتساءلون عما منعني من الخروج. توجسوا خيفة من أن شـــيئا سيئا قد وقع لي. زحف بابا إلى الداخل، وأشعل عود ثقاب. كنت هناك، ألصق ذئبا على سقف الوجار برأسي. أخبرني أن أتماسك وألا أتحرك في الوقت الذي لف فيه ذراعيه حول خـــصري، وبدأ يتحرك ببطء باتجاه الفتحة، وكنت أدفع برأسي إلى الأعلى، وأتشبث بقائمتي الذئبة وهي تتحرك معنا. صرخ بابا بالناس الذين في الخارج ليمسكوا بساقيه ويسحبوا؛ لم تكن لـــديهم أدنى فكـــرة عن السبب إلى أن خرج نصف جسده من الفتحة. انتصبوا واقفين هناك بـــسكاكينهم وعـــصيّهم، وحالمـــا أخرجنا الذئبة إلى المدخل طعنها أحدهم بالسكين في فمها وألـــصقها بأعلى المدخل، بينما أسرع الآخرون وأخذوا يكيلون لها بالضرب حتى ماتت. حالما اســـتعدت قـــواي، عدت زاحفا إلى داخل النفق، الذي كان يزداد ضيقا، إلى أن صار واسعا بالكـــاد ليستوعب طفلا ليس إلاّ. لكن بعد ذلك اتسع النفق بحيث شكل حجرة وجدت فيها بطـــنا مـــن الجراء كانت ملتفة حول بعضها بعضا تنام على قطعة ممزقة من جلد الخراف بينما تناثـــرت كـــتل من الفراء في كل مكان، كان مجموعها تسعة جراء، وجميعها لا تزال على قيد الحـــياة. من أجل حماية جرائها كانت الأم تقريبا قد أغلقت المدخل المؤدي إلى الحجرة التي تنام فـــيها بالفضلات وبقيت خارجها للحراسة. لم يقتلها الدخان لأنها عملت فتحات صغيرة هنا وهناك تؤدي إلى الخارج. كل ما كان عليّ القيام به أنني أزلت الفضلات عن الطريق، ومددت يدي وأمسكت بالجراء، وضعتها في كيس كنت أحمله معي وخرجت...".

كـــان شن يلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يستمع. من الواضح أن العائلة لم تسمع القصة منذ زمن طويل، لأهم كانوا أيضا منشدين إليها. اختلفت قصة باتو عن القصص الأخرى التي سمعها شـــن عـــن ســـرقة جراء من وجار للذئاب. "يقول الناس إن الذئبة تقاتل حتى الموت لحماية جرائها"، قال. "لكن هذه لم تفعل. لماذا؟".

– "في الواقـــع"، قـــال الرجل العجوز، "الذئاب تخاف من الناس، ما دمنا نحن الوحيدين الـــذين نفترسها. إن هذه الذئبة كادت تختنق بالدخان، وعندما رأت شخصا يحمل عود ثقاب مشتعل يشق طريقه إلى وجارها، كيف يمكنها ألاّ تخاف؟ بدت ذئبة ناضجة، لكنني رأيت أها لم تكـــن تتجاوز السنتين من عمرها، وهذه المجموعة من الجراء كانت البطن الأولى التي تلدها. إنه شيء يبعث على الأسى. ما كان أحد ليذكره لو لم تسأل".

تلاشى كل أثر للابتسامة على وجه غاسماي. تألقت عيناها تحت طبقة من الدموع.

– "ســـيذهب شـــن زن إلى الجبال غدا لاقتناص جرو ذئب"، قال بايار، "وأريد الذهاب معـــه. إنـــه والأشخاص الآخرين كبيرون جدا بحيث لا يمكنهم الزحف إلى الداخل. سأبقى في خيمتهم الليلة، وأذهب معهم في الصباح الباكر".

– "لا بأس"، قالت غاسماي، "اذهب. لكن كن حذرا".

– "كلا!"، قال شن، وهو يهز يديه. "ربما يحدث شيء. إنه ابنك الوحيد".

– "هـــذا الـــربيع شنّت مجموعتنا غارة على أحد أوجار الذئاب"، قالت غاسماي، "ولا نـــــزال ندين لهم بثلاثة جراء. إذا لم نوفر على الأقل بطنا كاملة من جراء الذئاب سيعاقبنا باو شنغوي".

– "لا يهمني ذلك"، قال شن بإصرار. "أفضل عدم الذهاب على أن أصطحبه معي".

جـــذب الـــرجل العجوز حفيده نحوه. "ابقَ أنت في البيت، بايار. سأصطاد ذئبا كبيرا أو ذئبين، وبدلا من الجراء سأعطيهم جلود تلك الذئاب للإيفاء بنصيبنا من النقاط".

9

عـــند الـــساعة الثالـــثة والنصف صباحا، كان شن زن ويانغ كي، وإلى جانبهما كلبان كبيران، يجثمون على أحد التلال المجاورة لجبل بلاك روك. تم إخفاء حصانيهما خلف التل، بعد أن قيدا برباطين من جلد البقر كي يبقيا في مكانهما. كان الكلبان إيرلانغ *وأصفر* يتمتعان بغريزة صيد حادة، ولم يكن الاستيقاظ في هذا الوقت المبكر من الصباح يعني إلاّ شيئا واحدا: الصيد. تمـــددا فـــوق الثلج، من دون أن يصدر عنهما أي صوت وهما ينظران إلى ما حولهما حذرين متوجـــسين. رقط القمر والنجوم بسحب داكنة، مما جعل السهوب تكتسب برودة استثنائية، وتـــبعث الرهبة في النفوس. كان شن ويانغ وحدهما الموجودين في مكان يبعد أميالا، في وقت يخـــرج فيه قطيع الذئاب كي يقوم بجولته، حيث يغدو التعرض إلى هجومها أكثر احتمالا. أطل جـــبل بلاك روك القريب منهما، وكأنه تمثال وحوش هائلة، بوجوده الملبد بالشرور عليهما مما جعل تيارات من القشعريرة تسري في ظهر شن. شعر شن بالقلق على الحصانين، وبدأ يرتجف رعبا من المغامرة التي تحفها المخاطر.

علـــى حـــين غـــرة مزق جدار الصمت عواء ذئب تناهى من مكان بعيد باتجاه الشمال الغربـــي، وتردد صداه في الوديان المحيطة بهما، لكن نغمات الصوت الخافتة بدت وكأنها تصدر عن ناي أو قصبة مزمار، استمرت طويلا تعزف لحنا حزينا. تلاشى الصوت تدريجيا وتبعه نباح كلـــب بعـــيد. لم يثر كلا الصوتين الكلبين اللذين كانا يربضان إلى جانب شن. كان الكلبان يعرفان جيدا بروتوكولات الصيد: حراسة الحظائر ليلا تستلزم نباحا مستمرا؛ أما الصيد وسط الجـــبال فيـــتطلب صمتا مطبقا. دس شن إحدى يديه عميقا في الفرو الذي بين ساقي إيرلانغ الأماميـــتين ليدفئها، ولفّ ذراعه الأخرى حول رقبة الكلب. كان يانغ قد قدّم للكلبين نصف وجـــبة تقريبا قبل الانطلاق؛ عندما يخرج الكلب للصيد ينبغي ألاّ تكون معدته ممتلئة أو جائعا كثيرا. الطعام المفرط يخمد روح الكلب القتالية؛ والقليل جدا منه يوهن قواه. كان الطعام الذي تـــناوله الكلبان قد بدأ يعطي تأثيره مسبقا؛ دفأت يد شن بسرعة، واستخدمها بدوره في تدفئة خطـــم الكلب المتجمد. هزّ إيرلانغ ذيله بخفة. حين يكون الكلب قريبا منه تصبح أعصاب شن هادئة.

بعـــد ليال عديدة قاسية كان شن يشعر بالإنهاك بشكل لم يعرفه من قبل أبدا. قبل ذلك بليلتين، دعا يانغ بعض الرعاة من أصدقائه إلى الذهاب لاقتناص بعض جراء الذئاب، بالرغم من

أنه لم يكن يعتقد أن بالإمكان العثور على أي أوجار فيها جراء ذئاب على جبل بلاك روك، و لم يرغب أحد منهم في النهوض من الفراش في مثل ذلك الوقت المبكر. حاول الرعاة أن يجعلوا شن ويانـــغ يعدلان عن قرارهما بالذهاب. لكن بدلا من ذلك، وحين شعر الصديقان أن الجميع قد تخلـــوا عنهما، قررا الذهاب بمفردهما، ولهذا السبب فقد رافقهما إلى الجبل كلبان مخلصان ليس إلاّ.

احتـــضن يانغ الكلب *أصفر* بشدة بين ذراعيه، وقال لشن هامسا: "انظر، حتى *أصفر* إنه خائــف إلى حـــدّ ما في هذا المكان. لا يستطيع أن يكف عن الارتعاش. أتساءل إن كان يشم رائحة ذئب قريب...".

ربت شن على رأس الكلب. "لا تخف"، همس. "لا يوجد شيء يستدعي الخوف. سترتفع الشمس عما قريب، والذئاب تخاف من البشر في النهار. إلى جانب ذلك، فقد جلبنا معنا عمود أنـــشوطة". شعر شن بيده ترتعش قليلا وهي تستقر على جسد *أصفر*. "أنت وأنا نشبه عملاء ســـريين"، قـــال، لكي يهدئ من روعه قليلا، "في وقت متأخر من الليل نتسلل خلف خطوط العدو، ننتزع أنياب أحد الذئاب. أتدري، لا أشعر بالنعاس".

حاول يانغ كي أن يشجّع نفسه أيضا. "القتال مع الذئاب يشبه خوض غمار الحرب: قوة مقابـــل قوة، روح معنوية مقابل روح معنوية، حكمة وشجاعة مقابل حكمة وشجاعة. الخدع الحربية الست والثلاثون جميعها، عدا ما يتعلق باستخدام المرأة الجميلة، تشترك في اللعبة".

- لنتجـــنب محاولـــة إرضاء أنفسنا. لست متأكدا من أن الخدع الحربية الست والثلاثين ستفي بالغرض عندما تكون الذئاب هي العدو.

- "إنهـــا وجهـــة نظر جيدة"، قال يانغ. "إذا، أي خدعة نستخدم؟ نتبع الذئبة الأم حين تـــرجع لتطعم صغارها ونعثر على المدخل بتلك الطريقة؟ تلك ليست واحدة من الست وثلاثين خدعة. إنها خدعة بابا الماكرة. هذا شيء ينطوي على قسوة كبيرة حقا".

- "مـــن الـــذي طلب من الذئاب أن تقتل كل تلك الأحصنة؟"، قال شن. "لقد جعلت مـــوقفه قويا. عندما كنا ننصب الفخاخ، قال إنه لم يفعل ذلك منذ سنوات. لم يكن أبدا يؤيد القتل الجماعي للذئاب".

في الـــوقت الذي خفت فيه حدة الظلام إلى جهة الشرق، كان جبل بلاك روك قد تخلى عن صورته كتمثال وعاد جبلا مجددا. ترشحت الأشعة الأولى لضوء الشمس عبر غطاء السحب الخفـــيف ممـــا وسّع مجال رؤية الرجلين وكلبيهما اللذين كانا منبطحين على الأرض الثلجية. استطلع شن زن جانب الجبل بمنظاره؛ لم يكن هناك شيء سوى مشهد الطبيعة الساكنة يرتسم علـــى عدســـاته، ما دام الضباب يغطي الأرض. ساوره قلق من أن تكون الذئبة قد عادت إلى وجارها مختفية تحت غطاء الضباب، مما يعني أنه ويانغ والكلبين قد تجمدوا هناك نصف ليلة بلا

جـــدوى. ولكـــن في ذلك الوقت، حدث شيء بعث البهجة في النفوس، حيث تبدد الضباب، وتحـــول إلى ســـديم خفيف شفاف ظل يحوم فوق الأرض، وأي حيوان يمر من هناك سيخترق السديم بجسده ويكشف عن نفسه.

فجـــأة، حول *أصفر* رأسه جهة الغرب، انتصب شعر عنقه، اعترى التوتر جسده. تحول إيـــرلانغ برأسه إلى الاتجاه نفسه، وأحس شن أن شيئا ما قد طرأ، استدار بمنظاره ليرى ما الذي جـــذب انتـــباه الكلبين. كان هناك امتداد من القصب الأصفر الجاف في بقعة من المستنقعات محاذية للمنعطف الذي يتخذه الجبل يمثل مكانا مفضلا للذئاب، لأنه يوفر لها وسيلة للاختباء مع اتجـــاه الرياح التي تهب خلفها؛ لأن تلك هي البقعة التي تفضل الذئاب أن تشن منها غاراتها التي تماثل حرب العصابات على البشر، فقد أطلق عليها اسم *الستارة الخضراء*. كان بلغي دائما يقول إن هذا المكان هو الذي تتجول حوله الذئاب في الشتاء والربيع، تختفي فيه، وتنام فيه؛ كان أيضا مـــيدان معارك بالنسبة إلى البشر الذين يصطادون الذئاب. ربما كان الكلبان *أصفر* وإيرلانغ قد سمعا وقع خطوات ذئب يدوس على القصب الجاف. ذلك هو الوقت المناسب من اليوم والاتجاه الـــصحيح، وأدرك شـــن أنه لا بد من أن تكون الذئبة قد ركضت نحو وجارها. استطلع أنحاء المـــنطقة، منتظرا ظهورها. قال الرجل العجوز أن هناك مياها ضحلة عند البقعة التي ينمو فيها القصب، تجمعت من ذوبان الثلوج، لهذا فالذئاب لن تتخذ لها أوجارا هناك. على الأغلب فهي تختار أراضيَ أكثر ارتفاعا، على بقع يمكن للمياه أن تتجمع تحتها، وكان شن واثقا من أن الذئبة إذا ظهرت، فلا بد من أن وجارها يكون في مكان قريب.

نظـــر الكلبان بثبات إلى بقعة محددة وسط القصب، وسارع شن لتوجيه منظاره إلى تلك الـــبقعة. ترنح قلبه وهو يرى ذئبا ضخما يرفع رأسه، ويخرج القسم الأعلى من جسده من بين القـــصب، وينظر إلى ما حوله. خفّض الكلبان رأسيهما على الفور، حتى دفنا ذقنيهما في الثلج. تمدد الرجلان على الأرض، بقيا منخفضين قدر ما تمكنهما طبيعتهما البشرية من ذلك. بعد أن جـــال نظر الذئب في جانب الجبل، برز من بين القصب، وركض باتجاه أحد الوديان. تتبع شن مـــساره بمـــنظاره؛ كـــان يشبه الذئبة التي رآها في المرة الأخيرة. كانت الذئبة تثب وهي تشق طـــريقها بإجهاد وتثاقل، ربما اقتنصت خروفا في تلك الليلة والتهمته حتى اتخمت. لو كان هذا هـــو الـــذئب الوحيد في المنطقة، فإن شن لن يجد سببا يدعوه إلى الخوف. رجلان وزوج من الكلاب، خصوصا وأن إيرلانغ واحد منهما، فمن السهل أن يكونوا جميعا أندادا لذئبة بمفردها.

تسلقت الذئبة المنحدر. فكّر شن في أن كل ما يحتاج إليه هو أن يرى في أي اتجاه تذهب، وستـــصبح لديـــه فكرة جيدة عن موقع وجارها. لكن في تلك اللحظة، توقفت الذئبة فجأة، اســـتدارت، ونظـــرت أولا إلى أحد الجانبين، ثم إلى الجانب الآخر، وأخيرا ركّزت نظرها نحو البقعة التي استلقى فيها الرجلان وكلباهما بلا حراك على قمة أحد التلال. لم يجرؤ الرجلان حتى

على التنفس؛ كانت الذئبة تقف الآن في موضع أعلى من البقعة التي خرجت منها من القصب، والأشـياء الـتي لم تستطع أن تراها حينئذ يسهل عليها رؤيتها الآن. ندم شن على افتقاره إلى الخبرة؛ قبل لحظة مضت، عندما ركضت الذئبة باتجاه الوادي، كان ينبغي له ولرفاقه أن يتراجعوا بـضع ياردات إلى أسفل التل. أثارت شكوك الذئبة في نفسه القلق والمخاوف على حين غرة. مطـت الذئبة جسدها فصار مشدودا بقوة، مما أضاف ارتفاعا إلى هيكلها، وتفحصت المنطقة مجددا لترى إن كانت ثمة أي مخاطر كامنة. دارت مرتين بالكامل حول المكان، ترددت للحظة، ومـن ثم استدارت، واندفعت تجري بحركة رشيقة نحو منحدر ممهد يقع في جهة الشرق، حيث اتجهت إلى فتحة كأنها الكهف واختفت في داخلها.

– "عظـيم! ذلك هو المدخل! الآن سنتمكن من الإمساك بالأم وبطن الجراء التي ولدتها"، قال يانغ بلا تفكير وهو يصفق بيديه.

وقف شن، وقد غمره الانفعال. "هيا، لنذهب ونأتي بالحصانين".

كان الكلبان يثبان هنا وهناك، يلهثان وينتظران صدور الأوامر من سيديهما، الشيء الذي نـسيه شن في خضم نشوته. "اذهبا!"، قال، وركض الكلبان يشقان طريقهما إلى أسفل التل، مـتوجهين علـى الفور إلى مدخل الوجار. ذهب الرجلان خلف التل، رفعا الأربطة عن أقدام حـصانيهما، امتطـيا صهوتيهما، وأسرعا يعدوان نحو الوجار، حيث كان الكلبان بانتظارهما، ينبحان بصوت مرتفع عند المدخل. كشر إيرلانغ عن أنيابه وقد جن جنونه، كان يهاجم المدخل بـسيل من النباح، وبعدها يتراجع، من دون أن يجرؤ على المضي كثيرا إلى الداخل. بقي *أصفر* عـند المدخل، مضيفا صوته إلى صولة النباح، مما جعل غمامة من الثلوج والتراب تتطاير. وثب الـراكبان عن حصانيهما، وحاولا على الفور تقييم الموقف. لكن الشيء الذي شاهداه جعلهما يتوقفان عن التفكير: تماما داخل فتحة بيضوية الشكل على بعد قدمين أو ثلاث أقدام في الطرف الآخـر، كانت الذئبة تحرس وجارها ومحتوياته بحياتها، وتسعى جاهدة لإبعاد إيرلانغ إلى الوراء وتتابع أنيابها أي محاولة للخداع، بعدها تندفع حتى نصف المسافة لتعض وتنهش كلا الكلبين.

ألقـى شـن عمود أنشوطته على الأرض، التقط مجرفته، وحركها أمام رأس الذئبة. كانت سـريعة جدا، ولم تصب المجرفة شيئا سوى الهواء. بعدها اندفعت إلى خارج المدخل مرة أخرى، وقـد كشرت عن أنيابها؛ هز يانغ عصاه، لكنه أخطأ الهدف أيضا. تراجعت الذئبة مرة، وهاجمت مرة أخرى، جولة بعد جولة، إلى أن تمكن شن أخيرا من الوصول إلى رأسها، وكذلك فعل يانغ. جعلـها ذلك تستشيط غضبا أكثر ليس إلاّ، صارت مسعورة أكثر من أي وقت مضى. في هذه المـرة، تراجعت الذئبة مسافة ياردة أو نحو ذلك، وتبعها إيرلانغ. تعرض الكلب للعض في الصدر فانـسحب إلى الخارج، كانت الدماء تنـز من الجرح، وعيناه محمرتين من الغضب. لكنه وثب وزمجر زمجرة مخيفة ورجع إلى الداخل، حتى لم يعدُ يرى منه إلاّ ذيله الذي كان يتمايل هنا وهناك.

في تلك اللحظة تذكّر شن أنشوطته، التقطها من الأرض. من النظرة الأولى عرف يانغ ما الـــذي يجول في ذهنه. "لنفعل ذلك"، قال. "سنربط حبلا حول عنقها"، أرخى شن الأنشوطة التي في طرف العمود لكي يتمكن من تعليقها عند مدخل الوجار. عندما تطل الذئبة برأسها إلى الخارج في المرة التالية، سيسحب العمود بقوة ويحكم ربط الأنشوطة حول رقبتها، وبعدها يجرها حـــتى يخرجها. حين يتم له ذلك، فإن عصا يانغ كي والكلبين ستقضي عليها في وقت قصير. توتـــرت أعـــصاب شن لدرجة أنه صار يلتقط أنفاسه بصعوبة. لكن لم يكد ينصب فخه حتى اندفـــع إيـــرلانغ خارجا من الوجار مجددا، ارتطمت قائمتاه الخلفيتان بالأنشوطة فانحرفت عن مكانها. بعد ذلك بثوانٍ، ظهرت الذئبة وكانت الدماء تسيل من رأسها نتيجة قتالها مع الكلب، لكنها داست على الأنشوطة، وعندما أبصرت عمود الأنشوطة، عادت إلى الداخل كما لو أنها صعقت بتيار كهربائي.

دس شن رأسه في الفتحة، فرأى منحدرا حادا يمتد إلى حوالى خمس وثلاثين درجة أو نحو ذلـــك إلى الأسفل، إلى مسافة ياردات قليلة في البداية، ثم هناك استدارة، مما يجعل ما يتبقى من الـــوجار سرا غامضا. صرخ يانغ عند المدخل بحنق، ابتلع الصوت بسرعة بين ثنايا النفق، بينما جلـــس شن وقد انتابه الإحباط. "إنني غبـــي"، قال. "لو أنني فكّرت في الأنشوطة منذ البداية لكانت تلك الذئبة ميتة الآن. عليك أن تتوخى الحذر عندما تقاتل ذئبا"، أضاف. "وألا تقترف أي أخطاء".

خـــبط يانـــغ كي، الذي شعر بإحباط أكبر، طرف عصاه بالأرض وقال، "اللعنة، فازت الذئبة لأننا لا نملك بندقية. لو كنت قد أحضرت بندقية معي لفجرت أعلى رأسها".

- يقولون في مقر القيادة إننا نمر بحال استعداد قصوى للمعركة، ولا يسمح لأحد منا أن يطلق النار. لم تكن البندقية ستفيدنا بشيء.

- "في هـــذه الحالـــة"، قال يانغ، "لن نجني شيئا. ما رأيك في أن نشعل بعض المفرقعات النارية مزدوجة الانفجار؟".

- "مـــا الفرق بين تلك والبندقية؟". في غضون ذلك الوقت كان شن قد استرد هدوءه. "إذا أفـــزعنا الـــذئاب التي في الشمال ستفشل خطط الصيد، وسنكون أنا وأنت في ورطة. إلى جانب ذلك، فأنت لا تستطيع أن تقتل ذئبا باستخدامك مفرقعات نارية".

- "إذا؟"، قال يانغ، بدا واضحا أنه كان ساخطا. "يمكننا أن نفزعها حتى الموت، ونجعلها تخرج بفعل الدخان. إننا على بعد عشرة أميال كاملة عن الحدود، لذلك لن يسمع قطيع الذئاب شيئا. لكن إذا كنت لا تزال قلقا فما رأيك بهذه الفكرة؟ سأخلع مئزري، وبعد أن أرمي بعض المفرقعات النارية في الداخل أضع المئزر على المدخل كي أكتم الصوت. حتى أنت لن تسمع شيئا".

- ماذا لو لم تخرج الذئبة؟

- "ستخرج، ثق بـــي"، قال يانغ كي وهو يفك حزامه. "أخبرني أحد الرعاة أن الذئاب تـــرتعد فرائـــصها من إطلاق النار ومن رائحة البارود. سأرمي بثلاث مفرقعات نارية مزدوجة الانفجـــار، تحدث ستة انفجارات، وسيكون الصوت المدوي في ذلك المكان المغلق أشد قوة مما لـــو كان يحدث في الخارج. سيفزعها حتى الموت. وما دام المدخل ضيقا إلى هذا الحدّ فستختنق بفعل الدخان الكثيف. أراهن على أن كل ما نحتاج إليه فقط هو ثلاث مفرقعات لجعلها تسقط بين ذراعيك تماما. ولن يكون شيئا مفاجئا بالنسبة إليّ إذا تبعتها الجراء الوليدة كلها إلى الخارج. مكسب غير متوقع".

- "حـــسنا"، قال شن، "افعل ما تشاء. لكن علينا أن نكون مستعدين لحدوث أي شيء. ســأبحث عن فتحات أخرى في المنطقة. حتى الأرانب تعمل ثلاثة ممرات للهرب، فلا بد من أن يكون لدى الذئبة أكثر من مدخل واحد. الذئاب ماهرة، ومهما كنا أذكياء فإننا يمكن أن نعجز عن بلوغ مراميها".

اعتلى شن السرج، ودار حول المنطقة عدة مرات برفقة الكلبين، مفترضا أنه سيكون من السهولة تحديد أماكن الفتحات المعتمة وسط الثلوج. لم يعثر على شيء ضمن دائرة شعاعها مئة يـــاردة، لهذا ترجل شن عن حصانه، وقاد الحصانين إلى مكان بعيد، وربطهما هناك. بعد ذلك عـــاد إلى مدخل الوجار، ووضع عمود الأنشوطة، والمجرفة، والعصا على الأرض. كان إيرلانغ يحاول إيقاف تدفق الدماء من صدره باستخدام لسانه؛ لقد نهشت الذئبة قطعة من اللحم بحجم إصـــبعين، ولا يزال اللحم ينتفض. لم يصدر عنه أي صوت بالرغم من الألم الواضح للعيان. لم يكن الرجلان قد جلبا معهما أي مادة لدهنها على الجرح أو أي قطعة شاش، كل ما أمكنهما عملـــه أنهما بقيا يراقبان إيرلانغ وهو يستخدم طريقة العلاج التقليدية للكلاب في تعقيم الجرح، وإيقـــاف النـــــزيف، وتخفيف الألم وذلك بواسطة اللعاب. سيهتمان بأمره عندما يعودان إلى المخـــيم. بدا أن الخدوش الأخرى التي على جسد إيرلانغ سببتها عضات الذئاب أيضا، ولذلك احمرت عيناه وتوهجتا كالجمر لدى رؤيته الذئبة.

أصـــبح يانغ مستعدا الآن. وضع مئزره على كتفيه، وحمل ثلاث مفرقعات نارية مزدوجة الانفجـــار تماثل في سماكتها سماكة الرمانات اليدوية أنبوبية الشكل؛ تدلت سيجارة متقدة بين شفتيه، فأضحك منظره شن. "تبدو مثل جرذ أنفاق ياباني أكثر منك صيادا"، قال.

- "أحاول أن أكون شبيها بالناس المحليين ليس إلاّ"، أجاب يانغ، "أرتدي ملابس البرابرة. أراهن على أن هذه الذئبة غير مستعدة تماما لهجوم بالغازات".

- "حسنا"، قال. "ارمِها إلى الداخل. سنرى ما الذي قد يحصل".

أشـــعل يانـــغ فتيل إحدى المفرقعات، راقبه وهو يشتعل للحظة، وبعدها ألقى به إلى أبعد مـــسافة ممكنة في الداخل. فعل الشيء ذاته مع المفرقعة الثانية. بعد أن قذف المفرقعة الثالثة صار

يــراقب لفتــرة وجيزة فيما كانت المفرقعات تتدحرج أسفل المنحدر الحاد للنفق قبل أن يغطي المــدخل بمئزره، حدث ذلك في الوقت المناسب تماما قبل أن تسمع سلسلة من ستة انفجارات مكــتومة هزت الأرض. داخل النفق، لا بد من أن الصوت كان يصمّ الآذان، والارتجاج قوي، والدخان خانق. من غير المحتمل أن يكون هناك وجار ذئاب على السهوب قد شهد انفجارات بهــذا المقــدار من القوة. لكن لسوء الحظ لم يسمع الرجلان صيحات عواء تعبر عن التألم من الذئبة التي تقبع داخل نفقها، و لم تكن تلك أخبارا سارة.

طوى يانغ ذراعيه حول صدره ليمنع نفسه من التجمد. "حسنا، متى نقتحم الوجار؟".

– دعــنا ننتظــر بعض الوقت. سنفتح ثغرة صغيرة، وننتظر حتى يخرج بعض الدخان، ثم يمكننا أن نوسع الحفر حتى نصل إلى نهاية الوجار.

رفع شن طرفا من مئزر يانغ لكنه أعاده إلى مكانه عندما أبصر حزمة من الدخان. بعد أن رأى كيف كان يانغ يشعر بالبرد، عرض عليه أن يلف مئزره حولهما معا. لكن يانغ أبعده عنه. "استمر في تركيز انتباهك. ستخرج الذئبة في أي لحظة! إذا أرخيت حزامك ستقيد حركتك. لا تقلق بشأني، سأكون على ما يرام".

كانا لا يزالان يتحدثان عندما وثب *أصفر* وإيرلانغ على قديميهما، ونظرا إلى مكان بعيد باتجــاه الشمال الغربــي. شدت انتباههما صيحات عواء واهنة. استدار شن ويانغ على عجل فــشاهدا دخانــا أزرق اللون شاحبا يرتفع من الأرض على بعد حوالى عشرين ياردة منهما. "آه... هــا"، دمــدم شن. "توجد فتحة أخرى هناك. ابقَ هنا؛ سأذهب وألقي نظرة". التقط مجــرفته وأسرع يجري، تبعه الكلبان. تدفق الدخان خارجا من الفتحة؛ وكذلك خرجت منها ذئبة ضخمة جدا، اندفعت كأنها صاروخ موجه نحو المنطقة التي يكثر فيها القصب أسفل الجبل. اخــتفت الذئبة عن الأنظار قبل أن يتمكن شن من الإقدام على أي رد فعل. تبع إيرلانغ الذئبة نحو القصب، مخلفا وراءه حفيفا في أثناء حركته شمالا. بعد أن صعقه الذهول صاح شن: "تعالَ إلى هــنا!"، تجاهــل إيرلانغ الأمر. هرول *أصفر* مسرعا إلى حافة القصب لكنه كان يفتقر إلى الجسارة الكافية كي يقتحم المكان. بعد نباح رمزي صدر منه مرة أو مرتين، عاد أدراجه.

لــف يانــغ مئزره حول جسده، مشى حتى بلغ الفتحة الثانية حيث وقف شن. ومما أثار دهشتهما أنهما شاهدا الثقب قد حفر حديثا، إنه مخرج طوارئ مخفي عن الأنظار.

كــان يانغ يمر بثورة غضب عارمة بحيث انتفخت أوتار رقبته. "تلك الذئبة اللعينة جعلتنا نبدو غبيين!".

تنهد شن. "مهما يكن عدد ممرات الهرب التي يحفرها الأرنب فمن السهولة العثور عليها. لكن ليس هناك سبيل لمعرفة عدد أنفاق الهرب التي لدى هذه الذئبة الماكرة. هذه الفتحة جرى التخطيط لها بشكل بارع. انظر، هناك منخفض حاد وراء الفتحة، ومن هناك يتجه مباشرة إلى

القصب. في وسع الذئبة الوصول إلى منطقة القصب في وقت قصير جدا. هذه الفتحة الفريدة أكثر فائدة من ثمانية أو عشرة مخارج للهرب تشقها الأرانب. يقول باو شنغوي إن الذئاب ماهرة في القتال القريب، والقتال الليلي، وغارات بعيدة المدى، وحرب العصابات؛ والقتال السيار، وفي جميع الأمور. في المرة المقبلة حينما أراه، يجب أن أقول له إنها ليست قاصرة في حرب الأنفاق والتمويه أيضا، ويمكنها أن تجمع بين الأمرين. الحرب هي فن الخداع، والذئاب أفضل المحاربين في العالم".

لكن غضب يانغ لم يتلاشَ. "تعالج الأفلام السينمائية مرارا وتكرارا حرب الأنفاق والتمويه التي حدثت في شمال الصين، كما لو أن ذلك هو المكان الذي ابتكرت فيه مثل تلك الأساليب. حسنا، إليك بعض المعلومات: الذئاب هي التي ابتكرتها، قبل حوالى عشرة آلاف سنة ماضية".

سارا عائدين إلى فتحة الوجار، حيث برزت نفثات كثيفة من الدخان ترافقها رائحة البارود.

دسّ يانغ رأسه داخل الفتحة وجال ببصره. "لا بد من أن تزحف الجراء فتخرج بعد حدوث انفجار مثل ذاك. هل تعتقد أن الدخان قد قتلها؟".

– كنت أتساءل عن ذلك بنفسي. إذا كانت الجراء ميتة، ترى كيف سنتصرف إزاء ذلك؟".

لم يفعل يانغ شيئا سوى أن تنهد. "لو أن بايار هنا لكان بإمكانه الزحف إلى الداخل".

أطلق شن تنهيدة كأنها الصدى. "لم أتمكن من المجازفة باصطحابه معي إلى هنا. هل يمكن لأي إنسان أن يضمن عدم وجود ذئاب كبيرة أخرى هناك؟ هذه الأمور ليست سهلة أبدا على المنغوليين أنفسهم. غاسماي لديها ولد واحد وحسب، ومع هذا فإنها لم تمنعه من الإمساك بذيل ذئب أو أن يزحف إلى داخل وجار للذئاب. لا بد من أن المثل الصيني القديم القائل: "لا تقاتل الذئاب إذا لم تكن مستعدا للتضحية بولدك" قد جاء من السهوب. لا تنسَ، فالمنغوليون قد حكموا الصين مدة قرن تقريبا. كنت أتصور عادة أن ذلك القول يعني استخدام ابنك كطعم للذئاب، صدق أو لا تصدق. الآن أدركت أن ذلك يعني السماح لابنك بالمجازفة بالزحف إلى داخل وجار للذئاب لاقتناص جرائها. يستطيع الولد الصغير فقط أن يتعامل مع نفق بمثل هذا العمق وهذه الدرجة من الضيق. لو كانت النساء المنغوليات قد ربين أطفالهن بالطريقة التي تتبعها نساء الهان، فلربما تلاشى عنصرهن منذ زمن بعيد. لكنهن لا يفعلن ذلك، لذلك ينمو الأولاد الصغار من المنغوليين أشداء ولا يهابون شيئا".

اتجه شن إلى حصانه، أنزل حقيبة القنب، وعاد بها إلى فتحة الوجار. اكتشف *أصفر* الحقيبة وركض صوبها، كان ذيله يهتز وهو يلهث بجشع. تلك هي الحقيبة التي وضع فيها شن طعام الكلبين. فتحها، أخرج قطعة صغيرة من بين قطعتين من اللحم، ورمى بها إلى أصفر.

احتفظ بالقطعة الأخرى لإيرلانغ. لكن الكلب لم يرجع، وشعر شن بالقلق. في الشتاء والربيع، تـــصبح منطقة القصب ميدانا تسرح فيه الذئاب، وإذا كانت هذه الذئبة قد أغرت إيرلانغ حتى أوصلته إلى قطيع من الذئاب فربما يعني ذلك المتاعب بالنسبة إليه. كان ذلك الكلب يمثل الركن الأساسي قدر تعلق الأمر بالمحافظة على سلامة الخراف. لم تجرِ الأمور على نحو جيد خلال هذه الرحلة، وستكون خسارة جنرال الكلاب أسوأ شيء يمكن تخيله.

اهتز ذيل *أصفر* بشكل محموم وهو يأكل. كان حيوانا ذكيا، جسورا ولا يهاب شيئا حين يطارد الأرانب، والثعالب، والغزلان. ولكن فيما يتعلق بالذئاب فهو يكتفي بتقييم الموقف. إذا كانـــت هناك كلاب أكثر من الذئاب، فهو يهاجم. لكن من دون توافر مساندة قوية، لم يكن يظهـــر أي اهـــتمام لاستعراض مهاراته القتالية. قبل لحظات ليس إلاّ، توقف مترددا في تقديم المساعدة لإيرلانغ عندما سنحت له فرصة للقتال، لكنه خاف من ملاحقة قطيع للذئاب يختفي في القصب. إنه كلب حماية من الطراز الأول، وذلك هو السبب في بقائه على قيد الحياة. كان شـــن مغرما *أصفر*، الذي بدا وكأنه يتصف بطباع البشر تماما، ولم يكن يلومه على افتقاره إلى الإخـــلاص. إلا أنه منذ بداية الربيع ازداد إعجابا بإيرلانغ، الذي تميز بطبيعته الوحشية بشكل مكـــثف، ولم تظهـــر عليه أي طبائع للبشر على الإطلاق. نهض شن واستطلع بمنظاره منطقة القصب في الجهة الشمالية الغربية، على أمل أن يلمح الكلب قادما.

لكـــن لم يكن هناك من أثر له. مدّ شن يده داخل معطفه، وأخرج حقيبة صغيرة من جلد الخراف. كانت عبارة عن جراب طعام غير منفذ للماء، مقاوم للدهون أعطته إياه غاسماي. بقي الجـــراب دافئا تحت معطفه ولم يلوث ملابسه. تناول بعض قطع الخبز المكتنـــزة، وبعض اللحم الغـــني بالـــدهن، وقطعتين كبيرتين من الجبن. أعطى نصف الطعام ليانغ، وفيما كان الرجلان يأكلان حاولا صياغة خطة جديدة.

فيما كان يانغ يقطع شيئا من الخبز ويضعه في فمه، قال، "هذا الوجار مليء بالخدع والمـــراوغات، إنه متاهة حقا. الذئاب دائما تحتفظ بجرائها في أماكن لا يمكن أن تخطر على بال. واجهنا الكثير من المتاعب في العثور على هذا الوجار، ولست على استعداد للتراجع، ليس بعد. ما دمنا لم نجعلها تخرج بوساطة الدخان، لنرى ما الذي قد يحصل لو جربنا الماء. إذا أحـــضرنا تسع أو عشر عربات محملة بالمياه، يمكننا أن نغرق تلك الجراء الصغيرة اللعينة عن بكرة أبيها".

- "في هـــذه التربة الرملية؟"، رد شن باستهجان. "تستطيع أن تجلب خزانا كاملا وتفرغه هنا، وستتسرب المياه إلى جوف الأرض".

- "وجـــدتها!"، هتف يانغ بعد لحظة. "الذئبة الكبيرة ولت، إذا لماذا لا ندع *أصفر* يدخل إلى هناك، ويحضر الجراء إلى الخارج بفمه، واحدا بعد الآخر؟".

هذه المرة لم يجد شن بُدا من الضحك. "ذلك الكلب اكتسب مسبقا مزايا بشرية، وخسر نصف طبيعته الوحشية. لديه حاسة شم حادة بحيث يتمكن من شم رائحة أي ذئب قريب. إذا كــان أي كلــب يــستطيع أن يخرج جراء الذئاب كما تقول، عندئذ فكل ما علينا عمله هو الانــتظار حتى تغادر الأم وجارها، ونرسل الكلاب إلى الداخل. ذلك طبعا سيقضي على آخر ذئب في السهوب. هل تتصور أن الرعاة أغبياء إلى هذه الدرجة؟".

– "يمكننا أن نحاول"، قال يانغ متحديا. "ما الذي سنخسره؟". استدعى *أصفر*، وأخذه إلى مدخل الوجار، حيث كانت رائحة البارود قد تلاشت تقريبا. أشار إلى النفق وصاح، "اذهب وأخــرجها!". عــرف الكلب ما يريده يانغ بالضبط، فما كان منه إلا أن تراجع بعيدا بخوف. وضع يانغ الكلب بين رجليه، وضغط ركبتيه على بطنه، أمسك بقائمتيه الأماميتين وقاده عائدا بــه إلى المــدخل. طوى *أصفر* ذيله بين قائمتيه، وأنّ بشكل خافت فيما كان يكافح ليخلص نفسه، أرسل نظرة توسل إلى شن زن، مستجديا منه أن يعمل شيئا لإلغاء الأمر.

– "هــل رأيت ما أعنيه؟"، قال شن. "إنك تضيع وقتك. التقدم سيكون صعبا؛ والتراجع أصعب. الكلاب قد تراجعت كثيرا عن أصولها الذئبية. في أيامنا هذه نرى الكلاب ضعيفة، أو كسولة، أو غبية. تماما مثل البشر".

ترك يانغ الكلب *أصفر* يذهب وقال: "من المؤسف أن إيرلانغ ليس هنا. كان سيدخل إلى الوجار".

– بالطبع، لكنه سيقتل كل جرو يعثر عليه. أريد جروا على قيد الحياة.

– أعرف ما تريده. ذلك الكلب يريد قتل كل ذئب تقع عليه عيناه.

بعد أن أنهى اللحم الذي أعطي له، ذهب *أصفر* في جولة تفقدية. كان يشم أرجاء المكان، ثم رفع قائمته، وبال لكي يترك علامته المميزة على الأرض، تلك العلامة التي بقيت تسيل بعيدا أكثر فأكثر. أما إيرلانغ، ففي تلك الأثناء لم يكن قد رجع بعد، وجلس شن ويانغ بجوار مدخل الــوجار ينتظران ويراقبان، لم يكونا يعرفان ما الذي سيفعلانه. لم تظهر أي علامات للحياة في الــنفق، إلا أن الجراء لا يمكن أن تكون قد ماتت جميعها. على الأقل سينجو واحد أو اثنان من الدخان، ولا بد لهذه الجراء الناجية من أن تحاول الخروج. لكن مرت نصف ساعة أخرى، و لم يخــرج أي جــرو. إما أن تكون جراء الذئاب قد فارقت الحياة، مثلما خمن الرجلان، أو أنه لم يكن هناك أي جرو منذ البداية.

* * *

في الــوقت الذي كانا يستعدان فيه للرجوع إلى المخيم، سمعا فجأة الكلب *أصفر* ينبح – تــارة بصوت مرتفع، وأخرى بصوت منخفض – في مكان ما خلف التل في الناحية الشمالية، بدا صوته وكأنه كلب صيد عثر على فريسته. وثبا على صهوتي حصانيهما وجريا بأقصى سرعة

ممكـــنة إلى أعلى التل؛ لم يكن بإمكاهما رؤية الكلب لكن صوته كان لا يزال مسموعا، لذلك فقـــد تتـــبعا مـــصدر الـــصوت حتى وصلا إلى أرض صخرية وعرة جعلت من الصعوبة على حـــصانيهما مـــتابعة الـــسير، واضطرا إلى أن يكبحا سيري عنانيهما. امتدت أخاديد متشابكة أمامهمـــا علـــى أرض تناثـــرت فوقها الأعشاب البرية والصخور. تغطى السطح الثلجي بآثار حيوانات - أرانب، وثعالب، وذئاب - جميعها كانت قد مرت على تلك البقعة من وقت إلى آخـــر. كانت هناك وفرة من الأعشاب التي يصل ارتفاعها إلى مستوى الخصر، نباتات العليق، وغيرهـــا من الشجيرات الصغيرة التي تملأ الفراغات بين الصخور المتشققة، كلها جافة وذابلة، توحي بملامح مشهد مقفر يكاد يشبه مقبرة مهجورة في الصين. بقي الراكبان متشبثين بسيري العنانين بقوة فيما كان الحصانان ينـــزلقان ويتعثران على أرض وعرة بشكل خطير. لم يكن في وسعهما رؤية أي أثر لبقرة، أو خروف، أو حصان أبدا؛ لم يكن شن ولا يانغ قد وصلا من قبل إلى هذا المكان أبدا.

أصبحت أصوات نباح *أصفر* أكثر قربا، لكنه كان لا يزال غير مرئي، "مع كل الآثار التي هـــنا"، قـــال شن، "لن يفاجئني إذا كان قد أمسك ثعلبا. لنسرع قليلا. على الأقل لن تذهب الرحلة سدى".

أخـــيرا، وبعـــد تفـــادي نباتات العليق، وصلا إلى قاع أحد الوديان، حالما استدارا حول المنعطف، وجدا *أصفر* هناك، وذهلا مما شاهداه. كان الكلب منشغلا بمهاجمة مدخل وجار آخر أكـــبر، وأشد ظلاما، بينما انتصب ذيله وهو يهتز في الهواء. كان الوادي موحشا، ويكاد المرء يـــشعر بوجود الذئاب. فيما هبت ريح باردة عبر المكان، أحس شن بجلده مخدرا. تساءل هل قادهما خطواهما العاثرة إلى فخ لقطيع الذئاب، وتخيل عيونا متوحشة تتوهج غضبا كانت تحفر أخاديد في داخله من أماكنها التي تختبئ فيها، وانتصبت شعيرات جسده.

تـــرجل الـــرجلان، ربطا الحصانين، وركضا إلى مدخل الوجار، وأسلحتهما في أيديهما. كان ارتفاع الفتحة التي تواجه الجنوب ثلاث أقدام على الأقل وعرضها قدمين تقريبا. لم يشاهد شن قط فتحة تماثلها في الحجم، وهي لا تشبه حتى إحدى تلك الفتحات التي ترتبط بالأنفاق في زمـــن الحـــرب التي رآها عندما كان يعمل في مزرعة تابعة لمدرسة ثانوية في مقاطعة هيبـــي. كانت الفتحة مخفية جيدا عن الأنظار داخل أخدود ضيق، ومحمية بأعشاب كأنها الإبر من فوق، وبـــأرض صـــخرية من تحت، حيث بالإمكان رؤيتها فقط من مكان قريب جدا. أحس *أصفر* بالابتهاج لرؤيتهما، فصار يقفز ويجري حول شن، وكأنه أراد منه مكافأة على اكتشافه. "أعتقد أننا وجدنا ما نبحث عنه"، قال شن. "من الطريقة التي يتباهى بها *أصفر* ويجري هنا وهناك، ربما يكون حقا قد اكتشف بعض الجراء هنا".

- أعتقد أنك على حق. يبدو هذا وجارا حقيقيا للذئاب، إنه موحش.

- "وهناك رائحة قوية مميزة للذئاب"، قال شن. "الجراء موجودة هنا، إنني أعرف ذلك!".

انحنى شن ليتفحص المجاز الضيق الذي أمام الفتحة، وهو من السمات المميزة لأوجار الذئاب، حيث تم تشييده بزحزحة الصخور المستخرجة من عملية الحفر، وكلما كانت فتحة الوجار أكبر كان المجاز أكبر أيضا. هذا المجاز كان بحجم طاولتين مدرسيتين توضعان جنبا إلى جنب. لم يكن مغطى بالثلج، ولكن كان قد انتشر عليه الكثير من أثار أقدام الذئاب وكِسر من العظام. خفق قلب شن بسرعة؛ هذا ما كان يبحث عنه. صاح للكلب *أصفر* وجعله يقف حارسا على المدخل. بعد ذلك، انحنى ويانغ ليتفحصا المجاز، وفي أثناء ذلك داس الكلب على كل أثار الحيوانات، ولكن كان في وسع الرجال تمييز آثار اثنين أو ثلاثة من الذئاب الكبيرة، وخمسة أو ستة من الذئاب الصغيرة. بدت آثار أقدام جراء الذئاب بحجم ثمار الإجاص، صغيرة ودقيقة، ولطيفة المنظر. كانت واضحة المعالم بشكل جيد بحيث ربما لعبت الجراء هناك قبل لحظات ليس إلاّ، ثم ركضت إلى الداخل عندما سمعت نباح الكلب؛ بدا المجاز ذاته كما لو أن الأم شيدته ليكون نوعا من الأرض المهيأة للعب. تناثرت قطع متكسرة من عظام الحملان، ونتف من الجلود هنا وهناك، مع وجود آثار قضم على العظام الرقيقة تركتها أسنان الجراء. كان بالإمكان أيضا رؤية أكوام صغيرة من فضلات الجراء على طول المجاز، بدت ضئيلة مثل عيدان الطعام وسوداء زيتية اللون، وكأنها حبوب دواء صينية محلاة بالعسل.

خبط شن على ركبته. "الجراء التي كنت أبحث عنها موجودة هناك"، قال. "إن الذئبة الأم تلك جعلتنا نبدو كمغفلين".

أدرك يانغ أيضا ما الذي فعلته الذئبة، وسحق المجاز بقدميه. "إنك على حق. هذا هو المكان الذي هربت إليه، وعندما اكتشفت وجودنا على الجبل سلكت منعطفا آخر وخدعتنا بحيث كنا نبحث في نفق فارغ، وبعدها جعلتنا نعتقد أن ذلك هو الوجار الحقيقي، عندما سحبت الكلب إلى القتال، مثل أي أم أخرى تحمي صغارها. أنت أيتها الذئبة اللعينة، تغلبت علينا في هذه الجولة".

فكّر شن مجدداً في ما جرى وقال: "كانت لدي شكوك عندما غيرت اتجاهها، لكنها سرعان ما جعلتني أصدقها. تلك ذئبة تعرف كيف تتكيف مع الموقف. لو لم تكن قد رميت تلك المفرقعات الثلاث هناك لبقيت تشاغلنا حتى هبوط الليل، ولبقينا ندور في حلقة مفرغة".

- كنا محظوظين لأن لدينا كلبين جيدين. لولاهما لتسللنا عائدين خلسة إلى المخيم صفر اليدين.

- "لسنا في وضع أفضل كثيرا الآن"، قال شن. "لقد شغلتنا الذئبة هذه معظم النهار وجعلتنا نضيع ثلاث مفرقعات سدى. هذا الوجار يمتد إلى الأسفل نحو جوف التل، إنه أعمق من الوجار الأول، وفيه انحناءات ومنعطفات أكثر".

– "ليس لدينا الكثير من الوقت"، قال يانغ فيما كان يحدّق إلى الفتحة، "وليس لدينا أي قنابل أخرى. أعتقد أن هذا يكفينا اليوم. ربما ينبغي علينا تفحص المنطقة لنرى إذا كانت هناك أي فتحات أخرى، وأن نغلق أي فتحة نجدها. بعدها نسأل غدا بعض الرعاة عما ينبغي لنا فعله بعد الآن، وخصوصا بابا، الذي دائما تكون أفكاره هي الأفضل".

بمـــا أن شن زن لم يكن راضيا عن الطريقة التي آلت إليها الأمور، فقد قال: "هناك شيء يمكننا القيام به. هذه فتحة كبيرة، ربما هي بحجم ذلك النفق في هيبـــي، الذي كنا قادرين على الزحف في داخله. لم لا نفعل الشيء ذاته؟ على كل حال، إيرلانغ هناك يتعامل مع الذئبة الأم، وليس من المحتمل أن يوجد ذئب كبير في الداخل. إذا ربطت حزامك حول قدمي وأنـــزلتني إلى الأسفل، من يدري، ربما نعثر على جرائنا. وحتى إن لم نعثر عليها، ففي وسعي تكوين فكرة عن طريقة تصميم الوجار".

هـــز يانـــغ كـــي رأسه. "ذلك انتحار. ما الذي قد يحدث إذا كان هناك ذئب آخر في الـــداخل؟ لقد خدعتني الذئبة بما فيه الكفاية ليوم واحد. إلى أي مدى أنت واثق من أن هذا هو وجارها؟ ماذا لو كان وجارا لذئب آخر؟".

تفجرت الرغبة التي كبتها شن في نفسه لأكثر من سنتين على حين غرة طافية إلى السطح فأغرقت مخاوفه. قال وهو يطبق على أسنانه: "إذا كان فتى منغولي يمتلك الشجاعة لأن يزحف إلى داخل وجار للذئاب، وليس لدينا نحن مثل تلك الشجاعة، فما هو موقفنا؟ سأدخل، وانتهى الأمـــر. أحتاج منك فقط إلى أن تساعدني. سآخذ معي مصباحي الكاشف ومجرفتي، في حال وجود ذئب كبير هناك".

– إذا كنت مصمما على الدخول، دعني أدخل أولا. إنني أقوى منك، وأنت نحيف جدا.

– إن كوني نحيفا يعطيني ميزة أفضل. إذا كان النفق ضيقا، يمكن لك أن تنحشر فيه. إذا، لا مزيد من النقاش. البدين يبقى في الخلف.

بعـــد أن خلع شن مئزره، أعطاه يانغ على مضض المصباح الكاشف، والمجرفة، وحقيبته. ربط حزام شن منغولي الصنع، الذي يبلغ طوله عدة أقدام، حول قدم شن، وبعدها ربط حزامه الخـــاص مـــع حـــزام شن. قبل أن يتجه إلى الداخل بالضبط، قال شن: "إذا كنت أخاف من الدخول إلى وجار للذئاب، فأنا لا أستحق جروا من جرائها!".

– "إذا وجـــدت ذئـــبا كبيرا هناك"، قال يانغ مذكرا، "لا تنسَ أن تصرخ وتشد الحزام بقـــوة"، أضاء شن المصباح، جثا على يديه وركبتيه، وانـــزلق إلى أسفل المنحدر الذي ينخفض إلى حوالى أربعين درجة داخل الممر. كانت رائحة الذئاب ثقيلة الوطأة في منخريه، وكادت أن تخـــنقه. لم يجرؤ على التنفس بعمق، تحرك ببطء عبر جدران زلقة التصقت على صخورها الناتئة جـــدائل شعر بين حين وآخر، على أرض تغطيها آثار أقدام ذئاب صغيرة. يمكنني أن أضع يدي

على الجراء بعد أقدام قليلة، فكّر وهو يشعر بالسعادة، حالما أصبح داخل النفق تماما؛ كان يانغ كـــي يمدّ إليه الحزام شيئا فشيئا، وعلى الدوام يسأل في ما إذا كان شن يريد الخروج من النفق، وشن يرد على ذلك بإبلاغ يانغ أن يستمر في عمله من خلال تقدمه ببطء معتمدا على ساعديه.

واجـــه شن المنعطف التدريجي الأول الذي اتخذه الممر عندما صار على بعد خمس أو ست أقدام داخل الوجار، حيث لم يعد الضوء المتسلل من الخارج يصل إلى هناك. كان في وسع شن الرؤية الآن فقط لأن مساحة كبيرة من النفق أضيئت بنور مصباحه الكاشف، وفيما كان يجتاز المـــنعطف، أصبح النفق مستويا شيئا فشيئا، كما لو أن الجدران قد ضاقت فجأة والسقف قد انخفـــض. كـــان في وســـعه التحرك إلى الأمام فقط وأن يجعل رأسه منحنيا وذراعيه ملتصقتين بجسده. فيما هو يزحف قدما، كان يتفحص الجدران، التي بدت ملساء أكثر من تلك التي بعد فـــتحة الوجار مباشرة، وأكثر تماسكا، كما لو أن مجرفة استخدمت في حفرها. لم يتساقط أي تراب حين كانت كتفه تحتك بالجدران أو عندما يرطم السقف بمجرفته، الأمر الذي بدد مخاوفه من حدوث انهيار. ساوره شك في قدرة ذئب واحد على أن يحفر مثل هذا النفق متين الجدران بمخالـــبه، بالتأكـــيد لا يمكـــنه أن يصل إلى هذا العمق. لقد جرى حك جميع الحافات الحادة فأضحت ملساء، كأنها الحصى، إذا، لا بد من أن يكون هذا الوجار مستخدما من قبل أعداد لا حـــصر لها من الذئاب - ذكور، وإناث، وحديثة الولادة - لمدة قرن من الزمن أو أكثر. دخل إلى عالم الذئاب، وكانت رائحة ذلك العالم نافذة.

كلما زحف مسافة أبعد في الداخل تفاقم شعوره بالرعب. على الأرض التي تحته، كانت هناك آثار أقدام الذئاب الكبيرة تغطس تحت مستوى آثار أقدام الجراء؛ هل ستكفي مجرفته لأن تتيح له البقاء على قيد الحياة إذا واجه حيوانا ضخما؟ كان النفق ضيقا إلى درجة أنه ربما يصعب حـــتى على ذئبة أن تستخدم أنيابها لتحقق التأثير المطلوب، ولكن يمكن لمخالبها أن تؤدي ذلك بـــسهولة. ربمـــا مـــزقته إلى نتف. لماذا لم يأخذ ذلك بعين الاعتبار؟ بدأ العرق يتصبب. اعتراه التـــردد. كـــل ما عليه عمله هو أن يشد ساقه بعنف، وسيسحبه يانغ خارج هذا المكان. لكن أقنعـــته هواجس من أن هناك ثمانية أو تسعة جراء، وربما أكثر، تنتظر هناك أمامه، وينبغي له ألاّ يتوقف الآن، لذلك أطبق على أسنانه، وأرخى الساق المربوطة إلى الخارج، وتابع الزحف بعناد. في ذلـــك الوقت احتضنته الجدران بشدة، وشعر بأنه سارق مقابر أكثر منه بصياد. شحّ الهواء، صـــارت رائحة الذئاب أقوى، وراودته فكرة أنه ربما تعرض للموت اختناقا. غالبا ما كان يعثر خـــلال عمليات التنقيب عن الآثار القديمة على بقايا سارقي مقابر انحشرت أجسادهم تماما في مثل هذه الممرات الضيقة.

لاحت فتحة أمامه. كانت كبيرة لدرجة أنها تكفي لذئب كبير أن يعبر من خلالها، لكنها صـــغيرة جدا بالنسبة إليه، من الواضح أنها تشكل وسيلة دفاع للذئبة ضد مفترسها الوحيد على

السهوب. أدرك شن أنها صنعتها لغرض حماية بطن الجراء التي ولدتها ضد المياه والدخان؛ كذلك نجحت في إيقافه. ولكن لم يكن هناك مجال للاستسلام في داخله. حاول أن يشق أحد الجدران بمجرفته، لكن لم يتطلب ذلك منه وقتا طويلا ليدرك كم كانت الذئبة ذكية حين اختارت هذا الموقع: كانت الجدران عبارة عن صخرة كبيرة تتخللها ثغرات كثيرة، مما جعلها ثابتة مع أنها لا تخلو من الخطر. بدأ يعاني من متاعب في التنفس، وكانت قواه تنحسر رويدا رويدا. حتى ولو كان قادرا على المضي بخطى وئيدة، فإن انهيار النفق لا يزال احتمالا غير بعيد، وسينتهي به الأمر لأن يقع في فخ الذئب.

تنفس شن بملء فمه هواء حمل من رائحة الذئاب أكثر مما حمله من الأوكسجين، وعلم أنه مُنّي بالهزيمة، وأن ليس ثمة أي جرو ذئاب سيحصل عليه اليوم. لكنه لم يكن على استعداد تام للتراجع بعد؛ أراد أن يلقي نظرة عن قرب على تركيب الفتحة، على أمل أن تقع عيناه على الأقل على جرو أو اثنين. استثمر النزر القليل المتبقي من قوته لتحقيق هذه الرغبة الأخيرة: ألصق رأسه وذراعه اليمنى على الفتحة الضيقة، ووجه ضوء مصباحه الكاشف إلى الداخل. ما رآه كان شيئا مخيبا للأمل: في المسافة التي تلي الفتحة مباشرة، كان الممر يستمر بالامتداد إلى الأعلى حتى يتلاشى عن الأنظار. هناك في موضع ما رأى بقعة أكثر جفافا، أكثر دفئا خصصتها الذئبة لرعاية جرائها وحمايتها من الفيضان. كانت قد أجهدت نفسها كثيرا في التفكير من أجل ابتكار وجار معقد لكي تربي فيه نسلها، وأصيب شن بالذهول وهو يرى في ذلك عائقا منيعا يقف في طريقه.

مدّ رأسه كي يرى ما إذا كان يستطيع أن يسمع أي شيء. ما من صوت: إما أن تكون الجراء نائمة أو أن قابلية الاختباء من الخطر قد تطورت لديها، فهي تبقى ساكنة تماما إزاء أي صوت غير مألوف. فجأة شعر شن بالدوار، استجمع قواه ليجذب ساقه المربوطة. كان يانغ يكابد القلق والتلهف في الوقت نفسه، سحب بكل ما أوتي من قوة حتى استطاع أن يخرج من فتحة الوجار. جلس شن بوهن، وقد تغطى وجهه بالتراب عند فتحة الوجار وازدرد جرعات كبيرة من الهواء. "لا فائدة"، قال ليانغ. "إنه كهف محفوف بالشر يمتد إلى ما لا نهاية". بدت على يانغ نظرة خيبة أمل وهو يلف مئزر شن حول كتفيه.

بعد أن أخذ شن قسطا من الراحة، صارا يقلبان طرفيهما معا في أرجاء المنطقة إلى مسافة بضع ياردات واستمر ذلك مدة نصف ساعة، لم يجدا إلا مدخلا كبيرا واحدا، أغلقاه بالصخور. بعد أن قاما بإغلاق كلا الفتحتين، ملآ الشقوق التي بين الصخور بالوحل وأقحماه داخلها بقوة. قبل الرجوع إلى المخيم تماما، غرس شن، بينما هو لا يزال حانقا من فشله، الطرف المعدني لمجرفته في التراب الذي يحيط بالمدخل الرئيسي كعلامة يعطيها للذئبة: سيعودان في اليوم التالي برفقة المزيد من الرجال، مع وسائل أكثر فاعلية.

كانـــت الشمس تسلك طريقها إلى الغروب، و لم يكن إيرلانغ قد عاد بعد. ربما لم تكن شجاعة الكلب وضراوته كافيتين للتعامل مع ذئبة بهذا القدر من الشر والدهاء، وكان الرجلان قلقـــين ومنـــشغلين كثيرا بشأنه. لكن لم يعد في وسعهما الانتظار، فاضطرا إلى الرجوع برفقة *أصـــفر*. قـــبل أن يصلا تماما إلى المخيم، حيث كانت السماء فاحمة السواد، أعطى شن أدواته ليانغ، وطلب منه أن يصطحب الكلب معه ويقول لغاو جيانـــزونغ أن كل شيء سار على ما يرام. بعدها شدّ سير عنان حصانه لكي يستدير، ومن ثم انطلق متوجها إلى خيمة بلغي.

10

كان الرجل العجوز ينفث دخان غليونه، و لم يفه بكلمة فيما هو يصغي لما سرده شن زن عــن مغامرهما. بعد ذلك وجه إليه كلمات لوم مصحوبة بالغضب، تركز اللوم بالأساس على استخدامهما للمفرقعات النارية، غير مدركين مدى شدهّا وتأثيرها. وبعد أن نقر غطاء تجويف غليونه، ومسّد لحيته قال: "كان ذلك عملا قاسيا، قاسيا بشكل لا يمكن أن يغتفر. لقد طردتماها مــن وجارها. أنتما الصينيان، بمفرقعاتكما النارية القوية، لم تمنحاها حتى وقتا لأن تسد مدخل الــوجار بالتراب. الذئاب المنغولية تخاف البارود أكثر من أي شيء آخر. إذا استخدمتما تلك الأشــياء في وجــار فيه بطن من الجراء الوليدة، فإنها ستحاول الهرب، وستمسكان بها جميعها، عندئذ لن يمضي وقت طويل حتى تختفي كل الذئاب الموجودة في السهوب. نحن نقتل الذئاب، لكــن ليس بهذه الصورة. لو فعلنا ذلك سنثير غضب تينغر، وتلك ستكون نهاية السهوب. لا تفعلا ذلك أبدا مرة أخرى، ولا تخبرا رعاة الأحصنة أو أي شخص آخر بما وجدتماه. لا أريدهم أن يتعلموا مثل هذه الأشياء الفظيعة منكما".

لم يكن شن مستعدا لسماع كلمات جارحة كالسياط، لكنه أدرك العواقب التي كان من المحــتمل أن تــنجم من وراء عملهما. مع الاستخدام واسع النطاق للمفرقعات النارية ستؤدي مــوجات الاهتزاز والدخان الناتج عن الانفجارات إلى تقويض حتى أكثر التحصينات متانة في الوجار. "إننا لا نستخدم الألعاب النارية في احتفالاتنا هنا"، تابع بلغي كلامه. "المهاجرون وأنتم الطــلاب جلبــتموها معكم. لدينا سيطرة صارمة على الذخيرة، لكننا لم نكن مستعدين لتدفق المفــرقعات الــنارية، الــتي لم تفرض عليها أي قيود. إن إدخال المفرقعات النارية، والبارود، ومسحوق الفلفل، والغاز السام على نطاق واسع يهدد بقاء الذئاب، التي عاشت وهيمنت على الــسهوب مــنذ آلاف السنين. في هذا المكان من الأرض، حيث نمط حياة البداوة هو المعيار الــسائد، ليس هناك شيء أكثر دمارا من البارود. وحالما يتعرض رمز الشعب إلى الدمار، فإن روحهم ستموت. يمكن للسهوب التي يعتمد عليها وجودنا بحد ذاته أن تتلاشى".

مسح شن حاجبيه المغطيين بالعرق، وأرعبه ما سمع. "لا تغضب، بابا. أقسم لك أننا لن نستخدم المتفجرات مرة أخرى مطلقا في وجار للذئاب، وأعدك أننا لن نعلم أي شخص آخــر طريقة صنعنا لها. على أرض السهوب، الكلمة التي يعطيها الرجل تساوي كل شيء بالنسبة إليه".

تــراخت عضلات وجه الرجل العجوز. "أعلم أنك تقاتل الذئاب لحماية قطيع مواشيك والأحـــصنة"، قال لشن، "لكن حماية السهوب أكثر أهمية من حماية المواشي. يبدو أن الشباب ورعاة الأحصنة يتنافسون لرؤية من منهم يستطيع أن يقتل أكبر عدد ممكن من الذئاب. إنهم لا يفهمـــون خطورة ما يقومون به. كل ما تسمعه في الراديو من كلام عن مدى بطولة من يقتل الـــذئاب. لـــن يـــؤدي ذلك إلاّ إلى أن تصبح الأمور أسوأ مما هي عليه بالنسبة إلينا من الآن فصاعدا".

قدّمت غاسماي إلى شن طبقا من عصائبية الضأن[1]، ورسمت إشارة خاصة تعلمه بوساطتها من أنها قد وضعت بعض براعم الكراث المخللة أمامه. جئت إلى جانب الموقد، وناولت الرجل العجـــوز طـــبقا من العصائبية. "الناس في هذه الأيام كثيرا ما يولون أذنا صماء لما يقوله بابا"، قالت. "إنه يخبرهم ألاّ يقتلوا الذئاب، لكنه بعد ذلك يقتلها بنفسه، وذلك هو الذي يمنعهم من الاهتمام بما يقوله".

ابتـــسم الرجل العجوز بمرارة، وتناول الطبق من يد زوجة ابنه. "ماذا عنك؟"، قال سائلا شن. "هل تولي اهتماما لما أقول؟".

- نعـــم، صدقني. من دون الذئاب ستموت السهوب. هناك بلد بعيد، بعيد جدا يقع في اتجاه الجنوب الشرقي، يسمى إستراليا. فيه سهوب شاسعة أيضا، ولكن لا تعيش فيها أي ذئاب أو أرانب أبدا. في ما بعد أدخل شخص ما الأرانب إلى البلاد، وما دامت الذئاب غير موجودة، فقد توالدت الأرانب بشكل جنوني، وملأت المناطق الريفية بجحورها، وانتشرت الحفر في كل مكـــان؛ والـــتهمت أغلب محاصيل الخضار؛ وتسبّبت في خسائر هائلة للمزارعين الذين يربون المواشي. جرّبت الحكومة كل شيء استطاعت أن تفكر فيه لتعالج المشكلة، لكن لا شيء كان يجدي نفعا. أخيرا بدأوا يغطون الأرض بشبكات من الأسلاك الفولاذية التي أتاحت للأعشاب فرصة أن تنمو لكنها منعت الأرانب من الخروج من الحفر، وذلك على أمل أن تتضور الأرانب جـــوعا في جحورها تحت الأرض. لكن الخطة فشلت أيضا. كانت السهوب شاسعة جدا، و لم تتمكن الحكومة أن تنشر ما يكفي من شبكات الأسلاك لكي تغطيها كلها. كنت أتصور عادة أن الـــسهوب المنغولية لا بد من أن تكون خصبة إلى درجة بحيث تتوافر فيها أعداد كبيرة من الأرانب. لكنني بعد أن أتيت إلى أولونبولاغ، وجدت أن أعداد الأرانب كانت في الواقع قليلة تماما. إنني أعتبر ذلك إنجازا بالغ الأهمية أسهمت الذئاب في تحقيقه. وعندما أرعى ماشيتي فغالبا مـــا أراها تمسك بالأرانب، وإذا كان هناك ذئبان يعملان بالتنسيق مع بعضهما بعضا، فإنهما لا يخطئان هدفهما مطلقا.

---

(1) عصائبية: ضرب من المعكرونة المسطحة على شكل عصائب أو شرائط.

بدا الرجل العجوز مستغرقا في أفكاره الخاصة، لكن نظرته ازدادت رقة وهو يتمتم، "إستراليا، إستراليا، إستراليا. أحضر معك خارطة غدا. أريد أن أرى هذا المكان بنفسي. في المرة المقبلة عندما يقول أي شخص إنه يريد أن يمحوا الذئاب عن بكرة أبيها سأخبره عن إستراليا. الأرانب تشكل كارثة. إنها تنجب عدة بطون كل سنة، أكثر من الذئاب بكثير. عندما يحلّ فصل الشتاء تغلق حيوانات المرموط وجرذان الحقول جحورها وتمر بحالة سبات، لكن الأرانب لا تتوقف أبدا عن البحث عن الطعام. ومع ذلك، فهي تشكل طعاما للذئاب خلال فصل الشتاء، وبهذا تشغل الذئاب عن قتل خرافنا. لا تستطيع الذئاب أن تأكل كل الأرانب، لكنها تأكل ما فيه الكفاية بحيث إننا لا نتعثر بجحر أرنب عند كل ثلاث خطوات".

- "سأحضر معي خارطة العالم غدا"، قال له شن مؤكدا. "في وسعك التأمل فيها كما تشاء".

- "حسنا. أنت أجهدت نفسك كثيرا خلال الأيام القليلة الماضية، عليك الذهاب الآن إلى خيمتك والحصول على قسط من الراحة". عندما رأى شن مترددا في المغادرة، قال، "تريد أن تسأل عن الطريقة التي ستحصل بوساطتها على تلك البطن من جراء الذئاب، أليس كذلك؟".

تردد شن، وبعدها أومأ برأسه. "إنها المرة الأولى بالنسبة إليّ، بابا، لذا عليك أن تخبرني عن كيفية القيام بذلك".

- "لا مانع لدي في إخبارك"، قال بلغي، "لكنه ليس شيئا أريدك أن تفعله في كثير من الأحيان".

- "طبعا"، وعده شن بذلك.

ارتشف شن جرعة من الشاي وابتسم بغموض. "لو لم تأتِ إليّ لما كنت ستضع يدك قط على تلك البطن من الجراء. في البداية امنح الذئبة الأم منفذا. لا تطبق خطة الطريق الذي لا رجعة فيه على مسائل مثل هذه".

- "هل تقصد بقولك هذا إنني لن أضع يدي عليها أبدا؟"، سأل شن بتلهف.

اختفت الابتسامة عن وجه الرجل العجوز. "حسنا، لقد رميت المفرقعات داخل النفق الأول، وزحفت إلى النفق الثاني. تركت رائحتك في الداخل، وأغلقت كلا الفتحتين. ستنتقل الذئبة من مكانها هذه الليلة، ذلك شيء مؤكد. ستحفر فتحة أخرى، وتشق لها نفقا يؤدي إلى الداخل. بعد ذلك ستعمل على إخراج جرائها، الواحد بعد الآخر، وتودعها في وجار مؤقت. في غضون بضعة أيام، ستجد لها وجارا ثابتا جديدا، في مكان لن يتمكن البشر من اكتشافه أبدا".

كان قلب شن ينبض بشدة. "هل سيقع هذا الوجار المؤقت في مكان يستطيع المرء العثور عليه؟".

– لـــيس من قبل البشر، لكن ربما تستطيع الكلاب ذلك. الكلب *الأصفر* وعدد قليل من تلـــك الكـــلاب سوداء اللون لا بد وأن تتمكن من ذلك. على ما يبدو، فأنت لن تكف عن الكلام في هذه المسألة.

– "بابـــا"، قـــال شن، "لماذا لا تذهب معي غدا؟ يقول يانغ كي إن الذئبة خدعته بما فيه الكفاية حتى الآن".

– "عليّ الذهاب شمالا لتفحص الفخاخ"، قال الرجل العجوز وهو يطلق ضحكة خفيفة. "اصطدنا ذئبا ليلة البارحة، لكنني لم ألمسه. الذئاب التي في الشمال عادت أدراجها. إنها جائعة، ربمـــا أرفع جميع الفخاخ غدا. أعتقد أن عليك أن ترتاح في الأيام القليلة المقبلة استعدادا لحملة الصيد. يمكننا أن نتولى هذه المسألة بعد حملة الصيد".

شحب وجه شن، ولاحظ الرجل العجوز ذلك.

– "أو"، قـــال مـــبديا استعدادا أكبر للموافقة، "تذهب أنت ويانغ لتقصي الأمور غدا. ســـتكون رائحة الذئاب قوية، لذا دعوا الكلاب تشم أرجاء المكان، وأنا متأكد أنكما ستعثران علـــى الوجار. الأوجرة الجديدة ليست عميقة جدا. إذا نقلت الذئبة جراءها إلى نفق قديم آخر ســـتكون بعـــيدة المنال. يلعب الحظ دورا في سرقة جراء الذئاب. إذا لم تستطع الوصول إليها سأذهب وألقي نظرة. لن أسمح لبايار أن يزحف إلى داخل وجار إلا إذا كنت موجودا هناك".

قال بايار وهو ينضح ثقة بنفسه، "يمكنني أن أتلوى حتى أدخل عبر الفتحة التي وجدتماها. لو أنكما أخذتماني معكما اليوم لكنت أنت قد حصلت على جرائك الآن".

كان يانغ كي بانتظار شن عندما عاد إلى الخيمة. أخبره شن باستنتاجات بلغي وتوصياته، لكن ذلك لم يساعد إلا قليلا في التخفيف من هموم يانغ.

أيقظت شن نوبة نباح كثيفة تفجرت في منتصف الليل، وأدرك أن إيرلانغ قد تمكن على نحـــو مـــا من الرجوع، وأن أي قطيع للذئاب لم يفترسه. كان في وسع شن سماع وقع أقدامه القـــوية خـــارج الخـــيمة فيما هو يتسلم واجباته في الحراسة. كان ينبغي له إطعامه والاعتناء بجـــروحه، لكنه شعر بالتعب فلم يفعل شيئا سوى التقلب في فراشه، وحالما توقف إيرلانغ عن النباح، غط في النوم مجددا.

* * *

عندما استيقظ شن صباح اليوم التالي كان كل من يانغ كي وغاو جيانـــزونغ ودورجي جالـــسين حول الموقد يحتسون الشاي ويأكلون شرائح اللحم فيما هم يناقشون موضوع سرقة الجراء. كان دورجي، وهو راعي أبقار تابع للفريق الثالث، رجلا ذكيا ومتمرسا يبلغ من العمر أربعـــا وعـــشرين أو خمـــسا وعشرين سنة، وقد عاد ليرعى القطيع بعد أن تخرج في المدرسة المتوســـطة. كان يزاول عملا إضافيا كمحاسب في فرقة الإنتاج وهو صياد ذائع الصيت. دعاه

يانـــغ كي إلى المجيء بسبب الهواجس التي ساورته من إمكانية الفشل مجددا أو مواجهة الخطر. ســيكون دورجي مستشارا وحارسا شخصيا لهم. يعرف عنه أنه صياد محترس، لا يطلق صقره أبـــدا إلا إذا أبصر أرنبا، ومن شأن وجوده معهما من أن يعزز كثيرا فرصة الحصول على جراء الذئاب.

انــــزلق شــــن من الفراش، ارتدى ملابسه، ورحب بدورجي. "سمعت أنك زحفت إلى داخل وجار للذئاب"، قال دورجي وهو يبتسم. "عليك أن تكون حذرا أكثر من الآن فصاعدا. بعد أن التقطت الذئبة رائحتك الآن، ستطاردك أينما ذهبت".

فاجـــأ ذلك الكلام شن بحيث لم يعرف كيف يرتدي معطفه. "هل يعني هذا أنه يتوجّب عليّ أن أقتلها، حتى لا تقتلني ذات يوم؟".

– كـــنت أمـــزح فقـــط. الذئاب تخاف البشر. حتى إذا التقطت رائحتك لن تجرؤ على الاقتـــراب منك. لو كانت بمثل تلك الكفاءة، لكانت قد التهمتني منذ زمن طويل. دخلت نفقا ذات مرة عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، وأخرجت بطنا من الجراء. ولا أزال حيا، ألست كذلك؟

أحس شن بالاسترخاء. "لا بد من أنك قتلت الكثير من الذئاب عبر هذه السنين".

– قـــتلت ستين أو سبعين ذئبا، كما أتصور، إذا لم نحسب الجراء. يمكن أن تضيف إليها سبع أو ثمانيَ بطون من الجراء.

– ســـبع أو ثمان؟ ذلك يصل إلى خمسين أو ستين جروا، إذا يصبح مجموعها مئة وعشرين أو ثلاثين ذئبا. ألم تحاول الذئاب أبدا تسوية حسابها وإياك؟

– طـــبعا حاولت. خلال السنوات العشر الماضية، كانت الذئاب قد قتلت سبعة أو ثمانية من كلابنا، والكثير جدا من الخراف بحيث يصعب إحصاؤها.

– إذا قتلتم جميع الذئاب، ما الذي ستفعلونه بموتاكم؟

– نحـــن المنغوليون اليمنغ مثلكم تماما: نحن لا نقدم موتانا طعاما للذئاب؛ إننا ندفنهم في توابيت. المنغوليون هنا أناس متخلفون.

– الناس في التيبت يقدمون موتاهم طعاما للنسور. هنا الذئاب تتولى ذلك. إذا قتلتم جميع الذئاب ألن يكرهكم السكان المحليون؟

– لا يمكـــن قتل جميع ذئاب أولونبولاغ. الحكومة تحثنا على أن نصطادها، تقول إن كل ذئـــب يقـــتل ينقذ حياة مئة خروف، وكل بطن من الجراء يتم اقتناصها تنقذ عشرة قطعان من المواشي. إذا كنت تتصور أنني قتلت الكثير من الذئاب، ينبغي لك أن ترى بطل صيد الذئاب في لجـــنة بايان غوبـــي. ذات ربيع، قبل سنوات قليلة ليس إلاّ، أتى بخمس بطون من الجراء، وهو العـــدد ذاته تقريبا من الجراء الذي استطعت تحقيقه خلال عقد من الزمن. إن الكثير من الناس

الـــذين جـــاؤوا من الخارج ويعيشون في بايان غوبـــي، ومن ضمنهم المنغوليون من منشوريا، وكثير منا نحن نصطاد الذئاب. ذلك هو السبب في وجود عدد أقل من الذئاب مما هي عليه هنا.

– "كيف حال إنتاجهم من المواشي؟"، سأل شن.

– لـــيس جـــيدا مثلما هو عليه هنا. إن أراضي الرعي لا تضاهي مثيلاتها هنا، لأن هناك يوجد الكثير جدا من الأرانب وجرذان الحقول.

انتهـــى شـــن من ارتداء معطفه، وخرج ليلقي نظرة على إيرلانغ، الذي كان يأكل لحم ضأن مـــسلوخ الجلد. في الربيع يموت حمل نتيجة الجروح أو المرض أو البرد كل بضعة أيام، ويعطى طعاما للكـــلاب التي لا تستطيع أن تأكله قبل أن يسلخ جلده. رأى شن أن الكلب لم يكن يرفع عينيه عن الحمـــلان فيما كانت ترعى بحبور في الحظيرة وهو مستمر بالأكل. ناداه شن، لكن الكلب بدلا من أن يـــرفع رأسه لينظر إليه، بقي منبطحا على الأرض، فيما كان ذيله يرتعش قليلا. من جهة أخرى، جـــاء الكلبان *أصفر* وبير يركضان إليه، ووضعا أكفهما على كتفيه. كان يانغ والآخرون قد عالجوا مـــسبقا جـــروح إيرلانغ، لكنه ظل يحاول انتزاع الضمادات بأسنانه وذلك ليتمكن من لعق جراحه بنفسه. لكن لم يكن الرجوع إلى الجبال يمثل مشكلة بالنسبة إلى هذا الحيوان الشجاع.

بعـــد الانتهاء من تناول الطعام، ذهب شن إلى الخيمة المجاورة ليطلب من غومبو أن يتولى حراســـة القطـــيع نـــيابة عنه. بعدما رأى غاو جيانـــزونغ أن شن ويانغ مصممان على وضع أيـــديهما على بطن من جراء الذئاب، بدا أن العدوى انتقلت إليه هو الآخر، وهكذا فقد طلب مـــن ابـــن غومبو أن يحرس قطيعه لذلك اليوم. على أرض أولونبولاغ تكون سرقة جراء ذئب مدعاة للفخر لأي شخص ينجح بالقيام في ذلك العمل.

انطلق الرجال الأربعة متوجهين إلى جبل بلاك روك مصطحبين معهم أدواتهم وأسلحتهم؛ ومـــؤنا تكفيهم ليوم واحد، بالإضافة إلى كلبين اثنين. واجهتهم جبهة هواء باردة كأنها انهيار جليدي، لكنها مرت كأنها نسيج حرير يستخرج من شرنقة. كانت قد مضت أربعة أو خمسة أيـــام مـــن دون أن تبزغ الشمس، وتخترق غطاء الغيوم الكثيفة؛ على السهوب الكئيبة، تخلت وجوه الرعاة تدريجيا عن سحنتها الشتائية ذات اللون الأرجواني الذي اتخذته في الربيع، وتحولت إلى لـــون أحمر متورد. تحول العشب الجديد أيضا تحت الثلج إلى الاصفرار بشكل بطيء، كأنه ثـــوم معمّـــر مستنبت تحت غطاء ما، لم يظهر عليه أي أثر للاخضرار. حتى الخراف ما كانت لتأكل منه. تغضن وجه دورجي عندما ابتسم وهو يلقي نظرة إلى الغيوم المتلبدة، وقال: "الأرض المـــتجمدة مـــنعت الطعام من الوصول إلى بطون الذئاب لبعض الوقت. في الليلة الماضية كانت كلاب الثكنات تنبح بشراسة، إنها علامة مؤكدة على أن قطيع الذئاب قد عاد".

بعد تقصي الآثار التي خلفها شن ويانغ في اليوم السابق لأكثر من ساعتين، وصلوا إلى وادٍ مغمـــور بالعليق. كانت المجرفة لا تزال مغروسة في المكان الذي تركها فيه شن، ولكن كانت

هناك آثار ذئاب كبيرة جديدة على المجاز الضيق. لم تمس الصخور والتراب التي استخدماها شن ويانغ في إغلاق المدخل؛ على ما يبدو كانت المجرفة قد أخافت الذئبة وجعلتها تهرب. ازدادت الكــلاب هــياجا حالما اقتربت من المدخل المغلق، وبدأت تشم أرجاء المكان؛ لم يهدأ إيرلانغ، اتقــدت عيناه شررا من الرغبة في الثأر. أشار شن إلى المنحدر القريب وصاح، "اذهبا". استدار الكلبان وتبعا اتجاه الروائح إلى أعلى التل، اتخذ كل واحد منهما دربا مختلفا، فيما تسلق الرجال متجهين إلى الفتحة الثانية للوجار، حيث وجدوا مزيدا من الآثار الجديدة. لم يمس الموضع المغلق هــناك أيــضا. أرسل دورجي الآخرين للبحث عن فتحات أخرى، لكن قبل أن يتمكنوا من الالــتفاف مرتين حول المنطقة، بدأ إيرلانغ *وأصفر* بالنباح من بعيد ناحية الشمال. بعد أن تخلى الرجال عن عملية البحث، استداروا وتسلقوا بأحصنتهم التل، وقد أخذ شن مجرفته معه.

عــندما بلغوا قمة التل، وجدوا الكلبين في الناحية الأخرى أسفل التل. كان إيرلانغ جاثما علــى الأرض ينبح بوحشية؛ *وأصفر* يساعده على ذلك. تصاعد الغبار. "لقد وجدا الجراء!"، صــاح دورجــي فــيما نــزلوا المنحدر، كادت أحصنتهم أن تتعثر، وأن تفقد السيطرة على خطواتها فوق الصخور الملساء، إلى أن اقتربوا من الكلبين، حيث انــزلقوا عن سروجهم. وبدلا مــن فسح الطريق لسادتهما ظل الكلبان يحفران؛ كان إيرلانغ يتوقف كل بضع لحظات ليدس خطمه في الفتحة، لم يكد يصبر على أن يستخرج أي شيء يوجد هناك في الداخل. صعد شن، لف ذراعيه حول الكلب، وسحبه بعيدا. خابت آماله بعد أن رأى ما رآه: ثقب لا يتجاوز بضع بوصــات محفور في الأرض، يختلف جذريا عن الأوجار الكبيرة التي رآها حتى ذلك الوقت. لم يكــن هــناك مجاز ضيق، لكن كان يوجد فقط بعض التراب المتناثر الذي يغطي سطح الثلج، والذي كانت الكلاب قد وطأته بأقدامها من قبل.

قال غاو جيانــزونغ باستهجان، "تسمون هذا وجارا للذئاب؟ إنه يشبه جحرا للأرانب، أو مسكنا لبعض جرذان الحقول".

– "انظر عن قرب"، قال دورجي بأعصاب هادئة. "هذه فتحة جديدة. لقد حفر التراب منذ وقت قريب، وأراهن أن هذا هو المكان الذي نقلت إليه الذئبة جراءها".

لم يكن شن واثقا إلى ذلك الحدّ. "حتى الوجار الجديد يكون أكبر من هذا، أليس كذلك؟ كيف يمكن لذئبة ضخمة أن تحشر نفسها لتدخل عبر تلك الفتحة؟".

– "إنه وجار مؤقت ليس إلاّ"، قال دورجي. "إناث الذئاب نحيفة لدرجة كافية للدخول مــنها. لا بــد من أنها تركت جراءها هنا إلى حين عثورها على وجار جديد، وجار ثابت في مكان آخر خلال أيام قليلة".

– "لا أبالي إن كان ذئبا أم أرنبا"، قال يانغ، وهو يشهر المجرفة، "ما دامت الجراء على قيد الحياة لن نرجع بخفي حنين. أفسحوا الطريق، سأبدأ بالحفر".

صعد دورجي وأوقفه. "في بداية الأمر دعني أرى مدى عمقه، وما إذا كان بداخله شيء ما أم لا". التقط عمود أنشوطته، أداره من الأمام إلى الخلف، دفع بالطرف السميك داخل الفتحة، وحركه هنا وهناك. عندما وصل العمود إلى مسافة ثلاث أقدام أو نحو ذلك ابتسم. "هناك شيء ما في الداخل"، قال، "شيء رخو. خذ، جرب أنت".

تناول شن العمود، وأخذ ينخس في أرجاء الموضع. شعر هو الآخر بوجود شيء رخو يتحرك كالنابض، و لم يعد يستطيع احتواء إثارته. "يوجد شيء ما بالفعل في الداخل! بالتأكيد هناك شيء ما. دعونا نأمل أن يكون جراء".

تناوب كل من يانغ وغاو في ذلك، وتوصلا إلى الاستنتاج نفسه، هناك شيء ما في الداخل وهو حي. ولكن لم يكن أي منهم على استعداد لأن يصدق تماما أنه بطن من جراء الذئاب.

دفع دورجي بالعمود إلى الداخل بقدر ما استطاع الوصول إليه، وضع يده عليه قريبا من الفتحة، وسحبه ببطء؛ وضعه على الأرض متتبعا اتجاه النفق من تحتهم لكي يحدد موقع الشيء الذي شعروا بوجوده هناك. نهض واقفا، مشى خطوات إلى الطرف الآخر، وهتف قائلا، "احفروا هنا، لكن كونوا حذرين؛ لا نريد أن نجرح الجراء".

انتزع شن المجرفة من يانغ وسأل، "ما هو العمق؟".

– قدمان تقريبا. الدفء الذي ينبعث من أجساد جراء الذئاب كافٍ لأن يجعل الأرض المتجمدة هشة، فلا تحفر بقوة كبيرة.

بعد أن أزاح الثلج بعيدا عن البقعة المحددة، غرس شن طرف المجرفة بالأرض وداس عليها برفق، وزاد الضغط بشكل بطيء. تهاوى التراب، واندفع الكلبان بجنون نحو النفق المتقوض وهما ينبحان بشدة. شعر شن بالدماء تندفع إلى رأسه، فقد بدأت العروق فيه تنبض بشدة. بالنسبة إليه، كان هذا شيئا أكثر إثارة من التنقيب في موقع قبور تعود لسلالة الهان، وشكّل لديه شعورا أعظم باكتمال الإنجاز الذي توصل إليه. وسط التراب المتهاوي، ظهرت مجموعة من الذئاب الصغيرة، غطى أجسادها جلد رمادي اللون مرقط بشعيرات ذئاب سوداء اللون. "جراء ذئب! جراء ذئب!"، صرخ الطلاب الثلاثة جميعا بعد لحظة من التشكك. وقف شن ويانغ وقد شلت الدهشة حركتيهما.

– "لماذا أتصور أنني أحلم؟"، قال يانغ. "إننا حقا، حصلنا بالفعل على بطن من الجراء".

– "من الذي كان يتصور أنكما أنتما، أيتها القطط العمياء التي جاءت من بكين، يمكنكما أن تعثرا على بطن من جراء الذئاب المنغولية؟"، ابتسم غاو بخبث. "لقد أهدرت أياما في الاستعداد لقتال محتمل".

جلس شن القرفصاء، أزاح التراب بحذر بعيدا عن الجراء، وأخذ يحسبها. كانت سبعة جراء، لا يكاد يتجاوز حجم كل واحد منها راحة يده، سبعة رؤوس ضئيلة متعانقة كأنها باقة

زهـــور واحـــدة، كأنها كائن حي واحد لا يبدي حراكا. كانت عيونها مفتوحة جزئيا، مغطاة بغـــشاء خفيف، أزرق اللون ورطب، مع بقع صغيرة سوداء اللون في المنتصف. "كنت أبحث عنك منذ مدة طويلة جدا"، قال بصوت خافت، "والآن ها أنت بين يدي".

– "ولدت هذه الجراء منذ حوالى ثلاثة أسابيع"، قال دورجي. "توشك أن تفتح عيونها".

– "هل هي نائمة؟"، تساءل شن. "لم لا تتحرك؟".

– "الـــذئاب تولد جبانة"، أجاب دورجي. "كل ذلك النباح والصراخ منذ لحظة أيقظها حتما. تتظاهر بأنها ميتة. التقط واحدا منها إذا لم تصدقني".

للمرة الأولى في حياته، كان شن على وشك أن يحمل بيديه ذئبا حيا، اعتراه التردد. التقط واحدا منها من أذنه، حمله بين إبهامه وسبابته. لم يتحرك الجرو، تدلت قائمتاه بشكل هزيل، لم يظهـــر عليه رد فعل يدل على أنه ذئب، أي مقاومة، كأنما كان يشبه هريرة ميتة أكثر منه ذئبا حيا. أمسكه شن ورفعه عاليا بحيث يتمكن الجميع من إلقاء نظرة عليه عن قرب. كان قد رأى جـــراء كلاب من تلك المسافة القريبة قبل ذلك، وأدرك على الفور الاختلافات بين الحيوانات الوحشية وتلك الأليفة من ذوات الأنياب. يولد جرو الكلاب وله جلد أملس براق. لكن هذا لا ينطبق على جرو الذئب. من المؤكد أن لديه غطاء من الفرو رمادي اللون اللطيف الناعم، لكنه ممزوج بشعيرات ذئاب سوداء اللون شائكة طويلة. كان رأس الجرو أسود اللون ولامعا، كما لو أنه كان مطليا بالقار. كانت عيناه مفتوحتين جزئيا ليس إلاّ، لكن أنيابه الضئيلة كانت متشكلة تمامـــا، تنتأ إلى الخارج بشكل يوحي بالضراوة من بين الشفاه. بعد أن تم إخراجه من الأرض، كانت تفوح منه روائح التراب والذئاب. لم تنبعث من أي جرو كلاب مثل تلك الرائحة أبدا. لكـــن في عيني شن زن، كان هذا حقا أكثر المخلوقات الموجودة في أي مكان سموا، وأكثرها قيمة، وأكثرها جمالا.

طـــوال الوقت الذي كان فيه يحمل جرو الذئب من أذنه، تظاهر الجرو أنه ميت، لم يحرك عـــضلة واحدة، ولم يند عنه صوت واحد. ولكن عندما لمس صدره، كان في وسعه أن يشعر بنبـــضات قلـــب خفـــيفة، لكنها سريعة بشكل يبعث على الوجل. "ضعه على الأرض"، قال دورجـــي، "وانظر ماذا سيفعل". حالما لامس الجرو الأرض، وثب وعادت إليه الحياة، وزحف بأقصى سرعة مبتعدا عن البشر والكلبين. تحرك مثل قط يقفز على نوابض. كان *أصفر* يطل عليه من مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات، وأوشك أن يغرس أسنانه في جسده عندما صاح الرجال الأربعة به أن يتوقف. أسرع شن فالتقط الجرو عن الأرض، ودسه في حقيبته المدرسية المصنوعة مـــن قماش القنب. حملق الكلب بغضب إلى شن، نظرة عبّر فيها عن رغبته في قتل ذلك الشيء ليـــنفس عن بعض امتعاضه. أما إيرلانغ، من ناحية أخرى، مثلما لاحظ شن، فكان يحملق إلى الجرو ويهز ذيله.

فتح شن حقيبته، ووثب الرجال الآخرون لينجزوا العمل، وكأهم صبيان في ضواحي بكين يسرقون بيض الطيور. مدّوا أيديهم وحملوها، أخلوا الوجار من الجراء، واحدا بعد الآخر، أمسكوها من آذاها، وأسقطوها داخل الحقيبة المصنوعة من قماش القنب التي لدى شن. بعد تهديم فتحة الوجار، علّق شن الحقيبة على سرجه، واستعد للرجوع.

نظر دورجي إلى ما حوله. "الأم موجودة في مكان ما هنا، إذا، دعونا نسلك الطريق الطويل الذي يلتف حول هذا المكان. وإلا فإها ستتبعنا طوال الطريق إلى المخيم".

أدرك الطلاب الثلاثة فجأة أن الخطر يتربص بهم في مكان قريب طالما كانت هناك ذئاب صغيرة داخل حقيبة شن المصنوعة من قماش القنب، تلك الحيوانات ذاها التي كانت تسبب كل ذلك الخوف في قلوب الصينيين من الهان.

11

امتطى الطلاب الثلاثة صهوات أحصنتهم، وتبعوا دورجي فيما كان يتجه غربا مخترقا الأرض المغطاة بالأعشاب البرية، بعد ذلك تحولوا جنوبا، متجنبين الكثبان التي تفوح منها رائحة قلوية، اختاروا عن قصد أرضا صلبة بحيث لا تترك عليها آثار حوافر الأحصنة فيما كانـــوا يـــنطلقون عـــبر الوهاد عائدين إلى المخيم. واجهوا حالة من العصبية تعذر عليهم تفاديهـــا، لم يكونوا يشعرون بأدنى قدر من نشوة الانتصار، استولى عليهم الشعور بالذنب والهلع.

شـــعر شن أنه في حال أفضل عندما فكّر في الذئبة التي ولت هاربة بعد أن اختطفت أحد حملانه. وبما أنه راعي خراف فمن المحتم عليه أن يثأر لحيوان في قطيعه. لكن سرقة بطن مـــن الـــذئاب، ولـــو كان شيئا صعبا، إلا أنه أكثر سهولة من قتل العدد ذاته من الذئاب الكـــبيرة. لكـــن سؤالا بقي يلح عليه: إذا كان المنغوليون يعرفون هذه الوسيلة التي تخفض أعـــداد الـــذئاب، فلماذا استمروا في معاقبة الذئاب؟ قرر شن أن يطرح ذلك السؤال على دورجي.

– "الذئاب ذكية جدا"، أجاب دورجي. "إنها تختار الوقت الملائم تماما لإنجاب بطون من الجراء. يقول الجميع إن الكلاب والذئاب كانت تنتمي إلى العائلة ذاتها في زمن موغل في القدم، بيـــنما الذئاب دائما في الواقع ذات قدرة أكثر على الخداع من الكلاب. تنجب الكلاب بطونا مـــن جرائها بعد حوالى نصف شهر من بداية السنة القمرية الجديدة. أما الذئاب، فهي تنجب جـــراءها في بداية الربيع تماما، حيث تكون الثلوج قد ذابت والخراف قد أنجبت صغارها. ذلك هو الوقت من السنة الذي يتسم أنه مشحون أكثر بالأعمال التي يتوجب علينا إنجازها، الوقت الأكثر إنهاكا والذي يتطلب جهودا ينبغي لها أن تبذل من دون تأخير. في الوقت الذي تولد فيه الحمـــلان، ويستطيع الناس أن يأخذوا قسطا يسيرا من الراحة، تكون جراء الذئاب قد كبرت وخـــرجت مـــن أوجارها. الوقت الوحيد الذي تعيش فيه الذئاب في الأوجار هو عندما تحمل الإناث بطنا من الجراء. تفتح الجراء عيونها بعد شهر تقريبا من ولادتها، وبعد شهر آخر، أو نحو ذلـــك، تكـــون في الخارج تلعب برفقة أماتها. هناك ميزة أخرى وراء إنجاب جرائها في أوائل الـــربيع. فـــبإمكان الأمـــات اصطياد الحملان حديثة الولادة لغرض إطعام نسلها وتدريبه على الصيد. يعتبر الحمل الوديع غذاء خفيفا رائعا بالنسبة إلى الجراء".

تثاءب يانغ مرة بعد الأخرى، شعر شن فجأة أنه منهك القوى بحيث يكاد لا يقوى على الثبات فوق حصانه. بدا التطلع إلى النوم شيئا رائعا. لكنه لم يستطع أن يبعد الذئاب عن فكره. سأل دورجي، "لماذا لا يتحمس الرعاة هنا للبحث عن جراء الذئاب؟".

- "الــرعاة المحليون يعتقدون بمذهب اللامية[1]"، أجاب دورجي. "في الماضي، كان على كل عائلة تقريبا أن ترسل أحد أبنائها ليصبح رجل دين بوذيا. يعتقد الرهبان البوذيون بضرورة عمل الخير، لذا فهم يحرمون القتل. إن قتل أعداد كبيرة من جراء الذئاب، مثلما يعتقدون، من شأنه أن يقصر أعمارهم أنفسهم. فما دمت لست راهبا بوذيا، فلا أخاف من أن يقصر عمري. المنغولــيون من منشوريا لا يقدمون موتاهم طعاما للذئاب، ولن أذرف دمعة واحدة إذا قتلت الــذئاب عن بكرة أبيها. عندما تعلمنا كيف نــزرع المحاصيل، بدأنا نتبع عادات الهان في دفن موتانا تحت الأرض".

شــعر شن كما لو أن ريحا تبعث على السقم تجري في إثره، وتثير خوفا عميق الغور في روحــه. بعد أن قطع أي اتصال له مع الذئاب التي هناك في المدينة، أصبح الآن سيدا لسبعة من جراء الذئاب التي كانت أمهم تتحلى بالشراسة والدهاء بشكل لا يمكن تخيله. من الذي يستطيع أن يجــزم ألا يكون أبو الجراء، التي هي الآن داخل حقيبته، قائد قطيع الذئاب ذاته؟ أو أنها من نسل أرفع مستوى في سلم الارتقاء؟ لولا الهاجس الذي استولى عليه لما وقعت هذه المخلوقات الــصغيرة حتما أسيرة بين يديه؛ ربما كانت ستكبر حتى تصل إلى مرحلة النضج فتصبح مقاتلة باســلة. لكــن وصوله تدخّل في تغيير قدرها، وسيرتبط مصيره إلى الأبد بوثاق متين مع جميع ذئــاب السهوب، سيبقى عدوها الأبدي. ستأتي إليه عوائل من ذئاب أولونبولاغ، تقودها أنثى ذئــاب شــديدة الضراوة، في ظلام الليل الدامس تطالب بالثأر. فجأة شعر أنه ربما اقترف أمرا فظيعا.

* * *

بعــد ظهيرة ذلك اليوم كانوا قد عادوا إلى الخيمة؛ علّق شن حقيبته على الحائط، وجلس الرجال الأربعة حول الموقد يحتسون الشاي الحار، ويأكلون اللحم المشوي، ويتناقشون بشأن ما ينبغي لهم عمله بالنسبة إلى جراء الذئاب السبعة.

- "ألــيس هناك ما يمكن أن نتحدث عنه؟"، قال دورجي. "بعد أن انتهى بنا المطاف إلى هنا، انظروا إلى ما سأقوم به. لن يتطلب ذلك أكثر من دقيقتين".

كــان شن يواجه الآن المعضلة التي توقعها؛ تربية جرو ذئب. منذ اللحظة التي راودته فيها الفكــرة للمرة الأولى عرف أنه ستكون هناك مقاومة من قبل الرعاة، ومسؤولي الحزب، ورفاقه

---

(1) اللامية Lamaism: بوذية التيبت ومنغوليا.

من الطلاب. لا يمكن أن يفكّر في تربية جرو ذئب إلا شخص لديه غرض مبهم. إنه شيء لا يتعارض فقط مع السياسة، والعلاقات الإثنية وحسب، لكنه يؤثر على الإنتاج بشكل سلبي أيضا، ويؤثر على السلامة العامة، وعلى حال الناس الذهنية. خلال السنوات الأولى من الثورة الثقافية، كان المشرفون على حديقة الحيوانات في بكين قد وضعوا نمرا صغيرا يتيما مع أنثى كلاب لتكون بديلا عن أمه في القفص نفسه، لقد اعتبر البعض ذلك إطراء على فضائل النظرية الرجعية للانسجام الطبقي، فتعرض المشرفون على الحديقة نتيجة لهذا إلى انتقاد شديد. ألا تكون تربية ذئب وسط قطعان من الخراف، والمواشي، والكلاب إنكارا صريحا لضرورة الفصل بين الصديق والعدو؟ ألا ينظر إلى الأمر على أنه تأييد لفكرة اعتبار العدو صديقا؟ ما دامت الذئاب تمثل أعداء بالنسبة إلى الرعاة، فضلا عن كونها من ضمن معتقداهم المبجلة، رمزهم (وخصوصا في أذهان كبار السن)، بناء على ذلك، فهي مخلوقات يبايعونها على الولاء، إذا، كيف يمكن أن تربى الذئاب مثل الحيوانات المدللة، مثل الكلاب الأليفة؟ من منظور الإنتاج، والسلامة، الأمر يحتاج إلى التأمل كما في القول المأثور "تربية النمر شيء محفوف بالمخاطر، أما تربية الذئب فتجلب الكوارث". بالنسبة إلى شن، كان الشغل الشاغل له هو ما إذا كان بلغي سيستمر في اعتباره وكأنه ابنه الثاني إذا ما قرر أن يربي جرو ذئب.

لم يكن شن يتبع حافزا يلح عليه لتنفيذ رغبة في تكفير مبجلات المنغوليين، ولا هو أراد أن يدنس معتقداهم الدينية. بل على العكس من ذلك: شعر برغبة متزايدة في تربية جرو ذئب بسبب احترامه الراسخ لرمز الشعب المنغولي، واهتمامه لدرجة الهوس بالأسرار العميقة التي تكتنف الذئاب المحيطة بهم، والأسلوب الغامض الذي تظهر فيه وتختفي عن الأنظار كالأشباح. لكن من أجل أن يتفادى العداوة مع الرعاة، وخصوصا مع الرجل العجوز، كان من أكثر الأمور أهمية بالنسبة إليه هو التوصل إلى تسوية يمكنهم أن يتقبلوها، ولو حصل ذلك على مضض.

حتى قبل أن يعثر على بطن الجراء، وبعد أن أرهق ذهنه بالتفكير أياما عديدة، كان شن قد توصل في وقت ما إلى ذريعة ظن أنهم قد يروها معقولة وهي: ستكون تربية الذئب بمثابة تجربة علمية لغرض التوصل إلى نسل جديد من الكلب الذئبي[1]. كانت الكلاب الذئبية تتمتع بسمعة مذهلة في السهوب. لدى الحراس في نقطة الحدود خمسة أو ستة من تلك الحيوانات الضخمة، الضارية والرهيبة في سرعتها. عندما كانت تستخدم في صيد الذئاب أو الثعالب، كانت تتصرف بسرعة، وبقسوة، وتنجح بنسبة تسعة من عشرة. لقد ذهب القائد زهاو، الذي ينتسب إلى نقطة الحدود، ذات مرة مصطحبا معه جنديين، وزوجا من الكلاب الذئبية لكي يتفقد عمل الميليشيا في مناطق تربية المواشي. في الطريق إلى هناك اقتنصت كلابه أربعة ثعالب كبيرة. كان

(1) الكلب الذئبي: كلب يستخدم في صيد كبار الطرائد كالذئاب ونحوها.

القائد يتنقل من مكان إلى آخر في رحلته التفقدية، ويسلخ جلود الثعالب طوال الطريق، مما أذهل جميع الصيادين الذين شاهدوه. لم يكن من المستغرب أن يرغب جميع الرعاة في الحصول على واحد من تلك الكلاب الذئبية؛ لكن، لسوء الحظ، كانت تلك الكلاب نسلا نادرا في ذلك الوقت، واعتبرت من ضمن بنود العهدة العسكرية. لم تتوافر للرعاة فرصة الحصول على جرو كلب ذئبي، حتى ولو كانوا في حالة وفاق مع العسكر. أي شيء هي الكلاب الذئبية غير نتاج عملية تزاوج بين ذئب ذكر وكلب أنثى؟ تمعن شن بالمسألة مليا. لذلك فكل ما يتحتم عليه القيام به هو أن يربي ذكر ذئب حتى يصل إلى مرحلة البلوغ ويزاوجه مع كلبة لإنتاج كلب ذئبي، وهذا ما سيعطيه هدية للرعاة. ما دامت الذئاب المنغولية تعتبر الأرقى بين مثيلاتها في العالم، فإذا نجحت تجربته ربما يتوصل أيضا إلى إنتاج نسل يتفوق حتى على كلاب الجيوش الألمانية والسوفييتية، وربما تناط به بالإضافة إلى ذلك مسؤولية تطوير نمط جديد من أنماط تربية حيوانات المزارع.

وضع شن كوب الشاي الذي كان يرتشفه جانبا، وقال لدورجي، "يمكنك أن تتخلص من ستة جراء، ولكن اترك لي الجرو الأقوى من ناحية البنية. أريد تربيته".

لم يتفوه دورجي بشيء للوهلة الأولى، لكنه بقي يحدّق إلى شن عشر ثوان تقريبا. "تريد أن تربي ذئبا؟"، قال أخيرا.

– هذا صحيح. عندما يصل إلى مرحلة البلوغ، سأزاوجه مع الكلاب، وسنحصل على جراء تشبه الكلاب الذئبية الموجودة في نقطة الحدود. عندما تبدأ بالتوالد فإن كل عائلة منغولية سترغب في الحصول على واحد منها.

ومض في عيني دورجي بريق يوحي بشيء من الاهتمام، وكأنه كلب صيد قد اكتشف مكان فريسته. تلاحقت أنفاسه حتى كاد أن يختنق بلهفته. "يا لها من فكرة عظيمة! ربما تكلل بالنجاح تماما. إذا حصلنا جميعنا على كلاب ذئبية سيكون اصطياد الثعالب والذئاب مثل لعب الأطفال. وربما جعلنا بيع جراء الكلاب الذئبية أيضا أغنياء في يوم من الأيام".

– ما الذي يحصل إذا لم تسمح لي الفرقة القيام بهذا العمل؟

– "قل إنك تربي ذئبا من أجل أن تقاتل الذئاب"، قال دورجي. "من أجل حماية الملكية الجماعية. أي شخص يعارضك سيكون تعيس الحظ عندما تبدأ الجراء بالتوالد".

– "أنت لا تفكّر في تربية جرو خاص بك، أليس كذلك؟". سأل يانغ كي وهو يضحك.

– "إذا كنتم ستقومون بهذا العمل"، قال دورجي، "عندها سأفعل ذلك أنا أيضا".

أسقط شن قبضته على يد دورجي. "عظيم!". قال. "مع وجود خيمتين تشتركان في العملية ستتضاعف فرصتنا بالنجاح". توقف. "ولكن ليس هناك ما يضمن لنا أن يتزاوج ذكر ذئب مع كلبة".

- "لا تقلق في هذا الشأن"، قال دورجي. "يمكنني تدبر ذلك. منذ ثلاث سنوات، استطعت الحصول على كلبة رائعة، أردت أن أزاوجها مع أسرع كلب ذكر لدي والأشد بأسا. لكن كان لدينا عشرة كلاب بالكامل؛ ثمانية منها من الذكور، بينها الجيد والوضيع، لو قررت الكلبة التزاوج مع أحد الكلاب الوضيعة، فأي خسارة ستنجم عن ذلك. لهذا السبب إليك ما فعلته. عندما كانت الكلبة تمرّ بحالة الاهتياج الجنسي، وجدت بئرا لم يكتمل حفرها، تماثل الخيمة في حجمها تقريبا وعمقها ضعف طول الرجل، وضعتها فيها مع أحد كلابي الذكور الجيدة، وألقيت هناك خروفا ميتا، وتابعت إطعامهما وإرواءهما لمدة عشرين يوما. عندما أخرجتهما، كانت الكلبة حاملا. ولدت بطنا من الجراء الرائعة قبل بداية السنة القمرية الجديدة بالضبط، كان مجموعها ثمانية جراء. قتلت الجراء الإناث الأربعة، وأبقيت على أربعة ذكور. من بين جميع كلابنا، والتي يبلغ عددها أكثر من اثني عشر كلبا، هي الأضخم، والأسرع، والأشد بأسا. في كل سنة تحرز تفوقا في مساهمتها باقتناص أكثر من نصف الذئاب والثعالب التي نصطادها. إذا فعلنا ذلك هنا سنحصل على الكلاب الذئبية التي نريدها. لكن عليك ألا تنسى، أنت بحاجة إلى أن تربي جرو الذئب الذي لديك مع جرو أنثى".

هتف شن زن ويانغ كي بابتهاج.

سمعت حركة في حقيبة شن المصنوعة من القماش القنب. ربما كانت الجراء في وضع غير مريح وجائعة، لذلك فالوقت قد حان بالنسبة إليها لأن تتوقف عن لعب دور الموتى، وتبدأ بالنزاع للعثور على سبيل للخروج من الحقيبة. سبعة من الحيوانات الحية ذات الأصل الرفيع، من النسل الذي يعرف شن زن قيمته ويعجب به، خمسة منها كانت على وشك أن تعدم. رزح قلبه تحت وطأة حمل ثقيل، ورفرفت في ذهنه صورة الحائط المنقوش عند البوابة الرئيسية لحديقة حيوان بكين. ألا يكون شيئا رائعا، هكذا كان يفكّر، إذا استطعت أن أرسلها إلى هناك، إنها حيوانات من أنقى نسل ممكن من الذئاب، يؤتى بها من قلب السهوب المنغولية؟ في تلك اللحظة تساءل: كيف يمكن للبشر أن يتصرفوا بجشع وغرور. لن يكون هناك أي خلل إذا ما اختاروا أكبر وأقوى جراء من بين السبعة. إذا، لماذا جلبوا البطن كله إلى المخيم؟ ما كان ينبغي له قط أن يأخذ دورجي وغاو جيانزونغ معه. لكن هل كان سيرجع بجرو واحد لو لم يذهبا معهما إلى هناك؟ ربما لا. الرجوع ببطن كامل من الجراء يمثل قمة زهو الانتصار، والشجاعة، والمجد؛ جعله ذلك في موضع احترام الآخرين. مقارنة بكل ذلك، كانت تلك الجراء السبعة مثل حبات من الرمال.

شعر شن بقلبه يؤلمه، لأن شغفه بجراء الذئاب قد تنامى لديه منذ البداية تقريبا. لقد شغلت فكره لأكثر من سنتين، إلى أن كاد يغدو شبه مفتون بها، والآن يرغب بالاحتفاظ بها جميعها. لكن ذلك شيء بعيد المنال. سبعة جراء؛ كم من الطعام سيحتاج من أجل أن يربيها حتى

تستطيع الاعتماد على نفسها؟ بعدها طرأت في ذهنه فكرة. لماذا لا يمتطي الحصان، ويعيد الجراء الخمسة الباقية إلى وجارها؟ لكن شخصا آخر غير يانغ كي لن يوافق على الذهاب معه، وحتما لـــن يذهب بمفرده، إنها رحلة تتطلب أربع ساعات للوصول إلى هناك ثم العودة، شيء يتطلب قدرة على التحمل فوق طاقته هو أو حصانه. في تلك اللحظة لا بد أن تكون الذئبة الأم تنوح بحزن بجوار وجارها المقوض، تعوي بجنون، سيكون الرجوع انتحارا.

تناول شن الحقيبة من الخطاف الذي علّقت عليه، ومشى ببطء خارجا من الخيمة. "ننتظر بضعة أيام إلى أن أقرر ما أفعله بشأنها، حسنا؟ أريد أن أدرس الأمر لبعض الوقت".

– "كـــيف تنوي أن تطعمها؟"، سأل دورجي. "بما أن الجو بارد، فهي جميعا ستموت إذا مضى عليها يوم واحد من دون أن تتغذى".

– "سأغذيها بحليب البقر"، قال شن.

– "لن تفعل ذلك"، قال غاو جيانـــزونغ، بدا من الواضح أنه غير راض. "إنني أرعى تلك الأبقار، وحليبها مخصص للبشر. الذئاب تأكل الأبقار، لذا ستكون تغذيتها بحليب الأبقار إهانة، ولن يسمح لي الرعاة برعي الأبقار بعد ذلك".

بـــادر يانغ كي إلى تسوية الأمور. "عليك أن توافق وتترك دورجي يتولى أمرها الآن. إن غاسمـــاي قلقـــة بـــشأن عدم الإيفاء بحصتها من نقاط العمل. إذا أعطيناها خمسة جلود جراء ستتمكن من النجاة، وبوسعنا أن نربـــي واحدا منها خلسة، وإلا ستأتي فرقة الإنتاج، جميع من فـــيها، إلى هـــنا لترى جراء الذئاب الحية، ولن تستطيع أن تمنع أيا منهم. دع دورجي يتخلص منها. لا أستطيع عمل ذلك بنفسي، وأعرف أنك لا تستطيع أيضا. إننا محظوظون بوجوده هنا ليتولى الأمر بدلا منا".

شعر شن بلسعة حارقة في عينه وهو يتنهد ويقول: "أعتقد أنه ليس لدينا من خيار آخر".

دخـــل الخيمة، وسحب الصندوق الذي يخزنون فيه الروث المجفف والذي يحرق في الموقد. بعد تفريغ الروث، قلب محتويات حقيبته في الصندوق. زحفت الجراء على الفور هنا وهناك، لكن عندما وصلت إلى إحدى الزوايا توقفت وتظاهرت بالموت، فعلت أي شيء متاح لها للتهرب من نهاية قاسية. كانت ترتعش، وكانت ثمة شعيرات ذئب ثابتة تتذبذب كما لو أنها مكهربة.

صار دورجي يقلّبها بأصابعه، ونظر إلى شن. "أربعة ذكور وثلاث إناث"، قال. "يمكنك أن تأخذ هذا، إنه الأكبر والأقوى. هذا الجرو الآخر لي". بعد ذلك التقط البقية، ووضعها مجددا في الحقيـــبة، وحملها إلى مكان في العراء مقابل الخيمة، التقط واحدا منها، قلبه رأسا على عقب وهتف قائلا، "هذا جرو أنثى. لتذهب أنت في البداية إلى تينغر".

جـــثا على إحدى ركبتيه، ولف ذراعه اليمنى بحركة دائرية ثم قذف الجرو الصغير السمين في الهـــواء إلى أقصى ارتفاع. كان شن ويانغ كي قد شاهدا مثل هذا الطقس الذي يمارس منذ

القدم مرات عديدة في الماضي، وسمعا عن الطريقة التي يتخلص بها الرعاة من جراء الذئاب. لكن هـــذه كانت المرة الأولى التي يشاهدان فيها ذلك الطقس يطبق على جراء مسروقة، نضب وجه كل منهما من أي لون، كانت تشبه الثلج الملطخ بالقذارة الذي هو بمحاذاة الخيمة.

كانت الذئبة الجرو، على ما يبدو، غير راغبة بالذهاب إلى تينغر بمثل ذلك الوقت المبكر، تظاهـــرت أنها ميتة للبقاء على قيد الحياة. لكن بعد أن صارت عاليا في الهواء، وأدركت الجهة الـــتي ســـتذهب إليها، فتحت قائمتيها النحيفتين كأنما كانت تؤدي رقصة غريبة، كما لو أنها أرادت التـــشبث بأذيـــال أمهـــا، أو تنشب براثنها في رقبة أبيها. فتحت فمها في الوقت الذي وصلت فيه إلى أقصى ارتفاع للقوس الذي اتبعه جسمها في التحليق، ومن ثم بدأت تسقط.

ارتطمـــت الذئبة الرضيعة بالأرض الصلبة التي انجرفت عليها الثلوج أمام الثكنات بصوت مكتوم، كأنها بطيخة، وتوقفت عن الحراك. تسارعت قطرات دماء وردية بالاندفاع إلى خارج فمهـــا، وخطمها، وعينيها، كانت تمتزج بلون الحليب. انـــزلق قلب شن راجعا إلى صدره بعد أن بلـــغ حنجرته، تجاوز الألم الذي كان يقاسي منه في منطقة الشعور. هرولت الكلاب الثلاثة باتجاه الجثة لكنها توقفت إثر صيحة من دورجي، الأمر الذي منعها من الوصول إلى الجرو الميت وتـــشويه جلده الثمين. ومما أثار دهشة شن هو رؤية إيرلانغ يندفع، ليس للانضمام إلى رفاقه، لكـــن ليمنعها من أن تنشب أنيابها في جسد الجرو الميت. بحضوره المهيمن على الوضع لم يجرؤ حيوان آخر على تمزيق الجثة؛ ربما تنامى لديه هو أيضا شغف بجراء الذئاب.

تناول دورجي ذئبة رضيعة مجددا من الحقيبة. بدا أن هذه الجرو استطاعت أن تشم رائحة دم مثيلـــتها الممتزج بالحليب، حالما استقرت في راحة يد دورجي، توقفت عن لعب دور الميتة، وكافحت لتحرير نفسها، خدشت ظهر يده ببراثنها الضئيلة. كان على وشك أن يقذف بها نحو الـــسماء عندما توقف وقال لشن: "خذ، يمكنك أن تقتل هذه، لننظر ما مدى جرأتك. ليس في وسع أي راع في السهوب الاستمرار بالحياة من دون أن يقتل الذئاب".

تراجع شن خطوة إلى الوراء. "لا، استمر أنت".

– "أنـــتم الـــصينيون مـــن الهان لستم شجعان"، قال دورجي وهو يضحك. "تكرهون الـــذئاب، لكنكم لا تستطيعون حتى أن تقتلوا جروا. كيف تتوقعون خوض الحرب؟ لا عجب مـــن أنكم أهدرتم كل ذلك الوقت والجهد في بناء حائط عبر الحدود الشمالية. انظر إلي...". كانـــت كلماته تتردد في الهواء حين حلق الجرو الثاني باتجاه السماء، وقبل أن يرتطم بالأرض، كان الجرو الثالث في طريقه إلى الأعالي. أثار القتل نشوة في نفس دورجي، فأخذ يتمتم، "هناك ستتمتع بحياة سعيدة!".

كانت خمسة جراء صغيرة قد حلّقت عبر الهواء؛ خمس جثث دامية استقرت على الأرض. التقطها شن بمجرفة، وحملق إلى الأعلى، آملا أن يكون تينغر قد تقبل أرواحها.

بـــدا دورجي منتشيا بما فعله. انحنى، وفرك يديه على أطراف جزمته وقال، "لا يحظى المرء بالكـــثير من الفرص لقتل خمسة ذئاب في يوم واحد. إنها أفضل منا في هذا. لو سنحت الفرصة لذئب منها فسيقتل مئة، وحتى مئتين من الخراف مرة واحدة. قتلت خمسة منها ليس إلاّ، ليس بالأمر المهم! لقد تأخر الوقت. عليّ الذهاب لأتفقد ماشيتي". مشى خطوات ليلتقط الجرو الذي أصبح من نصيبه.

- "لا تذهب الآن"، قال شن. "ساعدنا على سلخ هذه الجراء".

- "لا بأس"، قال دورجي. "لن يتطلب ذلك مني وقتا طويلا".

وقـــف إيرلانغ حارسا على الجراء الميتة، زمجر في وجه دورجي وقد بدا عليه التوتر. لف شن ذراعيه حول رقبة الكلب ليعطي دورجي فرصة لأن يسلخ جلود الجراء، فعل دورجي ذلك كما لو كان يسلخ جلد حمل. كانت الجراء صغيرة جدا بحيث إنه لم يحتج إلى سلخ القوائم. بعد أن ســـلخ جلود الجراء الخمسة، نشر جلودها على سقف الخيمة المستديرة، وشد أطرافها حتى توتـــرت. "هـــذه جلـــود فاخرة"، قال. "لو كان لديك أربعون منها لاستطعت الحصول على معطف رائع؛ خفيف، ودافئ، وجذاب المنظر. لن تقدر على شراء مثيل له مقابل أي مقدار من المال".

نظّف دورجي يديه بالثلج، ومشى إلى العربة ليتناول الماسحة. "لا نفع يرجى منكم"، قال. "عليّ أن أنجز كل شيء بنفسي. لن تأكل الكلاب ذئبا، لذا علينا أن ندفن هذه الجراء فورا، وفي مكان عميق، وذلك لكي نمنع الأم من التقاط رائحتها. إذا حصل ذلك ستكون النهاية بالنسبة إلى قطعـــانكم ومواشيكم". اختار بقعة إلى الغرب من الخيمة، وحفر حفرة عمقها أربع أقدام. بعد أن دفعوا بالجراء الخمسة مسلوخة الجلود إلى الحفرة، غمروها بالتراب، وداسوا على السطح بأقـــدامهم بـــشدة. بعدها رشوا مسحوقا طبيا يستعمل كعلاج للمعدة على القبر لتبديد رائحة الجثث المدفونة.

- "هل ينبغي لنا عمل نوع من الوجار لجرونا؟"، وجه يانغ كي السؤال إلى دورجي.

- "كـــلا، احفـــرا له حفرة". وهكذا فقد قام شن ويانغ كي بحفر حفرة على بعد اثنتي عشرة خطوة تقريبا جنوب غرب الخيمة. كانت بعمق قدم أو نحو ذلك وعرضها قدمين. غطيا قاع الحفرة بجلد خروف مهترئ جدا، مما ترك بقعة أرض موحلة مكشوفة، ووضعا الجرو الذكر الصغير في الحفرة.

دبـــت الحياة في الجرو في اللحظة التي لامس فيها الأرض الموحلة، استكشف المكان الذي يحـــيط به بخطمه وعينيه، وكأنه ظن أنه قد عاد إلى وجاره. بالتدريج بدأ الجرو بالهدوء، والتف علـــى قطعـــة من جلد الخراف في الزاوية، كان لا يزال يشم وينظر إلى ما حوله، وكأنه يحاول العـــثور علـــى إخوته وأخواته. كان شن على وشك أن ينـــزل الجرو الثاني إلى الحفرة ليؤنس

وحشة الجرو الأول، عندما انتزعه دورجي، وحمله، ثم قرّبه من وجهه؛ وثب على ظهر الحصان، ومضى يعدو بعيدا. ألقى غاو جيانزونغ نظرة باردة إلى الأسفل إلى الجرو الذي في الحفرة، وبعدها امتطى حصانه، وذهب ليقوم في جولة يتفقد فيها مواشيه.

* * *

قرفص كل من شن زن ويانغ كي، وقد استبدت بهما المخاوف والقلق إلى جانب وجارهما الجديد، وحدّقا إلى الجرو. "لا أدري هل أنا قادر على عمل هذا"، قال شن. "هناك متاعب تنتظرنا".

– "ما دام بين أيدينا"، قال يانغ، "فإن الخير لا يستطيع الخروج من الباب؛ والشر يستمر إلى الأبد. عليك الانتظار ليس إلاّ. البلاد كلها تنشد (لن نتوقف عن القتال إلى أن تموت بنات آوى)، وها نحن ذا، نربي ذئبا، نتعامل مع عدو وكأنه صديق لنا".

– "في هذه الأماكن"، قال شن، "السماء عالية والإمبراطور بعيد. من سيعرف ما الذي نقوم به؟ الشيء الذي يقلقني ألا يسمح لنا بلغي بعمل ذلك".

– "رجعت الأبقار"، قال يانغ. "سأجلب شيئا من الحليب. لا بد من أن هذا الحيوان يتضور جوعا".

أبعده شن عن طريقه. "حليب الكلاب أفضل"، قال. "سنعطيه حليب يير. إذا كان جرو نمر يستطيع العيش على حليب الكلاب، فيمكن لجرو ذئب أن يفعل ذلك بالتأكيد". التقط شن الجرو، وأخرجه من الحفرة، وحمله بين يديه. كان بطنه قد تقلص من الجوع وكفاه باردتين، كأنهما حجارة جليدية. احتضنه شن، ووضعه تحت معطفه ليدفئه.

فيما انتشرت عتمة الغسق، وهو الوقت الذي تعود فيه يير لتغذية جرائها، ذهب شن ويانغ إلى حظيرة الكلاب، حفرا حفرة، وغلفاها من الداخل بطبقة سميكة من جلود الخراف القديمة. كانت هناك ستارة سميكة من جلود الأحصنة غير المدبوغة تجعل الجحر دافئا بالنسبة إلى يير وجرائها الثلاثة. بعد أن أطعمها مزيجا من اللحم والدخن مع الحساء، ركضت يير راجعة إلى الجحر، أزاحت ستارة جلد الأحصنة جانبا، واستلقت بلطف قرب الجدار. وجدت جراؤها طريقها إلى حلمات ضروعها، وصارت ترضع بنهم.

اقترب شن من الكلبة يير بحذر، جثا على ركبتيه، وأخذ يدعك رأسها وذلك لمنعها من رؤية ما تحتها. كانت تشعر بالسعادة عندما يفرك شخص ما رأسها، لعقت يير يد شن في الوقت الذي أزاح فيه يانغ أحد الجراء بعيدا، واعتصر شيئا من الحليب في يده. عندما رأى أن هناك حليبا كافيا، أخرج شن الجرو من تحت معطفه، وقام يانغ برش الحليب على رأسه، وظهره، وكفيه، على النحو الذي يمارسه الرعاة في خداع النعاج عندما يغذون حملانا فقدت أماتها. لكن الكلاب أذكى من الخراف، وحاسة الشم عندها أكثر حدة. لو كانت جراء يير قد

ماتت أو سلبت منها، ربما كانت ستتقبل وجود جرو الذئب. لكن مع وجود ثلاثة جراء ولدهّا هـــي، ما كان لذلك أن يحدث. حالما أحست بوجود الذئب في جحرها، حاولت رفع رأسها للتأكد من أن في وسعها رؤية جرائها. لكن باستعمال القوة والمكر تمكن شن ويانغ من جعلها تبقى مستلقية.

عـــندما وضـــع الذئب الصغير الجائع الذي يرتعش من البرد في الأسفل قريبا من إحدى حلمات ضرع يير واستطاع أن يشم رائحة الحليب، توقف عن التظاهر بالموت، وكأنه اكتشف رائحـــة دمـــاء، فتح فمه، وكشر عن أنيابه، تصرف على نحو غريزي، "إذا كان هناك حليب، فهـــذه هـــي أمي". ولأنه ولد بعد شهر من ولادة جراء الكلبة، كان رأس جرو الذئب أنحف وجسمه أصغر بشكل إجمالي. إلا أنه في ذلك الوقت كان أقوى من الكلاب الصغيرة، ومهارته مـــتفوقة على الآخرين في إطباق فمه على أقرب حلمة ضرع. كان هناك صفان من الحلمات، بعـــضها أكبر من الأخرى، وتبعا لذلك فإن وفرة الحليب فيها متباينة. راقب شن ويانغ المنظر باســـتمتا ع فـــيما بدا جرو الذئب الصغير أقل اهتماما بالرضاعة من اهتمامه بالعثور على أكبر حلمـــة، في محاولـــته تلك كان يزيح الجراء بعيدا عن طريقه. دخيل، مجرم سفاح، قاطع طريق، اقتحم ودخل جحرا يسود فيه السلام. كشفت طبيعته الوحشية عن حقيقتها عندما كان يدفع بالجراء فتبقى تترنح وتدور خلال بحثه عن أكبر الحلمات. تذوق حليب واحدة منها، لفظها، ثم جرب الحلمة التالية، مرة بعد أخرى إلى أن استقر على أكبرها، الحلمة الأكثر امتلاء التي في الوسط، وبـــدأ يمـــص الحليب بنهم. وفيما هو يرضع كان ينشر كفيه على الحلمات المجاورة كما لو أنه يأكل من وعاء ويحرس القدر، محتفظا بالحصة الأفضل لنفسه. أزيحت الجراء الثلاثة الخانعة بعيدا.

لم يتمكن الصديقان من تصديق ما رأته عيونهما. "الذئاب مخيفة"، علّق يانغ. "لم تكد عينا هـــذا اللعـــين الصغير تنفتحان بعد ومع ذلك فهو يتصرف كمستبد. الآن نستطيع فهم لماذا تم انـــتقاؤه مـــن بين بطن الجراء. أراهن على أنه سيتصرف بالطريقة ذاتها حتى لو كان بين إخوته وأخواته من الذئاب".

تسمّر شن في مكانه من المنظر فيما كان مستغرقا في أفكاره. "علينا أن ندرس تصرفاته عن كـــثب"، قال أخيرا. "هناك الكثير مما يمكننا تعلمه من هذا الجرو. ستمثل حظيرة كلابنا صورة مـــصغرة عـــن تـــاريخ العالم. ذلك يذكرني بشيء كتبه لو زون[1] ذات مرة. قال إن الغربيين يتسمون بالشراسة، بينما نحن الصينيون مثل الحيوانات الداجنة".

---

(1) لـــو زون: كاتب صيني (1881–1936م) نشر أول قصة قصيرة له **مذكرات رجل مجنون** والتي يدين فيها الكونفوشيوســـية التقليدية. وتعتبر أول قصة تكتب على الطراز الغربـــي بالرغم من أنها مكتوبة باللغة الـــصينية بالإضـــافة إلى كـــتابة المقـــالات، لم ينتمِ إلى الحزب الشيوعي، إلاّ أنه كان يعتبر بطلا ثوريا. (المترجم)

أشار شن إلى جرو الذئب. "انظر إلى جروك الشرس". بعد ذلك أومأ إلى جراء الكلاب. "وانظر إلى جرائنا الأليفة. إن العدد الأكبر من الغربيين ينحدرون من نسل البرابرة، قبائل بدوية مثل التوتون والأنكلوساكسون. اندفعوا إلى خارج الغابة البدائية كالحيوانات المتوحشة بعد بضعة آلاف من السنين من قيام حضارة الإغريق والرومان، واستباحوا روما القديمة. إنهم يأكلون شرائح اللحم المشوية، والجبن، والزبدة بالشوكة والسكين، إنها الطريقة ذاتها التي حافظوا فيها على مظاهر الوحشية البدائية أكثر من الأعراق الزراعية التقليدية. عبر السنوات المئة الماضية، واجهت الصين المدجنة رعب الغرب الشرس. لم يكن من المثير للاستغراب أن يتعرض العملاق الصيني عبر آلاف السنوات للضربات على نحو مذهل من شعوب بدوية قليلة الشأن".

فرك شن رأس جرو الذئب وتابع قوله: "المزاج الذي يسود فيه نمط الحياة لا يحدد مصير الإنسان فقط، لكنه يحدد أيضا مصير عرق بأكمله. الشعوب الزراعية مدجنة، وقد وضع الجبن نهاية لمصيرها. كانت الحضارات الأربع العظيمة في العالم أمما زراعية، بادت ثلاث منها. أما الحضارة الرابعة، في الصين، فقد نجت من ذلك المصير فقط لأن اثنين من أكبر الأنهار – الأصفر ويانغتزي – يجريان عبر أراضيها. تفتخر الصين أيضا بأن أعلى نسبة من السكان في العالم تعيش فيها، مما جعلها عصية المنال على الأمم الأخرى لأن تجرب نهب أراضيها أو الهيمنة عليها، لكن ربما يعود السبب في ذلك أيضا إلى مساهمات الشعوب البدوية التي تسكن السهوب... لم أفكّر في شكل كاف بهذه العلاقة، لكن كلما مرّ الوقت الذي أمضيه على السهوب – مضت حتى الآن سنتان – بدت المسألة أكثر تعقيدا مما أتصور".

هز يانغ رأسه. "أعتقد أن تربية هذا الذئب ستكون شيئا جيدا يتجاوز مجرد دراسة طبيعة الذئاب. يمكننا أيضا أن ندرس طبيعة البشر، وطبيعة الذئاب، وحال التدجين. إنها حال لا يمكن لك العثور عليها في المدينة أو المناطق الزراعية، إذ ليس هناك سوى الناس، وربما حيواناتهم المدللة".

– لكن إذا كنت لا تدرسها بالتوافق مع طبيعة الذئاب، لن تخرج أبدا بأي شيء يستحق الاهتمام.

– "إنك على حق"، قال يانغ مؤيدا بفرح. "لقد تكلل يومنا الأول بمكافآت".

تزايد الاضطراب في حظيرة الكلاب، وتعالت صيحات الأنين والتذمر من الجراء المرعوبة مما جعل الهواجس تنتاب ير وتشتد يقظتها. كافحت للتخلص من قبضة شن لترى ما الذي يجري تحتها. شعر شن بالقلق من أن تكتشف وجود الجرو الدخيل وتقتله، أمسك برأسها وأخفضه وناداها باسمها برقة، فيما كان يدعك جسمها ويربت على جسدها ليبقيها هادئة إلى أن تمتلئ معدة الجرو. تمكنت ير أن تدير رأسها بصورة كافية كي ترى جروا إضافيا في جحرها، وأن تشم رائحة الذئب. ربما لأن جسد الذئب تلطخ بشيء من حليبها، ترددت

الكلبة قليلا، وبعد ذلك لكزته بعيدا عنها، وحاولت جاهدة الوقوف على قوائمها والخروج من الجحر، حيث الضوء أفضل، لترى ما الذي كان يحدث هناك.

لكـــن شن دفعها إلى الداخل مجددا؛ كان يفترض بها أن تنفذ أوامر سيدها، وكان يعول عليها كثيرا أن تتقبل هذه الحقيقة الجديدة، أن تطيع، ألا تقاوم. بدأت تتذمر، وبدا واضحا أنها فهمـــت أن سيدها أتى بجرو ذئاب من الجبال ووضعه في جحرها، وينوي أن يفرض عليها أن تغذي واحدا من أعدائها الأزليين. حاولت مرات عديدة الوقوف وسحب حلمة ضرعها من فم الـــذئب، لكـــن شن استمر في دفعها وإرجاعها. كانت الكلبة غاضبة، تعاني حالة من الهياج، والقلـــق، وتحـــس بالقـــرف، لكنها لم تجرؤ على عصيان سيدها، ووجدت نفسها مجبرة على الاستلقاء وهي ساخطة لا تبدي حراكا.

بعد أن هدأت يير تدريجيا، عادت إلى الجحر. كانت الكلبة الأولى التي رباها يانغ وشن، وقـــد أغدقا عليها من الاهتمام الشيء الكثير خلال فترة حملها، وعندما ولدت بطنا من الجراء، وطـــوال الفترة التي كانت فيها ترضع جراءها، حيث وفرا لها الطعام الجيد، والشراب الطيب، وأي شيء آخر تحتاج إليه. كانت لديها وفرة من الحليب؛ في الحقيقة، بعد أن تم أخذ العديد من جـــرائها بعـــيدا عـــنها، توافر لديها كمية من الحليب أكثر بكثير مما تحتاج إليه. لم يكن للفم الإضـــافي، جـــرو الذئب، تأثير على مخزونها من الحليب، حتى إذا ما كانت جراؤها الثلاثة قد أقصيت إلى حلمات أضعف، فإنها ستشرب ما يملأ بطونها ولو بشكل بطيء، وبعد ذلك تزحف فـــوق ظهر أمها وعلى رقبتها، حيث تبدأ باللعب فيقرض واحد منها ذيل الآخر وأذنيه. استمر الجرو بالرضاعة.

تابع شن المراقبة، ولم يعجبه ما رآه. في ذلك الوقت صارت معدة الجرو منتفخة أكثر من بطـــون جراء الكلب، مدّ شن يده ولمس بطنه. كانت مشدودة كأنها طبل، ورقيقة مثل الورق. شـــعر بالقلق من أنها ربما تنفجر إذا ما بقيت على ذلك المعدل، فجذبه من رقبته بلطف. لكن الجـــرو رفض التخلي عن مكانه، حيث بقي متشبثا بحلمة الضرع فامتدت إلى بوصتين مما جعل يير تطلق صرخات تعبر عن تألمها. مدّ يانغ يديه بلهفة وقرص جنبـــي فم الجرو، أخيرا انفلت. أطلق يانغ زفرة ارتياح من الهواء البارد. "يقول الرعاة إن مَعِدات الذئاب مخلوقة من المطاط. إنني أصبحت أصدق ذلك".

بدا شن راضيا بشكل واضح. "يا لها من شهية!"، قال. "إنه مفعم بالحياة؛ لن تكون تربية هذا الجرو صعبة. من الآن فصاعدا سنتركه يرضع كما يشاء".

* * *

كـــان اللـــيل قد أرخى سدوله، لذلك أعاد شن الجرو إلى جحره، ووضع إحدى الجراء الإنـــاث معه ليشعر بالألفة في المكان حتى قبل أن يسقط الغشاء عن عينيه. أراد لهما أن يصبحا

صديقين. أخذ كل منهما يشم الآخر، فمن شأن حليب ير أن يلغي المسافة التي تفصل بينهما؛ بعـــدها التفا حول نفسيهما، وناما معا. اكتشف شن أن إيرلانغ مرابض في مكان قريب، كان يراقب الجرو، وينتبه إلى كل حركة يبديها سيده، فيما هو يهز ذيله، بدت حركات ذيله المهتزة أوســـع قليلا من السابق، وكأنه كان يعبّر لسيده عن موافقته لأنه احتفظ بذئب صغير. لغرض الأمان وحسب، غطى شن الجحر الصغير بلوح خشبـــي، ووضع فوقه صخرة لتثبيته.

كـــان غومـــبو صديقا مخلصا، دمث الأخلاق، لطيف المعشر، وما إن أدخل الخراف إلى حظائرها، وسمع أن شن والآخرين قد سرقوا بطنا من جراء الذئاب، حتى أسرع من فوره يحمل مـــصباحه الكاشف ليلقي نظرة. اكتشف الجلود الخمسة الصغيرة فوق الخيمة فأصابه الذهول. "هنا على أرض أولونبولاغ، لم يسبق أن اقتنص واحد من الصينيين الهان على الإطلاق بطنا من الذئاب. على الإطلاق. تلك هي الحقيقة".

في الـــوقت الذي جلس فيه الطلاب الثلاثة حول الموقد المعدني يأكلون عصائبية الضأن، تناهت إلى مسامعهم أصوات نباح كلاب وأحصنة تهرول. بعدها بوهلة أزاح زانغ جيوان ستارة اللـــباد، وفـــتح الباب. بينما كان جاثما عند المدخل، يمسك بسير عنان حصانين، كانا يضربان الأرض بحوافـــرهما، قـــال: "يقولـــون في مقر القيادة إن قطيع الذئاب الكبير زحف راجعا في مجموعات صغيرة، وقد أمروا فرق الإنتاج الثلاث جميعا أن تبدأ بحملة تطويق الذئاب واصطيادها غدا. إن القاطع الذي يقع في الشمال الغربـــي هو من مسؤوليتنا، بمساعدة بعض الصيادين من فـــرق أخرى، والجميع سيكون تحت قيادة بلغي. يريد قادة الفرق منكم التجمع في خيمة بلغي عـــند الـــساعة الـــواحدة بعد منتصف الليل. يتوقع أن يشمل الأمر الجميع ما عدا كبار السن والأطفـــال، الذين سيبقون هنا لرعي الأبقار والخراف، الجميع يعتبرون جزءا من حملة الصيد. ســـيحرص رعـــاة الأحصنة على أن يحصل كل فرد منكم على حصان، وسيصلون إلى موقع الكمـــين قـــبل الآخرين. خذوا قسطا من النوم. إنني ذاهب الآن. احرصوا، احرصوا تماما، ألا يغلبكم النوم".

أغلق زانغ الباب، ثم قفز على سرج حصانه ليعتلي صهوته، وانطلق يعدو بعيدا.

وضـــع غاو جيانـــزونغ طبقه أرضا، بدت على وجهه أمارات الأسى والاكتئاب، وقال: "لم نكد نحصل على ذئبنا الصغير، والآن تأتي الذئاب الكبيرة إلى هنا. هذه الذئاب ستتسبب في موتي".

- "بعـــد سنوات قليلة نمضيها هنا على السهوب، ربما نصبح نحن أنفسنا ذئابا"، قال يانغ كي.

بدأوا يعدّون عدّتهم لحملة الصيد. ركض غاو إلى الخارج نحو المرعى ليرجع أحصنتهم إلى المنطقة المسيجة بالقش، تركها في الخارج بينما دخل مسرعا، التقط مذراة، وحمل ثلاث أكوام

مـــن القـــش. أطعـــم يانغ الكلاب بعضا من عظام الخراف ولحم الضأن الذي تناولها من سلة مـــصنوعة من أغصان الصفصاف وتفحص السروج، وأربطة البطن، وأعمدة الأنشوطات. بعد ذلـــك ساعد شن زن في العثور على بعض أطواق العنق الجلدية للكلاب. كانوا قد اشتركوا في عمليات صيد صغيرة النطاق من قبل ويدركون أهمية أطواق عنق الكلاب والحبال التي يقودونها بها. ربط شن أحد الأطواق حول عنق إيرلانغ، وأدخل حبل المقود عبر حلقة معدنية، بعد ذلك أمـــسك بطـــرفي الحبل بيده. قاد الكلب، ومشى بضع خطوات؛ أشار إلى الطرف الشمالي من حظيرة الخراف، وصاح "اذهب!"، وأفلت أحد طرفي المقود. انطلق إيرلانغ يعدو، وتحول جزءٌ مـــن الحبل إلى حبل واحد انسل خارجا من الحلقة. جرى الكلب نحو الظلام من دون الطوق، بيـــنما لا يزال حبل المقود الطويل، يتدلى من يد شن زن. يهدف التعامل مع الكلاب على هذا الـــنحو خـــلال الخروج إلى الصيد إلى إبقاء الكلاب دائما تحت سيطرة الصياد، مما يمنعها من الانفـــلات مـــن تلقاء ذاتها فتربك عملية الصيد. في الوقت نفسه، يمكن اصطحاب الكثير من الكلاب من دون ربطها بالحبال التي تجعل حركتها بطيئة.

طـــبق يانـــغ كي الشيء ذاته مع *أصفر*، حيث أدخل المقود في الحلقة، وأجرى تجربة لمرة واحـــدة. أطـــاع كـــلا الكلبين الأوامر، وغدت تحضيرات الرجال خالية من الأخطاء، مما منع الكلبين من الإفلات من مقوديهما.

12

انطلـــق الرجال التابعون لفرقة الإنتاج يمتطون صهوات أحصنتهم، بالإضافة إلى قطيع من كلاب الصيد، مخترقين سواد الليل الذي كان بلون الحبر خلف بلغي، متوجهين إلى شمال غرب الـــسهوب الـــشاسعة. كان يصطحب كل رجل منهم كلبا واحدا على الأقل، وبعضهم الآخر كلـــبين. ارتطمـــت بوجوههم مباشرة رياح هبت من جهة الشمال الغربـــي، لم تكن تهب لا بلطف ولا بقوة مفرطة. ضغط غطاء من السحب الكثيفة بثقله على الأرض، مما أخفى كل أثر للـــضوء المتسلل من القمر أو النجوم. أحاط بهم ظلام لا يشعر المرء معه بالارتياح؛ حتى الثلج الـــذي على الأرض لم يكن مرئيا. شعر شن زن برغبة ملحة في إشعال عود ثقاب ليرى ما إذا كانت عيناه لا تزالان تبصران.

بالاعـــتماد علـــى الصوت وحده، تحرك إلى موضع أكثر قربا من بلغي. "بابا"، قال بنبرة واهـــنة، "هـــل يمكنني أن أضيء مصباحي الكاشف داخل كمي؟ لست متأكدا من أن عيني لا تزالان موجودتين".

- "لا تفكّـــر في ذلك أبدا!"، قال له الرجل العجوز مؤنبا بصوت خافت، حاول فيه أن يخفي حالة من توتر الأعصاب التي تسبق المعركة، وشيئا من القلق.

لم يرد شن بشيء، لكنه تابع المسير وهو في حالة عمى، يرافقه وقع حوافر حصانه.

تحـــرك فريق الصيد بهدوء عبر الليل. كانت الذئاب متفوقة في القتال الليلي، لكن سكان الـــسهوب أيضا بارعون في الهجمات الليلية المباغتة. شعر شن بأنهم يمضون في طريقهم لمواجهة قطيع غير اعتيادي من الذئاب؛ حتى مع الجوع الذي يقضم أحشاءها، بقيت الذئاب تنتظر ليلة حالكة الظلام لتبرز بكامل قوتها. كانت المعركة المرتقبة تكشف عن خباياها بشكل ينسجم مع توقعات بلغي غير الاعتيادية وبأساليب خطط الرجل العجوز لها سلفا. حين أدرك شن أنه على وشـــك المشاركة في منافسة تجري وقائعها على السهوب البدائية بين زوج من ملوك الذئاب، شعر بالابتهاج.

بعـــد اجتياز منحدر معتدل، قادت جماعة الصيد أحصنتها عبر منحدر أكثر حدة بكثير. كـــان بلغي يمضي على صهوة حصانه قريبا من شن زن، وقد غطى فمه بكمه، قال بصوت بدا أكثر استرخاء: "تحتاج إلى تدريب أذنيك إذا كنت تريد أن تصبح صيادا مرموقا. الذئاب تسمع بشكل أكثر حدة من بصرها".

غطى شن فمه أيضا بكم سترته وسأل: "ألست خائفا من أن تسمعنا الذئاب الآن؟".

همس الرجل العجوز: "إننا على منحدر جبلي، والصوت لا يمكنه أن يعبر إلى الجانب الآخر. هناك أيضا ريح تهب بالاتجاه المعاكس، فنحن بأمان إذا أبقينا أصواتنا منخفضة".

- "بابا"، سأل شن، "أنت تستطيع حقا أن ترشدنا إلى البقعة المحددة بالاعتماد على حاسة السمع وحدها؟".

- "كلا"، أجاب الرجل العجوز. "الذاكرة هي العامل الآخر. إنني أصغي إلى حوافر أحصنتي لأعرف نوع الأرض التي ندوس عليها، ما إذا كانت الأرض التي تحت الثلج رملية أو صخرية، ويمكنني أن أدرك أين نحن الآن. ومن أجل ألا أفقد معالم طريقي، أميز اختلاف هبوب الريح على وجهي. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أشم كل شيء. وبكلمات أخرى، أنا أسافر بالاعتماد على الريح والروائح. الريح تحمل روائح الثلج، والعشب، والرمال، والملح الصخري، والذئاب، والثعالب، وروث الأحصنة، وكذلك الروائح المنبعثة من المخيم. أحيانا لا تكون هناك روائح على الإطلاق، عندها ينبغي الاعتماد على أذني وذاكرتي. في وسع بابا أن يحدد معالم الطريق حتى إذا ما تحول الليل إلى ظلمة أشد".

تنهد شن. "كم من الوقت أحتاج كي أتعلم كيفية فعل كل ذلك، بابا؟". سأل.

اجتازوا القمة، ونـزلوا إلى منطقة منبسطة شاسعة، حيث استرد بلغي موقع الريادة؛ وتبعه الآخرون بسرعة وهدوء. أحس الراكبون كأنهم وحدة من الخيالة المدربين تدريبا جيدا، والمكلفين بأداء مهمة ما، بينما هم في الواقع حشد ضعيف مفكك تجمعوا مع بعضهم بعضا خلال وقت قصير من تلقيهم إشعارا بذلك، مجموعة من الناس تضمنت بعض كبار السن، والضعفاء، والنساء، والأطفال.

تـزايد التوتر عندما اقتربوا من البقعة التي شكّلت هدفهم المحدد. لم يمضِ وقت طويل منذ أن أحرز قطيع الذئاب الفوز بالجولة الأولى التي تمثلت في إبادة ماحقة لقطيع أحصنة الحرب. الآن، في الوقت الذي أوشك فيه سكان سهوب أولونبولاغ على التضحية بكل ما لديهم في مواجهة العدو، لا يـزال شيئا مشكوكا فيه ما إذا كانوا سيعيدون التوازن إلى كفة الميزان أم لا. شعر شن بالقلق أن يكون إطلاق هجوم مباغت وعملية تطويق منظمة ضد الذئاب، مع حاستها المتفوقة في الشم، وفي الليل - وقتها المفضل للقتال - شبيها بشخص متدرب يتباهى بعرض مهاراته أمام سيده. في الماضي، كان يجري تنظيم حملات صيد كبيرة، واسعة النطاق سنويا، ولا تنتهي دائما بشيء أكثر من نجاح جزئي، كانت نصف عمليات التطويق تفشل في تحقيق أي غنيمة تذكر. لقد قال رئيس قسم النقل ذات مرة ساخرا: "حملة تطويق... حملة تطويق... حمار بعين واحدة، دائما يطيش عن الهدف".

عندما تؤخذ، المذبحة المأساوية التي تعرضت لها أحصنة الحرب، بعين الاعتبار، وإذا فشلت حملة الصيد في تحقيق أهدافها هذه المرة، فمن المحتمل أن يتم استبدال قيادة المراعي بسواها. قال

منتسبو مقر القيادة إن مراجعهم العليا يستعدون لنقل مسؤولين من لجان أخرى حققت نجاحا في إبادة الذئاب عن آخرها، وذلك لغرض تعزيز كفاءة قياديي أولونبولاغ. ذلك هو السبب الذي جعـل أوليجـي، بلغـي، ورعـاة الأحصنة يوطدون العزم على سحق غطرسة قطيع ذئاب أولونبولاغ. في اجتماع التعبئة، قال بلغي: "في هذه المرة من الأفضل لنا أن نستعد لتسليم، على الأقـل، اثـني عشر جلدا من جلود الذئاب الكبيرة. إذا لم نفعل ذلك ربما يستقدمون صيادين آخرين أيضا لتولي الأمور هنا".

كـان ظلام الليل يزداد قتامة وبرودة. أوشك الهواء البارد القاسي والظلام المحيط بهم أن يـسلبا حـتى أنفاسهم. اقترب يانغ كي وهو على صهوة حصانه من شن زن وهمس في أذنه، "عـندما ننتـشر ستصبح الثغرات التي بيننا كبيرة لدرجة أننا لن نستطيع رؤية الذئاب وهي تمرّ بالقرب من حوافر أحصنتنا. إنني أتساءل عن الأمر الذي يدور خلسة في ذهن بلغي". دس يانغ كـي رأسه في طرف كم سترته العريض ليتأكد من الوقت الذي تشير إليه ساعة الرسغ المضيئة الـتي يضعها. "مضى علينا أكثر من ساعتين ونحن على الطريق"، قال. "إنه وقت التفرق تقريبا، ألا تعتقد ذلك؟".

انحـنى شـن، وألصق وجهه قريبا من كم سترة يانغ إلى أن تمكن من معرفة الوقت الذي أشارت إليه الساعة السويسرية القديمة. فرك عينيه فيما كانت مخاوفه تتفاقم.

على حين غرة، انتشر عطر مشوب بالبرودة حملته الرياح. تلك كانت أعشاب الأرطماسيا[1] الطبـية العطـرة التي ترسل عبقا قويا، وباردا، ومنعشا. حالما داست الأحصنة على الأرطماسيا الكثـيفة جذب بلغي سير عنان حصانه. وحذا الآخرون حذوه. جرى تبادل كلمات هامسة بين الـرجل العجوز ورؤساء فرق الإنتاج الذين هم من خلفه، علاوة على الصيادين الذين كانوا من ضمن المجموعة، وبدأ الصف بالانتشار في كلا الاتجاهين. تحول رتل يتألف من أكثر من مئة خيال بـسرعة، وشكّلوا خطا مستقيما من المقاتلين الذين تفصل بينهم مسافات متساوية. انتشر صوت حوافر الأحصنة إلى مكان بعيد، ومن ثم تلاشى أخيرا. بقي شن زن قريبا من الرجل العجوز.

فجأة، أصيب شن بالعمى بسبب ضوء سلّط عليه. مزق شعاع ضوء تسرب من مصباح كاشف ستر الظلام، وردت عليه أضواء موجهة من كلا الاتجاهين. أومأ الرجل العجوز بضوء مـصباحه الكاشف بحركة متماوجة ثلاث مرات، ونقلت الأضواء البعيدة الإشارة إلى الجزئين الأمامي والخلفي من الصف.

بعـد ذلـك انطلق صوت الرجل العجوز الأجش المرتعش ممزقا جدار الصمت: "وو... هوو...".

---

(1) الأرطماسيا: نبات من الفصيلة المركبة. لأوراقه رائحة قوية.

تـــرددت أصـــداء الصوت وتشظت، وخلال ثوان جاءه الرد: "وو... هوو..."، "بي... هوو..."، "آآ... هوو...".

أصوات ذكور، أصوات إناث، أصوات كبار السن، أصوات شباب، كلها اندمجت معا. كانت الصيحات التي رددتها المجموعة الأكثر قربا، وحدة النساء المنغوليات التي تترأسها غاسماي، عالـــية وواضحة، تراوحت بين العلو والخفوت، وبقيت تتردد في الهواء إلى فترة طويلة. كانت صـــيحات غاسماي ذات رنين مميز وسط صرخات جميع النساء والرجال في فرقة الإنتاج الذين كانـــوا وكأنهم في مناوبة حراسة ليلية يزعقون لكي يخيفوا ويخدعوا الذئاب؛ فرقع الصوت عبر صمت الليل، موجة بعد موجة ضاغطا بثقله باتجاه شمال الغرب.

في الـــوقت ذاتـــه، كافح أكثر من مئة كلب للتخلص من حبال مقاودها، وملأت الهواء بنباح مسعور، تردد صداه كالرعد مخترقا السماء.

على أثر صيحة الحرب هذه، ابتدأت الرشقات الافتتاحية لحرب الأضواء، حيث انطلقت حـــزم إشعاعات الضوء من أنواع المصابيح الكاشفة كافة فاكتسحت الظلام الرابض في الجهة الـــشمالية الغـــربية. وعكست الأرض السوداء بلون الحبر، المغطاة بالثلج على حين غرة حزما شعاعية لا حصر لها من الأضواء الباردة، مما شكّل مشهدا أكثر إثارة للرهبة والخوف في النفوس من صليل السيوف التي تقطع أوصال الهواء المتجمد.

ملأت موجات الصوت وحزم إشعاعات الضوء الفجوات التي بين الناس والكلاب. شكّل البـــشر، ومـــا اصطحبوه معهم من أحصنة، وكلاب، وما ردّدوه من أصوات، وما رسموه من إشارات بوساطة مصابيحهم الكاشفة شبكة متراخية لكنها مؤثرة، وقوية، وحيوية انتشرت فوق السهوب لاقتناص قطيع الذئاب.

تغلغل الشعور بالإثارة في نفوس كل من: شن زن، يانغ كي، وجميع طلاب بكين الآخرين بفعل المشهد الخارق للعادة بحيث أخذوا يهتفون ويصيحون ويلوّحون بأيديهم بحماسة شديدة. ارتفعت معنويات الناس، هزت أصواتهم سكون السماء. صار شن الآن قادرا على رؤية مكانه. إنهـــا بقعـــة تقع في جنوب الموقع الذي حدثت فيه مذبحة الأحصنة ليس إلاّ. كان بلغي قد قاد الجماعـــة بـــلا أدنى خطأ إلى الضفة الشمالية الشرقية من البحيرة العظيمة، حيث تباعدوا عن بعضهم بعضا بعد ذلك إلى الخارج لتشكيل شبكة. حتى قبل أن يتنبه أحدهم إلى ما يجري، كان الـــرجال، والأحصنة، والكلاب جميعا يحيطون بالبحيرة، نصبوا طوقا بسرعة مذهلة عند حافتها الشمالية.

ضـــرب بلغي حصانه بالسوط فيما كان يعدو بمحاذاة صف الصيادين، استكشف الأرض بلهفة بضوء مصباحه الكاشف باحثا عن أي آثار على الثلج، تفحص التشكيل، وزع الناس هنا وهناك حسب ما تقتضيه الضرورة. لحق به شن إلى مسافة قريبة. أوقف الرجل العجوز حصانه.

"مـــرّ قطيع الذئاب من هنا منذ مدة ليست طويلة. أعداد كبيرة منها. هل ترى تلك الآثار؟ إنها طرية. يبدو لي أننا سنمسك بها هذه المرة، ولن يتجمد كل هؤلاء الناس من البرد في هذا المكان من دون فائدة".

- "لم لا نطوق الذئاب هنا عند البحيرة؟"، سأل شن.

- "ذلك لن ينجح"، أجاب الرجل العجوز. "إن قطيع الذئاب يتغذى على لحوم الأحصنة المتجمدة في ساعات الصباح الباكر، وينسل ذاهبا إلى مكان بعيد قبل أن ترتفع أشعة الشمس. إذا أحطـــنا بهـــا في الوقت الذي لا يزال فيه الظلام حالكا، فكيف سنتمكن من الإيقاع بها في الفخ؟ لن تستطيع الكلاب رؤيتها، والذئاب يمكنها أن تهرب في الاتجاهات كافة. سنرجع عندئذ إلى ديارنا بخفي حنين. كان على الفريق أن يشرع بالحركة بعد منتصف الليل وأن يجهز الطوق في المكان المحدد قبل بزوغ ضوء النهار".

تـــتابع تبادل الإشارات من المصابيح الكاشفة من اليسار إلى اليمين. نهض بلغي واقفا على ركابه، متمسكا بمقدمة السرج المستدقة، وأرسل سيلا من الأوامر بالضوء في الاتجاهين، بعضها كانت مفصلة، والأخرى موجزة تماما، تخللتها إيماءات اتخذت شكل دوائر، جميعها كانت جزءا من منظومة معقدة من الإشارات. تقدم الصيادون في شبه دائرة بحركات انتابتها العصبية، ولكن في سياق منتظم، بينما اختلطت صيحات البشر، بصهيل الأحصنة، ونباح الكلاب وتصاعدت موجاتها. تقاطعت حزم الإشعاعات الضوئية على الأرض المثلجة وفي الهواء، وشكّلت مراوح من الـــضوء. كـــان البشر، وما يرافقهم من الأحصنة، والكلاب يزعقون ويصهلون ويعوون حين اكتـــشفوا آثـــار ذئاب على الثلج، إنها علامة مؤكدة على حالة الانفعال التي استبدت بهم فيما كان شبح الحرب يحوم فوق رؤوسهم.

- "ما الذي تعنيه إشاراتك التي ترسلها؟"، سأل شن.

مـــن دون أن يـــتوقف عن إرسال إشاراته، قال الرجل العجوز: "إنني أطلب عبرها من الناس الـــذين في جهة الغرب أن يبطّئوا خطواتهم، ومن الذين في جهة الشرق أن يسرعوا قليلا لكي يلتقوا مع الناس الذين ينـــزلون من الجبل. احتاج إلى الناس الذين في الوسط لأن يجعلوا صفوفهم متماسكة وألا يفرطوا بالحماسة. التحرك قبل الأوان يعتبر سيئا مثله مثل البدء من وقت متأخر جدا".

نظـــر شن إلى السماء، التي لم تعد تمثل ستارة فولاذية؛ كان في وسعه أن يميز الغيوم التي تنجرف إلى جهة الجنوب الشرقي وقد ظهر قليل من البقع الرمادية على حوافها.

الـــتقطت الكلاب الكبيرة مسبقا رائحة الذئاب، وغدت أصوات نباحها مشوبة بضراوة وطيش أكبر. كان إيرلانغ يعض على مقوده، ويتقاتل معه، ويكافح كي يندفع إلى الأمام. فيما تـــشبث شن به محاولا إرجاعه بكل ما لديه من قوة، مدّ يده، وضرب بخفة على رأس الكلب بعمود أنشوطته ليجعله يطيعه.

في الــوقت الذي كانت فيه أغلب آثار الذئاب تشير إلى اتجاه شمال غرب، تفرق بعضها باتجاهات أخرى. لم يتوقف بلغي قط عن تفحص الآثار أو إرسال الإشارات الضوئية.

– "كيف كان الناس يؤدون هذا العمل قبل أن توجد مصابيح كاشفة؟"، سأل شن.

– باســتخدام المــشاعل، قطع من الخشب يلف عليها جلد منقوع بالزيت. كانت ترسل ضوءا وهاجا مثل هذه المصابيح، وترعب الذئاب حتى الموت. إذا هاجمك واحد منها يمكنك أن تحرق فراءه.

* * *

فــيما انتشر الضياء في صفحة السماء، استطاع شن التمييز بين مناظر السهوب؛ ذلك هو المكان الذي كان يرعى فيه خرافه لأشهر عديدة. هناك بعيدا في الجهة الشمالية الغربية، كان في وســع شــن أن يرى في عيني ذهنه حوضا واسعا تحف به الجبال من ثلاثة جوانب، مع منحدر ســهل في ناحــية منه. ربما ذلك هو المكان الذي خطط بلغي لأن يحكم غلق الأنشوطة عنده. ربــض رعاة الأحصنة في كمين خلف الجبال، حالما تساق الذئاب نحو الحوض سيغلق الرجال، والأحــصنة، والكــلاب الذين خلفها البوابة، وستبدأ حرب الإبادة. لكن شن لم يستطع حتى تخمين عدد الذئاب التي ربما يتم اصطيادها. لو كان القطيع كبيرا حقا فإن الذئاب التي يتكلمون عــنها ســترد على ذلك بالقتال بالمثل، وسيتحتم على الصيادين الاشتباك معها في قتال قريب. أخرج شن عصا الرعاة من السرج وحركها دائريا حول رسغه، كأنما كان يتهيأ لتجريب مهارة باتو المميزة في قتل الذئاب مع أنه لا يزال يشعر بالذعر.

ازدادت الــرياح قوة، وتحركت الغيوم بسرعة أكبر؛ وتسربت حزم أشعة الشمس من بين الغيوم لتجلب معها شيئا من الضوء الخافت إلى السهوب. انبثقت صرخات مفاجئة من الرجال حيــنما وصــلوا إلى جوف الحوض. على ضوء الصباح الخافت، رأوا نحو عشرين ذئبا ضخما تــتقدم خطوات ثم تتوقف، تتلفت حولها، لكنها لا تجرؤ على التحرك إلى داخل الحوض. قريبا مــن الفتحة المؤدية إلى الممر تحرك قطيع آخر منها داخل وخارج مجال الرؤية؛ بدا أنها هي أيضا كانت منشغلة بشأن استعراض الموقف على الأرض. كل ما عرفه أنها ربما حصلت مسبقا على نفحة عن الخطر الذي كان يكمن أمامها.

أطلــق شن زفرة مشوبة بالانبهار والإعجاب من حسابات بلغي الدقيقة، وإرشاداته التي أعطاهــا لتشكيل الصف الذي سينفذ عملية التطويق. في الوقت الذي أدرك فيه قطيع الذئاب طبــيعة المكان الذي اقتيد إليه، ورأت الذئاب صفا من الصيادين الذين كانوا يطوقونها، كانت الأنــشوطة قــد أطبقت عليها بإحكام؛ عندما فقدت المصابيح الكاشفة قدرتها على التخويف أصــبح بالإمكان رؤية أنشوطات الصيادين. في الحقيقة كانت الذئاب قد صارت محاصرة حين تقارب طرفا شبه الدائرة من الحواف الخارجية للحوض.

* * *

بعد أن خمنت العديد من ذئاب القيادة طبيعة الموقف، استدارت، ومن دون أن تتردد ولو للحظة واحدة، قادت القطيع عائدة به إلى المكان الذي أتت منه. كانت قد التهمت منذ وقت قــصير مــلء بطونها من لحم الأحصنة، وهي الآن تتمتع بمستوى مدهش من الحيوية. ركضت باقــتدار وضراوة رهيبة. ارتفعت طبقة مروعة من السديم الذي شكلته الذئاب على الثلج فيما هي تشق طريقها كتيار متدفق عبر الممر؛ لم يكن ثمة شيء كما يبدو يمكنه أن يوقفها. تصاعدت صــيحات الــرعاة في الوقت الذي كانوا فيه يلوّحون بأعمدة الأنشوطات بأيديهم، ويتقدمون بأحــصنتهم خــارجين من مخابئهم لملاقاة الذئاب المهاجمة. تحرك الخيالة على الطرفين بسرعة لإغلاق الثغرات التي فتحت.

حافظ هجوم الذئاب على زخمه، إلا أنه غيّر اتجاهه الرئيسي قليلا في محاولة منه لاختراق موقع مجموعة النساء، اللواتي كن يرتدين أكثر الملابس بريقا وتنوعا في ألوانها ولم يكن لديهن إلا عــدد قلــيل مــن الأنشوطات. لم يبدُ الشحوب على وجه واحدة من النساء، ومن ضمنهن غاسماي، خوفا من الهجوم. نهضن على ركاب الأحصنة، وضربن بعنف، وصرخن من أعماقهن بأعلى الأصوات، كما لو أنهن قد هيأن مسبقا لإغلاق الطريق بأذرعهن ليس إلاّ. ولكن ما دام لــدى النــساء بعض الأنشوطات، فقد أدركت الذئاب أن هذا الموضع هو الحلقة الأضعف في السلسلة، وراودها أمل في اختراقها وذلك بتركيز القوة وبالتصميم الذي لا يلين. كاد قلب شن يتوقف وهو يفكّر في احتمال كان قد بدأ يلوح في الأفق في أن يحدث انهيار في الصفوف.

في تلك اللحظة، هبّ بلغي واقفا على ركاب حصانه، رفع ذراعه عاليا، ثم أسقطها بحدة. "أطلقــوا الكــلاب!"، صاح. عندها ارتفعت، من بداية الصف إلى نهايته، صافرات وصيحات أوامــر، حين تخلى ساسة الكلاب عن مقاودها، فانفلت أكثر من مئة كلب مكشرة عن أنيابها بقــوة لا يُكبح جماحها، وعيون محمرّة تكاد أن تتفجر غضبا باتجاه الذئاب من جهات الشرق، والجــنوب، والغرب. توجه الكلب بار، وإيرلانغ، والعديد من الكلاب الأخرى من بين أكثر الكلاب ضخامة، وأشجعها، وأشدها ضراوة، حيوانات قاتلة فتاكة تابعة لفرقة الإنتاج، متوجهة فــورا إلى قادة قطيع الذئاب. أما الكلاب الأخرى فقد تبعتها، وهي تبدو متلهفة أيضا لإظهار بأســها بحماســة بحــضور سادتها، حيث كانت تنبح بجنون فيما سعى كل منها للتغلب على الآخرين في الهجوم.

في غــضون ذلك كله، أسرع الخيالة لتقوية الصفوف، أولئك الذين كانوا يحملون أعمدة الأنــشوطات، نخسوا أحصنتهم للإسراع في الانضمام إلى الهجمة التي شنّتها الكلاب. تصاعد نثار الثلج والغبار من بين الحوافر الساحقة؛ ملأ المحاربون المنغوليون البواسل الجو بنوبات فظيعة مــن الــصراخ كانت في وقت من الأوقات قد أثارت الهلع في أرجاء العالم، وهزت أركانه – ها!... ها!... ها!... – رافقها قرع إيقاعي لحوافر أحصنة تسابقت في عدوها المحموم.

هزت الحركة الهجومية الرهيبة صفوف الذئاب، وتقهقر قادها إلى أن توقفوا، ثم استداروا، وقادوا القطيع في سباق نحو الممر الجبلي، وسيلتهم الوحيدة للانسحاب من المعركة، وفرصتهم للالتحاق بالذئاب التي تقبع في مكان قريب خلف الجبل. تشتت تشكيل الذئاب، اتجهت إلى ثلاثة منحدرات منفصلة كي تتخلص من قبضة الطوق، ولكي تسلك الأراضي المرتفعة، فهي إما أن تبلغ قمم الجبال وتتحول إلى مسار دائري، أو تهاجم منحدرة من سفح الجبل.

انتشر تشكيل الصيادين إلى الخارج بحيث كوّن صفا مستقيما، وأغلق الممر الجبلي. لقد وضع بلغي الذئاب تماما في المكان الذي أراد لها أن تكون فيه.

* * *

في الناحية الأخرى من الجبل، بقي المدير أوليجي وممثل الجهات العسكرية باو شنغوي مختبئين بين الأعشاب الطويلة، كانوا يراقبون الموقف الذي يجري أمام عيونهما بعصبية في ميدان المعركة. خبط باو شنغوي قبضته على الأرض الثلجية باهتياج. "من قال إن بلغي يقف دائما إلى جانب الذئاب؟"، قال هاتفا. "انظروا، لقد أوقع قطيع الذئاب هذا بالفخ في الزمان والمكان المناسبين تماما كما يفترض به. إنه إنسان مذهل. لم أشاهد على الإطلاق مثل هذا العدد الكبير من الذئاب. على المرء أن يوكل المهمة إلى الرجل العجوز. سأحرص على أن يمنح مكافأة على خدمته".

تنفس أوليجي الصعداء أيضا. كان هناك، كما رأى، أربعون أو خمسون ذئبا وقعت جميعها في الفخ. في السنين الماضية، كان القطيع الذي يتألف من عشرة أو عشرين من الذئاب يعتبر أقصى ما يمكنهم أن يطمحوا لاقتناصه. لكن بلغي كان ذئب أولونبولاغ الأكبر. في كل سنة كانت تجرى فيها حملة صيد بالتطويق، وإذا لم يكن هو الذي يتولى مسؤولية القيادة فلا يشعر الصيادون بالرغبة في المشاركة. كانت مذبحة الأحصنة قد شحنته بالغضب. استدار أوليجي نحو باتو وقال له: "انقل هذا الأمر: على الجميع ألا يطلقوا النار من أسلحتهم، ولا حتى في الهواء. هناك الكثير جدا من الناس في هذا المكان اليوم، ليس في وسعنا المخاطرة أن تصيب طلقة طائشة شخصا ما".

- "بلغتهم بذلك عدة مرات حتى الآن"، قال باتو.

هناك خلف الجبل، كان رعاة الأحصنة والصيادون جاهزين على سروجهم، بانتظار الإشارة. كانوا يمثلون أفضل ما يمكن للمروج من أن تقدمه، خبراء في ركوب الأحصنة يتمتعون بمهارات مذهلة في استخدام الأنشوطة وعصيّ الرعاة. ومن أجل حملة الصيد هذه كانوا قد اختاروا أسرع ما لديهم من أحصنة، وأكثرها نشاطا وحيوية، تلك الأحصنة التي أشبعوها دلالا عادة، ذلك لأنهم لا يزالون يمتلئون بالغضب على خسارة قطيع الأحصنة، غضبا خططوا لأن يتطهروا من عقدته هذا اليوم. عندما سمعت الأحصنة صوت النباح المسعور للكلاب، استحوذ

علـــيها توتر ما قبل المعركة. أخفضت رؤوسها في الوقت الذي كانت فيه تشد أعنتها، نبشت الأرض الثلجية بحوافرها، بينما انتفخت عضلات الصدر والقوائم. كانت قوائمها الخلفية كأنها نوابض الفخ، في اللحظة التي يرخي فيها راكبوها الأعنة، ستندفع إلى الأمام. جرى أيضا اختيار كـــلاب ربطت بالمقاود بسبب ضراوتها، ويقظتها وشدة حذرها، وتدريبها المكثف. سمعت هي أيـــضا أصـــوات المعـــركة التي على وشك أن تدور رحاها، لكنها بقيت ساكنة، بينما فغرت أفواهها، وتسمرت عيونها على سادتها، كانت كلابا ذات انضباط رائع، ومحاربة قديمة مجربة في المعارك.

أحنى أوليجي وباتو جسديهما ببطء، على استعداد لإعطاء الإشارة.

بـــدا كأنمـــا تركّزت القوة الرئيسية لقطيع الذئاب على اختراق الطوق في النقطة الأعلى البعيدة إلى الجهة الشمالية الغربية. لم يكن الرجال وما لديهم من الأحصنة، ولا الكلاب أندادا للذئاب في السيطرة على الأراضي المرتفعة. باستخدام بنيتها الجسمانية المقتدرة، وطاقتها التي لا تجـــارى في الـــتحمل، ومثابرتها على الجري التي تحسد عليها، كانت قادرة على جعل أعدائها يجـــرون لاهثين خلفها نحو قمم الجبال. حتى كلاب الصيد والأحصنة القليلة التي يحمل راكبوها الأنشوطات، والتي تتمكن من التغلب على الذئاب في الجري على الأرض المستوية، سرعان ما تتخلف إلى مسافة بعيدة عندما تبدأ الذئاب بالركض صوب أعالي الجبال. عندما تصل الذئاب إلى قمـــة الجبل تتوقف لالتقاط أنفاسها، وتبحث عن أكثر السبل أمانا للتملص من عدوها - منحدر أكثر حدة، واد متوار بعيد عن الأنظار، وهاد سحيقة - وتتحرك نحوها بسرعة البرق. في أوقـــات كثيرة، عندما كان يصل الحصان وراكبه إلى القمة، تكون الذئاب قد اختفت من دون أن تترك أي أثر؛ وإذا حصل أن أمكن لأحدهم رؤيتها بسهولة، فستكون بعيدة مسبقا عن مرمى نيران البندقية.

ركـــضت الـــذئاب إلى الجـــبل بأقصى سرعة، أما ملاحقوها فقد تخلفوا وراءها. كانت الـــذئاب الأسرع في مقدمة القوة، وصل الذكر الأكبر للقطيع والعديد من الذئاب الكبيرة إلى مـــسافة بعـــيدة على سفح الجبل. أشار أوليجي إلى واحد منها، ذئب له فرو يمتزج فيه اللون الـــرمادي باللون الأبيض على رقبته وصدره، وقال لباتو: "ذلك هو القائد! إنه الذئب الذي قاد قطيع الذئاب في مذبحة الأحصنة. إنه من نصيبك. هيا بنا!".

كـــان قطـــيع الـــذئاب يبعد عدة مئات من الأقدام. تراجع باتو خطوات، انتزع عمود أنشوطته، ووثب واقفا على ركاب حصانه. امتطى أوليجي حصانه وصرخ: "هجوم!".

دفـــع باتو عموده في الهواء، وكأنه راية المعركة، فيما صاح رعاة الأحصنة "هيا! هيا!". وصـــلت كـــلاب الصيد والأحصنة إلى قمة الجبل في وقت واحد تقريبا. حانت ساعة الصفر بالنسبة إلى الكلاب للانطلاق إلى أهدافها، فاندفعت مثل الطوربيدات. انطلق ثلثا رعاة الأحصنة

في المقدمـــة، وشكّلوا شبه دائرة حين وصلوا تقريبا إلى منتصف المسافة إلى أعلى الجبل، حيث الـــتحقوا بالـــصيادين الذين كانوا تحت قيادة بلغي. أما الثلث المتبقي فقد تقدموا مباشرة باتجاه الذئاب وهم يشهرون أعمدهم الطويلة.

عـــندما انطبق الفخ على الذئاب، تبعثرت صفوفها، وواجهت فوضى عارمة. كانت قد علّقت في فخ من النوع الذي تستخدمه بنفسها بمثل تلك المهارة والإتقان. بالرغم من كل تلك الخـــبرة، خـــضعت لرعب أكثر من الغزلان التي أوقعت بها ذات مرة بالفخ، وتصرفت بغضب عنـــيف. في الـــوقت الذي تخلت فيه عن شعورها بالعار، وأفسحت مجالا للتعبير عن الغضب، استدارت، وقفلت عائدة إلى أسفل الجبل، متخلية بذلك عن الأرض الأكثر ارتفاعا لكي تخوض معركة حاسمة مع الرجال والكلاب. شقت طريقها بلا مبالاة مشوبة بالتهور ومستخفة بحياتها، نحو صف الكلاب المهاجمة، مما جعل الكثير منها تتعثر وتسقط وتتدحرج. تحول المنحدر الثلجي إلى موقـــع معـــركة ضارية مهولة اشتبك فيها الطرفان عن قرب، وتلاقت الأنياب - بين ذئب وكلـــب - تنهش وتمزق، مما جعل الثلوج تتطاير وهي تحمل فرو الحيوانات. أصدرت الكلاب عويلا، وعوت الذئاب، وانبجست دماء الكلاب والذئاب من الرقاب والرؤوس. كان الطلاب المرتعبون، الذين لم يسبق لهم أن شاهدوا مثل هذا القتال الدامي أبدا، عاجزين عن التفوه بشيء.

في تلـــك اللحظـــة، كان باتو يحدّق إلى ملك الذئاب ذي الفرو رمادي اللون من مكان مرتفع على الجبل. لوّح بعمود أنشوطته، ثم هجم باتجاهه. لكن قائد الذئاب لم يندفع إلى أسفل الجـــبل مع قطيعه، بل اختار أن يدير ظهره ويركض مباشرة إلى ناحية الغرب. أحاطت به أربعة أو خمـــسة ذئـــاب في محاولة لاختراق الطوق. اتجه باتو، بصحبة ثلاثة صيادين وخمسة كلاب، وأسرع يعدو وراء الذئب القائد ومرافقيه. لكن ملك الذئاب، بمعرفته العميقة بالمنطقة، نظر إلى ممر بديل للهرب، لكنه محفوف بالمخاطر. كانت الأرض التي تحت الثلج مغطاة بصخور صغيرة لكـــنها ملساء، وحالما استقرت الذئاب عليها حتى بدأت الصخور تتدحرج على سفح الجبل. لكـــن الـــذئاب بأكفها الضخمة، المبطنة بجلد سميك، كانت قادرة على الجري بسرعة واجتياز الـــصخور الملـــساء مـــن دون أن تنـــزلق إلى أسفل الجبل، تاركة خلفها انهيارا ثلجيا هادرا. اســـتطاعت الكلاب أيضا، بحوافرها الأصغر حجما، أن تشق طريقها بتعثر مندفعة إلى الأمام، وتحـــافظ على ديمومة المطاردة، لكن الأحصنة لم تكن مثلها. لم يكد الصيادون الثلاثة أن يصلوا إلى المـــنحدر الـــصخري حتى زلت قوائم أحد الأحصنة، مما جعله يتعثر براكبه ويسقطان معا أرضا، على إثر ذلك انشطر عمود أنشوطته إلى ثلاث قطع. أما الصيادان الآخران المرتعبان فشدا على سيري عناني حصانيهما، ووثبا عن سرجيهما، وأسرعا لنجدة رفيقهما.

ولأن هـــواجس الانتقام كانت قد استحوذت على باتو، فقد ترجل عن حصانه، واضعا عمـــود أنشوطته بشكل عمودي ليستخدمها كعصا يتكئ عليها في المشي، كانت ذات طرف

مستدق يخترق الفجوات التي بين الصخور، وتابع المطاردة مشيا على القدمين، بينما سار الحصان خلفه. "أمسك به!"، صاح. "أمسك به!". وبينما كان يعبر فجوة بين الصخور سمع أصوات نباح مشوبة بالألم تصدر من الكلاب، وثب من جديد على السرج، ومضى يعدو بسرعة باتجاه مصدر الصوت. بعد ذلك بلحظة، رأى أحد الكلاب مسجى على الأرض، شبه ميت، ورأى كلبا آخر قطعت أذنه، وتغطى وجهه بالدماء. تراجعت الكلاب الثلاثة الأخرى مرتعبة، وشعر أعناقها مغبر أشعث. حالما أبصرت الذئاب عمود الأنشوطة، استدارت، وركضت نحو واد كثير القصب، تبعها باتو، وأحد الصيادين، وثلاثة كلاب غير مصابة بجروح.

بعد أن أبصر أوليجي باتو ممتطيا حصانه فوق حافة صخرية، قاد باو شنغوي متجها إلى أفضل بقعة تشرف على عملية التطويق، حيث يستطيع مراقبة المعركة ميدانيا ونشر قواته بكفاءة، وذلك لكي يحكم غلق الأنشوطة بشكل بطيء لإيقاع الذئاب في الفخ. كان لدى جميع الصيادين المنغوليين المتمرسين في خوض المعارك استيعاب فطري للموقف وفهم تام لمسؤولياتهم: لم يكن أي منهم يقاتل من أجل كسب مجد شخصي. تعرض كل ذئب كان قد تمكن من اختراق الطوق على الفور إلى هجوم عنيف من قبل واحد أو اثنين من هؤلاء الصيادين *الذين كانوا في الخارج* فوقع أحدهم في أنشوطة أو انجرف إلى الوراء داخل الدائرة. حتى الثغرات التي انفتحت عندما كان هؤلاء الصيادون في طريقهم قد أغلقت بسرعة من قبل أشخاص آخرين للحفاظ على تماسك التشكيل.

كان مركز الدائرة عبارة عن كتلة من الرجال، والأحصنة، والكلاب، والذئاب. تمددت بضعة كلاب وذئاب على الأرض من دون حراك، بينما تدفق البخار والدماء من جروحها المميتة. أحاط عدد كبير من الكلاب، يصل إلى 170 كلبا، بأربعين ذئبا أو أكثر. وقفت الكلاب كتفا إلى كتف، وظهرا إلى ظهر، وتلامست ذيولها، وكشرت عن أنيابها، مواجهة الموت بدفاع متماسك. تمزقت صدور وأكتاف كثير من الذئاب والكلاب، ونزفت منها الدماء. خلف خط جبهة الكلاب هزّ عشرات من راكبي الأحصنة أعمدة أنشوطاتهم راكضين وراء الذئاب التي كانت في العمق. تقاتلت الذئاب والكلاب بضراوة، عضت بأنيابها ونهشت بمخالبها؛ كان من المستحيل فعلا أن يتمكن المرء من أن يعرف أين تنتهي الذئاب وأين تبدأ الكلاب، مما جعل من الصعوبة على الصيادين مدّ أنشوطاتهم، إذ لا أحد منهم كان يريد أن يصيب كلبا بحركة غير موفقة أو أن يمسك واحدا من كل نوع في الأنشوطة ذاتها. ولم يكن أحد منهم ليجرؤ أيضا على شن هجوم، ما دام هناك الكثير من الذئاب التي تتمتع بروح قتالية عالية جدا؛ ما زالت تقاوم في ميدان المعركة، وأن هجوما طائشا كان من شأنه أن يستهل محاولة منسقة من الذئاب لاختراق صفوف الكلاب والرجال مما قد يسبب الارتباك، ومن هناك يمكنها أن تسلّط ضغطا على حاملي الأنشوطات اللاهثين وراءها.

هزّ بضعة من الصيادين الأكثر تمرسا أعمدة أنشوطاتهم، ودفعوا بها إلى الأمام فوق رؤوس الـذئاب، انتظروا إلى أن ينفصل واحد منها مبتعدا عن القطيع؛ حين يحصل ذلك سينزلون الأنشوطة – لا يبالون حينها إذا ما استقرت حول الرقبة، أو الجسد، أو القائمة – ويسحبونها بعنف، ويجرون الذئب لدرجة كافية لأن تقفز الكلاب القاتلة عليه وتمزق رقبته.

انتشر الطلاب والنساء والأطفال خارج منطقة التطويق. أرسل بلغي كل من شن زن ويانغ كي إلى منتصف الطريق على سفح الجبل، حيث يمكنهما إلقاء نظرة، لا يعيقها شيء، على ما يحدث في الأسفل.

كان من المحتم أن تقع الذئاب، واحدا تلو الآخر، في شباك الأنشوطة، تجرجر بعيدا، ومن ثم تنقض الكلاب عليها. تصاعد عواء أجش من حناجر الذئاب التي وقعت في الفخ، وعلى الفور غيرت الذئاب تكتيكاتها: فبدلا من الوثوب والانقضاض على رقاب الكلاب، صارت تخفض رؤوسها وهي تقاتل، مما يجعل من المستحيل الإيقاع بها في الأنشوطة.

راقب شن المعركة بمنظاره المقرب، ورأى أنه بالرغم من أن فرصة فرار الذئاب كانت شبه معدومة، إلاّ أنها لم تتخلّ عن حكمتها. لم تقتنع بالإطاحة بفرد واحد من أفراد العدو، ولم تستبد بها نشوة الفتك بفردين اثنين، كانت تسعى جاهدة لقتل أكبر عدد ممكن من كلاب الصيد، وهي القوة الرئيسية التي تحاصرها. قاتلت الذئاب بتشكيلات تتألف من ثلاثة أو أربعة ذئاب معا، كانت تسارع لمساعدة أحدها الآخر، مستخدمة أنيابها المهلكة، وقد تذوقت طعم الدماء مع كل قضمة.

على حين غرة صاح بلغي، الذي كان يعطي توجيهاته للحملة من خلف حلقة الصيادين، "اهجم!، بار، اهجم!". بعدها أعطى الإشارة بالتراجع.

كان شن ويانغ يعلمان ما الذي يدور في ذهن الرجل العجوز. "إيرلانغ، اهجم!". صاحا. "إيرلانغ، اهجم! اهجم! اهجم!".

فهم كلا الكلبين المتوحشين، واللذان احمرت عيونهما غيظا، الصرخات والإشارات التي رسمت لهما بالأيدي؛ تراجعا خطوات عدة، وغيّرا التكتيك. اندفعا بجنون مصحوبين بهدير عارم، متوجهين نحو أضخم ذئب في القطيع، الذئب القائد. كان إيرلانغ، الكلب الأسرع، هو الذي اصطدم بالذئب في البداية، دفعه إلى الوراء ثلاث أو أربع ياردات تقريبا؛ لكن الذئب بقي واقفا على قدميه، في الوقت المناسب تماما انقض عليه بار الكلب الضاري، الأثقل وزنا، وارتطم به، وكأنه مطرقة ثقيلة مما جعل الذئب يفقد توازنه ويسقط أرضا. بعد ذلك، وقبل أن يتمكن الذئب من النهوض على قدميه من جديد، هجم إيرلانغ، ومن دون أن ينتظر المساندة من أحدهم، غرس أنيابه في حنجرة الذئب القائد، وأصاب شرايينه السباتية فانفجرت أربعة تيارات من الدماء تتدفق إلى السماء ثم تتساقط على الأرض الثلجية؛ أثار وجه إيرلانغ الملطخ بالدماء

رعـــبا في صفوف قطيع الذئاب. كشر قائد الذئاب وهو يحتضر، عن أنيابه، وحاول أن ينهش إيرلانغ بوحشية مستغلا ما تبقى لديه من قوة، تاركا آثار دماء على صدر إيرلانغ وبطنه؛ لكن ضـــراوة الكلب كانت أعظم، لم يكن هناك شيء يمكن أن يجعله يتخلى عن رقبة ضحيته حتى تهاوى الذئب وقضى نحبه. كان قطيع الذئاب يعرف هذا الكلب المتوحش؛ وقد جربوا مهاراته القتالية من قبل. تراجعت الذئاب بعيدا، أرادت البقاء بمنأى عن الكلب الذي فتك بقائدها.

اســـتفادت الكـــلاب الضخمة الأخرى من هذه الخطة، على ما يبدو، ذلك لأنها بدأت تـــصطدم بالـــذئاب وتجعلـــها تترنح. استمر إيرلانغ وبار، الكلبان القاتلان، بالقتال في هياج إجرامـــي، شـــقا ثغـــرة في دفاعـــات الذئاب، وتركا الصيادين يدخلون منها. انهالت أعمدة الأنـــشوطات علـــى قطـــيع الـــذئاب، خلخلت تشكيله، وجعلت الكثير من الذئاب تقع في الأنشوطات، أو بين أنياب الكلاب التي تنتظرها.

بعد أن أدرك قطيع الذئاب أن المعركة أضحت خاسرة، تبعثرت صفوفه، وصار يجري في جمـــيع الاتجاهات بالاعتماد على بأس وشجاعة كل فرد من أفراده، من أجل أن يخترق الطوق، ممـــا أحدث إرباكا في مسار خطة المعركة؛ إنها الفرصة الأخيرة للذئاب للنجاة بحياتها والفرار. ولكن أحاطت على الفور العديد من الكلاب بكل ذئب شارد برفقة صياد أو اثنين؛ كان الهرب شيئا مستحيلا. هجمت الحلقة الخارجية من الصيادين – رجالا ونساء، صغارا وعجائز – وقد شهروا أعمدة أنشوطاتهم وصاحوا بصوت واحد كأنما هم جوقة من المنشدين.

في الحلقـــة الداخلـــية رأى لامـــياف، الذي كان على الدوام يعتبر نفسه ذئبا، زوجا من الكلاب يشتبكان مع أحد الذئاب؛ انطلق يعدو على حصانه، انحنى على السرج، وحمل أنشوطته بوضـــع منخفض بحيث يكفي للذئب أن يمر من خلالها، بعدها نخعها إلى الأعلى فتعلقت قائمتا الـــذئب الخلفيـــتان في الأنشوطة. قبل أن يتمكن الذئب من الاستدارة ومهاجمة العمود، التف لامـــياف حول نفسه، وجر الذئب بعيدا كأنه كيس من الخيش. قشطت مخالب الذئب الأمامية الأرض في محاولة يائسة للهرب، ترك ذلك شقوقا على الثلج فيما كان لامياف يصيح بالكلاب.

كان اقتناص ذئب بالأنشوطة على السهوب عملا شاقا، أما قتل ذئب فهو أكثر صعوبة. تكـــون أعناق الذئاب قصيرة وثخينة بحيث يمكن لها بسهولة أن تنـــزلق وتفلت من الأنشوطة. إنها عملية تشبه ربط جذع شجرة بالحبال، ثم سحبه بقوة، فكثيرا ما ينـــزلق الحبل ويخرج منه جـــذع الشجرة. لذلك يفضل الصيادون المتمرسون الإمساك بالذئب من وركيه، الجزء الأكثر نحافـــة من جسده؛ إذا كانت المسكة ناجحة فلن يفلت ذئب منها. عندئذ يأتي العمل المخادع لقـــتل الذئب. إن سحب الذئب من العنق ينتهي عادة بالاختناق، لكن عندما تكون الأنشوطة حـــول وركيه، وإذا اشترك في العمل صياد واحد ليس إلاّ، فستتفاقم الصعوبات، وحين يترجل الـــصياد عـــن حصانه، سيعود الذئب ليهاجم باتجاه العمود، وغالبا ما يؤدي ذلك إلى انشطار

العمود إلى نصفين، عندها إما أن يهاجم الصياد أو يولي هاربا. لا ينتظر الصياد، الأكثر جسارة ومهــارة من سواه، أن ينهض الذئب على قائمتيه، وإنما يسحبه قريبا منه ويقتله بعصا الرعاة أو بــسكين. لا يجرؤ أغلب الصيادين على مهاجمة ذئب من دون سلاح، يمكن أن يضحوا بالجلد، ويضطروا إلى سحب الذئب حتى يصبح في متناول صياد آخر، أو قريبا من الكلاب.

ســحب لامــياف الذئب الذي اصطاده إلى بقعة كان فيها الثلج أكثر عمقا، وفتش عن كلــب قاتل. أحاطت العديد من الكلاب بالذئب، ملأت الجو بنباحها، وأخذت تنهش الذئب هــنا وهناك قبل أن تتراجع، لم تكن على استعداد للاشتراك في قتله. حين رأى أن إيرلانغ كان لــتوه قــد قتل ذئبا من حنجرته، سحب لامياف الذئب الذي اصطاده باتجاه إيرلانغ وصاح، "اقتل! اقتل!".

تــرك إيــرلانغ الذئب الذي أصيب بجروح مميتة، ارتد على أعقابه، ولحق بالذئب الذي اصــطاده لامياف، أمسك برأسه وصدره بكفيه الأماميتين، وغرس أنيابه في حنجرته. ومع أن الشرايين السباتية للذئب كانت قد تقطعت، إلاّ أنه حاول أن يقاتل إيرلانغ بمخالبه؛ لكنه أخفق.

وثــب لامــياف عن السرج، وصاح بالصيادين الآخرين، "اسحبوهما من هنا. إنهما ليسا ندّين لهذا الذئب!".

في مكــان قريب كان بار ينهش ذئبا تم الإيقاع به في أنشوطة. كان العديد من الصيادين الــذين أوقعوا الذئاب في أعمدة أنشوطاتهم يسحبون ضحاياهم إلى حيث إيرلانغ وبار ليجهزا عليها بسرعة.

لكــنهما لم يكــونا الكلبين الوحيدين اللذين اشتركا في سعار القتل. أظهرت العديد من الكــلاب قواها الشخصية. كانت قتلة ذئاب مشهورة يمتلكها دورجي، كل واحد منها سفاح مدرب، وهناك ثمانية منها عملت بتنسيق كامل مع الآخرين: طاردت الكلاب السريعة الذئاب؛ أما البطيئة منها فكانت تنطحها وتسقطها أرضا، وتنقض عليها حتى تأتي رفاقها الأكثر ضراوة وتعمــل أنيابها في رقابها. قاتلت الكلاب كوحدة متراصة، لم تقاتل على انفراد أبدا. تلك هي الطــريقة الــتي اتبعتها الآن؛ فريق من ثمانية كلاب قاتلة تقتل ذئبا بعد آخر، بسرعة، وبكفاءة، هناك ثلاثة ذئاب حتى الآن و لم يقف الأمر عند ذلك.

عمــل الصيادون أيضا في مجموعات تتألف كل منها من ثلاثة أو أربعة أفراد منهم. وفي الــوقت الذي كان يمسك فيه كلب ما بأحد الذئاب، يقفز عليه صيادون آخرون، يمسكون به من الذيل ومن قائمتيه الخلفيتين، ويهشمون رأسه بعصيّهم. انبثقت صيحات وحشية من ناحية شمال الغرب، حيث كان خمسة أو ستة صيادين يطاردون زوجا من الذئاب الضخمة.

لم يكــن لدى الذئبين، اللذين أصيبا بالدوار بسبب الانتقال من صياد إلى صياد تالٍ، أي مهرب يلجأان إليه. بعد أن تعثرا ووقعا أرضا مرات عدة، لم يعد في وسع أي منهما الاستمرار

بالجري. لهذا رمى لاسورنغ عمود أنشوطته على الأرض، انتزع قدميه من الركاب، ونهض حتى صــار يجثم على السرج، من هناك انقض على ظهر الذئب. قبل أن يبدي الذئب أي ردّ فعل، جلس لاسورنغ منفرج الساقين على ظهره. أمسك به من أذنيه، ضرب رأسه بالأرض: تسرب الـــدم من فمه وخطمه. اقترب الصيادون الآخرون بأحصنتهم مسرعين، وألقوا بأنفسهم على الـــذئب، حـــتى لم يعد يقوى على التنفس. في النهاية، سحب لاسورنغ سكينه، وقتله. واجه الذئب الآخر مطاردة منهكة من قبل ثلاثة رعاة أحصنة شباب تناوبوا على ضربه، إلى أن تمكن أحدهم من إنهاء اللعبة بقتله.

ألقـــى شن زن، ويانغ كي، والطلاب الآخرون أنشوطاتهم على الأرض. كان دورهم في الـــصيد ينحصر في مراقبة حملة الصيد. لكن الأمر الذي أثار في نفوسهم الإحباط أكثر من أي شيء آخر هو أن الشخص الوحيد من بينهم الذي شارك في المعركة، وهو راعي الأحصنة زانغ جيوان، فشل في الإيقاع بذئب واحد في أنشوطته.

بعـــد أن رأى بلغـــي أن كل شيء كان يجري بصورة جيدة وتحت السيطرة، اتجه ممتطيا حـــصانه إلى شن ويانغ. "أنتم الطلاب أديتم عملا رائعا اليوم"، قال. "حافظتم على مواقعكم. بوجودكم هنا، كنت قادرا على إرسال المزيد من الصيادين إلى ميدان المعركة مع أنشوطاتهم". بعـــد أن تنبّه إلى خيبة الأمل التي لاحت على وجوههم، ضحك وقال: "كلبكم ذاك قام بدور بطولي. تولى القيام بالمهمة بدلا منكم: قتل بمفرده ذئبين، وساعد الصيادين في قتل اثنين آخرين. لهـــذا سيحصل كل واحد منكم على جلد ذئب في وقت قريب. تفرض علينا عاداتنا أن تكون الجلـــود مـــن نصيب الرجال الذين اصطادوا الذئاب بالأنشوطة". ثم استدار وقادهم إلى أسفل المنحدر.

انـــتهت حملة الصيد. عدا ما يتعلق بنصف دزينة من الذئاب الأكثر سرعة أو مهارة، أو تلـــك التي حالفها الحظ ليس إلاّ ضمن القطيع والتي استخدمت السرعة أو الدهاء أو حطمت العمود أو اخترقت الطوق، فقد كانت جميع الذئاب قد قتلت.

اندفع الصيادون الذين كانوا في الحلقة الخارجية إلى سفح الجبل، من أجل إلقاء نظرة قريبة علـــى غنائم الحرب. كان بلغي مسبقا قد طلب من الناس أن يسحبوا ذئبين مقتولين إلى المكان الذي وقف فيه شن ويانغ، وبعدها شمر عن ساعديه وساعد على سلخ جلديهما. طلبت غاسماي مـــن الـــناس أن يحضروا الذئبين اللذين قتلهما إيرلانغ، وذئبين آخرين قتلتهما كلاب سانجاي. وجاء سانجاي وغومبو لمساعدتها على سلخ جلودها.

كـــان شن قد تعلم من بلغي كيفية القيام بسلخ جلد الذئب؛ والآن جاء دوره لكي يعلم يانغ. بدأ بنـــزع الجلد عن عظم الفك، وبعد ذلك سحبه إلى ما فوق الرأس. بعد أن طلب من يانـــغ أن يثـــبت الأنـــياب بشريط جلدي، سحب الجلد إلى الوراء باتجاه الرقبة. من هناك ظل

مستمرا بالسحب، نازعا الجلد عن اللحم، وكأنه كان ينزع مجموعة من ثياب الراقصين أو البهلوانات، ومن ثم انتهى بقطع القائمتين والذيل. عند هذه المرحلة، كان الجلد قد انقلب من الداخل إلى الخارج، لذا قلبه الرجلان، كما لو أنه قطعة طويلة من الأمعاء، ليكشف عن جلد ذئب كامل.

- "عمل جيد"، أطرى بلغي عليهما. "ليس هناك الكثير من الشحم. عندما تصلان إلى خيمتكما، املأاه بالعشب الجاف، وعلقاه على عمود طويل. بتلك الطريقة، سيعترف الناس في أولونبولاغ بأنكما صيادان حقيقيان".

جثا الكلبان إيرلانغ *وأصفر* على كفليهما إلى جانب سادهما يراقبان كل شيء: كان إيرلانغ يلعق الدماء عن صدره المجروح وقائمتيه الأماميتين طوال الوقت. بدا أنه كان يستمتع بذلك. أما *أصفر*، الذي لم يصب بجرح، فقد لعق الجروح التي على قمة رأس إيرلانغ، كأنه حيوان مدلل. ومع ذلك، فقد أثنى الكثير من الصيادين عليه، رووا كيف صرع العديد من الذئاب، وأسقطها أرضا، وانتزع قضمات من قوائمها الخلفية. لولا *أصفر*، لما كان لامياف قادرا على اقتناص الذئاب بأنشوطته.

جعل ذلك الكلام يانغ يبتهج. "لامياف يشبهني، على كل حال"، قال، وذلك لكي يعادل النقاط المكتسبة، "إنه يقف بشجاعة خلف كلبه".

تناول شن بعض قطع الحلوى الصلبة من جيبه، وأعطاها إلى الجنرالين الكلبين، ثلاث قطع لإيرلانغ، واثنتين *لأصفر*. لقد ساوره هاجس أن إيرلانغ *وأصفر* سيجعلانه يشعر بالفخر في ذلك اليوم. وضع الكلبان قطع الحلوى على الأرض، وانتزعا غلافاها بأنيابهما، ثم التقط كل منهما قطعة منها بلسانه، وبينما كانا يرفعان رأسيهما أخذا يسحقان الحلوى بصوت مرتفع. لم يكن في وسع جميع الكلاب الأخرى إلا أن تتابع النظر فيما كان اللعاب يسيل من أفواهها، وتلعق الورق الذي كان على الأرض. كان مجيء الطلاب قد علّم الكلاب أن هناك أشياء كثيرة طيبة يمكن أن تؤكل في العالم تختلف كثيرا عما كانت قد اعتادت على تناوله، وأن تناول الحلوى أمام كل تلك الكلاب أضفى المجد على غريزة إيرلانغ *وأصفر* الكلبية.

اقتربت غاسماي من شن وهي تبدي ابتسامة عريضة، وقالت له: "أتصور أنك نسيت كلبك القديم منذ أن انتقلت من خيمتنا". مدّت يدها إلى جيبه، وأخرجت منها بعض قطع الحلوى، وقدّمتها إلى بار. أسرع شن، وأخرج من جيبه كل ما تبقى لديه من الحلوى، وناولها لغاسماي. ابتسمت، ثم انتزعت الغلاف عن إحدى القطع، ودستها في فمها.

استقرت غمامة فوق الأرض التي جرت عليها حملة الصيد؛ تصاعد البخار من جثث الذئاب، وأجساد الأحصنة، وأفواه الكلاب، ومن جبهات الناس أيضا بينما كانوا ينقسمون إلى وحدات تضم كل منها إحدى العوائل، ويسلخون جلود الذئاب الميتة. اتبعت التقاليد في تقسيم

غـــنائم الحرب. لم تكن هناك أي اعتراضات. كان الرعاة دوما يعرفون أي كلب أو صياد قتل أي ذئـــب. ربمـــا تسربت بضع كلمات دارت بين رجلين اشتركا معا في اصطياد ذئب واحد بأنشوطتيهما، لكن بلغي حسم المسألة برأي واحد فقط: بيعا الجلد، اشتريا قارورة من الشراب، واقتـــسماها في مـــا بيـــنكما. أما الصيادون والرعاة الذين لم يقتلوا ذئبا واحدا فكانوا يراقبون الآخـــرين بـــشغف وهم يسلخون جلود فرائسهم، حتى إنهم كانوا يبدون تعليقات لا أثر فيها للـــضغينة بـــشأن الجلود والكلاب التي تعود لغيرهم من الناس. وبوجود كلاب جيدة، كانت الجلـــود خالية من العيوب؛ أما مع كلاب سيئة، فقد كانت الجلود ممزقة بالأنياب. كان أولئك الـــذين حصلوا على أكبر حصة من الجلود يدعون بأصوات عالية الجميع للمجيء إلى خيمهم لتناول شراب الاحتفال. في السهوب، كان الجميع يستفيدون من حملة تطويق الذئاب وصيدها.

* * *

خلد الناس للراحة في موقع الصيد الذي أضحى الآن هادئا.

بقـــي على النساء أن ينجزن العمل الأكثر إثارة للإزعاج؛ تضميد الكلاب الجريحة. كان الـــرجال يستخدمون الكلاب خلال حملات الصيد، لكن النساء هن اللواتي كان يعتمد عليهن في حراسة المواشي ليلا. وهن اللواتي يربينها، كما لو كانت أطفالا لهن. عندما تصاب الكلاب بـــالأذى، أو عندما تموت، فالنساء هن اللواتي يكابدن الأحزان. تمددت بضعة كلاب نافقة في المكان الذي تركت فيه ملقاة على الأرض بالقرب من الذئاب، قال بلغي، "من دونها، لن يضطر الرعاة إلى الاحتفاظ بهذا المقدار الكبير من اللحم في متناول أيديهم، وستسلك جراؤها طريقها إلى تينغر بعد وقت قصير من مجيئها إلى العالم".

تمـــددت الكـــلاب الميتة من دون أن يكترث لها أحد، ليس هناك من منغولي واحد على السهوب يمكنه أن يفكّر ولو للحظة في المعاطف المترفة الجميلة التي يمكن أن تصنع من جلودها. الكلاب هم رفاقهم في السلاح، وأصدقاؤهم المخلصون، وإخوانهم. يبقى سكان السهوب على قـــيد الحـــياة بسبب مشروعين استثماريين: الصيد ورعاية المواشي. بالنسبة إلى كلا المشروعين فـــالكلاب لا غـــنى لهم عنها أبدا. ولكونها من الوسائل المستخدمة في الإنتاج وحراسة المواشي كانـــت الكـــلاب أكثـــر أهمية بالنسبة إليهم من أهمية الثيران للفلاحين في السهول الوسطى. وعلاقتها مع البشر كانت أكثر قربا؛ لقد ساعدت على طرد وحشة البراري.

كانت السهوب المنغولية – الشاسعة، وقليلة السكان، والمحفوفة بالمخاطر من كل جانب – مكانـــا ســـاهمت الكـــلاب من تحويله إلى مكان آمن يصلح لأن يعيش فيه الناس بأمان. أخبرت غاسمـــاي شـــن ويانغ أنها لا يمكنها أن تنسى كيف أنقذ بار حياتها ذات خريف عندما خرجت لترمي رماد الموقد و لم تتنبّه لوجود قطعة لا تزال تحترق من بعر الخراف المجفف. تسببت ريح قوية بإضـــرام نـــار سرعان ما انتشرت ووصلت إلى الأعشاب الجافة التي كانت مرمية أمام خيمتها.

كانت بمفردها في ذلك اليوم مع العجوز إيجي وطفلها، كانت منشغلة بالتطريز، غير واعية إلى ما كـــان يجري في الخارج. فجأة سمعت الكلب بار ينبح بعنف ويضرب الباب. ركضت إلى خارج الخــيمة، حيث كانت النار تهدد بإشعال أكداس من القش تعود لفرق إنتاج أخرى؛ كانت تلك الأكـــداس مرتفعة، مضغوطة بكثافة، وتختلط فيها الدهون، فإذا ما شبت بها النار فلن يكون هناك مـــن مجال لإنقاذها. كانت الحيوانات ستتضور جوعا إن لم تمت أو تحترق من دون وجود خزين تلك السنة من القش، وستواجه غاسماي العقوبة. منحها تحذير بار الوقت الذي كان أكبر قيمة من الحــياة ذاتهـــا. ركضت إلى الخارج وهي تحمل قطعة عريضة من الجلد الرطب، واتجهت مباشرة صـــوب ألـــسنة اللهب، لفت نفسها بالجلد، وتدحرجت على الأرض، وبذلك تمكنت من إطفاء النيران قبل أن تلتهم القش. كثيرا ما قالت إنها من دون بار كانت ستواجه الضياع.

- "رجالنا مدمنون على الشراب إلى حدٍّ كبير"، قالت لشن ويانغ، "بحيث إنهم في بعض الأحــيان كانوا يسقطون عن أحصنتهم ويتجمدون حتى الموت. أولئك الذين لا يموتون منهم يعـــود الفـــضل في نجاتهم إلى كلابهم، التي تسرع بالرجوع إلى بيوتهم، تتشبث بثياب زوجاتهم بأنيابها، وتقود النساء إلى مكان أزواجهن، حيث يحفرن، ويخرجنهم من الثلج، ويرجعن بهم إلى البيت. في كل خيمة لا بدّ من وجود شخص أنقذ حياته كلب يعود إلى العائلة".

لذلك السبب يعتبر أكل لحم الكلب، وسلخ جلده، أو النوم تحت جلد كلب من الأفعال التي تدل على الخسة والخيانة التي لا تغتفر. كان هذا أحد الأسباب التي جعلت الرعاة يكرهون سكان المناطق الزراعية والصينيين من الهان.

قال بلغي إنه في الأيام الغابرة، كانت جيوش الهان تأتي إلى أرض السهوب، وتقتل الكلاب لتأكل لحمها، وبهذا كانوا يغضبون الرعاة ويثيرون مقاومة مسلحة. حتى الوقت الحاضر، وكثيرا مـــا كانـــت الكلاب التي لدى رعاة الخراف تتعرض للسرقة من قبل أشخاص دخلاء، حيث يقتلونها ويأكلون لحومها. وترسل جلودها بطريقة سرية إلى المناطق الشمالية الشرقية وإلى أقاليم الـــصين. كانـــت جلـــود الكلاب المنغولية - الكبيرة، بفرائها الوثير - مادة مفضلة في صناعة القـــبعات وملاءات الأَسرة. تحدث الرجل العجوز بغضب: "لكنك لن تعثر مطلقا على أي أثر لذلك في الكتب التي يؤلفها الصينيون!".

كـــثيرا مـــا كان بلغي وعائلته يسألون شن: "إذا كنتم أنتم الصينيون تكرهون الكلاب، وتلعنونها، وحتى تقتلونها، فلماذا تأكلون لحومها؟".

كـــان شن يشعر بالإحراج من السؤال، تحتم عليه أن يفكّر طويلا، ويجهد ذهنه ليعطيهم جوابا مقنعا.

ذات مساء قال للعائلة فيما كان أفرادها جالسين حول موقد النار، "ليس هناك الكثير من الـــبدو بين شعب الهان، وهناك عدد قليل من الصيادين. كل حيوان بري تقريبا يمكن أن يقتل

ويؤكل لحمه. نحن الهان لا نولي أهمية للكلاب. مع نسبة السكان الهائلة التي لدينا، من الصعب أن يشعر الصينيون بالوحدة، لذا فنحن لا نحتاج إلى الكلاب لتؤنس وحشتنا. لدينا عشرات من الأقاويـل الشائعة التي تدور حول لعنة الكلاب؛ شرس مثل الذئب ومتوحش مثل الكلب؛ الكلب الذي يجلس على كرسي في محفة لا يستحق الشفقة؛ لا يمكنك الحصول على العاج من فم كلب؛ الكلاب الحقيرة فقط هي التي تصيد الجرذان؛ ارمِ للكلب فطيرة محشوة باللحم ولـن تـشاهد وجهه بعدها... وبعض تلك الأقوال كانت قد دخلت إلى ميدان السياسة. الجميع في البلاد يطلقون شعارات من قبيل: حطموا رأس كلب ليو شاوكي[1]، وليسقط ليو الكلب".

– لمـاذا نكره الكلاب ونلعنها؟ السبب الأساسي في ذلك هو أن الكلاب لا تتبع القواعد الـسائدة في الـصين. أنت تعرف كل شيء عن حكيمنا القديم كونفوشيوس[2]، هذا صحيح؟ حـسنا، حـتى الأباطرة طوال تاريخ سلالاتنا كانوا ينحنون إجلالا له. لقد أرسى سلسلة من القواعد التي يمكن للإنسان أن يعتمد عليها في حياته، وعلى مدى تعاقب القرون كنا نتبع تلك القواعد. كل شخص متعلم لديه *اقتباساته* التي اختارها، على غرار الكتاب الأحمر الصغير الذي يتـضمن مجموعة من الاقتباسات في أيامنا هذه والذي كتبه الرئيس ماو، وأي شخص لا يسير وفقـا لـتلك القواعد يعتبر بربريا؛ الموت ينتظره في أسوأ الحالات. كانت أعظم مشكلة تتعلق بالكلاب هي أنها لا تتبع القواعد الكونفوشيوسية في السلوك. إنها تنبح في وجوه الغرباء، وتخرق قواعد كرم الضيافة؛ الكلاب تمارس السفاح مع المحارم؛ وهي تأكل فضلات البشر. لكن السبب الرئيـسي في كراهيتنا للكلاب، ذاك الذي يجعلنا نقتلها ونأكل لحومها، هو أننا شعب زراعي، ولسنا بدوا، ونحن نسعى إلى فرض عاداتنا وتقاليدنا على الشعوب الأخرى.

سمع بلغي وباتو ما تفوه به شن بصمت، لم يبدُ عليهما أي شعور بالتعرض للإهانة. "أيها الـشاب"، قـال بلغي بعد وهلة، "إنه شيء جيد أن يوجد الكثير من الناس، سواء من الهان أو المنغول، ممن يتسمون بالعقلانية في ما يتعلق بمثل تلك المسائل مثلك أنت".

تـنهدت غاسماي، وأبدت رأيها بسخط: "أسوأ شيء تعرضت له الكلاب على الإطلاق كـان دخولها المجتمع الصيني. إن أفضل الأشياء التي تستطيع الكلاب تقديمها هنا لا يمكنها أن تقدمه هناك، وسلبياتها هي كل ما ترونه. لو أنني كنت أنثى كلب سأبقى بعيدة قدر المستطاع عن هناك. سأفضل البقاء هنا، حتى إذا كان سيقتلني أحد الذئاب".

---

(1) ليو شاوكي: رئيس جمهورية الصين الشعبية (1959–1968م) والمنظر الرئيسي للحزب الشيوعي الصيني. عندما اسـتقال ماو من الرئاسة بعد الفشل في حملة الوثبة العظيمة إلى الأمام احتل ليو المنصب. اعتمدت سياسته على تنشيط الزراعة. أقصي عن السلطة عام 1968م واعتبر رأسماليا مستغلا وحل محله لين بياو. (المترجم)

(2) كونفوشيوس: معلم وفيلسوف ومنظر سياسي صيني قديم (551–479 ق. م).

- "لم أعـــرف إلا بعـــد مجيئـــي إلى هنا"، قال شن، "أن الكلاب والبشر لديهم صفات مـــشتركة كثيرة، الكلاب حقا أفضل صديق للإنسان. الناس الفقراء جدا، المزارعون المتخلفون هم فقط الذين يأكلون أي شيء يقع في متناول أيديهم، ومن ضمن ذلك الكلاب. ربما يحدث ذات يـــوم، عـــندما يتمتع الصينيون جميعا بوضع جيد، وعندما يتوافر طعام كاف لكل إنسان، بحـــيث يقيمون صداقة مع كلابهم ويتوقفون عن كراهيتها وأكل لحومها. لقد نشأت على أن أحـــب الكلاب. اليوم الذي يمضي من دون وجود الكلاب بصحبتي هو يوم ضائع بالنسبة إلي. إذا وجـــد شـــخص ما يقتل الكلاب في خيمتك سنلقنه أنا ويانغ كي درسا لن ينساه". عبرت مشاعر شن الوجدانية عن أعمق مكنونات صدره، وذلك ما أثار تعجبه هو نفسه. فبعد أن تربى وهو يحمل مفهوما ينص على أن الإنسان المهذّب يناقش لكنه لا يقاتل، ها هو ذا الآن يجد نفسه يعبّر عن مشاعر تتسم بالوحشية أكثر من كونها مشاعر بشرية.

- "عندما ترجع إلى بكين ذات يوم"، قالت غاسماي، "هل ستربـــي كلابا؟".

- "ســـأبقى أحب الكلاب بقية حياتي"، رد شن وهو يبتسم. "أحبها مثلما تحبونها أنتم. لمعلـــوماتكم فقط، فأنا لم آكل كل قطع الحلوى الطيبة التي أرسلتها إليّ عائلتي من بكين. حتى إنني لم أعطكم إياها أو إلى بايار. لقد أبقيتها لكلابـــي".

ضرب باتو شن على ظهره. "أصبحت على الأقل نصف منغولي الآن".

مضت أكثر من ستة أشهر منذ أن دارت تلك المناقشة عن الكلاب، لكن شن لم ينسَ أبدا الوعد الذي قطعه على نفسه في ذلك اليوم.

عاد الهدوء يبسط رداءه على الموقع الذي حدثت فيه حملة الصيد. كانت الكلاب المنهكة والجريحة تئن بحزن على فقدان رفاقها، تشم رائحة أجسادها بعصبية، وبوجل، وتدور حولها مرة بعد أخرى، ربما كان ذلك طقسا من طقوس الوداع. انكفأ أحد الصبيان على الأرض، كانت ذراعاه ملفوفتين بشدة حول جسد كلبه. حاول الكبار أن يقنعوه بترك المكان، لكنه بقي هناك ينتحب بأسى، تساقطت دموعه على جسد كلبه المحبوب الذي غادرته الحياة. بقي نواحه يتردد في الهواء لفترة طويلة جدا، وكل ما استطاع شن زن أن يراه كان غشاوة ذات ملامح مشوهة.

13

بعـــد أن قاد باو شنغوي وأوليجي فريقا من مسؤولي المراعي لمشاهدة غنائم موقع الصيد، امتطيا حصانيهما متوجهين إلى بلغي. ترجل باو عن حصانه وقال للرجل العجوز بحماسة: "إنه نـــصر مـــذهل! مذهل حقا! وعلينا أن نشكرك على ذلك. إنه إنجاز باهر، هذا ما سأورده في تقريري الذي سأرفعه إلى مراجعي العليا".

مدّ يده ليصافح بلغي، الذي ردّ بإظهار أصابعه التي تغطيها الدماء. "يدي قذرة جدا"، قال.

لكـــن باو أمسك بيدي الرجل العجوز. "ربما ينتقل شيء من حظك السعيد إلى جسدي من خلال القليل من دماء ذلك الذئب، وتتسرب إليّ بعض مفاخرك".

تجهـــم وجه الرجل العجوز. "أرجوك ألا تتحدث عن مثل هذه الأشياء بوصفها مفخرة. كلمـــا زادت المفاخـــر عمقت الخطايا. لن يحدث هذا الشيء مجددا. إذا أجريت حملات صيد أخرى مثل هذه فستنقرض الذئاب، وستنتشر الغزلان، وسناجب الأرض، والأرانب، والمرموط. تلـــك ســـتكون الـــنهاية بالنسبة إلى السهوب، ومن شأن ذلك أن يغضب تينغر. سندفع نحن ومواشينا الثمن باهظا". رفع يديه الداميتين إلى تينغر بخوف وهلع.

اســـتدار بـــاو وهو يضحك بإحراج لينظر إلى إيرلانغ، الذي تغطى جسده بالدماء. "هل ذلك الكلب هو الكلب المتوحش الذي سمعت عنه؟"، سأل بانفعال. "إنه ضخم لدرجة مخيفة. راقبته وهو يقاتل من أعلى الجبل. إنه نمر حقيقي. كان أول كلب يهجم على قطيع الذئاب. قتل أحد قادها، وولت أغلب الذئاب الأخرى خوفا. كم ذئبا قتل في الإجمال؟".

– "أربعة"، أجاب شن.

– "يـــا له من كلب رهيب!"، قال باو معلقا. "سمعت أن لديك كلبا ضخما، متوحشا، وقـــاتلا للخـــراف. لقد اشتكى الناس قائلين إنك تسخر من قوانين السهوب، وطلبوا مني قتل الكلب. حسنا، أنا المسؤول هنا، وأقول إنك تستطيع الاحتفاظ بالكلب، واحرص على إطعامه والعناية به بشكل جيد. إذا حصل أن قتل أي خراف أخرى في المستقبل لن أعاقبه. لكن جلود الخراف التي يقتلها ستصبح من نصيب اللجنة، وعليك أن تدفع ثمن اللحم".

وافق شن ويانغ بسعادة على الشروط. "نحن الطلاب لم نقتل ذئبا واحدا، مما يعني أننا لسنا بأهمية الكلاب، وبالتأكيد لسنا مهمين مثل هذا الكلب". ضحك الجميع، ومن ضمنهم الطلاب الآخرون.

- "لا يمكـــن أن يكـــون ذلك كلاما صادرا عن شخص صيني"، قال أوليجي وهو يضحك.

بدا واضحا أن بلغي كان مبتهجا. "هذا الشاب يحترم السهوب؛ سيصبح واحدا منا ذات يوم".

انتـــشرت في مـــيدان المعركة جثث ذئاب شاحبة اللون، وتلطخت الأرض بدمائها. كانت قطع الفراء التي تغطي أكفها هي كل ما تبقى من المعاطف التي كانت ترتديها. طلب بـــاو مـــن الصيادين تجميع جثث الذئاب، وتكديسها فوق بعضها بعضا بحيث يرسموا على الأرض بجثثها كلمة جينغ بالصينية، التي تعني "جيد". عندما انتهوا من فعل ذلك، تكدست الـــذئاب الميتة التي بلغ عددها ثلاث دزينات أو نحو ذلك إلى ارتفاع قامة الإنسان تقريبا. أحضر باو كاميرته، والتقط الصور من أربع أو خمس زوايا. بعد ذلك طلب من الصيادين الفائـــزين أن يحملوا الجوائز التي حصلوا عليها، ويقفوا إلى جانبـــي الجثث المكدسة. حمل أكثر من ثلاثين صيادا جلود الذئاب التي كسبوها عاليا فوق رؤوسهم، فيما تدلت الذيول على الأرض، وجثمت الكلاب القاتلة التي أصيبت بجروح بالغة وتلطخت أجسادها بالدماء، أمام سادتها، بينما كان البخار يتصاعد مع أنفاسها. طلب باو من شن أن يلتقط له صورة وهو يقف في الوسط، وكان يحمل جلد أضخم ذئب على الإطلاق. وقف بلغي هناك، بينما تـــدلى جلد ذئب من ذراعه اليمنى، كان رأسه منحنيا، وترتسم على وجهه ابتسامة حزينة. التقط باو صورتين.

تقـــدم باو خطوات، واستدار نحو الصيادين الذين يقفون قبالته. "بصفتي ممثلا عن اللجنة الـــثورية في اللـــواء"، قال، "وقائدا للمنطقة العسكرية، أشكركم جميعا! إنكم أبطال حملة صيد الـــذئاب، وستظهر صوركم في الصحف خلال بضعة أيام. أريد الناس جميعا أن يروا بأعينهم العقوبة التي تلقتها الذئاب في أولونبولاغ، أن يروا عدد الذئاب التي قتلت في حملة صيد واحدة، تلك الذئاب التي جاءت بالأساس من منغوليا الخارجية وكانت هي الذئاب القاتلة التي اقترفت مذبحـــة أحـــصنة الحرب. أريد أيضا إخبارهم أن المسؤولين في أولونبولاغ، والرعاة، والطلاب الـــصينيين لم يذعـــنوا لتلك الذئاب، وبفضل التصميم الذي لا يلين والتنظيم الجيد، فقد شنوا هجـــوما مقـــابلا وحققوا الانتقام. إن حملة الإبادة هذه قد بدأت للتو، وإنني على ثقة من أنها ستستمر إلى أن يموت آخر ذئب يعيش على أرض أولونبولاغ".

أنهى باو كلامه ورفع يده عاليا في الهواء، ونادى بأعلى صوته: "لن نتوقف عن القتال إلى أن تموت كل بنات آوى!".

لم يكـــن هناك رد فعل من أي شخص عدا عائلة دورجي وبضعة من الطلاب. طلب باو من عناصر فريق الصيد أن يستريحوا. جلس الناس على الأرض للراحة بانتظار ما سيفعله باتو.

فيما كان جالسا على الأرض وقد وضع ساقيه فوق بعضهما، قال باو لأوليجي: "الوضع عند الحدود حرج جدا، وإن مراجعي العليا يضغطون عليّ كي أعمل على تنظيم ميليشيا، والبدء بالتدريب. تلك كانت ضربة حظ موفقة غير متوقعة بحيث أثمرت حملة الصيد هذه شيئا من الخبرة في مجال الاشتباك القريب".

– "المنغوليون في السهوب ولدوا مقاتلين"، قال أوليجي. "أعطِهم سلاحا، وسينضمون إلى القتال. لقد وفرت لك حملة الصيد هذه نصرا مضاعفا: قتل الذئاب وتدريب القوات. أقترح أن تكتب تقريرين ملخصين، وذلك من شأنه أن يقنع رؤساءك".

تجمهر الطلاب الصينيون حول شن زن ويانغ كي للنظر إلى جلود الذئاب التي حصلوا عليها ولمسها وقد بدت عليهم نظرات الحسد. قال طالب يدعى وانغ جونلي: "لو لم تأخذا هذا الكلب وإياكما لكنّا نحن الطلاب جميعا سنخفي وجوهنا خجلا. لن نكون سوى زمرة من التابعين للفرسان المنغوليين".

قال شن: "نحن الصينيون لم تكن لدينا مطلقا المهارات القتالية أو الشجاعة التي يتمتع فيها البدو، وحين يكون الآخرون أفضل منك فأنت تبذل ما في وسعك لكي تتعلم منهم. لقد منحت لنا فرصة نادرة للخدمة كمرافقين للرعاة وهم يقاتلون الذئاب".

قال وانغ بنبرة تنم عن التعالي، "حتما، لقد شن البدو الكثير من الغارات داخل السهول الصينية. ولكن في المرتين اللتين حكموا فيها الأمة كانوا قد خضعوا في نهاية الأمر للثقافة المتفوقة للصينيين، أليس كذلك؟ لقد مرّ سكان السهوب بلحظات من الازدهار، إلا أنهم في النهاية لم يتجاوزوا الكفاءة في اصطياد الطيور التي تحلق في السماء بالقوس والسهام، وفي وسعهم فقط أن يتبجحوا بالقوة العسكرية".

– "قد تكون محقا"، قال شن معارضا. "لكن توخَّ الحذر عندما تضع المدني في موقع متفوق على العسكري. من دون القوة العسكرية، فإن أكثر الثقافات المزدهرة تتقلص إلى أن تتحول بالتالي إلى أنقاض. كانت سيطرة سلالتي الهان والتانغ المدنية قد اعتمدت في تأسيسها على القوة العسكرية. عليك فقط أن تفكّر في العدد الكبير من الحضارات العظيمة في أنحاء مختلفة من العالم والتي انتهى بها المطاف لأن تتقوض على يد الأعراق البشرية المتخلفة ثقافيا لكن القوية عسكريا. حتى لغات تلك الحضارات التي كانوا يكتبون بوساطتها ويتكلمونها قد انقرضت نتيجة لذلك. إنك تخطئ عندما تقول إن حضارة الهان دمرت شعب السهوب المتخلف، لأنهم كانوا قد حافظوا على لغتهم، واعتقادهم برموزهم المبجلة، وعاداتهم التقليدية. لقد حاول خروتشوف أن يستأصل ثقافة بدو كازاخستان من خلال الزراعة والصناعة الروسية. فما الذي حدث؟ تحولت إحدى أعظم سهوب العالم الآن إلى صحراء".

بعد أن رأت سون وينجوان أن الطلاب الذكور المتأهبين للنزاع دائما كانوا على حافة الخوض في نقاش محتدم آخر، تكلمت. "حسنا"، قالت. "يكفي ذلك. يكاد أحدنا ألا يرى الآخر إلا نادرا، لأن مواقع قطعاننا متباعدة كثيرا. دعونا لا نفسد هذا اللقاء الذي جمع بيننا من جديد بالنزاع. أنتم تحولتم إلى ذئاب حالما أتيتم إلى السهوب، ينهش بعضكم بعضا بلا توقف!".

من الواضح أن إيرلانغ لم يكن مرتاحا لوجود الناس الذين كانوا يمسّدون بأيديهم على أنحاء جلده، فقد ابتعد بخطوات بطيئة. افترضت سون أن كلبا تولى تربيته أحد الطلاب لا يمكنه أن يعض أحدهم، فأخرجت قطعتين من الجبن من جيبها لتكافئه بها. "كلب رائع، إيرلانغ".

حدّق الكلب بحقد من دون أن يهز ذيله أو يصدر أي صوت، واقترب من مجموعة الطلاب، مما أثار خوف سون فتراجعت خطوات إلى الوراء. "تعالَ إلى هنا!"، صاح شن، لكن الوقت لم يكن مناسبا بالنسبة إلى الكلب ليتوقف عن الدمدمة والتهديد بمهاجمة الطلاب. خلال حالة الرعب التي واجهتها سون، تعثرت ووقعت أرضا بقوة.

- "أيها الحقير!"، صاح يانغ فيما رفع عصاه مهددا. لكن إيرلانغ مدّ رقبته، وبدا وكأنه كان يفضل التعرض للضرب على التراجع. كان، على كل حال، كلبا وحشيا ذات مرة، وقد قتل منذ وقت قصير أربعة ذئاب، خاف يانغ من إثارة طبيعته الذئبية التي لا تزال جمراتها تتوهج. عرف أنه سيكون من الجنون استخدام عصاه، فترك العصا تسقط من يده.

- "لن يجرؤ أحد على زيارتكما في خيمتكما بعد هذا الذي حدث"، قال وانغ جونلي. "لو لم يقتل كل تلك الذئاب، لكنت على استعداد لأن أسلخ جلده وآكل لحمه".

- "إنه كلب غريب"، قال شن معتذرا، "يشبه الذئب كثيرا، ولا يتآلف بسهولة مع البشر. تعالوا إلى هنا كثيرا، وسيعتاد على وجودكم".

بعد رحيل الطلاب، ربت شن على رأس إيرلانغ. "انظر ما الذي فعلته"، قال. "لقد أزعجت أصدقائي".

تقدم إيرلانغ بضع خطوات مقتربا من جثث الذئاب المكدسة، وحدّق إلى أجسادها الشاحبة. كانت عشرات الكلاب الأخرى تقف على بعد مسافة قليلة، تبدي احتراما وخوفا إلى حدٍّ ما، تهز ذيولها باتجاهه. لكن بار فقط جاء نحوه وقد رفع رأسه؛ لم يكن متغطرسا ولا ذليلا، أخذ يدعك خطمه. الآن بعد أن كسب استحسان قادة المراعي والرعاة، كان يلقى ترحيبا في صفوف كلاب الصيد التابعة لفرقة الإنتاج الثانية.

لكن شن زن اكتشف نظرة ضياع في عيني إيرلانغ. لف ذراعيه حول عنق الكلب، وتمنى لو أنه يعرف سبيلا ما لمواساته.

* * *

وجّـه بـاو شـنغوي دعـوة إلى بلغي للمجيء إلى المكان الذي كان يحتشد فيه أغلب الـصيادين. جلس الرجل العجوز في الوسط، ونشر قطعا صغيرة مصفوفة من فضلات الخراف والأحـصنة لكي يصف مجريات المعركة بالتفصيل. أصغى له الجمهور باهتمام بالغ، بينما كان بـاو يطرح بضعة أسئلة، وبين الحين والآخر كان يهتف معبرا عن استحسانه. "هذه المعركة"، قال، "ينبغي أن تدوّن في كتب المناهج العسكرية. إنها أكثر براعة من خطة الذئاب التي طبقتها في مذبحة أحصنة الحرب. أنت، يا سيدي، عبقري عسكري".

- "لـو كـنا في أيـام جنكيزخان"، بادر شن قائلا، "لأصبح بلغي واحدا من جنرالاته العظماء، عظيما مثله مثل موهوالي، وجيبـي، وتسوبودي".

تجاهل الرجل العجوز الإطراء. "لا تقارنّي بأولئك الحكماء المنغوليين، وإلا فإن هذا سيثير غضب تينغر. لولا هؤلاء لكانت السهوب قد روضت منذ أمد طويل. لست إلا خادما عجوزا ينبغي ألا يذكر اسمه مع ذكر أسمائهم".

كـان الـوقت ظهرا تقريبا، و لم يكن باتو قد رجع بعد، بالرغم من أن الوقت قد حان للـرجوع إلى المخيم. بعد ذلك، جاء حصان يعدو ويدل منظره على وجود شيء عاجل. وثب بوهي عن صهوة حصانه، وأخبر أوليجي وباو شنغوي وهو يلهث قائلا: "يقول باتو إن عليكم المجـيء على الفور. الذئاب التي قاتلتموها هذا الصباح لم تشكل إلا نصف القطيع. أما النصف الآخر فقد انسل بعيدا قبل انبلاج الفجر، وشق طريقه نحو الوادي الذي ينتشر فيه القصب عند سفوح الجبال".

حملق بلغي فيه. "حتما أنت غير مصيب".

- "امتطيـنا أنا وباتو صهوتي حصانينا، وتوغلنا في الوادي"، أجاب بوهي، "حيث رأينا آثـار حوافر ذئاب كانت لا تزال طرية في الثلج. يقول باتو، إن هناك على الأقل عشرين منها، ويعـتقد أن ذلك يتضمن الذئب رمادي اللون العجوز، والذئب الذكر الأكبر الذي قاد الهجوم على الأحصنة. كما يقول إنه ينبغي لنا الإمساك بذلك الذئب بالتحديد".

اسـتدار أوليجـي نحو باو. "خرجنا جميعا، بما في ذلك الأحصنة، من دون أن نتناول أي طعام، وأمضينا الليل بطوله ونصف النهار. وهناك الكثير من الكلاب التي أصيبت بجروح. إنني أعرف ذلك الوادي، إنه شاسع، تبلغ مساحته آلاف الهكتارات، وهو كبير جدا بحيث لا يمكننا تطويقه. أقترح أن تنسى الأمر".

حـدّق باو إلى بلغي وقد ساورته الشكوك. "يقول لي الناس من غير المحليين وكذلك الطـلاب الـصينيون أنـك عادة تقف إلى جانب الذئاب. لم تخطط لهذا، أليس كذلك؟ كـان باستطاعة رجالك وكلابك أن يحاصروا عشرين ذئبا أخرى بحيث نتمكن من إزالتها من الوجود".

- "كـــلا"، قال أوليجي. "اليوم حاصرنا الكثير من الذئاب، كأننا نحشو فطيرة كبيرة. لو كـــان هناك المزيد منها لكنا قد انتشرنا بحيث نغدو متباعدين جدا عن بعضنا، ولكانت جوانب الفطيرة ستتهشم".

استدار باو نحو بلغي مجددا. "أعتقد أنك تركتها تهرب عن قصد".

حملق بلغي فيه مرة أخرى. "محاصرة الذئاب ليست مثل اغتراف المعكرونة من الطبق! كان الظـــلام حالكا وهناك ثغرات بين راكبـــي الأحصنة. بالطبع ستهرب بعض الذئاب. لو توليت قيادة حملة الصيد بنفسك فإنني على استعداد للمراهنة على أنك لن تصطاد ذئبا واحدا منها".

احمرّ وجه باو بينما بدأ غضبه يتصاعد. ضرب سوطه على راحة يده، وصاح عاليا، "ربما لم يكن هناك ما يكفي من الرجال والأحصنة، أو حتى الكلاب، لكننا لم نستخدم بنادقنا بعد. الآن بعـــد أن اكتـــشفنا وجود المزيد من الذئاب المتوارية عن الأنظار داخل وادي القصب فلن أتركها تفلت من العقاب. سأتولى مسؤولية هذه الحملة!".

امتطـــى بـــاو صهوة حصانه وانطلق حتى وصل إلى منتصف الطريق باتجاه أعلى المنحدر، استدار، وقال: "أيها الرفاق، لقد تم اكتشاف قطيع آخر من الذئاب داخل وادي القصب. هناك الكـــثير منكم ممن لم يتمكنوا من الحصول على جلود ذئاب بعد، هذا صحيح؟ وخصوصا أنتم الطـــلاب. ألم تتذمـــروا وتقولوا إنكم أقصيتم عن الخط الأمامي؟ حسنا، في هذه المرة ذلك هو الموقـــع بالـــذات الذي ستكونون فيه. أيها الرفاق، ينبغي لنا أن نثبت أننا نستطيع التغلب على الـــتعب، وأن نحافظ على حيوية الروح القتالية في نفوسنا فيما نعمل على إبادة هذا القطيع من الذئاب!".

شعر العديد من الطلاب وبعض الصيادين بالتحفز للمحاولة.

- "إلـــيكم خطتي"، هتف باو بصوت مرتفع: "إنها لا تتطلب إلا بذل النـــزر اليسير من الجهـــود نـــسبيا. ســـنطوق الوادي، ونحرق القصب حتى تخرج الذئاب. وبعد ذلك يمكننا أن نصطادها واحدا واحدا ببنادقنا، نستخدم أكبر قدر من الذخيرة التي سنحتاج إليها".

أصـــيب الـــرعاة والصيادون بالذهول. بالنسبة إليهم فإن النيران التي تلتهم العشب شيء يجلب الشؤم.

- "الـــنار التي تضرم في العشب تخرق القوانين السائدة منذ الأزل"، قال بلغي. "إنها تسوّد وجه تينغر، وأنت تعلم ما الذي يعني ذلك بالنسبة إلينا. ستتحول مياه الأنهار إلى مياه ســـوداء اللـــون، ولن تمنحنا المياه شيئا للشرب عندها. لا تسمح مبادئ الشامانية واللامية باستخدام النيران في هذه الأماكن. في الماضي، كان الخانات العظماء يقتلون العائلة بكاملها الـــتي كان ينتمي إليها شخص يشعل النيران في السهوب. حتى الحكومة الحالية تمنعهم من عمل ذلك".

كانت غاسماي غاضبة جدا بحيث احمر وجهها. "النار أسوأ عقوبة يمكن أن تحل بالسهوب. حين نمسك بطفل يلعب بالنار، نضربه حتى تتورم مؤخرته. وإذا أضرمت النار الآن، فسيقول الأطفال الذين يلعبون بالنار بعد هذا إنهم تعلموا ذلك من ممثل الجهات العسكرية باو".

انتفخت رقبة لامياف الثخينة. "في الأزمنة الغابرة"، قال وقد اعتراه الغضب، "كانت جيوش الهان تحرق سهوبنا. إنه أقسى شيء يمكن أن يفكّروا فيه. لم يجرؤوا على فعل ذلك لاحقا. كيف يمكن لمنغولي أن يضرم النار في سهوبه القديمة؟ هل أنت منغولي، أيها المندوب باو، أم أنك لست منغوليا؟".

– "هناك ثلوج على الأرض"، قال سانجاي، "مما يعني أننا لسنا في الفصل الذي يمكن أن تضرم فيه النيران بعد. لكن إذا أضرمنا نارا الآن، فسيكون منع انتشارها أصعب في المستقبل. وستحرق فرو الذئاب وتدمر جلودها".

قال لاسورنغ: "إن إحراق الذئاب يعتبر عملا دنيئا ووحشيا. ولكن دعنا نقول إنك أحرقتها جميعا، عندها من الذي سيدفع لنا الثمن عندما تحرق النار مواشينا؟ ستملأ الرائحة الكريهة الهواء ويمكن أن تتسبب في حصول وباء. ليس ذلك فقط، وإنما، إذا قتلت جميع الذئاب، عندها فإن فئران الحقول والأرانب ستأتي بصحراء غوبي[1] إلى هنا".

قال زانغ جيوان: "خرجنا، نحن رعاة الأحصنة، في هذه المرة لقتال الذئاب. تركنا قطعاننا يوما وليلة، وإذا لم نرجع إليها الآن، فالذئاب ستطوقنا. علينا أن نرجع إلى أحصنتنا. لن أتحمل المسؤولية عن أي شيء يمكن أن يحدث".

– "اهدأوا!"، صاح باو شنغوي. "اهدأوا جميعا! لن يذهب أحد منكم إلى أي مكان. نحن نقتل الذئاب لكي نحد فقط من تأثير قوة مدمرة ونحمي الملكية الوطنية. أفضل وسيلة للدفاع هي هجوم مؤثر. الطريقة الوحيدة لمنع الذئاب من محاصرتنا هي محوها عن وجه الأرض. إننا لا نفعل ذلك من أجل الحصول على المنفعة المادية الناتجة عن بيع جلودها. الذئب الميت الذي احترق فروه يمثل نصرا. أريد رؤية كدس آخر من الذئاب الميتة، أن ألتقط بعض الصور الأخرى، وأجعل رؤساءنا ينظرون إلى إنجازنا العظيم بعين الإعجاب. سأتولى ترتيب جلسة انتقاد لأي شخص لا يطيع أوامري! الآن، هيا بنا نذهب، جميعا!".

سطع وهج مشوب بروح إجرامية من عيني لامياف اللتين تشبهان عيني الذئب. "رتب ما تريد ترتيبه"، جأر بصوت هادر. "لن أذهب! أحصنتي تحتاج إلي".

أدار العديد من الرعاة الآخرين رؤوس أحصنتهم. "سنرجع!"، قالوا.

---

(1) صحراء غوبي: واحدة من أكبر المناطق الصحراوية في العالم، تمتد عبر آسيا الوسطى على مناطق شاسعة من منغوليا والصين. (المترجم)

ضـــرب بـــاو سوطه في الهواء بعنف، ودمدم صوته: "سأتولى محاسبة أي شخص منكم يتراجع عشية هذه المعركة. ذلك ينطبق على من يناصرك أيضا".

حملـــق بلغـــي في أوليجي، ثم هز يديه بيأس وقال، "كفى نـــزاعا. لقد قدت حملة الصيد هـــذه، لذا ستكون الكلمة الأخيرة لي. سيرجع راعي أحصنة واحد إلى كل قطيع من القطعان، ويذهب الآخرون جميعا مع المندوب باو. انتهى النقاش".

قال لامياف لزانغ جيوان: "سأتولى رعاية القطيع. عندما ينتهي هذا، تذهب أنت وتستريح لبضعة أيام". استدار، وانطلق بحصانه بعيدا مع ثمانية أو تسعة من رعاة الأحصنة.

* * *

اجتاز فريق الصيد ثلاث سلاسل جبلية حتى وصلوا إلى فسحة شاسعة من القصب تنتشر في المكـــان كأنهـــا ذهـــب أبيض اللون، بينما أحاطت بها الثلوج. رافق وانغ جيوان وستة من الطلاب الآخرين باو شنغوي، مؤكدين له إنها بقعة نموذجية لإضرام النار وإخراج الذئاب منها.

خـــرج باتو فجأة من بين القصب على حصانه، وذهب باتجاه باو شنغوي وأوليجي. "لم أجلب انتباه الذئاب"، قال. "إنه قطيع كبير، لا يزال هناك داخل القصب".

أشـــار بـــاو ناحية القصب بسوطه، وقال، "اسمعوا جميعا، يا قادة القواطع. يتولى القاطع الأول مسؤولية الشرق، والقاطع الثاني الغرب، والقاطع الثالث الشمال. أما بالنسبة إلى القاطع الـــرابع، فأنتم تستديرون جنوبا وتشعلون النيران بين تلك الناحية والقاطع الشرقي. عليكم في الـــبداية أن تغلقـــوا كل منافذ الهرب، وبعد ذلك تتحركون مع الريح بعيدا عن المنطقة. عندما ترون أنتم أيها الرجال في القواطع الثلاثة الأخرى الدخان يتصاعد من الجنوب، أشعلوا نيرانكم. بعـــد ذلـــك على الجميع، ومن ضمن ذلك الكلاب، أن ينتظروا في الطرف الخارجي. أطلقوا الكلاب حالما تظهر الذئاب، وابدأوا بإطلاق النار".

انطلـــق الطـــلاب التابعون للقاطع الرابع يعدون بأحصنتهم بعيدا، يتبعهم الرعاة. استدار الطلاب الآخرون وتوجهوا إلى القواطع المخصصة لهم.

ســـار شن زن خلف بلغي حتى دخلا منطقة القصب لتفحصها عن كثب. كان القصب، الذي لم تعكره النيران الطبيعية عدة سنوات، قد نما إلى ارتفاع يبلغ ضعف قامة الرجال؛ تغطت الأرض بدثار من القصب الميت الجاف التي تبلغ سماكته قدمين على الأقل. كان القصب يابسا مثل العظام، لم يكن ثمة شيء أكثر منه - سواء الحي منه أو الميت - قابلاً للاشتعال.

- "الـــذئاب تعرف أننا هنا"، قال الرجل العجوز، "لكنها ليست خائفة. القصب كثيف بحيث لا تشكل الكلاب تهديدا، ولا تجدي أعمدة الأنشوطات نفعا. إن صوت حوافر الأحصنة علـــى الطـــبقة التحتية من العشب يُعلم الذئاب في الظلام عن مكاننا بالضبط. هناك كثير من الممـــرات هـــنا، ممـــرات تأخذها خلف أي أحصنة، أو رجال، أو كلاب تقتحم المكان. هذه

مقاطعتها في الشتاء والربيع، هنا ملجأها الآمن. لقد أخذت ذئاب أولونبولاغ نصيبها من النيران الطبيعية، لكن النيران التي يشعلها البشر غريبة عليها. لا شيء مثل هذا كان قد حدث من قبل أبدا. أنتم الدخلاء لديكم الكثير من الأفكار، لكن هذه الفكرة بالذات تتسم بالوحشية بشكل فريد. هذا قطيع تعس الحظ من الذئاب".

- "أشعلوا النيران!"، صاح شخص ما، مخترقا جدار الصمت. "أشعلوا النيران!".

أمسك شن برسن حصان بلغي، وخرجا سريعا من القصب. تصاعد دخان أسود اللون من فوق الطرف الجنوبي الشرقي. بعد ذلك وثب الدخان، وكأنه مارد يتطاول باتجاه السماء من القواطع الشرقية، والغربية، والشمالية. أمر باو شنغوي الصيادين أن يستخدموا القصب كمشاعل لإضرام النار التي انتشرت في أعماق وادي القصب مع هبوب الريح. كان القصب المتراص بكثافة، والجاف، والمختلط بمواد دهنية يكاد يتفجر حين لامسته النيران، حيث أرسل ألسنة من اللهب ودخانا كثيفا إلى عنان السماء. تحولت وبسرعة هكتارات من القصب اليابس إلى بحر من النيران، وتراقصت أوراق وسيقان سوداء اللون مع تيارات الهواء المرتفعة، وكأنها سحابة من الخفافيش. من أعلى مرتفع يطل على ما كان يجري تحته بدا باو شنغوي معجبا بما رآه.

عند الحافة الغربية من المنطقة، التي تصاعد منها الدخان، ترجل بلغي عن حصانه لكنه سقط على ركبتيه، مواجها الشرق، وقد بللت الدموع وجهه. كان يتمتم بصوت خافت. لم يستطع شن زن أن يسمع صوته بوضوح، لكنه أدرك ما الذي تفوهت به شفاه الرجل العجوز.

على حين غرة تغير اتجاه الريح، مما أرسل الدخان أسود اللون الخانق وألسنة اللهب باتجاه الرجل العجوز. رفع شن ويانغ الرجل العجوز على عجل عن الأرض وحملاه راكضين به إلى سفح التل الذي غطته الثلوج. كان وجه الرجل العجوز ملوثا بالسخام؛ وكذلك دموعه. نظر شن إليه، وفجأة شعر بأن هناك رنينا روحيا صامتا يتردد صداه بينهما؛ وفي الوقت نفسه، كان في وسعه أن يتخيل رمز ذئب مخيف إلاّ أنه محفوف بالتبجيل ينهض من أجل أن يحمل أرواح المنغوليين العنيدة معه إلى مكان بعيد. لكن الناجين منهم - أبناء وبنات، أحفادا وحفيدات - سيستمرون في العيش على السهوب المنغولية، بعد أن أخذ منهم رمزهم المر إلى جانب الحلو، وأحلّ الكبرياء والمجد في عرقهم.

أحرقت موجات النيران التي جرفتها الرياح القصب القديم، وحملت نفايات حارة نحو السماء وفوق المراعي المكسوة بالثلوج. أُضرمت النار بغضب لفترة استغرقت معظم ما بعد الظهيرة، تاركة إثرها أرضا محروقة. أخيرا، كان من المحتم أن تموت النيران فوق أرض طبيعية شاسعة أضحت الآن سوداء اللون وفوق هكتارات من الثلج الذي أبدل بياض لونه باللون الأسود. لكن الكلاب والبنادق بقيت صامتة.

بعد أن أزاحت الرياح الدخان بعيدا، عاد البرد ليستقر في مكانه. أمر باو شنغوي الجميع أن يـــشكّلوا صفا واحدا، ويمشطوا ميدان المعركة لإحصاء عدد الذئاب التي ماتت. خمن أحد الرجال أنهم سيعثرون على عشرين ذئبا أو أكثر؛ وتوقع آخر أن يتجاوز العدد ذلك الذي أحرز في حملة الصيد التي جرت صباحا.

– "لا أكتـــرث لعددها"، قال باو. "اعثروا عليها فقط، مهما كان شكلها الذي أصبحت عليه، إنها في الداخل، حتى إذا كان من الصعوبة تمييز أشكالها. أريد أن ألتقط صورا لها بحيث لا يمكـــن أن يـــتهمني شخص بأنني أرفع تقارير زائفة. أريد من جميع الصيادين في الاتحاد كله أن يعلمـــوا أن هذا هو معنى القول *اقتل ذئبا وتخلص من وقوع كارثة*، وأن هذا العمل لم ينفذ من أجل بضعة جلود للذئاب".

عـــند الطرف البعيد من الصف، قال شن زن بصوت خافت مخاطبا بلغي: "كم هو عدد الحيوانات التي تعتقد أنها احترقت، بابا؟".

– "إن خطة الأرض المحروقة هذه كانت من بنات أفكار رجل صيني من الهان"، قال بلغي. "نحن المنغوليون لا نخاف شيئا مثلما نخاف النار، إذا، كيف يفترض بـــي أن أعرف عدد الذئاب الـــتي التهمتها؟ ما يشغلني هو هذا: الآن بعد أن أحرق باو كل القصب، سيبدأ بالتفكير في فتح المنطقة لإقامة المزارع".

تـــبعا صف الرجال في خطواتهم الوئيدة وهم ينقبون خلال الرماد. كانوا كلما وصلوا إلى كـــومة عالية ينبشونها بعصبية بأعمدة أنشوطاتهم وينثرون محتوياتها إلى الأعلى قليلا. عندما لا يظهر شيء، كان الرجل العجوز يتنهد ارتياحا.

خفتت الرياح حتى تلاشت، لكن الرماد الذي داسته الحوافر فصار نثارا جعل عيون الناس تتـــصبب دموعا والأحصنة والكلاب تسعل. كانت الكلاب تنبح نتيجة الألم كلما داست على نفايات لا تزال تحترق. لم يعثر على شيء في الوقت الذي تجاوزت فيه عملية المسح العلامة التي تـــشير إلى منتصف المسافة، وكانت أعصاب باو شنغوي على حافة الانفجار. "سيروا ببطء!"، صاح. "ليس باستعجال هكذا! لا تتغاضوا عن كومة رماد واحدة".

تبددت نظرة القلق التي كانت ترتسم على وجه بلغي.

– "هل تعتقد بأن الذئاب قد هربت؟"، سأل شن.

– "حـــتما هربت، وإلا لكنّا وجدنا ذئبا واحدا على الأقل حتى الآن"، رد الرجل العجوز وهو يأمل أن يكون كلامه صحيحا. "ربما جاء تينغر لنجدتها".

قطعت حديثهما صيحة تناهت من مكان بعيد. "يوجد ذئب ميت هنا!".

طأطـــأ الـــرجل العجوز رأسه فيما انطلق برفقة شن على حصانيهما ليشاهدا. انضم إليهما الآخرون، بينما كان باو شنغوي في الوسط. كان يحث بلغي انفعال ليلحق بهم ويتعرّف إلى الجثة.

كانت الجثة مكومة على الأرض، محروقة بحيث يصعب التعرف إليها، وقد تصاعدت رائحـــة كـــريهة لزجة من جسدها. تكلم الجميع في وقت واحد. "نجحت عملية الحرق، نجحـــت!"، قال وانغ جونلي وهو منفعل تماما. "وجدنا ذئبا، لا بد من أن تكون البقية في مكان ما هنا".

بعد ذلك قال لاسورنغ. "هذا ليس ذئبا؛ إنه صغير جدا".

– "انكمش جسده في النار"، قال باو. "طبعا ستجده صغيرا".

أحنى وانغ رأسه. "ربما يكون ذئبا صغيرا".

تـــرجل بلغي عن حصانه، وقلّب الجثة بعصاه. كانت كل شعرة من شعيرات الحيوان قد احترقت، وبدا من الواضح أنه يمكن أن يكون أي شيء قد احترق على كومة من القصب. "إنه ليس ذئبا، ولا حتى ذئبا صغيرا".

حدّق باو مشككا إلى الرجل العجوز. "كيف لك أن تعرف؟"، سأل.

– "انظر إلى فمه"، قال بلغي. "أنياب الذئب أطول من أنياب الكلب، وأكثر حدة. إذا لم تصدقني التقط له صورة وانظر إلى ما سيقوله رؤساؤك. أي شخص يعرف ولو شيئا يسيرا عن الذئاب سيدرك أنك أرسلت تقريرا مزيفا، إنك تسمي الكلب ذئبا".

قـــال بـــاو وهـــو يبدي لهفة مفاجئة: "ضعوا علامة هنا. إذا عثرنا على بعض الحيوانات الأخرى فسنعرف ما إذا كان هذا ذئبا أم كلبا".

نظر الرجل العجوز إلى الأرض، وقد بدا عليه الحزن. "كان هذا الكلب العجوز يعرف أن أمـــره قد انتهى، لذا جاء إلى هنا ليموت"، قال. "كانت الريح تهب من خلفه، وهناك ذئاب في كل مكان. إنه شيء مؤسف للغاية أن الذئاب لم تجده في البداية".

– "انتـــشروا واســـتمروا في الـــبحث!"، قال باو آمرا. "اتخذوا نسقا مستقيما. مشطوا المـــنطقة". لـــذلك انتشروا واستمروا في تفحص كل كومة من الرماد، إلا أنهم لم يعثروا على شـــيء. بدأ العديد من الطلاب يشعرون بعدم الارتياح. أما الصيادون، الذين كانوا متمرسين بكل شيء ما عدا خطط استخدام النار، فقد تساءلوا هل كان باتو قد قدّم تقريرا زائفا.

– "أقـــسم بالرئيس ماو"، قال تحت ضغط الاستجواب، "وأقسم بتينغر. لقد رأيتها وأنا برفقة بوهي. البقية منكم رأوا آثارها، أليس كذلك؟".

– "هـــذا شـــيء غـــريب"، قال باو. "أعرف أنه لا يمكن أن تكون قد نبتت لها أجنحة وطارت بعيدا".

ابتسم بلغي. "كنت أتصور أنك تعرف أن الذئاب يمكنها الطيران. إنها حيوانات مذهلة لن تحتاج حتى إلى أجنحة لتفعل ذلك".

أجاب باو بحنق: "إذا، كيف استطعنا أن نقتل الكثير منها هذا الصباح؟".

– ذلــك هو الثمن الذي دفعته عن مذبحة الأحصنة. لن يسمح تينغر لك بقتل أي ذئاب أخرى؛ لن يكون ذلك شيئا عادلا.

قاطعــه باو. "كفى حديثا عن تينغر الذي فعل هذا، وتينغر الذي فعل ذاك. إنه واحد من الأشياء الأربعة القديمة". تحول بوجهه. "انتشروا وانهوا الواجب"، أصدر أمرا لهم.

بعــد ذلك مباشرة تقريبا، صاح اثنان من رعاة الأحصنة، "أخبار سيئة – هناك زوج من فحول الثيران محترق هنا!".

ذهــب الفــريق علــى أحــصنتهم إلى ذلك المكان ليروا. استبد التوتر بكل من الرعاة والصيادين.

تعتبر فحول الثيران، التي يسمونها بوهي، من أكثر ذكور العجول التي تتمتع بكامل الحرية، وأكثرها تمتعا بهناء العيش، وأكثر الحيوانات التي تنال التقدير على السهوب. اختارها رعاة أبقار متمرسون كحيوانات مخصصة للاستيلاد، في الوقت الذي تصل فيه إلى سن البلوغ، عدا أشهر فــصل الصيف، عندما تنتقل من مكان إلى آخر للتزاوج، فهي تمضي أوقاتها بعيدا عن القطيع، تتجول على السهوب من دون قيود، لا تحتاج إلى أي شخص يرعاها أو يغذيها. إنها حيوانات ضــخمة، متينة البنية ذات رقاب ثخينة وقوة بالغة؛ يغطي وجوهها شعر جميل مجعد تحت زوج مــن القرون القصيرة، والسميكة، والحادة جدا، إنها أسلحة ممتازة تصلح للقتال عن قرب. كان السارقون الأشداء الذين يشنون غاراتهم في السهوب – الذئاب – يبقون بعيدا عن هذه الثيران، حــتى عــندما ترحل الذئاب في قطعان. لم تكن أنياب الذئاب ذات فائدة إزاء جلدها المتين، وليست لها القدرة على قهر تلك الحيوانات.

لهــذا لم يكن لدى فحول الثيران أعداء طبيعيون. كانت تتنقل عادة أزواجا، تقتات معا علــى أفضل العشب خلال النهار، وتنام قرب بعضها بعضا ليلا. يعتبر الهواء الذي تنفثه فحول الثيران مبجلا، إنها رموز للقوة، والاقتدار، والفحولة، والشجاعة، والحرية، وحسن الطالع. كان سكان السهوب منذ زمن طويل ينظرون إليها بوصفها ذات خصائص خارقة للطبيعة؛ إن تمتعها بالــصحة علامة على ازدهار قطعان المواشي والخراف. وإذا تعرض ثور منها للمرض فإن ذلك يخــبر بحدوث كارثة. ما دام هناك عدد قليل من هذه الثيران، لا يتجاوز عددها أكثر من ثور واحــد مقابــل عدة قطعان من الماشية، فإن الأخبار التي تشير إلى أن اثنين منها قد ماتا خلال الحريق أدت إلى انتشار الهلع بين الرعاة، كما لو إنهم قد علموا بموت إنسان عزيز.

تــرجل الرعاة عن أحصنتهم ووقفوا واجمين حول الجثتين الضخمتين، بينما امتدت قوائم فحلــي الــثيران بــصلابة على الأرض المحروقة، وجلداهما السميكان كانا عبارة عن كتلة من الفقاعــات السوداء التي يطفح عليها صديد دهني أصفر ينــز من بين الشقوق. كانت عيونهما مثل كرات المصابيح الكهربائية، ولساناهما متدليين إلى الخارج إلى أبعد ما يمكنهما أن يصلا إليه.

وكان هناك سائل أسود يتسرب من فاهيهما وخطميهما. تعرف رعاة الأبقار والنساء على فحلي الثيران من قرونهما، وسرعان ما تصاعد الغضب بين الحشد.

- "هذا شيء لا يغتفر!"، هتفت غاسماي. "كانا أفضل فحول الثيران في فرقتنا. لقد ولد نصف قطيعنا من هذين الفحلين، وأنت أحرقتهما! إنك في طريقك لأن تدمر سهوبنا تماما!".

- "كانا أفضل نسل من ثيران السهوب التي لدينا، نسميهما الثورين الأحمرين"، قال بلغي. "الأبقار التي تزاوجت مع هذين الحيوانين تنتج أوفر كميات من الحليب؛ إن ذريتها تحمل أكثر اللحوم وأفضلها. سأرفع تقريرا عن هذه الحادثة إلى سلطات اللواء، أطلب منهم إجراء تحقيق. سأجعلهم يأتون إلى هذه البقعة لكي يشاهدوا بأنفسهم. إن الدمار الذي يلحقه البشر يفوق أي خسائر قد تلحقها الذئاب!".

- "قبل سنوات قليلة"، قال أوليجي، "أراد مكتب مواشي الاتحاد المنغولي أخذ هذين الفحلين، لكننا لم نقبل بالاستغناء عنهما وأعطيناهم بدلا من ذلك زوجا من الثيران الفتية التي أنجبها هذان. هذه خسارة فظيعة!".

- "كان القصب يمنع الريح من الوصول إلى هنا"، قال لاسورنغ، "لذلك جاء الثوران ليناما. وانتهى بهما الأمر أن احترقا حتى الموت. كانا بطيئي الحركة جدا ليحصلا على فرصة للهرب، حتى لو لم يختنقا من الدخان الكثيف اللزج. هذه هي المرة الأولى في تاريخنا التي يقدم فيها شخص ما على حرق الماشية في السهوب. أي شخص يعصي أوامر تينغر لا بد له من أن يعاني من العواقب".

كان جلدا الفحلين المتفحمين لا يزالان يتفسخان وتنفتح فيهما شقوق مروعة كأنها تخط كتابات روحية ولعنات تخبر بالشؤم. غطت النساء المرعوبات وجوههن بأكمام سترهن العريضة التي صنعت من جلود الحملان وركضن إلى خارج حلقة المراقبين. تحاشى الجميع باو شنغوي، الذي وقف هناك، وحيدا، قريبا من جثتي الثورين، بينما تلطخ وجهه وملابسه بالسخام. فجأة دمدم بلا أدنى تفكير: "ستدفع الذئاب ثمن موت هذين الثورين! لست أبالي بما يقوله أي منكم، لن يهدأ لي بال حتى أقتل آخر ذئب في أولونبولاغ!".

كانت شمس الغروب قد تلاشت واستقرت برودة بواكير فصل الشتاء فوق الأرض كأنها شبكة. عندما عاد الجميع إلى المخيم - الناس وما لديهم من الأحصنة والكلاب - جائعين، ومنهكين، ومتشبعين بردا حتى النخاع، وقد استولى عليهم الحزن، فيما كانت رؤوسهم محنيّة، وكأنهم جيش مفكك الصفوف كان قد تعرض إلى هزيمة. لم يعرف أحد منهم كيف استطاع ملك الذئاب رمادي اللون أن يقود قطيعه إلى خارج النيران ويخترق الطوق. انتشر الكثير من اللغط، ووجهات النظر المتضاربة، لكن الجميع كانوا مقتنعين أن الذئاب قد فرت إلى بر الأمان. "كان هناك صدع مهلك في هذا الطوق"، قال أوليجي. "الناس والكلاب أثاروا الكثير جدا من

الــضوضاء قــبل أن نصل إلى المكان. الذئب رمادي اللون قاد قطيعه إلى الخارج حتى قبل أن تشتعل النيران".

أســـرع رعاة الأحصنة بلهفة راجعين إلى قطعانهم. أشار شن زن ويانغ كي، اللذان كانا قلقــين بــشأن جروهما، إلى زانغ جيوان وغاو جيانــزونغ أن يتركا فريق الصيد ويأتيا معهما ســالكين طريقا مختصرا إلى المخيم بأقصى سرعة ممكنة. فيما انطلقوا على أحصنتهم، تمتم يانغ: "قبل أن نغادر، كنت قد قدمت للجرو بعض قطع لحم الضأن المطبوخ جيدا، لكنني لست أدري إن كان قد أصبح مستعدا لأكل اللحم الآن. يقول دورجي إنه لن ينفطم عن أمه إلا بعد شهر آخر أو أكثر".

- "لا تقلق بشأنه"، قال شن. "في الليلة الماضية تغذى كثيرا بحيث إنني تصورت أن معدته ســتنفجر. لــن يتضور جوعا إذا لم يأكل اللحم. ما يقلقني هو أننا تغيبنا طوال اليوم، تاركين المكان بلا حراسة. إذا وجدته الأم فأنت تعرف ما معنى ذلك".

عــندما انتــصف الليل كانوا قد وصلوا إلى المخيم. كان الكلبان إيرلانغ *وأصفر* ينتظران طعامهمـــا أمام الحوض الفارغ الذي يوضع فيه طعام الكلاب. انــزلق شن عن سرج حصانه، وأعطــى الكلبين بعض العظام التي علق بها شيء من اللحم، بينما دخل زانغ جيوان وغاو إلى الخــيمة للاغتسال، ولتسخين القليل من الماء لإعداد الشاي والحصول على قسط من النوم بعد الأكل. أسرع شن ويانغ إلى الجحر الذي وضعا فيه الذئب، حيث رفعا اللوح الخشبــي الذي فــوقه، وسلّطا ضوء المصباح الكاشف نحو الفتحة. كان جرو الذئب متكوما في إحدى الزوايا، غارقــا في الــنوم. أما الكلبة الصغيرة، من جهة أخرى، فقد كانت تئن من الجوع، وتحاول أن تتــشبث بالجدران لتخرج وتعثر على حلمة ضرع أمها. كانت يير تطوف حول المنطقة بلهفة، لذلك مدّ شن يده إلى الأسفل، أخرج الجرو، وأعطاه ليير، التي التقطته بأنيابها وحملته بعيدا.

تفحص شن ويانغ الجحر جيدا. لقد اختفت القطعتان من لحم الضأن؛ كانت بطن الجرو ناتــئة في كلا الاتجاهين وهناك بقع من الدهن تلطخ خطمه وفمه. فيما كان يغط بالنوم، التوى فمــه عند الطرفين، وكأنه يستمتع بحلم مبهج. شعر يانغ بالفرح. "الصغير اللعين كان قد التهم كل ذلك اللحم"، قال وهو يتنهد. "من الواضح أن أمه منشغلة في مكان آخر".

14

تــسربت حـــزم من ضوء الشمس التي غابت طويلا إلى داخل الخيمة من خلال الفتحة المؤطـــرة بالخشب التي عند السقف. فتح شن زن عينيه ونظر عاليا إلى السماء الزرقاء في صباح ربيعـــي بارد. وثب من السرير، ارتدى ملابسه على عجل، وأسرع إلى الخارج، اتجه فورا إلى جحر الذئب، وقد أغمض عينيه من لذعة ضوء الشمس الساطع.

كان غومبو مسبقا قد أخرج الحملان من حظيرتها؛ فشقت طريقها باتجاه المراعي التي عند سفح التل. كان حشد آخر من الخراف، تلك التي ولدت مؤخرا، ترعى في مكان قريب. كانت جمـــيع النعاج عدا القليل منها قد ولدت حملانا في غضون ذلك الوقت؛ تحرك القطيع بخطوات جلـــيدية. رأى شـــن أن يانغ كي لم يخرج بعد وأنه هو وزانغ جيوان كانا يتعلمان من غومبو طـــريقة حشو جلود الذئاب، التي تدلى اثنان منها وهي مجعدة على العربات الفارغة التي تجرها الـــثيران. ذهب شن إلى هناك ليراقبهم. حمل غومبو، وهو رجل كبير في السن، قبضة من القش من كدس قريب ودسّها بعناية داخل الجلود، التي اتخذت بشكل بطيء هيئة الذئاب. "هذه هي الطريقة التي تمنعها من التجعد ولا تجعل سطوحها الداخلية تلتصق ببعضها بعضا"، قال. "فذلك يقلل من قيمتها". حالما انتهى من حشو الجلود، شق فتحة عبر الخطمين ومرر خيطا فيها.

بعـــد ذلـــك سأل زانغ جيوان ما إذا كان لديه عمود فائض عن حاجته من شجر البتولا ليستخدمه كعمود أنشوطة. قال زانغ إن لديه ما يريد، وقاد الرجل العجوز إلى عربة ثور، حيث التقط غومبو أطول غصن وأكثرها استقامة من بين أغصان البتولا الأربعة أو الخمسة التي كانت موجـــودة في عـــربة الثور، ويصل طوله إلى نحو عشرين قدما. بعدها ربط الحبل الذي كان قد مرره عبر فتحة خطم الذئب بطرف العمود، عمل حفرة عمقها عدة أقدام أمام الخيمة، وأقحم العمـــود داخلـــها. عندما انتهى، رفرف جلدا ذئبين محشوين متماوجين مع الرياح عاليا فوق الأرض وكأنهما رايتا إشارة.

- "تلك هي الطريقة التي كنا نجففها بها"، قال غومبو، "وفي الوقت نفسه فهو إعلان إلى المـــارين بالمكان يشير إلى أن صيادين بارزين يعيشون في هذه الخيمة. في الأيام الغابرة، كانت جلـــود مثل تلك، تُبعد اللصوص وقطاع الطرق عن المكان". حدّق شن ويانغ إلى رايتي الذئبين اللـــتين ترفرفان مع الريح، كانت ذات فرو مستوٍ منفوش. وتحول الجلدان في ذهنيهما فجأة إلى صورة زوج من الذئاب الحية يقتحم ميدان المعركة.

تـــنهد يانغ. "الذئاب ميتة، لكن شكلها أو أرواحها لم تمت. إنها باقية كأنها لا تزال تشن هجوما محكما، تبدو مفعمة بالشجاعة شأنها دائما. إنها تجعل القشعريرة تدب في أوصالي".

شعر شن أيضا بانفعالاته تتصاعد. "تذكرني رؤية تلك الجلود بالرايات التركية التي كانت تزخـــرف برؤوس الذئاب التي كان الفرسان في الزمن القديم يحملونها في المعارك، وهم يجتازون بأحصنتهم السهوب، بينما كانت دماء الذئاب تتدفق عبر عروقهم، وصدورهم مليئة بالشجاعة، والضراوة، والحكمة التي تعلموها من تلك الذئاب ذاتها، حتى استطاعوا أن يقهروا العالم".

– "تعـــرف"، قال زانغ، "الآن أشاركك الرأي في أن الذئاب تمثل موضوعا شائكا للغاية، له ارتباط بالكثير من المسائل. لا عجب أنك منبهر إلى هذه الدرجة بها".

– "مـــن وجهة نظري"، قال يانغ كي، "ينبغي لنا نحن الثلاثة أن ننسى مناهج الدراسة في الجامعة من تلقاء ذاتنا، وأن نركّز على البحث الأكثر إثارة في علم الذئاب".

جعلـــت الريح جلدي الذئبين يتماوجان، ومشطت الفراء إلى أن غدا رقيقا وبراقا، كانت الشعيرات الذئبية الداكنة تبعث وهجا متألقا في ضوء الشمس، وكأنها غطاء وضع فوق طاولة. تمايـــل زوج الذئاب بمرح غامر في زرقة سماء تينغر، عانق الواحد منه الآخر، وتشقلب مرة إثر أخرى، مثل مخلوق تحرر من كل القيود يتهادى باسترخاء بالغ. بالنسبة إلى شن، لم يكن زوج الـــذئاب محـــشوا بالقش لكنه كان مليئا بحب الحياة، وبروح مستخلصة من نشوة القتال، تلفع بالـــدخان أبيض اللون المنبعث من مدخنة الخيمة، حتى بدت وكأنها تتراقص في الغيوم أو تسعى لاختراق ستر السديم. حلقت نحو تينغر، وهي تحمل أرواح سكان السهوب معها.

أدرك شـــن أن مـــا كان يفعله، وهو يقف محملقا صوب السماء، هو بحد ذاته نوع من الطقـــوس؛ من دون أن يعي ذلك، وقف عند قدم رمز في مكان تغمره أجواء التوقير والانبهار. كانـــت الروحانية والإيمان اللتان تسودان في السهوب تحتويان المرء كالهواء، ولغرض أن يشعر المرء بها يحتاج فقط إلى أن يحوز على لهفة الروح وأشواقها...

قال شن لزانغ، "تعالَ معي نتفقد الجرو".

مـــشيا إلى الجحر الجديد، حيث أزاح شن الصخرة ورفع اللوح الخشبـــي. كانت الكلبة الصغيرة تنام بتكاسل في إحدى الزوايا، لم تكن تخالجها أفكار بشأن وجبة صباحية. بينما كان الجرو جاثما وسط الجحر، ينظر إلى الأعلى بجوع، ونفاد صبر. حالما أضاء ضوء الشمس المشرق الجحـــر، نهض على قائمتيه الخلفيتين، ودب فيه نشاط متزايد، وبدأ يخدش ببراثنه على الجدار. تـــسلق لـــيس أكثر من بضع بوصات قبل أن يتعثر ويهوي على الأرض، ومن ثم زحف على قائمتيه وكرر المحاولة، أنشب مخالبه في التراب، وسحب جسمه بكل ما أوتي به من قوة، كأنه سحلية. عندما تهاوى التراب، سقط على الأرض كأنه كرة من الفرو، وبدأ يهدر ويدمدم على ظله الذي ارتسم على الجدار، غاضبا منه لعدم مساعدته على الخروج من الحفرة.

شعر زانغ، الذي لم يرَ مطلقا جرو ذئب حي من قبل، برغبة في أن يمد يده ويلتقطه ليتمعن فيه عن قرب.

- "انتظر لحظة"، قال شن. "دعنا نرى إن كان يستطيع الخروج بالاعتماد على نفسه. إذا استطاع ذلك، يجب أن أجعل الجحر أعمق".

بعد أن سقط الجرو مرتين متتاليتين، تخلى عن ذلك الجزء من الجدار، وبدأ يجول في أنحاء الجحر، كان يشم هنا وهناك، كأنما يحاول أن يبتكر خطة هرب جديدة. على حين غرة، اكتشف وجود الكلبة الصغيرة، ومن دون أن يضيع ولو ثانية واحدة، وثب على ظهرها ومن هناك إلى رأسها. بدأ يتسلق الجدار مرة أخرى، مما جعل التراب يتساقط متناثرا على جسدها؛ أفاقت من نومها، وقفت على قوائمها وهي تئن، ونفضت التراب عن ظهرها فيما سقط الجرو من جديد. الآن تغضن وجه جرو الذئب بغضب تام أمام الكلبة الصغيرة، كشّر عن أنيابه، وتفجّر صوت عوائه. "اللعين الصغير لديه الكثير من طباع الذئاب بداخله مسبقا!"، هتف زانغ وهو يطلق ضحكة. "يبدو لي أنه ذكي جدا".

رأى شن أنه في غضون يومين كان الغشاء الذي يغطي عيني جرو الذئب قد أصبح أكثر رقة؛ لكن، لا يزال يغطيها بالكامل سائل لزج، بدت العينان ناحلتين تقريبا. ومع ذلك، بدا أن الجرو كان قادرا على تمييز أشكال شاحبة، ويمكنه أن يستجيب لإيماءات الأيدي. عندما فتح شن يده وحركها أمامه تتبعها الذئب بعينيه. من أجل أن يبدأ بتحديد ردود أفعال الجرو، قال شن بصوت بطيء: "أيها الصغير... ذئب... أيها الذئب الصغير... طعام... طعام". مدّ الذئب رأسه، حرك أذنيه اللتين تشبهان أذني القطة، وأصغى بمزيج من الخوف والفضول.

- "أريد أن أرى ما إذا كانت لديه أي ذاكرة عن وجاره الأصلي"، قال زانغ فيما غطى فمه بيديه، وأطلق أصواتا تشبه أصوات الذئاب. تحرك الجرو بعصبية، ثم وثب من جديد فوق جسد الكلبة، ونخس بمخالبه بجنون على الحائط، سقط مرة، مرتين، إلى أن تكوم في إحدى الزوايا كما لو أنه يبحث عن الأمان الذي توفره له أمه. عرف الرجلان أنهما اقترفا فعلا قاسيا، وذلك بجعل الجرو يصغي لأصوات تماثل تلك في مملكة الذئاب.

- "لن تكون تربية هذا الجرو أمرا سهلا"، قال زانغ. "هذه ليست حديقة حيوان بكين، حيث يمكن أن يؤخذ من بيئته الطبيعية، ويتخلى بالتدريج عن بعض وحشيته. في هذا المحيط البدائي، عندما يهبط الليل، ستحيط بنا ذئاب تعوي، ولست أدري كيف يمكنه أن يتغير في تلك الظروف. سيلحق الأذى بأي شخص عندما يكبر. كن حذرا للغاية".

- "لم يكن غرضي أبدا أن أجعله يتخلى عن وحشيته"، قال شن. "ما المغزى من وراء ذلك؟ أردت فقط أن أكون على اتصال مباشر مع ذئب حي، أن ألاطفه وأحمله بين يدي، وأقترب منه أكثر فأكثر يوما بعد يوم، وأرى ما إذا كان في وسعي أن أفهم طبيعته. ليس

بإمكانك أن تتعرّف إلى الذئاب من دون أن تدخل وجارها، مما يعني أنك ينبغي ألا تخاف من التعرض للنهش. الشيء الذي يشغلني هو ألاّ يسمح لي الرعاة أن أربيه".

كان الجرو لا يزال يحاول الخروج من جحره، لذا مدّ شن يده، التقطه من خلف رقبته، وأخرجه. احتضن زانغ الحيوان الصغير بيديه، وتمعن فيه عن قرب فيما كان يدعك فروه. حاول أن يمسّد فروه، ولكنه عندما رفع يده، انتصبت شعيرات الذئب مجدداً في مشهد يوحي بالوحشية. "أشعر بالحرج عندما أعترف أنني، أنا راعي الأحصنة، ها قد أتيت إلى هنا، إلى حظيرة للخراف لكي ألمس ذئبا حيا. لقد خرجت مع لامياف مرتين بحثا عن بطون الذئاب لكننا رجعنا خاويي الوفاض. أراهن أن واحدا فقط من بين مئة ألف صيني لم يلمس يوما ذئبا حيا من السهوب. إننا نكرهها، مما يعني أننا نكره أي شيء تبرع فيه. الناس الوحيدون تقريبا الذين تعلموا دروسا من الذئاب هم البدو".

- "في تاريخ العالم"، أكمل شن التعبير عن الفكرة، "البدو هم الشرقيون الوحيدون الذين استطاعوا نقل القتال إلى أراضي الأوروبيين، والشعوب الثلاثة التي هزت الغرب فعلا وقوضت أسس بنيانه هي الهونز، والأتراك، والمنغوليون. كان الغربيون، الذين قاتلوا وشقوا طريقهم شرقا، جميعا أحفادا للبدو. الشخصان اللذان شيدا روما القديمة هما أخوان كانت قد ربتهما ذئبة. لقد نقشت صور للذئبة وطفليها من الذئاب البشرية على شعار المدينة حتى اليوم. أما شعوب التوتون، والألمان، والأنكلوساكسون فقد ازدادت قوتهم، وكانت دماء الذئاب تجري في عروقهم. أما الصينيون، بنزعاتهم الضعيفة، فكانوا في حاجة ماسة إلى عملية نقل لتلك الدماء القوية التي تكبحها قيود. لو لم توجد الذئاب، لكان تاريخ العالم قد كتب بطريقة مختلفة كثيرا. إذا لم تعرف طبيعة الذئاب فلا يمكنك أن تفهم روح وشخصية البدو، ولن تتمكن بالتأكيد من إدراك الاختلافات بين البدو والفلاحين أبدا، أو الخصائص المتأصلة لدى كل منهما".

- "لا تقلق"، قال زانغ. "إنني أفهم السبب الذي جعلك ترغب في أن تربي هذا الذئب، وسأتحدث مع الرعاة نيابة عنك".

حمل شن الجرو تحت معطفه، ومشى إلى جحر الكلاب. عندما رأت يير أن هناك ذئبا يتغذى على حليبها، وفي اللحظة التي تخلى فيها شن عن حراسته، نهضت، واستدارت لتعضه. لكن الجرو تمسك بحلمة ضرعها وما كان ليتخلى عنها، تعلق من بطنها مثل علقة، أو زجاجة حليب فارغة. التفت يير حول نفسها مرة بعد أخرى، وتأرجح الذئب معها، كانت تحاول أن تعضه لكنها فشلت. بالنسبة إلى شن وزانغ كان تصرفا جنونيا لكنه كوميدي. مدّ شن يده إلى الأسفل، وفتح فم الجرو عنوة ليجعله يترك حلمة الضرع. "إنه مصاص دماء حقيقي"، قال زانغ وهو يضحك.

أخفض شن رأس بير، وربت عليها برفق ليجعلها تسمح للذئب الصغير أن يرضع. عندما شبع الجرو نهض شن وقال: "أعتقد أن علينا ترك الصغار يلعبون مع بعضهم بعضا". وهكذا فقد حملا الجراء إلى مكان ينتشر فوقه عشب جاف، ووضع شن الذئب على الأرض وسط العشب الجاف. في اللحظة التي لامست فيها كفاه الأرض، انطلق يجري بأقصى سرعة ممكنة، مبتعدا عن الجراء والرجلين. كانت بطنه تحتك بالأرض وقائمتاه المقوستان ترتعشان، بدا مثل سلحفاة ذات شعر أكثر من كونه ذئبا. حاول أحد الجراء الذكور أن يجري معه، لكن الذئب كشر عن أنيابه وأخذ يعوي.

أثـــار ذلـــك استغراب شن. "عندما يكون جائعا"، قال، "فإن من يعطيه حليبا يعتبر أمه، ولكـــن عـــندما تمتلئ بطنه، لا يتبقى شيء اسمه الأم. لم تنفتح عيناه بعد بالكامل، لكن خطمه يشتغل بشكل رائع. هو أفضل سلاح يمتلكه الذئب".

قـــال زانغ: "يمكنني أن أخمن أنه كان يعرف مسبقا أن هذا المكان ليس مسكنه الحقيقي، والكلبة ليست أمه الحقيقية، وأن تلك الجراء ليست إخوته وأخواته".

- "عـــندما وجـــدناه في ذلك المكان"، قال شن، "كان يعرف مسبقا كيف يلعب دور الميت".

بقـــيا واقفين على بعد أربع أو خمس خطوات خلف الجرو، تبعاه ليشاهدا ما الذي يفعله. زحف عدة ياردات فوق الأرض التي تغطيها بقع من الثلج والعشب الجاف قبل أن يتوقف ليشم أرجـــاء المـــنطقة. شم رائحة روث الأحصنة، الفطائر المحشوة بلحم البقر المفروم، عظام الأبقار والخـــراف، وأي شـــيء آخـــر صادف أن وجد هناك - ربما حتى بول الكلاب التي ترسم به علامـــات تحدد مناطقها الخاصة. قاده خطمه إلى الطريق، ولم يدركا حتى تبعاه إلى مسافة عدة أقدام أنه لم يكن يجول على غير هدى، لكن كان لديه هدف واضح في الذهن: كان يجري بعيدا عن الخيم، والمخيم، والحظائر، وروائح البشر، والكلاب، والدخان، والمواشي.

كان لدى الجرو مخطط طبيعي أراد أن ينفذه بإصرار، مثلما أدرك شن. لقد امتلك طبيعة أكثـــر إثـــارة للخوف واستحقاقا للتقدير من حيوانات أخرى. كان شن دائما يضمر للعصافير تقديرا عاليا، لأنه كان من المستحيل تدجينها. في طفولته، كان قد اصطاد الكثير منها، وأتى بها إلى المنـــــزل كحـــيوانات مدللة. لكن حالما أصبحت في الأسر توقفت عن الأكل والشرب، رافـــضة التكيف مع محيطها الجديد. كان جوابها على خسارة الحرية هو الموت في كل مرة. لم يـــنجح ولو لمرة واحدة في أن يحتفظ بعصفور واحد اصطاده واختار البقاء على قيد الحياة. أما الـــذئاب فهي مختلفة تماما، مثلما تبيّن له. إنها تتشبث بحريتها، لكنها تتعلق بالحياة أيضا. الذئب الـــسجين يأكل وينام مثلما اعتاد على ذلك دائما. وبدلا من أن يصوم، فهو يأكل حتى التخمة ويـــنام كثيرا قدر الإمكان وذلك لكي يختزن الطاقة. وبعدها يهرب في أول فرصة سانحة سعيا

وراء حرية مستجدة وحياة جديدة. شعر شن بأنه كان يشهد شخصية نادرة فيها الكثير من الخصائص التي تشبه الخصائص البشرية التي رآها المرء لدى المجالدين[1]. فالشعب الذي يتبنى مزاج الذئب ويجعله رمزه يكون دائما شعبا منتصرا.

شعر شن بالامتنان لجرو الذئب، الذي حاز جسده الصغير القوي على قدرة نقلته طوال الطريق إلى قلب لغز غامض.

جاء غومبو ممتطيا حصانه، وطلب من شن أن يأتي معه للجمع بين الحملان التي ولدت حديثا وأماتها. لم يتطلب الأمر من الرجلين أكثر من ساعة لمطابقة كل النعاج مع حملانها، والتي كانت ترضع مرتين في اليوم، في الصباح وما بعد الظهيرة. أما الحملان التي لم يتمكنوا من التعرف على أماتها فيمكن أن تتضور جوعا بسرعة. تعطي عملية الجمع تلك الرعاة أيضا الفرصة لحساب قطيعهم. ومن أجل تفادي ضوء الشمس الساطع، كثيرا ما كانت الحملان حديثة الولادة تنزوي داخل جحور المرموط، ويمكن للرعاة بسهولة أن يفقدوها لولا إجراء تلك العملية. ذهب شن ذات مرة للبحث عن حملان مفقودة بعد أن أحصى عددها، ووجد ثلاثة منها في جحور المرموط.

كان غومبو راضيا عن حالة القطيع. "لدينا عشب جيد وماء وفير هنا على أرض أولونبولاغ"، قال، "لذا سيتوافر لدى النعاج الكثير من الحليب وستتعرف إلى حملانها. ذلك يجعل الأمور سهلة بالنسبة إلينا. إذا كانت نوعية العشب والماء رديئة فلن يتوافر لدى النعاج حليب كاف، وسترفض حتى حملانها. إن الحظ يحالفنا لأن لدينا قادة جيدين يفهمون طبيعة السهوب ويفهمون طبيعة الذئاب. إنهم لا يركزون جهودهم على القطعان، ولكن على العشب والمراعي. عندما يولي الناس عناية واهتماما بواجبهم تستطيع الحملان أن تعتمد على أنفسها تماما. إن رعي الخراف عمل هنيء يكاد يخلو من الهموم على أرض أولونبولاغ. خلال أيام قليلة، سأكون قادرا على الجمع بين النعاج والحملان بنفسي".

لم يكن غومبو شخصا يهوى التفاخر بنفسه كثيرا، لكنه كان يعرف طبيعة السهوب مثلما يعرف ظهر يده.

(1) المجالد: هو شخص – وهو عبد في أغلب الأحيان – أو أسير يقاتل حتى الموت، لإمتاع الناس في روما القديمة. (المترجم)

15

لاطفـــت رياح الربيع الدافئة الرطبة أرض أولونبولاغ؛ تعلّقت سحب كثيفة بيضاء اللون بشكل عشوائي في السماء على ارتفاع منخفض. نهضت السهوب الوسنانة، ودبت فيها الحياة، تحـــولت إلى عـــرض تزحلق تناوبت ألوانه بين براقة وداكنة، صفراء وبيضاء. في الوقت الذي رقّطت فيه السحب وجه الشمس، شعر زانغ جيوان كما لو أن ريحا باردة قد اخترقت مئزره. لكن عندما تحركت السحب بعيدا، جعلته أشعة الشمس القوية يشعر كما لو أن جسده يشوى بالحـــرارة، ترشح العرق من مسامات وجهه، وطفا على يديه، إلى أن صار حتى مئزره يشعره بحروق الشمس. لكن بعد ذلك، حالما بدأ يفك أزرار مئزره ليسمح لشيء من الهواء بالتخلل إلى جسده، أرجعته سحابة أخرى إلى نهار ربيعي بارد.

كان الجليد قد أصبح رقيقا، والثلوج قد ذابت، وانكشفت امتدادات شاسعة من العشب الـــذي يمـــيل لونه إلى الصفرة. تحولت البراعم المبكرة التي بزغت قبل آخر سقوط للثلوج إلى صـــفراء، مـــع صبغة خفيفة من الاخضرار. كان الهواء مشبعا بأريج ثقيل انبعث من النباتات المتعفنة؛ تدفقت مياه الثلوج الربيعية الذائبة متجهة مجددا إلى الينابيع، انحدرت على سفوح الجبال لتتـــشبع بهـــا المستنقعات وتشكل بركا تنعكس عليها سحب بيضاء اللون. بدت أولونبولاغ وكأنها ترقص في الهواء.

اختبأ زانغ وباتو داخل الأعشاب الطويلة التي تحيط بالمكان لأكثر من ساعة بانتظار الذئاب. كانـــت مذبحة الأحصنة، التي أعقبها *التقرير الزائف* عما جرى في وادي القصب، قد جعلت من المـــستحيل على باتو أن يرفع رأسه وسط الرعاة، واحتشد سيل من الغضب في داخله مصوبا نحو الـــذئاب. أما بالنسبة إلى زانغ، فما دام لم يحرز أي نجاح في حملة التطويق، فإن قتل الذئاب وحده يمكـــن أن يعـــيد له ترسيخ سمعته من جديد. لذلك بعد أن مضت عدة أيام من الراحة، رجعا إلى سفح الجبل قريبا من البحيرة الكبيرة يحملان بندقيتيهما شبه الأوتوماتيكية. كان باتو متأكدا من أن الـــذئاب التي نجت كانت تكره فكرة ترك جثث الأحصنة المتبقية لتغطس في مياه البحيرة. كانت الثلوج تذوب، ومستوى المياه يتصاعد، لكن لا تزال هناك بعض اللحوم عند حافة البحيرة، حيث يمكن للذئاب أن تتوجه لالتهامها، بالرغم من أن ذلك لن يبقى متاحا لمدة طويلة.

جعلـــت برك المياه التي تجمعت في تعرجات أرض الجبل، والتي كانت تغدو براقة للحظة، ومعـــتمة في اللحظة التالية، عيون الرجلين تدمع وهما يفتشان سفح الجبل بمنظاريهما، راقبا كل

بقعة تثير الريبة؛ سواء أكانت سوداء، أو رمادية، أو صفراء اللون. فجأة أخفض باتو رأسه وهمس قائلا: "ألقِ نظرة إلى اليسار"، حول زانغ بخفة منظاره، حبس أنفاسه لكنه لم يتمكن من أن يمنع قلبه من النبض بسرعة مذهلة وهو يشاهد زوجا من الذئاب الذي برز من مكمنه بشكل بطيء من خلف التل، ظهر رأسا الذئبين في البداية، وبعد ذلك رقبتاهما وصدراهما.

تسمرت عيون الصيادين على فريستيهما. توقف الذئبان عندما صار الجزء الأمامي من جسديهما خارجا في العراء، وأخذا يمسحان المنطقة المحيطة بهما بتوجس. وبدلا من أن يتحركا إلى مسافة أبعد خارج حلقة العشب الطويلة بقيا مختبئين تحتها وبعيدا عن النظر، كما لو أنهما كانا هما الصيادين، وليسا الطريدتين. بقي الرجلان وزوج الذئاب رابضين بين الأعشاب بانتظار الفرصة المناسبة. لم يكن الذئبان على عجلة من أمرهما. كانا مكتفيين أن يريا ما الخدع التي تختفي داخل جعبة الصيادين، وتحليا بالصبر الكافي للانتظار إلى أن يحل الظلام.

كانت *حلقة العشب* – وهو الاسم الذي أطلقه طلاب بكين على هذا التنوع في أعشاب المروج – شيئا كثيرا ما كان يرى عادة على السهوب المنغولية، إنه أكثر جمالا لكنه أكثر غرابة من أغلب أنواع العشب. لقد تميزت امتدادات عشبية منبسطة على المروج أو سفوح الجبال بوجود بقع من العشب يمكن رؤيتها من حين إلى آخر، فقد يصل طوله إلى الخصر، وهو مستقيم ومستوٍ، مثل نباتات أرز مرصوصة بكثافة أو كتل من القصب القصير السميك.

لم تكن حلقة العشب مجرد منظر جذاب؛ بل كانت أيضا نباتا غريبا نما في بقع منفصلة عن محيطها. حلقة من العشب تبدو من الخارج مرصوصة بكثافة، وكأنها ستارة من القصب، لكنها فارغة من الداخل، كما لو أن شيئا لا ينمو فيها. لقد نمت بشكل حلقة حقا، كما لو أنها فرشت بعناية باستخدام بوصلة. كان الحجم متباينا، من بضع أذرع إلى نصف قطر وارتفاعه يبلغ أقداما قليلة. حين يخرج الرعاة مع خرافهم أو أحصنتهم كانوا يستريحون على قصبها المرن. لم يتطلب الأمر من الطلاب وقتا طويلا لمعرفة أهمية حلقة العشب، حيث كان البعض منهم يسميه عشب الأريكة، أو عشب الكرسي بالمسند.

بشكلها وتركيبها الفريدين من نوعها، شكّلت حلقة العشب بقعة اختباء طبيعية للبشر والذئاب، مكانا يصلح للراحة أو لنصب كمين. كانت الذئاب قد هيمنت على السهوب قبل البشر بوقت طويل، وهي الأولى التي اكتشفت واستثمرت حلقة العشب. قال باتو إن الذئاب تفضل الاختباء خلف بقع من العشب، حيث يمكنها مفاجأة قطعان الغزلان العابرة أو قطعان الخراف. وجد زانغ جيوان فضلات ذئاب وسط تلك البقع، مما أثبت له إلى أي حدّ كانت تحبذ مثل هذه الأماكن، وقال بلغي إنها أماكن اختباء وهبها تينغر للذئاب.

الآن كان كل من الصيادين وزوج الذئاب مختفيين عن الأنظار تماما؛ لم يكن في وسع زوج الذئاب أن يرى الرجلين، اللذين لا يستطيعان أيضا رؤية زوج الذئاب بوضوح، بالرغم

مـــن أنهما رأياه بشكل خاطف. اعترى باتو التردد وازداد زانغ قلقا. هل كان الذئبان قد رأيا الـــرجلين في وقت سابق، ربما عندما تحركا للمرة الأولى، ودخلا حلقة العشب؟ هناك مفهوم عـــسكري محـــدد تعلمـــه المقاتلون المنغوليون من الذئاب وهو أن كل شيء ممكن على أرض السهوب.

تمعن باتو في الموقف مليا، وقرر ألا يتخذ أي إجراء. بينما كانت عيناه مسمرتين على التل صـــوب تلك الناحية، طلب من زانغ أن يحفظ عن ظهر قلب سمات الجانب الآخر من التل فيما كانـــا يتـــراجعان بهـــدوء إلى حيث تركا الحصانين، رفعا الرباطين وقاداهما وقاداها إلى أسفل المـــنحدر، ومـــن ثم استدارا، وتوجها جهة الجنوب الغربـــي سيرا على الأقدام. لم يتمكنا من الصعود إلا حين صارا يسيران باتجاه الريح، ووصلا إلى مسافة كافية بعيدا عن الذئبين في الأعلى والالتفاف حول المكان باتجاه البقعة التي يختبئ فيها الذئبان. لم يصدر عن حصانيهما أي صوت على الأرض الندية، بمساعدة صوت تنهد الريح.

رســـم باتـــو في ذهنه خريطة للتلال بعناية وهما يسلكان طريقهما، وخلال نصف ساعة أصـــبحا في الطرف البعيد عن أقرب منحدر يؤدي إلى الذئاب. قاد باتو حصانه ببطء إلى أعلى المـــنحدر. تماما قبل أن يصلا إلى القمة، توقف، لكن بدلا من أن يربط حصانه، لف سير العنان حول قائمتي الحيوان الأماميتين، وشد عقدة منـــزلقة. فعل زانغ الشيء نفسه.

بعـــد أن رفعا عتلة الأمان في بندقيتيهما، استمرا في التقدم، فيما انحنيا حتى الخصر. عندما وصـــلا إلى القمة، زحفا على البطن إلى أن اكتشفا ذيلي الذئبين في حلقة العشب، على بعد لا يتجاوز مئة ياردة منهما. كانت الأجزاء الحيوية من جسدي زوج الذئاب – رأساها وصدراها وبطناها – تختفي داخل العشب.

بـــدا مـــن الواضح أنه لا يزال يركز على البقعة التي أتى منها باتو وزانغ، لأنه كان يركز نظـــره إلى تلك الناحية من خلال ثغرات في العشب، نتأت آذانه إلى الأعلى، واتجه بحواسه إلى الاتجاه ذاته. كان الذئبان متنبهين إلى ما يحيط بهما أيضا، يشم الهواء من وقت إلى آخر للكشف عن أي علامات تنذر بالخطر.

أشار باتو إلى زانغ أن يصوب بندقيته إلى الذئب الأقرب، ذلك الذي إلى اليسار. على أن يتولى هو أمر الذئب الآخر. استمرت الريح بالهبوب، مما جعل حلقة العشب تنحني مكونة قوسا منخفـــضا، وأعواد القصب تحتك مع بعضها بعضا، وأدى ذلك إلى اختفاء زوج الذئاب بشكل جيد. أغمض زانغ إحدى عينيه، لكنه لم يتمكن من رؤية الذئب.

انتظـــرا إلى أن تخف شدة الريح. طلب باتو من زانغ أن يضغط على الزناد عندما يسمع طلقة النار التي سيطلقها عليه. عرف زانغ أنه حتى وإن أخطأ الهدف، فبإمكان باتو بسهولة أن يطلق رصاصة أخرى. كان زانغ، على كل حال، واحدا من أمهر الرماة في فرقة الإنتاج؛ ضمن

مدى يقارب المئتي ياردة، كان هدفه قاتلا. قال الكثير من الصيادين إن الذئاب لا تكترث لصياد يحمل بندقية ويقف على بعد خمسمئة ياردة، أو حتى أربعمئة ياردة. لكن عندما تقترب المسافة من ثلاثمئة ياردة أو أقل، فهي تستدير وتولي الأدبار. هذا السلوك، كما قالوا، كان قد تولد لديها بسبب باتو. كانت أقل من مئتي ياردة تفصل بينهما وبين الذئبين اللذين احتبأا داخل الأعشاب، لذلك صوب زانغ بهدوء على هدفه الذي لم يكن يبدي أي حركة.

استقامت أعواد القصب إثر سكون مفاجئ للريح، لكن تماما في الوقت الذي انكشفت فيه أجساد الذئاب، حيث برز ذئب نحيل خارج بقعة من حلقة العشب متجها إلى اليمين، وعدا إلى أسفل التل، انطلق قبل الذئبين المختبئين، اللذين وثبا كما لو أن أفعى قد لدغتهما، مدا رقبتيهما، وأخفضا رأسيهما، وتبعا الذئب الثالث إلى أسفل المنحدر. من الواضح أن الذئب النحيف كان يتولى واجب حراسة الذئبين الآخرين واكتشف الصيادين في اللحظة التي صارت فيها الذئاب ضمن مدى بصرهما وذلك لأن الحيوان الأكبر من بين الثلاثة، ذاك الذئب الذي كان يخضع للحراسة، لم يكن فردا اعتياديا من أفراد القطيع، لكنه كان أحد قادها. جرت الذئاب الثلاثة نحو البقعة الأشد انحدارا على سفح الجبل في المنطقة.

وثب باتو على قدميه وصاح، "إلى الحصانين!". ركضا في أرجاء المكان متجهين إلى الجبل، فكا سيري العنانين المربوطين، ووثبا على السرجين. وبدأت المطاردة. لكن عندما وصلا إلى القمة، ونظرا إلى أسفل المنحدر الخطر السحيق، شعر زانغ وكأنه يحدّق إلى هاوية لا قرار لها، فكبح سير عنان حصانه.

- "أمسك مقدمة السرج وانزل!"، صاح باتو، لم تظهر عليه أي علامة للخوف. بروح مخاطرة منغولية مثالية، روح تتحدى الموت، لوى رأس حصانه إلى أحد الجانبين، ومضى يهبط إلى أسفل الجبل.

عبرت في ذهن زانغ فكرة: الشجاعة والجبن يتقرر شأنهما في لحظات مثل هذه. أطبق أسنانه بقوة، وأرخى سير العنان فيما كان ينزل بسرعة، مثل ذلك العمل عادة يعتبر شيئا لا يخلو من النحس وسط الخيالة، وخصوصا في أصقاع غير مألوفة، حيث يمكن لجحور المرموط أو الأرانب أو حفر فئران الحقول أن تجعل أقدام الحصان تزل، فيتعثر، ويسقط هو وراكبه مما يلحق بهما بعض الجروح، أو يؤدي بهما إلى الموت.

شق حصان زانغ طريقه إلى أسفل الجبل على نحو سريع بحيث بدا كما لو أنهما هو وحصانه يمارسان سقوطا حرا. كانت زاوية الانحدار حادة لدرجة أنه لم يستطع البقاء على السرج من دون أن يتشبث بمقدمته، ويحني جسده حتى لامس ظهره ردف الحصان، والتصقت الركاب بأذني الحيوان. وبدا وكأنه مستلقٍ على صهوة حصانه. كافح لِيُبقي ساقيه قريبتين من الحصان، إنها حيلة تمكنه من النجاة يتقنها جميع الخيالة. لو تخلت عنه جسارته في تلك اللحظة،

فكل طموحاته ستذهب من فورها برفقته إلى تينغر. بعد ذلك بعدة أيام، عندما عرف أنه كانت هناك على الأقل ستة من جحور المرموط وحفر الفئران على ذلك المنحدر، استولت عليه نوبة قشعريرة تفصد معها العرق من جسده. لكن باتو أخبره أن تينغر يحب الناس الذين يتحلون بالشجاعة، وقد أبعد المخاطر عن طريقه.

عندما وصل زانغ إلى القاع، كان تقريبا قد باغت باتو، الذي نظر إلى الوراء مبديا استغرابه، وابتسم. بالنسبة إلى زانغ، كانت الابتسامة أكثر بريقا من ميدالية ذهبية.

تمارس أحصنة الطراد كلها على أولونبولاغ رد الفعل المشوب بالانفعال ذاته إزاء مهمة مثل هذه؛ تبدي نفاد صبر لإنجازها حين تسير الأمور على نحو جيد، ويظهر عليها الاكتئاب عندما لا تكون الأمور على ما يرام. عندما رأى حصانا زانغ وباتو أنهما قد اختصرا المسافة التي تفصل بينهما وبين الذئاب إلى الثلث تقريبا، أصبح شعورهما بالنشوة والإثارة حافزا للانطلاق، في تلك اللحظة كانا يستطيعان أن يسبقا غزالا في الركض. تقلصت الفجوة أكثر فأكثر قبل أن تصل الذئاب إلى قمة التل التالي. تفحّص باتو التضاريس الأرضية وموقع الذئاب. "إنها على وشك أن تنفصل"، قال. "عليك أن تنسى أمر الذئب الصغير وتركّز على الذئبين الكبيرين اللذين هناك. راقب وانظر أي واحد منهما أطلق النار عليه، بعدها أطلق النار على الصخور التي أمامهما، لأبدأ بالذئب الذي إلى اليمين". رفعا بندقيتيهما. جعل سير الحصانين الثابت من السهولة على راكبيهما التصويب على الهدف وإطلاق النار مباشرة. في غضون ذلك الوقت عرفت الذئاب مدى قوة عدويها، وركضت بأقصى سرعة ممكنة نحو التل الذي أمامها. لم يكن في وسع الحصانين ولا الذئاب أن تتابع سباقها المسعور طويلا، وانتظر باتو إلى أن ينفصل أحد الذئاب عن الآخرين، ويتخذ اتجاها جديدا، مما يمكن أن يقلل فرصته في النجاة. فإذا اتخذت الذئاب جميعا اتجاهات مختلفة، فالذئب الذي يتجه يمينا هو الذي سيطيح به باتو.

بعد أن أدركت الذئاب أنها عاجزة عن تقليص المسافة بينها وبين مطارديها، كانت على وشك الانفصال عن بعضها، وهو شيء يضمن لها على الأقل أن يهرب أحدها. عندما تقلصت المسافة إلى نحو ثلاثمئة ياردة، انفصل الذئبان اللذان كانا يحميان الذئب القائد، وركضا في اتجاهين متعاكسين. أطلق باتو النار على الذئب الذي كان ضمن مدى البصر. لكنه أخطأ الهدف. صوب زانغ على الهدف، وأطلق رصاصتين على بقعة أمام الذئب؛ ضربت إحدى الرصاصتين الأرض، وارتطمت الأخرى بصخرة، مما أرسل شررا وشظايا صخرية متناثرة. تعثر الذئب الفزع، وما إن عاد يجري من جديد حتى فرقعت بندقية زانغ. تدحرج الذئب على الأرض، أصيب في جنبه الأيمن. صرخ زانغ بفرح، لكن باتو لم يشاركه ابتهاجه. "لا فائدة"، قال. "الجلد تعرض للتلف".

استدار الراكبان للبدء بملاحقة ذئب القيادة. "لن نستخدم بندقيتينا مع هذا الذئب"، قال باتو لزانغ. "أعرف طريقة أخرى لاقتناصه". شعر الحصانان بالحيوية والاندفاع عندما شاهدا راكبيهما

وقد أجهزا على أحد الذئاب، فعدا إلى أعلى التل بسرعة مذهلة، مقابل خسارة ملحوضة في قدرتيهما على الاحتمال؛ فبعد قطع بضع عشرات من الياردات، صارا يلهثان ويصهلان، وسرعان ما انحدر مؤشرا سرعتيهما. أما ذئب القيادة، من الناحية الأخرى، فقد أبدى كفاءة أعظم في التسلق من خلال زيادة طول خطواته والزج بمزيد من قوة الاندفاع والسرعة التي لم تساهم في اتساع المسافة وحسب، ولكنها منحته أيضا ثقة جديدة بقدرته على الفرار. ضرب باتو وزانغ حصانيهما بالسياط، ووخزا أعقابهما في خواصرهما. بما أن الحصانين لم يكنا معتادين على التعرض للضرب بالسياط، فقد ركضا كالنسيم، وتطاير لعابهما مع الريح. لكن الذئب كان يجري بسهولة أكبر الآن، من دون أن تتباطأ خطواته. نظر زانغ إلى حيث هي آثار الذئب، واستطاع أن يدرك أن خطواته كانت أطول من خطوات الحصانين، وعندما نظر إلى الأعلى رأى الذئب وقد أوشك على الوصول إلى قمة التل؛ عندما يجتاز القمة لن يراه الصيادان مجددا.

فجأة سمع زانغ صرخة أطلقها باتو، "انـزل عن حصانك!". ورآه يجذب سير عنان حصانه ليقف وينفذ نوعا من المناورة كانت أحصنة الطراد تؤديها بشكل أفضل من غيرها. إنها مهارة تدربت عليها في اقتناص الأحصنة البرية، كانت ذات نفع للصيادين بشكل جيد في مثل هذه اللحظات. تعثرت خطوات الحصانين وانـزلقت حتى توقفا على نحو مباغت بحيث ألقيا راكبيهما عن السرجين، وسقطا على رأسيهما. قام باتو بشقلبة كاملة حتى استقر في مكانه؛ ثم انبطح على الأرض، وحبس أنفاسه، وصوب جيدا على الهدف الذي عند بقعة فوق قمة التل. انبطح زانغ إلى جانبه، وكانت بندقيته جاهزة.

توقف الذئب بحذر عن الجري، لم يعد يسمع وقع الحوافر. تتميز ذئاب السهوب أن رقابها قصيرة بحيث إنها حين تنظر خلفها تستدير حول نفسها كليا لترى موقع مطارديها، والاتجاه الذي يسلكونه. عندما استدار بدت ملامح جسده واضحة إزاء السماء وهو ينتصب على قمة التل، مما جعل حجمه يبدو ثلاثة أضعاف ما كان عليه عندما ركض بخط مستقيم، وكأنه صار هدفا يقع ضمن مرمى النار. في الوقت الذي يمكن لهذا الأمر أن يمنح الصياد مجالا لتحقيق إصابة دقيقة، إلا أن الذئب مع ذلك يتمكن من الهرب في أغلب الأحيان. لكن حين أوقف باتو حصانه فجأة جعل الشكوك تنتاب الذئب، مما اضطره إلى أن يتوقف وينظر إلى الخلف ليرى ما الذي ينوي الصياد فعله.

كان الذئب قد تناول الطعم، وفرقعت بندقية باتو. سقط الحيوان على وجهه، واختفى جسده على قمة التل. "كان بعيدا للغاية"، قال باتو. "لم أصب بقعة حيوية من جسده. لكنه لن يهرب الآن. لنذهب!". نهضا للركوب ثانية، ونخسا حصانيهما متجهين نحو أعلى التل، حيث اكتشفا بركة من الدماء على العشب والصخور، لكن لم يكن هناك من ذئب، ولم يعثرا له على أي أثر، حتى عندما استطلعا المنطقة جيدا بمنظاريهما. ذلك يعني أن عليهما اقتفاء آثار الدماء.

- "من المؤسف أننا لم نجلب الكلاب معنا"، علّق زانغ وهو يتنهد.

سارا ببطء صامتين وهما على صهوتي حصانيهما لفترة قصيرة، إلى أن قال باتو، "رصاصتي كسرت إحدى قائمتيه الأماميتين. انظر كيف أن هناك آثارا لثلاث أكفّ فقط؟ لن يتمكن هذا الذئب من الهرب".

أجاب زانغ: "لا يمكن لذئب بثلاث قوائم أن يسبق حصانا بأربع قوائم".

نظر باتو إلى ساعته. "لا تكن واثقا إلى هذا الحد"، قال. "هذا قائد قطيع للذئاب. ما الذي يحصل لو أنه عثر على وجار عميق؟ عندها لن نتمكن قط من إخراجه. دعنا نسرع الخطى".

تـــبعا آثار الدماء المتقطعة ساعة أخرى أو أكثر، إلى أن وصلا إلى ربوة معشوشبة، حيث أصابهما الذهول مما رأياه؛ هناك وجدا قائمة الذئب الأمامية ملقاة على الأرض، وعليها علامات أنـــياب بـــارزة على الجلد المغطى بالفرو، والأوتار العضلية، والعظم. "انظر هناك"، قال باتو، "عـــرف الذئب بأن قائمته كانت تبطئ حركته، وهو يجرها على الأرض، لذلك قضمها حتى قطعها".

شعر زانغ بالغثيان. "سمعت الناس يقولون إن المحارب يمكن أن يقطع ذراعه إذا أصابها سهم مـــسمّم، بالرغم من أنك لا تستطيع أن تقنعني بذلك. لكن هذه هي المرة الثالثة التي أرى فيها ذئبا يقضم قائمته حتى يقطعها".

- "الناس يختلفون من واحد إلى آخر"، قال باتو، "لكن الذئاب جميعها متشابهة".

تابعـــا طـــريقهما، ولاحظا أن آثار الدماء قد أصبحت قليلة، في الوقت الذي كانت فيه المـــسافة بين الخطوات أطول. ما أقلقهما أكثر أن الذئب بدا كما لو أنه كان يبحث عن طريق مختـــصر نحو الحدود إلى الشمال تماما من منطقة عسكرية من المحظور دخولها. "ذلك قائد قطيع بـــارز"، قـــال باتـــو. "لا نستطيع أن نتركه يقودنا إلى أي مكان يريدنا الذهاب إليه". أسرعا الخطوات، وسلكا طريقا مختصرا نحو الحدود.

كلمـــا كانا يتوغلان إلى مسافة أبعد شمالا كلما ازداد العشب ارتفاعا، وامتدادا رمادي اللون شاسعا كأنه جلد ذئب هائل الحجم. بدا أن العثور على ذئبهما سيكون أكثر صعوبة من اســـتخراج حمـــل اختفـــى وسط جبل من الصوف تم جزّه حديثا. السماء والبشر لا يتوافقان بسهولة، لكن الذئاب والسهوب تمتزج مع بعضها بعضا وكأنهما الماء والحليب، ذلك لأن كل مـــا توصـــلا إلى إدراكه وهما يمتطيان حصانيهما ويمضيان قدما، هو أن الحيوان المعاق يمكن أن يكون قريبا منهما بشكل لا يتصورانه تماما. تنبّه زانغ مرة أخرى وبقوة إلى العلاقة الحميمية بين الـــذئاب والـــسهوب، وبين الذئاب وتينغر. عندما تكون الذئاب سادة الحياة، أو الموت، فإن السهوب توفر لها ممرا للهرب؛ وعندما تواجه الذئاب الخطر فالسهوب توفر لها أجنحة لتحلق بها بعيدا مثل الطيور. السهوب تضمّها بين جناحيها. إن الامتداد الشاسع للسهوب المنغولية مناسب

تماما للذئاب التي تسكنه ويوفر لها الحماية. إنهما يشبهان زوجين عجوزين كرس كل منهما حياته للآخر، وكرسا نفسيهما معا للحياة. حتى المنغوليون، الذين يحملون بين جوانحهم الإخلاص للسهوب، والصمود إزاء صعوبة الحياة على السهوب، ليس في وسعهم بلوغ الموقع الرفيع الذي تحتله الذئاب.

بعد توقف الحصانين من وقت إلى آخر استردا قوتيهما وتمكنا من مضاعفة سرعة خطواتهما. كانت سلسلة الجبال التي تقع إلى الشمال تقترب أكثر؛ ذلك هو الموضع الذي تنتهي عنده السهوب. وحسب رأي الرعاة، فإن الجبال، بوديانها القاحلة الباردة والعميقة، تشكل القاعدة الأخيرة للذئاب على أرض أولونبولاغ، حيث لا أعداء لها هناك. لكن حتى الذئب المعاق تمكن على نحو ما من الوصول إلى ذلك الملجأ الآمن، ترى كيف يمكنه العيش؟ ما إن دارت تلك الفكرة في ذهن زانغ حتى أدرك أنه كان يقيّم الذئب وفق معاييره الخاصة. وفي نهاية الأمر، فالإنسان لديه القدرة على قتل الذئب، لكنه لا يمكن أن يقتل روحه.

أخيرا، أوصلتهما خطوات الحصانين إلى طريق سريع، كان في الواقع دربا ترابيا، أو على الأقل مفروشا بالحصى يستخدم لأغراض الدوريات العسكرية. كانت إطارات العربات التي يمكنها السير على مختلف أنواع التضاريس وشاحنات النقل قد شكّلت قاعا عريضا يصل عمقه تقريبا إلى ثلاث أقدام، حتى إن الطريق أصبح، من طرف إلى آخر، منخفض وملتوٍ، كأنه تنين من الرمال، يرتفع تارة ويهبط تارة. كشف هذا الدرب عن هشاشة السهوب، تلك الحقيقة المرعبة للأرض التي تحت السطح العشبي الخفيف. كانت الطبقة العليا من العشب رطبة، لكن مسار الدرب الرملي كانت قد جرفته الرياح الآتية من الغرب حتى غدا جافا كالعظام، مما جعله يبدو مثل تنين يصل طوله إلى مئات الأميال. أثارت حوافر الأحصنة التي عبرت على الدرب عاصفة من الرمال هبت على وجوه الراكبين وحصانيهما، مما جعلهما يشعران بالاختناق، وبشيء من الحرقة في عيونهما.

توجه الصيادان شرقا؛ لم تكن هناك أي آثار للذئب يمكنهما تعقبها. لكن عندما اجتازا الارتفاع الخفيف الذي اتخذه الطريق، ظهر أمامهما ذئب على بعد ثلاثين ياردة كأنما خرج من العدم، كان يكافح ليصعد من أخدود وسط الدرب، شيء يستطيع أن يفعله حيوان صحيح البنية بكل سهولة؛ لكن الأخدود كان يشكل المانع الأخير الذي ينبغي لهذا الذئب اجتيازه. سقط الذئب إلى الوراء، مما سبب له ألما مبرحا عندما ارتطم المفصل المجروح بالأرض.

- "انزل عن حصانك"، قال باتو وهو يثب أرضا. تبعه زانغ، كان يراقب بعصبية ليرى ما الذي سيفعله باتو، ومدّ يده إلى عصا الراعي التي تعلّقت على سرجه. لكن بدلا من أن ينتزع باتو عصاه أو يقترب من الذئب، ترك حصانه يمضي باتجاه بقعة معشوشبة ليرعى، بعدها جلس على حافة الدرب، أخرج علبة سجائر، وأشعل سيجارة، وراح ينفث دخانها بهدوء. من خلال

ســـديم الدخان رأى زانغ مجموعة معقدة من الانفعالات في عيني الرجل. حرر حصانه ليذهب ويرعى، وجلس إلى جانب باتو، وأخذ منه سيجارة من دون استئذان.

كافح الذئب ليقف، ثم جلس، كان يميل إلى أحد الجانبين، التصق رمل أصفر على صدره الدامـــي. كان يصوب نظرة تحدٍّ على عدويه، لم ينسَ كرامته ولو للحظة. نفض بحركة عنيفة الرمل والعشب عن جسده كما لو أنه كان يسوّي بزته الحربية. لكن جميع محاولاته لمنع ما تبقى مـــن قائمته المفقودة عن الارتعاش باءت بالفشل. بزغت من عينيه نظرة وحشية تخفي وراءها دوافـــع أخلاقية؛ استنشق نفسا عميقا، محاولا استخدام ما تبقى من قوة في جسده. كان زانغ جيوان يفتقر إلى الشجاعة لينظر إلى عيني الذئب؛ حين كان الذئب واقفا على السهوب القديمة، أو بكلمـــات أخـــرى، حين كان ينظر من وجهة نظر السهوب، كان قد انتزع معاني العدالة والدوافع الأخلاقية من جوانح البشر.

حمـــل باتو السيجارة بين أصابعه، حدّق وهو مستغرق بالتفكير إلى الذئب الذي كان يتـــنازع مـــع الألم، كانت النظرة التي ارتسمت في عيني باتو نظرة طالب تغلب لتوه على أستاذه، لكنه بدأ يشعر بوخزة الندم، ويرزح تحت وطأة ضيق متفاقم. بعد أن رأى الذئب أن عدويـــه لم يقدما على حركة لفترة طويلة، استدار، وبدأ ينشب مخالبه في التراب بكفه الأمامـــية الباقية. كانت الطبقة العليا من التربة التي تغطي القسم المكشوف من الأرض إلى جانب الدرب لا تتجاوز سماكتها أكثر من بوصة واحدة أو بوصتين اثنتين. تحت ذلك طبقة مـــن الرمال وحصى صغيرة. فتحت عملية الحفر بالتالي ثغرة، مما جعل التراب ينهار على الأخدود، وغدا من المستحيل على الذئب المعاق أن يقفز ويزحف إلى الخارج نحو العشب. بعـــد ذلك صار الذئب يقفز على ثلاث قوائم باتجاه حاجز النار[1] والعلامة التي تشير إلى الحدود.

كـــان حاجز النار عبارة عن ممر عريض مهدته الجرافات بموازاة الحدود، ويبلغ عرضه مئة ياردة أو أكثر. كان يعاد حرثه مرة كل سنة، لم يكن سوى رمال، من دون أن تنبت ساق من العشب في أي مكان منه، والغرض منه إيقاف انتشار النيران التي تشتعل في براري الجانب الآخر من الحدود، والنيران الخافتة التي ربما قد تشتعل في هذا الجانب. إنه الأرض الوحيدة المحروثة في أرض أولونـــبولاغ الـــتي تحمّل الرعاة وجودها. قال كبار السن إنها تشكل المنفعة الوحيدة التي جلبتها الزراعة إلى أراضيهم.

جـــرى الـــذئب إلى أن اضطر إلى التوقف مجددا، ثم جرى من جديد، وأخيرا اختفى بين الأعشاب الطويلة. لن تكون هناك المزيد من العقبات.

---

(1) حاجز النار: أرض محروثة أو مقطوعة الأشجار لمنع حرائق الغابات من الانتشار.

نهض باتو لينظر، إلا أنه لم يفُه بأي كلمة. بعد ذلك انحنى، التقط عقب السيجارة الذي ألقاه زانغ على الأرض، وبصق عليه. نبش حفرة صغيرة في سطح العشب الرطب بأصابعه ودفن عقبي السيجارتين. "تعود على هذا"، قال. "السهوب لا تستطيع أن تتحمل الإهمال". نهض. "هيا لنذهب"، قال. "سنعود إلى الذئب الذي قتلناه".

امتطيا حصانيهما، وانطلقا يجريان بعيدا باتجاه سفح التل الذي تقع عنده حلقة العشب. كان الثلج الذي يغطي الأرض صافيا، وحوافر الأحصنة غدت خفيفة. لم يفُه الرجلان ببنت شفة.

16

تــصاعد أريــج ثقــيل، يبعث الانقباض في النفس، من سفح التل القريب من مخيم الاســتيلاد، جعلته الشمس دافئا بعد هطول مطر الربيع. كانت البقايا المتعفنة للحيوانات الضعيفة التي تجمدت حتى ماتت خلال الشتاء الطويل، مع تلك المواشي التي قتلتها الذئاب، مكشوفة على العشب الذي تلطخ بدماء داكنة. تسرّب سائل ملوث ذو لون أصفر وأسود مــن نباتات الخريف الذابلة. ساهم روث الحيوانات الذي اختلط بالثلوج الذائبة في تشويه منظر السهوب.

لم تفعــل الــروائح الكريهة التي رافقت نهارا ربيعيا مبكرا أي شيء لإخماد جذوة الروح المعــنوية لشن. كانت حتى المياه الملوثة ضرورية في السهوب. "إن فرق التقصي والشعراء الذين يفدون من المدن كانوا يحبون استنشاق رائحة زهور الربيع على السهوب"، قال أوليجي، "لكنني أفــضل رائحة العفونة في الربيع. إن خروفا واحدا يمكنه أن يعطي خمسمئة كاتي[1] من الروث والــبول كــل عام. هل تعرف كم هو مقدار العشب الذي يتغذى على ذلك؟ إن سماد الأبقار بــارد، أمــا سماد الأحصنة فهو حار، لكن سماد الخراف يعادل عامين من العمل اليدوي. إذا سيطرت على أعداد الماشية فإنها لن تتوقف فقط عن استنــزاف السهوب وحسب، وإنما تحوّل التربة الرملية إلى سهوب غنية".

في الربيع كانت المياه في أولونبولاغ غنية بالمواد المغذية، والعشب ينمو بغزارة أمام عيون الــناس. بعــد بضعة أسابيع من النهارات المشمسة سيغطي العشب النابت من جديد بالكامل العــشب الذي ذبل في العام الماضي. ازدانت مناطق الرعي التي عند سفح التل باللون الأخضر، كانــت كلها خضراء اللون. اخترقت النباتات والزهور سطح الأرض الخصبة، مما جعل الطبقة العلــيا مــن التربة أكثر كثافة وخشونة، ومما منع الصحراء من أن تتخطى حدودها. كان شن يمتطي الحصان الأصفر للرجل العجوز بلغي، ويعدو الهوينا عبر الأرض، ويستنشق بنشوة غامرة الهواء المشبع بأريج العشب الذي نبت من جديد. أما بالنسبة إليه فكانت السهوب الشاسعة هي المسرح الذي مارس عليه الرجال والذئاب طقوس معاركهم الوحشية، وقد تحول إلى مكان تنال فيه الأرض تكريمها البهيج.

---

(1) كاتي: وحدة وزن في الصين وجنوب شرقي آسيا تساوي نحوا من رطل إنكليزي وثلث الرطل. (المترجم)

انتفخت حلمات ضروع النعاج، وابيض صوف الخراف، وصدر عن الأبقار خوار مرتفع، وتطاير شعر الأحصنة الكثيف متناثرا بعيدا؛ كانت المواشي قد أفلحت في البقاء على قيد الحياة عاما آخر مع عودة العشب الأخضر الطري. سيكون عاما طيبا على أولونبولاغ. بالرغم من أن سحر برودة الربيع قد تسبب بمقتل الكثير من الحملان، إلا أن معدل الاستيلاد في فرقة الإنتاج، الذي بلغ نسبة عالية نتيجة ولادة توائم، كان قد ارتفع بشكل مثير.

ومــع ذلك، كان يملأ صدور رعاة الخراف إحساس ينذر بالشؤم. ومع الزيادة المذهلة في أعداد الخراف كانت أولونبولاغ مهددة بخطر أن تصبح مجدبة بسبب الإفراط في رعي أعشابها. إذا باع رعاة الخراف أعدادا كبيرة من الحملان حديثة الولادة فإنهم سيخفقون لاحقا في الإيفاء بمتطلــبات حــصتهم من الإنتاج. لذلك عقدت فرقة الإنتاج سلسلة من الاجتماعات. كان في وسع أوليجي التفكير في حل واحد ليس إلاّ، وهو أن يعثروا على أرض جديدة للمراعي.

رافق شن زن كل من أوليجي وبلغي لتفحص الموقع الذي وقع عليه الاختيار. كان بلغي قد أعاره حصانا جيدا، وسريعا، وله طاقة كبيرة على التحمل. حمل أوليجي بندقية شبه أوتوماتيكية، وكــان بلغــي قد اصطحب معه الكلب بار، واصطحب شن إيرلانغ، تاركين *أصفر* عند الخيمة للحراســة. وبما أن الكلبين كانا صيادين همين فقد أظهرا استعدادا للبحث عن أي شيء يطاردانه طــوال الطريق. ومثلهما مثل شن، كانا يتمتعان بروح معنوية عالية. "أنتم رعاة الخراف بالإضافة إلى كلاب حراسة الخراف كنتم مقيدين عن الحركة لأكثر من شهر". قال بلغي وهو يضحك.

- شكرا لأنك سمحت لي بمرافقتكم، بابا. كنت بحاجة إلى إجازة.

أجــاب الرجل العجوز. "كنت أشعر بالقلق من أنك ربما تؤذي بصرك في قراءة كل تلك الكتب".

في الــزاوية الشمالية الشرقية من قاطع فرقة الإنتاج امتدت نحوا من أربعين ميلا مربعا من الأرض الــرملية الجرداء. وحسب رأي أوليجي، لم يسكن أي شخص هناك قط، لذلك كانت الأرض خــصبة بشكل متميز، مع وجود العديد من الجداول وبعض البحيرات مختلفة الأحجام. لقــد نمــت الأعشاب حتى بلغ طولها ما يقارب ثلاث أقدام أو أكثر، مع تراكم أرضي تصل سماكته إلى نحو قدم على الأقل. وبالنظر إلى توافر المياه والعشب الكثيف، كان انتشار البعوض كثيفا للغاية. في الصيف والخريف، يمكن لهذه الحشرات أن تقتل بقرة إذا اجتمعت عليها. عندما داس الرجال على الغطاء الأرضي الكثيف، انطلقت حشود من البعوض متطايرة في الهواء؛ كأنما داســت أقدامهم على ألغام أرضية. كان الناس ومن بعدهم الحيوانات الأليفة يخافون التضاريس الجبلــية، ويرفــضون الــذهاب إلى هناك. ومع وجود غطاء أرضي كثيف إلى هذا الحدّ، نمت الأعــشاب حتى صارت طويلة بشكل يكفيها للوصول إلى أي قدر من ضوء الشمس؛ لم تكن المواشي تحبها، ولم تكن صالحة لتغذيتها حتى تنمو وتكتنــز بالشحوم.

لقد توقع أوليجي، وهو الذي كان يترأس إدارة المراعي، أنه في ظل سياسة تفضيل الكمية على النوعية، عاجلا أم آجلا ستصبح أرض أولونبولاغ مجدبة. على مدى سنوات كان قد وضع عينه على هذه المنطقة البكر غير المستغلة، وتطلع إلى أن يحصل حريق في البراري في فصل الخريف يمكنه أن يحرق غطاء الأرض كله. في الربيع التالي، يستطيع عندها أن يسوق قطعانا كبيرة من أحصنة وأبقار فرقة الإنتاج لتدوس الأرض بقوائمها حتى تحرثها، وتأكل العشب النابت، مما يضمن السيطرة على نموها. هكذا ستصبح الأرض أكثر صلابة، والتربة أغنى، والعشب أقصر مما من شأنه أن يقضي على حشود البعوض الهائلة. في سنين قليلة، فإن أي أرض غير مستثمرة من البراري يمكن أن تصبح حقلا ربيعيا رائعا للرعي، مما يوفر للرعاة مراعٍ موسمية جديدة. في نهاية الأمر، سيحولون المراعي الصيفية الأصلية إلى مراعٍ ربيعية. بتلك الطريقة تستطيع فرقة الإنتاج أن تضاعف أعداد مواشيها ولن تصبح أي من أراضيها مجدبة. لكن في ذلك الوقت كان الرعاة، الذين خافوا من البعوض، يعارضون خططه. وهكذا فقد حاول الحصول على مساعدة بلغي، وطلب منه الذهاب برفقته لتفحص المنطقة. إذا أعطى بلغي الضوء الأخضر، فيمكن لأوليجي أن يقيم أرض رعي جديدة تشمل فرقتين للإنتاج.

فيما كانوا يمرون عبر أرض رعي شتوية تابعة لفرقة إنتاج مجاورة، رأى شن أن العشب لا يزال كثيفا، وارتفاعه يبلغ ارتفاع أربع أصابع كاملة. "كنت تقول باستمرار إنه ليس هناك أرض رعي كافية"، قال لأوليجي، "لكن انظر، كانت الخراف والأحصنة ترعى هنا طوال الشتاء، وبقي العشب بهذا الارتفاع".

نظر أوليجي إلى الأرض. "تلك جذامة الزرع[1]"، قال. "إنه عشب خشن للغاية؛ تواجه الحيوانات متاعب في اقتلاعه وقضمه، فينتهي بها الأمر لأن تقتلعه من جذوره. والنوعية الرديئة لجذامة الزرع لا يمكن أن تغذيها. يجب أن يتوقف الرعي عندما يصبح العشب هكذا؛ وإذا لم يحصل ذلك، ستبدأ حالة السهوب بالتدهور. هناك الكثير جدا منكم أنتم الصينيون، وليس هناك ما يكفي من اللحوم لتغذيتكم، لذلك تعتمد بلادكم على لحوم الخراف والبقر التي تأتي من منغوليا الداخلية. لكن إنتاج طن واحد من لحوم البقر والخراف يتطلب ما يقارب السبعين أو الثمانين طنا من العشب. عندما تأتون أنتم أيها القوم وتطلبون منا اللحوم، فأنتم في الواقع تطلبون منا عشبنا، وإذا تابعتم تلك الطلبات، ستبيدون السهوب عن بكرة أبيها. لقد أدى الضغط الذي تسلّطه الحكومة من خلال المطالبة بحصص الإنتاج حقا إلى تحويل العديد من الألوية في الناحية الجنوبية الشرقية إلى صحراء".

- "يبدو أن تربية المواشي أصعب كثيرا من زراعة المحاصيل"، قال شن زن.

---

(1) جذامة الزرع: ما يتبقى من الزرع بعد الحصاد من عشب قصير خشن. (المترجم)

أومأ بلغي برأسه موافقا: "السهوب عبارة عن حياة كبرى، لكنها أكثر رقة من جفون العين. إذا مزّقت غشاءها العشبي فأنت تصيبها بالعمى، وتكون العواصف الترابية أكثر فتكا بكثير من العواصف الثلجية ذات الشعر الأشيب. إذا ماتت السهوب فستموت الأبقار والخراف والأحصنة أيضا، بالإضافة إلى الذئاب والناس، وأشكال الحياة الصغرى كافة. بعدها لن يكون، لا السور العظيم ولا حتى بكين، بمنأى عن الدمار".

– "لقد اعتدت على حضور اجتماعات في هوبوت مرة كل بضعة أعوام"، قال أوليجي بانفعال. "المراعي هناك حالتها أسوأ من مراعينا. كانت الرمال قد ابتلعت عدة مئات من الأميال في الجزء الغربي من السور العظيم لغاية الآن. إذا استمرت الحكومة في زيادة الحصص التي علينا توفيرها من الإنتاج، سيتعرض الجزء الشرقي من السور للمصير ذاته. سمعت أن بعض الحكومات الأجنبية قد سنت قوانين لحماية السهوب التي في بلدانها، إن قيودا على أنواع المواشي التي يسمح لها بالرعي قد وضعت موضع التنفيذ، وحتى أعداد الحيوانات في كل هكتار من الأرض ستخضع لضوابط ستفرض بالقوة، مع فرض غرامات مالية صارمة على الإفراط في الرعي. من شأن ذلك فقط أن يحمي السهوب الحالية من الاستمرار بالتدهور. حين تتلاشى السهوب، لن تعود إلى الأبد. إذا انتظر الناس هنا إلى أن يكتسبوا فهما لطبيعة السهوب حتى تضمها الصحراء إليها، فسيكون الوقت قد تأخر لعمل أي شيء".

– "الناس جشعون كثيرا ليس إلاّ"، قال بلغي، "والكثيرون منهم جاهلون. يمكنك أن تذكر هؤلاء الأغبياء مئة سبب من الأسباب التي تبرر عمل الشيء الصائب، ومع ذلك فأنت تكون قد أضعت وقتك وحسب. تينغر يعرف أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع أولئك الأغبياء الجشعين هي من خلال الذئاب. دع الذئاب تسيطر على أعداد المواشي، وستبقى السهوب حية".

هز أوليجي رأسه. "أساليب تينغر القديمة لا تجدي نفعا"، قال. "الصين اختبرت القنبلة الذرية. لن يكون هناك ما هو أسهل من اجتثاث حشد من الذئاب".

شعر شن زن كما لو أن قلبه قد امتلأ بالرمال. "لم أسمع الذئاب أو الكلاب منذ عدة ليال. لقد طردناها، بابا، أليس كذلك؟ إذا لم ترجع فسنكون قد غرقنا؟".

– إنها ثلاثون ذئبا أو نحو ذلك، أي ما يعادل أربع أو خمس بطون، لا تمثل إلا جزءا ضئيلا من أعداد الذئاب في أولونبولاغ. لم تظهر، ليس لأننا أرعبناها، ولكن لأن لديها أشياء أخرى تفعلها في هذا الوقت من العام.

– "ما الذي تفعله؟"، سأل شن، وقد ازدادت رغبته في المعرفة.

أشار الرجل العجوز إلى جبال قريبة. "تعالَ معي، وسأريك". ضرب ردف حصان شن بسوطه، "دعه يذهب. الأحصنة تحتاج إلى أشعة الشمس في فصل الربيع. ذلك يساعدها على أن تكتسي جلدها الشتوي. ويساعدها أيضا على تسمين أجسامها".

مــثل ثلاثة من أحصنة السباق، انطلقت أحصنتهم تعدو باتجاه الجبال، مما جعل العشب والتراب يتطاير من خلفها، ولطخ العشب الأخضر الطري حوافرها. لحسن الحظ، لم تكن هناك أحصنة أخرى في تلك المنطقة لعدة أشهر. كان شن، الذي توقف فجأة في الخلف، قد بدأ يفهم المعاني الضمنية التي وراء القول "رعاة الأحصنة هم أعداء السهوب".

وصلت الأحصنة إلى أحد سفوح التلال، حيث استقبلتها صيحات عواء عالية النبرة صدرت عن حيوانات المرموط، حيوانات الجحور التي كثيرا ما يتم العثور عليها في أرجاء السهوب. كان نــصف التلال تقريبا التي على أرض أولونبولاغ يشكل مسكنا للمرموط المنغولي. في كل خريف كــان شــن يرى حيوانات المرموط التي أطلق الرجل العجوز عليها النار وكانت مفضلة لديهم بسبب لحمها اللذيذ الغني بالشحوم. مثلها مثل الدببة، كانت تسبت خلال الشتاء، وتتغذى على الــشحم الذي تختزنه في أجسامها. كان لحمها المميز يحتوي على طبقة من الشحم، ولأن مذاقها كــان مختلفا عن مذاق لحم الطرائد، فهي من بين الأطعمة المفضلة لدى المنغوليين؛ إنهم يفضلونها على لحوم البقر والخراف. إذ يوفر المرموط كبير الحجم لحما يكفي لوجبة تتناولها عائلة كاملة.

ذهل شن من شبكة المرموط التي رآها أمامه: لا تقل أعدادها عن ستين أو سبعين مرموطا، مــنها الكبير ومنها الصغير، كانت تقف على سفوح وأعالي التلال، بدت وكأنها بقايا جذوع أشــجار مقطــوعة بعد أن رحل الحطابون عنها. كانت الذكور الكبيرة، بنية اللون تقف أمام حــيوانات كبيرة منعزلة عنها، أما الإناث الأصغر حجما منها بقليل بفرائها أصفر اللون الذي كــان يــشبه إلى حدّ ما جلود الذئاب، فقد وقفت أمام تجمعات من جحورها. كانت صغار المرموط، التي تبلغ أحيانا سبعة أو ثمانية مرموطا، برؤوسها التي تشبه رؤوس أرانب صغيرة، تقف حول أماتها. لم يجعلها مجيء البشر تسرع لتختبئ داخل جحورها؛ لكنها بدلا من ذلك انتصبت على قوائمها الخلفية، بينما كانت قوائمها الأمامية أمام صدورها، كأنها قبضات صغيرة، وكانت تنــبح، وكــان يرافق نباحها اهتزاز ذيولها الكثيفة التي تشبه الفرشاة، كما لو أنها تريد تحذير المتطفلين عليها وإبعادهم عنها.

- "الناس يسمون هذا المكان تل المرموط"، قال. "إنه يمتد مع امتداد جحورها. في الشمال هناك بقعة أخرى أيضا أكثر كثافة من هذه التي نراها هنا. لقد أنقذ هذا المكان سكان السهوب الأكثــر فقــرا ذات مــرة. في الخريف، عندما يصبح المرموط كبيرا وسمينا، يأتي الناس إلى هنا لاصطياده، حيث يأكلون اللحم ويبيعون الجلد والشحوم للحصول على النقود أو الحملان. أنتم الــصينيون مغــرمون بالمعاطف المصنوعة من جلود المرموط، لذلك كان التجار في كل خريف يفــدون من زانغجياكو إلى هنا لاستخراج الفطر وشراء جلود المرموط، التي تصل أسعارها إلى ثلاثة أضعاف أسعار جلود الحملان. هذه الحيوانات الصغيرة أنقذت حياة أعداد كبيرة من الناس أكثر مما يمكنك أن تتصوره، ومن ضمنهم عائلة جنكيزخان عندما كانت تواجه أوضاعا صعبة".

- "لحم المرموط له مذاق لذيذ بسبب الشحوم الممزوجة به"، قال أوليجي. "تختزن غيرها من حيوانات الجحور، مثل سناجب الأرض وفئران الحقول، الغذاء لأشهر الشتاء. لكن المرموط يجتاز الشتاء بفضل الشحم المكتنز في جسده".

- "بعد تجاوز الشتاء"، قال بلغي، "تكون قد فقدت كل شحومها تقريبا، لكن تبقى كميات وفيرة من اللحوم على عظامها. انظر إلى أجسامها كيف أنها كبيرة؟ حسنا، ذلك بفضل غزارة العشب في هذا العام".

- "لا عجب في أن الذئاب لم تزعجنا مؤخرا"، قال شن. "إنها تحب أن تجري نوعا من الحمية أيضا. لكن كيف تتمكن الذئاب من اقتناصها ما دامت حيوانات المرموط لا تتجول بعيدا عن جحورها العميقة؟".

- "إنها خبيرة في اصطياد المرموط"، قال بلغي وهو يضحك. "الذئاب الكبيرة تحفر حتى تصل إلى داخل الجحر، مما يجعل الحيوانات التي تشغل الجحر تسرع هاربة من الفتحات، حيث تكون ذئاب أخرى بالانتظار لتقتلها وتأكلها. في بعض الأحيان تتمكن الذئاب الأصغر من شق طريقها بالفعل لتصل إلى أعماق الجحر، فتمسك بها، وتسحبها إلى الخارج. تدخل ثعالب الصحراء أيضا إلى الجحور حتى تصل إليها. عندما أخرج لصيد المرموط بالبندقية أجد ستة أو سبعة من الثعالب قد وقعت في الفخاخ كل سنة، وذات مرة وقع في الفخ ذئب صغير. لقد تعلمنا من الذئاب وثعالب الصحراء أن نجعل أطفالنا يزحفون إلى داخل أوجار الذئاب للوصول إلى جرائها. إذا كانت جحور حيوانات المرموط منخفضة كثيرا فإنها ستتجمد من البرد، ولهذا فهي تحفر إلى مسافة عميقة جدا؛ عشر أقدام، وربما عشرين قدما تقريبا. هل يمكنك أن تخبرني لماذا تكون أوجار الذئاب عميقة إلى هذا الحدّ ما دامت لا تسبت في الشتاء؟"، طرح الرجل العجوز السؤال على شن.

هز شن رأسه.

- لأنها كثيرا ما تستولي على جحور المرموط. الذئب يطرد أحد حيوانات المرموط هذه ويأتي بجرائه إلى جحره.

- "ذلك شيء مذهل"، قال شن. "لا يكفيها أن تقتل وتلتهم عائلة من المرموط. بل إنها تحتل مساكنها أيضا".

ابتسم أوليجي معبرا عن إعجابه. "تلك هي الطريقة التي تجعل بها أعداد المرموط تحت السيطرة. إنها تقدم خدمة عظيمة، ذلك لأن القوارض مؤذية للسهوب. انظر إلى ما فعلته في سفح هذا التل، الجحور تنتشر في كل مكان. إنها تلد بطونا من ستة أو سبعة صغار كل عام. إذا جعلت جحورها صغيرة لن يتوافر ما يكفي من المساحة لها جميعا، لذا فهي تحفر جحورا أكبر، مما يؤدي إلى تدمير أراضي المراعي لمسافة أميال في كل الاتجاهات. الآفات الأربع التي

تدمـــر السهوب هي فئران الحقول، والأرانب البرية، والمرموط، والغزلان، كل حسب أثرها في الـــتدمير. المـــرموط بطـــيء الحركة نسبيا، ومن السهولة الإمساك به. إذا لَم يتوجب علينا أن نـــصطادها بالفخـــاخ؟ لأن جحورها مترابطة مع بعضها بعضا. لدى أول علامة تنذر بالخطر، تختفـــي في شـــبكة من الأنفاق. إنها تقتات بشراهة، وفي الخريف تتغذى على الحبوب. يحتاج الواحد من تلك الحيوانات الصغيرة مكتنـــزة الأجسام إلى عدة هكتارات من العشب والحبوب كل عام. ليس هناك شيء أسوأ بالنسبة إلى الأحصنة من مستعمرة من جحور المرموط. في كل عـــام نخـــسر العديد من الأحصنة التي تنكسر قوائمها عندما تدوس أحد هذه الجحور، وترمي براكبيها على الأرض.

- "في الواقـــع"، تابع أوليجي كلامه، "يسبب المرموط لنا متاعب أكثر من ذلك. وخلال الـــشتاء، تكـــون جحوره مساكن للبعوض. إن البعوض الذي في منغوليا الشرقية مشهور على نطاق واسع من العالم. البعوض الذي في غابات منشوريا يمكنه أن يأكل إنسانا حيا. أما البعوض الذي لدينا فيمكنه أن يأكل بقرة. ربما تتصور في هذه الأصقاع، حيث تهبط الحرارة إلى ثلاثين أو أربعين درجة تحت الصفر في فصل الشتاء، أن البرد يكفي لتحويل بقرة مريضة إلى تمثال من الجليد، وفي تلك الحال ينبغي للبرودة أن تجعل البعوض يتجمد. كيف يتمكن البعوض من تجاوز فـــصول الشتاء؟ السر يكمن في جحور المرموط. عندما يقترب الشتاء، يتبع البعوض حيوانات المـــرموط إلى داخل جحورها العميقة، التي تكون محكمة الإغلاق وذلك لتمنع تعرض أجسادها لصقيع الثلوج والجليد، وتسمح لتولد شيء من الدفء. ينام المرموط، وهو يقضي فترة السبات من دون طعام أو ماء. ولكن يتوافر لدى البعوض كثير من الطعام والماء، كل ذلك مستمد من مضيفيه، مما يجعل الظروف ملائمة لقضاء فصل شتاء مريح. وبعد ذلك عندما يحلّ فصل الربيع يغـــادر المرموط جحوره، ويتبعه البعوض إلى الخارج، وبما أن كل البحيرات الصغيرة التي على الـــسهوب تكون مشرعة أمامه، فهو يطير إلى هناك ليضع الجيل اللاحق من نسله في المياه. ومع حلول فصل الصيف، تغدو السهوب فردوسا بالنسبة إلى البعوض. هل فهمت ما أعنيه؟ الذئاب قتلة المرموط الأساسية هنا. لدينا قول شائع مفاده: *عندما يغادر المرموط جحوره فالذئاب تصعد إلى الجـــبل*. في الـــوقت الذي يخرج فيه المرموط إلى العراء، تستطيع المواشي أن ترتاح فترة من الزمن".

كـــان شن قد تعرض بشكل عنيف للسعات البعوض خلال اثنين من فصول الصيف، وكان طـــنين البعوض يكفي لأن يجعل شعره ينتصب. كان يحس كما لو أن جلده يتشقق ويتقطع؛ كان الطـــلاب الصينيون يخافون البعوض أكثر مما يخافون الذئاب. في نهاية الأمر، طلب شن من عائلته أن ترســـل لـــه ناموسية من بكين، حينها بدأ يعرف النوم ليلا. اعتقد الرعاة أن الناموسية شيء رائع، وسرعان ما أصبحت جزءا أساسيا من الخيم المنغولية. كانوا يسمون شبكاتها *مساكن ضد البعوض*.

- "لم أقـــرأ في أي كـــتاب أي كلمة بشأن العلاقة بين البعوض والمرموط، أو كيف أن جحور المرموط تمثل مخابئ للصوص البعوض، أو كيف أن الذئاب تعتبر أعداءها الفتاكة"، قال شن لأوليجي وقد ساورته الشكوك.

- "الـــسهوب مكان يشوبه التعقيد"، قال أوليجي. "كل شيء مترابط مع بعضه بعضا، والـــذئاب تشكل الرابطة الأساسية التي ترتبط بجميع الأطراف الأخرى. إذا زالت تلك الرابطة فـــستتلاشى المواشي هنا. لا يمكنك أن تحصي الفوائد التي تقدمها الذئاب كافة، إنها أكبر بكثير من الضرر الذي تسببه".

قال أوليجي وهو يضحك: "لكن لا تتصور أن المرموط لا يفيدنا بشيء أبدا. يعتبر فراؤه، ولحمه، وشحمه ذات قيمة كبيرة للغاية. إن جلود المرموط تشكل مصدرَ دخل مهما بالنسبة إلى الرعاة. تتاجر الحكومة بها من خلال مبادلتها بالسيارات والمدفعية. الذئاب تتصرف بذكاء، إنها لا تقتل كل حيوانات المرموط، حيث تبقى دائما على أعداد وفيرة منها للعام التالي. ذلك يشمل الرعاة أيضا. نحن نصيد فقط الحيوانات الناضجة منها، وليس الصغيرة".

فيما كانت الأحصنة تعدو عبر الجبال، بقيت حيوانات المرموط التي لا تشعر بالخوف في أماكن مرتفعة وهي تتابع نباحها وكأنها كورس من المنشدين. كانت الصقور تشن غاراتها عليها مـــن السماء، لكنها تفشل في أغلب الأحيان. كلما توغل الرجال إلى الشمال الغربـــي، التقوا بأعداد أقل من الناس، وبدت علامات السكنى أقل أيضا، إلى أن وصلوا أخيرا إلى موقع لم يجدوا فيه أيَّ أثر حتى لفضلات الأحصنة في أي مكان.

* * *

عـــندما وصـــل الـــرجال الثلاثة إلى قمة مرتفع شاهق حاد الانحدار، امتدت التلال أمام أنظـــارهم وقـــد اكتست باللون الأخضر حتى بدت وكأنها من نسج الخيال. وبعد أن اجتازوا المرتفع، رأوا اللون الأصفر يختلط ويتغلغل في أعماق اللون الأخضر، لون عشب السنة الماضية، لكـــن اللون الأخضر الذي انتشر على الجبال قبالتهم كان يشبه ستارة مسرح مطلية، أو أرضا خـــرافية في فيلم للرسوم المتحركة. أشار أوليجي بسوطه. "لو جئتم إلى هنا في الخريف الماضي لـــرأيتم جـــبالا ســـوداء اللـــون فقط. تبدو كما لو أنها قد ارتدت جلدا أخضر اللون، أليس كذلك؟". اكتسبت الأحصنة شيئا من السرعة حينما رأت منظر الجبال الخضراء. قادهم أوليجي على الطريق عبر أرض كانت ترتفع برفق.

بعـــد عـــبور حافـــتين صخريتين، وصل الفريق إلى منحدر أخضر. تغطى المنحدر بنبات الشعير؛ ليس ثمة ساق واحدة من العشب تلمح ضمن مدى البصر، ولا حتى أي أثر لرائحة غير لطيفة. ازداد الأريج الزكي عمقا، وشعر بلغي أن شيئا ما يبدو مختلفا. نظر إلى الأسفل. كانت الكـــلاب أيـــضا قـــد التقطت الرائحة العطرة، واندفعت تتفحص أرجاء المنطقة، وقد جعلت

خطـومها قـريبة من الأرض. انحنى الرجل العجوز لإلقاء نظرة عن قرب على العشب الطويل الـذي التصق بحوافر الأحصنة. عندما رفع رأسه، قال: "ما الذي تشمانه؟". استنشق شن نفسا عميقا، وكان في وسعه أن يشم الأريج المنبعث من عشب جديد رقيق. كان الأمر يشبه الجلوس علـى جـزازة عـشب تسحبها الأحصنة في الخريف، عندما تغمر الأنف رائحة العشب المقطوع، "لم يأتِ أي إنسان إلى هنا ليقطع هذا العشب، أليس كذلك؟"، سأل. "ترى من أتى إلى هنا؟".

تـرجل الرجل العجوز، وحرك العشب بعصاه، باحثا عن شيء ما. ولم يمضِ وقتا طويلا حتى وجد شيئا أخضر وأصفر اللون معا. قرص عليه بأصابعه، وأخذ يشمه. "إنه روث غزلان"، قال. "لقد مرت من هنا منذ مدة غير طويلة".

تـرجل أوليجـي وشن أيضا عن صهوتي حصانيهما، وتفحصا روث الغزلان الذي حمله الرجل العجوز بيده. كان الروث نديا في الصيف، متماسكا بشدة، وليس منفصلا مثل حبات البـندق. اسـتغرب أوليجـي وشن مما عثرا عليه حين سارا بضع خطوات، واكتشفا بقعا من العشب بدت كما لو أنها تعرضت لهجوم بالمناجل، ولكن بشكل غير منتظم.

– أتـصور أنـني رأيت الغزلان خارج الحظائر التي ولدت فيها هذا الربيع. إذا، هذا هو المكان الذي تأتي إليه لترعى فيه. إنها تقطع العشب بوحشية أكثر مما تفعله جزازات العشب.

عـبأ أوليجي بندقيته، ونـزع عتلة الأمان. "في كل ربيع تهاجر الغزلان إلى الحظائر التي تـتوالد فيها، حيث تتنافس على أراضي الرعي مع النعاج التي تكون قد ولدت صغارها للتو. لكن ليس في هذا العام، ذلك لأن هذا العشب هو الأفضل. إنها تفكّر مثلي".

تحـولت عينا بلغي إلى شقين اثنين فيما كان يضحك. "إنها خبيرة في العثور على أراضي رعـي جـيدة"، قال لأوليجي. سيكون شيئا مخزيا لو أنها اختارت أفضل الأراضي، وبقينا نحن ومواشينا في مكاننا هناك. إنك حتما على حق هذه المرة".

– "ليس بهذه السرعة"، قال أوليجي ناصحا. "انتظر حتى نعثر على مصدر المياه".

– "لكـن الحمـلان لا تزال صغيرة جدا"، قال شن. "إنها لا تقوى على قطع كل تلك المسافة لتصل إلى هنا. سيمر على الأقل شهر آخر قبل أن تتمكن من السير إلى مسافات طويلة، وفي غضون ذلك الوقت سيكون هذا العشب كله في بطون الغزلان.

– "لا تقلق"، قال بلغي. "الذئاب أذكى من الناس. عاجلا أم آجلا ستأتي إلى هنا هي الأخرى. لم ينتهِ فصل الولادة بالنسبة إلى الغزلان بعد، ولن تتمكن لا الغزلان الناضجة ولا الـصغيرة منها من أن تركض بسرعة. هذا هو الوقت من السنة الذي يمكن فيه للذئاب أن تـتغذى على الغزلان. لن يتطلب الأمر منها أياما كثيرة لتسوق قطيع الغزلان بأكمله بعيدا من هنا".

– "لـيس من المستغرب أن يكون معدل البقاء وسط الخراف حديثة الولادة عاليا إلى هذا الحـد في هذه السنة"، قال أوليجي. "مع نمو هذا العشب، فالغزلان والذئاب جميعا جاءت إلى هنا. لم ينشب قتال على أراضي الرعي".

بعد أن سمع شن عن احتمال وجود ذئاب تحوم حول المكان، حث الرجلين على الرجوع ليمـتطوا جميعا صهوات أحصنتهم. عندما عبروا سلسلة أخرى من التلال، ذكرهم أوليجي أن علـيهم الاسـتعداد، ذلك لأن خلف سلسلة التلال الأخرى ليس إلاّ، تمتد أرض رعي مترامية الأطراف، وذلك هو المكان، كما خمن، الذي سيجدون فيه كلا من الغزلان والذئاب.

ترجلوا عن صهوات أحصنتهم عندما بلغوا قمة التلال الصخرية؛ انحنوا وتقدموا خطوات بهـدوء وحذر، قادوا الأحصنة بيد، وأمسكوا مقاود الكلاب باليد الأخرى فيما شقوا طريقهم نحـو بقعة وسط العديد من الصخور الصلدة الكبيرة. كان في وسع الكلبين الضخمين أن يشما رائحة طريدة ما، ووثبا زاحفين على الأرض، بقيا قريبين من سيديهما. قبل أن يصلوا تماما إلى الـصخور، شـد الرجال سيور أعنة أحصنتهم حول قوائمها الأمامية. ومن ثم انبطحوا أرضا مختبئين خلف الصخور الصلدة لاستطلاع المنطقة عبر مناظيرهم.

في نهاية الأمر وقعت عينا شن على سهوب عذراء، ربما كانت الأخيرة من نوعها في أنحاء الـصين قاطبة، أرض جميلة المنظر بشكل يسلب الألباب. امتد أمام ناظريه حوض أخضر اللون معـتم، عشرات من الأميال المربعة، مع طبقات من القمم الجبلية تنتشر شرقا، كلها تؤدي إلى سلـسلة جـبال كزنغان العظمى في الشمال. انتصبت الجبال التي اكتست منحدراتها وقممها بنباتات متعددة الألوان – أخضر داكن وفاتح، وبني، وأحمر غامق، وأرجواني – فتشكلت منها مـوجات ممتدة إلى مسافة بعيدة قدر ما يمكن للبصر أن يصل إليه، لتمتزج مع محيط شاسع من الغـيوم القرمـزية. أحاطت بالحوض تلال منخفضة من ثلاثة جوانب. بدا الحوض ذاته وكأنه بـساط أخضر اللون عمل تينغر على إبداع زخرفته؛ أنماط من الزهور الجبلية زرقاء، وبيضاء، وصفراء، ومخملية اللون ترصع رقعة ذات ألوان بهية على امتداد لا يقطعه أي شيء.

تدفقت مياه جدول أسفل واد جبلي يمتد إلى الجنوب الشرقي، كان يلتف وينعطف حالما يـدخل إلى الحوض، وكل التفاف في الجدول كان يشبه حدوة حصان أو يد فضية، أياد كثيرة كانـت تستطيل، وتلتف، وتلتوي إلى أن يصب الجدول مياهه في بحيرة زرقاء وسط الحوض. طافت غيوم منتفخة، ومضت في سيرها لاهثة فوق المياه الصافية.

كانـت قطعة الزينة التي تحتل وسط العقد عبارة عن بحيرة للبجع، لم يحلم شن مطلقا أنه سـيتمكن يـوما ما من أن يرى شيئا مثيلا لما يراه الآن. من خلال عدسات منظاره رأى اثنتي عـشرة بجعة تطفو وتسبح برشاقة على سطح الماء، وقد أحاط بها قصب أخضر اللون كثيف. كان البجع محاطا بمئات، وربما بآلاف من الإوز البري، والبط البري، وغيرها من طيور الماء التي

لا يعـــرف شن أسماءها. وهناك خمس أو ست بجعات كبيرة تحلّق في الهواء، ترافقها طيور الماء هائجـــة. طوقت طيور الماء البحيرة والجدول، كانت تطلق صيحات وكأنها أوركسترا ترحب بالقادمين. انتشر الهدوء والسكينة على صفحة البحيرة، تراقص ريش أبيض اللون على صفحتها، كانت مأوى من عالم خيالي مفعم بالسلام.

انفـــتح منفذ طبيعي إلى الشمال الغربـــي، محولا مياه البحيرة إلى آلاف من الهكتارات من أراضي المستنقعات.

مـــن المحتمل أن تكون هذه هي البقعة الأخيرة على أرض السهوب الشمالية التي لا تزال تحـــتفظ بجمالهـــا البدائي. كان شن زن مفتونا بالمنظر. لكن حتى عندما أبدى اندهاشه، كانت المخـــاوف تتـــسلل خلسة إلى قلبه. حالما جاء الرجال والأحصنة إلى هنا، مثلما خطر في ذهنه، سيتعرض هذا الجمال البدائي للمكان إلى الضياع بسرعة، وما من إنسان صيني ستقع عيناه على مثل هذا الجمال النقي قط مرة أخرى.

* * *

اســـتطلع كل من أوليجي وبلغي بمنظاريهما المناطق الواقعة أسفل التلال، وبقيا يراقبان ما كان يجري عليها. لكز الرجل العجوز ساق شن بطرف حذائه، ولفت انتباهه إلى الانحناء الثالث الـــذي يتخذه مسار الجدول في موضع بعيد باتجاه اليمين. على ضفة أحد الانحناءات التي تشبه حـــدوة الحـــصان، رأى شن زوجا من الغزلان داخل الماء، كانا يكافحان ليصعدا إلى اليابسة. أخـــرجا الأجزاء العليا من جسديهما بأمان إلى الأرض، من الواضح أن قوائمهما الخلفية كانتا عالقـــتين في الوحل. أخفق الغزالان في محاولتهما سحب جسديهما إلى خارج المياه. في مكان لـــيس ببعـــيد، كان اثنا عشر غزالا آخر ملقاة على العشب، وقد انشقت بطونها... حول شن مـــنظاره ببطء نحو ساحل البحيرة العشبـــي الطويل. ترنح قلبه بين جوانحه. لقد جثمت العديد من الذئاب قرب فرائسها، وهي تغط في نوم عميق. كان العشب طويلا إلى درجة لم يتمكن من إحصاء عددها بدقة.

استمر أوليجي وبلغي بمسح أرجاء المنطقة، كانا يقفان على مرتفع بعيد إلى الجنوب الشرقي، حـــيث بقيت أعداد متباعدة من قطيع الغزلان ترعى في تجمعات صغيرة، بينما كانت الغزلان التي ولـــدت حديـــثا قريبة من أماتها. راقب شن المنظر فيما كانت إحدى إناث الغزلان تلعق صغيرها الـــذي ولد منذ مدة قصيرة بلسانها، وتنظر إلى الأعلى كل بضع ثوان. كافح الغزال الصغير ليقف علـــى قوائمه؛ عندما ينجح الغزال الذي يولد حديثا في الوقوف على قوائمه يتمكن من الركض بـــسرعة بحيث لا يستطيع حتى الكلب أن يلحق به. اللحظات التي يحاول خلالها الوقوف هي التي تحدد ما إذا كان سيعيش أم يموت. لم يعرف شن ما الذي ينبغي له القيام به. عبر هذه المسافة التي تفصل بينهم كان عليهم أن يتخذوا قرارا: هل يلاحقون الذئاب أم الغزلان؟

قال بلغي: "انظر إلى تلك الذئاب، التي تستلقي في العراء. إنها تعرف تماما أنه ليس بإمكان أي شـــخص أن يفعـــل لها شيئا. إننا بعيدون جدا بحيث لا تجدي بنادقنا نفعا، وإذا كشفنا عن أنفسنا ستختفي الذئاب والغزلان بمثل لمح البصر".

– "لكـــن تلـــك الغزلان التي تعلق في وحل البحيرة ستكون من حصتنا"، لفت أوليجي انتباههما إلى شيء ما. "حان وقت الغداء".

امتطوا صهوات أحصنتهم، وانطلقوا باتجاه البحيرة؛ في اللحظة التي خرجوا فيها إلى العراء، هـــم وأحصنتهم وكلابهم، ولت الذئاب هاربة صوب الجبال، تفرقت، واتجهت جنوبا. ابتلعتها علـــى الفـــور بقع من القصب. استجابت الغزلان بالطريقة ذاتها، وبسرعة مماثلة تقريبا، مخلفة وراءها تلك الغزلان التي لا تزال عالقة في الوحل والأمات التي تلعق صغارها.

اقترب الراكبون من أحد الانحناءات في الجدول والتي تحيط بهكتار من الأرض. كان هناك اثنا عشر غزالا أو أكثر، كبيرا وصغيرا، تمددت بلا حراك فوق العشب، وقد اختفت أحشاؤها الداخلية من بطونها، بينما نهشت لحوم قوائمها حتى برزت العظام. علق أحدها بالوحل، لم يكن قـــادرا على التحرك ولو بوصة واحدة؛ أما الغزلان الأخرى فكانت لا تزال تبذل ما في وسعها مـــن محاولات واهنة لسحب أجسادها إلى خارج البحيرة، بينما الجروح التي في أعناقها لا تزال تنـــزف دما.

في غضون ذلك الوقت كان قد تشكل في ذهن شن تصور معين عن الوسائل التي تمارسها الذئاب في المخادعة، لكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها كيف تتمكن من استخدام الانحناء الذي يتخذه مسار النهر في تنفيذ خطتها. مضى يتجول ممتطيا صهوة حصانه محاولا أن يستقرئ ملامح خطة المخادعة التي اتبعتها الذئاب في الهجوم.

– "هـــل رأيـــت مـــدى عبقريتها؟"، قال أوليجي. "لقد اختبأت بين الأعشاب في الليلة الماضية، وانتظرت إلى أن جاءت الغزلان للارتواء. بعد ذلك أسرعت بغلق كل منفذ لها للهرب، وحاصـــرت الغزلان مستفيدة من الجدول. بكل تلك السهولة. كان الجدول بمثابة الكيس الذي اســـتخدمته، كل ما توجب عليها عمله هو أن تشد الخيط الذي يغلق الكيس حول اللحوم التي تحتاج إليها".

لم تكـــن الكلاب على عجلة من أمرها للأكل، بعد أن التقطت رائحة لحوم البراري التي تنتشر في كل مكان، تجاهلت الغزلان التي كانت الذئاب قد أكلت مسبقا من أجسادها. اندفع بـــار مهاجمـــا غزالا كان في رمقه الأخير، نشب أنيابه في بلعومه، ثم نظر إلى بلغي؛ عندها هزّ الـــرجل العجـــوز رأسه. "هيا، يمكنك أن تأكل". أخفّض الكلب رأسه، وصار ينهش فريسته بـــضراوة، إلى أن مات الغزال. بعد ذلك انتزع قطعة لحم كبيرة من فخذ الغزال، وبدأ يلتهمها. جعل منظر الفريسة التي لطختها الدماء الشعر الذي يغطي ظهر إيرلانغ ينتصب قشعريرة. وغد

في مظهـــره يـــشبه ذئبا ضاريا، وتوثبت لديه على الفور غريزة القتل. عندما رأى الكلب غزالا صـــغيرا لا يزال على قيد الحياة قرب أحد انحناءات الجدول ولا يبعد عنه كثيرا، وثب إلى داخل النهـــر، وشق طريقه سباحة عبر الماء. طلب بلغي من شن أن يكف عن مناداة الكلب ليرجع. "ذلك الكلب لديه نـــزعة وحشية. إذا لم تسمح له أن يقتل الحيوانات البرية"، قال، "سيتحول إلى خرافنا من جديد".

قـــادوا الأحصنة إلى ضفاف الجدول، حيث أخذ بلغي حبلا مصنوعا من الجلد من سرج حصانه وربطه بشكل أنشوطة. خلع شن جزمته، ورفع ملابسه التحتية إلى الأعلى، وخاض في المـــاء، ومن ثم أدخل الحبل حول عنق أحد الغزلان. سحب بلغي وأوليجي الحيوان إلى الضفة، ألقـــياه علـــى الأرض، وقـــيدا قائمتيه. بعد ذلك سحبا الغزال الثاني إلى خارج الجدول الذي تلطخـــت مـــياهه بالدماء، وضعاه على بقعة نظيفة من العشب، واختارا موقعا ليضرما فيه نارا للطهي. "سنأكل غزالا واحدا، ونأخذ الآخر معنا لدى رجوعنا"، قال بلغي. بينما كان أوليجي يـــذبح أحد الغزالين، اصطحب بلغي شن معه إلى الجبال التي في الشمال الغربـــي للبحث عن حطب لإضرام النار.

وصلا إلى وادٍ عميق فيه أجمة من شجيرات المشمش البري، كانت بعض أغصانها متيبسة وميـــتة. لكن هناك الكثير من الأغصان المحترقة على جذوع الشجيرات التي يصل طولها إلى نحو ثـــلاث أقـــدام. فاحت في أرجاء الوادي رائحة أزهار المشمش المتفتحة التي سقطت توا على الأرض فـــتلونت بهـــا، وقد تغطت قاع الوادي بطبقة من المشمش المتعفن. ربطا حزمتين من الحطـــب، وسحباهما راجعين بهما إلى الموقع الذي سيجري فيه الطهي، حيث كان أوليجي قد انتهـــى من سلخ الغزال وقطع شرائح غليظة من اللحم النيء؛ كان أيضا قد التقط بعض نباتات البـــصل والكراث البرية، سماكتها تماثل سماكة عيدان تناول الطعام، والتي كانت تنمو قريبا من الجدول.

رفـــع الرجال الشكائم والسروج عن أحصنتهم. بعد أن أزيلت عنها الأشياء التي كانت ترهق كاهلها، بحثت الأحصنة عن منحدر سهل، وأخذت ترعى فيه، وبعدها سارت متجهة إلى الجـــدول، حيث شربت بتلهف حتى ارتوت. كان بلغي يشعر بالرضا والارتياح عن كل شيء. "تـــوجد مـــياه عذبـــة هنا"، قال، "عذبة جدا. ذلك أول شيء يبحث عنه المرء في أرض رعي صيفية". شربت الأحصنة إلى أن أصبحت بطونها مشدودة، وبعدها صعدت إلى المرتفع، وبدأت ترعى من جديد، كانت تصهل بحبور.

تـــوهجت نـــار الطهي، وانبعثت منها رائحة لحم الغزال المغرية، وانتشرت في الهواء على ســـطح بحيرة البجع لأول مرة على الإطلاق، مع دخان يمتزج بالدهون، ويتشبع بعبق الكراث والفلفل. جلسوا قريبا من البحيرة. كانت اللحوم، التي نخست بأغصان رفيعة، طرية لدرجة أنها

بـــدت وكأنها لا تزال تنبض بالحياة. بعد أن كانوا قد خرجوا في ذلك اليوم قبل بزوغ الفجر، شـــعر الرجال أنهم كانوا يتضورون جوعا. كان شن يمسح قطعة بعد أخرى من شرائح اللحم بالفلفل والكراث، وينـــزلها إلى جوفه بجرعات من الشراب يتناولها من قارورة الرجل العجوز. "هـــذه هي المرة الثانية التي يقدم لي فيها طعام كهدية من الذئاب"، قال، "لم أتذوق شيئا أفضل منه أبدا، وخصوصا حين يؤكل ذلك في موقع الصيد".

كان بلغي وأوليجي يحمصان قوائم الغزال فوق النار، ويقطعان شرائح من اللحم بعد أن تنـــضج، ومـــن ثم يشقانها من أماكن عدة ويضيفان إليها الملح الذي جلباه معهما، إضافة إلى البصل، وقليلا من الفلفل للاستمرار في شوائها لبعض الوقت. كان الرجل العجوز يأكل بنشوة ونهـــم، ينهي شريحة من اللحم بعد الأخرى. بعد أن احتسى جرعة شراب من قارورته، قال: "إنني سعيد لأن لدينا قطيعا من الذئاب يتولى حراسة هذه المراعي الجديدة. خلال عشرين يوما، عندما تصبح الحملان قوية إلى حدٍّ كاف لأن تقوم بالرحلة، سنعمل على نقل فريق الإنتاج إلى هنا".

لـــف أوليجـــي شريحة من اللحم حول بصل بري وقضمها. "هل تعتقد أن الفريق كله سيأتي؟"، تساءل.

– "الـــذئاب موجودة هنا"، أجاب بلغي، "وكذلك الغزلان. إذا لِمَ لا يأتون؟ لو لم يكن العشب جيدا، هل كنا سنجد الغزلان هنا؟ سنأخذ ذلك الغزال معنا، وسأطلب عقد اجتماع في خـــيمتي غـــدا. سنحضر أقراصا من الفطائر محشوة بلحم الغزال للجميع. عندما يعرفون مدى عذوبة المياه، سيتقاتلون على المجيء إلى هنا. بالنسبة إلى مرعى صيفي، فالعشب الجيد ليس شيئا كافـــيا؛ إنـــك تحتاج إلى مياه عذبة أيضا. ليس هناك شيء أسوأ في الصيف من المياه الراكدة الملوثة. إنها تصيب الحيوانات بالأمراض".

قال أوليجي: "إذا اعترض أي شخص منهم، سأطلب منه أن يأتي ليرى ذلك بنفسه".

ضحك الرجل العجوز من أعماق قلبه. "لا داعي إلى ذلك"، قال. "إنني الذئب الأكبر. إذا أتـــيت فالـــذئاب الأخرى ستتبعني. لا يمكن أن يلحقك الأذى قط إذا تبعت الذئب الأكبر". استدار نحو شن زن. "كنت طوال الوقت تتبعني، هل أصبت بالأذى يوما؟".

ضـــحك شـــن. "من خلال السير وراء ملك الذئاب، فأنا آكل الطعام الطيب، وأتناول الشراب القوي. سيحب يانغ كي والآخرون الرحيل مع بابا".

– "إذا، فالأمر محسوم"، قال أوليجي. "عندما نرجع، سأطلب عقد اجتماع للإعلان عن التحرك. كانت الحصص التي طلب منا الإيفاء بها خلال السنوات القليلة الماضية قد أوصلتني إلى حالة أكاد لا أستطيع فيها أن ألتقط أنفاسي. إن العثور على هذه المراعي الجديدة سيوفر لنا أربع أو خمس سنوات من الراحة".

- "وبعد ذلك؟"، سأل شن. "هل توجد المزيد من الأراضي في أي مكان آخر؟".

- "كـــلا"، قـــال أوليجي، ازدادت نبرة صوته اكتئابا. "هناك الحدود في الشمال، ولجان أخرى في الغرب والجنوب. أما بالنسبة إلى جهة الشمال الشرقي، فالجبال هناك حادة الارتفاع ووعرة للغاية. ذهبت إلى هناك مرتين. ليس هناك المزيد من أراضي المراعي".

- إذا، ما الذي ستفعلونه؟

- "علينـــا أن نـــسيطر على حجم القطعان ونحسّن نوعيتها. على سبيل المثال، يمكننا أن نربــــي خـــراف زنغـــيانغ ذات النوعية المحسنة"، قال أوليجي. "إنها تنتج ضعف الكمية من الـــصوف، وهو أفضل من حيث النوعية. الصوف الذي لدينا يباع بثمن بخس يكاد ألا يتجاوز يـــوانا واحدا لكل رطل واحد، لكن النوعية الأفضل من الصوف تباع بأكثر من أربعة يوانات. يمـــثل الصوف أكبر مصدر للدخل بالنسبة إلينا". وجد شن نفسه مقتنعا أن هذه خطة جيدة. لكـــن بعد ذلك تنهد أوليجي. "الصين لديها نسبة هائلة من السكان بحيث أتصور أن مراعينا ســتخفق في مواكبة الإنتاج خلال سنوات قليلة. بعد أن يتقاعد الناس الذين ينتمون إلى جيلي، لست أدري ما الذي ستفعلونه أنتم الشباب".

حدّق بلغي إلى أوليجي. "عليك أن تتكلم مع الناس الذين يتحملون المسؤولية. أخبرهم أن يـــتوقفوا عن الضغط على وحدات تربية المواشي. إذا استمروا في الضغط أكثر فسيتحول لون السماء إلى اللون الأصفر، والأرض يمكن أن تتمرد، والرمال قد تدفننا جميعا".

هـــز أوليجـــي رأسه. "من الذي سيصغي إلينا؟ المسؤولون عن الزراعة هم الذين يديرون الأمور في هذه الأيام. إنهم أوفر ثقافة منا، وهم يتكلمون اللغة الصينية. إلى جانب ذلك، تستبد بالمسؤولين في مناطق المراعي هواجس صيد الذئاب. من خلال التنافس على زيادة أعداد المواشي فإن أولئك الذين لا يعرفون شيئا عن الأرض يحصلون في الواقع على الترقية بشكل أسرع".

أكلـــت الأحـــصنة ملء بطونها، وكانت تأخذ قسطا من الراحة، بينما أحنت رؤوسها، وأطبقت أجفانها.

قاد أوليجي رفيقيه في رحلة لاستكشاف بقية أرجاء الحوض، كان يتناقش مع بلغي بشأن المكـــان الذي ستنصب فيه السرايا الأربع مخيماتها. تشبعت أعماق شن وهو يستنشق بنشوة لا ترتوي أريج الصفاء الذي تكاد ألا تصدقه العيون، تساءل إن كان قد استقر به المقام على دوحة تقع وسط السهوب، أو على سهوب تقع وسط دوحة. أيا كان ذلك، فهو لم يشعر بأدنى رغبة في مغادرة المكان على الإطلاق.

بعـــد رجوعهم إلى موقع الطهي، قاموا بذبح وسلخ جلد الغزال الثاني، وبينما كان شن ينظـــر إلى الأشـــلاء الـــتي تناثرت حول الحناءة حدوة الحصان، شعر بالوحشة، واعترته كآبة مفاجـــئة. كانـــت رائحة الدماء قد جرفت معها الشعور بالسلام والطمأنينة، الشعور بالأجواء

الرومانسية الذي ساوره في الوقت الذي وطأت فيه قدماه للمرة الأولى على أرض المرعى. بعد لحظـــة من التأمل، قال بتردد للرجل العجوز: "عندما تقتل الذئاب الغزلان في الشتاء فذلك من أجـــل أن تحتفظ بها تحت الجليد لتتغذى بها في فصل الربيع. لكن لماذا تقتل هذا العدد الكبير في الـــصيف؟ ربما يوجد المزيد من الغزلان في بعض الانحناءات الأخرى. ستبدأ أجسادها بالتفسخ خلال بضعة أيام ولن تكون صالحة للأكل. ربما تعشق الذئاب القتل ليس إلاّ".

- "إنهـــا لا تقـــتل كل تلك الغزلان عبثا"، قال بلغي، "أو لكي تعرض مظاهر قوتها. إنها تفعـــل ذلك حتى تستطيع الذئاب الكبيرة في السن، والمريضة، والجريحة منها أن تحصل على ما تأكله. هل تعرف السبب الذي جعل النمور وما يماثلها من الحيوانات ألاّ تتمكن من البقاء هنا؟ والسبب الذي جعل الذئاب تهيمن على السهوب؟ ذلك يرجع إلى عقولها التي تفكّر في القطيع. تمـــارس الـــنمور القـــتل من أجل أنفسها، وليس من أجل النمور الأخرى، ولا حتى من أجل ذكورها أو ذريتها. لكن بالنسبة إلى الذئاب فهي تقتل من أجل أنفسها من جهة ومن أجل بقية أفـــراد القطيع من جهة أخرى، حتى تلك الذئاب التي لا تقدر على الاشتراك في القتل؛ الكبيرة منها، والمعاقة، التي تكاد أن تكون فاقدة للبصر، والصغيرة منها، والمريضة، والإناث التي ترضع صغارها. كل ما تراه الآن من جثث متناثرة، لكن عندما يعوي الذكر الأكبر لقطيع الذئاب هذه اللـــيلة، فإن نصف الذئاب التي على أرض أولونبولاغ وأي ذئاب أخرى يمكن أن تدعي وجود صلة قرابة تربطها مع هذا القطيع ستخرج من مكامنها، ولن يتبقى أي شيء في الصباح. الذئب يولي اهتماما كبيرا بالقطيع الذي ينتمي إليه، والقطيع يهتم بأمر كل ذئب ينتمي إليه. إنها تحافظ على تماسكها مع بعضها بعضا، مما يجعل منها أعداء مرعبة إلى هذا الحد. في بعض الأحيان يمكن لعواء الذكر الأكبر لقطيع الذئاب أن يجلب مئة ذئب إلى ميدان المعركة. يخبرنا الكبار في السن أنه كانت هناك نمور موجودة هنا في زمن ما، لكن الذئاب طردتها جميعا. الذئاب تتمسك بنظام العائلة أكثر من البشر، وهي أكثر تماسكا وتوحدا منا بكثير".

تنهد الرجل العجوز. "في الماضي، أيام جنكيزخان بالتحديد، كان ذلك هو الوقت الذي تعلم فيه المنغوليون حقا دروسا من الذئاب. كانت كل قبيلة تتماسك مع بعضها بعضا، وكأنها برامق دولاب العجلة، أو كأنها كنانة السهام. كانت القبيلة صغيرة من ناحية عدد أفرادها، لكن قـــوتها كانـــت مميزة، كل فرد فيها كان مستعدا برحابة صدر أن يضحي بحياته من أجل أمهم جميعا، السهوب. وأي شيء آخر غير هذا كان سيجعلهم قادرين على قهر نصف العالم؟ الانهيار حـــل بنا عندما فقدنا ذلك الإحساس بمعنى وقيمة التوحد. الآن تقف القبيلة ضد قبيلة أخرى. الـــسهام تطلـــق منفـــردة مصحوبة بالغضب، لكنها سرعان ما تنحرف عن مسارها وتتكسر بسهولة. الذئاب تمكنت تماما من التفوق على البشر. في وسعنا أن نتعلم التكتيكات التي تمارسها في المعارك، لكن يبدو أن الطريقة التي تتماسك فيها مع بعضها بعضا قد بدأت تتملص من فهم

نعد نستوعبها. على مدى مئات من السنين كنا قد حاولنا، لكننا لا نـــزال عاجزين عن إتقان المسألة. لكن هذا يكفي؛ إن مجرد الكلام في الأمر هو شيء مؤلم".

* * *

نظر شن إلى بحيرة البجع التي تسلب الألباب بجمالها الأخاذ، وقد اعتراه إحساس بالضياع في خضم أفكاره المتلاطمة.

لف الرجل العجوز اللحم الذي انتزع من الغزال بقطعة من الجلد، ودسه داخل زوج من أكـــياس الخيش. بعد أن أسرج شن الأحصنة، ألقى كل من الرجلين العجوزين أحد الكيسين على ردفي حصانيهما، وربطاهما خلف السرج.

مضت الأحصنة الثلاثة تعدو باتجاه مقر قيادة فرقة الإنتاج.

17

كان القرار الحاسم بشأن قضية مذبحة أحصنة الحرب قد وصل أخيرا من السلطات العليا. وفيه بند أساسي يتعلق بسوء التصرف الإداري ضد أوليجي، الذي كان يتحمل المسؤولية عن مجمل فعاليات الإنتاج؛ فتم إقصاؤه من هيئة القيادة التي تضم ثلاثة أعضاء، وأرسل إلى وحدة فرعية في الأرياف لكي يكتسب شيئا من الخشونة من خلال ممارسة العمل اليدوي. وفيه أيضا بنود تتعلق بسوء تصرف مماثل ضد كل من الرعاة - باتو، ولاسورنغ، والراعيين الآخرين - واستبدل باتو بشخص آخر، ومنح منصب آمر سرية عسكرية. بالإضافة إلى ذلك، فقد جرى تعيين باو شنغوي، الذي كان في ذلك الوقت قد عاد إلى سلك الحياة المدنية، رئيسا لهيئة قيادية على أن يكون مسؤولا عن نشاطات وعمليات إنتاج اللجان الثورية كافة.

ذهب كل من باو شنغوي وزانغ جيوان برفقة أوليجي إلى فرقة تربية المواشي. في وقت سابق للثورة الثقافية، كان لدى أوليجي مكتب في مقرّ فرقة تربية المواشي أو في قسم المواشي. لقد ترك مئزره الذي يصلح لاستخدامه في جميع الفصول إضافة إلى جزمته هناك، حيث كان يتم تنظيفهما والاعتناء بهما من قبل النساء اللواتي يسكن الخيم هناك. اعتاد أوليجي أن يمضي بعض الوقت في تلك الوحدة الريفية سواء أتمّ إرساله إلى هناك أم لا، يفعل أي شيء يرى أنه من الضروري أن يؤديه، سواء أكان من واجبه أم لا، لم تتأثر سمعته وهيبته بهذا التطور الطارئ. لكن الرحلة في هذه المرة سارت بنصف السرعة المعتادة. لقد امتطى حصانا عجوزا أبيض اللون كان يعاني من وطأة برودة أواخر الربيع، ولأن الشعر الذي كان يغطي جلده لا يزال يتساقط، فقد بدا وكأنه رجل عجوز يرتدي سترة مبطنة في بداية الصيف.

أراد زانغ أن يعطي حصانه السريع لأوليجي، لكنه رفض أن يأخذه، وألح على زانغ أن يترك حصانه يعدو هناك بحرية بدلا من أن يضيع الوقت في المسير بتثاقل برفقته. كان زانغ قد أتى إلى مقر قيادة فرقة الإنتاج لأخذ بطاريات إلى رعاة الأحصنة، وعندما التقى بالقائدين، القائد الحالي والسابق، قرر أن يرافق أوليجي على الطريق. شعر بحال أفضل عندما سمع أن أوليجي سيبقى في خيمة بلغي.

كان باو شنغوي يمتطي حصان أوليجي الخاص، وهو حصان أصفر اللون مرقط ببقع مخملية، يغطي جسمه شعر طويل لامع، اضطر باو بين الحين والآخر إلى أن يشد سير عنان الحصان ليبقى قريبا من أوليجي؛ كان الحصان يعض على الشكيمة، لأنه لم يتآلف بعد مع راكبه

الجديـــد، الذي استمر في دسّ عقبيه في جانبيه. من وقت إلى آخر كان الحصان يبطئ خطواته لكي يمس بخطمه ركبة صاحبه السابق ويصهل بصوت حزين.

– "لقد فعلت أقصى ما في وسعي، أوليجي"، قال باو، "من أجل أن تبقى ضمن مجموعة القيادة. إنني لا أعرف شيئا عن تربية المواشي. أمضيت حياتي في قرى يمارس أهلها الزراعة. لكن رؤســـائي أوكلوا إليّ مسؤولية إدارة هذا المرعى الواسع، بالرغم من أنني لست واثقا من مدى قدرتي على أداء المهمة".

تفـــصد جـــبين أوليجي عرقا لأنه كان مضطرا باستمرار إلى أن ينخس حصانه بالمهماز ليجعله يتابع المسير. من شأن ركوب حصان عجوز أن يكون صعبا على الخيال، وعلى الحصان أيضا؛ لذلك استخدم زانغ سوطه فضرب به حصان أوليجي لمساعدته على ذلك، لكن أوليجي مـــدّ يده، وربت بها على رأس الحصان ليهدئ من روعه. "كانوا عادلين"، قال أوليجي، "حين اعتـــبروا أن المسألة هي مسألة تتعلق بالإنتاج وليست مشكلة سياسية. كان للحادثة تأثير واسع النطاق، ولو لم يوجهوا لي العقوبة لتوجب عليّ دفع ثمن جسيم في مناطق أخرى".

– "كـــنت هـــنا منذ عام تقريبا"، قال باو، "ويمكنني القول إن إدارة المراعي تصعب على جماعـــة مـــن الفلاحين. إذا حصلت حادثة مهمة أخرى أو حادثتان فسيتم إقصائي عن مسرح الأحـــداث إلى الأبـــد... بعض الناس أرادوا لك أن ترسل إلى فرقة الإنشاءات الرئيسية، لكنني طلـــبت بإصـــرار أن ترسل إلى فرقة الإنتاج الثانية. مع معرفتك الواسعة في مجال تربية المواشي سأشـــعر بالارتياح لأنني أعرف أنك باقٍ مع بلغي. بتلك الطريقة، وإذا حدث شيء لا يمكنني معالجته، فسألجأ إليك للبحث عن حل".

أشرق وجه أوليجي. "هل وافقت اللجنة الثورية على انتقال فرقة الإنتاج الثانية إلى أرض الرعي الجديدة؟".

– نعـــم، لقـــد أصدر مقر قيادة الفرقة أمرا مفاده أن أتولى الإشراف على تنفيذ العملية، بوجـــود بلغـــي الذي سيكون هو المسؤول عن عملية الانتقال ذاتها. وهو الذي سيقرر وقت التحـــرك، والنظام الذي سيتبع في نصب المقرات، وتخصيص القواطع. كانت هناك اعتراضات مـــثال: المـــنطقة بعـــيدة جـــدا، ويوجد الكثير من الذئاب، والكثير من البعوض، وليس هناك تسهيلات؛ إذا حدث أي خطأ فسأتحمل المسؤولية بمفردي. وهذا هو السبب الذي جعلني أقرر مـــرافقتك إلى هـــناك. علـــيّ أن أصـــطحب وحدة إنشاءات رئيسية إلى المكان لتشييد بركة للاستخدامات الطبية، ومستلزمات تخزين الصوف، ومقر قيادة مؤقت وعيادة طبية، وأن أعمل على تمهيد بعض الطرق عبر الجبال.

لاحـــت في عيني أوليجي نظرة كأنما كانت ترسل بريقا، وبدا كما لو أن أفكاره كانت تهيم في مكان آخر.

- "ستنال ما تستحقه من التقدير عن هذا"، قال باو. "وذلك بسبب بصيرتك النافذة. ليس هناك ما يكفي من لحم الخراف أو أي نوع آخر من اللحم يكفي لتلبية متطلبات البلاد، لذلك فالحكومة زادت من الحصص التي تطلب منا توفيرها من الإنتاج. كل فرق الإنتاج تشتكي من أن أرض مراعيها ليست كافية، ولن يتمكن أحد من الإيفاء بالحصص الجديدة من دون أن يتم العثور على أراضي رعي جديدة".

- "تلك الحملان لا تزال صغيرة جدا"، قال أوليجي. "لن تكون قادرة على الانتقال إلى أرض رعي جديدة قبل أن تمضي فترة من الزمن. ما هي خططك للأيام القليلة المقبلة؟".

- "سأنتقي أفضل الصيادين لتشكيل فريق لصيد الذئاب"، قال بصراحة، "ونبدأ بالتدريب على التصويب الدقيق. كنت مسبقا قد طلبت تجهيزات إضافية من الذخيرة. لن يهدأ لي بال حتى أخلص أولونبولاغ من بلاء الذئاب. لقد قرأت مؤخرا تقريرا عن الخسائر التي تكبدها المراعي خلال العقد الماضي. كانت أكثر من نصف الخسائر تعزى إلى الذئاب، إنها أكثر من الخسائر الناجمة عن العواصف الثلجية، والجفاف، أو المرض مجتمعة. تتطلب زيادة أعداد المواشي توفر نوعين من الظروف: الحد من أعداد الذئاب، والعثور على أراضي رعي جديدة".

- "إنك تقترف خطأ جسيما"، قال أوليجي. "نعم، الذئاب مسؤولة عن الخسائر، لكن إذا أزلتها من الوجود فإن غياب سبب تلك الخسائر سيؤدي إلى كوارث".

نظر باو عاليا إلى السماء. "سمعت الناس يقولون إنك وبلغي وبعض الرعاة الكبار في السن تقفون دائما إلى جانب الذئاب. هيا، قل ما تريده، لا داعي للقلق...".

تنحنح أوليجي. "أقلق؟، إنني قلق على السهوب. لا أستطيع أن أتحمل رؤية الأرض التي انتقلت إلينا عن أسلافنا وهي تتعرض للدمار. كنت دائما أحدث الناس عن الذئاب منذ سنوات عديدة، ولن أتوقف عن ذلك الآن... إنني أتحمل مسؤولية إدارة العمل في السهوب منذ أكثر من عقد من الزمن، ورأيت أعداد المواشي تتزايد حتى أصبحت أكثر من ضعف ما كانت عليه. إننا نوفر ضعف العدد من الأبقار والخراف التي توفرها المراعي الأخرى. مسؤوليتنا الأكثر أهمية تتمثل في حماية السهوب، ما دامت تشكل الأساس لتربية المواشي. إنه واجب جسيم يتطلب منا أن نبقي أعداد حيوانات الرعي تحت السيطرة، وخصوصا الأحصنة. إن الأبقار والخراف حيوانات مجترة، فهي لا ترعى ليلا. لكن الأحصنة لا تتوقف أبدا عن الأكل - عليها أن تأكل لكي تسمن وتبقى أجسامها بحالة صحية جيدة - مما يعني أيضا أنها لن تكف أبدا عن إلقاء الفضلات. تتطلب تغذية خروف واحد لمدة سنة واحدة عشرين هكتارا من العشب، لكن الحصان الواحد يحتاج إلى مئتي هكتار من العشب. تقترف الأحصنة بحوافرها جريمة بحق السهوب. يمكن لقطيع من الأحصنة إذا ما استقر في مكان محدد لبضعة أسابيع أن يتركه وقد تحول إلى خراب، لا شيء يبقى سوى الرمال. يسقط المطر كثيرا في فصل الصيف. لذلك يمحو

العشب بشكل سريع، لكن خلال بقية السنة نضطر إلى أن ننقل مواشينا كل شهر تقريبا لمنع الحيوانات من أن تلتهم كل ساق من العشب يقع عليها نظرها. الأبقار أيضا تشكل عبئا على السهوب. المشكلة الكبرى فيما يتعلق بها هي أنها تعود إلى حظائرها كل ليلة، وليس عندما تشعر بالرغبة في ذلك كل على انفراد، لكنها تعود مجتمعة على الدوام. إنها بوزنها الثقيل وبحوافرها تمزق سطح التربة، وإذا لم يجرِ نقلها من وقت إلى آخر، ينتهي الأمر بالمنطقة التي تحيط بالمخيم لمسافة ميل أو أكثر إلى أن تصبح مجرد أخاديد رملية. فإذا أضفت الخراف إلى كل ذلك، يكون عليك أن تنقل وحدتك كل بضعة أشهر من مكان إلى آخر وإلا فإن لا شيء سينمو ضمن مسافة ميل من مخيم القاعدة. نحن نعيش كبدو رحل لغرض منح الأرض فرصة لالتقاط أنفاسها. تمثل الحوافر الثقيلة والزيادة المفرطة في أعداد المواشي أكبر عدو للأرض".

بعد أن رأى أوليجي أن باو كان يولي اهتماما بكلامه، تابع قائلا: "إن الحل الذي يمكننا من حماية السهوب يتلخص في خفض عدد الذئاب التي نقتلها. هناك الكثير من الحيوانات التي تلحق الدمار بالسهوب، فسناجب الأرض، والأرانب، والمرموط، والغزلان هي التي تسبب أكبر الأضرار. ولولا وجود الذئاب فإن السناجب والأرانب وحدها ستحول السهوب إلى خراب خلال بضع سنين. تشكل الذئاب الأعداء الطبيعية لتلك الحيوانات؛ إنها تبقي على أعدادها تحت السيطرة. إن حماية أراضي الرعي تزيد من قدرتنا على إبعاد شبح الكوارث الطبيعية. لنأخذ على سبيل المثال العواصف الثلجية. نحن نواجهها أكثر مما تواجهها مناطق أخرى. لكن عندما تضرب عاصفة ثلجية أراضي رعي تابعة للجان أخرى، ربما يخسروا ما قد يصل إلى نصف قطعانهم. أما خسائرنا نحن فلا يمكن أن تصل إلى ذلك المقدار الكبير. لماذا؟ لأن أرضنا تبقى مزدهرة. في كل خريف نقطع من الأعشاب ما يكفينا لأوقات الضرورة، والآن بعد أن أصبحت لدينا آلات لقطع الأعشاب نستطيع أن نحصد المراعي جميعها في وقت قليل، ونخزن كل ما نحتاج إليه تحسبا لاحتمال حدوث كارثة طبيعية. ولأن العشب يزدهر هنا، فهو ينمو ليصل إلى هذا الارتفاع بحيث يمكنه أن يحفظ كمية الثلوج الكثيفة في أكثر الأحيان. ومع وجود سهوب تتمتع بالازدهار في نموها تتجنب المنطقة تآكل التربة وجفاف مياه الآبار، وهكذا حتى خلال مواسم الجفاف، تتوافر للحيوانات مياه لتشربها. إذا وجد عشب جيد فإن الحيوانات تعيش في حالة من الانتعاش. لم يتفش أي مرض بين قطعاننا في السنوات الأخيرة. إن إنتاجنا في ازدياد، ونحن قادرون على شراء المكائن التي تساعدنا على حفر الآبار وتشييد الحظائر، مما يعزز قدرتنا على مقاومة الكوارث الطبيعية".

هز باو رأسه وقال: "ما تقوله صحيح. إن حماية أراضي الرعي هو ما يجعل تربية المواشي أمرا ممكنا. لن أنسى ذلك. سأصطحب المسؤولين إلى فرق الإنتاج في أوقات كثيرة قدر الإمكان للتأكد من أن الرعاة ينتقلون من مكان إلى آخر في الوقت الذي يفترض فيه عليهم أن يفعلوا

ذلـــك، وأحرص على أن أجعل رعاة الأحصنة يلزمون قطعانهم لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا كي يجولوا بها باستمرار وألا يتركوها في بقعة واحدة لمدة طويلة جدا. سأتفحص أرض الرعي التابعة لكل فريق منهم مرة في كل شهر، وإذا رأيت أن هناك إفراطا في الرعي، عندها سأحسم نقاط عمل. وسأعطي مكافآت لتلك الفرق التي تبذل جهدا في حماية الأرض، وأعتبرها وحدات نموذجـــية. وما دمت أطبق أساليب عسكرية في الإدارة، فأنا واثق من أن الأمور في أولونبولاغ ستسير بشكل جيد باستمرار... لكنني لا أزال لا أفهم كيف يمكن لكم أن تحموا أراضي الرعي بالاعتماد على الذئاب. هل هي حقا بتلك الكفاءة؟".

بعـــد أن رأى أوليجـــي أن باو لا يزال يصغي إلى كلامه، ابتسم وقال: "ستستغرب لو علمت أن سناجب الأرض التي تسكن في عش واحد تأكل بمفردها من العشب خلال سنة أكثر مما يأكله غزال، بالإضافة إلى أنها تختزن الطعام لفصل الشتاء. لقد قمت بالتنقيب في أعشاشها، ووجـــدت رزما من العشب هناك، كلها من أفضل أنواع الأعشاب وحبوبها. إنها تلد أربع أو خمـــس بطون في السنة، وتنجب عشرة أو أكثر من الصغار في كل مرة، وعند نهاية العام يصبح العـــش الـــواحد عشرة أعشاش. وفي وسعك أن تتخيل مقدار العشب الذي يلتهمه ذلك العدد الهائـــل من السناجب خلال العام. أما الأرانب فهي مشابهة لها، حيث إنها تلد أيضا العديد من الـــبطون الـــتي تتضمن أعدادا كبيرة من صغارها في كل سنة. وأنت رأيت حيوانات المرموط بعينـــيك، كيف كانت جحورها تنتشر على سفوح الجبال. إذا أجرينا حسابا تخمينيا، فإن تلك المخلوقات كافة تأكل من العشب في سنة محددة أضعاف ما تأكله جميع مواشينا التي يبلغ عددها الإجمالي مئة ألف رأس في مراعينا، والتي يماثل حجمها حجم مواشي إحدى المقاطعات التي تقع جنوبا. لكن يوجد نحو ألف من الناس فقط يعيشون هنا، ولولا الطلاب الذين أتوا من بكين ما كان العدد ليصل إلى ذلك. ومع وجود ذلك العدد القليل من الناس، فما هي الفرص التي تتصور أنها متاحة لنا كي نتمكن من إبادة كل تلك الآفات الضارة؟".

- "لم أشـــاهد كـــثيرا مـــن الأرانب خلال العام المنصرم أو ما يقارب ذلك"، قال باو. "أعتـــرف أن هناك الكثير من سناجب الأرض قرب مقرات القيادة، لكنني لم أشاهدها في أي مكـــان آخـــر. لقد شاهدت الكثير من المرموط وجحوره. لكن عدد الغزلان هو الذي لفت انتباهـــي حقا. شاهدت قطعانا تتكون من عشرة آلاف غزال أكثر من مرة. لقد أطلقت النار على مجموعة منها. إنها وباء حقيقي بالطريقة التي ترعى فيها وكأنها الجراد".

- "إن مراعينا خصبة"، قال أوليجي، "أعشابها طويلة وكثيفة مما يجعل السناجب والأرانب تختبـــئ فيها. عليك أن تمعن النظر لتراها، لكنها موجودة هناك. ستراها في الخريف. كل تمث الأكـــوام من العشب المقطوع التي وضعتها السناجب لكي تجف قبل أن تأخذها إلى أعشاشها. الغـــزلان ليست مماثلة لها أبدا في قدرتها على التخريب، لأنها وإن كانت تأكل العشب فهي لا

تحفـــر جحـــورا في الأرض. إن سناجب الأرض، والأرانب، والمرموط لا تأكل العشب وتحفر الجحور وحسب، لكنها أيضا تتكاثر بصورة فظيعة. ولولا وجود الذئاب لالتهمت تلك الآفات الـــضارة كل عشب أولونبولاغ، وشقت لها حفرا في كل مكان خلال سنين قليلة. لن تكون الصحراء بمنأى عنا. إذا كنت تصر على إبادة الذئاب، فلن يتبقى لديك عمل تؤديه بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من الآن".

قـــال بـــاو وهو يقهقه: "أعرف أن القطط والطيور الجارحة والأفاعي تقتنص القوارض، لكـــنني لم أسمع قط أن الذئاب تصطادها أيضا. حتى الكلب لن يضيّع طاقته هدرا ليجري وراء أحـــد القوارض. هل تقصد حقا أن الذئاب تفعل ذلك؟ إنها تلتهم الخراف، وتأكل الأحصنة. لـــيس هناك من لحم على أجساد تلك القوارض بما يكفي لأن يعلق بين أنيابها. إنني آسف، لا أصدق أن القوارض تقع ضمن لائحة طعامها".

تـــنهد أوليجـــي. "تلـــك غلطـــة تقترفونها أنتم الفلاحون جميعا. لقد نشأت على أرض أولونبولاغ، ولهذا فأنا أفهم طبيعة الذئاب. إنها تفضل أن تأكل الحيوانات الكبيرة، مثل الأبقار، والخـــراف، والأحصنة، والغزلان. لكن الحيوانات الثلاثة الأولى يتولى رعايتها البشر مما يجعلها فـــرائس صـــعبة المـــنال، والذئاب تحتاج إلى أن تأكل لتعيش. الغزلان سريعة الحركة جدا من الـــصعوبة اللحاق بها وإمساكها. أما سناجب الأرض، من ناحية أخرى، فهي دائما في متناول الـــيد. في العـــصور الغابرة، كان الناس الفقراء يعيشون في الأيام العجاف على صيد السناجب وأكلـــها. كـــنت عبدا في صباي، وكلما عجزت عن العثور على ما يكفيني من الطعام، كنت أصـــيد السناجب. إنها كبيرة الحجم، قوارض مكتنـــزة الأجسام، يصل وزن أحدها من بضع أونصات إلى رطل كامل، وثلاثة أو أربعة منها تملأ معدتك حتى التخمة. بالنسبة إلى السناجب الـــتي لا تأكلها على الفور يمكنك أن تسلخ جلودها، وتترك اللحم حتى يجف، تعتبر تلك وجبة ذات مذاق لذيذ تكفي لإشباعك في المرة المقبلة. إذا لم تصدقني فسأصطاد القليل منها ذات يوم وأشويها لك. ستجد أن لحمها طري تماما. حتى جنكيزخان كان يأكل السناجب".

شـــعر زانغ جيوان، فيما كان مستغرقا بمتابعة النقاش، بضرورة أن يعطي وجهة نظره. "لقد مضى عليّ عامان في رعي الأحصنة حتى الآن، وكنت أراقب الذئاب وهي تقتنص السناجب، مما كـــان يثير غمامة من التراب. إنها أفضل من الكلاب في ذلك. إن سناجب الأرض طعام تفضله إنـــاث الذئاب وجراؤها. قبل أن تفطم صغار الذئاب عن الرضاعة، تعلمها أماتها كيف تصطاد، وتبدأ بسناجب الأرض. عندما تكون بطن الجراء التي تلدها إحدى إناث الذئاب لا تزال صغيرة، فإن الأنثى نادرا ما تشترك مع الذئاب الأخرى في الصيد. تتعلم جراؤها أن تخاف من البشر خلال فتـــرة نموها عندما يصل طولها إلى نحو قدم، وتكون قد بدأت للتو بالركض. حين يكتشف أحد الـــصيادين ذئبة مع جرائها في العراء، فإذا أطلق النار، وأصاب الذئب الكبير، ستصبح الجراء كلها

من نصيبه. كل ما عليه عمله أن يلتقطها واحدا بعد الآخر كما لو أنها حملان وليدة، ولهذا السبب تأخذ الذئبة صغارها إلى مكان بعيد قدر الإمكان عن سكنى البشر، حيث تشعر بالأمان. لكن ما دامت لا توجد مواشٍ في تلك الأماكن فما الذي تأكله؟ حسنا، عدا اللحم والعظام التي تجلبها لها الذئاب الكبيرة من حين إلى آخر بعد صيد موفق، فهي تعيش على سناجب الأرض والمرموط".

– "ولا يزال هناك المزيد". بدا أوليجي متوترا إلى حدٍّ ما. "لو لم تكن هناك أي ذئاب لأصبحنا نحن ومواشينا في ورطة جسيمة، وواجهنا إحدى الكوارث الطبيعية. عندما تداهم السهوب عاصفة ثلجية من النوع الذي لا يأتي إلا كل مئة أو مئتي عام، تكون الخسائر التي تتكبدها مواشينا هائلة. وبعد انتهاء كل ذلك، عندما تذوب الثلوج، تتبعثر على الأرض جثث الأبقار والخراف الميتة التي سرعان ما تبدأ بالتفسخ. إذا لم يجرِ دفن تلك الحيوانات فإن وباء محتملا يمكن أن يفتك بنصف الناس والحيوانات الذين يقطنون في أحد الألوية بالكامل. لكن الذئاب هي التي تعمل على التخلص من الحيوانات الميتة في وقت يكاد لا يذكر. الأوبئة ليست مشكلة ما دامت توجد ذئاب في الجوار. لم نعرف وباء مطلقا على أرض أولونبولاغ. في الأزمنة الغابرة، عندما كانت الحروب تنشب هنا، كانت تنتشر على ميادين المعارك جثث آلاف الرجال القتلى والحيوانات. من الذي ساهم في التخلص منها؟ الذئاب. يخبرنا الرجال الطاعنون في السن إنه لولا الذئاب لكان أحد الأوبئة قد أباد البشر من السهوب منذ زمن طويل. في وسعنا أن نوجّه الشكر للذئاب لأنها جعلت أولونبولاغ مكانا توجد فيه مياه عذبة وتربة خصبة ينمو عليها عشب وفير. من دون الذئاب ما كانت قطعاننا لتتكاثر وتعيش حالة من الازدهار. لقد أقدمت اللجان التي تقع في الجنوب على قتل الذئاب التي كانت تعيش على أراضيها فتعرضت مراعيها للموت. لن تستطيع أن تربي المواشي هناك على الإطلاق".

كان باو يصغي من دون أن يفوه بكلمة، في الوقت الذي كانت فيه الأحصنة الثلاثة ترتقي أحد المنحدرات، وتطأ بحوافرها العشب الأخضر المفعم بالأريج، وعلى عشب متعفن من بقايا السنة الماضية تنبعث منه رائحة تخمّر مهيجة. ترنمت قبّرات المروج فيما كانت تحلّق في الهواء فوقهم بنغمات لحن ما قبل أن تهبط وتختفي بين الأعشاب الطويلة، بينما طارت تلك القبّرات التي كانت تحط على الأرض نحو السماء الزرقاء، حيث صارت تحوم فوق رؤوس الفريق، وتتغنّى بألحانها الخاصة بها.

حبس أوليجي أنفاسه. "أليس هذا منظرا رائع الجمال؟"، هتف باستغراب. "لا يعكر صفوه شيء أو يلوث نقاءه، وقد بقي مثلما كان عليه منذ آلاف السنين. هذه أكثر السهوب جمالا في الصين. لقد خاض الرجال والذئاب المعارك من أجل أن يبقى هذا المكان غير مدنّس على مدى القرون، وينبغي لنا ببساطة ألا نجعله يتعرض إلى كوارث تجلب الأسى والتي يمكن أن تحل عليه بأيدينا".

– "عليك أن تقيم حلقة دراسية لنا نحن الطلاب"، قال زانغ جيوان، "لكي تعلمنا ما نحتاج إلى معرفته بشأن السهوب وذئابها".

بدت علامات الحزن على وجه أوليجي. "إنني موظف مخلوع. ليست لدي سلطة لأن أقيم أي شيء. أنتم بحاجة إلى أن تتعلموا من الرعاة القدامى. إنهم يعرفون أشياء أكثر مني على كل حال".

بعد أن اجتازوا سلسلة أخرى من المرتفعات الصخرية، تكلم باو أخيرا: "أوليجي، لن يستطيع أحد أن ينكر مدى عمق مشاعرك التي تحملها للسهوب، أو ما أسهمت به من إنجازات. إنها سياستك التي أوقعتك في المتاعب. أنت تتحدث عن الأمور التي حدثت في الماضي، لكن هذا عصر جديد، عصر الذرة بالنسبة إلى الصين. إن استخدام أنماط بدائية من التفكير في التعامل مع متطلبات الحاضر يُعدّ مشكلة كبيرة. كنت أفكّر لفترة طويلة وبشكل مُضنٍ منذ أن أتيت إلى المراعي. من ناحية المساحة، فإن المراعي تعادل فعلا، ومثلما تقول أنت، مقاطعة كاملة من مقاطعات الجنوب، وعدد سكانها الذي يصل إلى ألف من البشر أقل من سكان إحدى قرانا. ذلك يمثل هدرا لا يمكن تصديقه. من أجل تحقيق أكبر قدر من الثروة للحزب والأمة علينا أن نضع حدا لهذه الطريقة البدوية المتخلفة والبدائية في الحياة. لقد أجريت استطلاعا بسيطا منذ بضعة أيام. هناك قطعة من الأرض ذات تربة سوداء اللون تقع إلى الجنوب منا، كل قسم منها تبلغ مساحته آلاف الهكتارات. حفرت بفأس ووجدت أن سماكة سطح التربة يصل إلى قدمين اثنتين. يبدو أنه من المخجل تكريس تربة خصبة مثل تلك لرعي الخراف. في أحد اجتماعات قيادة فرقة الإنتاج، طلبت استدعاء خبير زراعي من منطقة مستقلة ليعطي رأيه بشأن الأرض، قال إنها أرض تصلح بشكل مثالي لزراعة الحنطة. إذا لم نحاول تنفيذ مشروع استصلاح واسع النطاق للتربة، يشمل بضعة مئات من الهكتارات فقط، وربما ألف أو ألفين، ربما واجهنا خطر التصحر".

لم يقل أوليجي شيئا، وتابع باو كلامه. "لقد بحثت في مسألة المياه أيضا. من السهل أن يصل المرء إليها. حفرنا قناة، وجعلنا مياه النهر تتسرب فيها حتى وصلت إلى ذلك المكان. لدينا كميات كبيرة من روث البقر وبعر الخراف، مما يجعل ذلك سمادا مثاليا. إذا زرعنا الحنطة هناك، أراهن أن كل هكتار من الأرض سينتج في السنة الأولى أكثر مما ينتجون في إقليم النهر الأصفر. وإذا ما واظبنا على ذلك المعدل ففي غضون بضع سنين يمكن للإنتاج الزراعي أن يتجاوز إنتاج المواشي. عندما يحصل هذا، فإننا لن نتمكن فقط من توفير غذائنا وغذاء ما لدينا من الحيوانات، وإنما سنقدم المساعدة إلى الأمة بأكملها، في تلك الأماكن التي يكون فيها إنتاج الحبوب ضعيفا. في البلدة التي هي في الأصل مسقط رأسي لا يتوافر لدى الناس من الطعام ما يكفي لسد رمقهم؛ إنهم عاجزون عن تأمين مؤن ثلاثة أشهر تقريبا كل عام. والآن، عندما أشاهد كل تلك

التربة السوداء الخصبة منسيّة من غير زراعة، وتعطى إلى الخراف لترعى فيها، وتقضي عليها خلال مدة لا تتعدى الشهر، فذلك يعتصر قلبي. سأعمل على زراعة بقعة تجريبية؛ وإذا نجحت التجربة سننتقل جميعا إلى هناك. سمعت أن بعض اللجان التي في الجنوب تعاني من نقص في أراضي الرعي، ولذلك ربما تضطر إلى التوقف عن تربية المواشي. لقد قرروا تخصيص جزء من الأرض لزراعة المحاصيل، وأعتقد أن ذلك هو الإجراء المناسب الذي يكمن فيه مستقبل منغوليا".

كان أوليجي يحني رأسه. "كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي"، قال وهو يتنهد. "أنتم لا تفكّرون أبدا في نوعية المواشي. تجبروننا دائما على زيادة أعدادها، والآن تساوركم نوبة قتل الذئاب، لا تفعلون شيئا سوى انتظار اليوم الذي تتلاشى فيه الأعشاب كي تغطوا الأرض بمحاصيلكم. كان موطنك أرضا للمراعي منذ بضعة عقود وقد تحول إلى أرض زراعية منذ عقد أو نحو ذلك ليس إلاّ، ولكن ليس لديهم حبوب تكفي الجميع. لقد وصلنا إلى الحدود حتى الآن، إذا، بعد أن تحولوا أرض المراعي هذه إلى شيء مشابه لما أصبح لديكم في تلك الأماكن، إلى أين ستذهبون لاحقا؟ تحتل صحراء زنغيانغ مساحة أكبر من أي مقاطعة في البلاد، وليس هناك ناس يعيشون في صحراء غوبي. هل تسمّون ذلك ضياعا للأرض؟".

– "لا داعي للقلق"، قال باو. "لقد تعلمت الدرس من بلدتي الأم، وسأحرص على التمييز بين الأرض الصالحة للزراعة والتي ليست كذلك. إذا اتبعنا مسلكا واحدا – إما المحاصيل أو المراعي – فهو شيء غير مصيب. ينبغي أن نتبع طريقة التوازن. سأبذل كل ما في وسعي لحماية المراعي الخصبة، وأستمر في تربية المواشي المفيدة. من دون المواشي لن نحصل على الأسمدة. كيف عسى عملية إنتاج الحبوب تمضي من دون سماد؟".

– "عندما يفدُ الفلاحون إلى هنا"، قال أوليجي بغضب، "ويشاهدون هذه الأرض، لن تتمكن من أن تسيطر عليهم. وحتى إذا استطاع جيلكم بطريقة ما أن ينجح، فكيف تتمكنون من السيطرة على الجيل اللاحق؟".

– "كل جيل يهتم بأموره الخاصة"، قال باو. "الجيل اللاحق ليس موضع اهتمامي".

– أما زلت تخطط لملاحقة الذئاب واصطيادها؟

– ليس من المستغرب أن يكون الصيد هو الذي أوقعك في المتاعب، ولن أسلك ذلك الدرب. إذا حصل أن اقترفت الذئاب مذبحة ضد قطيع آخر من الأحصنة فسينتهي بي الأمر إلى أن أكون في موقف مماثل لموقفك.

شاهدوا الدخان الذي كان ينبعث من المداخن، ويتصاعد فوق مخيم الوحدة الريفية من مسافة بعيدة. "عندما قدّموا لك حصانا عجوزا، فإن أولئك الجهلة في قيادة المراعي كانوا حقا قد أهانونا". استدار نحو زانغ جيوان. "عندما ترجع إلى القطيع اختر حصانا جيدا لأوليجي. أخبرهم أن باتو قال هذا".

– "عـــندما نصل إلى مقر فرقة الإنتاج"، أجاب زانغ، "لن يسمح أحد لأوليجي أن يمتطي حصانا هزيلا".

– "لــدي أشياء ينبغي لي إنجازها"، قال باو، "لذلك سأذهب. سأنتظرك في خيمة بلغي. خذ وقتك". أرخى سيّر العنان، فانطلق حصانه يعدو.

اقتـــرب زانغ من الحصان العجوز المتهالك الذي كان يمتطيه أوليجي، وقال: "العجوز باو يعاملـــك بصورة جيدة إلى حدٍّ كافٍ. يقال في مقر القيادة إنه حاول أن يجعلهم يوافقون على إبقائـــك ضمن قيادة المجموعة. إنه عسكري سابق، ولديه نصيبه من عادات أمراء الحرب، فلا تغضب".

– "العجـــوز باو يندفع بشكل طائش في أداء كل شيء يكلّف به"، قال أوليجي بشراسة وحـــزم، "ويشعر على الدوام أنه في الخط الأمامي من الجبهة. وليس هناك من شخص يمكن أن يكـــون أفـــضل مـــنه في العمـــل على منطقة زراعية. إلا أنه في هذا المكان يشكل خطرا على السهوب".

– "لـــو حصل هذا عندما وصلت في المرة الأولى"، قال زانغ. "ربما كنت قد وقفت إلى جانـــبه. الكثير من الناس يتضورون جوعا في قرى الفلاحين في الجنوب، بينما توجد كل هذه الأرض الـــشاسعة التي لم يحرثها أحد. الكثير من الطلاب يدعمون وجهة نظره. لكنني ما عدت أنظر إلى الأشياء من المنظور نفسه. إن وجهات نظرك خيالية. إن أعداد حيوانات الرعي لا تعني شـــيئا بالنسبة إلى الفلاحين، ولا يفهم أولئك الناس تأثير زيادة نسبة السكان. أما في ما يتعلق بأنواع الحياة الكبرى والصغرى، فليس هناك مفتاح يمكن أن يقود إلى حل لغزها. يقول شن زن إن ثمـــة مـــنطقا مبسّطا للسهوب كان يطبّق منذ ألف سنة أو أكثر، منطقا ينسجم مع القوانين الموضـــوعية للـــتطور. إنه يعتقد أن حكام المانشو[1] كانت لديهم سياسة ذكية خلال المئتي عام الأولى مـــن حكـــم سلالة كنغ؛ لقد منعوا هجرة الناس على نطاق واسع من المناطق الزراعية معتقدين أنها ستؤدي إلى نتائج وخيمة".

كـــان أوليجي مفتونا بمصطلح *منطق السهوب*. كرره مرتين أو نحو ذلك لكي يختزنه في ذاكـــرته. "لكن خلال السنوات اللاحقة من حكم سلالة الكنغ"، قال، "لم يتمكنوا من إيقاف تدفّق الناس من الصين، وهكذا فقد تقلصت السهوب باتجاه الشمال، وبعد ذلك باتجاه الغرب، إلى أن أصـــبحت مـــواجهة تماما لصحراء غوبـــي. إذا حصل تصحّر شمال السور العظيم، فما

(1) المانـــشو: شـــعب ينتمي كثير منه إلى سلالة جوشين، اكتسب هويته الخاصة في القرن السابع عشر قبل الانتصار على الصين واحتلالها، وتشكيل سلالة كنغ (1644–1912م) وقد تبنى الكثير من عادات الصين. تعتـــبر الـــصين اليوم شعب المانشو مجموعة أثنية مستقلة تتألف من أكثر من 10 ملايين نسمة يعيشون بالأساس في شمال شرقي الصين. (المترجم)

الـــذي ســـيحدث لبكين؟ ذلك شيء يفزع حتى المنغوليين، لأن بكين كانت ذات مرة عاصمة لهم - كانوا يسمّونها دادو - وهي الآن مدينة عالمية".

رأى زانغ أحصنته التي كانت ترتوي من مياه أحد الينابيع. لقد حان الوقت لانتقاء حصان جيد لأوليجي.

18

حرّك شن زن عصيدة الحليب واللحم. كان البخار المتصاعد يعبق برائحة مغرية بحيث إن كل الكلاب اصطفت عند باب خيمته وهي تنبح انفعالا وغضبا. كان يحضر العصيدة للجرو.

لقــد علمته غاسماي الأسرار التي تتعلق بتغذية الجراء. "تحتاج إلى أن تتغذى على الحليب وعــصيدة اللحـــم حالما ترضعها أماتها"، قالت. "إنها طريقة مضمونة لجعلها تنمو حتى تصبح أجسامها ضخمة وقوية. ما تأكله من الطعام في الأشهر الثلاثة أو الأربعة الأولى بعد أن تنفطم هـــو الذي يحدد الطريقة التي تنمو بها، وخصوصا عظامها. إذا أخطأت في تنفيذ ذلك الجزء من العملـــية، فلن تكون لديك كلاب ضخمة، وقوية، بغض النظر عن الأشياء التي تغذيها بها بعد ذلـــك. الجراء التي تتغذى جيدا يمكنها أن تنمو حتى يصبح حجمها ضعف حجم الجراء ضعيفة التغذية، ولن تصلح أبدا لمقاتلة الذئاب بشكل لائق".

ذات مرة، عندما كان أفراد فريقهم يسحبون الصخور ليبنوا جدارا، أشارت غاسماي إلى كلب قصير، نحيف يعود لشخص ما، وكان فروه مهلهلا وهمست في إذن شن: "ذلك الكلب من البطن ذاتها التي ينتمي إليها بار. إنه اختلاف واضح تماما، ألا تتفق معي؟". وجد شن صعوبة في التصديق أن كلبين من بطن واحدة يمكن أن يختلفا إلى ذلك الحدّ. "على السهوب، ليس شيئا كافيا أن تكون لديك كلاب من أصل جيد؛ عليك أيضا أن تغذيها بطريقة تنمي حس الشراسة لديها". حفظ شن ذلك في ذاكرته، وتنبّه بعناية شديدة إلى كل ما يدخل في جوف جروه. اتبع وصفة غاسماي في تغذية الجراء بحذافيرها.

أضـــافت غاسمـــاي تقول: "بعد أن تنفطم الجراء، تنشأ منافسة بين الإناث والأمات من الـــذئاب. الـــذئاب تصطاد سناجب الأرض، والمرموط، والحملان من أجل أن تغذي صغارها وتعلمها كيف تصيد. إنها تؤدي دور الأم بشكل جيد. ليس لديها موقد، ولا نيران، ولا قدور، لـــذلك فهي لا تستطيع أن تطبخ عصيدة اللحم لصغارها. لكن أفواهها أفضل من القدور التي نـــستعملها. إنهـــا تحوّل لحوم السناجب والمرموط إلى مزيج رقيق، دافئ غني بالشحوم بأنيابها، ولعابهـــا، وعـــصارات معداتها، وهو ما تحتاج إليه جراؤها بالضبط وتحبه. إنها تنمو مثلما تنمو الأعشاب البرية".

– النـــساء علـــى السهوب يكسبن نقاط عمل من خلال الحراسة الليلية بصحبة كلابهن، ولهـــذا السبب ينبغي لهن أن يكنّ أكثر يقظة، وأكثر مثابرة في العمل المجهد من الذئاب الأمات.

النساء الكسولات يربين كلابا هجينة؛ أما النساء الماهرات فهن يربين كلابا ضخمة. انظر إلى الكلب، وستعرف نوع المرأة التي تعيش في تلك الخيمة.

كان شن قد غيّر كثيرا من عاداته حالما تولى مسؤولية تربية أحد جراء الذئاب، وقد اعتاد زانغ جيوان مشاكسته أن يسأله منذ متى أصبح مدبرا، وحنونا هكذا كالأمهات. في الواقع، أحس شن أنه كان يولي عناية بالجرو أكثر من أم للذئاب أو من غاسماي نفسها. بعد تفاقم الأعمال الروتينية اليومية التي كان شن يؤديها، وافق غاو جيانزونغ أن يسمح له بأخذ القليل من حليب البقر، حيث كان يضيف إليه لحما مهروسا. لم يكن الحليب يكفي بشكل واضح لبناء عظام قوية؛ المزيد من الكالسيوم كان شيئا ضروريا، مما جعله يوفر ذلك بإضافة العظام الرقيقة التي كان يطحنها ويضيفها إلى اللحم. لقد ذهب أيضا إلى العيادة الطبية في مقر قيادة المراعي للحصول على بعض حبوب الكالسيوم، وقام بطحنها وخلطها باللحم، شيء لا يمكن أن تكون قد فكّرت فيه الذئبة الأم ولا حتى غاسماي نفسها. و لم تكن حتى عصيدة اللحم تبدو كافية بالنسبة إلى شن، فقد أضاف إليها الزبدة والملح، مما أدى إلى أن تفوح منها رائحة عبقة بحيث إنه هو نفسه أحس بإغراء أن يجرب تناول طبقٍ منها. لكن ما دام هناك ثلاثة كلاب، فقد تراجع عن محاولته على مضض مقررا التخلي عنها.

اعتاد الجرو أن يأكل ما يملأ معدته، كانت بطنه تصبح مشدودة مثل الطبل بعد كل وجبة. كان الجرو ينمو بشكل أسرع من الفطر في الخريف، وصارت قامته أطول من الجراء التي ترعرع وإياها بنصف طول خطم الذئب.

في المرة الأولى التي أطعم فيها شن الجرو من المزيج، شعر بالقلق من أن الحيوان ربما يستكبر على الدخن الذي يدخل ضمن مكونات المزيج، ففي البراري لا تتغذى الذئاب إلا على اللحوم. لكنه استغرب بشكل بعث البهجة في نفسه عندما رأى أن الجرو قد غطس أنفه في الطبق، وأخذ يزدرد محتوياته الدافئة التي تفوح منها رائحة طيبة إلى أن لعق كل محتوياته ونظّفه، وأخيرا رفع رأسه. اكتشف شن في ما بعد أن الجرو كان يأكل الدخن فقط حينما تمتزج فيه كمية وفيرة من اللحم والحليب.

كانت العصيدة قد بردت، لذلك وضع شن الطبق على رف قريب تماما من باب الخيمة، وفتح غطاءه جزئيا، انسل إلى الخارج، وأسرع بإغلاق الباب خلفه. انتفضت جميع الكلاب التي في المنطقة على عجل، ما عدا إيرلانغ. نهض الكلبان *أصفر* وبير، ووضعا أكفهما على صدر شن؛ صار *أصفر* يلعق ذقن شن ليظهر له مودته. أخذت الجراء الثلاثة تقرض ثنية سرواله. لكن الجرو اندفع هائجا باتجاه الباب كالعاصفة، مرّر خطمه من شق الباب، وأخذ يشم بنهم رائحة العصيدة التي داخل الخيمة. خمش بمخالبه إطار الباب محاولا الدخول.

كان آخر شيء يرغب فيه شن هو أن يفضّل واحدا من الجراء على الأخرى. ربما بدا أن جـــرو الذئب هو الحيوان المفضل لديه، لكنه كان مغرما أيضا بجراء الكلاب، إنها جراؤه، و لم يكـــن في وسعه أن يتحمل فكرة أن يتعرض أي منها للإهمال. ما كان ليطعم جرو الذئب حتى يرضي جراء الكلاب.

لفّ شن ذراعيه حول *أصفر* وبعدها حول يير، ثم حملهما وصار يدور بهما في الهواء، كان يكافـــئهما وفق أكثر سبل التعبير التي يعرفها عفوية. استجاب الكلبان بفرح بحيث إن لعابيهما كانـــا يسيلان على ذقنه. بعد ذلك التقط الجراء، وصار يلقيها واحدا بعد الآخر عاليا في الهواء. في الـــوقت الـــذي كانـــت تعود فيه لتستقر على الأرض، كان يدعك رؤوسها، ويربت على ظهورها، ويخبطها برفق على فرائها. جميع هذه الأشياء بدأ يفعلها بعد أن أحضر جرو الذئب؛ وقبل هذا حين يشعر فقط برغبة في ذلك كان يبدي ذلك النوع من الاهتمام بها. والآن، بالرغم من كل شيء، لو لم يكن قد تعامل مع الكلاب جميعها بالطريقة ذاتها، وهي التي استبد بها ذات يـــوم شعور بالحسد من جرو الذئب، ربما انقلبت عليه وقتلته. استغرب شن عندما تبيّن له أن تربية ذئب في بيئة بدوية تشبه الجلوس فوق برميل من البارود، وأن كل يوم كان يمضي يشكل تحـــديا. في ذلـــك الوقت، كان الجميع منشغلين بولادات حملان جديدة، لذلك كان التواصل الاجتماعـــي قليلا وسط الرعاة. لقد عرف القليل منهم أن شن لديه جرو ذئب، وحتى أولئك الذين كانوا قد سمعوا شائعات عن ذلك الأمر لم يأتوا ليروا بأعينهم. ما الذي كان سيحصل لو انتشر الخبر؟ إن الصعود على ظهر نمر شيء محفوف بالمخاطر بما يكفي؛ أما النـــزول عن ظهره فهو أخطر. ذلك القول يعتبر صحيحا بصورة مضاعفة قدر تعلقه بذئب.

في الـــوقت الذي ارتفعت فيه درجة الحرارة، كانت اللحوم التي تم تجميدها في الشتاء قد قطّعت إلى شرائح وتم تجفيفها تحت الشمس والريح. لقد تغطت العظام، التي بقيت عليها نتف مـــن اللحم بطبقة من العفن الفطري، وانبعثت منها رائحة غريبة، كانت تصلح تماما لأن تعطى طعاما للكلاب في أواخر الشتاء. تبعت شن مجموعة من الكلاب فيما كان متّجها نحو العربة التي وضـــعت فيها سلة اللحم. سار إيرلانغ في المقدمة. احتضن شن رأس الكلب الضخم بذراعيه. بعـــد أن ازداد تآلفه مع سلوك البشر، عرف إيرلانغ أن حصته من اللحم في طريقها لأن تقدّم إلـــيه، ودفع شن برفق تحت ذراعه تعبيرا عن الامتنان. تناول شن سلة مليئة بالعظام من العربة، وزع محتوياتها بما يتلاءم وطبيعة الشهية التي يتمتع بها كل كلب، ثم عاد مهرولا إلى خيمته.

كـــان جرو الذئب لا يزال يحاول أن يظهر أنيابه. في غضون هذا، وبعد مرور شهر على وصوله، ازداد طوله إلى أكثر من قدم، وقائمتاه كانتا لطيفتين ومعتدلتين؛ بدأ شكله يبدو، أكثر فأكثر، شبيها بالذئب، وخصوصا بعد أن اختفت الأنسجة الزرقاء لتكشف عن عينين رماديتين ضاربتين إلى الصفرة، مع بقع سوداء اللون بحجم رأس الدبوس في الوسط. أصبح خطمه أطول،

و لم تعد أذناه تشبهان أذني القطة، بعد أن نمت فاتخذت شكل مثلثات تنتصب فوق رأسه. كان يمـــضي وقتا طويلا كل يوم في اللعب مع جراء الكلب؛ لكن عندما لا يوجد واحد منها خلال اللـــيل، يوضع ثانية داخل حفرته لمنعه من الهرب. صار حتى الكلبان *أصفر* ويير يتقبلان وجود الدخـــيل الذي قدم من البراري، بالرغم من أنهما حافظا على مسافة فاصلة بينهما وبينه. كلما ذهـــب جرو الذئب باتجاه يير وحاول البحث عن حلمة ضرعها، كانت تنقره بخطمها وتبعده عنها. فقط إيرلانغ اعتاد على التصرف بمودة معه؛ لم يكن ثمة شيء مما كان يفعله الذئب الصغير يمكـــن أن يسبب له الانـــزعاج. كان بإمكانه أن يستلقي على بطن الكلب، ويقفز على أنحاء متفرقة من ظهره ورأسه، ويعضّ جلده، ويقضم أذنيه، وبإمكانه حتى أن يفرغ مثانته أو أمعاءه هناك متى ما شاء ذلك. وغالبا ما كان إيرلانغ يلعق الجرو الصغير، وأحيانا يعمل على دحرجته، ويحملـــه فوق ظهره بخطمه كي ينظف بطنه بلسانه، كما لو أنه من نسله. أصبح الذئب الصغير يتقـــبل محـــيطه، وكان يشعر بالسعادة حين يرتع ويمرح مع أصدقائه من الجراء، بالرغم من أن خطمه كان يخبره بأن هذا ليس موطنه الحقيقي.

التقط شن جرو الذئب، لكن لم يكن هناك متسع للتعبير عن كثير من الألفة، وهو شيء لا يُنصح به عندما يكون الذئب الصغير متلهفا للأكل. فتح شن الباب، وخطا نحو الداخل، حيث وضع الجرو على الأرض أمام الموقد على الضوء الذي تسرب من الفتحة التي في السقف، مثلما اعـــتاد أن يفعل. تحول جرو الذئب ببصره فورا ليحدّق إلى المقلاة المصنوعة من الألمنيوم والتي وضـــعت علـــى الرف. تذوق شن طعم العصيدة بإصبعه ليرى إن كانت ساخنة كثيرا. كانت العصيدة قد بردت، وأصبحت حسب درجة حرارة الغرفة، بالشكل الذي كان يحبه الجرو تماما. لا تـــستطيع الـــذئاب تحمل الطعام الساخن جدا. في المرة الوحيدة التي أعطي فيها الجرو طعاما ساخنا كان قد استجاب بلي ذيله بين قائمتيه، وصار يرتجف، وركض مسرعا إلى الخارج ليرمي بنفسه على الثلج. لم يقترب الجرو ليأكل من جديد إلا بعد أن استبدل شن المقلاة القديمة بمقلاة ألمنيوم جديدة.

عمل شن على دراسة ردود أفعال محددة لدى جرو الذئب وذلك أنه كان ينادي: "ذئب صـــغير، ذئـــب صـــغير، طعام، طعام"، قبل كل وجبة. كان الجرو يثب على الفور في الهواء. أصبحت استجابته إزاء كلمة *طعام* في ذلك الوقت أقوى من ردود أفعال الكلاب إزاء الأوامر. تناول شن المقلاة على عجل، ووضعها على الأرض، قرفص على بعد بضع خطوات، ونقر على حافـــة المقـــلاة بملعقـــته ليمنع الذئب من أن يدوس عليها ويقلبها وهو يدس خطمه في الطعام ويزدرده بنهم.

يُبدي البشر مثل ذلك النوع من الشهية فقط في أوقات المجاعات. أما هذا الجرو، فبالرغم من أن كل وجبة كانت مضمونة بالنسبة إليه، إلاّ أنه كان يلتهم الطعام مثل أي حيوان يحتضر

جـــوعا، كما لو أن السماء ستسقط على الأرض إذا لم يدس في جوفه كل لقمة. الذئاب تأكل من دون أن تكترث لأي شيء آخر، وهذا الذئب، الذي يحرص على التمسك بطبعه، لم يظهر عليه أي تلميح يدل على الشعور بالامتنان نحو شن زن، الذي كان يبذل قصارى جهده بصبر لا ينفد كي يلبـــي احتياجاته كافة. بل على العكس من ذلك، ففي تلك اللحظة كان يرى في شن عدوا بغيضا ينوي سلب طعامه منه.

خـــلال شهر أصبح شن أكثر قربا من الذئب الصغير من خلال وسائل عديدة. كان في وســـعه أن يدعك جلده، ويمسك به، ويقبله، ويقرصه، ويحمله بين ذراعيه، ويحك جلده. صار في وســـعه أن يضعه على رأسه، ويحمله على كتفيه، ويفرك أنفه على خطم الذئب، وحتى أن يدفـــع بأصابعه إلى داخل فمه. لكن حين يكون الجرو منشغلا بالأكل، لم يكن شن يجرؤ على لمـــسه، وإنما كان في وسعه فقط أن يجثم على بعد مسافة آمنة منه ويراقب. إذا أبدى شن أي حـــركة، فإن الذئب سيكشّر عن أنيابه، وتنتصب شعيراته الذئبية سوداء اللون، وتتوتر قائمتاه الخلفيـــتان، ويغـــدو على استعداد تام للوثب إذا استدعى الأمر، كان يبدو جاهزا تماما للقتل. ولغـــرض تغيير هذا السلوك اقترب شن ذات مرة وهو يحمل مكنسة ذات مقبض طويل ليربت على الجرو برفق؛ وفي مثل لمح البصر انقض الذئب على المكنسة، غارسا أنيابه في سويقات نبات الـــسرغوم[1] الـــتي صنعت منها، وانتزع المكنسة من يديّ شن. تراجع شن، وقد صعق وانتابه رعب ليس بالقليل، بينما أخذ الجرو يهز ذيله بعنف كما لو أنه كان يهاجم حملا، ومزق العديد مـــن الـــسويقات، وانتزعها من المقبض. رفض شن أن تردعه حادثة واحدة عن إتمام غرضه، فحاول أن يجرب الشيء نفسه عدة مرات بعد ذلك، ولكن لم يطرأ أي تغيير على النتيجة؛ كما لـــو أن الجرو رأى في المكنسة عدوا له، الآن صار يتصرف وكأنه بمواجهة عدو شرس. استبدّ بغـــاو جيانـــزونغ، الذي كان مؤخرا قد اشترى المكنسة، غضب شديد بحيث إنه خبط الجرو بالمقبض. وفي نهاية الأمر اضطر شن إلى أن يتخلى عن رغبته بلمس الجرو خلال تناوله الطعام.

قـــام شن بتحضير ضعف المقدار المعتاد من العصيدة في هذه المرة، على أمل أن يتبقى منها شيء فيضيف إليه قليلا من الحليب ومزيدا من اللحم، ويطعم بها جراء الكلب. لكن حين رأى كيف كان الذئب ينقض على الطعام، عرف أن ذلك لا يمكن أن يحصل.

حظي شن بفرصة لأن يرى مدى الصعوبة التي تواجهها الذئاب في العيش على السهوب. بالرغم من خصوبة أرض السهوب إلا أن واحدا من بين عشرة جراء للذئاب ربما تستطيع البقاء علـــى قيد الحياة حتى تكبر. قال بلغي إن تينغر في بعض الأحيان يعاقب الذئاب بلا رحمة. يمكن لعاصـــفة مباغتة تتساقط خلالها ثلوج ويصل ارتفاعها إلى عدة أقدام خلال مدة قصيرة أن تهلك

---

(1) الـــسرغوم: نـــبات كالذرة يستخرج من بعض أنواعه (الذرة السكرية) عصير سكري وتتخذ من بعض أنواعه الأخرى مكانس وفرش. (المترجم)

أعـــدادا هائلة من الذئاب، التي تموت من البرد أو الجوع. ويمكن للنيران التي تشتعل في البراري وتحجب كل أثر للسماء أيضا أن تمسح عن وجه الأرض أعدادا هائلة منها، والتي تموت حرقا أو اختـــناقا. إن قطعان الذئاب التي تتضور جوعا وتفر من المجاعة أو الكوارث الطبيعية ربما تفتك بنصف الذئاب المحلية. قد يبقى عدد قليل منها على قيد الحياة وتتمكن من النجاة من اللصوص الـــذين يداهمـــون أوجارهـــا في الربيع لسرقة جرائها التي ولدت منذ وقت قريب، علاوة على الصيادين الذين ينصبون فخاخهم لها في الخريف، وحملات الصيد بالتطويق التي تطلق في بواكير الـــشتاء، وعمليات صيد أخرى تجرى حتى في وسط الشتاء. لقد قال الرجل العجوز إن ذئاب السهوب هي من نسل الذئاب التي كانت يوما ما تتضور من الجوع. كانت الحيوانات الأصلية، التي عاشت حياة رغيدة لم تكن تعرف فيها الاحتياج إلى الطعام، قد سحقتها ذئاب جائعة فرت من المجاعة. السهوب كانت دائما ميدانا للمعارك، وتلك الذئاب التي استطاعت أن تنجو كانت أقوى وأكثر دهاء، إنها أفضل من كل الذئاب من حيث براعتها في الحصول على الطعام وممارسة القـــتال، حيوانات يمكنها أن تأكل ما يملأ بطونها، ومع ذلك فإن ذاكرتها بقيت تحتفظ بصورة وحش الجوع الكاسر.

اكتـــشف شن مع مرور الزمن أن ذئاب السهوب كانت تحمل كثيرا من الشعائر المبجلة المرتبطة بالمعتقدات قدر تعلق المسألة بالبقاء على قيد الحياة، ومن بين البنود الأساسية تقريبا لتلك المعـــتقدات القتال من أجل الحصول على الطعام والاستقلال عن الغير. عندما كان شن يطعم جـــرو الذئب لم يشعر أبدا وكأنه يمنحه عنصر الحياة، مثلما يحصل مع الكلاب. لم يظهر جرو الذئب أي شعور بالامتنان، لأنه لم يكن يعتبر نفسه حيوانا يتربى في كنف واحد من البشر، ولم يكن في وسعه أن يستجيب إزاء ذلك بصورة تدل على العبودية فقط لأنه يرى أن سيده يأتي له بالطعام. كانت كلمة *تربية* غائبة في خضم العلاقة بين شن والجرو. يعتبر جرو الذئب سجينه في الوقت الراهن، وليس حيوانا قاصرا تفرض عليه الوصاية من قبل شن. كانت هناك روح فريدة من نوعها، جوهرها العناد، تكمن خلف طبيعته التي تأبى التأقلم؛ وأدى الشعور بهذه المعلومة إلى ســـيول مـــن القشعريرة صارت تسري في العمود الفقري لشن، لأنه لم يعد واثقا أن في وسعه النجاح في الاحتفاظ بالجرو، وأن يراه يكبر أمام ناظريه حتى يصل إلى مرحلة النضج.

في نهايـــة الأمر، تخلى شن عن رغبته في التعامل مع جرو الذئب كحيوان مدلل في الوقت الـــذي يكون فيه منهمكا بالأكل، ورأى أن يحترم غرائزه الطبيعية النبيلة. بقي جالسا القرفصاء علـــى بعد بضع خطوات منه يراقبه بهدوء، وشعر بالامتنان له على الدروس التي تعلمها منه في طبيعة سلوك الذئاب.

تباطأ الجرو تدريجيا في التهام الطعام، لكن بالرغم من أن بطنه بدت على وشك الانفجار. إلاّ أنـــه أبقى رأسه مدفونا في الطبق واستمر يأكل. أدرك شن أنه عندما تشبع شهية الجرو في

المرحلة الأولية، يبدأ بالتقاط وانتقاء الطعام، حيث يلتقط في البداية شرائح اللحم وينتهي بالنتف الصغيرة المتبقية، فهو يستخدم لسانه كأنه الملقط، يتناول به كل قطعة صغيرة حتى لا يتبقى من عصيدة كانت ذات مرة مليئة باللحم سوى طبق من الدخن الخفيف أصفر اللون؛ لا شيء من اللحـــم، لا شيء من العظام، لا شيء من الشحم، مجرد حبوب. ومع ذلك فهو لا يرفع رأسه. كـــان يركّـــز على الحليب الذي يستقر عند قعر الطبق، ما دام ذلك أيضا طعاما مفضلا لديه. عندما رفع رأسه ونظر إلى الأعلى أخيرا، لم يكن سوى لبّ الدخن الجاف الذي لا طعم له ولا رائحة بقي عالقا في فمه. ضحك شن بصوت مرتفع. عندما كان الذئب الصغير يلتهم الطعام، تصرف بدهاء خارق.

لم يكن لدى شن اختيار سوى أن يضيف قليلا من الدخن، وما تبقى من الحليب، وقليلا مـــن المـــاء الساخن، يحركها جميعا إلى أن تصبح مزيجا كثيفا مثل رغوة الصابون، ويأخذه إلى الخـــارج، حـــيث يفرغه في أوعية مخصصة لطعام الكلاب. نهضت الكلاب، واندفعت وقد بدا عليها الجوع، ولكن صدر عنها على الفور أنين وشكوى تدل على الإحباط، عندها أدرك شن بكل وضوح ضرورة الاهتمام بالالتزامات التي تفرضها تربية المواشي، والتي كان من بينها العناية بالكلاب التي تشكل عنصرا جوهريا.

انـــبطح الجرو على أرضية الخيمة، بعد أن امتلأت بطنه بحيث لم يعد يقوى على الحركة، وصـــوب نظـــرة حـــادة إلى الخارج، حيث كانت الكلاب تنهي ما تبقى من طعام فائض عن حاجته. نهض شن وصاح للجرو: "ذئب صغير، ذئب صغير". لكن الجرو لم يفعل شيئا سوى أن صـــار يقلـــب جسده على الأرض، بينما اقتربت قائمتاه من بعضهما بعضا، ونتأ بطنه، ورأسه ملقى على الأرض، حيث كان يمعن النظر في شن، وقد انبعث من عينيه وميض يوحي بالخبث. الـــتقطه شـــن ورفعه عاليا، قذفه في الهواء خمس أو ست مرات، أراد أن يخيفه ويبهجه في آن واحـــد. كان فم الجرو مفتوحا، لكن قائمتيه الخلفيتين كانتا تضغطان على ذيله وترتعشان. في ذلك الوقت بدا أن الجرو قد اعتاد هذه اللعبة، حيث أدرك أنها إيماءة تدل على الصداقة. وضع شـــن الجرو على قمة رأسه، ومن ثم على كتفه، حيث نشب الجرو الذي لا يزال مرعوبا مخالبه في ياقة شن.

بعـــد أن أرجع الجرو إلى الأرض، جلس شن وقد وضع ساقيه فوق بعضهما، ووضعه في حجره بينما اتجهت بطنه إلى الأعلى كي يدلك جسده جيدا، على النحو الذي تفعله الأمات من الكـــلاب والذئاب مع صغارها لمساعدتها على هضم طعامها. كان شن يستمتع حينما يدعك بـــرفق بطن الذئب الصغير، ويستمع إليه وهو يصدر أنينا خافتا معبرا عن الرضا، ويتجشأ بين حـــين وآخر، ويطرد من بطنه القليل من الغازات. أصبح الحيوان الوحشي حين يتناول طعامه شـــبيها بحيوان مدلل حسن السلوك، كان يجذب إصبع شن بكفيه ويلعقها، وحتى يعضها وهو

يلعب معه بمرح. كانت النظرة التي ترتسم في عينيه لطيفة وفي بعض الأحيان - عندما كانت طريقة التدليك تثير لديه البهجة - تختلط بالضحكات، كما لو أن شن كان أما بديلة له.

لم يتجاوز حجم الذئب الصغير حجم راحة اليد، لكنه كان مسليا. تخيل شن مشهدا يعود إلى العصور القديمة أو إلى بقعة نائية في مكان ما حيث كانت هناك أم ذئاب حنون تلعق بطن صبي صغير بعد أن تنتهي من إطعامه، وكان الصبي الذي تربيه الذئبة يحرك أصابع قدميه ويقهقه. كان قطيع من الذئاب يشرف على المشهد، وقد بدت على أفراده مشاعر السلام، حتى إن الذئاب كانت تجلب اللحم لتغذية ذلك الصبي الصغير. طوال الزمن، كم كان عدد الذئاب الأمات التي ربت أطفالا صغارا من البشر، وكم كان عدد البشر الذين ربوا جراء ذئاب؟ وجد شن نفسه يعايش نوعا من أنواع الحكايات المشوّقة التي تدور حول الذئاب والتي كان قد سمع بها على مدى السنين، وغدا في وسعه أن يشعر ويلمس بالفعل الجانب اللطيف المفعم بالدفء من طبيعة الذئاب. تحركت عواطفه رويدا، ورغب في أن يتمكن من مكافأة الذئاب على الاحترام الذي شعر به عالم البشر إزاء هؤلاء الصبية الذين ربتهم، سواء أكانوا من الهون، والغاوجو، والأتراك، والرومان، والهنود، أو السوفييت. انحنى كي يلمس خطم الجرو الندي بأنفه؛ لعق جرو الذئب ذقنه مثلما يفعل جرو الكلب، مما أثار الابتهاج في نفسه والشعور بالإثارة. كانت المرة الأولى التي يبدي فيها الجرو شكلا من أشكال التعبير عن ثقته به. كان تعاطفهما مع بعضهما يزداد، وأراد شن أن يستمتع بمذاق كل شيء يتعلق بهذه الصداقة النقية، والبريئة التي عرضت عليه. تخيل أن حياته الخاصة بدأت تمتد بجذورها نحو زمن موغل في القدم، وشعر بقشعريرة باردة تعتريه بشكل لا يمكن تصوره.

لكن الشيء الوحيد الذي أزعجه هو أن جرو الذئب لم يكن يتيما أو تخلى عنه والداه؛ إن تربية حيوان في مثل تلك الظروف تعبر عن حب طبيعي، وبدائي. أما هو، من ناحية أخرى، فقد سرق جرو الذئب من وجاره، وهو عمل يتسم بالأنانية البالغة، ويهدف إلى أرضاء نزوة لفعل شيء جديد ومن أجل الدراسة. لم تكن قصته تشبه شيئا موجودا في الحكايات المثيرة التي تدور حول البشر والذئاب، والتي تناقلها الناس عبر العصور. ولم تكن فكرة مجيء الأم ذات يوم سعيا للانتقام بعيدة عن ذهنه أبدا. بالرغم من أن دوافعه كانت بعيدة عن النبل والشهامة، إلاّ أنها جاءت من منطلق التقدم العلمي والثقافي. كان يأمل في أن يتفهم تينغر هذا النوع الجديد من القسوة والوحشية، لأن ما أراده شن هو أن يقتحم مملكة رمز الذئب لشعب السهوب.

بعد أن تناول إيرلانغ حصته من الطعام، اقترب بخطى بطيئة متجها إلى شن. في كل مرة يرى فيها شن يربت على جرو الذئب، كان الكلب يأتي ليراقب ذلك بفضول، وأحيانا يعلق بطن الجرو الناتئة. فرك شن رأس إيرلانغ؛ ابتسم الكلب لسيده. منذ أن كان شن قد احتضن جرو الذئب في كنفه، تقلصت المسافة بين الجرو وإيرلانغ بصورة مثيرة للاهتمام. هل كان ثمة

أثـــر ضئيل من طبيعة الذئاب في داخله هو أيضا، شيء التقط إيرلانغ رائحته لدى جرو الذئب؟ علـــى حـــين غـــرة رأى شن كيف أن موقفه قد أضحى آسرا - فها هنا كان ثمة رجل يحمل خـــصائص ذئبـــية، كلـــب له طبيعة الذئاب، وذئب أصيل يعيشون معا في مكان واحد على السهوب. أصبحت حياته فجأة أكثر فرادة حتى من قصص الفتيان الذين ربتهم الذئاب.

مـــنذ أن غـــدا مفتونا بذئاب السهوب، شعر شن أن دماءه التي كانت تجري في عروقه بتكاســـل وإرهـــاق قد ضعف تدفقها، وأن شيئا شبيها بدم ذئب غريب بدأ يسري في عروقه. تـــبدلت نظرته إلى الحياة؛ خمّن أنها أصبحت هي الأخرى أشد قسوة وصرامة. الآن صار يفهم الـــسبب الذي جعل قصة جاك لندن[1] **حب الحياة** ترتبط بموت أحد الذئاب، وعرف السبب الـــذي جعـــل لينين حين كان مصابا بمرض عضال يطلب من زوجته أن تعيد له قراءة القصة بصوت مرتفع. لقد مات الدكتاتور الروسي بسلام وهو يستمع إلى وصف للصراع بين الإنسان والـــذئب. ربما كانت روحه قد حُملَت لترى روح ماركس من قِبَلِ رمز ذئب ينتمي إلى عرق مختلف؛ إذا كان الناس العظماء حقا، بما يتمتعون به من قدرة مدهشة، قد أتوا إلى السهوب - أرض الذئب الوحشي، والقوة التي تستمد منها الحياة سر ديمومتها - عندئذ لِمَ لا يمكن لإنسان اعتيادي أن يحبه؟

بدأ الجرو يتلوى في حضن شن زن، وهي علامة على أنه كان يريد التبول. لقد اكتشف أيـــضا وجود إيرلانغ وأراد أن يلعب مع الكلب الضخم. لذلك تركه شن، ووثب جرو الذئب إلى أعلـــى ثم هوى على الأرض، حيث خلف وراءه بركة من البول، بعدها اندفع إلى إيرلانغ، الذي انبطح بسعادة على الأرض وقد ترك جميع جراء الكلب تتسلق جسده وكأنه جبل. كان جرو الذئب هو الأول الذي ارتقى على ظهر إيرلانغ، ومن ثم مضى ليزيح جانبا كل الجراء التي حاولـــت اللحاق به، كان يعوي في وجه أي واحد منها يمكن أن يجرؤ على منافسته في تسلم منـــصبه كملك للجبل. ردّ اثنان من ذكور الجراء على التحدي، وأقدما على عض جرو الذئب مـــن أذنيه وذيله، إلى أن تدحرجت الجراء الثلاثة وسقطت عن جبلها، تهاوت الجراء فوق جرو الذئب؛ وراحت تعضّه في كل مكان من جسمه. رد على القتال بغضب، كانت القوائم تضرب هنا وهناك، مما أدى إلى تصاعد الغبار. بعد ذلك بقليل، سمع شن واحدا من جراء الكلب يصرخ بألم، ورأى الدماء تسيل من كفه. من الواضح أن الذئب لم يعد يمارس اللعب وحده.

---

(1) جـــاك لندن: روائي وكاتب قصص قصيرة أميركي (1876-1916م)، اسمه الحقيقي جون غرفيث شاني، ولـــد فقيرا وثقف نفسه بنفسه، عمل بحارا، وعاملا في مناجم الذهب قبل أن يتفرغ للكتابة، كان يعتقد بالاشتراكية للخلاص من البؤس. اكتسب شهرة من خلال كتابه الأول **ابن الذئب** 1900. كتب نحو 50 كـــتابا في القصة وغيرها تدور معظمها حول الكفاح من أجل الحياة ومبادئ الاشتراكية، من أشهرها: نـــداء الغـــاب، ذئب البحار، الناب الأبيض، العقب الحديدية... مات منتحرا في سن الأربعين بسبب الإدمان على الكحول وكثرة الديون. (المترجم)

التقط شن جرو الذئب من الجزء الخلفي من عنقه وحمله ناحية الجراء الأخرى، حيث رفع خطم جرو الذئب أمام الكف المجروحة ولطخه بالدماء. لم يكن لذلك تأثير على الجرو، الذي كشر عن أنيابه وأظهر مخالبه، مما جعل الجراء تسرع هاربة وهي فزعة صوب يير، حيث كان أول ما فعلته أن أخذت تلعق الكف المجروحة، ثم اتجهت إلى جرو الذئب، وزمجرت في وجهه، وقد بدا أنها كانت على استعداد لعضّه. التقط شن الجرو بسرعة عن الأرض، وحمله بين ذراعيه، وأدار ظهره ليير، كان قلبه ينبض بعنف، خاف من احتمال أن يقدم أحد الكلاب الكبيرة ذات يوم على قتل جرو الذئب الذي يربيه. كانت تربية طاغية صغير مثل هذا من دون أي قفص أو حظيرة تسبب له القلق. لكنه في بداية الأمر شعر بضرورة أن يهدئ من روع يير، وذلك ما فعله بأن أخذ يدعك رأسها. حين وضع الجرو على الأرض مجددا، تجاهلته يير، وقادت جراءها بعيدا لتلعب مع بعضها بعضا. تسلق جرو الذئب مجددا ظهر إيرلانغ، ذلك الحيوان المفترس الذي كان يتسم بكونه طاغية هو الآخر ومغرما بجرو الذئب.

بعد أن أطعم الحيوانات، انشغل شن بتنظيف العربة استعدادا للانتقال إلى المراعي الجديدة. عندما نظر إلى الأعلى، رأى بلغي قادما باتجاهه على عربة محملة بالأخشاب. قفز فورا إلى الأرض، التقط جرو الذئب، وأرجعه إلى جحره، وقام بسرعة بتغطيته باللوح الخشبي، ووضع الصخرة فوقه. كان قلبه ينبض بسرعة مذهلة.

اندفع الكلبان *أصفر* ويير، وهما يهزان ذيليهما، مع الجراء الصغيرة للترحيب بالرجل العجوز. تبعها شن كي يتولى تفريغ عربة بلغي، ويعتني بالثور، ويُنزل عدة النجارة الثقيلة التي جلبها الرجل العجوز. قبل كل عملية انتقال إلى أرض رعي جديدة، كان بلغي يأتي لإجراء بعض التصليحات في عربة الطلاب. "بابا"، قال شن بعصبية، "يمكنني تدبر الأمر؛ لا حاجة بك إلى أن تأتي وتفعل ذلك بدلا منا".

– "لا يكفي أن تتمكن من تدبر الأمر"، قال الرجل العجوز. "ستكون هذه رحلة طويلة، وليس هناك طرقات. ستستغرق الرحلة يومين أو ثلاثة أيام للوصول إلى هناك. إذا تكسرت عربة واحدة على الطريق فذلك من شأنه أن يبطئ حركة الفرقة كلها".

– حسنا، على الأقل يمكنك أن تدخل لتناول قليل من الشاي بينما أتولى أنا تفريغ العربة.

– "الشاي الذي تعمله داكن كثيرا بالنسبة إليّ". بعد ذلك، ودون سابق إنذار، مشى ناحية الجحر. "دعني أرى ذئبك الصغير"، قال بشكل يوحي بالغموض.

بعد أن شعر شن بالإحباط من هذا التطور غير المتوقع حاول أن يوقف الرجل العجوز. "ليس هناك ما يمكن أن تراه"، قال. "لماذا لا تشرب قليلا من الشاي؟".

– "مضى شهر تقريبا"، قال بلغي، بينما كان ينبعث من عينيه المترقرقتين بريق حاد، "ومع ذلك ما زلت لا تريدني أن أراه!".

- "بابا"، قال شن على نحو يائس تقريبا، "إنني أربيه من أجل أن أستولد كلابا ذئبية...".

أظهرت ملامح وجه الرجل العجوز مدى عمق غضبه. "هراء!"، قال بصوت مزمجر. "هذا هراء مطلق. ربما تكون قادرا على أن تربي كلبا ذئبيا عندما يتعلق الأمر بذئاب تأتي بها من مكان آخر، لكن ليس الذئاب المنغولية. ما الذي يجعلك تتصور أن ذئبا منغوليا يمكنه أن يتزاوج مع كلبة؟ إنه يمكن أن يقتلها ويأكلها على الفور". فيما تنامى غضبه، كانت لحيته الضئيلة ترتعش. "لا أعرف ما الذي دهاكم أيها الناس في الفترة الأخيرة. لقد عشت على السهوب أكثر من ستين عاما، وهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها على الإطلاق عن شخص يفكّر في ما تريد أن تفعله. هل تتصور حقا أنك تستطيع أن تربي واحدا من هذه الذئاب جنبا إلى جنب مع بطن من الكلاب؟ كيف يمكن أن تتكلم عن الذئاب والكلاب بالنبرة ذاتها؟ الكلاب تأكل فضلات الناس؛ أما الذئاب فهي تأكل الناس. ولأن الكلاب تأكل الفضلات فهي ليست إلا عبيدا للبشر. لكن الذئاب تأكل جثث البشر... الذئاب والكلاب، إنها تختلف عن بعضها بعضا اختلاف السماء عن الأرض، وأنت تخطط لأن تربيها معا؟ ولم يكن ذلك كافيا، بل أنت في الواقع تطمح لأن تزاوج هذا الذئب مع الكلاب! لو أردنا نحن المنغوليون أن نزاوج الملك التنين الذي يعود لكم مع أنثى خنزير، فما الذي سيكون عليه تصوركم أنتم أيّها الصينيون بشأن ذلك؟ ستدعون ذلك كفرا! حسنا، ما تقوم به ليس إلاّ تحدّيا لأسلافنا. وتحدّيا لتينغر! ستدفع الثمن ذات يوم، وكذلك هذا الرجل العجوز...".

لم يكن شن قد رأى يوما بلغي يتّسم بالضراوة على هذا النحو من قبل. كان وكأنه برميل من البارود قد تفجر أخيرا، ونسف معه قلب شن فحوّله إلى شظايا متناثرة. كان الرجل العجوز يشبه ذئبا يستشيط غيظا، وخاف شن أن يركل الصخرة فيؤذي نفسه، أو يرفعها ويهوي بها على رأس الجرو. تفاقم غضب الرجل العجوز في تلك اللحظة. "عندما سمعت للمرة الأولى أنك تربي جرو ذئب، اعتبرت ذلك مثالا على عدم فهمكم، أنتم الطلاب الصينيون لعادات السهوب، على جهلكم للأمور التي تعتبر من المحرمات لدينا، وتصورت أنكم كنتم تحاولون فقط عمل شيء جديد وربما تتخلون عنه بعد بضعة أيام. لكنني بعد ذلك سمعت أن دورجي هو الآخر يربي واحدا، وأنك تخطط لاستيلاد كلاب ذئبية. لا يُسمح لك أن تفعل ذلك! أريد منك أن تتخلص من ذلك الجرو الآن وعلى الفور، أمام عيني...".

عرف شن أنه حقا كان قد تخطى الخط الأحمر هذه المرة. لم يحصل قط أن قام شخص بتربية ذئب على السهوب خلال كل تلك الأزمنة التي تمتد آلاف السنين. يمكنك أن تقتل محاربا؛ لكن لا يمكنك إذلاله. يمكنك أن تقتل ذئبا؛ لكن لا يمكنك تربيته. وهنا، هناك شاب صيني متوغل في مكان بعيد من أعماق السهوب، على أرض أسلاف المنغوليين، حيث يبجّل السكان تينغر، المكان المبجل الذي يأوي سلفهم البهيمي، سيد الحكمة لديهم، وحامي

السهوب، رمز الذئب، كان يربي ذئبا مثلما يفعل مع كلب، إنها إساءة حقيقية. لو أن هذا قد حصل في الأزمنة الغابرة، لاعتبروه خاطئا، وزنديقا، وكان بالتأكيد سيصلب، ويقطّع جسده إلى أرباع، وترمى جثته إلى الكلاب. وحتى في هذا الزمن، فإن ما فعله يتناقض مع السياسة الوطنية بشأن التعامل مع الأقليات الإثنية، إنه عمل من شأنه أن يُغضب سكان السهوب بشكل لا يمكن إنكاره. لكن ما أزعج شن أكثر من غيره أن هذا الأمر قد أدى إلى الإساءة إلى بلغي، المنغولي العجوز الذي كان قد أتى به إلى مملكة رمز الذئب الغامضة، والذي جعلته تعليماته الدقيقة يتمكن من سرقة جرو ذئب قبل كل شيء. لم يعد في وسعه أن يتحمل المزيد، ولا يستطيع الاستمرار في الدفاع عن أفعاله. "بابا"، قال، كان صوته يرتجف.

أزاحه الرجل العجوز بعيدا. "لا تدعوني بذلك!".

– "كنت على خطأ، بابا"، قال شن، متوسلا الرجل العجوز، "وأنت على صواب. إنني لا أفهم عادات السهوب، وقد اقترفت إساءة بحقك... قل لي، كيف تريدني أن أتخلص من هذا الذئب الصغير المسكين؟".

تفجرت الدموع فعلا من عيني شن، وتساقطت قطرات منها على الأرض المعشوشبة التي لعب عليها الجرو بسعادة منذ برهة.

لم يكن في وسع الرجل العجوز، الذي داهمته المفاجأة، إلا أن يحملق في شن، فجأة لم يعد واثقا مما ينبغي له أن يفعله الآن. كان يعلم أنه بغضّ النظر عن كل شيء قاله شن، فإن الشاب مفتون حقا بذئاب السهوب. على كل حال، لقد كان بالنسبة إليه شبيها بابن بالتبني، إنه نصف منغولي، وقد تجاوز انبهاره بالذئاب كثيرا اهتمام أغلب الشباب المنغوليين. لكنه الآن كان قد اقترف شيئا وجد الرجل العجوز أنه غير قابل للتحمّل. لم يكن قط قد واجه شيئا مثل هذا من قبل، ولم يكن يدري ما الذي يفعله بشأن ذلك.

نظر بلغي عاليا إلى تينغر وتنهد. "أعرف أنكم أنتم الصينيون لستم متدينين، وأن الروح لا تعني شيئا بالنسبة إليكم. في الحقيقة، لقد أصبحتم مولعين بذئابنا خلال السنوات القليلة الماضية، إنني أعرف ذلك، لكنك لا تعرف ما الذي في قلبي. إنني عجوز ويصيبني الوهن أكثر فأكثر كل يوم. السهوب مكان قاس، بارد وليس من السهل على المرء أن يعيش فيه، ونحن المنغوليون نمضي كل حياتنا هنا في الكفاح من أجل أن نعيش، كأننا البشر المتوحشون. المرض يؤدي دوره أيضا، ونحن لا نعيش حياة طويلة. سأرحل إلى تينغر في غضون بضعة أعوام. كيف يمكن لك أن تفكّر في الاحتفاظ بذئب ربما حمل روحي معه ذات يوم إلى تينغر، وتربيه برفقة مجموعة من الكلاب؟ ذلك يعني أنني قد اقترفت خطيئة، وربما لا يتقبل تينغر روحي، لكنه يمكن أن يبعث بها بدلا من ذلك إلى حضيض الجحيم المظلم الخانق تحت صحراء غوبي. إذا تعامل جميع الناس هنا مع الذئاب مثلما يتعاملون مع العبيد، على النحو الذي تفعله أنت، ستواجه أرواح المنغوليين الضياع".

– "بابا"، قال شن بهدوء، مدافعا عن نفسه، "أنا لا أتعامل مع جرو الذئب هذا كأنه عبد. إذا جاز القول، فأنا الذي أصبحت عبدا له. إنني أحرص على تلبية كل احتياجاته مثلما يمكن أن أفعل ذلك مع ملك أو أمير منغولي. إنني آخذ الحليب من بقرة لتغذيته، وأمزج العصيدة لأجله، وأطبخ اللحم. إنني أقلق عليه أن يصاب بالبرد، أو يمرض، أو تعضّه الكلاب، أو يضربه الناس، أو يقتنـــصه نسر ويطير به، أو تأخذه أمه. لم أعرف النوم جيدا في الأوقات الأخيرة، كان غاو جيانـــــزونغ قد بدأ يناديني بعبد الذئب. أنت تعلم أنني أبجّل الذئاب أكثر من أي شخص آخر من الصينيين. تينغر يرى كل شيء، فلن يلومني على شيء".

كـــان من شأن هذا أن يضع حدا لغضب الرجل العجوز. فقد كان يعلم أن شن يتعامل بصورة جادة معه. ما دام شن يحرص على تلبية احتياجات ذئب صغير مثلما يفعل تماما مع أحد الملـــوك، إذا، هـــل يعتـــبر ذلك إساءة أم تبجيلا؟ لم يكن بلغي واثقا من ذلك. بالرغم من أن أســـاليب شـــن زن كانت تجري بشكل يتناقض مع العادات المنغولية التقليدية، إلا أن لديه قلبا طيبا، وليس ثمة شيء أكثر قيمة على السهوب المنغولية من ذلك. تراخت النظرة الحادة في عيني الـــرجل العجوز، وأضحت أكثر رقة؛ لم يعد ذئبا ضاريا. كان شن يأمل أنه من خلال حكمة الرجل العجوز وحلمه، ربما يكون على استعداد لأن يصفح عن سابقة اقترفها شاب صيني عُرف عنه حقا أنه يحترم منـــزلة رمز الذئب، وأن ينقذ حياة جرو ذئب بلغ من العمر شهرا.

أبصر شن بارقة أمل. جفف عينيه من الدموع، واستنشق نفسا عميقا. أجبر نفسه على ألا تفـــزع، وأن تبقى هادئة، قال، "بابا، السبب الوحيد الذي جعلني أرغب في تربية جرو الذئب هذا هو أن أفهم طبيعة الذئاب الحقيقية وكيف تتصرف. أريد معرفة السبب الذي جعلها تبدو مـــرعبة وذكـــية هكذا، والسبب الذي يجعل الناس يبجلونها. لا يمكنك أن تتصور كيف يكره الـــصينيون الذئاب. إننا نشبه أكثر الناس خبثا بالذئاب؛ ونسمي المولعين بالجنس ذئابا؛ ونقول عن أكثر الناس جشعا إن لديهم شهية الذئب؛ يشار إلى الإمبرياليين الأميركيين باعتبارهم ذئابا طموحة، وكلما أراد شخص كبير أن يخيف طفلا فهو يصيح: ذئب!".

اســـتطاع شن أن يرى تراخيا في موقف بلغي، ولذلك حشد شجاعته مثل جندي يخوض غمار معركة: "وفقا لنظرة الإنسان الصيني، الذئاب أسوأ ما في الحياة، وأكثر الحيوانات ضراوة، وأشـــدها قـــسوة، لكنكم أنتم المنغوليون تبجلونها كما لو أنها... أنتم تتعلمون منها دروسا في الحـــياة وتطعمونها أجسادكم عند الموت. لكن مع ذلك، فإن مراقبة ودراسة الذئاب من مسافة بعيدة لا تجعلانني أفهم ما أحتاج إلى فهمه. كنت أتصور أن أفضل طريقة لعمل ذلك أن أربـــي جـــروا خاصـــا بـــي، وأراقبه عن كثب، وأكون معه كل يوم. لقد تعاملت معه منذ مدة لا تـــتجاوز الشهر إلا بقليل، وأدركت حتى الآن أشياء ليس من السهل على المرء تصديقها، و لم يـــسبق لي أن عرفتها من قبل. هذه الحيوانات حقا تستحق التبجيل. لكن أغلب الطلاب الذين

هنا لم يغيروا فكرهم عنها. إذا لم يفهموا الذئاب عليك أن تفكّر في الملايين من الصينيين الذين لم يسبق لهم أن أتوا إلى هنا وحسب. ستأتي أعداد أكثر فأكثر منهم، وإذا استطاعوا حقا إبادة الذئاب جميعها، فما الذي يمكن أن يحل بالسهوب؟ ستلحق كارثة بالمنغوليين، لكن على المدى الطويل فإن نتائج الكارثة ستكون أسوأ حتى بالنسبة إلى الصينيين. أقول لك شيئا، إنني أشعر بالقلق. لا يمكنني تحمّل رؤية الدمار يلحق بهذه السهوب الجميلة".

جلس الرجل العجوز على الصخرة التي وُضعت فوق جحر الجرو، وأخرج غليونه. سارع شن بإشعاله له. "إنها غلطتي أنا"، قال بلغي بعد أن امتصّ نفثة من الدخان. "كان لي تأثير سيئ عليك... لكن الآن ماذا نفعل؟ أعرف أنك لم تفكّر فيّ عندما قررت أن تربي ذلك الذئب، ولكن كان عليك أن تفكّر في أوليجي وفرقة الإنتاج. لقد خسر منصبه الرسمي، وسجلت نقاط ضعف ضد أربعة من رعاة الأحصنة. أنت تعرف السبب، أليس كذلك؟ يقولون إن السبب في ذلك هو وقوفه إلى جانب الذئاب، إنه ينأى بنفسه عن تنظيم حملة صيد للذئاب تستغرق مدة طويلة جدا. قالوا عني أيضا إنني ذئب عجوز، الذئب الأساسي في الفرقة، وإن فرقتنا الثانية ما هي إلا وجار للذئاب. والآن، في لحظة حاسمة مثل هذه، هناك طالب في الفرقة يربي جرو ذئب. لِمَ لا يفعل الطلاب الذين في الفرق الأخرى ذلك؟ ألا يثبت هذا أنك قد تلقيت دروسا غير صحيحة من قبل شخص ما في الفرقة الثانية. ألا توافق على أنك قد أعطيتهم *السلاح* الذي كانوا يحتاجون إليه؟".

تسللت النظرة الكئيبة التي طافت في عيني الرجل العجوز إلى شن بشكل موجات؛ وتزايدت نبرة الاكتئاب في صوته.

– "ستأتي أم الجرو الذي لديك ذات يوم"، قال. "ذلك شيء مؤكد. وهي لن تأتي بمفردها. إن الذئاب الأمات في أولونبولاغ تحمي صغارها بشكل ليس له مثيل. لديها قدرة مذهلة على تعقب الرائحة، وأتوقّع أن تعثر هذه الذئبة على جروها ذات يوم. حين تفعل ذلك، ستسعى لتأخذ بثأرها من هذا المخيم. ليس هناك شيء لا تُقدم ذئاب أولونبولاغ على فعله، مهما كان مفعما بالشر، وهذه الفرقة ليست بحاجة إلى حادثة أخرى. إذا حدث شيء فظيع فإن أوليجي والآخرين من مسؤولي فرقة الإنتاج سيقصون من مناصبهم إلى الأبد. إذا جاء قطيع للذئاب، وطارد خرافك وقتل أعدادا كبيرة منها، سيكون ثمن تربية جرو الذئب هذا فادحا، ويشكل خسارة عظيمة للملكية الجماعية، ولن يتبقى هناك عذر. يمكنك أيضا أن تقضي مدة في السجن...".

سرت قشعريرة في جسد شن حتى استحوذت على قلبه، الذي كان تقريبا قد بدأ يشعر بالدفء. تمثل تربية ذئب في إقليم تسكنه إحدى الأقليات خرقا لسياسة التعامل مع مسألة الإثنية؛ القيام بذلك العمل قرب قطيع من الخراف يشكل بالضبط دعوة للذئاب للمجيء،

وذلك سيكون دلالة على أنه تسبب عن قصد في تخريب الإنتاج. إذا تم ربط ذلك على نحو ما بمشكلة والده كونه من *لصوص الرأسمالية*، الأمر الذي له علاقة مؤكدة بالسياسة، فمن شأن ذلك أن يورط الكثير من الناس. بدأت يدا شن ترتعشان؛ وبدا أكثر فأكثر كما لو أن الجرو سيرسله إلى تينغر في ذلك اليوم.

خفّت حدّة صوت الرجل العجوز أكثر: "باو شنغوي هو المسؤول الآن. إنه منغولي نسيَ جذوره منذ زمن بعيد. هو يكره الذئاب أكثر منكم، أنتم الصينيون، ولن يبقى في منصبه إذا لم يتابع اصطيادها. هل تعتقد أنه سيسمح لك بتربية هذا الجرو؟".

شعر شن ببصيص أمل، لكن كان عليه أن يستمر في المحاولة: "هل يمكنك أن تتكلم معه؟ قل له إنني أربيه كي أكتسب معرفة أفضل تمكنني من التوصل إلى طريقة في التعامل مع الذئاب. إنها تجربة علمية".

- "تكلم معه أنت. سيمضي الليلة معي، تعالَ غدا إذا". نهض الرجل العجوز، واستدار ليلقي نظرة أخيرة على الصخرة، وقال، "ألا تخاف من أن الذئب عندما يكبر، ويبلغ مرحلة النضج يمكن له أن يهاجم خرافك؟ أو يهاجمك أنت؟ أو يهاجم شخصا آخر؟ عضّات الذئاب سامّة؛ يمكن أن يموت الإنسان إذا تعرض لإحداها. لن أنظر إليه اليوم على كل حال؛ ذلك سيضايقني أكثر ليس إلاّ. تعالَ، دعنا نعمل على إصلاح العربة".

لم يفُه الرجل العجوز بكلمة في الوقت الذي كان ينهمك فيه بإصلاح العربة. لم يهيئ شن زن نفسه وجدانيا بعد لاحتمال أن يضطرّ إلى قتل الجرو، لكنه عرف أن عليه ألا يجعل الأمور أكثر صعوبة على بلغي وأوليجي.

* * *

انتهى شن والرجل العجوز من إجراء التصليحات في عربتين، وشرعا بالاشتغال على العربة الثالثة عندما بدأت الكلاب تنبح. جاء باو شنغوي وأوليجي يمتطيان حصانين، كان باو في المقدمة. عمل شن على تهدئة الكلاب. "أخبرتني زوجتك أنني سأجدك هنا"، قال باو، "وهذا يعطيني فرصة لرؤية جرو الذئب الذي يربيه شن. قررت اللجنة الثورية للمراعي السماح لأوليجي بالبقاء إلى جانبك. في بداية الأمر أرادوا إرساله ليقوم بأعمال يدوية مع فرقة الإنشاءات الرئيسية".

كان قلب شن يعدو كحصان السباق. السر ينتقل عبر السهوب أسرع من الحصان.

- "نعم"، قال الرجل العجوز. "لقد قمت بعمل جيد لصالحه".

- لقد ساد شعور بالارتياح في قيادة فرقة الإنتاج حين علموا أنك ستشرف على تأمين أرض رعي جديدة. إنهم يعتبرون ذلك مسألة في غاية الأهمية، ويريدون لها أن تكلل بالنجاح مثلما حصل في السنين السابقة. مع وجود أرض رعي إضافية يمكننا أن نضاعف أعداد المواشي،

وتلـــك أخــــبار طيبة. أنتما معا كان لكما دور الريادة في هذا الشأن، لذلك فقد طرحت رأيا بالسماح لأوليجي بالبقاء معك. من شأن ذلك أن يجعل الأمور أسهل بالنسبة إليك في مناقشة أي شيء".

– أوليجي هو الذي كان له دور الريادة في ذلك. قلبه ليس ببعيد أبدا عن السهوب.

– "ذلك شيء لا يقبل المناقشة"، قال باو. "كنت قد أبلغت ذلك إلى القيادة مسبقا، وهم يأملون في أن يسعى الرفيق أوليجي لإيجاد طريقة لإصلاح الأخطاء التي اقترفها".

ابتـــسم أوليجـــي بشكل باهت. "دعنا ننسى الإصلاح"، قال، "ونتكلم بشكل محدد. إن أرض الرعـــي الجديـــدة تبعد مسافة طويلة من هنا، والانتقال إلى هناك ينطوي على الكثير من المـــشاكل. ينبغي أن تُخصّص شاحنة للمراعي، وجراران إطاراهما من المطاط إلى الفرقة الثانية للمساعدة على إتمام العملية. ونحتاج إلى أيادٍ عاملة إضافية لتمهيد طريق".

– "أرســـلت أحد الأشخاص لكي يطلب عقد اجتماع لمسؤولي الفرقة الليلة. سنرى ما الذي يحصل". استدار باو نحو شن. "بالنسبة إلى قطعتي جلد الذئاب اللتين أرسلتهما، أعطيتهما إلى الدّباغ، وتم تسليمهما إلى رئيسي القديم. لقد انبهر عندما عرف أن طالبا من بكين استطاع أن يصطاد مثل هذين الذئبين الضخمين. إنه يبعث إليك شكره".

– لِـــمَ قلـــت له إنني أنا الذي اصطدتهما؟ الكلاب هي التي فعلت ذلك. لا يمكنني تقبل مكافأة على ما قامت به الكلاب.

ربت باو على كتفه. "إذا كانت هي كلابك، إذا فأنت الذي اصطدت الذئاب. السلطات العلـــيا دائما تحصل على مكافأة نيابة عن إنجازات مرؤوسيها. ذلك واحد من التقاليد العظيمة المتبعة في قواتنا المسلحة. حسنا، والآن، دعنا نلقي نظرة على ذلك الجرو الذي لديك".

حدّق شن إلى بلغي، الذي أمسك عن الكلام. "قررت ألا أستمر بتربيته على كل حال"، أجاب شن بسرعة. "إنه شيء يتعارض مع عادات الرعاة، وهو بالإضافة إلى ذلك شيء محفوف بالمخاطـــر. إن تحمل مسؤولية هجوم تشنه الذئاب سيكون شيئا صعبا بالنسبة إليّ". فيما كان يتكلم، رفع الصخرة، وأزاح اللوح بعيدا.

في الأســـفل، كان الجرو يحاول تسلق أحد جوانب الحفرة، لكن عندما لاحت له ظلال بشرية داكنة اللون، تكوّم في أبعد زاوية، تغضّن خطمه وكشّر عن أنيابه، بالرغم من أن جسده كـــان يرتعش. أضاء بريق عيني باو. "هاي!"، هتف. "إنه كبير! لم يمضِ عليه سوى شهر، لكن حجمه وصل إلى ضعف حجم جلود الجراء الأخرى. لو كنت أعلم أنها ستنمو هكذا لتركتك تربـــــي بطن الجراء كلها. عندما تصل إلى مرحلة النضج يمكن أن نقتلها ونوفر ما يكفي من الجلود لصنع سترة جلدية رائعة. هلا نظرت إلى جلد هذا الحيوان! إنه ممتلئ أكثر مما يبدو على جرو لا يزال يرضع".

قطّب شن حاجبيه. "لا أستطيع الاستمرار بإطعامه؛ إنه يأكل كثيرا. يلتهم وعاء كبيرا من عصيدة غنية باللحم كل يوم، ووعاء من حليب البقر".

– تعتبر مبادلة قليل من الدخن مقابل جلد ممتاز صفقة رابحة. في العام المقبل، عندما تخرج فرق الإنتاج بحثا عن بطون من جراء الذئاب حديثة الولادة، لن نقتل أيّا منها، ليس قبل أن تصل إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف حجمها.

قال الرجل العجوز باستهجان. "الأمر ليس بالسهولة التي تتكلم بها"، قال. "هذا الجرو أرضعته كلبة منذ البداية. أين يمكن أن تعثر على إناث كلاب تكفي لإرضاع كل جراء الذئاب التي تنوي تربيتها؟".

فكّر باو في ذلك مليا. "إنه رأي سديد"، قال.

التقط شن الجرو من جلد رقبته. كافح الجرو للتخلص، أخذ يرفس ويخمش في الهواء. عندما وضعه على الأرض اقترب باو منه وضربه على ظهره مداعبا. "لم ألمس ذئبا حيا من قبل قط. إنه لطيف وسمين. ممتع جدا".

– "شن زن"، قال أوليجي، "لقد أوليت كثيرا من العناية بهذا الجرو خلال ما يقرب من شهر، ذلك يبدو واضحا. الذئاب لا تكبر بتلك السرعة في البراري. كنت أفضل من أمه الحقيقية. علمت منذ مدة عن مدى تعلقك بالذئاب، وكيف أنك كنت تسأل الجميع دائما أن يخبروك بالأشياء التي يعرفونها عنها، لكنني لم أتصور أبدا أنك فعلا ستربي جرو ذئب في الأسر. أتساءل ربما تكون قد ذهبت بعيدا إلى حدٍّ ما في هذا الشأن".

حدّق بلغي إلى جرو الذئب. أطفأ غليونه، وشتت ما تبقى من سحب الدخان بيده. "لقد عشت زمنا طويلا"، قال، "وهذا هو أول ذئب أراه في الأسر. عليّ الاعتراف أنه يبدو في حال جيدة. بذل شن زن جهدا في عمله. لكن تربية ذئب في مكان قريب من قطيع خراف لا يبدو شيئا صائبا. لو سألت الرعاة فهم سيعارضون ذلك، من دون أي استثناء. ما دمتم الآن موجودين جميعا هنا، دعونا نسمع ما لديكم بشأن خطة الشباب هذه للقيام بتجربة علمية".

بدا أن الفكرة قد استحوذت على اهتمام باو شنغوي. "من المخجل أن نقتله الآن"، قال. "جلده ليس كبيرا إلى حدٍّ كاف ليجدي نفعا. لقد احتاج الأمر إلى جهد طويل لتربية جرو لم تفطمه أمه حتى بلغ هذا الحجم، إليكم ما أفكّر فيه. سنتركه في الوقت الراهن، ونخضعه لتجربة علمية. يقول الرئيس ماو، (نحن ندرس العدو لنقهره). أنا نفسي أرغب في معرفة أشياء أكثر عن الذئاب، سآتي من وقت إلى آخر على الدوام لأرى كيف تجري الأمور. يقولون إنك تخطط لاستيلاد سلالة من الكلاب الذئبية".

أومأ شن برأسه. "كنت أفكّر في ذلك، لكن بابا يقول إنه لا يمكن لهذا الأمر أن ينجح".

استدار باو نحو أوليجي. "هل سبق لأحد على السهوب أن حاول ذلك؟".

- "الرعاة يبجلون الذئاب"، أجاب. "إنهم لا يستخدمونها في استيلاد الحيوانات الهجينة".

- "إنــه شــيء يستحق المحاولة"، قال باو. "ستكون تجربة علمية حقيقية. إذا تمكنت من إنــتاج ســلالة من الكلاب الذئبية المنغولية ستحصل على نسل يمكن أن يجعل الكلاب الذئبية السيبيرية تبدو ضعيفة مقارنة بها. الذئاب المنغولية من أضخم الذئاب في العالم، وأكثرها ضراوة، وأي حيوانات هجينة تنجبها ستكون الأفضل. يمكن للجيش أن يهتم بشيء مثل هذا. إذا نجح هــذا الأمر لن نضطر إلى الذهاب إلى خارج البلاد لشراء كلاب لهم. وإذا حصل الرعاة على كلاب ذئبية منغولية لحراسة الخراف ربما تبقى الذئاب بمنأى عنها. لذلك إذا اشتكى أي واحد من الرعاة، قولوا لهم فقط إنها تجربة علمية. لكن لا تنسوا، السلامة أولا".

- "إذا قــال بــاو إن في وســعك أن تربــي جرو الذئب، عندها يمكنك أن تمضي في مسعاك"، قال أوليجي. "لكنني أحذرك، إذا حصل أي خطأ فأنت الذي ستتحمل العواقب. لا تــصعّب الأمور على باو. أعتقد أن هذا شيء خطير، وعليك أن تربطه بسلسلة من أجل أمان الناس والخراف".

- "صــحيح"، قــال باو. "لا تدعه يُلحق الأذى بأي شخص. إذا فعل ذلك سأقتله في موضعه".

كان شن يعاني من حالة عصبية بحيث إن قلبه كاد يثب إلى خارج صدره. "طبعا!"، قال. "لكن لدي رجاء. أعرف أن الرعاة لن يوافقوا، أرجو منك أن تساعدني في ما يتعلق بهم".

- "إنهم يستمعون إلى بلغي أكثر مني"، قال أوليجي.

- "آه"، تــنهد الرجل العجوز. "أخشى أن أكون قد قدت هذا الشاب إلى الضلال. عليّ أن أفعل شيئا ما، ما دمت أنا الذي اقترفت الخطأ".

تــرك الرجل العجوز عُدّة أدوات النجارة الخاصة به مع شن زن، وشدّ الثور إلى العربة، وتوجه عائدا إلى خيمته، تبعه باو شنغوي وأوليجي على صهوتي حصانيهما.

مثل أي شخص كان قد أنقذ مؤقتا لتوه من تنفيذ حكم بحقه، شعر شن باللهفة والإنهاك. جلس على الأرض بإعياء إلى جانب جحر جرو الذئب، وحمل العصا بذراعيه، أخذ يضغط بها على جسد الجرو بشدة بحيث التوى خطمه وكشّر عن أنيابه. سارع شن بفرك أذني الجرو من الخلف ليجعله يسترخي. فيما كان الجرو يغلق إحدى عينيه، ويطبق فمه نصفيا، وقد تدلى لسانه من الجانب، صار يدفع نفسه على يد شن. بعد ذلك تمطى، وصدر عنه أنين يوحي بالارتياح.

19

قاد باو شنغوي كلا من باتو، ولاسورنغ، وثلاثة صيادين آخرين، بالإضافة إلى يانغ كي وسبعة أو ثمانية كلاب كبيرة، في رحلتهم إلى أرض الرعي الجديدة. سارت عربتان تجرهما الأحصنة في أثرهم، وقد حُمّلت بأكداس عالية من الخيم، والذخيرة، ومستلزمات الطهي.

عندما وصلوا إلى قمة أحد الجبال التي تقع إلى الغرب من الأرض الجديدة، استطلع باو والصيادون الحوض والوديان العميقة التي تحيط به، والانحناءات التي يتخذها النهر والفروع التي تصبّ فيه، والسهوب الواسعة، من خلال المناظير المقربة؛ لم يكن هناك أي أثر لا للذئاب ولا للغزلان. لا شيء سوى البط، والإوز البري، واثنتي عشرة بجعة أو نحو ذلك على البحيرة.

كان أغلب الصيادين يشعرون باهتمام قليل لصيد الذئاب في ذلك اليوم من بواكير الصيف؛ لقد فتنهم منظر السهوب الزمرّدية الفسيحة التي تمتد بتناسق أخّاذ. شعر يانغ كي وكأنما عمل جمال المنظر على تغيير لون عينيه إلى خضراوين، وعندما نظر إلى الآخرين، رأى اللون ذاته في عيونهم، كأنها كانت عيون جميلة إلاّ أنها مع ذلك مرعبة لذئاب في ليلة من ليالي الشتاء. في الوقت الذي شقوا فيه طريقهم إلى أسفل المنحدر الجبلي المزدان بالعشب الأخضر، تشبّعت أنوفهم بالأريج الفواح للأعشاب الجديدة الذي حملته إليهم نسائم الهواء النقية، والندية. تلطخت حوافر الأحصنة ودواليب العربات باللون الأخضر، مثلها مثل نهايات أعمدة الأنشوطات التي كانت تحتك بالأرض. جاهدت الأحصنة للتخلص من شكائمها كي تبدأ بالرعي. كان الشيء الوحيد الذي أحب يانغ كي أن يراه هو ستارة الزهور التي وصفها له شن زن. لكن تلك الستارة من الزهور كانت قد ذبلت وتساقطت، تاركة منظرا بانوراميا أحادي اللون.

بدا باو شنغوي كما لو أنه قد عثر على منجم ذهب. "هذا موقع مذهل!"، صاح. "قرن وفرة وخصب[1] مصنوع من أحجار اليشب الكريمة. كان علينا أن ندعو كبار الضباط للمجيء إلى هنا لقضاء عطلة لبضعة أيام، يصطادون بعض البجع والبط، ويأكلون الطعام المشوي في العراء".

---

(1) قرن الوفرة والخصب: في الميثولوجيا الرومانية وهو قرن معزة يرمز للخصب مزدان بالفاكهة وسنابل الحبوب، وكان يستخدم عادة في الزينة والديكور، ويعتبر شعارا للوفرة والنماء الذي لا يمكن أن ينضب. (المترجم)

لم تعجب يانغ كي النبرة التي حملها ذلك الصوت، فيما كانت صورة *الأسود المجنح* الذي في باليه **بحيرة البجع**[1] تلوح أمام ناظريه.

انحـــدرت الأحصنة إلى أسفل سفح الجبل، وتجاوزت منحدرا سهلا. "انظر إلى يسارك"، قال باو شنغوي، محاولا أن يبقي صوته منخفضا. "هناك سرب من البجع في تلك الناحية. إنها منشغلة بالأكل. لنذهب ونصطاد واحدة منها". أشار إلى اثنين من الصيادين أن يتبعانه قبل أن يـــتمكن يانـــغ كي من إيقافهما. لذلك تخلف عنهم، بقي يفرك عينيه فيما كان يركض. فجأة كـــبح الصيادون سيور أعنة أحصنتهم، وأخفضوا بنادقهم. وصاحوا. أوقف باو شنغوي أيضا حصانه، وأخذ ينظر بوساطة منظاره. أسرع يانغ كي للقيام بالخطوة نفسها. لم يكن يستطيع أن يـــصدق ما رأته عيناه. كان الامتداد الفسيح للون الأبيض الذي ملأ عينيه قد تحول إلى بساط شاسع من نباتات الفاوانيا[2] العشبية. في الصيف الماضي كان قد رأى نباتات الفاوانيا على أرض المرعـــى القـــديم، كانـــت تشكل بقعا متناثرة هنا وهناك، لكنها لم تكن قط بمثل تلك الوفرة والكثافة. تخيل أنه كان ينظر إلى حقل تحولت فيه طيور البجع إلى زهور.

لم يكن باو شنغوي منـــزعجا مما رآه؛ على العكس من ذلك، فقد كان سعيدا. "رباه!"، هتف بصوت مرتفع. "لم أشاهد أبدا مثيلا لنباتات الفاوانيا الرائعة هذه. إنها أكثر جمالا من تلك الـــتي في حدائق بكين. تعالوا إلى هنا وانظروا إليها!". أسرع العديد من الرجال إلى هناك على صهوات أحصنتهم.

عندما وصل يانغ كي إلى الزهور كاد يغمى عليه. كانت هناك ثلاثون أو أربعون بقعة مـــن الـــزهور في أوج نضوجها وجمالها المتألق تشكل وفرة رائعة من جمال البرية على تربة خصبة غنية. امتدت الأجمات إلى ارتفاع بلغ ثلاث أقدام تقريبا. ذهب ليلقي نظرة عن قرب أكثر. كانت المدقات[3] متجمعة قرب بعضها بعضا مثل العناقيد، ويغطي الأوراق التويجية رذاذ من الماء، والزهور بدت أكثر رقة وتألقا من الفاوانيا الاعتيادية، وأكثر سخاء ورشاقة من الورود الصينية. لم يسبق لعالم الطبيعة أن وهب له من قبل مثل هذه الصورة الجميلة التي لا تشوبها شائبة.

شـــعر بـــاو شنغوي أيضا بتأثير السحر. "هذا شيء نادر حقا!"، قال معبرا عن استغرابه. "بأي سعر تعتقد يمكن أن تباع هذه في البلدة؟ سأرسل بعض هذه الشجيرات إلى كبار الضباط في الجيش، وأجعلهم يشاركون في هذا الانبهار. ليس لدى المسؤولين كبار السن اهتمام بالمال،

---

(1) بحـــيرة البجع: باليه شهير للموسيقار الروسي تشايكوفسكي (1840–1893م) عُرض للمرّة الأولى عى مسرح البولشوي 1877م. (المترجم)

(2) الفاوانيا: هو نبات ذو زهرات كبيرة حمراء أو قرنفلية أو بيضاء. (المترجم)

(3) المدق: عضو التأنيث في النبات. (المترجم)

لكنهم يعشقون الزهور الشهيرة. سيحتضنون هذه الزهور بقلوبهم. يانغ كي، أراهن أنه ليس لديكم زهور فاوانيا مثل هذه في بيوت الضيافة التي لديكم في بكين".

– بيوت الضيافة؟ لن تجد زهورا مثل هذه حتى في الحدائق الملكية.

استدار باو وقد بدت عليه السعادة إلى الصيادين. "هل سمعتم ذلك؟ هذه الزهور كنز حقيقي. احرصوا على أن تعتنوا بها. عندما نرجع إلى ديارنا، اقطفوا بعضا من فروع أشجار المشمش لإقامة سياج منها".

– ما الذي يحدث لو غادرنا المكان؟ سيأتي شخص آخر إلى هنا ويقطفها كلها.

فكّر باو شنغوي للحظة. "لدي خطة، لا تقلق".

بدا أن يانغ كان مهموما. "لا تحاول أن تنقلها وتزرعها؛ ستقتلها ليس إلاّ".

وصلت الأحصنة والعربات إلى أحد الانحناءات في النهر، وسرعان ما اكتشف الصيادون المكان الذي كانت الذئاب قد طوقت فيه مجموعات من الغزلان. لم يتبقَ هناك سوى هياكل عظمية، وقرون، وحوافر، ورقع من الجلد؛ حتى الجماجم كانت قد نظّفت من محتوياتها. "حصل أكثر من هجوم واحد هنا"، قال باتو مبديا رأيه. "كانت هناك الكثير من الذئاب. من خلال مقدار الفضلات التي تركتها يمكنني القول إنه حتى الذئاب الكبيرة في السن، والعرجاء منها قد شاركت في حملات الصيد هذه".

– "أين تعتقد أنها موجودة الآن؟"، سأل باو.

– أتصور أنها قد تبعت الغزلان نحو الجبال، أو ربما هي موجودة في مكان بعيد تصطاد المرموط. أو يمكن أن تكون قد تبعت الغزلان إلى الحدود. في هذا الوقت من السنة تركض الغزلان الصغيرة بسرعة مثل الكبيرة منها، مما يعني أن الذئاب تواجه متاعب اللحاق بها. وذلك هو السبب الذي جعلها تنظف حتى العظام.

– "الآن أنت ترى الجانب الإيجابي من الذئاب"، قال باتو موجها كلامه إلى باو. "لولاها، لكانت هذه الأرض العذراء ستتعرض للدمار بسبب الغزلان؛ ليس من خلال الرعي فقط، ولكن بسبب ما تخلفه وراءها أيضا. عندما تأتي خرافنا إلى هنا، فإذا ما شمت رائحة بول الغزلان لن تأكل العشب، ولا قضمة منه. هذه بقعة مثالية. حتى الأحصنة تريد البقاء. دعنا نعثر على بقعة ننصب فيها خيمنا حتى يمكن للأحصنة والكلاب أن ترتاح. سنذهب إلى الجبال غدا".

أعطى باو الأمر بعبور النهر، لذلك اختار باتو بقعة كان فيها الماء ضحلا وقاع النهر رمليا. ومن ثم، بعد أن صنع هو وبعض الصيادين مرتفعات ترابية على كلتا الضفتين بمجارفهم، قاد إحدى العربات عابرا بها النهر. في أثناء ذلك كان الصيادون الآخرون قد نصبوا خيمة على المنحدر الشرقي. طلب منهم باتو أن يجهزوا موقدا ويعدّوا قليلا من الشاي، ومن ثم قال لباو:

"ســأذهب لتفحص الوادي الذي إلى الجنوب. ربما أعثر على غزال جريح. لم يقطع الناس كل هذه المسافة إلى هنا لمجرد أكل اللحم المجفف الذي جلبناه معنا".

وافق باو بحماسة. فامتطى باتو وبعض الصيادين أحصنتهم، وتوجهوا إلى الجبل مصطحبين معهــم الكــلاب الكبيرة. اندفع بار وإيرلانغ، اللذان كانا قد اصطادا الغزلان في تلك المنطقة، راكضين في المقدمة، وقد ألحت عليهما غريزتاهما في الصيد.

كــان يانغ كي مأخوذا بمنظر طيور البجع التي كانت تسبح على سطح البحيرة بحيث إنه رفــض بتردد، وحتى بألم، فرصة الذهاب للاصطياد برفقة باتو، وذلك كي يتمكن من الجلوس علــى المنحدر، والتحديق نحو بحيرة البجع التي انبهر بها. من أجل أن يبقى وقتا طويلا يتأمل فيه البجع، كان قد ألح على باو شنغوي وبلغي لمدة يومين للسماح له بالمجيء قبل فرقة الإنتاج؛ قبل الناس، والأحصنة والمواشي جميعا. أراد أن يتمتع بجميع المزايا التي توفرها فرصة احتساء الشراب فــيما هــو مستغرق بمشاهدة جمال بحيرة البجع، وهي التي فاقت الوصف الذي ذكره شن زن بكثير. جلس على الأرض، وأخرج منظاره، وصار يراقب المنظر بينما كادت أنفاسه تنقطع من الانبهار. بينما كان جالسا وحيدا، مستغرقا بأفكار حالمة تناهى إلى سمعه صوت حوافر حصان قادم من خلفه.

- "هــاي!"، كان ذلك باو شنغوي. "أرى أنك تدرس البجع أيضا. دعنا نذهب، أنت وأنــا فقــط - سنصطاد واحدة منها، ونحصل على شيء طيب للأكل. الرعاة لا يأكلوا طيور المــاء، ولا حــتى الدجاج. حاولت أن أجعلهم يذهبون معي، لكنهم رفضوا. إنهم لا يريدون أكلها، ولكننا سنفعل".

اســتدار لــيرى باو وهو يحمل بندقيته شبه الأوتوماتيكية، وكاد أن يبول على نفسه من الفزع. أخذ يحرك ذراعيه، يتمتم بصوت متلعثم، "بجع... ثمين، مخلوقات نادرة... لا يمكنك أن تقتلها! أرجوك، أتوسل إليك، كنت أحب (بحيرة البجع) منذ صغري. خلال السنوات الثلاث العجاف، هربت من المدرسة ذات يوم وذهبت وأنا جائع وذلك كي أستطيع الوقوف في الصف حتى وقت متأخر من الليل فقط لأشتري بطاقة وأشاهد عرضا تقدمه فرقة مسرحية مشتركة من الراقصين الشباب السوفييت والصينيين. إنها حقا أوبرا جميلة. الناس المثقفون والرجال المهمّون في كــل مكــان يعشقون البجع، كيف نأتي إلى بحيرة بجع حقيقية فقط لنقتلها ونأكلها؟ إذا كنت تحتاج إلى أن تقتل شيئا ما، اقتلني أنا".

صــعق بــاو من لقاء شخص بمثل ذلك الجحود. حملق في يانغ، وقد تضاءلت حماسته. "(بحــيرة الــبجع): ما موضوع ذلك؟ كلام رأسماليين تافهين. أنت متخرج من مدرسة ثانوية، وتظــن أن ذلــك سيجعلك أفضل مني؟ لا يمكننا أن نعرض على خشبة المسرح (كتيبة النساء الحمراء) إلى أن نــزيح (بحيرة البجع) من طريقنا".

حيـــنما رأى لاسورنغ أن باو كان متوجها إلى البحيرة ومعه بندقية، أسرع محاولا اللحاق به على صهوة حصانه ليوقفه. "البجع طيور مبجلة، وُهِبت لنا. لا تستطيع أن تطلق النار عليها، لا يمكنك ذلك. إلى جانب هذا، أيها الرئيس باو، أنت تريد قتل الذئاب، أليس كذلك؟ حسنا، عندما تسمع الذئاب التي في أعالي الجبال صوت إطلاق النار ستولي هاربة، ونكون قد أتينا إلى هنا عبثا".

جعـــل ذلك القول باو يتوقف. شد سير عنان حصانه، استدار نحو لاسورنغ، وقال: "إنه شـــيء جيد أن تنبهني إلى ذلك، وإلا كنت قد فعلت شيئا غبيا". أعطى بندقيته إلى لاسورنغ، وبعدها عاد إلى يانغ كي. "تعالَ معي"، قال. "سنستكشف المنطقة التي حول البحيرة".

أسرج يانغ بتكاسل حصانه، وتبع باو. عندما اقتربا من البحيرة كانت أسراب من البط، والإوز البري، وأنواع مختلفة من طيور الماء تحوم في الهواء، وتساقطت قطرات ماء على رأسيهما بيـــنما طارت فوقهما. أمسك باو مقدمة سرجه، ووقف على الركاب لينظر إلى القصب بينما كان زوج من طيور البجع ينشر أجنحته، ويدفع برقبتيه إلى الأمام ويلامس أطراف القصب، مما جعـــل بـــاو يرتعب عندما مرا على ارتفاع لا يتجاوز عشر أقدام فوق رأسه. جلس في وضع صـــعب علـــى السرج مما أفزع حصانه الذي اندفع يعدو، وكاد يسقط راكبه أرضا. حلقت البجعـــتان بتكاســـل، لم تكن خائفتين على ما يبدو منهما، فوق الحوض، دارتا حول البحيرة، واختفتا خلف القصب.

اســـتعاد بـــاو السيطرة على حصانه، وعدّل وضع السرج. أخذ يضحك. "لا بد من أن تكون هذه أسهل بقعة على الإطلاق لاصطياد البجع. كل ما تحتاج إليه هو نقافة[1]. إنها أباطرة الطيور. قضمة واحدة من لحومها تجعل الحياة تستحق العيش. لكننا سننتظر إلى أن ننتهي من أمر الذئاب؛ وبعدها نرجع إلى هذه".

قال يانغ كي بتردد: "عندما رأيت زهور الفاوانيا تلك منذ قليل، قلت إنها كنـــز، وتحتاج إلى الحماية مهما كلف الأمر. إن طيور البجع تلك تعتبر كنوزا وطنية، كنوزا عالمية، إذا، لِمَ لا تحميها؟".

– "إنـــي رجـــل مزارع"، أجاب باو، "وأنا أنظر إلى الجانب العملي من الأمور. الكنوز أشـــياء يمكـــن للـــناس أن يضعوا أيديهم عليها. إذا لم تستطع ذلك فهي ليست كنوزا. زهور الفاوانـــيا لـــيس لها سيقان، لذا فهي لن تذهب إلى أي مكان. لكن طيور البجع لديها أجنحة، وعـــندما يصل الناس والمواشي ستطير إلى الشمال وينتهي بها الأمر لأن تصبح كنوزا تقلى على عَجل في قليل من الدهن بالنسبة إلى الثوريين السوفييت أو المنغوليين".

(1) الـــنقافة: عـــود على شكل حرف Y تشد إليه قطعة من المطاط لقذف الحصى، يستخدمها الأطفال في اصطياد الطيور. (المترجم)

– سيتعامل السوفييت معها بوصفها كنوزا؛ لن يقتلوها ويأكلوها.

– "لو كنت أعرف أنك إنسان غير مستنير"، قال باو بحدّة طبع، "لما أتيت بك معنا. انتظر وسترى. سأحول بحيرة البجع التي انبهرت بها إلى حوض تشرب منه الأحصنة والأبقار".

ابتلع يانغ الكلمات التي كان سيرد بها. كان يود لو انتزع بندقية، وأطلق النار في الهواء، وجعل طيور البجع تجفل، وتطير بعيدا عن السهوب، بعيدا عن البلاد بأسرها، وتشق طريقها حتى تصل إلى موطن الأمة التي أبدعت باليه (بحيرة البجع). ذلك هو الموضع الذي يمكن أن تجد فيه بشرا يحبّون البجع، هكذا دار في ذهنه. كيف يمكن لأرض هذه الأمة، التي تؤكل فيها حتى العصافير التي أشرفت على الانقراض، والتي لم تترك شيئا لا تأكله سوى ضفادع الطين، أن تكون موطنا للبجع؟

أشار لاسورنغ إليهما بضرورة الرجوع، فانطلقا مسرعين عائدين إلى المخيم، حيث كان سانجاي، الذي جاء من الجبال في ناحية الجنوب الشرقي، يشدّ الأحصنة إلى عربته. لقد أطلق باتو وفريقه النار على خنازير برية في أعالي الجبال، وأرسلوه كي يأتي بعربة لتحميل الطرائد ونقلها إلى المخيم. أخبروه أن يصطحب معه الرئيس باو عندما يرجع بالعربة. لم يتمكن باو من السيطرة على ابتهاجه. لطم ساقه. "أتقول لي إن هناك خنازير برية للأكل هنا على السهوب؟ تلك مفاجأة حقا. إنها أفضل في طعمها من خنازير المزارع. هيا لنذهب". كان يانغ قد سمع عن صيادين يقتنصون خنازير برية، لكنه لم يشاهد خنزيرا واحدا منذ المجيء إلى السهوب. لذلك امتطى هو وباو صهوتي حصانيهما، وانطلقا بالاتجاه الذي أشار إليه سانجاي.

شاهدا المكان الذي كانت الخنازير البرية قد حفرت فيه الأرض قبل أن يقتربا من باتو. بدت هكتارات من التربة الخصبة قرب أحد الجداول، عند قاع الجبل، وفي الوادي، كما لو أن ثورا خرج عن السيطرة قد حفرها. كانت الأعشاب الطويلة الغليظة، وأوراق النباتات الكبيرة قد التُهمت، مما ترك المنطقة التي حولها مكسوّة بأوراق جافة وأعواد من القصب؛ دفنت مساحة كبيرة من الأرض الخضراء تحت الوحل. بدت أرض الرعي الآن وكأنها بقعة مزروعة بالبطاطا كانت الخنازير قد أطلقت إليها. اعترى باو شنغوي الغضب مما رآه. "تلك الخنازير البرية اللعينة تمثل خطرا يهددنا! إذا زرعنا المحاصيل هنا ذات يوم يمكنها أن تُلحق بها الخراب".

تباطأت خطوات الحصانين، وكأنما كانت تشعر بالخجل من المنظر في الوقت الذي اقتربت فيه من باتو، الذي كان جالسا عند قاع الجبل ينفث دخان غليونه. أخيرا، ترجل الرجلان وشاهدا زوجا من الجثث التي لم تُمسّ بجانب باتو؛ بينما كان هناك زوج آخر منها قد مزقته الكلاب، التي كانت ممدّدة على الأرض، وهي تأكل بشراهة. كان إيرلانغ وبار يستمتعان بأكل قائمة خنزير. بدت الخنازير البرية التي إلى جانب باتو أصغر من خنازير المزارع مكتملة النمو، حيث لم يتجاوز طولها أكثر من ثلاث أقدام، ويغطي أجسادها شعر خشن شائك في بقع

متناثـــرة. كانـــت أحجام خطومها ضعف أحجام خطوم خنازير المزارع. تميزت بكونها سمينة، وذات أنياب معتدلة في طولها، ولم يظهر أن منظرها مخيف بشكل محدد. كانت هناك علامات تركتها الأنياب على عنق كل واحد منها.

أشـــار باتـــو إلى الوادي. "لقد التقطت الكلاب رائحة الذئاب، وطاردت الخنازير البرية طـــوال الطريق وصولا إلى ذلك الوادي، حيث كانت الأرض مليئة بالحفر والمرتفعات الترابية. رأيـــنا جـــثث ثلاثة أو أربعة من الخنازير البرية التي قتلتها والتهمتها الذئاب، وتوقفت الكلاب هـــناك، لم تكن تريد أن تستمر في مطاردة الذئاب. بدلا من ذلك أخذت تتبع رائحة الخنازير الـــبرية إلى أسفل الوادي، مما أفزع مجموعة من الخنازير الصغيرة وجعلها تخرج. الخنازير البرية الكبيرة ذات أنياب حادة، وتركض مثل الريح. ما كانت الكلاب لتعدو وراءها، ولم أجرؤ على إطـــلاق الـــنار عليها، لأنني لم أرغب في أن أُحذر الذئاب. لاحقا قتلت الكلاب هذه الخنازير الـــصغيرة، لـــذلك فقد تركتها تأكل خنـــزيرين تعرضا للنهش أكثر من غيرهما. والخنـــزيران الآخران هما من حصتنا".

وضع باو شنغوي قدمه على أحد الخنازير البرية الميتة. "إنه عمل جيد"، قال وهو يبتسم. "لحـــم هـــذا الخنـــزير الصغير سيكون طيبا وطريا، ولذيذا. سأستضيفكم جميعا لتناول بعض الـــشراب الجيد هذه الليلة. على ما يبدو، هناك ذئاب تحوم حول هذا المكان، ربما تكون فكرة جيدة لو خرجتم أيها الرجال غدا، واصطدتم بعضا منها".

– "هذه الخنازير البرية جاءت من غابة على بعد مئات الأميال من هنا"، قال باتو، "حيث يـــوجد الكـــثير منها. لقد تبعت مجرى النهر حتى وصلت إلى هنا. لولا الذئاب، لدمّرت هذه السهوب منذ مدة طويلة".

توقفت عربة سانجاي، وقاموا بتحميل الجثث. أشار باتو إلى الرجال كي يتركوا الكلاب تـــستمر في الـــتهام فرائـــسها بيـــنما عاد الصيادون مع العربة، ولأن النار كانت قد أضرمت وأصبحت جاهزة للطهي في الهواء الطلق في الوقت الذي عادوا فيه إلى المخيم، فقد بادروا على الفـــور إلى إخراج أحشاء الذبيحة الأضخم حجما، وسلخ جلدها، وتقطيع لحمها. قبل مضي وقت طويل، ملأت الهواء رائحة اللحم المشوي العبقة. اقتفى يانغ كي أثر باو في ما كان يفعله، فأخـــذ يلفّ بعض شرائح اللحم الطرية في طبقة من الشحوم، مما بعث أصوات أزيز عالية فيما كانـــت الشرائح تشوى على النار، وفاحت رائحة مغرية تفوق أي شيء يعرفونه عن حيوانات المزارع. في الوقت الذي عمل فيه الآخرون على تحضير الحيوان للطهي، قطف يانغ بصلا وثوما وجاراثـــا مـــن البرية؛ لقد تعلم الطريقة البدائية في شواء اللحم في الهواء الطلق على السهوب، وتتبـــيله بالنـــباتات البرية، وكان يشعر بالفخر بنفسه كثيرا. بعد أن رأى طيور البجع وزهور الفاوانيا العشبية قبل أن يحظى شن زن بمثل تلك الفرصة، وبعد أن تعلم كيف يشوي الصيد في

العـــراء علـــى الـــسهوب، فقد أضحى في وسعه، عندما يرجع إلى خيمتهم، أن يتفاخر قليلا بمشاهداته النادرة، والطعام الذي يجعل اللعاب يسيل.

أما بالنسبة إلى باو شنغوي، عندما استضاف الصيادين لتناول شراب طيب، فقد حاول أن يـــبهجهم بـــسرد حكايات عن الولائم الفخمة التي كانت فيها طيور البجع تُقدّم ضمن أطباق الطعـــام. كانـــوا يهـــزّون رؤوسهم، وسرعان ما فقدوا أدنى اهتمام. لم يكن الصيادون سوى مخلوقات أرضية، ما داموا يبجلون أي شيء يستطيع أن يطير إلى تينغر.

عادت كلاب الصيد إلى المخيم للقيام بدورية حول المنطقة. بعد أن أكل الرجال وشربوا ما يكفيهم، نهضوا ووضعوا ما تبقى من الخنـــزير البري داخل حوض معدني يستخدم للغسل. في ما عدا القلب والكبد، ورموا الأحشاء والرأس بعيدا على الأرض المعشوشبة لتأكلها الكلاب في وجبتها التالية.

* * *

قبل هبوط الليل تماما، ذهب يانغ كي بمفرده إلى بقعة يمكنه منها أن يراقب ما الذي كان يجـــري علـــى بحيرة البجع التي اعتبرها خاصة به. جلس على الأرض، وقد وضع مرفقيه على ركبتيه، ومن خلال منظاره تشبعت عيناه بمنظر من المحتمل أن يختفي قبل انقضاء زمن طويل.

ظهـــرت تموّجات على سطح البحيرة، وعكست، تلك التموّجات التي في جهة الغرب، الـــزرقة الـــباردة لسماء الليل، بينما عكست، تلك التي في جهة الشرق، ألوان الغروب الدافئة. انتـــشرت الـــتموجات علـــى نحو بطيء، دوائر متّحدة المركز اصطبغت بلون العقيق الأحمر، والأخـــضر الزمـــردي، والأصفر شبه الشفاف؛ بعد ذلك ظهر لون الأرجوان البلوري، وزرقة الياقوت، وبياض اللؤلؤ، وتناوبت الألوان في البرودة والدفء، تدرجات لونية ذات نوع يوحي بالـــسموّ. بدا المنظر الذي امتدّ أمام ناظريه وكأنه يعبر عن مرثاة حزينة لموت البجع، ومع ذلك فهـــو موت لا يخلو من السحر. لقد أرسل تينغر تلك الأضواء الجميلة، بكل معنى الكلمة، إلى الأرض لترافق مشهدا استهلاليا يصور رحيل بجعاته المحبوبة من المياه الصافية.

اســـتمرت الـــتموّجات في زحفها البطيء، كأنها عرض لمسرحية تراجيدية يكاد الجمهور الـــذي يشاهدها ألا يتحمل رؤية معاناة الممثل الذي يؤدي الدور الرئيسي. تمنّى يانغ أن يحافظ البالـــيه الـــذي كان على وشك الافتتاح على خلفيته الطبيعية، وألا يظهر الممثل الرئيسي على خشبة المسرح. لكن من وسط القصب الأخضر الذي بلون الحبر انسابت بجعة بعد الأخرى إلى مـــياه البحيرة، التي شكّل سطحها متعدد الألوان ومظلة السماء التي من فوقها مسرحا ضخما. كانـــت طيور البجع قد بدّلت لون ردائها الذي اتخذ لون المساء الضارب إلى الزرقة، مما حوّل الـــبقعة صـــفراء اللـــون التي على تيجان رؤوسها إلى لون أرجواني بارد. بدت رقابها الرشيقة المنحنـــية، كمـــا لو أنها تشكل علامات استفهام براقة، تستجوب الأرض، وتستجوب المياه.

وتستجوب الناس، وتستجوب جميع المخلوقات الحية التي على الأرض. كانت تتحرك بصمت، وبعدها انتظرت أن تتلقى الأجوبة. لكنها لم تحصل على شيء. بهتت التموّجات المنعكسة على السطح قليلا، وتحوّلت إلى علامات استفهام خاصة بها، إلى أن مزقها نسيم تمادى من وسط ضوئي تخلل الموجات الضئيلة.

فكّر يانغ في أن أحدا لن يستطيع الإنكار أنه هو وشن كانا أوفر صينيي الهان الأحياء حظا. لو كانت قوة وحكمة الذئاب البهيمية، بشكل أو بآخر، أكثر شدة ربما أمكنها أن تؤخّر توسع الناس ومواشيهم، وانتهاكهم لحرمة السهوب. لقد استمد ذلك التوسع قوته المحركة من مجتمع من الفلاحين الصينيين الذين فاقت نسبة نموهم السكاني الوصف وخرجت عن نطاق السيطرة. شعر يانغ بتأثر عميق وحزن لا تُسبر أغواره. وكان يشعر أيضا بامتنان عميق للذئاب. سيشكل اندحارها الوشيك أول علامة على اندحار السهوب، واندحار مفهوم الإنسان عن الجمال. شوّشت الدموع عدسات منظاره. ذبلت الصورة النقية، بكل ما في الكلمة من معنى، لبحيرة البجع بشكل بطيء متلاشية أكثر مع امتداد المسافة...

* * *

في اليوم التالي ذهب الصيادون إلى أعالي الجبل، وبحثوا في الوديان واحدا تلو الآخر، لكنهم عادوا عندما لم يعثروا على شيء. في اليوم اللاحق توغلوا إلى مسافة أبعد؛ في غضون ما بعد الظهيرة كان الإعياء قد أصاب الرجال والأحصنة. بعد ذلك تناهت إلى سمع باو شنغوي، وباتو ويانغ كي فرقعة إطلاق نار من مكان بعيد. استداروا مثل رجل واحد نحو الاتجاه الذي تردّدت منه الضوضاء، واكتشفوا زوجا من الذئاب على حافة مرتفع صخري إلى الشرق. كان الذئبان يركضان ويتعثران متجهين نحو قمة الجبل، وحين اكتشفا وجود رجال في ذلك المكان أيضا ارتدا على أعقابهما، وركضا ملتفين حول نتوء صخري. وجّه باتو منظاره إلى تلك البقعة. "القطيع الرئيسي للذئاب رحل منذ زمن طويل"، قال. "هذان الذئبان تخلفا وراء القطيع لأنهما عجوزان بحيث لم يتمكنا من اللحاق به".

– "ومن يبالي؟"، قال باو وقد استبدت به الإثارة. "سواء أكانا صغيرين أو عجوزين، إن قطعتين من جلد هذين الذئبين تعني النصر، من أي زاوية نظرت إلى الأمر".

فيما انطلق يجري وراء الذئبين. تمتم باتو: "كيف غابت عن ذهنه حقيقة أنهما لم يُسقطا عنهما فراءيهما القديمين اللذين لا يزالان يغطيان النصف الخلفي من جسديهما؟ يا له من شيء مخجل".

أسرع الصيادون والكلاب يتسلقون الجبل من اتجاهين. كان أحد الذئبين ضخما، والآخر أصغر حجما. بدا أن الذئب الأضخم منهما لم يكن يستطيع أن يمدّ قائمته الأمامية باستقامة وهو يركض، مما يعني أن أوتارها العضلية ربما تكون قد تقطعت بسبب عضة كلب خلال المعركة السابقة. أما الذئب الثاني فقد كان أنثى عجوزا، نحيلة بحيث نتأت عظام جسدها، ذات

فرو رمادي اللون بسبب التقدم في السن. حينما رأى بار، وإيرلانغ، وكلاب الصيد الأخرى كيف كان الذئبان عجوزين وكسيحين، تباطأت حركاهما. وتوقفت الكلاب جميعها ما عدا كلب ذكر صغير، استمر يركض؛ أراد أن يسبق الآخرين، انطلق بمفرده بأقصى سرعة، متجاهلا ما يمكن أن يحصل له.

ركض الذئبان إلى منطقة كان سطحها متفككا بسبب العوامل الجوية مما أحدث تضاريس معقدة من طبقات صخرية بارزة فوق سطح الأرض، متخلخلة وقابلة للتكسر. جعلت كل خطوة من خطواهما الصخور تتفتت وتتساقط مصحوبة بالضوضاء على سفح الجبل. كان التحرك عليها صعبا للغاية بالنسبة إلى الأحصنة، ترجّل الصيادون عن صهواها، وقد حملوا بنادقهم وأنشوطاهم بأيديهم، وتقدموا رويدا رويدا من ثلاثة اتجاهات.

اندفع الذئب الذكر مسرعا نحو أحد المرتفعات التي تطل على هاوية سحيقة، كانت مساحة الحافة الصخرية التي وقف عليها تماثل مساحة طاولتين تقريبا، ثلاثة جوانب منها عبارة عن جدران من الصخور؛ كان المجال الوحيد المتاح للهرب هو منحدر حادّ يؤدي إلى أسفل الجبل. لذلك تراجع الذئب مستندا إلى أحد الجدران الصخرية، انبعث بريق عنيف حاد من عينيه النديتين، استنشق الهواء بعمق، وحضّر نفسه لخوض قتال من أجل الإبقاء على حياته. شكّلت الكلاب شبه دائرة، كانت تزمجر وتنبح، لكنها بقيت متراجعة، خائفة أن تزلّ أقدامها وتسقط من أحد الجوانب. بعدها وصل الصيادون. انتابت باو فرحة مما رآه. "لا يتحرك أحد منكم"، قال. "راقبوني!"، انتزع الحربة من بندقيته، دسّ رصاصة في بيت النار، وتسلق الجبل ليتمكن من التصويب جيدا.

لكن ما إن وصل إلى الخط الذي اصطفت عنده الكلاب حتى وثب الذئب من حافة المرتفع فسقط على منحدر تخلخلت صخوره وتفتت، صار يحفر ببراثنه، ويمطّ جسده على الأرض الصخرية كي ينزلق، حمله دفق من الصخور المتهاوية على عجل إلى أسفل الجبل. وفيما كانت الصخور المتناثرة ترتطم بجسده ابتلعت الذئب سحابة من الرمال رمادية اللون بسرعة، ودفنت جسده تحتها تقريبا.

مشى الرجال بحذر وتوجّس صاعدين إلى قمة المرتفع الصخري ونظروا إلى تحت. عندما تلاشت سحابة الغبار لم يكن هناك من أثر للذئب يمكن رؤيته في أي مكان. "ما الذي جرى بالضبط؟"، سأل باو موجها كلامه لباتو. "هل مات أم استطاع الهرب؟".

- "ما الفرق في ذلك؟"، قال باتو بصوت يشي بالاكتئاب. "أيا كان الذي حدث، لن تحصل أبدا على جلد الذئب".

انتصب باو واقفا هناك من دون أن يتفوه بشيء. ثم تعالت أصوات نباح مستمرة من الكلاب التي كانت تحرس فتحة الكهف مما بعث الانتعاش في آماله. "لا يزال هناك ذئب آخر"، قال. "لنرجع إلى هناك! بشكل أو بآخر، يبدو أننا سنصطاد ذئبا هذا اليوم".

وصـــل فريق الصيادين إلى الكهف الذي كان قد تشكل بفعل التآكل، وهو بمثابة ملجأ لأنواع مختلفة من حيوانات السهوب. استطاعوا أن يروا فضلات جافة على كثير من الصخور. حـــكّ باو شنغوي رأسه فيما كان يتفحص الكهف. "اللعنة!"، قال. "إذا حاولنا أن نحفر كي نخـــرجه ربما يحصل انهيار، ولا يمكننا أن نجبره على الخروج بالدخان، لا بدّ من أن هناك الكثير من الأماكن التي يتبدد منها الدخان. هل لديك فكرة ما، باتو؟".

تفحـــص باتو الكهف مستخدما عمود أنشوطته. سمع صوت صخور تتحرك. هز رأسه نفـــيا. "ليس هناك ما نستطيع أن نفعله. الشيء الوحيد الذي سينتج عندما تتحرك الصخور هو أنها ستتهاوى على رؤوسنا وعلى الكلاب".

- "كم هو عمق الكهف؟"، سأله باو.

- "ليس عميقا". أجاب باتو.

- "إذا، أقترح أن نجعله يخرج بالدخان"، قال باو. "أنتم أيها الرجال اجمعوا بعض الحطب. بعد أن نـــشعل النار نقف فوق أي فتحة يخرج منها الدخان. لقد جلبت بعض الفلفل معي. ذلك من شأنه أن يجعل الذئب يخرج. هيا، الآن، جميعكم! سيبقى يانغ كي معي للمراقبة هنا. إذا لم يستطع فريق صيد يضم أفضل الصيادين أن يقتنص ذئبا بعد ثلاثة أيام من المحاولة سنغدو أضحوكة".

تفـــرق الـــصيادون للبحث عن أغصان جافة لإضرام النار، تاركين باو ويانغ عند مدخل الكهف. "هذه أنثى ذئب عجوز ومريضة، إنها نحيفة مثل سياج متهالك. ليس لديها الكثير من الـــوقت لتعـــيش، ذلك شيء مؤكد. إلى جانب ذلك، فإن الفرو الصيفي الذي يغطي جسمها رقيق، ولن يهتم مركز التسوق به. أقترح أن نتركها تذهب وشأنها"، قال يانغ.

مقت وجه باو. "أقول لك الحق: الناس ليسوا أندادا للذئاب. لقد توليت قيادة الجنود في المعـــارك، و لم يكـــن هناك أي ضمان على الإطلاق من احتمال أن يحصل هروب أو تمرد في الـــصفوف. لكن لماذا يفضل الذئب أن يموت بدلا من أن يخرج من ذلك الكهف؟ لست خائفا من أن أعترف أن ذئاب أولونبولاغ جنود رائعة، حتى الجرحى منها، والعجوز، والإناث يمكنها أن تجعـــل الرجل ينتفض رعبا. لكنك تقول لي إن لا أحد قد يرغب في شراء جلد صيفي، مما يثبت لي أن هناك أشياء لا تعرفها. هناك في المكان الذي انحدرت منه، لا أحد يستخدم جلدا ذا فـــراء سميك مثل البطانية، فليس في وسعك منع الأنف من التهيج وأنت تكاد تصاب بالاختناق من الحرارة عندما تنام. المعطف الخفيف هو من الأشياء التي يفضلها أي شخص هناك. لا تحاول أن تجعلني ليّن العريكة الآن. في الحرب، إمّا هم أو نحن. يجب أن تحشر عدوك في زاوية، ومن ثم تبادر، وتقتله، ليس هناك مكان للرحمة".

تسلق باتو وبعض الرجال الآخرين حاملين معهم حزما من الأغصان الجافة؛ جاء لاسورنغ وفـــريقه وكل منهم قد أمسك حواشي مئزره، التي كانوا يحملون في داخلها الأغصان الجافة.

كوّم باو الأغصان التي سيُضرم فيها النار عند مدخل الكهف وأشعلها، في الوقت الذي انحنى فيه الصيادون إلى جانب النار، وأخذوا يلوّحون بحواشي مآزرهم ليُدخلوا الدخان في فتحة الكهف. اندفع الدخان الكثيف إلى داخل الكهف وبرز إلى الخارج من بين الثغرات التي في الصخور. بدأ الصيادون يسدون الفتحات بالأغصان الجافة. كان مشهدا مشحونا بالنشاط المسعور رافقته أصوات السعال، فيما تصاعدت سحب الدخان من ثغرات كانت تقل أكثر فأكثر.

ألقى باو شنغوي قبضة يد من الفلفل شبه الجاف إلى داخل النار، مما أرسل سحبا من الدخان اللاذع اندفعت إلى داخل الكهف؛ وقف الرجال وكلابهم عكس اتجاه الريح. صار الكهف مثل فتحة مشبكة لفرن هائل، وسرعان ما غمره الدخان الممزوج برائحة الفلفل المحروق. ترك الصيادون فتحتين صغيرتين غير مسدودتين ليخرج منهما الدخان. عندما تناهت إلى أسماعهم أصوات سعال الذئبة العجوز من داخل الكهف، تشبث الصيادون بعصيّهم، كانوا على أهبة الاستعداد للهجوم؛ واستعدت الكلاب أيضا للانقضاض. ازداد السعال وضوحا. لكن لم تظهر أي علامة للذئبة. كان يانغ كي يسعل بصوت مرتفع بحيث سالت الدموع على وجهه. "لا أستطيع أن أصدق قدرتها على التحمل"، قال. "حتى التهديد بالموت لا يمكن أن يجعل إنسانا يبقى هناك داخل الكهف".

فجأة، انزلقت الصخور فتساقطت إلى مسافة ثلاث أقدام أو أكثر، مما فتح ثغرات في ما بينها، واندفع الدخان خارجا من خلالها، وقبل أن ينقضي وقت طويل تصاعد الدخان من كل حدب وصوب. كانت العديد من الصخور الكبيرة الصلدة قد تخلخلت وتهاوت إلى أسفل الجبل، وأوشكت أن ترتطم بالصيادين الذين كانوا يهيجون ألسنة اللهب. "الكهف يتهاوى"، صاح باو. "ابتعدوا عن الطريق!".

توقف السعال داخل الكهف، ولم تسمع أي حركة. تصاعدت سحب الدخان الممزوجة بالفلفل متماوجة باتجاه السماء بدلا من أن تدخل إلى الكهف. "يبدو أنك خسرت مجددا"، قال باتو لباو. "كنت تواجه ذئبة انتحارية. لقد عملت الذئبة على خلخلة الصخور التي حولها ودفنت نفسها. لن تمنحك حتى جلدها".

- "ابدأوا بإزاحة الصخور!"، زعق باو بغضب. "سأحفر، وأخرج تلك الذئبة من هناك حتى لو كان ذلك آخر شيء أفعله في حياتي".

بعد أن كان الصيادون قد أمضوا أياما متواصلة في العمل المضني، مكثوا جالسين في أماكنهم. تناول باتو علبة سجائر ووزعها عليهم. عندما قدّم سيجارة لباتو، قال له: "الجميع يعرف أنك لا تصطاد الذئاب من أجل جلودها، ولكن لتستأصل ما تعتبره وباء. لقد ماتت الذئبة، حصلت على ما جئت من أجله، صحيح؟ هناك عدد قليل جدا منا موجودون هنا، وربما نحفر حتى يوم الغد ومع ذلك لن نصل إليها. نحن نشهد على حقيقة أنك قدت فريقا للاصطياد

ضـــد قطيع من الذئاب، وقتلت ذئبين كبيرين منها، وجعلت واحدا يسقط من أحد المرتفعات، والآخر يختنق داخل كهف. ولا تنسَ، فإن جلود الصيف لا تساوي شيئا كثيرا". توقف، ونظر حوله، وقال: "هل توافقون جميعا على ذلك؟".

أجابـــوا بالموافقة. أما باو، الذي كان منهكا مثله مثل أي واحد منهم، فقد سحب نفسا من سيجارته وقال: "حسنا، سنرتاح قليلا، ثم نرحل من هنا".

وقـــف يانغ كي مذهولا أمام كومة الصخور، كما لو أن صخرة منها قد سقطت عليه، وجعلت روحه تخرج من جسده. بدا وكأنه كان على وشك أن يجثو على ركبتيه ويقدّم فروض التبجيل للمحارب المنغولي الذي كان في الداخل، لكنه لم يفعل شيئا سوى أن يبقى واقفا هناك بثبات. أخيرا، استدار وطلب من باتو أن يعطيه سيجارة. بعد أن سحب أنفاسا قليلة منها، رفع الـــسيجارة فـــوق رأســـه بيديه معا، وانحنى باتجاه كومة الصخور، ثم دسّ السيجارة بوقار بين صـــخرتين، تـــشكلان جزءا من كومة صخور تكلل قبرا له معالم واضحة لا يمكن أن تزول. تصاعد دخان خفيف في الهواء، مصطحبا معه روح الذئبة العجوز.

وقـــف الصيادون لكنهم لم يضعوا أعواد بخورهم على النصب التذكاري. كان المنغوليون يعتـــبرون السجائر المشتعلة عنصرا ملوثا؛ لم يعتد أي منهم على تقديم فروض التبجيل... لكنهم لم يشعروا بالضّيق من عمل يانغ كي الذي كان من ورائه قصد نبيل، حتى لو كان ملوثا. بعد إطفاء سجائرهم، انتصبوا واقفين ونظروا عاليا إلى تينغر؛ بالرغم من أنهم لم يقولوا شيئا، إلا أن النقاء الذي ارتسم في عيونهم المحدّقة كان يعمل على تسريع رحيل روح الذئبة العجوز أسرع مما فعلـــت سيجارة يانغ. حتى باو امتنع عن الاستمرار في تدخين سيجارته، التي ظلت تحترق حتى وصلت شعلتها إلى أصابعه.

- "الـــيوم شـــاهدت شـــيئا جديـــدا"، قال باتو لباو شنغوي. "كان المقاتلون في جيش جنكيـــزخان مـــثل هـــذين الذئبين، يختارون طريقة للموت تقتل عدوهم. أنت سليل أسلافنا المنغوليين، جذورك تمتد هنا في أعماق السهوب، وينبغي لك أن تُبدي فروض الاحترام لمعتقداتنا المبجلة".

تنهّد يانغ كي بشيء من الانفعال. "يمكن للموت أن يمثل عرضا لمظاهر القوة"، قال. "رمز الذئب قد عزّز استعدادا للتضحية بالحياة لدى أعداد لا تحصى من المحاربين المنغوليين. هل تذوي روح الناس بعد فناء الذئب، ذلك المعلم الرائع الذي يتسم بالضراوة؟".

كـــان فريق الصيد قد وصل تقريبا إلى الخيمة عندما قال باو شنغوي لباتو، "اذهب قبلي. اغـــلِ قلـــيلا من الماء. سأذهب لاصطياد بجعة، وأستضيفكم جميعا لتناول بعض الطعام الطيب والشراب اللذيذ".

- "أيها المدير باو"، أجاب يانغ، "لا تقتل واحدة من تلك البجعات".

- "لا بد لي من ذلك"، قال باو من دون أن ينظر إلى الوراء. "تلك هي الطريقة الوحيدة للتطهر من سوء الحظ الذي رافقني خلال الأيام القليلة الماضية هذه".

تبعه يانغ كي محاولا أن يتكلم معه ويثنيه عن قراره، لكن حصان باو كان أسرع بكثير. كانت طيور ماء، وإوز بري، وبط تحوم على ارتفاع منخفض فوق صفحة الماء، غير مكترثة بالرجل الذي امتطى صهوة حصانه، وشهر بندقيته. طارت سبعة أو ثمانية من طيور البجع الكبيرة في الهواء، كأنها سرب من الطائرات تقلع بعد الظهيرة، لكن أجنحتها كانت ترفرف برشاقة في الهواء؛ ألقت ظلالا هائلة على رأس باو شنغوي، الذي أطلق الرصاص ثلاث مرات قبل أن يتمكن يانغ من امتطاء صهوة حصانه. سقط طير أبيض اللون كبير على الأرض قبالة يانغ، مما جعل حصانه يجفل، حيث ارتد إلى الوراء، وألقى براكبه على العشب الرطب عند ساحل البحيرة.

كانت البجعة تنزف بشدة. لقد شاهد يانغ مرات كثيرة مشهد الموت الذي في نهاية الباليه، لكن لم يكن هناك من أثر للسموّ، لم يكن هناك من أثر للجمال الذي يرافق حتى التأوهات مثل هذه التي يشاهدها متزامنة مع موت الطائر الآن. كانت قائمتا مثل قائمتي إوزة عادية كسرت رقبتها، تهتز بعنف وقد تشنجت، وانثنت أجنحتها، وداست عليها بشكل أخرق بينما كانت تحاول عبثا أن تصحح وضعها؛ ومع ذلك فقد ظلت إرادة الحياة قوية في روحها، حتى عندما كانت حياتها تنسل من جسدها إلى مكان بعيد. تسللت الدماء من الجرح الذي اخترقته الرصاصة على صدرها الذي ببياض الثلج. ركض يانغ مسرعا، وحاول أن يمسك بها، لكنها تملصت من متناول يده مرة بعد الأخرى...

أخيرا، استطاع يانغ أن يلف ذراعيه حول البجعة. كانت بطنها الرقيقة لا تزال دافئة، لكن الرقبة ذات المنظر الخلاب فقدت قدرتها على تشكيل علامة استفهام؛ صارت حينذاك أشبه بأفعى تتعلق بشكل هزيل في رسغه. رفع رأس البجعة برقة. تجمّدت صورة سماء زرقاء مشوبة بالسواد في عينيها المفتوحتين، كما لو أنها كانت تحملق بغضب في تينغر. عكّرت الدموع المترقرقة رؤية يانغ؛ مخلوق متسامٍ، مفعم بالطهر والنقاء، كان يحلّق بحرية، وانتهى به الأمر لأن يصبح مثل دجاجة عادية، وقد قتله إنسان.

لم يستطع يانغ أن يسيطر على حزنه. راودت ذهنه في الواقع فكرة أن يغطس في الماء، ويسبح حتى يصل إلى القصب ليعلن الإنذار وسط طيور البجع الأخرى.

في تلك الليلة، عندما بهتت التموّجات اللونية الأخيرة لوهج الغروب، لم يرافق باو شنغوي سوى قدر تحتوي على بجعة مسلوقة؛ لم يتكلم معه أحد. لقد أكل الصيادون لحم حيوان برّي مشوي؛ كان الارتعاش يدبّ في أوصال يانغ كي كلما التقط شيئا من اللحم بسكينه.

تصاعدت إلى السماء فوق سطح البحيرة، أصوات حزينة كانت تصدر عن البجع طوال الليل.

* * *

استيقظ يانغ في منتصف الليل على نباح كلاب شبيه بعواء ذئب. ثم توقفت الكلاب عن النباح، وتناهت إلى سمع يانغ أصوات نواح خافتة، نائية، ومتقطعة؛ توحي بالتوحش، والذبول، والاختـــناق. كانت القشعريرة التي تبعث الكآبة في النفس للنباح تحفر لها خندقا عبر أعماقه. لم يمـــت الـــذئب العجوز الذي قفز من فوق النتوء الصخري على كل حال؛ بعد أن زحف حتى انتـــصف الليل، وتعرض لجراح جسيمة، نجح في الوصول إلى قمة الجبل وكان، بلا أدنى شك، يـــنوح أمـــام الـــبقعة التي دفنت تحتها أنثاه، صوت فؤاد مفجوع، صوت روح ملتهبة، ونفس محطمة. كان حتما يفتقر إلى القوة لإزاحة الصخور من أجل أن يرى أنثاه للمرة الأخيرة. تزامن نواح البجع على موت واحدة منها مع صرخات الذئب العجوز التي تفطر الفؤاد حيث شكّلت موجات تنبض بالحداد.

بعـــد ذلـــك بعدة أيام، عاد لاسورنغ من مقر القيادة فقال إن باو شنغوي كان قد أخذ نصف حمولة عربة من أزهار الفاوانيا العشبية بجذورها إلى البلدة.

20

علـــى الهضاب، كانت شمس بواكير الصيف تضيء أرخبيلا من السحب التي تطفو فوق الحـــوض، وترسل ضوءا براقا بحيث لم يعد في وسع الناس الذين تحتها أن يفتحوا عيونهم تقريبا. تـــشبّع الهواء برائحة بصل الجبل والثوم البري فيما كانت الخراف وحملانها ترعى على الأرض، رائحـــة ثقيلة ولاذعة. اضطر الناس إلى أن يرمشوا عيونهم لترطيبها وتخفيف الإحساس بالحرقة. راقـــب شن زن عن كثب السهوب الجديدة والمخيم، في الوقت الذي لم يبارحه فيه الخوف من أن تأتي الذئبة الأم بحثا عن جروها، وسعيا إلى نيل ثأرها من خرافه.

كانـــت أكثر من ثلاثين خيمة تعود لفرقة الإنتاج الثانية قد نصبت عند قاعدة جبل ليس شديد الارتفاع في الحافة الشمالية الغربية من الحوض، فصلت مسافة تقل عن ألف قدم بين كل خيمتين. لم يشغل المخيم سوى حيز صغير من المنطقة، حسب أوامر بلغي وأوليجي، وذلك في إجـــراء احتـــرازي ضد هجمات الذئاب، سواء من المخيم الجديد أو القديم، أو حتى احتمال حـــصول هجـــوم مشترك. خمّن شن أنه ليس هناك من سبيل لأن يتمكن هجوم للذئاب على أولونـــبولاغ من اختراق خط الدفاع هذا. إذا حاولت ذلك، فإن الكلاب من جميع الأطراف ستـــشن عليها هجوما مضادا. خففت تلك الفكرة من هواجسه، وصار يمعن النظر بعينين شبه مغمضتين في جمال أرض الرعي.

كانت قطعان من الماشية والأحصنة، وقطعان أخرى من الخراف والماعز قد شقت مسبقا طريقها لترعى؛ الأرض التي كانت عذراء في اليوم السابق أصبحت الآن مراعيَ صدحت عليها أصـــوات الغـــناء، والصهيل، والثغاء، والخوار التي حملتها الرياح؛ وانتشر فرح عامر في الهواء، نطقت به وجوه الناس، إلى جانب ما يملكونه من أحصنة، وخراف وماعز، وأبقار.

بعـــد أن عانى قطيع شن ويانغ من الإنهاك إثر رحلتهما الطويلة المضنية، كان يرعى على مـــنحدر لـــيس ببعيد عن خيمة الرجال. قال شن وهو يتنهد بانفعال: "المرعى الصيفي الجديد والمرعـــى القـــديم يختلفان مثلما يختلف الليل عن النهار، إنني أشعر بالكبرياء، وكأننا استصلحنا أرضا جديدة في مكان ما، المكافآت التي حصلنا عليها تتخطى خسائرنا بكثير. في بعض الأحيان أتصور أن ذلك ليس إلاّ حلما، وأننا قد نقلنا قطيعنا إلى فردوس عدن".

- "ذلـــك مـــا أشعر به أنا أيضا"، قال يانغ. "هذا مكان يكاد ينتمي إلى عالم آخر، إنها ســـهوب للـــبجع. كل ما يحول بينه وبين الكمال هو وجود باو شنغوي، والطلاب الصينيين.

وآخـــرين مـــن الـــدخلاء. لن يواجه رعاة الخراف في أولونبولاغ أي متاعب في العيش بسلام وتوافـــق مع البجع. عليك أن تتصور مدى رومانسية المشهد لو أننا صرنا نرعى قطيعنا وكأنه طـــيور الـــبجع التي تنـــزلق في طيرانها عبر سماء زرقاء. في غضون سنين قليلة سيكون كل ما أحـــتاج إلـــيه في الحياة هو أن أتزوج بفتاة منغولية تتمتع بالشجاعة الكافية لأن تمسك ذئبا من ذيلـــه، وأصبح أبا لبعض الأطفال الهجناء الذين لن يشعروا بالوجل من الزحف إلى داخل وجار للذئاب". استنشق رائحة العشب المشبعة بالأريج.

– "إذا كـــان حتى أحد أمراء التانغ قد أراد أن يكون تركيا يعيش على السهوب"، قال، "لِـــمَ لا أفعل ذلك؟ في هذا المكان يحتاج الناس إلى الكلاب ويحبونها، على النقيض من أماكن أخـــرى مثل بكين، حيث إن ما تسمعه من الناس هو فقط حديثهم عن تحطيم رأس كلب يعود لشخص ما، بالنسبة إلى سلطة أكاديمية رجعية، مثل تلك التي ينتمي إليها *وغد لعين* مثلي، ليس هناك مكان أفضل من السهوب لأغرس فيه جذوري وأبدأ بتكوين عائلة".

– أنـــت تقول سيكون من الأفضل لو أن المكان يخلو من الطلاب الصينيين، لكنك واحد منهم، أليس كذلك؟

– "مـــنذ أن جثوت على الأرض أمام رمز الذئب"، قال يانغ، "أصبحت منغوليا. هؤلاء الـــناس يـــضعون الحياة الكبرى للسهوب في منـــزلة أرقى من حياتهم أنفسهم. لا أستطيع منع نفـــسي مـــن النظـــر إلى الناس الذين ينـــزحون من أقاليم فلاحية على أنهم أشرار. ليس من المستغرب إذا تقاتل رعاة الخراف البدو مع الفلاحين آلافا من السنين".

قال شن: "كان الفلاحون ورعاة الخراف يمارسون ذلك طوال التاريخ، لم يكونوا يتوقفون إلا لمـــدة تكفـــيهم للتزاوج في ما بينهم، والعيش معا بسلام مدة من الزمن. الحقيقة أننا جميعا نـــنحدر مـــن ســـلالة نتجت عن فترات الاتحاد التي حصلت بين الناس الذين يسكنون السهل الأوســـط وأولـــئك الذين يسكنون السهوب. قال أوليجي إن أرض الرعي هذه ستخدم الناس ومواشـــيهم لمدة أربع أو خمس سنين. ينبغي أن يعاد أوليجي إلى منصبه مكافأة له على ما فعله هـــنا. ما يقلقني هو ما إذا كان أوليجي وبلغي لديهما القدرة للتغلب على القوى التي تريد أن تجعل السهوب ملكا لها".

– "إنـــك إنسان يوطوبي[1] ثابت على مبدأ واحد ليس إلاّ!"، هتف يانغ. "أخبرني والدي ذات مرة أن مستقبل الصين يكمن في التقليل من نسبة سكانها من الفلاحين إلى أقل من خمسمئة ملـــيون. لكنني أخشى ألا يكون الانفجار السكاني وسط الفلاحين قابلا للخضوع لسيطرة من نـــوع مـــا، لـــيس من قبل تينغر المبجل لدى المنغوليين، ولا من قبل أي كان. خلال العقدين المنـــصرمين، كانـــت أعداد هائلة من الفلاحين قد ذهبوا للعمل في المصانع، انتقلوا إلى المدن،

(1) يوطوبـــي: مصلح سياسي أو اجتماعي متحمس ولكنه غير عملي. (المترجم)

وبدأوا يتوافدون إلى المدارس، وبعد ذلك عملوا كل ما في وسعهم من أجل أن يبتعد المفكرون إلى الأريـــاف ليـــصبحوا فلاحين من الدرجة الثانية. لقد أجبروا الملايين من الطلاب مثلنا على الرحيل من المدن. ما القدرة التي يمتلكها نفر من المنغوليين مثل أوليجي وبلغي؟ إنهم يبدون مثل حشرات تحاول أن توقف عربة".

حملق شن فيه. "على ما يبدو، أنت لا تنظر إلى الذئب على أنه رمز حقيقي بأي حال من الأحـــوال. هل تعلم ما حقيقته؟ إنه القدرة الروحية التي تجعل الكائن الواحد يعادل عشرة، أو مـــئة، أو ألف، أو عشرة آلاف من الكائنات. إنه الشيء الذي يحمي الحياة الكبرى للسهوب. لقـــد أدركت السماء على الدوام أن الحياة الكبرى هي التي تدبّر شؤون الحياة الصغرى، الحياة الـــسماوية هي التي تدبّر شؤون حياة البشر. من دون أشكال الحياة السماوية أو الأرضية، فأي نوع من الحياة الضئيلة سيتبقى للناس؟ إذا كنت حقا تبجل رمز الذئب، عندها ستحتاج إلى أن تقـــف إلى جانـــب السماء والأرض، إلى جانب الطبيعة، إلى جانب الحياة الكبرى للسهوب، وعليك أن تكافح ما دام هناك ذئب واحد على قيد الحياة. عليك أن تكون واثقا من مفهوم أن الأقدار تتغير. تينغر سيحمي السهوب. ذلك من خلال الوقوف إلى جانب الحياة الكبرى، أسوأ مـــا يمكن أن يحصل هو أن تموت وأنت تقاتل القوة التي تحاول تدمير الحياة الكبرى، وستصعد روحك. ذلك موت مشرف. أغلب ذئاب السهوب تموت في أرض المعركة!".

بقي يانغ كي صامتا فترة طويلة.

* * *

قـــيّد شن جرو الذئب تنفيذا لأوامر أوليجي. ربط القيد بياقة من الجلد التفت حول رقبة الجرو من طرف واحد وحلقة معدنية أنـــزلت بسهولة في عمود من شجر الدردار الجبلي طوله ثـــلاث أقـــدام، مغروس في الأرض إلى عمق قدمين اثنتين. ثُبّتت سدادة معدنية في الأعلى لمنع الحلقـــة من الخروج منه، كان العمود قويا لدرجة تكفي لكبح حركة ثور؛ صار في وسع الجرو أن يجري حول المكان من دون أن يتقلص طول القيد، أو يتعرض الجرو للاختناق.

هكـــذا، وقبل أن ينقضي أسبوع على عملية الانتقال كان الجرو قد خسر حريته، وأصبح ســـجينا مقيّدا بسلسلة معدنية طولها خمس أقدام. كان شيئا يبعث الألم في نفس شن أن يراقب الذئب الصغير يحوّل غضبه صوب القيد، وهو ما اعتاد أن يفعله طوال ذلك الأسبوع، فيما كان لعابه يسيل من نصف طول السلسلة. حاول الجرو جاهدا، أن يتمكن من نهش القيد فيقطعه، أو يقـــتلع العمود من مكانه، وعندما فشل في ذلك اضطرّ إلى أن يمضي الأيام في سجن دائري في العراء، يصل قطره إلى عشر أقدام أو اثنتي عشرة قدما. دأب شن على زيادة الوقت الذي كان يمضيه مع الجرو للتعويض عن العذاب الذي يسبّبه له القيد. كان الجرو يشعر بسعادة أكبر حينما يُسمح لجرو كلب بدخول الحظيرة ليلعب معه، بالرغم من أنه أضحى شيئا محتما أن ينتهي الأمر

بجعـــل رفـــيقه في اللعـــب يولي هاربا بعيدا ترافقه سلسلة من صرخات النباح وعضّات مؤلمة، وبالـــتالي يعـــود الجرو للبقاء وحيدا. كان إيرلانغ هو الكلب الكبير الوحيد الذي يأتي بين فترة وأخرى ليتجول داخل حظيرة جرو الذئب، وأحيانا من أجل أن يرتاح قليلا، ويترك الجرو يثب إلى أعلى جسده أو يقضم خطمه أو ذيله.

أصـــبح النشاط اليومي الأكثر أهمية بالنسبة إلى الجرو هو التحديق في وعاء الطعام الخاص بـــه، والذي يوضع إلى جانب الخيمة، كان ينتظر بفارغ الصبر إلى أن يغدو الوعاء مليئا بالطعام ويُحمـــل إليه. لم يستطع شن أن يدرك ما إذا كان الجرو يعرف السبب الذي قاده لأن يصبح ســـجينا، لكن لم يكن من الصعوبة إغفال نظرة الكراهية الحادة التي كانت تلوح في عينيه، كما لـــو أنه كان يقول: "جراء الكلاب تعدو حرة؛ لِمَ لا أستطيع فعل ذلك؟"، وصار يصبّ جام غضبه على الكلاب، وبين حين وآخر كان يجعلها تهرب بعيدا عنه وقد سالت منها الدماء. في ظـــل الظروف البسيطة لحياة البداوة، لا بد من أن تتطلب تربية جرو ذئب في مكان قريب من الكلاب، والخراف، والناس تعاملا غير إنساني. لو أغفل شن واجب الحراسة ولو للحظة واحدة، فمن المحتمل أن يهاجم جرو الذئب الخراف أو الناس، وذلك يعني هلاكه. همس بهذا للجرو عدة مـــرات، إلا أنه بالطبع لم يكن لذلك أي تأثير. بدأ شن ويانغ يشعران بالقلق من أن يكون لهذا النوع من التعامل، ربما، تأثير عكسي على تطور نمو الذئب الصغير. ربما أدى حرمانه من حريته مـــن خـــلال ربطه بسلسلة إلى اختفاء كل من الظروف والفرص المناسبة لأن تتطور شخصيته بـــشكل طبيعي. هل يبقى ذئب ينشأ في مثل هذه الظروف ذئبا حقيقيا؟ شعر شن ويانغ، ولو علـــى نحـــو واهـــن، أنهما مثلما، يقول المثل، قد صعدا إلى ظهر ذئب، لكنهما لم يعرفا كيفية النـــزول عنه. ربما كانت بزور الفشل قد زرعت في أعماق تجربتهما منذ بدايتها. شعر يانغ بميل للتخلي عن التجربة، لكن شن رفض أي شيء من ذاك. في الحقيقة، كان يانغ أيضا يزداد تعلقا بجرو الذئب.

كان الوقت قد حان بالنسبة إلى القطيع للتزاوج. أقبل أحد الثيران بمنظره المخيف قريبا من جـــرو الذئب، مما جعل الجرو ينكمش مرتعدا وينـــزوي داخل كومة من العشب الطويل. بعد ذلـــك عندما صعد الثور على ظهر إحدى البقرات، كان الجرو خائفا إلى حدّ أنه اندفع خارجا من العشب، محاولا الهرب، لكنه توقف فجأة بسبب السلسلة المشدودة، التي كادت تخنقه؛ تدلى لـــسانه مـــن فمه، وغارت عيناه في محجريهما. لم يهدأ إلى أن انطلق الثور يجري مطاردا بقرة أخرى.

في غـــضون هذا الوقت أصبح الجرو معتادا بشكل أو بآخر على موقع سجنه، وبدأ يلهو ويلعـــب بالتشقلب في حظيرته. تغطت الأرض بالعشب الذي نما إلى ارتفاع قدم أو أكثر، مما جعـــل الحظيرة مدعاة للراحة أكثر من حظيرته الأولى، بأرضها الرملية الجافة. هنا كان بإمكانه

الاستلقاء على ظهره، والنظر إلى السماء، أو مضغ العشب بتكاسل؛ أن يلعب لمدة نصف ساعة بمفرده. كان مشحونا بالطاقة والحيوية، بحيث وجد بقعة من الأرض ونوعا من الرياضة التي من شأنها السماح له بالاستمرار في الحياة، وهكذا بدأ يتبع نظام حمية من خلال الركض في الحظيرة مرات عديدة في اليوم، حيث يصل إلى الجدار الخارجي ثم يدور مرة تلو الأخرى في موضعه، بدا من الواضح أنه لم يكن يعرف التعب أبدا.

في البداية كان يدور دورة كاملة في اتجاه واحد، يتوقف وهو يصرخ، وبعدها يعكس الاتجاه. عندما يُنهك نفسه تماما ينبطح على العشب، وقد فتح فمه، وتدلى لسانه من الجانب، يلهث ويسيل لعابه. اكتشف شن أن الجرو كان يمضي وقتا أطول في الركض، ويدور دورات أكثر في كل يوم يمضي، وأدرك أن الذئب الصغير صار يجعل جسده يعمل بجهد أكثر صعوبة من أجل أن يُسقط عنه غطاء جلده القديم ليحل محله فرو في طريقه إلى النموّ. تأتي المرة الأولى التي يُسقط فيها ذئب ما غطاء جلده، كما قال بلغي، في وقت متأخر عن الحيوانات الناضجة.

* * *

جاء زانغ جيوان مسرعا يمتطي صهوة حصانه، كانت جبهته ملفوفة بعصابة بيضاء اللون، استغرب شن ويانغ هذه الزيارة غير المتوقعة، فهرولا للترحيب به. "كلا!"، صاح زانغ. "ابتعدا عن الطريق!". جفل الحصان الذي كان يمتطيه من حركتهما المفاجئة، وقف على قائمتيه الخلفيتين، وصار يرفس بعنف، مما جعلهما يبتعدان من طريقه. بدا واضحا أن الحصان لم يمضِ على ترويضه وقت طويل، لذلك حافظا على المسافة التي تفصل بينهما وبينه للسماح لزانغ أن ينزل بشكل سليم قدر الإمكان.

كانت الأحصنة المنغولية سريعة الغضب، وخصوصا أحصنة أوجيمشن شديدة الحساسية. لم يكن يبدأ ترويضها حتى حلول الربيع من السنة الثالثة لولادتها. بالرغم من أن أجسامها تكون نحيفة في ذلك الوقت من السنة، إلاّ أنها تصبح كبيرة لدرجة كافية لتتحمّل ثقل من يمتطيها. إذا ضاعت تلك الفرصة فلن يتقبل الحصان سرجا أو شكيمة. وبالتالي يبقى حصانا بريا.

في فصل الربيع من كل سنة كان رعاة الأحصنة يختارون أحصنة تبلغ أعمارها ثلاث سنين، وتتميز أنها هادئة نسبيا ويعطونها إلى رعاة الأبقار والخراف ليقوموا بترويضها. يمكن لأولئك الذين ينجحون في ترويض الحصان أن يمتطوه لمدة سنة. إذا قرر الراكب، بعد مرور سنة، أن الحصان لا يرقى إلى مستوى أحصنته الأخرى فيمكنه إعادته إلى القطيع، عند ذلك يعطى له اسم. لقد كان من المتعارف عليه تقليديا أن يسمى كل حصان باسم الشخص الذي تولى مهمة ترويضه، ويضاف إلى ذلك لون من الألوان. كانت أسماء من قبيل بلغي الأحمر، باتو الأبيض، لامياف الأسود، لاسورنغ الرمادي، سانجاي الأخضر، دورجي الأصفر، زانغ جيوان الكستنائي، يانغ كي الأصفر الزهري، وشن زن الأخضر الزهري أمثلة شهيرة على تلك

الأحصنة والتي تبقى تحملها طوال حياتها. كان من النادر أن تحمل عدة أحصنة الاسم نفسه على أولونبولاغ.

كانت الأحصنة تمثل دماء الحياة التي تجري في شرايين سكان السهوب. ويؤدي الافتقار إلى الأحـــصنة الجيدة أو إلى عدد كافٍ منها إلى مصاعب تواجه الناس في الهروب من الخراب الذي تلحقه العواصف الثلجية، ونيران البراري، وهجمات الأعداء؛ وكذلك من أجل استقدام الكوادر الطبـــية وإحـــضار الأدوية في أوقاتها المحددة؛ لإطلاق الإنذار في الوقت المناسب لتفادي الهجمات العـــسكرية أو الكوارث الطبيعية؛ لاصطياد ذئب؛ ولتجميع قطعان الأحصنة الشاردة والماشية أو قطعان الخراف خلال مداهمة عاصفة ثلجية من نوع ذات الشعر الأشيب. ذات مرة قال بلغي إن أحد سكان السهوب إذا لم يكن لديه حصان جيد فهو يشبه ذئبا بقائمتين ليس غير.

فيما كان زانغ جيوان يمسّد برفق على رقبة حصانه، استلّ بلطف إحدى ساقيه فأخرجها مـــن الـــركاب، وفـــيما تحول الحصان بانتباهه إلى مكان آخر، قفز إلى الأرض. وثب الحصان مذهـــولا عدة مرات، كاد أن يلقي سرجه عن ظهره، لذلك تشبث زانغ بسرعة بسير العنان، وجذب رأس الحصان باتجاهه ليمنعه من الاستمرار بالرفس. كان صراعا عنيفا، إلا أنه بشكل أو بآخر استطاع أن يقود الحصان نحو العربة، حيث ربطه بمحور دولابها. قاتل الحصان من أجل أن ينطلق حرا، مما جعل العربة تهتز وتصدر صريرا.

تـــنفس شن ويانغ الصعداء. "إنك تتودّد إلى كارثة"، قال يانغ. "هل تعتقد أنك تستطيع حقا أن تُخضع حصانا بمثل هذه الوحشية؟".

فـــرك زانغ جبهته وقال: "لقد ألقاني أرضا هذا الصباح، وتلقيت ضربة على رأسي بأحد حوافره. أفقدني صوابـــي، لكن لحسن الحظ كان باتو معي. ومن حسن حظي أيضا أنه لا يزال حصانا صغيرا، وحوافره لم تصبح شديدة الصلابة بعد، فقد نهضت من دون أن يُكسر أنفي. لو كـــان حـــصانا أكبر ربما ما كنت لتجدني هنا الآن. لكنه حصان شرس للغاية، وخلال بضع ســـنوات ســـينال شـــهرة مرموقة. في هذا المكان عليك أن تضع حياتك على المحك إذا أردت الحصول على حصان ممتاز حقا. إنه السبيل الوحيد".

– أتعـــرف، بدأت تجعلنا نشعر بالقلق عليك. في اليوم الذي تتمكن فيه من السيطرة على حصان جيد من دون أن تربط ضمادات حول أماكن متفرقة من جسمك فذلك هو اليوم الذي تكون فيه قد وصلت إلى غايتك أخيرا.

– "امـــنحاني ســـنتين إضـــافيتين"، قال زانغ. "في هذا الربيع قمت بترويض ستة أحصنة مخـــصية، كلـــها أحـــصنة ممتازة. في المستقبل، عندما تذهبان إلى الصيد، إذا واجهتما نقصا في الأحصنة، تعالا إلي. إنني أنوي أن أحوّل كل أحصنتكم الحالية إلى أحصنة ممتازة".

* * *

كانت أرض الرعي الجديدة تعطي وفرة من العشب الأخضر الطري والمياه، كل ذلك من أجـــل مواشـــي فـــرقة واحـــدة، لذلك قرروا ترك الأحصنة ترعى في أماكن قريبة من الماشية والخراف، على الأقل لمدة وجيزة. وبما أنه لم يكن هناك أي شخص يمكنه أن يبعدها من مكانها، فقد أحنت الأحصنة رؤوسها، وبدأت ترعى.

انبهـــر كل من شن ويانغ بمنظر فحول الأحصنة الصغيرة القوية الضخمة هذه وهي ترفل بحلـــتها الجديـــدة من الشعر البراق الذي يغطي جلودها. مع كل حركة من حركاتها، كانت العضلات التي تحت شعرها الحريري المتماوج تبدو وكأنها أسماك شبوط تسبح تحت الجلد.

كـــان الاخـــتلاف الأكثر شهرة بين الفحول المنغولية والأحصنة الأخرى يتمثل في الشعر الـــذي يكلل أعناقها، ويغطي حتى عيونها، ورقابها، وصدورها، وقوائمها الأمامية. كان الشعر يـــنمو حـــتى يغدو طويلا وينسدل على أعناقها وأكتافها، ويصل البعض منه إلى ركبها، وإلى حوافرها، ويلامس الأرض أيضا. ينسدل شعر أعناقها عندما تحني رؤوسها لتأكل، بحيث يغطي نصف أجسادها ويجعلها تشبه أشياء قبيحة من دون رؤوس، ومن دون وجوه، ذات شعر غزير. أمـــا حين تركض، وقد رفعت رؤوسها عاليا، فيتماوج شعر الأعناق ذاك وينساب مع الريح، وكأنـــه رايـــة من رايات المعارك المنغولية في غزارته، حيث يمكن لمنظره المهيب أن يجعل العدو يتقهقـــر مذعورا بشكل طائش. إذا فكّر المرء في طبيعتها العنيفة الممزوجة بالمكر، سيدرك بأنها أحـــصنة لـــيس من السهل أن يجرؤ أحد على محاولة ترويضها، أو أن يربطها بقيد، أو يمتطيها. كانـــت لديها وظيفتان على السهوب: أن تبقى مستعدة للاستيلاد، وأن تدافع عن القطيع. وبما أنها تتمتع بإحساس قوي بتحمل المسؤولية عن العائلة، فلا يمكن لها أبدا أن تتخاذل عند مواجهة الخطر؛ إنها تتصرف بكفاءة وعناد. أما الثيران المكرسة للاستيلاد فهي أكثر تثاقلا في الحركة بعد التزاوج، لكن تعتبر الفحول بمثابة الرؤوس الكبرى لعائلات الأحصنة على السهوب.

لم يكـــن الأمر يحتاج إلى وقت طويل حتى ينشب قتال في صفوف الأحصنة. كان يجري مـــرة في كـــل سنة إبعاد المهرات عن القطعان تفاديا لنشوب معركة سببها التزاوج، وفي هذا الوقت بالذات حدثت المعركة تماما أسفل الموضع الذي وقف عنده الرجال الثلاثة.

كانـــوا جالـــسين على الأرض قريبا من حظيرة الذئب لمراقبة المعركة وهي تكشف عن مجرياتها شيئا فشيئا، انضم إليهم جرو الذئب، وقد جثم عند نهاية سلسلته كي يشاهد ما يحدث، كان يرتعش وكأنه ذئب يتضور جوعا على ركام ثلجي، لكن في ما عدا ذلك لم يكن يتحرك. انتابه خوف غريزي من فحول الأحصنة ذات القدرة القوية، إلاّ أنه بقي يراقبها بانبهار تام.

لقد تألف قطيع الأحصنة، الذي تجاوز عدده الخمسمئة حصان، من أكثر من اثنتي عشرة عائلة من الأحصنة، لكل عائلة منها حصان فحل. كانت العوائل الكبيرة في أفرادها تتألف من ســـبعين أو ثمـــانين حصانا، أما العوائل الأصغر فتتألف من عدد قليل يمكن أن يصل إلى عشرة

أحصنة لا غير. وتتضمن عوائل الأحصنة أبناء وبنات الفحول وزوجاتها وخليلاتها. لقد تطورت الظـــروف التي كانت تجري وفقا لها عملية التزاوج وسط قطعان الأحصنة في الزمن القديم حتى وصـــلت إلى مستوى من التحضّر أعظم من المستوى الذي وصل إليه البشر. استطاعت قطعان الأحصنة أن تبقى على قيد الحياة في ظل بيئة السهوب القاسية، تحيط بها الذئاب من كل جانب والـــتي يمكـــن أن تهاجمهـــا في أي وقت، وذلك لأنها كانت تقضي بلا رحمة على أي احتمال لحدوث حالة استيلاد داخلي، وهذا الإجراء يهدف إلى منع تدهور حالة النسل وانخفاض القدرة على القتال.

في أوائـــل الصيف، اقتربت ثلاث من إناث الأحصنة يبلغ عمر كل منها ثلاث سنين من ســـن النـــضج الجنـــسي، وكانت فحول الأحصنة تتخلى عن عاطفتها الأبوية، وذلك بإقصاء صـــغيراتها بقـــسوة شديدة إلى خارج العائلة، رافضة السماح لها بالبقاء إلى جانب أمّاتها. كان الآبـــاء مـــن فحـــول الأحصنة الغاضبة، التي استبدت بها حالة من الجنون وتطاير شعر أعناقها الطـــويل، تبعد صغيراتها الشاكية، كانت تعض خواصرها كما لو أنها تطارد الذئاب، مما سبب جوا من الفوضى وسط القطيع. حين كانت إناث الأحصنة تلك ترجع إلى أمّاتها، يسرع آباؤها إلـــيها في ســـورة غضب عنيف لطردها قبل حتى أن تستطيع الإناث الصغيرة التقاط أنفاسها. صـــارت الفحول تركل الإناث، وتقضم أجسادها وتركلها، تفعل أي شيء في وسعها للقضاء علـــى أي شبح للمقاومة، حتى لا يتبقى لدى الأحصنة الصغيرة خيار سوى الابتعاد عن قطيع العائلـــة. صـــهلت الإناث الصغيرة بألم، توسّلت لآبائها لإبداء شيء من الليونة. لكن الفحول كانـــت تحملـــق بغـــضب، وتصهل، وتحفر الأرض بحوافرها وهي تهدد وتتوعد، رفضت نهائيا السماح لها بالبقاء مع أمّاتها، والتي كانت هي أيضا غاضبة من ذكورها وتحاول حماية صغيراتها. وفي نهايـــة الأمـــر اتخـــذت الأمّات موقفا محايدا، بعد أن أدركت ما الذي يكمن وراء أفعال ذكورها.

عـــندما كانت تحدث حروب طرد الإناث، تنشب نـــزالات حقيقة، وكذلك قتال قاس حول اختيار الزوجات؛ كأنه انفجار بركاني من تمرد الذكور. سرعان ما تصبح الإناث الصغيرة الـــتي أقصيت بعيدا عن عوائلها و لم يعد لديها من مكان تتوجه إليه أهدافا سهلة للمنافسة التي تحصل بين فحول الأحصنة التي تنتمي إلى عوائل أخرى؛ في الوقت الذي تشبّ فيه الذكور على قوائمها الخلفية وتشتبك في قتال مميت، كانت تتفوق على بقية القطيع. ولقد شكلت حوافرها أقوى ما لديها من أسلحة، حيث تستخدمها وكأنها المطارق، والقبضات القوية، والفؤوس. في خـــضم ارتطام الحوافر وتصادم الأسنان، كانت الأحصنة الأضعف تولي الأدبار مهزومة، لكن الأحصنة المحاربة التي ليس لها ند تبقى تقاتل وتستمر في القتال طويلا. إذا لم تحقق الحوافر الفوز في المـــبارزة تستخدم أسنانها، وإذا لم ينفع ذلك تستدير وتركل بقوائمها الخلفية، تلك أسلحة

بإمكانها أن تحطم جمجمة ذئب لا يتوخى الحذر. كانت بعض الأحصنة تستمر في القتال وإن تعرضت رؤوسها لجروح جسيمة، أو رضّت صدورها وتورمت، أو تعرضت قوائمها لجروح بالغة.

إذا استغلت إناث الأحصنة الصغيرة الفوضى العارمة لتعود إلى كنف أمّاها، فهي تواجه عندئذ سخط آبائها فضلا عن الفحول التي تريدها للتزاوج، الآن بعد أن أصبحت هذه الأحصنة رفاقا في السلاح، تبقى تطاردها حتى بعد أن تصل إلى المكان الذي تنتمي إليه.

جذبت أنثى جميلة من إناث الأحصنة انتباه اثنين من أكثر الفحول ضراوة. كان شعر المهرة، الذي ببياض الثلج، يلمع؛ وعيونها واسعة، وجميلة كأنها عيون الأيائل. كانت طويلة القوام ورشيقة الحركة، وخطواتها خفيفة تشبه الأيل عندما تعدو. انبهر يانغ كي تماما بمنظرها. "يا لها من مهرة جميلة"، قال. "لو كنت واحدا من هذين الفحلين لقاتلت فعلا من أجلها".

تقاتل فحلا الأحصنة كأنهما الأسود في الكولوسيوم[1]، اشتبكا في معركة مهلكة. خبط زانغ جيوان بلا وعي قدمه وفتل يديه. "هذان الفحلان كانا يتقاتلان من أجلها للفوز بها منذ أيام. إنها رائعة الجمال بحيث إنني أسميتها الأميرة بياض الثلج. لكنها أميرة صغيرة ولا بدّ من أن يشعر المرء بالأسف حيالها. في يوم ما ستضطر إلى البقاء مع عائلة أحد فحول الأحصنة، وفي اليوم التالي يأخذها فحل آخر إلى مكان بعيد. وبعد ذلك كله يتقاتل هذان الذكران من أجل الفوز بها، ومن يدري أين سينتهي بها المطاف في يوم لاحق. حينما يصل الفحلان اللذان تقاتلا من أجل الفوز بها في البداية إلى مرحلة الإنهاك، يأتي فحل ثالث كي يقبل التحدي وإياهما. وتذهب أميرتنا إلى مسكن آخر. الآن هي لا تعني شيئا سوى عبدة مملوكة تؤخذ إلى أي مكان حسب رغبة مولاها، أولا يأخذها أحد فحول الأحصنة، ومن ثم آخر، ولا تُمنح وقتا حتى لأن ترعى العشب الذي نبت من جديد. انظر إليها؛ إنها مجرد جلد وعظام. هكذا تسير الأمور في ربيع كل عام. عندما تتعلم بعض المهرات أنه ليس بإمكانها البقاء مع عوائلها ستذهب مباشرة إلى عائلة الأحصنة التي يوجد فيها أشد الفحول قوة بحثا عن الحماية، وذلك كي تنأى بنفسها عن التعرض للهلاك ومما يوفر على أجسامها التعب والدموع. لقد شاهدت بأعينها ما يمكن أن تفعله الذئاب بحصان ما، وهي ذكية لدرجة كافية لأن تدرك أنها من دون عائلة، ومن دون حماية من أب أو زوج قوي، فهي تواجه خطر أن تصبح الوجبة التالية لقطيع من الذئاب. في نهاية الأمر، ليس من المبالغة القول إن الذئاب هي التي تقف وراء الطبيعة الوحشية الضارية لفحول الأحصنة المنغولية.

---

(1) الكولوسيوم: بناء شهير في روما القديمة (82-70 ق. م) شيد في زمن الأباطرة فيسباسيان وتيتوس على شكل مدرجات لجلوس المشاهدين، كان يستخدم كمسرح ويشهد صراعات بين المجالدين، وبين الرجال والحيوانات المتوحشة. تعرض للدمار بسبب الهزات الأرضية والصواعق والحروب. (المترجم)

- "فحول الأحصنة تؤدي دور الطغاة على السهوب"، تابع زانغ كلامه. "إنها تقلق من أن يهاجم قطيع من الذئاب زوجاتها أو ذريتها، لكن عدا ذلك، فهي لا تخاف شيئا، ولا حتى الذئاب، وهي حتما لا تخاف البشر. لقد اعتدنا أن نتكلم عن شخص يعمل مثل ثور أو حصان، لكن ليست لذلك علاقة بهذه الفحول. ليس هناك كثير من الاختلاف بين قطيع من الأحصنة المنغولية وقطيع من الأحصنة البرية، عدا طبعا ما يتعلق بالأحصنة المخصية. لقد أمضيت مزيدا من الوقت مع الأحصنة، لكنني ما زلت عاجزا عن تصور الطريقة التي استطاع الناس البدائيون بوساطتها أن يجعلوا منها أحصنة أليفة. كيف استطاعوا أن يخمنوا أنهم يتمكنون من امتطاء حصان من خلال جعله مخصيا؟".

تبادل شن ويانغ النظرات و لم يفعلا شيئا سوى أن هزا رأسيهما. شعر زانغ بالسرور من الإجابة الصامتة، فاستمر بكلامه: "لقد فكّرت في ذلك مدة طويلة، وإليكما ما أتصوره. كان السكان الأوائل في السهوب قد وجدوا سبلا للإمساك بالفحول البرية التي تتعرض لجروح تسببها الذئاب. بعد أن يقوموا بمداواتها حتى تسترد صحتها، لم يكن في وسعهم مع ذلك ركوبها، وحتى إذا تمكنوا من إحراز شيء من النجاح المتواضع مع أحصنة ما زالت صغيرة. لذلك فقد استمروا في المحاولة، حصان جريح بعد آخر، جيل بعد جيل، حتى حصل ذات يوم أن وجدوا بأن الحصان الذي أمسكوا به كانت خصيته قد تعرضت للنهش، وهو حصان صغير ربما يكون عمره سنتين. كانوا قادرين على امتطاء هذا الحصان بعد أن كبر حتى وصل إلى سن النضج... وقادهم ذلك إلى استنتاج واضح. بغض النظر عن الطريقة التي حصل فيها الأمر، فقد كان ذلك شيئا معقدا ولا بد أنه احتاج إلى مدة طويلة جدا من الزمن. ولا بد من أن الكثيرين من سكان السهوب الأوائل قد ماتوا وهم يحاولون ذلك. كان ذلك واحدا من أوجه التقدم العظيمة في تاريخ الإنسان، وهو أكثر أهمية من اختراعات الصين الأربعة العظيمة: الورق، والطباعة، والبوصلة، والبارود. لولا وجود الأحصنة لأصبحت الحياة في الأزمنة القديمة غير قابلة للتصور، يمكن أن تكون أسوأ بكثير من الحياة الآن من دون وجود سيارات، وقطارات، ودبابات في المجتمع الحديث. ولذلك السبب فإن الإنجازات التي قدّمها البدو للإنسانية لا يمكن إحصاؤها".

انضم شن زن إلى النقاش وقد شعر بالإثارة: "إنني أوافق مئة بالمئة. لقد كان شيئا أكثر صعوبة على سكان السهوب أن يقوموا للمرة الأولى بترويض الأحصنة البرية، أكثر من الصعوبة التي واجهها الفلاحون القدامى في استخدام الأرز البري في المنازل. إن الأرز، على الأقل، لا يستطيع الهرب، لا يستطيع أن يرفس ويقف على قائمتيه الخلفيتين ويهاجم، وهو لا يستطيع أن يقتلك أو يجرحك بحوافره أو يقودك إلى حتفك. إن استخدام المحاصيل البرية في البيوت عمل يشوبه السلام، لكن تدجين الأحصنة والثيران البرية يعتبر معركة تسيل فيها الدماء والعرق

بغـــزارة. مـــا زال الفلاحـــون يـــستمتعون بالثمار التي جلبتها لهم الشعوب البدوية من خلال معاركهم المذهلة".

تـــنهد شن، "وفقا لما أراه فإن الناس الأكثر تقدّما اليوم ينحدرون من أعراق بدوية. إنهم يـــشربون الحلـــيب، ويأكلون الجبن وشرائح اللحم، ويحوكون الملابس من الصوف، ويمهّدون المـــروج، ويـــربّون الكلاب، ويقاتلون الثيران، ويتسابقون بالأحصنة، ويتنافسون في الألعاب الرياضـــية. إنهـــم يتعلقون بالحرية والانتخابات الشعبية، ويكنّون احتراما لنسائهم، كل أنواع التقاليد والعادات التي انحدرت إليهم من أسلافهم البدو. لم يتوارثوا الشجاعة وحدها، وروحهم القتالـــية، والحاجة إلى تجاوز وضع أسلافهم البدو، إلا أنهم استمروا في إدخال التعديلات على تلـــك الخصائص. يقولون إنك تستطيع أن تعرف طبيعة شخصية الإنسان التي سيكتسبها عندما يكـــبر وهو ما زال بعد في عمر ثلاثة أعوام، وتعرف كيف ستبدو عليه ملامح شخصيته الثابتة حـــين يصبح رجلا كاملا وهو ما زال بعد في السابعة من عمره. الأمر نفسه ينطبق على عرق معـــين من أعراق الشعوب. في الغرب، مثلت الحياة البدائية بالنسبة إليهم مرحلة الطفولة، وإذا نظـــرنا إلى الـــبدو البدائيين الآن، فنحن لدينا فرصة في الوصول إلى معرفة حال الغربيين عندما كانوا في السنة الثالثة وفي السابعة، إلى طفولتهم، وإذا ما مضينا على هذا المنوال ربما استطعنا أن نفهم بشكل واضح السبب الذي جعلهم يحتلون موقعا متقدما. إن تعلم مهاراتهم في التقدم ليس شيئا صعبا. الصين أطلقت قمرها الصناعي، أليس كذلك؟ الأشياء التي من الصعوبة تعلمها هي الـــروح القتالية والتصدّي للعدو، والشجاعة والاستعداد لتحمل المخاطر التي تجري في شرايين البدو".

– "مـــنذ أن أصبحت راعيا للأحصنة"، قال زانغ، "شعرت بالفرق في المزاج بين الصينيين والمنغوليين. في أيام المدرسة كنت أتربع على القمة تقريبا في كل شيء، لكن في هذا المكان أشعر بـــأنني ضعيف مثل هرّة. لقد بذلت كل ما في وسعي في التفكير لأن أجعل نفسي قويا، والآن أرى أن هناك عيبا فينا...".

تـــنهّد شن مجددا. "هكذا هو الأمر على وجه التحديد!"، قال. "لا يمكن لاقتصاد الصين الزراعي ضيّق النطاق أن يتحمل المنافسة مع الغير بشكل مسالم معتدل. إن مبدأ الكونفوشيوسية الذي نسترشد به يعتمد على تمرير الأوامر من الإمبراطور إلى الوزير، ومن الأب إلى الابن، إنها فلسفة الأعلى – الأدنى، حيث تركز على الأقدمية، والطاعة غير المشروطة، واستئصال المنافسة مـــن خلال سلطة استبدادية، كل ذلك باسم المحافظة على السلطة الإمبراطورية والزراعة بأمن وســـلام. وسواء من ناحية الوجود أو الوعي، فإن اقتصاد الصين الزراعي ضيّق النطاق والثقافة الكونفوشيوســـية قد أضعفا طبيعة الشعب، وبالرغم من أن الصينيين كانوا قد أبدعوا حضارة قديمـــة رائعـــة، إلا أن تلـــك الحضارة قد جاءت مقابل خسارة الشخصية العرقية، وأدت إلى

التضحية بقدرتنا على التطور. عندما تجاوز تاريخ العالم مرحلة التخلف المرتبطة بالحضارة الزراعية، كُتب على الصين أن تبقى في وضع متخلف. لكننا محظوظون، لقد أعطينا فرصة لأن نشهد المراحل الأخيرة من الوجود البدوي على السهوب المنغولية، ومن يدري، ربما نكتشف أيضا السرّ الذي قاد إلى نهوض وتقدم الأعراق الغربية".

هناك على الحقل المغطى بالعشب، وفيما كانت الأحصنة مستمرة في القتال، مع عدم وجود نهاية قريبة تلوح في الأفق، أخذ الأميرة المحبوبة بياض الثلج فحل انتهازي إلى القطيع الذي تنتمي إليه عائلته. لكن لم تكن ثمة علامة تدل على الاستسلام لدى الفحول الخاسرة، التي استمرت في الجري وركلت الأميرة حتى أسقطتها على الأرض. لم تكن تعرف إلى أين تذهب التماسا للخلاص، ظلت ملقاة هناك وهي تطلق صهيلا طويلا، حزينا. بدا على أمها وكأنها كانت متلهفة لأن تعدو نحوها، لكنها رجعت إلى القطيع بفعل الحوافر التي انهالت عليها من فحلها.

كان يانغ قد شاهد ما يكفي. دفع زانغ جيوان وهو ينبهه لما يجري. "أنت راعي أحصنة، لماذا لا تفعل شيئا؟".

– "ماذا أفعل؟"، سأل زانغ. "عندما أذهب إلى هناك تتوقف الأحصنة عن القتال. لكن عندما أترك المكان، ستعاود القتال. الرعاة ليس لهم أي دور في معارك قطيع الأحصنة التي تخوضها من أجل البقاء. لقد مارست هذا منذ قرون. إذا لم تطرد فحول الأحصنة صغيراتها إلى خارج القطيع في الصيف وتتقاتل مع بعضها من أجل تنويع القطعان، فإن هذه المعارك ستستمر إلى الأبد. يبرز الفحل الأكثر بأسا واقتدارا من خضم حروب الصيف هذه، مما يضمن ظهور جيل يعقبه آخر من الأحصنة التي تتمتع بالسرعة، والذكاء، والضراوة. تؤدي هذه المعارك إلى إنتاج أحصنة ممتازة، سنة بعد أخرى، وتزيد من شجاعة فحول الأحصنة ومهاراتها القتالية، وتقود إلى انتعاش عوائلها. هذا هو المكان الذي تشحذ فيه الفحول مهاراتها في مقاتلة الذئاب وقتلها. وبدون هذه الممارسات في التدريب الميداني ما كانت قطعان الأحصنة المنغولية ستبقى على السهوب".

– "يبدو لي"، قال شن، "إن أحصنة الحرب المنغولية التي أذهلت وأرعبت العالم لا بد وأن تكون نتاج معاركها مع الذئاب".

– "لقد قلت الصواب"، قال زانغ موافقا. "الذئاب التي هنا تفعل شيئا أكثر من مجرد كونها محاربة منغولية نشأت على الشجاعة؛ إنها أيضا أحصنة حرب منغولية نشأت على الشجاعة. كانت لدى الأنظمة القديمة في الصين جيوش هائلة العدد من الخيالة، إلا أن أحصنتها، في الأعم الأغلب، نشأت وتدربت في محيط شبيه بمحيط المزرعة. لقد أرسلنا للعمل في الأرياف، ولذلك فنحن نعرف كيف يربون الأحصنة في القرى. إنهم يبقونها في حظيرة ويجري توفير المياه لها

وتعطى كمية إضافية من القش في الليل. تلك الأحصنة لم تكن قط قد شاهدت ذئبا و لم تشتبك في حـــروب الأحصنة. خلال موسم التزاوج لا يحصل نـــزال مميت، ما دام هناك دائما شخص قريب منها للاهتمام بشأنها. يقوم أشخاص بربط الأنثى إلى عمود، وبعدها يجعلون فحلا يعتلي ظهـــرها. عندما تنتهي عملية التزاوج، فإن الأنثى لا تعرف حتى شكل الحصان الذي اقترن بها. فأي نوع من الطبيعة والروح القتالية يمكن أن يقترنا بالحصان الذي ينتج عن هذا التزاوج؟".

ضـــحك يانـــغ كي. "أيا كان ما يأتي من عمليات التزاوج المنظمة فلا بدّ من أن يتميز بالغباء! إننا محظوظون لكوننا لم نأتِ من زيجات منظمة، ولهذا لا يزال ثمة أمل بالنسبة إلينا. ما زالت عمليات التزاوج المنظمة في قرى الفلاحين شائعة، لكن ما ينتج عنها هو على الأقل شيء أفـــضل من الأحصنة التي تربط على المحاريث، وإن السيدات الصغيرات لدينا على الأقل يعرفن شكل الرجال.

– "في الصين نسمي ذلك تقدما"، قال شن.

– "الأحصنة التي لدى الصينيين"، قال زانغ، "هي مجرد حيوانات تستخدم لنقل الأحمال. إنهـــا تعمـــل طوال النهار وتنام ليلا، تماما مثلما يفعل الناس في القرى. لذا يمكن القول في هذا الـــشأن إن الصينيين قرويون كادحون، وأحصنتهم تستخدم للكد والعمل، ولهذا السبب ليس هناك نظير للمقاتلين المنغوليين وأحصنة الحرب المنغولية".

قال يانغ وهو يتنهد: "ليس هناك أمل في أن يحقق حصان غبـــي الفوز في ميدان المعركة. لكن السبب الرئيسي الذي يجعل الأحصنة غبية هو الناس الذين يتّسمون بالغباء".

انتشرت ابتسامات معبرة عن الخضوع على الوجوه جميعها.

تابـــع زانغ جيوان يقول: "الروح القتالية أكثر أهمية من روح مسالمة كادحة. إن أعظم مفخرة هندســـية في العالم، فيما يتعلق بنتاج العمل الشاق، هو سورنا العظيم، الذي لم ينفع في صد المحاربين مـــن الـــبدو الـــذين ينتمون إلى واحد من أصغر الأعراق في العالم. إذا كنت تستطيع أن تعمل ولا تـــستطيع القتال، فمن أنت؟ ستكون شبيها بحيوان مخصي، تعمل من أجل الناس، تتلقى سوء المعاملة مـــنهم، ويعـــتلون ظهـــرك لتوصلهم إلى مبتغاهم. وعندما تواجه أحد الذئاب، توليه ظهرك وتولي الأدبار. قارن ذلك مع واحد من تلك فحول الأحصنة التي تستخدم أسنانها وحوافرها كأسلحة".

كـــان يانـــغ كي يبدو موافقا بشكل مطلق. "نعم، كان بناء السور العظيم عملا مهلكا، بينما تلك المعارك التي حدثت على السهوب كانت مشحونة بالحياة".

صـــعد غاو جيانـــزونغ على عربة يجرها ثور. "مضينا بعيدا في النقاش!"، صاح باهتياج. "لقد سرقت سطلا مليئا ببيض البط البري!". أسرع رفاقه الثلاثة راكضين وأنـــزلوا سطلا مليئا بسبعين أو ثمانين بيضة بط، كان سائل أصفر ينـــزّ خارجا من شقوق البيض المتكسر.

– "كنت للتو قد أبدت قطيعا كاملا من البط البري"، قال يانغ كي.

- "لم أكن بمفردي. لقد فعل وانغ جونلي ومجموعة من الأشخاص الآخرين الشيء نفسه. في مكان قريب من البحيرة التي في الجنوب الغربـــي، على العشب الذي ينمو عند ضفة الجدول الصغير، لا تستطيع أن تمشي أكثر من عشر خطوات من دون أن تمر بعش يضم اثنتي عشرة أو نحو ذلك من بيض البط. كان الناس الذين وصلوا في البداية قد سرقوا سطولا منها. في الواقع، هم أنقذوا البيض من حوافر الأحصنة التي كانت تدوس على العشب وهي في طريقها إلى المياه لترتوي. إن قشور وصفار البيض تتبعثران في أرجاء المنطقة. يا لها من فوضى".

- "هـــل تبقّـــى شيء من البيض؟"، سأل شن. "يمكننا أن نذهب ونأتي بالمزيد منه ونملح البيض الذي لا نأكله الآن".

- "لا يوجد المزيد هنا"، قال غاو. "كم سيتبقّى من البيض بعد أن عبرت من هناك أربعة قطعان من الأحصنة؟ لكن ربما يوجد بعض البيض على الساحل الشرقي".

- "تعالوا، جميعا"، قال لهم غاو آمرا. "اعزلوا البيض المتكسر عن البيض السليم. لم آكل بيـــضا مقليا منذ سنتين على الأقل. دعونا ندّخر أكبر عدد ممكن. لحسن الحظ، لدينا كثير من البـــصل الجبلي في الخيمة. يعتبر البصل البري وبيض البط البري حقا وجبة شهية يتناولها المرء في الـــبراري. يانغ كي، اذهب وقشر البصل؛ شن زن، اذهب واكسر البيض؛ زانغ جيوان، أحضر سلة من الروث المجفف. وسأذهب أنا لأطهي".

بعد أن تم كسر نصف البيض تقريبا، كانت حصة كل واحد من الأصدقاء ثماني بيضات أو تسعا. سادت أجواء توحي بإقامة حفلة، وخلال وقت لا يكاد يذكر تصاعدت رائحة عبقة مـــشبعة بالـــدهن مـــن فطائر بيض البط المقلي مع البصل البري، وتسربت إلى خارج الخيمة، وانتشرت مع هبوب الريح. التقطت الكلاب الرائحة وأسرعت بالاحتشاد عند مدخل الخيمة، كـــان اللعاب يسيل من أفواهها وهي تهز ذيولها، كافح جرو الذئب مثيرا ضجة عالية للتخلص من سلسلته، كان يقفز إلى الأعلى والأسفل ويزمجر بضراوة. قرر شن أن يبقي قليلا من الطعام للجرو ليرى إن كان سيأكل شيئا مقليا بشحم الخراف.

فـــيما كان الرجال يلتهمون الفطائر، قاطعتهم صرخة صدرت عن غاسماي التي كانت في الخـــارج. "آها، لديكم كل ذلك الطعام الطيب ومع ذلك لم تدعوني معكم!"، فتحت الباب، دخلـــت برفقة بايار، وأزاحت الكلاب بعيدا من طريقها. أفسح شن ويانغ لهما مجالا للجلوس على مقعد الشرف.

أعطـــى شن كلا منهما بعض الفطائر وقال: "لم أكن أتصور أن الرعاة يأكلون شيئا مثل هذا. خذا، جرباه".

- "شممـــت رائحة هذا الأكل من خيمتي التي هناك، على بعد ألف قدم من هنا، وجعلت رائحتـــه الطيبة اللعاب يسيل من فمي. وها أنا قد أتيت، مع ولدي الصغير. هل أحب أن آكل

هذه الفطائر؟ طبعا أحب". التقطت زوجا من أعواد الطعام وغرستهما في الطعام. "إنه شهي"، قالت. كان بايار قد التهم نصيبه بسرعة، ولم يرفع عينيه أبدا عن الموقد، شعر بالقلق ألا يتبقّى منه المزيد. اعتاد الرعاة أن يتناولوا وجبة صباحية من اللبن المخثر، واللحم، والشاي، وبعدها لا يأكلون شيئا حتى موعد الوجبة الأساسية في المساء. لذلك فقد كانت الأم والابن جائعين.

- "هـذا شيء طيب حقا"، قالت غاسماي. "يشبه أكل المطاعم، من دون أن يضطر المرء إلى الذهاب إلى البلدة. اليوم سأملأ معدتي حتى التخمة".

- "لـدي سـطل ملـيء بالبيض هنا"، قال غاو وهو يضحك بفتور. "إذا انتهى البيض المتكـسر، يمكن أن نطبخ البيض السليم. لن تغادري وأنت جائعة، إنني أضمن لك ذلك". فيما كـان يـضع البـيض المتكسر جانبا، قام بتكسير ست بيضات سليمة وصنع الفطائر من أجل غاسماي وبايار فقط.

- "لكـن بابا لن يأكل الفطائر"، قالت غاسماي. "يقول إن البيض يعود لتينغر وينبغي أن يترك وشأنه. ومعنى ذلك أنني سآتي إلى هنا لتناولها".

قال شن: "في السنة الماضية كنت موجودا عندما طلب بابا من عائلة شخص ما يعمل في مقر القيادة اثنتي عشرة بيضة دجاج. ما كان الغرض من ذلك؟".

- "كان أحد الأحصنة مريضا"، قالت غاسماي. "أصيب بحمى زائدة عن الحد. ضغط بابا على خطم الحيوان حتى أغلقه وذلك كي يرفع رأسه، ثم كسر بعض البيض على أسنانه وأفرغ المحتويات داخل جوفه. بعد أن فعل ذلك بضع مرات استرد الحصان عافيته".

انحـنى يانـغ كي إلى الأمام وهمس لزانغ جيوان: "الآن بعد أن عملنا ذلك. بفضلنا نحن، سـيبدأ الرعاة بأكل الأشياء التي ما كانوا معتادين على أكلها. خلال سنوات قليلة، لن تختفي طيور البجع وحدها، ولكن سيختفي حتى البط البري من السهوب".

كانـت روح بايار المعنوية تزداد توهجا مع كل لقمة. وفيما سالت الدهون على ذقنه، قـال: "أعرف أين يوجد المزيد من هذه. اعملوا لنا وجبة إضافية، وغدا سآخذكم إلى هناك. ستجدون كثيرا من البيض في حفر المرموط المهجورة التي على سفوح الجبال، لقد رأيت بعضا منها قرب أحد الجداول عندما كنت أبحث عن حملان شاردة هذا الصباح".

- "عظـيم!"، هتف غاو جيانـزونغ. "هناك رابية بالقرب من الجدول تنتشر عليها الكثير من الحفـر في الرمل، مما يعني أن الأحصنة ستبقى بعيدة عن المكان". فيما كان يقلي الفطائر، طلب من شـن أن يكـسر بضع بيضات أخرى. في وقت قصير جدا كانت فطيرة بيض جديدة، ينـز منها الـدهن، قد أخرجت من المقلاة. تولى غاو تقطيعها إلى نصفين وأعطى نصفا منها لغاسماي والنصف الآخـر إلى ابـنها. زيّنت قطرات العرق رأسيهما فيما كانا يأكلان. كان الدخان الممزوج بالدهون يتصاعد من المقلاة، حيث صبوا فيها مزيدا من البيض المخفوق ما جعل من صوت أزيز يصدر عنه.

بعد أن شبع شن أخرج المغرفة، قال: "الآن سأستضيفكما لتناول نوع مختلف من الطعام". في البداية وضع في المقلاة شحم خراف، ثم كسر بيضتين، وأخذ يقليهما إلى أن أصبحتا شبه مقلية. نهضت غاسماي وابنها على ركبتيهما لينظرا إلى داخل المقلاة. حدّقا بعيون متسعة دهشة بما كانا يريانه. أعطى شن كلا منهما بيضة مقلية، بعد أن رشّ عليها قليلا من معجون الصويا.

- "هذا أفضل حتى من الفطائر"، قالت غاسماي. "أعطني اثنتين أخريين، رجاء".

- "انتظري لحظة"، قال يانغ وهو يضحك، "سأقلي لك بعض البيض بالكراث، وعندما تقولين إنك قد اكتفيت سنجعل صديقنا العزيز زانغ يصنع لنا حساء البيض[1]. كل منا لديه أطباق خاصة".

ملأ الدخان الذي يعبق برائحة عطرة مشبعة بالدهن أرجاء الخيمة فيما كان الأشخاص الستة منهمكين بالأكل حتى لم يعد في وسعهم تناول المزيد فوضعوا أعواد طعامهم على الأرض. كانت مأدبة الطعام البري قد استهلكت أكثر من نصف البيض الذي كان في السطل.

قالت غاسماي إن عليها الرحيل؛ كان هناك الكثير من الأمور التي يتوجب عليها القيام بها بعد الانتقال الأخير. تجشأت بارتياح وقالت وهي تضحك: "لا تتفوهوا بكلمة عن هذا إلى بابا. تعالوا إلى خيمتي بعد أيام قليلة، وسأستضيفكم جميعا لتناول وجبة من خثارة اللبن بالأرز".

قال غاو لبايار مذكرا: "لا تنسَ أن تأخذني للبحث عن المزيد من البيض غدا".

أسرع شن إلى الخارج ودس قطعة كبيرة من فطيرة البيض في فم بار. لفظها بار على الأرض؛ لكن بعد أن تفحصها، شمها، ولعقها، قرر أنها صالحة للأكل. كانت عيناه تشعان بالسعادة، التقط الفطيرة والتهمها ببطء وهو يهز ذيله امتنانا لشن.

عندما غادر ضيفاهم، مضى شن كي يطمئن على جروه.

لم يكن موجودا! داهمت شن قشعريرة باردة، وتفصّد جسده عرقا. صار يجري مذعورا هنا وهناك في الأماكن القريبة، ثم وجد الجرو مختبئا بين الأعشاب الطويلة. خمّن شن أن الشخصين الغريبين وكل تلك الكلاب غير المألوفة المنظر كانوا قد أرعبوه. من الواضح أنه كان يعرف غريزيا كيف يختبئ من الخطر. تنفس شن الصعداء. نظر الجرو إلى ما حوله، وحين رأى الغريبين قد رحلا، قفز واقفا على قدميه وبدأ يشم جسد شن، الذي كان مشبعا برائحة البيض المقلي. أخذ الجرو يلعق يدي شن الملطختين بالدهون.

لذلك رجع شن مسرعا إلى داخل الخيمة، وطلب من غاو ست بيضات، حيث ألقى بها داخل المقلاة مع كثير من الدهن، وصنع فطائر بيض من أجل الجرو والكلاب. لم يكن ذلك شيئا كافيا تقريبا ليشبع جوعها، لكنه شعر بحاجة على الأقل إلى أن يجعلها تعرف المذاق. يبدو أن كلاب السهوب كانت تفضل تناول وجبات خفيفة على الوجبات المنتظمة، وكان منحها

(1) حساء البيض: شراب من البيض المخفوق بالحليب والسكر والشراب. (المترجم)

وجبات خفيفة واحدا من أفضل السبل لإقامة علاقة وطيدة معها. عندما انتهى شن قسّم الفطائر إلى أربـــع قطـــع كبيرة وثلاث قطع أصغر حجما. كانت القطع الكبيرة للكلاب الثلاثة وجرو الـــذئب، والقطـــع الثلاث الأصغر لجراء الكلاب. لم تزل الكلاب تحوم حول مدخل الخيمة، رافضة المغادرة، مما جعل شن يحتفظ بالقطعة المخصصة لجرو الذئب، جثم على الأرض، وصار يربّت على رأسه بمعرفته ليجعله ينتظر دوره وألا يخطف الطعام من واحد من الكلاب الأخرى. أعطى أكبر قطعة إلى إيرلانغ، الذي أخذ يدفعها إلى داخل فمه وهو يهز ذيله بحيوية.

بعد أن ذهبت الكلاب لتمرح على العشب، وكانت الفطائر قد بردت، وضع شن قطعة الفطـــيرة الكـــبيرة المتبقية في الوعاء المخصص لطعام الجرو وحمله ومشى. تبعه يانغ كي، وزانغ جيوان، وغاو جيانـــزونغ، جميعهم أرادوا أن يروا ما إذا كان الجرو سيأكل فطائر البيض، شيء لم يكـــن ذئـــب من ذئاب السهوب قد رآه أو أكله من قبل. "ذئب صغير"، نادى شن، "ذئب صغير، حان وقت الطعام". ما إن وضع الوعاء في الحظيرة حتى جاء الجرو عدوا كما لو أنه كان يطارد حملا ولد حديثا، نشب أنيابه في الفطيرة المشبعة بالدهن والتقمها في فمه، ودفعها سريعا إلى جوفه؛ لم يتطلب الأمر أكثر من ثانية.

شعر الرجال الذين كانوا يراقبون بخيبة أمل، "أشعر بالأسف على هذا الشيء"، قال زانغ. "إنه قانع بأن يدخل طعاما في معدته وحسب. ابحثوا عن كلمة (ذئب) في القاموس، ولن تجدوا معها كلمة (نكهة)".

قال غاو وقد بدا عليه التألم: "كل بيض البط اللذيذ ذاك قد ضاع سدى".

– "من يدري"، قال شن مفسرا من أجل أن يهوّن مرارة خيبة أملهم، "ربما تكون براعم التذوق لدى الذئاب في بطونها".

أدى ذلك إلى انطلاق ضحكات مدوية من أفواههم.

رجع شن إلى الخيمة لترتيب أغراضه بعد عملية الانتقال. قرر أصدقاؤه الذهاب للاهتمام بما لديهم من حيوانات، لكن قبل أن يغادروا قال شن لزانغ: "تريد مني أن أمسك حصانك من أذنيه لمساعدتك على الصعود على السرج؟".

– "لا داعي لذلك"، أجاب زانغ.

الـــتقط بعـــض الملابـــس النظيفة، واستعار نسخة من كتاب جاك لندن (ذئب البحار)، وخرج.

امتطى صهوة حصانه وقاد الأحصنة باتّجاه الجبال التي في الجنوب الغربـــي.

21

رأى شن أن هناك العديد من تجمعات الخراف كانت قد ابتعدت عن حافة البحيرة التي أمامه، لـذلك بادر إلى الإحاطة بقطيعه وقاده إلى البحيرة. ما إن تحركت الخراف، حتى مضى ممتطيا صهوة حـصانه مـتقدما علـيها. وقف قطيع صغير من الأحصنة، بعد أن شرب حتى ارتوى، وسط مياه الـبحيرة لأخذ قسط من الراحة وقد أغلقت الأحصنة عيونها، لم تكن ترغب في العودة إلى الأرض الجافـة. كـان البط البري وأنواع أخرى من طيور الماء تسبح في البحيرة، وكانت بعضها في الواقع تلهو وتعبث حول الأحصنة، ترفرف بأجنحتها تحت بطونها وبين قوائمها. طافت طيور البجع على السطح وسط البحيرة بعيدا، عن الأحصنة على الحافة المقابلة، حيث كان القصب لا يزال ناميا.

فجأة، تبدد السكون بعد سماع أصوات ثغاء تتصاعد من حافة رملية على الساحل الشمالي الغربـي، بعد أن شمت خراف شن رائحة المياه. في الصيف، كانت الخراف تُروى كل يومين، وعبّـرت أصوات الحيوانات عن مدى عطشها. عدت بسرعة نحو البحيرة، مما أثار سحابة من الغـبار. لم يمضِ على مجيء الرعاة ومواشيهم إلى الأرض الجديدة أكثر من أسبوع تقريبا، لكن العشب القريب من البحيرة كان حتى الآن قد تعرض للتلف واختلط بالتربة الرملية حين داست علـيه كل أنواع الماشية، والخراف، والأحصنة التي تأتي إلى هناك لترتوي. اندفعت الخراف إلى البحيرة، واحتشدت بين الأحصنة فيما كانت ترتشف المياه بنهم.

لم تكد خراف شن تتسلق إلى أعلى الحافة الرملية بعد أن شربت ما يكفيها حتى جاء قطيع آخـر مـن الحيوانات العطشى على عجل مثيرا جلبة عالية إلى ضفة البحيرة، مما جعل سحابة أخرى من الغبار تتصاعد هناك.

كـان العمـال قـد نصبوا أربع أو خمس خيم على منحدر لطيف على بعد مئة قدم من البحيرة، حيث انهمك اثنا عشر رجلا في عمل مرهق لحفر الخنادق. تحت إشراف باو شنغوي، كانوا يقومون بإنشاء بركة لتغطيس الخراف، وسقيفة لخزن الصوف، وبناية مقر قيادة مؤقت. رأى شن بعض العمال وأفرادا من عوائلهم يشقون الخنادق ويحرثون قطعا من الأرض من أجل تخصيـصها كحدائق تزرع فيها الخضروات. كانت مجموعة أخرى من العمال قد حفروا مقلعا للحجـارة علـى تـل قريب، وانهمكوا بتحميل صخور صفراء براقة وصفائح من الحجر على عربات كبيرة، والتي كانت تساق عائدة إلى مواقع العمل. كان شن يكره أن يرى شقوقا تحفر في الأرض البكر، فاستدار عائدا إلى خرافه وساقها متوجها بها بعيدا نحو الشمال الغربـي.

عبر القطيع سلسلة من المرتفعات نحو حوض معشوشب. كان بلغي قد طلب ألا تترك المواشي ترعى في الحوض حصريا؛ ذلك لأن أيام الصيف تكون طويلة جدا، كما قال، وينبغي أن تساق الحيوانات إلى أبعد مكان ممكن. بتلك الطريقة لن تكون ثمة حاجة إلى الانتقال مرة أخرى حين ينتهي الصيف ويأتي الخريف. كان يخطط لأن يجعل الحيوانات تجري عدة عمليات اكتساح للحوض والمناطق المتاخمة له لمنع العشب من الاستمرار في النمو خارج نطاق السيطرة، وأن تدوس التربة الرخوة كوسيلة للقضاء على البعوض. تحرك قطيع شن، وقد اتخذ في سيره شكل الهلال، ببطء باتجاه الجبال التي في الغرب.

تحت وهج الشمس الساطعة، كانت أشكال ألف خروف أو نحو ذلك مع حملانها تتلألأ كأنها حقل من أزهار الأقحوان، في انسجام مذهل مع ما يحيط بها من مناظر خضراء. تناوبت الحملان، التي أصبح الصوف الذي يغطي أجسامها منفوشا، في اجترار العشب والرعي على كل ما ينمو في الحقل المزهر. كانت ألياتها المستديرة مكتنزة وقد أصبحت تقريبا مثل أليات أماتها التي ما زالت ترعاها. شعر شن بأن عينيه متخمتان ببريق كان ينبعث من زنابق النهار صفراء، التي أزهرت منذ فترة قصيرة على سفح الجبل. تفتحت زهور صفراء اللون كبيرة في عشرات الآلاف من الأجمات، التي يصل طولها إلى قدمين، كانت تشبه الأبواق، ذات براعم جديدة، طويلة ونحيفة رقّطت الأغصان التي تحتها، وبدت على استعداد للتفتح عما قريب.

نهض شن، امتطى حصانه، ومضى الحصان يعدو به متجها إلى حقل أكثر خصبا وكثافة في زهوره ليقطف شن القليل منها، حيث كانت الزهور قد أدخلت ضمن النظام الغذائي لطلاب بكين: زنابق مع أقراص فطائر بلحم الحملان، زنابق مع سلطة البصل الجبلي، زنابق مع حساء لحم الحملان المهروس، وغيرها كثير. بعد أن عاشوا دون خضروات طوال الشتاء، صاروا يأكلون النباتات البرية الخضراء والزهور كأنهم الخراف التي ترعى الأرض المعشوشبة. ذهل الرعاة المحليون من ذلك، لأن الزهور البرية لم تكن من ضمن الأنواع التي كانوا يأكلونها. قبل أن يغادر شن الخيمة صباحا، كان زانغ جيوان قد أفرغ زوجا من الحقائب المدرسية، مما حرم شن من متعة القراءة في الوقت الذي كان يرعى فيه القطيع، وهكذا فقد استطاع هو ويانغ أن يأتيا بكمية كبيرة من الزهور البرية قبل أن تذبل وتموت. خلال بضعة أيام كانا قد ملآ مسبقا نصف كيس من الزهور الجافة.

كانت الخراف ترعى الحقل خلف شن عندما سارع ليملأ إحدى الحقائب بالزهور. في الوقت الذي كان فيه مستمرا بقطف الزهور، اكتشف وجود بعض فضلات الذئاب عند قدمه. انحنى والتقط قطعة منها ليتفحصها عن قرب. كانت رمادية اللون، طولها تقريبا طول الموزة، وقد جفت مسبقا، بالرغم من أنه كان في وسعه أن يدرك أنها جديدة نسبيا. لم يكد يجلس على الأرض كي يتفحصها حتى اتضح له أن هذه البقعة لا بد من أن تكون موقعا استراح فيه ذئب

مـــا منذ بضعة أيام ليس إلاّ. ما الذي كان يفعله الذئب هنا؟ حاول أن يدقق في المكان لكنه لم يجـــد أثـــرا لعظام أو فرو حيوان، لذلك تيقن أن ذلك لم يكن موضعا كان الذئب قد التهم فيه فريـــسة. كثيرا ما كانت مجموعات صغيرة من الخراف تعبر من المنطقة التي نمت عليها الزهور بأغصانها الطويلة والعشب الكثيف، ربما كان هذا مكانا يختبئ فيه الذئب، وبقعة مثالية لنصب الكمـــائن. فجـــأة توترت أعصابه، نهض ونظر إلى ما حوله، وشعر بالسعادة عندما رأى بعض الـــرعاة الـــذين كانوا يتأملون في ما يحيط بهم من مناظر خلال استراحتهم. ولأن قطيعه كان موجودا على بعد عدة مئات من الأقدام خلفه، فقد استرخى شن وعاد للجلوس.

لقـــد اعـــتاد شـــن على رؤية فضلات الذئاب، لكن كانت هذه هي الفرصة الأولى التي أتيحت له ليتفحصها عن قرب. كسر جزءا منها؛ وجد في داخلها فرو غزال وصوف خراف، لكـــن لم تكن هناك حتى كسرة من العظام. كانت هناك بعض أسنان فئران الحقول وبضع قطع متكلسة من الصوف. فتت القطعة في يده، لكنه لم يعثر فيها على شيء غير ذلك. كانت قطع اللحـــم، والجلد، والعظام، والأوتار العضلية للخراف والفئران التي التهمها الذئب قد انهضمت بالكامـــل، و لم يبقَ منها شيء سوى الفراء والأسنان. حينما دقق النظر عن قرب أكثر، رأى أن الشعر الأكثر خشونة وحده قد عبر من خلال جسم الذئب. لم يكن لدى الكلاب نظام هضمي بمـــثل تلك الكفاءة، كما كان يعرف، لأن المرء يمكن أن يعثر عادة على بقايا غير مهضومة مثل العظام ولب الذرة في فضلاتها.

كانـــت الكفـــاءة التي تتخلص من خلالها الذئاب، التي تعتبر بحق عمال تنظيف وتعقيم للـــسهوب، مـــن كل شيء – الأبقار، والأحصنة، والمرموط والغزلان، والأرانب البرية وفئران الحقول، وحتى البشر – شيئا مثيرا للاستغراب. فيما كانت الحيوانات تمر من خلال فم الذئب، ومعدته، وأمعائه، تمتص منها كل المواد المغذية، ولا يتبقى منها سوى نتف من الشعر والأسنان، ولن تكفي تلك المواد حتى لتتغذى الجراثيم عليها. لقد بقيت السهوب نظيفة على مدى العصور بفضل الذئاب إلى حد كبير.

تمايلت سيقان الزهور البرية مع النسيم، قام شن بتفتيت آخر ما تبقى بين يديه من فضلات الـــذئب، فتحول ذلك إلى نثار جرفته الرياح بعيدا، ومن ثم استقر على الأرض كي يتوحّد مع الـــسهوب، لم يتـــرك أي أثر من الفضلات على الإطلاق. فيما يتعلق بفضلات الذئاب كانت المسألة حقا تتلخص في التحول من الرماد إلى الرماد ومن التراب إلى التراب.

أضـــحى شن في غضون ذلك مستغرقا في أفكاره. على مدى تعاقب القرون، كان الرعاة والصيادون على السهوب يعودون إلى تينغر من دون حاجة إلى الدفن ولا شواهد القبور، وحتما ليـــست هناك أضرحة. يولد الرجال والذئاب على السهوب، يعيشون معا هناك، ويتقاتلون معا هناك، ويموتون هناك. يتركون السهوب على الحالة التي وجدوها عليها تماما.

في كـــل شـــهر، أو علـــى الأقل في كل فصل من فصول السنة، كان واحد من سكان الـــسهوب يموت فتجري مراسم دفنه... رفع شن يديه إلى السماء الزرقاء وتفوه بشيء عبّر فيه عن رغبة صامتة بأن تنعم جميع الأرواح تلك بالسلام.

* * *

تكون أيام الصيف عادة طويلة بشكل مروّع على السهوب المنغولية. يغمر ضوء الشمس السماء من الساعة الثالثة صباحا وحتى التاسعة ليلا. لم تكن الخراف تؤخذ إلى خارج حظائرها حتى تحين الساعة الثامنة أو التاسعة، بعد أن تكون الشمس قد بدّدت الصقيع. وفي الليل لا تعاد الخراف إلى حظائرها حتى بعد حلول الظلام، لأنه في الفترة الممتدّة بين الغروب وهبوط الظلام بالذات كانت تأكل الخراف بشكل أكثر نهما، ويمكنها أن تسمن. وتستغرق رعاية الخراف في الـــصيف تقريبا ضعف الوقت الذي تتطلبه في الشتاء. ويمثل الصيف أقل فصول السنة التي يحبها الـــرعاة. بعد تناول الإفطار، يخرجون وهم جياع ويبقون في مكان الرعي حتى الساعة التاسعة لـــيلا؛ وطوال النهار كانت تصليهم أشعة الشمس، ويكافحون الرغبة الملحة في النوم، ويعانون من العطش والجوع، ويتناولون أشياء مملة. عند ذروة الصيف، يحوّل البعوض أرض السهوب إلى غـــرفة للتعذيب. ومقارنة مع أيام الصيف التي تستنـــزف القوى، كانت فصول الشتاء الطويلة الباردة هي الأوقات السعيدة.

قـــبل أن يواجه حشود البعوض، كان شن يعتقد بأن الجوع والعطش هما من الأمور التي تأخـــذ أكبر ضريبة من الناس. أما بالنسبة إلى الرعاة، من ناحية أخرى، فكانوا يتحملون الجوع والعطـــش بصبر، بالرغم من أن غالبيتهم كانوا يعانون أحيانا من اضطرابات في المعدة. خلال الصيف الأول الذي أمضوه الطلاب، كانوا يأخذون طعاما جافا يأكلونه عندما يتركون الخراف ترعى بمفردها على العشب، لكنهم لاحقا صاروا يتّبعون العرف المحلي في التحمل والصبر دون أن يتناولوا وجبة في منتصف النهار.

* * *

بيـــنما كـــان شن واقفا هناك وسط الأعشاب الطويلة، جاء دورجي على صهوة حصانه وســـأل شـــن عـــن رأيه في تناول القليل من لحم المرموط المشوي. سال لعاب شن عندما سمع بالفكـــرة. "إنها تنتشر في كل مكان"، قال دورجي. "على سلسلة المرتفعات الصخرية تلك التي في جهـــة الغـــرب تنتشر حفر المرموط وكأنها ندب الجدري على الجسم. دعنا نستطلع المكان اليوم، وبعدها ننصب عشرة فخاخ غدا. يمكن أن نصطاد بعضا منها مع حلول الظهيرة، ونأكل لحـــم المـــرموط على الغداء. ذلك من شأنه أن يشبع جوعنا ويمنعنا من أخذ قيلولة في منتصف النهار". نظر دورجي إلى قطيعي الخراف، قطيعه وقطيع شن، ولم يشاهد أحد الخراف قد نهض ليرعى. لذلك ذهب الرجلان يمتطيان صهوتي حصانيهما صوب المرتفعات، حيث اختبأ حشد

بعض الصخور الجيرية، وهما يلقيان نظرة تارة على الخراف التي وراءهما وأخرى على حفر المرموط التي أمامهما. أخرجا منظاريهما. كان كل شيء ساكنا على المرتفعات الجبلية، بدت عشرات من حفر المرموط فارغة؛ سطع ضوء الشمس على قطع صغيرة من الخامات المعدنية التي تخللت الحجارة الجيرية.

قبل مضي وقت طويل، سمعا أصوات سقسقة المرموط التي كانت تشبه الصرير، إنها ضوضاء تصدرها حيوانات المرموط لاستكشاف المنطقة قبل أن تبرز من حفرها. إذا لم تكتشف أي رد فعل فهي تصعد إلى الخارج في أعداد كبيرة. لم تكن هناك أي ردود أفعال، لذلك خرجت عشرات منها، كبيرة وصغيرة، حيث ملأت الهواء بسقسقاتها. من كل حفرة خرجت، على ما يبدو، إحدى الإناث كي تستطلع المنطقة، وعندما رأت الإناث عدم وجود أي من الضواري في مكان قريب، أصدرت سقسقة بطيئة، إشارة إيقاعية تعبر فيها عن خلو المنطقة من شيء ينذر بالخطر، انطلقت على إثرها حشود من حيوانات المرموط الصغيرة خارجة من الحفر وبدأت تجتر كتلا من الأعشاب ضمن منطقة تبعد ثلاثين أو أربعين قدما من حفرها التي توفر لها الأمان. مع وجود العقبان التي كانت تحلق في دوائر عاليا في سماء ذات زرقة داكنة، استمرت الإناث تراقب بحذر. عندما يهبط أعداؤها الطبيعيون من ذوات الأجنحة، تطلق أمّات المرموط أصوات سقسقة مسعورة، مما يجعل الحيوانات الصغيرة تندفع مسرعة راجعة إلى حفرها الآمنة، حيث تنتظر إلى أن يزول الخطر.

عندما ندت عن شن حركة خفيفة، وضع دورجي يده على كتفه ليجعله يهدأ، "انظر إلى الحفرة التي هناك"، قال هامسا. "هناك ذئب. إنه يتطلع إلى وجبة من المرموط، مثلنا تماما". تنبّه شن على الفور أكثر واستدار لينظر. كان هناك ذكر مرموط كبير واقفا أمام حفرته، بينما طوى قائمتيه الأماميتين قبالة صدره فيما بدا منشغلا باستطلاع أرجاء المنطقة، من الواضح أنه كان مترددا في مغادرة حفرته للرعي على العشب. تعيش ذكور وإناث المرموط بصورة منفصلة عن بعضها. كانت الإناث تعيش عادة في حفرة واحدة مع صغارها؛ أما الذكور فتعيش بمفردها في حفرة أخرى. لقد كانت هناك بقعة واسعة من الأعشاب الطويلة في مكان ليس ببعيد أسفل حفرة ذكر المرموط هذا بالتحديد، وفيما تمايل جسده مع النسمات الخفيفة، كانت قمم الصخور بنية اللون تخفي وراءها عيونا تختلس النظر. جعلت الظلال المتغيرة من الصعوبة عليه أن يميز كل شيء يجري بعيدا عنه في الأسفل.

- "لا أرى ذئبا"، قال شن. "لا شيء سوى بعض الصخور".

- هناك ذئب يختفي إلى جانب إحدى تلك الصخور، وأراهن أنه كان موجودا هناك منذ مدة طويلة.

حاول شن جاهدا أن يمعن النظر، تصور أن بإمكانه تمييز شكل جزئي لذئب. "لديك عينان أفضل من عيني"، قال. "لقد حدّدت مكانه".

- "إذا لم تكن تعرف كيف تتمكن الذئاب من اصطياد المرموط"، قال دورجي موضحا، "لـــن تقدر أبدا أن تحدّد مكان ذئب مثل هذا. على الذئاب أن تبقى باتجاه الريح التي تهب من ناحـــية فريستها، مختبئة وسط بقعة من الأعشاب أسفل حفرة المرموط. يعتبر اقتناص واحد من تلـــك الحيوانات عملا شاقا، حتى بالنسبة إلى الذئب، لذا فهي تركز على الذكور الكبيرة منها. هل تشاهد ذلك الحيوان الكبير الذي يقف هناك؟ اللعين يكاد يماثل في حجمه حملا ولد حديثا. إنـــه وجبة كافية بالنسبة إلى ذئب واحد. إذا أردت أن تبحث عن ذئب، عليك أن تتوجه إلى أقـــرب وجار مرموط من الذكور، ومن ثم تستطلع الأعشاب الطويلة التي باتجاه الريح التي تهب من ناحيته".

- "حسنا، لقد تعلمت خطة أخرى اليوم"، قال شن معبّرا بذلك عن سعادته. "لكن متى يقرر المرموط النـــزول ليأكل؟ أريد أن أرى كيف يمسك به الذئب. هناك حفر في كل مكان، وفي اللحظة التي يكشف فيها الذئب عن نفسه، سيندفع المرموط إلى أقرب حفرة منها".

قـــال دورجي: "يحتاج الأمر إلى ذئب ذكي لاقتناص المرموط. توجد لدى الذئاب خطة معينة تمنع من خلالها المرموط من دخول حفرة ما. دعنا نرى كيف سيتصرف هذا الذئب".

نظـــرا إلى أســـفل المنحدر، حيث ما زالت خرافهما تستلقي على العشب، وقررا التحلّي بالصّبر لرؤية ما الذي سيحصل. "من المؤسف جدا أننا لم نصطحب معنا كلبا"، قال دورجي. "لو كنا قد فعلنا ذلك لأمكننا أن ننتظر حتى يمسك الذئب بهذا المرموط، ثم نطلق الكلب ونتبعه على الأحصنة. سيصبح المرموط حينها وجبة شهية؛ لكن لنا، وليس للذئب".

- "لماذا لا نطارده على أي حال؟"، قال شن. "ربما نتمكن من الإمساك به".

- "لا ســـبيل إلى ذلـــك"، قـــال دورجـــي. "انظر وحسب. الذئب موجود على حافة المـــرتفعات، لـــذلك فهو سيتّجه إلى أسفل المنحدر، ونحن سنصعد. وما إن يتمكن الذئب من الوصـــول إلى المرتفعات، لن تبصره ثانية أبدا. إلى جانب ذلك، ومع وجود كل تلك الحفر، لن تستطيع أحصنتنا أن تعدو سريعا". تخلى شن عن الفكرة.

- "كـــلا، سننصب بعض الفخاخ غدا"، قال دورجي. "لقد أتيت بك اليوم إلى هنا كي ترى المكان. الذئاب ستستمر في صيد المرموط لأسابيع قليلة أخرى ليس إلاّ. حينما تهطل الأمطار وتظهر أســـراب البعوض، لن تستمر في مطاردة المرموط. لماذا؟ لأن حيوانات المرموط تخاف البعوض، الذي يهاجم خطومها، وعيونها، وآذانها، مما يجعلها تقفز في الهواء لتنجو بأنفسها، وهذا ما يجعلها تسرع في العـــودة إلى حفـــرها. وذلـــك هـــو الوقت الذي تتخلى فيه الذئاب عن مطاردة المرموط وتتحول باهتمامها إلى خرافنا وأحصنتنا. تكون تلك أخبارا سيئة بالنسبة إلينا وإلى مواشينا".

كـــان ذكر المرموط الكبير يراقب حيوانات المرموط الأخرى وهي تلتهم العشب إلى أن أضحى لا يقوى على الانتظار أكثر، فترك المنطقة الآمنة لحفرته بعد أن تغلب عليه إغراء العشب

الـــذي كان على بعد عدة أقدام من الحفرة. بعد أن تناول بضع قضمات بحذر، عاد مسرعا إلى حفـــرته وسقسق بصوت مرتفع. "هل رأيت كيف أنه لا يأكل العشب الذي حول حفرته؟ إنه يجعـــل ذلك نوعا من الحاجز. الأمور هنا ليست سهلة على الإطلاق"، قال دورجي. "إن لحظة واحدة من التصرف غير المتأني هي كل ما يتطلبه الأمر لتخسر حياتك".

راقب شن الذئب بلهفة متزايدة. لم يكن يبدو عليه أنه يتمكن من رؤية المرموط جيدا من مكانه الذي يختبئ فيه، ويبدو كأنه كان يعتمد على الصوت في تحديد موقع وحركات فريسته. كان يضغط جسده بشدة على الأرض بشكل مسطح كما لو أنه قد التصق فيها.

بعد أربعة أو خمسة انتقالات بسرعة البرق إلى العشب والعودة منه، استرخى المرموط، لم يعـــد يـــساوره شعور بوجود خطر كامن، عدا متجها إلى بقعة كان فيها العشب قد بلغ ذروة خـــصوبته. مرت خمس أو ست دقائق؛ وبعدها، وعلى حين غرة، انتصب الذئب واقفا. لكن الـــشيء الذي أثار دهشة شن أن الذئب بدلا من أن يندفع وينقض على المرموط، ضرب ببراثنه علـــى بعـــض الصخور المتراخية، مما جعل العديد منها تتدحرج إلى أسفل المنحدر، وتصاعدت ضـــجة مع تسارع حركة الصخور المتهاوية وزيادة عددها. استمر شن في مراقبة المرموط، الآن وقـــد أصـــبح يـــبعد عن حفرته مسافة عشرين قدما أو أكثر، ونظر إلى الأعلى فزعا، استدار، وأسرع يجري راجعا إلى موضع الأمان. لكن الذئب اندفع باتجاه حفرة المرموط، وصل إليها في الـــوقت نفسه تقريبا لوصول ساكنها الأصلي. قبل أن يتمكن المرموط من الاندفاع إلى داخل الحفرة، كان الذئب قد أمسك به من جلد رقبته. سرعان ما ارتمى المرموط على الأرض، حيث نـــشب الـــذئب أنيابه في رقبته. بعد ذلك التقطه الذئب وعدا بعيدا، اجتاز المرتفعات الصخرية بسرعة. لم تستغرق المناورة كلها أكثر من ثلاثين ثانية.

كانـــت جميع حيوانات المرموط قد اختفت. جلس الرجلان في مكانهما. استرجع شن في رأســـه صـــورة الذئب الذي أمسك بفريسته. لم يتفوه بشيء. كانت الحكمة التي تصرف بها الذئب شيئا لا يمكن أن يسبر غوره. وكأنه وحش جاء من عالم خيالي.

* * *

تحول ضوء الشمس إلى ضوء مائل إلى الاصفرار، وكانت الخراف قد عادت لترعى، بعد أن انـــتقلت إلى مكان على بعد بضع مئات من الأقدام إلى الغرب. بقي شن ودورجي يتحدثان لدقائق قبل أن يقررا الرجوع إلى قطيعيهما، استدارا بالخراف، وتوجها عائدين إلى المخيم. لكن تمامـــا في الوقت الذي كانا فيه على وشك الصعود على السرجين، تنبّه شن إلى وجود حركة مـــريبة وســـط خـــرافه. أخرج منظاره بسرعة، ووجّهه إلى الطرف الأيسر من قطيعه، حيث اكتـــشف ذئبا ضخما ينـــزلق خارجا من حوض من الأزهار ويقفز على أحد خرافه، أسقطه أرضـــا وشـــل حركته. شحب وجه شن من الذعر، وكان على وشك أن يصرخ عندما أوقفه

دورجـــي. ابـــتلع الـــصرخة وأخذ يراقب الذئب وهو يمزق اللحم من إحدى قائمتي الخروف الخلفيـــتين وكـــان لا يزال حيا. بما أن الخراف كانت من الحيوانات البليدة، فإنها لا تصدر أي صـــوت عـــندما ترى الدماء. كافح هذا الخروف، نبش الأرض بقائمتيه الأماميتين، لكنه على العكس من الماعز، لم يصدر صوتا، ولا حتى توسل من أجل تقديم المساعدة له.

- "نحـــن في مكـــان بعيد لا نتمكن فيه من إنقاذ الخروف"، قال دورجي. "اترك الذئب يأكـــل. حينما تمتلئ بطنه بحيث لا يقوى على الركض، سنصطاده. انتظر، أيها الذئب اللعين"، تابـــع الكـــلام بهدوء، "تعتقد أنك تستطيع أن تنهب أحد خرافنا أمام أنظارنا. حسنا، سنرى ذلك!". انتقلا من مكانهما واختبأا خلف صخرة كبيرة لئلا يكشفا عن نفسيهما في وقت مبكر جدا.

بدا من الواضح أنهما كانا في مواجهة ذئب جسور يتضور جوعا. بعد أن رأى الذئب أن القطيع كان يفتقر إلى من يرعاه منذ مدة طويلة، تحرك عبر الأعشاب الطويلة والزهور البرية في مكان مرتفع قريب من القطيع، وبعدها وثب، وعلى الفور بدأ يلتهم الخروف السمين. لقد رأى الـــرجلين والأحـــصنة موجودين على المرتفعات الصخرية، لكنه لم يولِ هاربا. أبقى عينا على الـــرجلين، وخمّن المسافة التي تفصله عنهما، كان يأكل بأقصى سرعة ممكنة ويزدرد أكبر كمية من اللحم. لا عجب في أن جرو الذئب الذي هناك في المخيم كان يحوّل وقت تناول الطعام إلى معـــركة، استغرق شن في أفكاره. على السهوب، الزمن يعني الطعام، والذئب الذي يعتاد على تناول طعامه بطريقة مترفة سيتضور جوعا حتى يموت.

لقد سمع شن الرعاة يروون قصصا عن مبادلة الخراف بالذئاب، وتبين له أن هذه المواجهة كانـــت صـــورة مصغرة لإحدى المعارك الاستراتيجية تلك. تعتبر مبادلة خروف بذئب ناضج صفقة رابحة. إن الذئب الكبير الواحد يلتهم عشرة أو أكثر من الخراف في كل سنة، بغض النظر عن حصان أو مهر يمكن أن يفتك به من حين إلى آخر. الراعي الذي يبادل خروفا مقابل ذئب لن يتعرض للانتقاد ولا العقاب من قبل فرقة الإنتاج؛ بل يتلقى المديح. ما كان يشغل ذهن شن هـــو احـــتمال أن يخسر خروفا دون التمكن من اقتناص الذئب. سيعتبر ذلك خسارة جسيمة. حدّق إلى الذئب من خلال منظاره، رأى أن إحدى قوائم الخروف بكاملها - الصوف، والجلد، وكل شيء - قد انتهى بها الأمر إلى بطن الذئب في غضون نصف دقيقة أو أقل. ذلك الخروف كـــان مـــشؤوما، وتمنى شن أن يأكل الذئب الحيوان بأكمله. تحرك هو ودورجي ببطء باتجاه الحـــصانين. رفعـــا الأربطـــة عـــنهما، تمسكا بالأعنة بقوة، وانتظرا فيما كان قلباهما قد بلغا حنجرتيهما.

تتميـــز الخراف أنها حيوانات غبية. حينما داهم الذئب الخروف تعيس الحظ وأسقطه على الأرض، تبعثرت الخراف الأخرى مذعورة. لكن سرعان ما عاد القطيع كله إلى الهدوء، حتى إن

بضعة خراف اقتربت أكثر بجبن كي تراقب الذئب وهو يأكل فردا من قطيعها. وفيما استمرت الخــراف بالنظــر، انضمت إليها مزيد من الخراف، إلى أن صارت تقف هناك على الأقل مئة خــروف وقــد تسمرت عيونها تماما على الذئب وضحيته التي تلطخت بالدماء؛ كانت تتدافع وتلتــصق ببعــضها بعضا وترفع أعناقها لتحصل على مجال أفضل للرؤية. لقد بدا كما لو أن التعــبيرات التي ارتسمت في عيونها كانت تقول: "حسنا، الذئب يأكلك أنت وليس أنا!" أو، "أنت تموت من أجل أن أتمكن أنا من العيش". لقد توازنت مخاوفها مع شعور بالتشفي. لم يقدم أحدها على أي حركة لإيقاف الذئب.

ذهل شن من هول المشهد، جعله ذلك يتذكر الكاتب لو زون، الذي كان قد كتب عن حــشود مــن الصينيين البلهاء الذين يفتقرون إلى الحكمة وهم يتابعون النظر باهتمام إلى مبارز يابــاني يحمــل سيفا كان على وشك أن يقطع به رأس سجين صيني. ما الاختلاف بين ذلك المــشهد وهــذا؟ ليس من المستغرب أن ينظر البدو إلى الصينيين من الهان وكأنهم خراف. ربما يكون منظر الذئب الذي يأكل أحد الخراف يبعث على الاشمئزاز، لكن الشيء الذي يبعث على الاشمئزاز أكثر هو تلك الحشود من الناس الجبناء الذين كانوا يتصرفون مثل الخراف.

كــان دورجي في حيرة من أمره. بما أنه كان معروفا في أوساط الفرقة كلها كصياد من الطراز الأول، فقد أصبح الآن في موقف لا يحسد عليه لأنه ترك قطيعه من أجل أن يرافق طالبا من بكين لاصطياد المرموط، وخسر بسبب ذلك العمل خروفا سمينا لطيفا افترسه ذئب منفرد في ضوء النهار. نتيجة لفقدان نعجة، لن يكون حملها قادرا على الرضاعة والنمو إلى أن يغدو كبيرا وسمينا، سيحكم عليه بالهلاك في غضون الشتاء المقبل. في فرقة مكرسة لتربية المواشي، يعتبر هذا إهمــالا، ومن المؤكد أن يتعرض شن للانتقاد مقابل ذلك، ويقع دورجي في ورطة. والأسوأ من ذلك كله، أن يحصل هذا مع شخصين كانا يربيان جراء ذئاب هناك في المخيم؟ الشخص الذي لا يــولي اهتماما جادا بالخراف ينبغي ألا يكون راعيا، ولا بدّ للذئاب من أن تسعى كي تأخذ بــثأرها من أي شخص يربــي واحدا منها. وعلى الفور سيعتبر كل فرد في الفرقة، من الذين عارضوا فكرة إقصاء ذئب بعيدا عن البراري، وستكون هذه الحادثة دليلا على أنهم كانوا على حق، وهكذا فقد تفاقمت مخاوف شن.

أبقى دورجي منظاره موجها إلى الذئب، كان يشعر بالثقة تدريجيا إزاء ما ينبغي لهما القيام بــه. "سأتحمل المسؤولية عن خسارة الخروف"، قال. "لكن الفرو سيكون من نصيبــي. حالما أسلم ذلك الفرو إلى باو شنغوي، سينتهي بنا الأمر إلى أن نكون في موقف ممتاز".

صار الذئب يسرع في الأكل، لم يشح بنظره مطلقا عن الرجلين اللذين كانا يراقبانه. كان ينتزع قطعا كبيرة من اللحم ويبتلعها دفعة واحدة، بدا مسعورا تماما. "حتى أكثر الذئاب ذكاء يمكــن أن يقتــرف أفعالا تتسم بالغباء عندما يكون جائعا"، قال دورجي. "ألا يدرك أنه عما

قـــريب لن يقوى على الهرب؟ هذا حتما ليس واحدا من الذئاب الذكية، وهو ذئب ليس ماهرا في صيد المرموط. ربما لم يأكل شيئا منذ أيام".

رأى شن أن الذئب كان حتى الآن قد استنــزف نصف الخروف؛ أضحت بطنه مستديرة ومشدودة. "ما الذي ننتظره؟"، سأل.

– "هوّن عليك"، أجاب دورجي. "دعنا ننتظر قليلا. لكن بعدها علينا أن نتحرك بسرعة. سنهاجم من الجنوب ونسوق الذئب إلى الاتجاه المعاكس، لأن ذلك هو المكان الذي يوجد فيه الرعاة الآخرون. يمكنهم أن يساعدونا على مطاردته".

اســـتمر دورجي في المراقبة لفترة قصيرة أخرى، ثم صاح، "اركب حصانك!". فيما وثبا على سرجيهما، اندفعا إلى أسفل المنحدر جنوب القطيع. كان الذئب قد خطط مسبقا للمسار الذي سيتبعه في الهرب، وفي اللحظة التي رأى فيها الرجلين يندفعان باتجاهه، لم يتوقف عن نهش الخروف، ابتلع بضع قطع أخرى من اللحم التي قضمها، تاركا ما تبقى من الخروف الذي كان قد قضى نحبه، واستدار متّجها صوب الشمال. لكنه لم يكن قد ذهب بعيدا حتى تعثرت خطاه، وأدرك أنـــه قد اقترف خطأ في حساباته بشكل بالغ. توقف فجأة وانـــزلقت حوافره، خفض رأسه، وجثم على الأرض.

– "أه... وو، ذلك شيء مؤسف!"، صاح دورجي. "إنه يتقيأ ما أكله للتو".

راقب شن الذئب وقد تقوّس ظهره، وأخذ يتقيأ كتلا كبيرة من لحم الخروف. كانت تلك فرصـــتهم المواتية. نخسا الحصانين حتى يتقدما بسرعة إلى الأمام، وتقلّصت بالفعل المسافة التي تفصل بينهما وبين الذئب الذي ما زال يتقيّأ.

كـــان شـــن يُدرك أن الذئاب يمكن أن تجلب الطعام لصغارها، لكن هذا الشيء أصابه بالذهـــول: ذئب يتقيّأ الطعام الذي يبطئ حركته. ربما كان ذئبا يتضوّر جوعا، لكنه ليس ذئبا غبـــيا، وإذا نجح في تفريغ معدته، فإن المشكلة التي من المحتمل أن تواجه الرجلين ستصبح حقيقة ماثلـــة. هوى شن على حصانه بالسوط ليسرع أكثر، لكن دورجي تقدم عليه بمسافة، وكان طـــوال الوقت يصرخ ليفزع الذئب، ويثير انتباه الرعاة الذين كانوا على سفوح الجبال المقابلة. عندما أصبح الذئب قريبا منهما بشكل ينذر بالخطر، توقف عن التقيّؤ وعدا محاولا النجاة بحياته، فـــيما اكتـــسب أقـــصى سرعة في مدة لا تكاد تُذكر. عندما تسلق شن المرتفع ممتطيا صهوة حـــصانه، ووصـــل إلى الموضع الذي كان قد توقف عنده الذئب، رأى كومة كبيرة من اللحم المـــتلطخ بالدماء، أثار المنظر أعصابه، وشعر بالغثيان بشكل مؤقّت؛ لكنه بعدها ضرب حصانه بلا رحمة بالسوط، وعاد للانضمام إلى المطاردة.

لا بدّ من أن يكون الذئب قد توقف عن التقيّؤ قبل أن يُفرغ معدته تماما، و لم يمضِ على ما تبقّى في معدته وقت كاف ليتحول إلى طاقة. كان الذئب سريع الحركة، لكنه أبطأ من المعتاد.

و لم يكــن دورجــي يواجه مشكلة في اللحاق به. بعد أن رأى الذئب أنه لم يعد قادرا على أن يسبق مطارديه، انحرف وتوجّه نحو إحدى التلال الحادة، وهي خطة كانت جميع ذئاب السهوب تلجــأ إليها عندما تتعرض حياتها لخطر وشيك. بعد ذلك، لاح لهما الراعي سانجاي واقفا على قمة التل، وكأنما قد ظهر من العدم؛ كان يرفع عمود أنشوطته، وبذلك قطع على الذئب طريق الهــرب، مما جعل الذئب يرتجف من الخوف. لم يستغرق ذلك إلا لحظة حتى غيّر الذئب مساره فجأة، وتوجّه مباشرة ناحية قطيع للخراف كان يرعى في مكان قريب. اندهش شن عندما رأى أن الذئب كان على وشك أن يُلحق فوضى عارمة في القطيع، مما يجعل الخراف حاجزا بينه وبين الرجال الذين يلاحقونه على الأحصنة، حيث يتوجب عليهم أن يكبحوا جماحها. ومن المحتمل أن يتمكن الذئب من اختراق صفوفها إلى الجانب الآخر وينجح في الفرار.

لكــن حالة التردد المؤقتة التي اعترت الذئب كانت قد منحت دورجي الفرصة لأن يعدو بحصانه صاعدا وراء الذئب، ويعطي سانجاي وقتا كافيا لأن يسدّ عليه الطريق. في الوقت الذي استدار فيه الذئب كي يغيّر طريقه مرة أخرى، انحنى دورجي إلى الأمام وهو على السرج، دفع عمــود أنــشوطته إلى الخارج، هزّ الحبل ليشكل أنشوطة، واستطاع تقريبا أن يلفها حول رقبة الــذئب، جذبها على الفور بشدة قبل أن يحظى الذئب بفرصة لأن يسحب رقبته إلى الوراء نحو كتفيه. بينما كان حبل دورجي يلتفّ بإحكام حول رقبة الذئب، خلف أذنيه، ارتدّ بحصانه إلى الوراء وبدأ يسحب الذئب خلفه.

لم يتمكن الذئب من القتال طويلا لأن وزنه كان يزيد من انشداد الأنشوطة. تدلى لسانه مــن فمه المفتوح فيما هو يكافح من أجل أن يتنفس، لكن رغوة من الدماء كانت قد تسللت مــسبقا إلى خــارج فمه. بدأ دورجي يسحب الذئب إلى أعلى التل، ويزيد من شدة المسكة الخانقة. جاء شن يمتطي صهوة حصانه، ووقف يراقب الذئب وقد بدأت تنتابه تشنّجات الموت. تــنفس الصعداء. لن تضعه فعلته الرعناء في موقف حرج على أي حال. شعر بالارتياح، لكن لــيس بالإثارة، لأنه كان شاهدا على موت عنيف لذئب كان حيا ونشطا منذ لحظات مضت ليس إلاّ. السهوب مكان قاس، يأخذ ثمنا فظيعا من كل مخلوق يكافح كي يبقى حيا في الصميم منها. المخلوق البطيء، والأخرق، والبليد يتهاوى، ويخرج من الميدان بلا أدنى رحمة. امتلأ قلب شــن بحزن ثقيل الوطأة. كان الذئب المحتضر يتمتع بالفطنة والقوة. في عالم البشر، هل يمكن أن ينتهي مصير الإنسان الذي يتمتع بمثل ذلك الذكاء، وتلك الشجاعة إلى الفناء؟

كــان الــذئب قد أصبح ضعيف الحركة في الوقت الذي وصل فيه دورجي إلى منتصف المــسافة التي تؤدّي إلى قمة التل، لكنه ما زال يتنفس، وما زال ينــزف دما. وثب دورجي إلى الأرض، هــزّ العمود وجذبه بيديه معا ليمنع الذئب من الوقوف على قوائمه. عندما سحبه إلى المكــان الــذي وقف فيه، أمسك عصاه وهوى بها على رأس الذئب فحطّمه. بعد ذلك استلّ

خنجـــره المنغولي وغرسه في صدر الذئب. كان الذئب ميتا في الوقت الذي ترجل فيه شن عن صهوة حصانه. بعد أن ركل دورجي الذئب بضع مرات ورأى عدم وجود أي رد فعل، مسح جبهته، وجلس على الأرض، وأخذ ينفث دخان سيجارة.

وصـــل سانجاي ممتطيا صهوة حصانه وألقى نظرة على الذئب الميت. "عمل رائع"، قال، ومن ثم انطلق كي يلملم شتات خراف دورجي. ذهب شن هو الآخر إلى قطيعه ليفعل الشيء نفسه ويُرجع الخراف إلى المخيم. بعد ذلك رجع إلى أعلى التل ليراقب دورجي وهو يسلخ جلد الذئب. تحت حرارة شمس الصيف، هناك دائما قلق من أن يبدأ الجلد بالتعفّن، لذلك، بدلا من أن يـــسلخوا جلد الذئب بحيث تترك القوائم بحالة سليمة كان سكان السهوب يسلخون جلد الذئب مثلما يفعلون بجلد الخروف، وينتج عن تلك العملية جلد مسطح. حين وصل شن إليهم، كان دورجي قد فرش الجلد على الأرض ليجفّ تحت أشعة الشمس.

– "تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ذئبا يقتل بعمود أنشوطة"، قال شن معلقا. "كيف أمكنك أن تكون واثقا إلى ذلك الحد؟".

ضحك دورجي وهو يبدي نوعا من الدهشة: "كنت قد رأيت على الفور أن هذا الذئب ليس ذكيا جدا. الذئب الذكي حقا يهزّ الأنشوطة ويخرجها من رأسه حالما تكون قد استقرت على عنقه وذلك بأن يجعل عنقه أقصر".

– "لـــديك عينان حادتا البصر"، قال شن وهو يُثني عليه. "لست ندا لك، ولا يمكنني أن أصـــبح كـــذلك حتى إذا أمضيت السنين الخمس التالية في المحاولة. وبعد كل هذا وذاك هناك حصاني. في السنة المقبلة سأحصل على بعض فحول الأحصنة الجيدة. لا يستطيع المرء أن يتدبر أموره هنا من دون اقتناء حصان جيد".

– "اطلـــب من باتو أن يعطيك أحد أحصنته"، قال دورجي. "إنه أخوك الكبير؛ سيفعل ذلك".

فجـــأة، تذكر شن جرو الذئب الذي كان قد وهبه لدورجي. "لقد حدثت أشياء كثيرة مؤخرا"، قال، "لم أحصل على فرصة لأن أسألك عن الجرو الذي لديك".

– "ألم يخبروك؟"، هزّ دورجي رأسه. "يا للخزي. لقد قتلته منذ بضعة أيام".

– "ماذا؟"، صاح شن بلا رويّة، وقد شعر بحزن عميق. "قتلته؟ لماذا؟ ما الذي حدث؟".

– "كان عليّ أن أربطه بسلسلة، مثلما فعلت أنت"، قال. "كان جرو الذئب الذي ربيته أنـــا أصغر من جرو الذئب الذي أبقيته لديك، ولم يكن وحشيا مثله، فقد أبقيته في حظيرة مع بعض جراء الكلاب. بعد مرور شهر أو نحو ذلك، كان قد اعتاد على وجوده وسط الكلاب، وصـــار الجميع يعاملونه تماما مثل أي كلب آخر. لكن سرعان ما كبر حتى أصبح أضخم من جـــراء الكلاب، وصار يشبه كلبا ذئبيا. لقد أحبّه الجميع، وخصوصا ابني الذي يبلغ الرابعة من

عمـــره. لكـــن منذ أيام قليلة، بينما كان ابني يلاعب جرو الذئب، هاجمه على نحو غير متوقع، نهش بطنه وجعل الدماء تسيل منها. أصيب ابني بالذعر، حيث بقي يصرخ ويئنّ من الألم. على العكس من جراء الكلاب، تكون أنياب الذئب قاتلة، وكنت مرتعبا بحيث هويت عليه بالعصا حتى مات. بعد ذلك أسرعت فأخذت ابني كي يعالجه طبيب الفرقة حافي القدمين، بينغ، الذي أعطـــاه جرعات قليلة من الدواء. لحسن الحظ انتهى الأمر عند هذا الحد، عدا أن بطن ابني ما زالت متورّمة".

انـــتاب شـــن شعور بالذعر. "لا تترك الأمر عند ذلك الحد"، قال بتلهف. "تحتاج إلى أن تعطـــيه أدوية أخرى، وفي وقت عاجل. إذا أصيب بداء الكلب، فإن مجموعة من الحقن الطبية ستعالج ذلك".

- "الرعاة جميعهم يعرفون أن المرء يحتاج إلى أن يُحقن بدواء طبـــي إذا عضّه كلب"، قال دورجـــي. "أما بالنسبة إلى الذئب، فهو شيء أكثر أهمية. الكلاب والذئاب مختلفة عن بعضها بعـــضا، والـــناس المحليون كانوا دائما يقولون إنه كان ينبغي لي ألاّ أحاول تربية أحد الذئاب. حسنا، يبدو أنهم كانوا على حق. ليس في وسعك أن تنتزع طبيعتها الوحشية منها، وعاجلا أم آجـــلا ســـتواجهك المتاعب. أنصحك بأن تتخلى عن المحاولة. ذلك الجرو الذي لديك أضخم وأكثـــر وحـــشية، ويمكن أن تكون عضّته أكثر فتكا. ربما يقتلك بأسنانه وحدها، وإن ربطه بسلسلة لن يضمن لك الأمان".

تضايق شن بعد أن شعر بخوف بغيض، استمر ذلك للحظة، ثم قال: "سأكون حذرا. لقد ربيـــته طـــوال هـــذه المدة. لم يكن ذلك سهلا، لكنني لا أستطيع أن أستسلم الآن. حتى غاو جيانـــزونغ، الذي كان يكرهه في البداية، قد انجذب إليه. إنه يلعب معه كل يوم".

كانت الخراف قد تبعثرت، لذلك قام دورجي بلف جلد الذئب، وربطه إلى سرجه. بعد ذلك امتطى حصانه، وشرع يسوق قطيعه راجعا به إلى المخيم.

بقـــي شـــن يفكّر في شأن جروه فيما كان يمشي متّجها إلى الخروف الذي التهم الذئب نصفه تقريبا. أخرج سكينه وقطع شريحة من المكان الذي كان الذئب يأكل منه ومن ثم أخرج الأحشاء الداخلية؛ ترك القلب والرئتين. بعد أن حمل الخروف من رأسه إلى السرج ليأخذه إلى المخيم لإطعام الخراف وجرو الذئب، امتطى صهوة حصانه وعاد ببطء إلى المخيم، وقد أثقلت الهموم صدره.

في اليوم التالي، انتشرت قصة دورجي الذي بادل خروفا مقابل أحد الذئاب في أرجاء فرقة الإنتاج. بعد أن استلم باو شنغوي جلد الذئب لم يتمكن من إيجاد الكلمات المناسبة التي تكفي للتعـــبير عن إعجابه بدورجي؛ وزّع كتاب شكر له في عموم الفرقة وكافأه بأن أعطاه ثلاثين رصاصة. بعد مضي بضعة أيام، قرر أحد الرعاة الشباب من المجموعة الثالثة أن يستخدم خرافه

كطعـــم، حـــيث ترك قطيعه وحيدا، على أمل أن يبادل خروفا بذئب. لكنه واجه ذئبا عجوزا ماكـــرا لم يلتهم إلاّ قائمة ونصف القائمة من جسم الخروف، وكان ذلك كافيا لأن يملأ معدته إلى حـــد معقول، لكنه لم يكن كافيا للتأثير على قابليته في العدو؛ وفي الحقيقة، لقد عدا الذئب بـــشكل أسرع من المعتاد واختفى عن الأنظار بلمح البصر. وبّخ بلغي الراعي بشدة أمام الفرقة وعاقبه بأن منع عائلته من ذبح أي خروف لفرض الطعام لمدة شهر.

22

مـــرة أخـــرى، جرى تكليف شن زن بواجب المناوبة الليلية في رعي الخراف. مع وجود إيـــرلانغ في الخارج للحراسة، كان حرا في أن يبقى في الخيمة كي يقرأ ويكتب للصحيفة التي يعمل فيها. جرّ طاولته الواطئة إلى مكان قريب من الباب، وبعد ذلك وضع كتابين على الحافة بـــين المصباح ورفاقه النائمين وذلك لئلا يوقظهم. كانت السهوب ساكنة تماما؛ لم تكن هناك ذئـــاب تعـــوي في تلـــك الليلة، ولم ينبح أي من كلاب الحراسة، بالرغم من كونها مستيقظة ومتنـــبهة. لم يتـــرك الخيمة إلاّ مرة واحدة، وذلك ليقوم بجولة يتفقد فيها أرجاء المكان حول القطيع وقد حمل معه مصباحه الكاشف، جعله منظر إيرلانغ الذي كان مستلقيا وهو يقظ ومتنبه تماما عند الحافة الشمالية الغربية يشعر بالارتياح. فرك رأس الكلب الضخم تعبيرا عن امتنانه له. عندما رجع إلى الخيمة قرأ قليلا ليتغلب على النعاس. وأخيرا، في ساعات الصباح الباكر استسلم للنوم. عندما أفاق في صباح اليوم التالي خرج ليطعم جرو الذئب.

بعـــد المجيء إلى أرض المراعي الجديدة، اعتاد جرو الذئب أن يستفيق كل يوم عند انبلاج ضـــوء الفجـــر ويبقى جاثما على الأرض، كما لو أنه على أهبّة الاستعداد للوثوب على فريسة غافلـــة، كان ينظر إلى باب الخيمة ويحملق بحدّة في وعاء طعامه. بالنسبة إليه، كان الوعاء يمثّل فريـــسته، ومـــثله مثل أي ذئب كبير، فهو ينتظر بفارغ الصبر اللحظة المواتية لينقضّ عليها. في اللحظـــة التي اقترب فيها شن لدرجة كافية، وثب الجرو، وكان اللحم الذي التهمه من الوعاء لحـــم فريسته، وليس طعاما قدمه إليه البشر. تلك كانت الطريقة التي حافظ بها الذئب الصغير علـــى طبيعـــته الوحشية المستقلة عن غيره. قدّم شن المساعدة في أن تظاهر بالخوف من الجرو وتراجع؛ ومع ذلك، نادرا ما كان شن قادرا على إخفاء ابتهاجه.

قـــبل أن تهطل أمطار الصيف تهب على الهضبة المنغولية رياح حارة جافة وتستمر مدة من الزمن، لكن الحرارة في هذه السنة بدت أسوأ من المعتاد. ووفقا لما رآه شن، لم تكن الشمس في سماء منغوليا قد ارتفعت فقط في وقت مبكر كما هي الحال بالنسبة إلى الطقس في الصين، لكنها بـــدت مـــستقرة في موضع أكثر انخفاضا في كبد السماء. كان الجو حارا عند الساعة العاشرة صـــباحا مـــثلما تكـــون عليه الحرارة وقت الظهيرة هناك في الجنوب؛ كانت الشمس تشوي الأعـــشاب التي تحيط بخيمتهم بأشعتها حتى لا يتبقى من كل ساق من العشب شيء سوى إبرة خضراء اللون مجوفة. لم تبدأ كارثة البعوض بعد، لكن اليرقات كانت قد تحوّلت إلى ذباب كبير

الرأس صار يطير أسرابا تكتسح الأرض، ويشنّ هجمات على الرجال ومواشيهم. كان الذباب يركّز على العيون أو الأنوف وعلى الخطوم، وعلى الزوايا المتشققة من الأفواه، أو على شرائح لحم الضأن الطرية الملطخة بالدماء والتي كانت تعلق داخل الخيم. وكان الرجال، يهزّون الأذرع، والكلاب والذئاب تضرب بالذيول في محاولة عقيمة لا تنتهي للتصدي للهجوم. تميز *أصفر* بكونه خبيرا في التقاط الذباب بلسانه بسرعة البرق، ورميه إلى فمه، حيث كان يمضغه ثم يلفظه، و لم يكن يمضي وقت طويل حتى تمتلئ الأرض التي حوله ببقايا الذباب، كأنها بذور البطيخ.

استمرت درجة الحرارة بالارتفاع فوق الأرض التي تصاعدت منها الأبخرة، كان الجو حارا بحيث إن الحوض صار أشبها بقدر طهي حديدي هائل، وبدا العشب كأنه أوراق شاي جافة. تمددت الكلاب في الظل الضيق الذي اتخذ شكل هلال شمال الخيمة، كانت أفواهها مفتوحة وألسنتها تتدلى، وهي تلهث من أجل أن تبرّد نفسها، كانت بطونها ترتفع وتهبط بحركة سريعة. لاحظ شن أن إيرلانغ لم يكن موجودا بينها، ناداه باسمه. إلاّ أن الكلب لم يأتِ، تساءل شن عن المكان الذي يمكن أن يكون قد ذهب إليه. ربما ذهب إلى النهر، حيث مياه النهر أكثر برودة. كان إيرلانغ كلبا يُعتمد عليه في الحراسة عندما يتولى شن الحراسة الليلية، و لم يعد أفراد الفرقة يعتبرونه كلبا وحشيا. لكن ما إن تشرق الشمس، وينهي الكلب واجباته، حتى تنتهي سيطرة شن عليه، وكان يذهب للتجول في أماكن بعيدة. أما بالنسبة إلى الكلبين *أصفر* وبير، من ناحية أخرى، فكانا يبقيان قرب الخيمة خلال النهار، ويستمران بالرغم من كل شيء في الانتباه، ويحافظان على وفائهما.

كان المناخ قاسيا بشكل استثنائي بالنسبة إلى جرو الذئب، لأن السلسلة المعلقة في عنقه كانت تصبح حارة جدا في ملمسها و لم تكن هناك بقع من الظلال يمكنه اللجوء إليها، والابتعاد عن لهيب الشمس فترة من الزمن. كان العرق يتصبب منه. صار العشب الذي في حظيرته جافا ومتكسرا بعد أن داست عليه حوافره مرارا؛ بدت الأرض الآن وكأنها تشبه الصحراء أكثر مما تشبه السهوب، أو كأنها طبق كبير وضع على فرن مشتعل، مملوء بماء حار ورمل. صار الجرو نفسه أشبه بحبة الكستناء التي شُويت حتى احترقت، وغدت هشة وعلى وشك أن تفرقع. كان المخلوق المثير للشفقة أسير سجن من الصفيح الساخن. في اللحظة التي انفتح فيها الباب بغتة، نهض الجرو، وانتصب على قائمتيه الخلفيتين، كاد يختنق برباط السلسلة. صار يضرب الهواء بكفيه الأماميين، ولا بد، لأي شخص تسنّى له أن يراقب تصرفاته، من أن يكون قد أدرك أن ما أراده الجرو ليس الظل ولا الماء، وإنما الطعام. الطعام هو جوهر وجود الذئب، وكان في وسع شن الإدراك أن شهيته لم تتأثر بسبب الحرارة بالغة السّخونة. بقي الجرو يضرب الهواء في إشارة يعطيها لشن لأن يضع وعاء طعامه في الحظيرة. ما إن أضحت فريسته في متناول قبضته، حتى أخذ يعوي، ويسعى لإبعاد شن عن الحظيرة.

تـــزايد قلـــق شن؛ لقد أخبره الرعاة أنه مع حلول فصل الصيف، يصبح طعامهم المألوف معتمدا أكثر على منتجات الحليب، ونادرا ما كانوا يلحقون به اللحم. إنهم يرتشفون الشاي في الصباح، ويتناولون وجبة الغداء في المساء، لكن من دون أن تضاف إليها كميات من اللحم التي اعـــتادوا على تناولها. كانت هناك معكرونة، ودخن، وأرز مطبوخ، وأنواع أخرى من الأطباق التي كان يُعتمد في تحضيرها على الحليب: خثارة اللبن الحامض، واللبن، والزبد، ومصل اللبن[1]. كـــان الرعاة يفضلون أكل منتجات الحليب الطازجة في الصيف، وهي عبارة عن شيء لم يكن طـــلاب بكـــين يستسيغونه. في بداية الأمر، لم يعتادوا على تبديل منتجات الحليب التي تعارفوا علـــيها في بلدهم باللحم، لكن الشيء الأكثر أهمية، أن أحدهم لم يكن يحبّذ فكرة النهوض عند الـــساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل من أجل حلب الأبقار لفترة تستغرق أربع أو خمس ساعات، تتبعها خضخضة الحليب حتى يتخثر. والشيء الأكثر إزعاجا هو الانتظار إلى أن ترجع الأبقـــار عـــند الساعة الخامسة أو السادسة مساء، ومن ثم يحلبونها لمدة ثلاث أو أربع ساعات، تتـــبعها أعمـــال الطهـــي، والكبس، والتقطيع، والتجفيف المطلوبة. كانوا يحبّذون أكل الدخن المـــسلوق والمدخّن، والمعكرونة بالخضروات، والكعك، أو الفطائر بدلا من أنواع الجبن. لذلك ففـــي الـــوقت الذي كان فيه الرعاة المحليّون يأكلون قطع الجبن التي لديهم في الصيف، اعتاد الطـــلاب جمـــع الخـــضار البرية؛ البصل، والكراث، وزنابق النهار، وأوراق الدردار الخضراء، والهندباء البرية، بالإضافة إلى ما كان المنغوليون، الذين من الشمال الشرقي، يسمونه *هالاغاي*، وهـــو عبارة عن نبات بري، أوراقه رفيعة وواسعة تعمل على تخدير الشفاه وله طعم تابلي. لقد تـــرك تغيير النظام الغذائي خلال فصل الصيف أثره العميق على شن، وعلى جرو الذئب الذي يربّيه أيضا.

كانت بعض من الخراف تُذبح في الصيف، إذ ليست هناك طريقة للحفاظ على اللحم من التلف، وبفضل الحرارة والذباب كان اللحم يتحول إلى وسط متعفن يزخر بالديدان في أقل من يومين، لذلك اعتاد الناس المحليّون على تقطيع اللحم إلى شرائح، وغطّها في الطحين لمنع الذباب مـــن وضع بيوضه عليه. كانت شرائح اللحم تعلّق في أبرد ركن من الخيمة لتجفّ. وقد، كان القلـــيل مـــن اللحم يضاف إلى المعكرونة لإعطائها مذاقا دسما. في بعض الأحيان، عندما تتلبد الـــسماء بالغيوم لعدة أيام، يتعفّن اللحم، ويصبح مذاقه رديئا. لذلك يعتبر الصيف بمثابة الفصل الـــذي تسمن فيه الخراف. كان لا بدّ لها من أن تكتسب القوة العضلية في الصيف، وأن تسمن في الخـــريف. وإذا حـــصل شيء ما منع الخراف من أن تتمكن من تحقيق ذلك، يصبح لحمها رقيقا، وشحمها قليلا وغير ذي نكهة؛ لم يكن الرعاة يأكلونه. ويعتبر الصيف أيضا الوقت الذي يُجزّ فيه أصواف الخراف؛ لم تكن أصواف الخراف تباع بثمن مرتفع، وبالإمكان فقط أن تصنع

---

(1) مصل اللبن: يفصل عند صنع الجبن. (المترجم)

منها سترات خفيفة تُرتدى في الربيع أو الخريف. ويشكل ذبح الخراف في الصيف خسارة، هكذا كان بلغي قد أخبر شن ذات مرة.

كانت سياسة الحكومة في تلك الأيام، عندما أصبح زيت الطهي شيئا نادرا، واللحم مقنّنا، تحتّم على رعاة أولونبولاغ التعامل مع أي خروف ضمن قطعانهم الكبيرة على أنه شيء ثمين، وتمنعهم من قتل الخراف، وأكل لحومها بكميات كبيرة. كان في وسع الناس، وحتى الطلاب الذين يحبون تناول اللحوم، العيش في زمن حظر تناول اللحوم. أما بالنسبة إلى جرو الذئب، فالمسألة مختلفة تماما.

ذات صباح، ملأ شن وعاء طعام الجرو بنصف شريحة من اللحم التالف، وذلك كي يخفّف من شدّة جوعه. بعدها حمل الوعاء الفارغ عائدا إلى الخيمة ليفكّر في ما يجب عليه عمله لاحقا. وبينما كان جالساً يتناول فطوره المكون من الكراث المخلّل والمعكرونة المضاف إليها لحم الضأن والحساء، التقط بضع قطع من لحم الضأن المجفف ووضعها في وعاء طعام الجرو. على العكس من الكلاب، لم يكن الجرو يحب أكل العصيدة أو الأرز حين تخلو من مذاق اللحم؛ فإذا ما قدّم إليه شن وعاء من الطعام ليس فيه لحم أو عظام، كان يقضم سلسلته بانفعال وغضب.

بعد أن انتهى من فطوره، أفرغ ما تبقى من الطعام في وعاء جرو الذئب، وحركه ليجعل قطع اللحم الصغيرة تخرج من القاع، وتستقر في الأعلى، حتى يتمكن الجرو من رؤيتها. شم رائحة المزيج؛ لم يستطع أن يلتقط رائحة اللحم فيه إلاّ بصعوبة، لذا قرر أن يصبّ فيه قليلا من دهن الخراف الذي في المصباح. كان الدهن المتصلب الذي في الدورق الخزفي قد تحول إلى زيت خفيف، وبدأ يتلف بفعل الحرارة؛ لكن ما دامت الذئاب تفضل حتى اللحم المتعفن، فمن المؤكد أن الجرو سيحب دهن الخراف.

تناول شن مغرفة كبيرة من الدهن، وأضافها إلى الوعاء. تحرك الدهن إلى الأعلى مكونا مزيجا لطيفا وغنيا بالدسم. في هذه المرة اقتنع شن بالرائحة؛ كان الجرو على وشك تناول وجبة دسمة. أضاف قليلا من الدخن لكنه لم يستطع التخلي عن المزيد من دهن المصباح الذي تبقى لديه.

كانت الكلاب، التي أجبرت على العيش من دون تناول اللحم طوال الصيف، وتعاني من الجوع في أغلب الأوقات، تنتظره عندما فتح الباب. لذلك قدّم لها الطعام في البداية، وتوقف، وانتظر أن تنتهي من لعق أوعيتها فتنظفها تماما قبل أن يخرج إلى المنطقة المظلّلة التي خلف الخيمة، وقد حمل وعاء طعام الجرو. "ذئب صغير، ذئب صغير"، نادى مثلما اعتاد أن يفعل دائما. "وقت الطعام". في الوقت الذي وصل فيه شن إلى الحظيرة، كانت عينا الجرو قد احمرتا من اللهفة والترقّب؛ وراح يقفز هنا وهناك بانفعال حتى كاد أن يخنق نفسه. وضع شن الوعاء على الأرض، وتراجع خطوات ليراقبه وهو يأكل. بدا أن الجرو كان راضيا.

في كل يوم عند وقت تناول وجبة الطعام، كان ينادي الجرو، على أمل أن يلمح في عينيه نظـرة طفـيفة من الامتنان. غالبا ما وجد نفسه يفكّر في أنه حينما يأتي اليوم الذي يتزوج فيه وينشئ عائلة، ربما لن يصبح مغرما بأطفاله الذين من صلبه مثلما هو مغرم بالذئب الصغير. منذ أن أخـذ على عاتقه مهمة تربية الجرو، كثيرا ما شعر بنفسه تعذبها أحلام وأوهام خرافية. كان قد قرأ قصة لكاتب سوفييتي في المدرسة الابتدائية تدور حول صياد أنقذ ذئبا جريحا وأرجعه إلى الغابـة بعد أن عالجه حتى استرد عافيته. ذات يوم، بعد ذلك بمدة من الزمن، خرج الصياد من كـوخه، فوجد سبعة أرانب ميتة وملقاة على الثلج أمام الباب، وكانت هناك العديد من آثار الذئاب... تلك هي المرة الأولى التي قرأ فيها عن صداقة زائفة تربط. بين الذئاب والبشر، والمرة الأولى الـتي يظهـر فـيها جانب مختلف يتعلق بطبيعة الذئاب من بين جميع الكتب التي قرأها والأفلام التي شاهدها. كانت الكتب على الأغلب من نوع **القلنسوة الصغيرة الحمراء** أو تلك الـتي تدور حول الذئاب التي تأكل الحملان الصغيرة، أو قصص مرعبة عن ذئاب تأكل قلوب وأكباد الأطفال الصغار. كانت القصة السوفييتية واحدة من القصص التي لم يتمكن من نسيان مـضمونها علـى الإطلاق. كثيرا ما حلم أنه كان هو الصياد الذي يسير بتثاقل عبر الغابة كي يستمتع بتمضية وقت مع أصدقائه من الذئاب، يتصارع معها، ويصعد على ظهورها عبر الثلوج...

أخيرا، انتهى الجرو من لعق كل محتويات الوعاء. كان قد كبر وأصبح طوله ثلاث أقدام، والآن بعـد أن انتهى من الأكل، بدا أكبر حجما وأكثر إثارة للرهبة من أي وقت مضى. حتى الآن صار حجمه أكبر من حجم أي من جراء الكلاب التي تُربّى معها بنصف مرة. بعد أن ترك شـن الوعاء خارج بوابة الحظيرة، رجع، وجلس على الأرض ليمضي بعض الوقت مع الجرو. حملـه بين ذراعيه للحظة، ثم قلّبه، ووضعه على حجره بحيث يستطيع فرك بطنه. عندما تتقاتل الكـلاب والذئاب مع بعضها بعضا تكون بطن الطرف المعادي هدفا أساسيا. إذا تمكن أحدها مـن أن ينشب أنيابه أو مخالبه في بطن الآخر، فإن مصير الحيوان الجريح هو الهلاك. وذلك هو السبب الذي يجعل الكلاب والذئاب لا تكشف بطونها أمام أي كائن لا تثق به بالكامل، سواء أكان حيوانا أو بشرا. بالرغم من أن الذئب الصغير الذي كان يربيه دورجي قد مات لأنه عضّ ابـنه، إلاّ أن شن قدّم أصابعه للجرو كي يلعقها ويقرضها برفق بينما كان يحمله. شعر بثقة أن الجـرو لـن يعضّه، وأن قرض إحدى أصابع شن يشبه إلى حدّ كبير عضّ واحد من الجراء التي ولـدت معه من البطن ذاتها، يتوقف دائما ولا يصل إلى مرحلة تقطيع الجلد. ولأن الجرو كان راغـبا في الاسـتلقاء على ظهره، وترك شن يدعك بطنه، فلِمَ ينبغي له ألاّ يضع أصابعه في فم الجرو؟ إنهما يثقان ببعضهما بعضاً.

كـان الوقت يقارب الظهيرة، وجعلت أشعة الشمس الحارقة إبر العشب الخضراء المجوفة تـذبل. حـان الوقت بالنسبة إلى الجرو أن يواجه العذاب من جديد. فتح فمه برخاوة، وكان

يلهث من دون توقف، تساقطت قطرات من السوائل إلى الأرض من لسانه المتدلي. كان شن قد فـــتح اللبّاد الذي يغطي الخيمة لغاية السقف. تمتاز خيم اللبّاد المنغولية بأنها مفتوحة للهواء من ثمانـــية جوانب، كأنها سرادق أو قفص طيور كبير الحجم. بتلك الطريقة يتمكن شن من إلقاء نظرة إلى الجرو من داخل الخيمة عندما يذهب ليقرأ.

بما أنه لم يكن قادرا على التفكير في أي شيء يمكنه القيام به ليساعد الجرو على تمكنه من الـــشعور بقليل من البرودة، استقرّ رأي شن على مراقبة الذئب الصغير كي يحدّد مقدار تحمّله للحـــرارة. كانت النسمات التي تدخل خيمته تزداد حرارة؛ توقفت الأبقار التي في الحوض عن الرعـــي، وتمـــدّدت على الوحل عند ضفة النهر، بينما كانت أغلب الخراف تنام في ممرّ جبلي وذلك لالتقاط النسمات الباردة نسبيا. لقد نصبت الخيم البيضاء ذات الجوانب الثلاثة في أماكن متفرقة تصل إلى قمة الجبل، فيما عمل الرعاة على مقاومة الحرارة التي لا تطاق من خلال غرس أعمدة أنشوطاتهم في حفر المرموط، ومن ثم نشروا عليها مآزرهم البيضاء الخفيفة، وثبتوا حافاتها بالحجارة. هذه الخيم المؤقتة أبعدت عنهم ضوء الشمس اللاسع. لقد جرّب شن أن يفعل ذلك، فوجدها مفيدة في الحصول على شيء من البرودة. كان كل شخصين يشغلان واحدة من تلك الخيم المؤقتة، وينام أحدهما لفترة بينما يبقى الآخر متيقظا ليراقب القطيع.

لكن في الوقت الذي كان فيه الجرو يصطلي بحرارة الشمس التي لا ترحم، فقد كان يعاني أيضا من حالة تردد بين أن يستلقي على الأرض أو يبقى واقفا. تصاعدت موجات الحرارة من الأرض الرملية، سخنت أكفه وجعلت من المستحيل عليه أن يبقي قوائمه الأربع على الأرض في وقـــت واحـــد. بقي ينظر إلى ما حوله باحثا عن رفاقه من جراء الكلب، وعندما أبصر أحدها يـــستلقي في الظـــل تحت إحدى العربات، صار يشدّ على السلسلة الملتفة حول عنقه بغضب. أسرع شن إلى خارج الخيمة، وقد اقتنع أنه إذا لم يفعل شيئا على الفور فإن الجرو سيشوى مثل الكـــستناء. إذا أصـــيب الجرو بضربة شمس فلن يحرك الطبيب البيطري للمراعي إصبعا واحدة لإنقاذه.

قام شن بوضع القليل من الماء في قدر قرب الجرو، ثم راقبه وهو يدفع رأسه داخل القدر، ولم يتوقف عن الشرب حتى أتى على كل ما فيها من ماء. ثم ركض الجرو نحوه، واختبأ هاربا مـــن أشـــعة الـــشمس في ظل شن. وكأنه طفل يتيم، أخذ يدوس على قدمي شن ليمنعه من المغـــادرة. وبقي شن واقفا هناك حتى شعر بأن الجزء الخلفي من عنقه يخزّه كالإبر، وأدرك أن جلده سيبدأ بالتشقق إذا لم يغادر مكانه. بعد أن مشى إلى خارج الحظيرة، رشّ نصف دلو من المـــاء على الأرض الرملية، مما أرسل سحبا من البخار تصاعدت في الهواء. حين رأى الجرو أن حرارة الأرض قد انخفضت في تلك البقعة، ركض مسرعا، واستلقى على الأرض ليرتاح. لكن سرعان ما سُخنت الأرض من جديد، وعاد العذاب. لم تكن لدى شن خيارات كثيرة. لم يكن

بإمكانه الاستمرار في رشّ الماء على الأرض، وحتى لو فعل ذلك، ما الذي قد يحصل عندما يحين الوقت بالنسبة إليه لأن يخرج ليرعى القطيع؟

عندما عاد إلى الخيمة، لم يشعر برغبة في القراءة؛ لم يستطع أن يُبعد عنه شعور الخوف من أن يصاب الجرو بالمرض، أو يفقد كثيرا من وزنه، وربما يموت أيضا بسبب حرارة الصيف القاسية. من خلال ربطه بسلسلة، مثلما أدرك شن، كان يحافظ على سلامة الناس ومواشيهم، لكنه لم يكن يحافظ على حياة الجرو. لو أن هناك مكانا مسيجا يوضع فيه الجرو لتمكن من أن ينطلق ويجري بحرية، وأن يجد على الأقل مأوى ينزوي فيه عند ظل أحد الجدران.

كل ما استطاع شن عمله هو مراقبة جرو الذئب ومحاولة التفكير في القيام بشيء ما؛ لكن لم يخطر في ذهنه شيء محدد.

بقي جرو الذئب يدور في مكانه مرة بعد أخرى، من الواضح أن دماغه كان يمارس العمل ذاته. بدا الجرو كما لو أنه يدرك أن الأرض المعشوشبة التي خارج الحظيرة أكثر برودة من الأرض الرملية التي في الداخل. استدار ومشى خطوات على العشب بقائمتيه الخلفيتين؛ بعد أن وجد أنها كانت في الواقع أبرد، استلقى على العشب، مما جعل رأسه ورقبته فقط تلامسان الرمال الساخنة داخل الحظيرة. غدت السلسلة مشدودة أكثر، لكن كان في وسعه أخيرا أن يمدّد جسده ويحصل على شيء من الراحة، لم يعد جزء من جسده يتعرض للاحتراق بالشمس. غمرت السعادة شن بحيث إنه أراد أن يقبّل الذئب الصغير؛ هذا الكشف المذهل عن الذكاء الذي يتمتع به الجرو منحه بصيصا من الأمل. الآن عرف ما الذي ينبغي له أن يفعله. فيما استمرت درجة الحرارة بالارتفاع، كان قد أقام حظيرة جديدة للذئب، هذه المرة باستخدام العشب، وفي كل مرة سيدوس فيها الجرو على العشب حتى ييبس ويكشف عن الرمل، كان يستطيع أن ينقله إلى بقعة أخرى. كانت القدرة التي يمتلكها جرو الذئب في البقاء على قيد الحياة أعظم من القدرة التي لدى الصغار من البشر. حتى من دون إرشاد الأم، يتوصل الذئب الصغير إلى حل للمشاكل التي تواجهه، سواء أكان ضمن قطيع أو منفردا. تنهد شن، وأسند ظهره على فراشه الملفوف، وباشر بالقراءة.

* * *

تناهى إلى الأسماع سيل من أصوات حوافر الأحصنة على الدرب الذي يبعد نحو ستين أو سبعين قدما خارج الخيمة؛ افترض شن أن رعاة الأحصنة كانوا يمرون من هناك، لم يشعر بالفضول ليعرف شيئا أكثر على وجه التحديد. لذلك فقد داهمته المفاجأة حينما خرج حصانان عن الدرب وتوجها ناحية خيمته، ومن ثم انحرفا باتجاه حظيرة الذئب، حيث انتصب الجرو المذعور واقفا على قائمتيه الخلفيتين وقد بدا عليه التوتر. مدّ الرجل الذي في المقدمة عمود أنشوطته نحو رقبة الجرو وسحبه بها إلى الوراء، ورفعه عن الأرض. لم تدع قوة حركة الرجل

مجـــالا للشك في أنه أراد أن يقتل جرو الذئب، وتوقّع أن انشداد السلسلة من شأنه أن يفصل رأســـه عـــن جسده. لم يكد الجرو يسقط على الأرض مجددا حتى بادر الرجل الثاني باستخدام عمود أنشوطته كسوط، صار يضرب الجرو بشدة بحيث تدحرج على الأرض. في تلك الأثناء، أوقف الرجل الأول حصانه، وأمسك بعصاه، وكان على وشك أن يترجل ويقتل الجرو عندما أطلـــق شن صرخة، حاملا مرقاقَ العجين[1]، وأسرع إلى خارج الخيمة كالمجنون. بعد أن شاهد الـــرجلان النظـــرة المتحدّية في عيني شن، استدارا بالحصانين، وانطلقا يعدوان بعيدا وقد خلّفا وراءهما سحابة من الغبار. سمع شن أحدهما يصيح: "الذئاب قتلت أحصنتنا الممتازة، وتعتقد أن بإمكانك أن تربـــي واحدا منها! حسنا، عاجلا أم آجلا، سأقتل ذلك الذئب!".

عـــدا الكلبان *أصفر* وبير خلف الرجلين، كانا ينبحان بشدة، وتعرض كل منهما للضرب بعمود أنشوطة فيما ابتعد الرجلان نحو المكان الذي كانت ترعى فيه قطعان الأحصنة.

لم يتمكن شن من التعرف إلى المهاجمين، لكنه افترض أن أحدهما ربما يكون الراعي الذي وبّخـــه بلغي، وأن الآخر قد يكون أحد رعاة الأحصنة في الوحدة الرابعة. من الواضح أنهما قد أتـــيا مسبقا وهما يضمران نوايا إجرامية، وكان شن شاهدا على خطط الحرب الخاطفة المخيفة التي يتّبعها الرعاة المنغوليون.

أســـرع إلى المكان الذي تمدد فيه جرو الذئب، كان ذيله ملتويا بين قائمتيه الخلفيتين، لقد اســـتبد بـــه الرعب حتى كاد أن يموت. كانت قائمتاه هزيلتين بحيث لم يتمكن من الوقوف، وعندما رأى شن، مشى متعثرا حتى ارتمى بين ذراعيه كأنه صوص يجري إلى الدجاجة الأم بعد أن هـــرب من قبضة قطة. احتضنه شن بقوة، وكان يرتعش هو الآخر. رجل وذئب يشكلان جـــوقة تؤدي نشيدا متهدجا. تحسّس شن رقبة الجرو بتلهف، وارتاح عندما وجد أنها سليمة، بالـــرغم من أن بعضاً من الفراء كانت قد انتزعت بفعل حبل القنب مما ترك أثرا تغطيه الدماء حـــول رقبته. كان قلب شن ينبض بسرعة. فعل شن ما في وسعه لتهدئة الذئب الصغير؛ تطلب ذلـــك بعض الوقت، لكنهما توقّفا بالتدريج عن الارتعاش. بعد ذلك عاد شن إلى الخيمة حيث أحـــضر شريحة من لحم الحمل المجفّف، مما أحدث تأثيرا ملطفا على الجرو. التقطه شن من على الأرض مرة أخرى، ووضعه في حجره، وألصق وجهه على وجه الذئب بينما أخذ يفرك صدره حتى أيقن أن نبض قلبه قد عاد إلى طبيعته. لكنّ مخاوف الجرو لم تتلاشَ، وما كان ليشيح نظره عن شن. فجأة صار يلعق ذقن شن؛ كانت تلك المرة الثانية التي يفعل فيها الذئب ذلك، لكنها المـــرة الأولى التي رافقتها إيماءة معبّرة عن الامتنان. عندما رأى شن ذلك أدرك أن قصة الذئب الذي أنقذه الصياد، ومن ثم عبّر الذئب عن امتنانه من خلال الهدية التي تتألف من سبعة أرانب والتي وضعها أمام باب كوخه لم تكن بالضرورة من نسج خيال كاتب ما.

---

(1) مرقاق: هو أداة خشبية تشبه عصا، غليظة ملساء تستعمل في المطبخ لبسط العجين. (المترجم)

لقد وقع أخيرا الشيء الذي طالما أحس شن بالخوف منه أكثر من غيره، وعاد يقضّ مضجعه. كان قراره أن يربي ذئبا قد تسبب بالإساءة إلى الرعاة، وبدت برودة موقفهم تجاهه واضحة للعيان. حتى إن بلغي توقف تقريبا عن المجيء لزيارته. في عيون الرعاة، كان يبدو أن هناك اختلافا ضئيلا بينه وبين باو شنغوي والرجال الذين يعملون معه، جميعهم دخلاء لا يكنّون احتراما لعادات السهوب. الذئب رمزهم الروحي، لكنه من الناحية المادية عدوّ لهم. إن تربية ذئب كحيوان أليف تمثل ذنبا لا يستطيع الراعي أن يصفح عنه؛ كان ذلك تجديفا بالمعنى الروحي، وتضامنا مع العدو من الناحية المادية. لقد انتهك أحدهم محرمات السهوب، خرق تقليدا متعارفا عليه في ثقافتهم؛ ليس هناك من شك في ذلك. لم يعد واثقا مما إذا كان في وسعه الاستمرار في حماية الجرو، أو حتى إن كان ينبغي له الاستمرار في تربيته. بما أنه كان مخلصا في رغبته في تقصي وتسجيل أسرار وقيمة *رمز الذئب* بوصفه روح السهوب، فقد رأى في الأمر فرصة لا تسنح إلاّ مرة واحدة في العمر؛ شعر بالحاجة إلى أن يكون منيعا على الاستسلام، وأن يصرّ على موقفه، ويمضي في سبيله. لذلك ذهب للبحث عن إيرلانغ. عندما يكلف ذلك الكلب بالحراسة فلن يجرؤ أحد سوى الرعاة الذين ينتمون إلى وحدة شن على الاقتراب من دون أن يُسمح لهم بذلك. كان إيرلانغ قادرا على إبعاد أي رجل غير مألوف يمتطي حصانا، وأن يعضّ الحصان ويجعله يولي هاربا وهو مذعور. لا بدّ من أن الرجلين المهاجمين قد رأيا أن إيرلانغ لم يكن موجودا قبل البدء بالتحرك.

لم تكن الشمس قد بلغت ذروة هجومها العنيف بعد، لكن بدا أن حرارة الحوض قد تجمّعت في حظيرة جرو الذئب. لم يعد جذع الجرو يتعرض للاحتراق بشكل غير قابل للتحمل، ولكن بقي رأسه ورقبته فوق الرمال؛ كانت الجروح التي نجمت عن الهجوم الفاشل قد جعلت من المستحيل عليه أن يستلقي على الأرض مدة من الزمن، فاضطر إلى أن يتنقل هنا وهناك داخل الحظيرة، وبعد أن يكمل عدة دورات، كان يعود ليستلقي على العشب.

عندما لم تعد هناك رغبة لدى شن في القراءة، أشغل نفسه بأعمال منزلية رتيبة. التقط قليلا من الكراث، كسر عدة بيضات من بيض البط، صنع بضع قطع من العجين، وحشاها باللحم، وبعدها أخذ يقلي الفطائر بالدهن، كل ذلك شغل وقته لمدة نصف ساعة. عندما نظر إلى الحظيرة، استغرب عندما رأى أن الجرو كان ينبش حفرة في الرمل، وقد برز ذيله ومؤخرته خارج الحفرة. تطاير الرمل عاليا في الهواء، وكأنه كان يمارس عرضا للألعاب النارية. مسح شن يديه وأسرع إلى الخارج، حيث جثم على الأرض ليرى ما الذي كان يفعله الجرو.

كان الجرو يحفر بشكل مسعور عند الطرف الجنوبي من الحظيرة، وفي الوقت الذي وصل فيه شن، وجد أن نصف جسده قد أصبح داخل الحفرة. بقي الرمل يتطاير إلى خارج الحفرة بفعل قائمتيه، وكان يبعده بذيله الذي استمر بالهز بشدة. خرج الجرو من الحفرة وقد

تغطي جسده بالتراب، وعندما اكتشف وجود شن ارتسمت نظرة وحشية ثاقبة في عينيه، كما لو أنه كان يبحث عن كنـــز مدفون.

مـــا الذي كان ينوي فعله؟ إنه لا يحاول اقتلاع العمود، أليس كذلك؟ كلا، لا يمكن أن يكـــون ذلك هو الهدف؛ لم يكن الحفر يسير على خط واحد مع العمود، الذي كان، على كل حال، مدفونا إلى مسافة عميقة بحيث لا يستطيع الجرو أن يحفر تحته. كلا، لقد حفر بينما كان يعطـــي ظهره للعمود وباتجاه، وليس بعيدا عن، حركة الشمس. بعدها خطرت له فكرة! عرف شن بالضبط ما الذي كان يفعله الذئب.

عاد الجرو مجدّدا إلى العمل، أخذ يحفر ويُخرج المزيد والمزيد من التراب، كان فمه مفتوحا إلى أقصى مدى فيما استمرّ بالحفر أطول مدة من الزمن، ومن ثم دفع بالتراب إلى الخارج. التمع بريق في عينيه، بريق مشرق مثل أشعة الشمس، لم يكن لديه متّسع من الوقت لأن يولي انتباها لـــشن، الـــذي تابع المراقبة قدر الإمكان قبل أن يصيح: "على مهلك، ذئب صغير، ربما تكسر مخالـــبك"، أمعن الجرو النظر إلى شن، وأغمض عينيه كي تتشكل على ثغره ما يشبه الابتسامة، بدا واضحا أنه كان راضيا عن نفسه، وعما انشغل به من عمل.

كـــان الـــرمل الذي أخرج من الحفرة رطبا، وأكثر برودة من الرمل الذي على السطح. يحـــتاج الأمـــر إلى ذئب داهية، كما تصور شن، لأن يشقّ له طريقا إلى حيّز الأمان، بعيدا عن الـــشمس اللافحـــة، وعن الحرارة، وعن الناس، وعن أنواع متعدّدة من المخاطر. لا بدّ من أن يكون هذا هو ما فكّر فيه الجرو: حفرة باردة ومظلمة، وبالنسبة إلى الاتجاه، فإن الفتحة مواجهة للشمال، والنفق مواجه للجنوب، لذا لا يمكن لضوء الشمس الحارقة التسلل إلى داخل الحفرة. فـــيما كان الجرو مستمرا في الحفر مسافة أعمق، تنبّه شن إلى أن معظم جسده صار محميا من أشعة الشمس القاتلة.

وكـــان كلمـــا توغّل الجرو في الحفر أكثر، كلما أصبح الضوء أضعف؛ بدأ يتذوق متعة الظـــلام، كان يقترب رويدا رويدا من العمق الذي يهدف أن يصل إليه. الذئاب تعشق الظلام لأنه يتضمّن البرودة، والأمان، والقناعة. من الآن فصاعدا لن يغدو هذا الجرو عرضة للتخويف وهجمات الأبقار، والأحصنة، والبشر الأكبر منه بكثير. ازداد حماسا في الحفر، وحقق له ذلك نوعا من المتعة بحيث لم يعد يتمكن من إغلاق فمه. مرّت عشرون دقيقة أخرى، ولم يعد يظهر شيء فوق السطح ما عدا طرف ذيله الكثيف؛ كان قد دفن نفسه تماما تحت الأرض الباردة.

شـــعر شن مرة أخرى بالذهول من مهارة الجرو غير الاعتيادية في محاولته تلك للبقاء على قـــيد الحـــياة ومن ذكائه الطبيعي، تذكر الأنشودة التي تقول "تنين يلد تنينا، وعنقاء تلد عنقاء، لكـــنّ ابـــن الجرذ يعرف كيف ينبش حفرة". ابن الجرذ يعرف كيف ينبش حفرة لأنه كان قد شـــاهد جرذانا كبارا وهي تنبش الحفر. ولكن هذا الذئب كان قد انتزع من حضن أمه قبل أن

تنفتح عيناه بالكامل؛ لم يشاهد أبدا ذئبا كبيرا ينبش حفرة. بالتأكيد لم يعلمه أحد الكلاب هذه المهـــارة، لأنهـــا في طبيعـــتها غير معتادة على نبش الحفر. إذا من الذي علمه ذلك؟ على وجه الـــتحديد، كيف استطاع أن يتعلم بدقة تحديد الموقع والاتجاه؟ لو كان قد حفر إلى مسافة أبعد مـــن العمود ستحول السلسلة بينه وبين الحفر إلى العمق الذي احتاج إليه. كلا، كانت الحفرة تقع في منتصف المسافة بين العمود وطرف الحظيرة مما أتاح له المجال لسحب نصف السلسلة معه إلى داخل الحفرة. أين تعلم ذلك؟ لم يكن ذلك نوعا من المهارة التي لقنه إياها ذئب كبير، ومع ذلك فقد نجح في عمله ببراعة.

انتـــصب شـــعر شن من الذهول. جرو ذئب لا يتجاوز عمره ثلاثة أشهر توصّل إلى حلّ لمـــشكلة كانـــت هدّد بقاءه من دون أن يتعلم من أحد كيف يفعل ذلك. جثا شن على يديه وركبتيه ليشاهد عن قرب أكثر، شعر بأنه لم يكن يربّي حيوانا أليفا مدلّلا بقدر ما كان يساعد علـــى نموّ معلم صغير يستحق الاحترام ويستحق أن ينال الإعجاب. لقد اقتنع أنه ستكون هناك المزيد من الدروس التي سيتلقاها من الذئب في الأيام المقبلة.

كـــان ذيل الجرو يهتزّ بانفعال. كلما حفر إلى مسافة أعمق، وصل إلى موضع أكثر برودة يشعر فيه بسعادة أكبر، وكأنما أضحى في وسعه تقريبا أن يشمّ رائحة التراب الذي كان يغطي المكان المظلم الذي ولد فيه. تصور شن أن الجرو لم يكن ينبش حفرة من أجل أن يشعر بالبرودة والأمان فقط، لكنه حاول التنقيب عن ذكريات مبهجة تعود به إلى أيامه الأولى، وأن يعثر على أمـــه وإخـــوته وأخواته. حاول شن أن يتخيّل التعبير الذي ارتسم على وجه الذئب بينما هو منشغل بالحفر. ربما كان مزيجا معقّدا من الانبهار، والأمل، والشعور بالحظ السعيد، وقليل من الأسى...

ازدادت عيـــنا شـــن نداوة فيما كان يعاني من هواجس متفاقمة في قوها، صارت تُثقل ضـــميره. تفاقم تعلقه بالذئب الصغير يوما بعد يوم، ومع ذلك لم يكن في وسعه الإنكار أنه هو الذي تسبّب في تدمير عائلة الجرو التي كانت ترفل بالحرية والسعادة. لولاه، لكانت جميع تلك الـــذئاب الصغيرة الآن في مكان ما بعيد تخوض فيه المعارك جنبا إلى جنب مع أبيها وأمها. في الـــوقت الذي بقي فيه ذلك مجرّد حدس، إلاّ أن شن لم يكفّ عن الشعور بقوة أن الملك الحالي للذئاب هو الأب الذي أنجب هذا الجرو الرائع. ربما، في ظل رعاية قطيع الذئاب، وبخبرته القتالية الهائلـــة، كان هذا الجرو سيصبح ذات يوم قائدا لذلك القطيع. لكن الشيء المفجع أن مستقبله والمستقبل المذهل للذئاب قد تعرضا للتحريف من قبل صيني من الهان أتى من مكان بعيد.

كان الذئب قد وصل إلى أقصى مسافة حفر تتيحها له السلسلة، و لم يكن شن مهتما بجعل السلسلة أطول. الأرض التي تحيط بالحفرة كانت عبارة عن رمال رخوة عليها طبقة من جذور الأعشاب، إذا حصل مصادفة أن داس حصان أو بقرة قريبا من الحفرة، فمن السهولة أن يُدفن

الجرو حيا. توقف حماس الجرو للاستمرار بالحفر فجأة؛ وعوى معبّرا عن تعاسته، وتراجع خارج الحفرة فجذبته السلسلة. ضغط الرباط الذي حول عنقه بشكل مؤلم على عنقه المجروح، مما جعله يلهث. لكنه بقي مثابرا في عمله حتى استنزف كل قواه؛ بعد فترة تمدّد على التراب الذي أزيح من الحفرة، وصار يلهث. ما إن أخذ قسطا يسيرا من الراحة حتى دسّ رأسه داخل الحفرة، وتساءل شن عن الشيء الذي يفعله الآن.

حالما التقط الجرو أنفاسه، أسرع بالنزول إلى حفرته، وفي غضون وقت قصير تصاعد مزيد من التراب إلى الخارج، الأمر الذي جعل شن يتيقن من أنه شيء مثير للاستغراب حقا. انحنى، ونظر إلى داخل الحفرة، التي كان الجرو الآن يعمل على توسيعها أكثر، وهي علامة أخرى على ذكائه.

عندما أنهى العمل في حفرته الباردة، التي توفر له الحماية، استلقى الذئب في وضع مريح داخلها، وتجاهل صيحات شن له أن يخرج. عندما نظر شن إلى الداخل، وجد عينيّ الجرو مفتوحتين على وسعيهما، ينبعث منهما بريق أخضر اللون مثير للرهبة، مما أضفى عليه بالفعل مظهر ذئب من البراري. بدا واضحا أنه كان يستمتع بالظلام، والبرودة، ورائحة الأرض، كما لو أنه قد عاد فعلا إلى مسكنه الأول برفقة أمه وبطن الجراء التي ولد معها. كان يعيش حالة من السلام، بعد أن استطاع أخيرا ترك سطح الأرض، والتخلص من القلق المستمر الذي عانى منه حينما كان البشر ومواشيهم يحيطون به؛ لقد ابتكر ملجأ آمنا في حظيرته ذاتها، ودخل من جديد مملكته الطبيعية. أخيرا، صار بإمكانه النوم بأمان ليرى أحلام الذئاب. قام شن بترتيب سطح التربة التي تحيط بالحفرة. بينما كان جروه يمرّ بحالة من السلام والأمان، أصبح واثقا مرة أخرى من قدرة الذئب الصغير على البقاء حيا.

عاد كلّ من غاو جيانزونغ ويانغ كي وقت الغروب، وعندما اكتشفا حفرة الذئب التي أمام خيمتهم، أذهلهما المنظر. "بعد أن أمضينا يوما هناك في رعي الخراف"، قال يانغ، "ولفحتنا أشعة الشمس حتى جفّت أجسامنا، وأوشكنا على الموت عطشا، ظننت أن جرو الذئب لن يستطيع النجاة خلال الصيف. إنه أذكى مما ظننت".

- "ينبغي لنا أن نتوخى الحذر أكثر عند الاقتراب منه"، قال غاو، "أن نكون أكثر تنبها. نحتاج إلى التأكد من السلسلة، والعمود، ومن رباطه كل يوم. من يدري، ربما تسبّب في إلحاق ضرر جسيم بنا في أي فترة حاسمة تُسنح له. الرعاة والطلاب الآخرون ينتظرون ليس إلا أن يطلقوا الضحكة الأخيرة".

احتفظ الرجال الثلاثة بجزء من فطائرهم التي تم قليها بالدهن، وحُشيت ببيض البط من أجل الجرو، وفي اللحظة التي أعلن فيها يانغ عن حلول وقت وجبة الطعام، تسلق الجرو إلى خارج الحفرة، التقط الطعام، وعاد به إلى الأسفل. أصبح ذلك مكانا خاصا به وحده، بعيدا عن متناول أي مخلوق آخر.

عـــاد إيرلانغ، الذي اختفى طوال النهار، إلى المخيم، كانت بطنه مشدودة وفمه ملطخا بالدهـــون. بدا واضحا أنه اصطاد شيئا ما. أما *أصفر* وبير والجراء الصغيرة، التي كادت تجن من عـــدم تذوق اللحم منذ وقت طويل، فقد جرت جميعها نحو إيرلانغ لتلعق الدهون التي لطخت خطمه.

خـــرج الجرو من كهفه حالما سمع برجوع إيرلانغ. عندما اقترب الكلب باتجاهه، أخذ هو الآخر يلعق خطمه الملطّخ بالدّهون. بعدها تنبّه إيرلانغ إلى الحفرة التي في الأرض، وعلى ما يبدو فقـــد تفاجأ وفرح في وقت واحد، التفّ عدة مرات حولها. بعد أن أصدر ما يشبه الضحكة، قـــرفص على الأرض قرب الحفرة، ودفع خطمه داخلها ليشمّ أرجاء المكان. وثب الجرو على ظهر أبيه البديل، حيث صار يقفز، ويتدحرج، ويتشقلب بحبور، نسي ألم الجرح الذي في رقبته في الوقت الذي أطلق فيه العنان لحيويته الوحشيّة للتعبير عن نفسها.

عـــند الغـــروب، كان الهواء الحار قد تبدّد، وهبّت نسائم باردة. ارتدى يانغ كي سترة، وذهب ليتفقد قطيعه. رافقه شن للمساعدة على سَوق الخراف إلى المخيم. لم تكن فكرة جيدة أن يجعـــل الخراف تتحرك بصورة سريعة جدا بعد أن أكلت حتى التخمة؛ بالنسبة إلى الرجال، كـــان تجمـــيع القطيع بشكل دائري في المخيم، حيث لا توجد أسيجة، يشبه التجوال على غير هـــدى. خـــلال فصل الصيف تمضي الخراف الليالي في مكان مجاور للخيم، وليس في الحظائر، الأمـــر الـــذي كان يجعل الحراسة في ليالي الصيف صعبة جدا ومحفوفة بالمخاطر. كانت اليقظة والحذر شيئين ضروريين، والآن أصبح الأمر أكثر صعوبة من أي وقت آخر، فربما اكتشف قطيع من الذئاب وجود الجرو في المخيم وانتهز فرصة سانحة لتنفيذ الانتقام.

كـــان يوم الجرو يبدأ في وقت متأخر من الليل. حيث يستمر في القفز في أرجاء حظيرته، يهزّ السلسلة، ويجعلها تخشخش، ومن حين إلى آخر كان يتوقف ليلقي نظرة إعجاب على ثمرة عمله. جلس شن ويانغ عند طرف الحظيرة بهدوء ينظران باستمتاع إلى الجرو وهو يجري حول المكان، فيما كانت عيناه الزمرديتان تلمعان في الظلام.

أخـــبر شـــن صديقه يانغ بما جرى من أحداث في ذلك اليوم. "علينا أن نضع أيدينا على بعـــض اللحم"، قال. "لن ينمو الجرو ويصبح قويا من دون أن يتناول اللحم. لم يتردّد إيرلانغ على المكان مؤخّرا، مما أحدث وضعا خطيرا".

قال يانغ: "تناولت وجبة من المرموط المشوي في الجبال اليوم، بفضل دورجي. إذا أفلح في صيد الكثير منها بالفخاخ يمكننا أن نطلب قليلا منها للجرو. المشكلة أن الرعاة وقطعانهم كانوا قد أثاروا ضجة عارمة في هذا المكان، مما جعل حيوانات المرموط تفزع وتبتعد عن الفخاخ".

فكّـــر شـــن في الأمـــر، وقد استبدّت به الهواجس، قال: "أشعر بالقلق من أن يأتي قطيع الذئاب ليلا، ويرتكب عملا دمويا ضد خرافنا. لا يمكن أن تجد أنثى أكثر ضراوة في أي مكان

من أمّ للذئاب. ربما قاد سعي هذه الأنثى لطلب الثأر إثر فقدان بطن من الجراء إلى حافة الجنون. إذا جـــاءت بقطيع الذئاب كي تشنّ غارة ليلية على قطيعنا، وقامت بذبح حشد من الخراف، سينتهي أمرنا".

تـــنهد يانـــغ كي. "الرعاة جميعا يقولون إن إناث الذئاب ستأتي عاجلا أم آجلا. في هذه الـــسنة علـــى أولونبولاغ، قمنا بشنّ غارات على عشرات أوجار الذئاب، وتتطلّع جميع تلك الأمّات إلى فرصة مواتية للانتقام بسبب فقدانها صغارها. الرعاة متّفقون في رغبتهم في قتل هذا الجـــرو، والطلاب الذين في جميع الوحدات الأخرى لديهم موقف مضاد للاحتفاظ به. كاد أن ينشب نـــزاع بيني وبين واحد منهم اليوم. يقولون إنه إذا حدث أي شيء، فسيؤدّي ذلك إلى جعل الأمور صعبة على جميع الطلاب. إننا نتعرّض للضغط من جميع الاتجاهات. ما رأيك في أن نتـــركه يـــذهب بكـــل هدوء، ونقول إنه قد حطم السلسلة وولى هاربا؟ ذلك يمكن أن يحلّ المشكلة". التقط يانغ الذئب الصغير، وأخذ يمسّد على رأسه. "لكنني أكره التخلي عنه. إنني لا أتقرب من أخي الصغير مثلما أتقرب منه".

أطبق شن على أسنانه وقال: "نحن الصينيون نخاف الذئب الذي أمامنا والنمر الذي خلفنا. ما دمنا قد دخلنا الوجار، وحصلنا على هذا الجرو، لا يمكننا أن نستسلم في منتصف الطريق. إذا كنا سنربّيه، دعنا نُنجز ذلك العمل بشكل رائع".

– "المسؤولية ليست ما تقلقني"، أجاب يانغ بسرعة. "المسألة أن رؤيته مقيّدا بسلسلة طـــوال اليوم مثل السجين أمر يفطر القلب. الذئاب تنشد الحرية، لكننا نبقيه مقيّدا طوال الوقت. ألا يسبّب لك ذلك الانـــزعاج؟ بالنسبة إليّ، إنني أنتمي بالكامل إلى معسكر رمز الـــذئب، ويمكـــنني فهم السبب الذي جعل بابا لا يريد لك أن تربّي الجرو. إنه يعتبر ذلك كفرا".

كـــان شن يواجه صراعا؛ لكنه لم يرغب في أن يُظهر ذلك، لهذا فقد أمعن النظر إلى وجه يانـــغ وقال: "تعتقد أنني لم أفكّر أبدا في إطلاق سراحه؟ لكن ليس بعد، فما زالت هناك الكثير مـــن الأشـــياء التي أحتاج إلى معرفتها. إذا تحرّر جرو الذئب، فذلك يعني أن هناك ذئبا طليقا إضـــافيا، ولكـــن إذا لم نُبقِ ذات يوم على أيّ من ذئاب في السهوب، فأي نوع من الحرية هو هذا؟ عندها ستشعر بالندم أكثر من أي شخص آخر".

فكّر يانغ في ذلك للحظة، وقرّر أن يجري تسوية، بالرغم من أنها قد ترافقت مع قليل من التردّد. "حسنا، سنبقيه، وسأبحث عن طريقة ما للحصول على بعض المفرقعات النارية. الذئاب مثل الرجال على صهوات الأحصنة: تكره المفرقعات النارية؛ فالصوت يصيبها بالفزع. إذا سمعـــنا إيرلانغ يشتبك مع أحد الذئاب سأشعل سلسلة من المفرقعات، وأنت ترميها وسط قطيع الذئاب".

- "إذا أردت الحقـيقة"، قال شن، وقد رقّت لهجته، "لديك روح ذئبية في داخلك أكثر مـني. أنت لا تخاف المجازفة. هل تنوي حقا الزواج بفتاة منغولية؟ سمعت أنهن أشدّ شراسة من الذئاب".

أزاحـه يانغ كي جانبا. "لا تخبر أحدا"، قال متوسلا. "إذا فعلت ذلك، وعلمت إحدى الفتـيات المنغوليات ربما خطرت في ذهنها فكرة وحشية فتطاردني مثل الذئب، ولن أتمكن من التغلب عليها في القتال. يجب أن أحصل أولا على خيمة خاصة بـي".

23

بينما كان يانغ يولي ظهره لموقع العمل الذي تعمّ فيه الضوضاء، انشغل بالتحديق بهدوء في بحيرة البجع. لم يكن يجرؤ على مراقبة الأعمال التي كانت تجري على قدم وساق خلفه. منذ أن كـــان باو شنغوي قد قتل وأكل البجعة، صارت تزعجه أحلام لا يرى فيها إلاّ دماء تخرج من جسم البجعة، ويرى فيها سطح الماء وقد تحول لونه من اللون الأزرق إلى اللون الأحمر.

كـــان العمال البالغ عددهم اثني عشر عاملا أو نحو ذلك أولئك الذين قدموا من المناطق الـــزراعية الـــتابعة لمنغوليا الداخلية قد غرسوا جذور النباتات في موقع الرعي الجديد، وشيّدوا بـــسرعة مـــساكن ثابتة من الطوب. هؤلاء الرجال كانوا قد أمضوا سنين عديدة منهمكين في أعمـــال تـــتطلب كامل ساعات الدوام المعتادة، أو في أداء عمل موسمي في أرض المراعي. لكن بالنـــسبة إلى أجـــدادهم فقد كانوا رعاة، وأمضى آباؤهم نصف أعمارهم في الزراعة والنصف الآخـــر في مناطق يعيش فيها المنغوليون جنبا إلى جنب مع الصينيين من الهان. كانت أكثر تلك الـــسهوب في زمـــنهم قد تحولت إلى بقايا مزارع بائسة تغطيها الرمال، و لم تعد صالحة لتأمين متطلبات العيش لهم. هكذا أصبحوا مثل الطيور المهاجرة، وانتهى بهم المطاف للمجيء إلى هذا المكـــان. وبما أنهم كانوا يُتقنون اللغتين المنغولية والصينية، فقد أضحوا أيضا مطّلعين على جميع الأعمـــال المتعلقة بتربية الدواجن والزراعة. مقارنة بالصينيين من الهان الذين قدموا من المناطق الـــزراعية الـــتي في الجنوب، فقد كانت لدى هؤلاء معرفة أوسع إلى حدّ ما بالسهوب؛ كانوا يعرفون كيفية استغلال الموارد المحلية، ويمتلكون قدرة فريدة في تشييد الأبنية التي تتطلبها الزراعة. كلمـــا قاد شن زن ويانغ كي خرافهما لتشرب من البحيرة، كانا يتوقفان قريبا من موقع العمل لتجاذب أطراف الحديث مع العمال. كانت هناك الكثير من الأعمال التي ينبغي إنجازها خلال فتـــرة قصيرة حسب الأوامر التي أعطاها باو شنغوي بضرورة إكمال المستودع المؤقت وبركة التغطيس الطبية قبل موسم الأمطار. على ما يبدو، لم يكن لديهم وقت للتفكير في البجع؛ ليس الآن.

وجد يانغ نفسه مضطرا إلى أن يُبدي إعجابه بمهارات العمال في البناء. لقد برزت الجدران الخارجية لصفّ من مساكن الطوب على ما كان بقعة شاغرة في اليوم السابق ليس إلاّ. وبينما انطلـــق على صهوة حصانه يجول في أرجاء المكان ليلقي نظرة عن قرب، رأى كيف أنهم كانوا قـــد نقلوا الطابوق الذي صنعوه من الصلصال الذي استُخرج من ضفاف البحيرة العشبية التي

تعبق برائحة قلوية. كانت أبعاد الطابوق، الذي اختلط مع العشب، ضعف أبعاد ذلك الطابوق الذي استخدم في بناء السور العظيم من حيث العرض والسماكة. لقد كانت التربة زرقاء اللون تميل إلى اللون الرمادي، وكانت لزجة جدا، وعندما تجفّ تماما، تصبح الجدران المبنية بالطابوق أكثـــر صـــلابة وقوة من الجدران المبنية بالطين. لم يكن تجهيز الطابوق قابلا للنفاد من الناحية العملـــية. وعـــندما ركل يانغ طابوقة جدران منتهية بحذائه الذي يستخدمه في الركوب، شعر وكأنها مصنوعة من الإسمنت المسلح.

يوضـــع الطابـــوق بحيث يكون الجانب الذي علق فيه العشب إلى أسفل، مما يجعل جذور العـــشب تبدو ظاهرة للعيان. بعد أن يجري تعديل سطوحها بحيث تغدو ملساء، ومن ثم تسويتها مرة أخرى باستخدام مجرفة تضاف إليها الطبقة التالية من الطابوق. بما أنه كان يتم تقسيم العمال إلى ثـــلاث مجموعات تتناوب على العمل، فقد كانوا قادرين على إكمال بناء الجدران في غضون يـــومين لـــيس إلاّ. وبعدها تضاف السقوف والألواح الخشبية عندما تجفّ الجدران تماما. تحوّلت المـــستنقعات العشبية التي كان يجلب منها الطابوق إلى بركة موحلة كأنها حقل لزراعة الأرز قبل عملية الشتل، مما جعل المواشي تضطرّ إلى الالتفاف حول المنطقة وهي في طريقها إلى البحيرة.

كان مقلع الحجارة الذي يقع هو الآخر على سفح الجبل قد بدأ يتخذ شكله المميز. على تلال السهوب المنغولية كل ما يتوجّب على المرء فعله، من أجل الحصول على كتل من الحجارة والـــصخور الـــتي تـــصمد أمام التقلبات المناخية، هو أن يزيح الطبقة الخفيفة عن التربة الرملية والحـــصى الـــتي يغطيها العشب. كان بالإمكان انتزاع الحجارة والصخور باستخدام عصا نقل الأحمال. لم تكن ثمة حاجة إلى استخدام مطرقة، وفأس، أو متفجرات. انشغل سبعة أو ثمانية من العمـــال بتحريك الحجارة من المقلع، وتكدّست أكوام هائلة على سفح الجبل الأخضر، وكأنها شواهد قبور.

خـــلال أيـــام تم إرسال نحو عشرين عاملا إضافيا بالشاحنات إلى المرتفع، وبدأت أعمال البـــناء تجري على قدم وساق، وبأقصى سرعة ممكنة. كانت الشاحنات محمّلة بأكوام من المواد والأمتعة ذات الألوان المبهرجة؛ لقد رافق العمال زوجاتهم وأطفالهم، وحتى الإوز الداجن حملوه وإيـــاهم من شمال شرق الصين، كما لو أنهم كانوا ينوون الاستقرار على السهوب. شعر يانغ ببوادر فاجعة توشك أن تحدث قريبا، فاشتكى إلى شن: "هذا المرعى الذي بقي محافظا على نقائه سنين عديدة سرعان ما سيتحول إلى قرية صغيرة قذرة من قرى الفلاحين، وتصبح بحيرة البجع بركة موحلة للإوز الداجن".

أجاب شن وهو متجهّم الوجه: "الشيء الأكثر أهمية من غيره بالنسبة إلى أيّ عرق بشريّ يـــواجه حال نموّ سكانيّ هائل هو أن يبقى على قيد الحياة. لن يجد لديه مجالا للتفكير في تغذية خلايا الجمال في الدماغ".

لقد علم يانغ أن الأكثرية من العمال الوافدين هم من البلدة التي ينتمي إليها باو شنغوي، وأنه يطمح في أن ينقل نصف ساكني القرية إلى السهوب.

بعد ذلك بأيام قليلة، رأى يانغ العديد من العمال يحرثون الأرض القريبة من مساكنهم. لقد شقّوا أربعة أخاديد، شكلت جزءا من حديقة واسعة لزراعة الخضار، وفي غضون أيام، بدأت الخضار تتبرعم: ملفوف، وفجل، ولفت، وكزبرة، وبطيخ أصفر، وبصل أخضر، وثوم. كان طلاب بكين مُسبقا قد تجمّعوا هناك وهم يصدرون التعليمات حول كيفيّة زراعة الخضار الصينية التي لم تكن متوافرة في السهوب.

جرى تمهيد ممرات ملتوية لمسير العربات التي تجرها الثيران باستخدام الجرارات المخصّصة لنقل أصواف الحملان. وقد استقدم مع إحضار الجرّارات المزيد من العوائل، وذلك ليقوموا بجمع الأصواف ونوى المشمش، من أجل قطع الأعشاب الطبية من جذورها، وقطع الكراث البري أيضا. كان ذلك أشبها بفتح صندوق يحتوي على كنز جذب أنظار المهاجرين من المناطق الزراعية؛ حيث تردّدت أصداء لهجتهم الشمالية الشرقية، واللهجة الصينية المتأثرة بالمنغولية في أعماق السهوب.

- "كانت حضارة الهان الزراعية قد استوعبت شعب المانشو من سلالة كنغ"، قال شن ليانغ، "لأن الأقاليم الشمالية الشرقية الثلاثة، وهي الأرض التي ينتمي إليها أسلاف المانشو، تضمّ مساحات شاسعة الامتداد من التربة السوداء الخصبة، مما جعل من السهولة لهم تبنّي نمط الحياة الزراعية. ذلك النوع من الاستيعاب لا يمثل مشكلة كبيرة. لكن إذا حاولوا ممارسة ذلك هنا سنواجه خطرا أصفر حقيقيا".

كان باو شنغوي يمضي كل وقته تقريبا في موقع البناء. لقد كان قد اقتنع مُسبقا بإمكانية استصلاح أراضي السّهوب. فخطط لأن ينقل الفرق الأربع جميعها إلى هناك خلال السنة المقبلة، وأن يحوّل المكان إلى مرعى صيفي واحد تاركا التربة السوداء التي في المراعي الأصلية للزراعة. تلك الطريقة من شأنها أن توفر لهم الحبوب واللحوم في أي وقت يحتاجون فيه إلى ذلك، وسيكون قادرا على استدعاء جميع أصدقائه وعوائلهم إلى هذه الأرض التي تعتبر كنزا، بقدرتها الفريدة على التناغم مع القوى التي تسكنها، وأن يُنشئ أرض زراعة؛ مراعٍ خاصة بعائلة باو. لم يكن مثيرا للاستغراب أن يمتلك العمّال استعدادا لتقبل طلبات باو الصعبة بشأن ضرورة التقدّم في إنجاز أعمال البناء.

كان بلغي وسواه من الرعاة كبار السن يتنازعون مع العمال في كل يوم تقريبا، حيث كانوا يطلبون منهم ردم الأخاديد التي تحيط بحدائق خضارهم لأن أحصنتهم كثيرا ما كانت تتعثر وتسقط فيها في الليل. ومن ثم رُدمت الأخاديد، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر مكانها ساتر ترابيّ يصل ارتفاعه إلى ارتفاع خصر الإنسان عن قدميه. تحوّل أوليجي

في أرجـــاء المكـــان، وقـــد بدت عليه نظرة حزينة، بدأ يتمنى لو لم يعثر على أرض رعي جديدة.

اســـتدار يانغ كي إلى موقع العمل الصاخب، المليء بالضّوضاء، وصار يركّز فكره على المـــشهد الخـــلاب الذي أمامه. وقف هناك مدة طويلة وهو يحاول أن يشبع بصره بجمال بحيرة الـــبجع، تمنى لو استطاع أن يُبقي المنظر في ذاكرته فلا يتلاشى منها. في الأيام الأخيرة، أضحى هـــيامه بالبحيرة أقوى حتى من هيام شن زن بالذئاب. كان ينتابه القلق من أن يصبح الساحل المقابـــل والمـــنحدرات المعشوشبة، قبل مضي سنة من الآن، مزدحما بالمواشي التي تعود للفرق الـــثلاث الأخـــرى، والأسوأ من ذلك، أن تتحول إلى مواقع عمل كبيرة بغيضة المنظر يشيّدها العمـــال. إذا تم قطـــع القـــصب الذي على طول الساحل، ستفقد طيور البجع الباقية ستارها الأخضر الذي يوفّر لها الحماية.

امتطـــى يانغ صهوة حصانه، ومضى باتجاه البحيرة، ليرى ما إذا كان هناك أي فراخ بجع صـــغيرة تسبح، ذلك هو الفصل الذي يفقس فيه البيض الذي تضعه الإناث. لحسن الحظ، عدا عـــن بضعة ثيران، لم تكن هناك أي مواشٍ بالقرب من البحيرة؛ كانت المياه الصافية المتدفقة من الجـــدول تجـــرف وإياها القاذورات التي تخلصوا منها هنا بينما تأتي مياه ينابيع من غابة بعيدة لـــتحوّل الـــبحيرة إلى صـــفحة صافية كالبلور. تمنى أن تستمتع تلك الطيور بنفحة من السلام والهدوء.

لكن سربا من طيور الماء تطاير فجأة، وتبعته صيحات وصرخات فزعة. انـــزلقت طيور الـــبط والإوز الـــبري علـــى السطح متجهة إلى جهة الجنوب الشرقي؛ انتفضت طيور البجع، فحلقت بسرعة في الهواء متجهة نحو المستنقعات في الشمال. أخرج يانغ كي منظاره كي يفتش المنطقة التي يتخللها القصب، شعر بالقلق أن يكون شخص ما هناك يسعى لاصطياد البجع.

بقي سطح البحيرة ساكنا لدقائق عديدة. بعد ذلك ظهر على عدستي منظاره طوف مموّه مـــن الـــنوع الذي كان يُستخدم خلال الحرب مع اليابان. انـــزلق الطوف بهدوء إلى البحيرة وكـــان شخصان على متنه، كلاهما كانا يعتمران قبعتين مموهتين بالقصب الأخضر، ويرتديان رداءيـــن خارجيين من المواد نفسها تتدلى من أكتافهما. تناثرت أعواد من القصب المقطوع في أنحاء الطوف، مما جعله يبدو مثل حزمة عائمة من القصب؛ من دون أن يمعن المرء النظر بشكل دقـــيق كان من الصعب عليه أن يميّز القصب عن الطوف. بدا كما لو أن الرجلين اللذين على متن الطوف كانا قد قتلا طريدة. رفع أحدهما قبعته ونـــزع رداءه الخارجي بينما استمر الآخر مستخدما مجرفة يجذف بها في بطء متجها نحو الساحل.

بيـــنما اقتـــرب الطوف من الساحل أكثر، رأى يانغ أنه كان مصنوعا في الواقع من ستة إطـــارات مطاطـــية والعديد من الألواح الخشبية. عرف هوية الرجلين: وانغ العجوز وابن أخيه

إيرشون، الذي أزاح القصب الأخضر بعيدا ليكشف عن حوض معدني مليء ببيض الطيور من مختلف الأحجام، من ضمنها كانت هناك بيضتان يقترب حجمهما من حجم البطيخ الصغير. كانت قشورها ملساء ولامعة، كما لو أنها منحوتة من الأحجار الكريمة. غطس قلبه في أعماقه. بيض بجع! شعر أنه يكاد أن ينتحب. كان الشيء الذي خاف منه، لكنه لم يستطع أن يتفادى رؤيته، هو بجعة مكشوفة جزئيا مخبأة تحت دثار القصب، وقد لطّخت بقع حمراء اللون الريش الأبيض البراق. تسارعت الدماء تتدفق نحو رأس يانغ، كان من الصعوبة عليه أن يمنع نفسه من الإسراع نحوهما ليقلب الطوف رأسا على عقب. لكنه عرف أنه ينبغي له كبح جماح غضبه. كانت البجعة ميتة. لم يعد في وسعه أن يفعل شيئا إزاء ذلك، لكن تحتم عليه أن يحاول إنقاذ البيض.

حالما وصل الطوف إلى الساحل، أسرع راكضا نحوه. "من قال إنكما تستطيعان قتل طيور البجع، وأخذ بيضها؟ تعالا معي؛ يمكنكما أن تفسّرا موقفكما في مقر قيادة الفرقة".

كان العجوز وانغ رجلا قصيرا وسمينا، له لحية سوداء ليست منغولية ولا من الهان، في الوقع بدا ماكرا. نظر شزرا إلى يانغ. "المدير باو هو الذي طلب منا أن نفعل ذلك. ما المشكلة؟ إذا حصلنا على طير مثل هذا لنأكله يمكن أن يوفر عليكم فريق الإنشاءات الكثير من الأبقار والخراف".

- جميع الصينيين يعرفون أن الحمقى وحدهم يحبون أكل البجع. أنتم صينيون أم لا؟

قال العجوز وانغ باستهزاء. "لن يسمح أحد من الصينيين لبجعة أن تطير حتى تصل إلى الروس. ماذا عنك؟ هل تريد أن تسلم البجع إليهم؟".

أيقن يانغ أن المهاجرين سيستمرون بالنقاش ويطرحون أفضل ما لديهم من الحجج، و لم يعرف ما الذي يمكن أن يقوله.

عندما سُحبت البجعة إلى الساحل، رأى يانغ سهما مغروسا في صدرها. كان هناك قوس كبير مصنوع من خيزران سميك وجعبة من السهام ملقاة على الطوف. ليس من المستغرب إذا أنه لم يسمع أي إطلاق للنار. أدرك أن القوس والسهم يمكن أن يكونا سلاحا أكثر فتكا من السلاح الناري، لأنهما لن يفزعا طيور البجع الأخرى أو طيور الماء، مما يجعل من السهولة قنص المزيد منها. بعد أن تأكد يانغ أن عليه النظر في قضية هذين الرجلين بشكل جدّي، قرر أن الطريقة الوحيدة لإيقافهما عند حدهما هي من خلال اتّباع استراتيجية معينة بدلا من الصرامة في الموقف.

أجبر يانغ نفسه على أن يُبقي غضبه تحت السيطرة، وهكذا فقد غير طريقة كلامه فيما كان يلتقط القوس. "يا له من قوس رائع. حقا رائع، إنه جيد وصلب. لقد استخدمتما هذا، أليس كذلك؟".

بعد أن رأى العجوز أن يانغ قد قرّر أن يكون أكثر تعقّلا، قال مفاخرا: "وهل هناك شيء غــيره؟ لقــد صنعته من قوس خيزران يستخدم في تمشيط الأصواف، كنت قد عثرت عليه في إحدى خيم الفرقة. إنه متين للغاية بحيث يمكنه بسهولة قتل إنسان".

تناول يانغ أحد السهام. "هل يمكنني تجربته؟".

كــان وانــغ العجوز جالسا على ربوة معشوشبة عند ضفة البحيرة يراقب إيرشون وهو يــسحب البجعة الميتة من الطوف. قال فيما كان ينفث الدخان من غليونه: "السهام تحتاج إلى كثير من الوقت في صناعتها، وينبغي ألاّ تُستخدم إلاّ عندما يحتاج المرء إلى أن يصطاد بها شيئا. تستطيع أن تطلق واحدا، ليس أكثر من ذلك".

هكــذا فقد انتظر يانغ لحظة من أجل أن يعتاد على حمل القوس، الذي كان مصنوعا من خيزران تبلغ سماكته ما يماثل عرض ثلاث أصابع. كان سمك الوتر، الذي صنع من أشرطة رفيعة مــن جلد البقر فُتلت مع بعضها بعضا، يماثل سماكة قلم الرصاص. أما السهم فهو من أغصان الصفصاف المشذّبة، وقد ثبّتت ريشات إوز بري على أحد أطرافه. استغرب يانغ عندما رأى أن طــرف الــسهم مصنوع من علب الصفيح؛ كان في وسعه حتى أن يتهجأ كلمة *مدمّس* عليه. وهناك قطعة مثلثة من الصفيح تم لفّها حول غصن الصفصاف، حيث شذّب طرفها ليغدو حادا؛ وبعــد ذلــك سُمّرت الأطراف مع بعضها بعضا. اختبر يانغ طرف السهم بإصبعه؛ كان صلبا ومدبــبا للغاية. تفحّص ثقل السهم؛ كانت الساق خفيفة، لكن طرفها ثقيل، لن يمضي مسافة بعيدة عندما ينطلق.

كــان القوس صلبا بحيث احتاج يانغ إلى بذل جهد كبير ليسحب الوتر إلى نصف المسافة المطلوبة. بعد أن ثبّت السهم على الوتر، حدّد هدفا ما عند ربوة يغطيها العشب على بعد ثلاثين أو أربعــين قــدما منه، وأطلق السهم. انغرس طرف السهم في الربوة. ركض يانغ إلى هناك، وانتــزعه برفق من التراب، ثم نظّف طرفه، ورأى أنه كان حادا مثل السابق. في تلك اللحظة، تخــيل أنه قد انتقل عبر الزمن إلى الوراء عندما كانت حشود القبائل المنغولية تتسلح بالأقواس والسهام.

رجــع يانغ واقترب من العجوز وانغ. "كم كنت تبعد عن الهدف عندما أطلقت السهم باتّجاه البجعة؟".

- ليس أكثر من سبع أو ثماني خطوات.

- و لم ترَك البجعة أبدا؟

نفــض العجــوز وانــغ الرماد من غليونه وقال: "يوم أمس ذهبت إلى منطقة القصب، ووجــدت العــشّ. هذا الصباح نهضنا من النوم في وقت مبكر جدا، عملنا على تمويه أنفسنا بالقصب، ومضينا نجدّف في مياه البحيرة. لحسن الحظ، كان الجو ضبابيا بحيث لم تتمكن طيور

البجع من رؤيتنا. كان العشّ يماثل قامتنا في الطول. لقد جثمت البجعة على بيضها في الداخل، بينما كان الذكر يسبح هنا وهناك على البحيرة قريبا منها لغرض توفير الحماية".

– أي منهما أطلقت عليه السهم، الذكر أم الأنثى؟

– كـــان علينا أن نُبقي رأسينا منخفضين في الطوف، لذلك لم نتمكن من التصويب على الأنثـــى داخل العشّ. لقد انتظرنا الذكر، وعندما انـــزلق إلى الخارج قريبا منا. أطلقت السهم. أصـــبته في القلب. صار يرفرف بجناحيه بوهن، ثم مات. عندما سمعت الأنثى الضوضاء خارج عشها، طارت بعيدا، عندها ذهبنا وجَمَعنا البيض.

كانـــت القدرة التي يتمتع فيها هؤلاء المهاجرون على البقاء وإلحاق الخراب مذهلة، هكذا فكّر يانـــغ. لم تكن لديهم بنادق، لذلك فهم يصنعون الأقواس والأسهم؛ لم تكن لديهم قوارب، فكانوا يصنعون أطوافا، وفوق كل هذا وذاك، فهم ماهرون في إخفاء أنفسهم؛ ويصيبون هدفهم من المحاولة الأولى. إذا زوّدهـــم بالبـــنادق والذخيرة وأحد الجرارات، لن يكون من السهل تصور الشكل الذي ســـتتحوّل إليه السهوب على أيديهم. كان أسلافهم رعاة، لكن بعد أن واجهوا الانحدار، وهيمنت عليهم أمم أخرى بثقافاتها، صاروا أعداء للسهوب المنغولية. منذ أكثر من ألف عام، استبدّ بالصينيين الفخر من قدرتهم على استيعاب الأعراق الأخرى. لكنهم استطاعوا استيعاب شعوب تمتلك مستوى مـــنخفض مـــن الحضارة، لم يكونوا على استعداد لمناقشة النتائج التي غالبا ما كانت كارثية لعملية الاستيعاب تلك. بما أن يانغ كي كان شاهدا الآن على تلك النتائج، فقد أضحى قلبه ينـــزف دما.

بعد أن أخلى إيرشون الطوف من محتوياته، جلس ليأخذ قسطا من الراحة. لم يستطع يانغ أن يـــبعد عـــن ذهـــنه صورة بيضتي البجع. لأن الأنثى لا تزال على قيد الحياة، شعر أنه مرغم بواجب طبيعي على أن يرجعهما إلى العش، على أمل أنهما عندما تفقسان عن طائرين صغيرين، سيطيران بعيدا مع أمهما، وتقطع جميعها الطريق كله باتجاه سيبريا.

بابتـــسامة عريضة إن لم تكن طبيعية، قال يانغ للعجوز وانغ: "إنك ماهر في هذا الشأن. آمل أن تعلمني ذات يوم بعض مهاراتك".

ابتسم العجوز وانغ بفخر. "إنني ماهر في كثير من الأشياء، لكنك لن تجد أشخاصا كثيرين أفـــضل مـــني في اصـــطياد الطيور والمرموط والذئاب، أو في نصب الفخاخ، وفي العثور على الأعشاب الطبيّة، وفي نبش التربة لاستخراج الفطر. لقد اعتدنا على إيجاد جميع تلك الأشياء في أرض الوطن، لكن الكثيرين جدا من الصينيين قد انتقلوا إلى هذه المناطق. أنتم الطلاب من بكين حـــصلتم على مسكن مستقر إلى جانب الساكنين المحليين. ما رأيك في أن تتكلم نيابة عنا نحن الـــدخلاء عـــندما تسنح لك فرصة؟ بتلك الطريقة لن يستطيع المنغوليون المحليون طردنا. إنهم يصغون لما تقولونه. إذا فعلت ذلك سأعلمك شيئا أو شيئين. إنني أضمن لك أن تكسب ألفا في السنة بالاستفادة مما أعلمه لك".

– حسنا، إذا، سأسمّيك معلمي من الآن فصاعدا.

اقتــرب العجوز وانغ أكثر من يانغ وقال: "سمعت أن لديكم أنتم والرعاة الكثير من دهن الخــراف. هل تعتقد أنك تستطيع إحضار القليل منه لنا؟ يوجد أربعون أو خمسون شخصا منا مــنهمكين في أداء أعمــال تقصم الظهر، وعلينا الدّفع بأسعار السوق السوداء للحصول على الحــبوب الــتي نستهلكها مع الخضار البرية التي نقطفها، كل ذلك من دون قطرة من الدهن. لكــنكم تــستخدمونه في إنارة مصابيحكم. يا له من هدر! ما رأيك في أن تبيعوا لنا قليلا منه بسعر جيد".

ضــحك يانــغ. "ليست هناك مشكلة"، قال. "لدينا وعاءان كبيران منه. سأقترح عليك شيئا. إنني أحب منظر بيضتيّ البجع هاتين، ما رأيك في مبادلتهما بنصف وعاء من الدهن؟".

– "إنهما لك!"، أجاب وانغ العجوز. "كنت سآخذهما على كل حال إلى البيت وأقليهما، وذلك لا يختلف عن أكل خمس أو ست بيضات بط. هيا، خذهما".

خلع يانغ على الفور معطفه، ولفّ البيضتين فيه. "سأجلب الدهن وإياي إلى هنا في الغد".

– "إنني واثق بك"، قال العجوز وانغ. "أنتم الطلاب من بكين تلتزمون بكلمتكم".

أطلــق يانغ زفيرا بصوت مرتفع وقال: "لا يزال الوقت مبكرا. هل يمكنني استعارة طوفكما؟ أرغب في الذهاب لأرى ذلك العشّ. من الصعب عليّ أن أصدق أنّ طوله يصل إلى طول قامتك".

لمح العجوز وانغ حصان يانغ. "ما رأيك في هذا؟"، قال. "سأبادل طوفي بحصانك. يجب أن أنقل هذه البجعة إلى المطبخ، وهي ثقيلة مثل ثقل الخروف تقريبا".

نهض يانغ. "موافق... لكن انتظر قليلا؛ قل لي أين عثرت على العش".

نهــض وانغ، وأشار إلى ناحية القصب. "اذهب شرقا"، قال: "وعندما تصل إلى النهاية، اتّجه شمالا. ستجد ممرّا يخترق القصب حيث سار فيه الطوف. فقط تابع التقدّم، ولا بدّ لك من أن تعثر عليه".

– "عــندما ترجع"، قال له العجوز وانغ موجّها، "تأكد من ربط الطوف مثلما وجدته". التقط البجعة الميتة ووضعها على السرج. ثم صعد عليه، جلس خلف الطير، ومضى ببطء باتّجاه موقع العمل، بينما سار إيرشون خلفه، وكان يجرّ الحوض الثقيل بصعوبة.

انتظــر وانغ إلى أن ابتعد الرجلان لدرجة كافية بالنسبة إليه لأن يرجع إلى الحافة، حيث حمــل المعطف الذي يحتوي على البيضتين، ووضعه داخل الطوف. بعد ذلك بدأ يجدّف بأقصى سرعة ممكنة، متّجها صوب الشرق.

* * *

كان يانغ يتنفس بسرعة، ويداه ترتعشان وهو يجدّف على نحو غير مستقرّ متجها إلى العشّ، أزاح القصب الطافي عن طريقه بالمجرفة، أراد الاقتراب من العشّ بصورة بطيئة قدر الإمكان.

وقـــف يانغ أمام العشّ، وقد اعترته حالة من الذهول. كان العشّ أكبر، وأطول، وأكثر غـــرابة مـــن جميع أعشاش الطيور التي رآها في حياته. بعد أن أكد لنفسه أن الأنثى بعيدة عن المكان، بدأ يتفحّص العشّ عن قرب. أخذ يدفع القصب بيديه معا؛ لم يتزحزح العشّ، كان مثل جـــذع شجرة سماكته تصل إلى ثلاث أقدام. بالرغم من كونه قائما على المياه، إلا أن جذوره كانت عميقة مثل جذور شجرة الأثاب[1].

فيما بردت الريح التي كانت تهبّ على سطح البحيرة، ازداد لون القصب الأخضر قتامة. حمل يانـــغ البيضتين قريبا من صدره، محاولا أن يمنحهما القليل من الدفء الذي يتسلل من جسده. تسلق بحـــذر مقتـــربا من العشّ، وتشبّث بالحافة بيد واحدة، بينما أرجع برفق إحدى البيضتين إلى العشّ. أخـــرج البيضة الثانية من تحت معطفه وأرجعها بعناية مماثلة. بعد ذلك، بينما كانت خطواته تتراجع إلى الطوف، تنفس الصعداء، معتقدا أن البيضتين بعد أن استقرتا على العمود الرمزي[2] للعشّ، كان مـــن شأنهما أن تصبحا مثل حجرين كريمين هائلين، يرسلان بريقا وهاجا ينطلق من وسط القصب، ويبثّان شعاعيهما الرائعين باتّجاه السماء لاستدعاء ملكة البجع لتعود فتحلق في الهواء.

أخيرا، ظهرت بقعة بيضاء تحوم في السماء. أسرع يانغ، وفكّ الحبل، وأخذ يجدّف بهدوء متّجها بالطوف صوب الممرّ المائي. عدّل وضع القصب الذي ضغط عليه الطوف، وصار يدفع عـــنه ســـيقان القـــصب والأوراق العائمة بمجرفته، على أمل أن ينمو قصب جديد في المنطقة ليحجب العشّ المكشوف.

شـــاهد بجعة تهبط على عجل قبل أن يترك الممرّ القصبـــي؛ عندما وصل إلى الحافة كانت البجعة قد اختفت من السماء.

* * *

عـــاد يانغ كي ماشيا إلى مطبخ موقع الإنشاءات، حيث أخبره إيرشون أن عمّه قد امتطى الحصان، وذهب إلى القاطع الثالث لشراء ثيران مريضة. خارج المطبخ كان هناك موقد مؤقّت، اســـتقرت علـــيه قدر كبيرة. على الأرض تناثرت أكوام من الريش الرطب. تصاعد البخار من القدر، حيث كانت قطع من لحم البجعة حجمها يماثل قبضة اليد تطهى. رأى رأس الطير يبرز ويهتزّ في الماء المغلي. كانت هناك امرأة شابة ترتدي زيّا شبيها بأزياء الهان ترشّ قبضة من الفلفل السيـــشواني[3]، وتقطّـــع بـــصلا أخضر، وتفرم زنجبيلا داخل القدر. صبّت نصف زجاجة من

---

(1) الأثاب: تين البنغال، شجر ضخم من أشجار جزر الهند الشرقية. (المترجم)

(2) العمود الرمزي: عمود منحوت مزدان برسوم رمزية مستوحاة من الأساطير والمعتقدات، كان يثبّته بعض الهنود الحمر أمام منازلهم. (المترجم)

(3) سيشوان: مقاطعة تقع في أعالي نهر يانغ تزو في وادي شانغ جيانغ، في الجهة الجنوبية الغربية من الصين. (المترجم)

معجـــون الـــصويا الـــرخيص على رأس البجعة. داهمت يانغ كي نوبة غثيان، فتقهقر مترنّحا، واستند إلى عربة ثيران.

– "أســـرع"، قالـــت المرأة لإيرشون، "خُذه إلى الداخل. سنعطيه طبقا من المرق ليستعيد صوابه".

أشـــار يانغ بيده رافضا، ودفع إيرشون بعيدا عنه؛ كان الغضب يعتمل في صدره لدرجة فظـــيعة بحيث شعر أنه يريد أن يرفس القدر فيقلبها. لم يكن يطيق الرائحة الآتية منها، لكنه لم يجرؤ على أن يقلب القدر أو يجعلهم يشعرون بمقدار غضبه. على كل حال، فقد كان إيرشون قرويّا، بينما يعتبر هو أحد أولئك *الأوغاد الهجناء* الذين أرسلوا *إلى الجبال وإلى الأرياف* من أجل إعادة تثقيفهم.

عندما عاد يانغ كي إلى المخيم، أخبر شن زن وغاو جيانـــزونغ بما رآه، وشعر به في ذلك اليوم.

كان شن منـــزعجا للغاية بحيث لم يستطع قول شيء. تطلب الأمر منه فترة من الزمن ليستعيد هدوءه. "ما أخبرتنا به ليس إلاّ صورة مصغّرة عمّا حدث بين البدو والفلاحين في شـــرق آســـيا على مدى آلاف السنين. أصبح البدو فلاحين، ومن ثم انقلبوا على أعقابهم، ودمّروا السهوب، مما أدى إلى إلحاق خراب جسيم بكلّ من البدو والفلاحين ضمن سياق ذلك".

– "لِـــمَ يجـــب أن تكـــون المسألة على هذا الشكل؟"، سأل يانغ. "لقد وُلدوا جميعا من الأصـــول ذاهـــا، إذا فلِـــمَ يتقاتلون في ما بينهم بهذه السرعة؟ لِمَ لا يمكن للبدو والفلاحين أن يتمسّكوا بنمط حياهم؟".

قـــال شن ببرود: "إنه عالم صغير، وكل إنسان يريد أن يعيش حياة طيبة. التاريخ البشري بالأساس هو عبارة عن سلسلة من حوادث القتال المستمر، ومحاولات لحماية الأمكنة التي كانت تقطنها الشعوب. الفلاحون الصغار في الصين كانوا قد كرّسوا حياهم للعناية بقطعة صغيرة جدا من الأرض التي يزرعوها، مما جعلهم أفرادا ضيقي الأفق، ويمتلكون رؤية محدودة. لو لم نأتِ إلى هـــنا لكنّا سنستمرّ في النظر إلى العالم من خلال العيون الصغيرة للفأر، وسنتمسك باعتقادنا في أننا وحدنا على صواب دائما؟".

* * *

في وقـــت مبكـــر من صباح اليوم التالي استيقظ كلٌّ من يانغ، وشن، وغاو على صوت إطـــلاق نار عند البحيرة. خبطوا أقدامهم على الأرض غضبا وندما. وثب يانغ، وقد عصف به الجـــنون، على صهوة حصانه، وانطلق بسرعة خاطفة باتّجاه البحيرة. طلب شن من غومبو أن يتولّى حراسة خرافه قبل أن يذهب برفقة غاو وهما يمتطيان صهوتي حصانيهما للّحاق بيانغ.

انتظـــروا وصـــول الطوف بلهفة إلى أن اقترب من حافة البحيرة، وعندما رأوا ما بداخله شـــعروا وكأن فردا من أفراد العائلة قد مات. وجدوا في الطوف بجعة أخرى ميتة، إلى جانب العديـــد من الإوز والبط البري، بالإضافة إلى بيضتين ملطختين بالدماء. من الواضح أنها كانت أنثـــى البجع التي لم تحلّق بعيدا عن بحيرة الرّعب في الوقت المناسب، بل بقيت لتحمي بيضتيها الثمينتين، وانتهى بها المطاف مثلما انتهى بذكرها. كان رأسها قد أصيب بعدة رصاصات، فبدا منظـــرها أسوأ من منظر الذكر الذي اصطيد بالأمس. لقد ماتت وهي تحضن فرخيها اللذين لم يفقسا بعد، مما منحهما شيئا قليلا من الدفء الأخير الذي تسرّب إليهما من جسدها مع تسرّب دمها.

كـــان وجه يانغ مبللا بالدموع. لو لم يكن قد أرجع البيضتين إلى العشّ، ربما لم تتعرض الأنثى للهلاك.

فيما كان يانغ مستغرقا في أفكاره، قفز بينغ الصغير، الطبيب البيطري حافي القدمين، عن صـــهوة حـــصانه وهو يلهث، انتزع البيضتين الملطّختين بالدماء، ووضعهما في حقيبة كان قد ملأها بأصواف الحملان، ثم عاد ليمتطي حصانه، ومضى بعيدا.

حمـــل العمال غنائمهم بمزاج مرح وكأنهم كانوا في نـــزهة، وعادوا بها إلى المطبخ، تحت نظـــرات الـــرعاة الحائرة والغاضبة، الذين لم يفهموا السبب الذي جعل هؤلاء المنغوليين، الذين كانـــوا يلبـــسون أزياء صينية، أن يقترفوا أفعالا بمثل هذه القسوة ضدّ طيور السهوب المبجّلة. كيف استطاعت أعصابهم أن تتحمّل قنص والتهام مخلوقات في وسعها أن تطير إلى تينغر؟ احتدم الغضب في صدر بلغي، الذي لم يأكل في حياته قطّ مخلوقات يمكنها أن تطير مثل هذه، حتى إن لحيته الصغيرة كانت ترتعش. صار يلعن وانغ على المذبحة التي اقترفها، لأنه لم يحترم قول أحد، ولم يعبأ بمكانة الطّير المبجّل، ولنسيانه جذوره المنغولية.

سمع وانغ في وقت لاحق أن بينغ كان قد بادل الدهن مقابل بيضتي البجع، وقد اتضح لـــه أنه كان يهوى جمع الأشياء النادرة والثمينة، وأنه ابتكر طريقة بارعة للاحتفاظ بقشور البيض في حالة سليمة. فبعد أن يُحدث ثقبا صغيرا في أسفل البيضة باستخدام حقنة طبية، كـــان يستخرج المحتويات منها، ثم يحكم إغلاق الثقب لمنع القشرة من التعفن أو الانكسار بفعل ضغط الهواء.

علـــى ذلك النحو، يمكن أن تبقى البيضتان الجميلتان في حال سليمة إلى الأبد، بالرغم من أن الحـــياة التي بداخلهما كانت قد انتهت. ذهب بينغ أيضا إلى محلّ نجّار المراعي، وطلب منه صنع حاويتين اثنتين إحداهما من الخشب والأخرى من الزجاج. بعد ذلك وضع بطانة من الحرير أصـــفر اللون في كل من الحاويتين لتحضنا البيضتين، مما أدى إلى ابتكار أعمال فنية نادرة تتّسم بالغـــرابة. أخفى حاويتيه الثمينتين في خزانته، ولم يكن يظهرهما لأي شخص. بعد مضي سنين

عـــدّة، قـــدّمهما هديـــة إلى موظـــف رسمي جاء لتجنيد طلاب كي يلتحقوا **بكلية العمال، والفلاحين، والجنود**. تلك كانت الطريقة التي استطاع من خلالها بينغ الصغير، بعد أن استخدم أجنحة سلبها من البجع، أن يطير عائدا إلى المدينة ويلتحق بالكلية.

24

يمكن لليالي الصيف على السهوب المنغولية أن تكون باردة مثل ليالي أواخر الخريف. لكن سرعان ما تشنّ حشود مخيفة من البعوض هجماتها، فلا تبقي إلاّ بضعة أيام يسودها السلام.

تمـــددت الخراف، التي تم مؤخّرا جزّ أصوافها، متكدّسة قرب بعضها بعضا، فيما كانت منشغلة باجترار العشب؛ حوّمت فوق القطيع أصوات جرش وطحن واهنة. كان إيرلانغ *وأصفر* ينظران إلى الأعلى من حين إلى آخر، يشمّان رائحة الهواء بحذر وانتباه فيما هما ينفذّان جولتهما الـــتفقدية مع يير والجراء الثلاثة. حمل شن زن مصباحا كاشفا، وسحب وراءه قطعة من اللبّاد يقارب حجمها حجم البطانية، مشى متجها إلى المكان الذي كانت تقوم فيه الكلاب بدوريّاتها، واختار بقعة جيدة، وفرش اللبّاد على الأرض. جلس القرفصاء، فيما ارتمى معطف رثّ خفيف علـــى كتفـــيه، لم يكن يجرؤ على الاستلقاء. بعد المجيء إلى أرض المراعي الجديدة، صار النوم الهـــنيء، ولـــو لليلة واحدة شيئا نادرا، كانت النهارات الطويلة تمضي في رعي الخراف، وجزّ الأصواف، والعناية بالجرو، بينما تكرّس الليالي القصيرة للقراءة، والكتابة إلى الصحيفة التي يعمل فـــيها، وطبعا للحراسة. كل ما كان عليه عمله أن يستلقي كي يغطّ في نوم عميق على الفور، بحـــيث لا يـــوقظه حتى نباح الكلاب. أراد أن ينال حصته من النوم قبل أن يبدأ البعوض بشنّ هجماته، لكنه كان يدرك أن ذئاب السهوب ستستغل فترة استرخائه.

بعـــد أن هاجمـــت الذئاب بقرة مريضة في موقع العمل، بدا وكأن شهيتها قد تحولت إلى المواشـــي المنـــــزلية. كانت الغزلان الصغيرة تستطيع الجري بسرعة في ذلك الوقت، والمرموط شـــديد الانتباه، وفئران الحقول لا تُشبع شهية الذئاب الجائعة؛ المواشي فقط يمكنها ذلك، وما دامت حالة القطعان تفتقر إلى الاستقرار الكامل في أرض الرعي الجديدة، فقد عقد بلغي سلسلة من الاجتماعات من أجل تحذير الرعاة والطلاب وأوصاهم أن يكونوا مثل الذئاب نفسها، وأن يـــناموا وعـــيونهم مغمضة لكن آذانهم متنبّهة إلى جميع الأصوات. كانت أولونبولاغ تبدو على استعداد لخوض حرب أخرى بين البشر والذئاب.

اعتاد شن تنظيف المنطقة التي يعيش فيها الجرو كل يوم، كان يغطي الأرض بطبقة جديدة مـــن الرمل، ويرفع الفضلات ليس لأسباب صحية وحسب، وإنما ليخفي أي أثر لوجود الجرو ومـــوقعه. لقد عاد ليعيش أيامه بصورة اعتيادية منذ أن وجد الجرو وجاره المؤقت، كان يشعر بالخوف من أن يشنّ قطيع الذئاب هجوما دمويا من أجل استعادته. لقد اتخذ جميع الإجراءات

المناسبة لمنع الجرو من أن يترك ما يدلّ عليه على الطريق إلى أرض الرعي الجديدة بحيث إن الأم حتى لو جاءت مسرعة، بعد أن تكون قد اكتشفت رائحة الجرو في المخيم السابق، فهي لن تستطيع معرفة المكان الذي انتقل إليه الجرو.

لم يكن يبدو لشن أن رائحة الذئاب يمكن أن تنتشر في الهواء. ركضت الجراء الثلاثة التي لم يكتمل نموها بعد إليه. كان معتادا على ملاطفة كل واحد منها. تبع *أصفر* ويير الجراء لنيل نصيبهما من الاهتمام. بقي إيرلانغ وحيدا، ذلك الكلب الوفي دائما، يحرس القطيع. كان يفهم الذئاب أكثر من الكلاب الأخرى، ويبقى دائما يقظا مثله مثل أي ذئب.

ازدادت برودة الرياح التي كانت تهبّ ليلا، جعلت الخراف تقترب من بعضها بعضا أكثر فأكثر لتحصل على شيء من الدفء، بحيث تقلّصت المسافة التي احتلتها من الأرض على الأقل إلى الربع. زحفت الجراء الأربعة فدخلت تحت مئزر شن الممزق فيما هدأت حركاتها في تلك الليلة الباردة حالكة الظلام.

بعد القيام ببضع جولات حول القطيع وهو يحمل مصباحه الكاشف، لم يكد شن يجلس على فراشه اللبّادي حتى تناهى إلى سمعه صوت يتسلل من مكان غير بعيد كثيرا، عواء حزين لأحد الذئاب - آووو... آووو... آووو... - انبثق فجأة، وانتشر في أرجاء المكان ببطء، تخللته توقّفات وجيزة ليس إلاّ، صوت كان يتردد بنبرات مرتعشة تارة، وصافية تارة أخرى، صوت عميق رخيم إلاّ أنه حادّ كالشفرة، صوت كان يهيمن لاإراديا على الوعي، ويخترقه بإصرار في آن واحد. قبل أن يتلاشى الصوت، تردّدت أصداؤه الواهنة بين الجبال من ثلاثة جوانب - الشمال، والجنوب، والشرق - وصارت تلتفّ على الوديان والحوض، حتى وصلت إلى حافة البحيرة، حيث اختلطت بحفيف القصب الذي داعبته النسمات كي تُنتج جوقة مُنشدين مؤلفة من الذئاب، والقصب، والرياح. تحوّل اللّحن إلى نغمات باردة حملت معها أفكار شن زن بعيدا إلى البراري السيبريّة.

لقد مضى زمن طويل منذ أن كان يسمع نداء ذئب في وقت متأخر من الليالي الهادئة الصافية، مما جعله يرتعش. سحب مئزره، ولفّه بشدّة أكثر حول جسده، لكن ذلك لم يمنع قشعريرة الخوف من العواء من أن تتسلّل إليه، حيث اخترقت مئزره وجلده، ثم انتقلت إلى أسفل عموده الفقري حتى وصلت إلى عظم العصعص. مدّ يده، وسحب *أصفر* قريبا منه، غطّى الكلب بمئزره معه، مما جلب له القليل من الدفء.

لم يكن هذا سوى تمهيد، كان إنذارا مفعما بالكآبة والتجهم سبق كل شيء. لاحقا سُمعت أصوات عواء عالية النبرة صدرت عن العديد من ذكور الذئاب الشديدة، والتي جعلت جميع الكلاب الموجودة في مخيمات فرقة الإنتاج تنبح. جرت الكلاب التي كانت متجمّعة قرب شن، الكبير منها والصغير، نحو الطرف الشمالي الغربي من القطيع، ورفعت عقيرتها بالنباح

الشرس. اندفع إيرلانغ إلى الأمام مثيرا ضجيجا هادرا بالاتجاه الذي كان العواء يصدر منه، لكنه توقــف، وارتدّ على أعقابه خوفا من أن يتعرض لهجوم من الخلف. احتل موقعه قبالة القطيع، واستمر بالنباح. لاحت أضواء مصابيح كاشفة في جميع مخيّمات الفرقة حيث كانت تتلوى على الــتلال الــواقعة عند سفوح الجبال التي تحفّ بالحوض؛ استمر مئة أو أكثر من الكلاب التابعة للفرقة بالنباح لنصف ساعة تقريبا قبل أن يهدأ نباحها تدريجيا ويختفي.

أقــلّ ما يمكن أن يقال عن الليل إنه كان يزداد ظلمة وبرودة. بدأ الذئب القائد يعوي من جديــد؛ كــان عواء الذئاب الأخرى التي استجابت له كأنه ثلاث طبقات من الأصوات التي اســتمرت تــضغط بثقلها على المخيمات، أصوات عالية إلى حدّ أنها طغت على نباح الكلاب الذي كان يبدو مرتبكا، ومتماوجا. ظهرت ظلال جميع النساء اللواتي كن يقمن بالحراسة الليلية تــتمايل بــشكل غامض على أضواء مصابيحهن الكاشفة وقد سارعن إلى تمشيط المنطقة التي كانــت تُــسمع مــنها الأصوات فيما أطلقن صيحات عالية: آهيي... وو – هيي... ييي – هيي...، موجة بعد أخرى من الصراخ المرتعش أطلقتها النساء ليمارسن الضغط بدورهن على قطيع الذئاب.

انطلقــت الكــلاب، بعد أن تعلمت الدرس من سادتها البشر، تعدو وهي تشنّ عاصفة ضــارية من الضوضاء: مزيج من النباح، والعواء، والزئير، والاستفزاز، والتخويف، والاستهزاء نــتج عنها وقع طبول نشاز. أضاف شن صيحاته التي لم يتمكن من السيطرة عليها إلى المزيج، لكن سرعان ما ابتلع ظلام الليل صيحاته الواهنة.

علــى أرض الرعــي يكون لتقارب الخيم من بعضها بعضا تأثير في تركيز وتضخيم زخم الهجوم المقابل بالأصوات عالية النبرات الذي يشنّه الرعاة، مما يؤدّي إلى حالة توتّر شبيهة بتلك التي تسبق نشوب الحرب.

ابــتُلعت صــيحات الذئاب بسرعة و لم يعد لها أثر. لقد نجحت استراتيجية تقارب الخيم بشكل مكثف، تلك التي ابتكرها أوليجي وبلغي. كان المخيم المتماسك قابلا للصمود، مما قلّل من احتمال وقوع أي هجوم للذئاب.

على حين غرة، سمع شن خشخشة السلسلة، فركض على الفور إلى الذئب الصغير، الذي كــان يثب إلى الأعلى والأسفل خارج الحفرة، لقد كشّر عن أنيابه، وجرّد مخالبه في حالة من الاهتياج العارم بفعل حرب الأصوات والأضواء التي تدور رحاها بين البشر والذئاب من جهة، والكلاب والذئاب من جهة أخرى.

يكون الظلام حنونا في تعامله مع الذئاب: الذئاب أكثر الحيوانات حيوية في الليل، وتكون في أقــصى حالات الاستعداد للقتال. إنه الوقت المناسب بالنسبة إليها للاستباحة، الوقت الذي تــنهش فيه اللحم وتزدرد الدماء حتى التخمة، وقت تقسيم غنائم عمليات القتل. لكن السلسة

المعدنية أبقت الذئب الصغير أسيرا، مما حوّله إلى ذئب مجنون. وفيما كان يصارع بلا جدوى ضدّ السلسلة، صدرت عنه أصوات هدير غاضب لأنه حرم من القتال الذي يسعى إليه، تكوّم جسده مكونا شيئا شبيها بالكرة، ومن ثم اندفع يعدو على الممرّ الذي كان قد شقّه في الحظيرة. وثب في الهواء، وضرب أهدافا وهميّة خلال حركته، ثم توقف فجأة قبل أن يشنّ هجوما لاحقا ويتدحرج على الأرض. بعد ذلك أغلق فمه، صار يطحن بأنيابه، ويهز رأسه، تماما كما لو أنه قد فتك بحيوان كبير، وينتظره ليموت بفعل مسكته القاتلة.

بعد ذلك بلحظات، وقف الجرو عند الطرف الشمالي من الحظيرة، كان يحدّق مباشرة إلى الأمام، فيما نتأت أذناه، لم تتحرك عضلة واحدة في جسده، اتّخذ وضع استعداد لهجوم آخر. لقد تحفّزت غرائزه القتالية من خلال التوتّر الذي يسود أجواء ما قبل المعركة، والشعور الواضح بوجود شيء مخيف بإمكانه أن يشمّ رائحته في الهواء، بدا غير قادر على التمييز بين الصديق من العدو، ما دام من المحتمل بالنسبة إليه أن يشترك في النزال من أي جانب. بدا وكأن قتل جرو كلب أو قتل جرو ذئب آخر سيجعله سعيدا على حدٍّ سواء.

اندفع الجرو باتجاه شن زن حالما رآه قادما، لكنه تراجع بعد ذلك حتى يتمكن شن من دخول الحظيرة. تقدم شن خطوة داخل الحظيرة، وكان على وشك أن يقرفص عندما داهمه الجرو كأنه نمر جائع، لفّ قوائمه حول ركبة شن وفتح فمه، بدا مستعدا لأن يعضّ. لكن شن كان متأهبا للهجوم؛ سدّد مصباحه الكاشف نحو خطم الجرو وأضاءه. أدى الضوء الذي يعمي الأبصار إلى إيقاف الهجوم.

رفع الجرو رأسه عاليا، وأخذ يُصغي بعصبية إلى نباح الكلاب الكبيرة الذي كان ينذر بالحرب، ثم خفض رأسه كأنّما استغرق لوهلة في تفكير عميق، كأنه اكتشف توّا أنه لا يستطيع أن ينبح مثلما تفعل الكلاب. فتح فمه، بدا مصمّما على أن يتعلم منها. كان شن مستغربا؛ قرفص على الأرض ليرى ما الذي سيفعله الجرو بعد ذلك. فتح الذئب الصغير فمه وتمكن، لكن بصعوبة بالغة، من إصدار صوت أجشّ غريب؛ لكنه ليس شبيها أبدا بنباح الكلاب، ممّا جعله يستشيط غيظا. لذلك حاول مجددا: استنشق نفسا وحبسه في داخله، ومن ثم قلّص بطنه مرة بعد أخرى، مقلّدا في ذلك حركات الكلاب؛ لكن الصوت الخشن الذي صدر عنه لم يكن صوت كلب أو ذئب، إنه صوت زاد من عذاب الجرو، حيث صار يدور ساخطا في حلقات حول المكان.

فيما كان شن يراقب حركات الجرو غريبة الأطوار، كاد يتفجّر ضاحكا بصوت عالٍ لم يتمكن الجرو حتى الآن من أن يُخرج من فمه صوتا يشبه عواء الذئاب، لذلك كان يحاول تقليد نباح الكلاب، لكن ذلك لم يكن سهلا أو بسيطا. أغلب الكلاب تكون قادرة على تقليد عواء الذئاب، لكن الذئاب لا تحاول أبدا أن تنبح مثل الكلاب، ربما وجدت ذلك شيئا مذلاّ لها. لكن

في تلـــك اللحظة، أراد ذئب صغير تربّى وسط الكلاب أن يبدو مثلها ليس إلاّ. لكن مما يدعو للأسف أنه كان يواجه أزمة تتعلق بالهوية.

بالرغم من القلق الذي كان يعتري الجرو من عدم قدرته على النباح مثل الكلاب، إلاّ أنـــه رفض التوقف عن المحاولة. اقترب شن منه، انحنى حتى أصبح فمه ملاصقا تقريبا لأذن الجـــرو، وصار ينبح مثل الكلاب. بدا الجرو وكأنما قد فهم أن سيّده كان يحاول أن يعلمه شـــيئا ما، بعد وقت قصير ظهرت على محياه نظرة توحي بنوع من الإحراج، وكأنه طالب بطـــيء الفهـــم، لكن سرعان ما أعقبتها نظرة حادّة معبّرة عن التحدّي، نظرة طالب تميّز بالشراسة كان قد جلب العار إلى صفه. جاء إيرلانغ إلى هناك، وقف إلى جانب الجرو، وبدأ ينبح على نحو بطيء، كأنه معلم يتحلّى بصبر لا ينفد. بعدها بلحظة، سمع شن الجرو وهو يطلـــق صـــيحة بإيقاع يتناغم مع نباح الكلب، لكنها لا تمتّ إلى صوت الكلاب بصلة؛ ورف... ورف. شـــعر الجـــرو بـــشيء من الإثارة حتى إنه وثب في الهواء، وبدأ يلعق فم إيرلانغ. منذ ذلك الوقت، صار الجرو يطلق الصوت ذاته الذي لا يشبه نباح الكلاب، الأمر الذي جعل شن لا يتوقف عن الضحك.

لفـــت ذلك الصوت الغريب الجراء الثلاثة فأسرعت راكضة نحوهم، بينما كانت الكلاب الأخـــرى تقلّد الصوت وكأنها تسخر من الجرو. كلما نبح الجرو: ورف... ورف، كان شن يجيبه على ذلك بصوت: آرف... آرف، وقبل أن يمضي وقت طويل كانت قد اجتاحت المخيم معركة من الأصوات الغريبة، غير المتناغمة: ورف... ورف - آرف... آرف. ربما كان الجرو واعـــيا تماما أن الرجل والكلاب كانوا يسخرون منه، لكن ذلك لم يؤدّ إلاّ إلى زيادة شدّة نبرة صـــوته: ورف... ورف - آرف... آرف. شـــعرت الجراء بسعادة غامرة في ذلك الجو بحيث أخذت تتدحرج على الأرض. لكن بعد قليل من الوقت توقفت جميع كلاب الفرقة عن النباح، وبما أنه لم تعد لدى الجرو نماذج يقلدها، فقد لجأ هو الآخر إلى الصمت.

كانـــت أصـــوات الناس قد سكنت عندما تناهت إلى الأسماع أصوات عواء الذئاب من الجبال المحيطة، وانطفأت أضواء المصابيح الكاشفة؛ في غضون ذلك الوقت كانت حتى حركات الكـــلاب قد هدأت. عندما ردت الذئاب على ذلك بعواء أشدّ حدّة، اقتنع شن زن أنها كانت تخطـــط لشيء ما. ربما اكتشف قطيع الذئاب مدى تماسك الخطوط الدفاعية للبشر والكلاب، واســـتقرّ رأيهـــا على اتّباع استراتيجية إنهاك العدو؛ حالما يدبّ الإنهاك في صفوف الرعاة، وفي صفوف كلاب فرقة الإنتاج نتيجة لاستمرار الأصوات التي تُنذر بمعركة وشيكة، ستشنّ هجوما مخادعا. حيث يمكن لحالة الشلل أن تقضّ مضاجعهم لليالي عديدة. كانت ذئاب السهوب تمتلك تكتيكات حاذقة في التربّص بالعدوّ.

* * *

استلقى شن على فراش اللبّاد، كان يضع رأسه على جسد الكلب *أصفر* الذي اتّخذ منه وسادة. في الصين كان عواء الذئاب يرتبط دائما بأشياء تبعث على الفزع. أما لدى سكان السهل المركزي في الصين فلم يكن الأمر كذلك، لقد أصبح شن معتادا على سماع عواء الذئاب مع مرور السنين، بالرغم من أنه لم يفهم قطّ السبب الذي جعل العواء يحمل كل ذلك المقدار من الأسى، ويبدو موحشا، وكأنه نُواح على الموتى، ويعبّر عن عذابات مستديمة. كان العواء في الواقع يستدعي إلى الذهن صوت نواح الأرامل الذي لا يتوقف في المقابر، وفي المرة الأولى التي سمعه فيها، تساءل كيف يمكن لقلوب الذئاب المتوحّشة، والمتغطرسة أن تمتلئ بمثل تلك الكروب والأحزان؟ هل كان ذلك تعبيرا عن صعوبة الحياة في السهوب؟ هل كانت تشتكي من قدرها التعِس الذي أتى بها إلى مكان من المألوف فيه أن تموت من الجوع، بفعل العوامل الجوية القاسية التي تجعل أوصالها تتجمّد، وبسبب المعارك المهلكة؟ كان شن يشعر منذ زمن طويل أن الذئاب، بالرغم من كون وجودها يُقترن عادة بالقسوة والعناد، إلاّ أن قلوبها مثقلة بطباع لا تخلو من الضعف، وهي قابلة للتحطّم بسهولة.

لكن إثر سنتين من الاتصال بها عن قرب، وخصوصا خلال الأشهر الستة الماضية أو نحو ذلك، استنتج أنه لا بدّ له من أن يتخلى عن وجهة النظر تلك. بالنسبة إليه، فقد كانت ذئاب السهوب، بعظامها الصلبة، وقلوبها القاسية، ومهاراتها الفائقة التي تمكنها من البقاء، تمتاز بقسوة وصلابة الفولاذ، وتتلذّذ بنشوة الولوغ في الدماء، وتصمد حتى في وجه الموت. لم تكن المعاناة التي تنجم عن فقدان أنثى ذئب لأحد جرائها، أو ألم الجرح المهلك الذي يكابده ذئب ذكر، أو حتى إذا قطعت إحدى قوائمه، إلاّ شيئا مؤقتا يؤدي على الفور إلى تفاقم أفكار الانتقام التي تزداد حدّة مع كل يوم يمضي. لقد أقنعته الأشهر العديدة التي أمضاها مع الجرو هذا. كان يودّ لو أنه اكتشف لحظة ضعف واحدة تعتري الذئب الصغير؛ عدا تلك الأوقات التي كان يداهمه فيها الإنهاك، حيث تبقى عيناه متوهجتين دائما، لم تكن طاقته تفتُر أبدا، كان يبدو مخلوقا مفعما بالحياة. حتى بعد الحادث الذي كاد فيه الراعي أن يكسر رقبته، فقد عاد على الفور ليمارس حياته الطبيعية إلى حدٍّ ما.

في الوقت الذي استمرّ فيه شن يصغي إلى عواء الذئاب، بدأ يكتشف أنها كانت تخفي وراءها خصائص تتعلق بالغطرسة، والتهديد والوعيد، إلاّ أنه تساءل عن السبب الذي يجعل التهديد الموجّه نحو الناس من جهة ونحو مواشيهم من جهة أخرى، يبدو مثل النواح. ما السبب الذي جعل عواء الذئاب يتّخذ صوت العويل؟ مضت تأمّلاته بعيدا إلى قلب المسألة. ربما كانت لدى الذئب الجبار لحظاته التي يشعر فيها بالحزن، ولكن لا يمكن للذئب، في أي وقت، وفي أي مكان، وتحت تأثير أي انفعال عاطفي، أن يذرف الدموع. البكاء عنصر غريب على شخصية الذئب.

استقرت صورة واضحة المعالم في ذهن شن بعد أن أمضى وقتا طويلا وهو يصغي إلى الأصوات التي كانت تتردّد في جوف الليل. بدت الأصوات التي تصدرها كلّ من الكلاب والذئاب مختلفة عن بعضها بعضا تماما. يستمر نباح الكلاب مدة قصيرة وبشكل سريع؛ بينما لا يستمر عواء الذئاب مدة طويلة. يكون تأثير تلك الأصوات المتنوعة على من يسمعها مختلفا بصورة جذرية. يقطع عواء الذئب مسافات أطول مما يقطعه نباح الكلب. لم يكن نباح الكلاب الذي يأتي من جهة الخيم الواقعة إلى أقصى الشمال من موقع الفرقة يتخذ شكل تموّجات مثل عواء الذئاب ضمن المنطقة القريبة ذاتها. أصبح شن قادرا أيضا على تمييز عواء الذئاب التي في الجبال الواقعة شرقا، لكن نباح الكلاب لم يكن ليصل إلى المسامع من تلك المسافة ذاتها.

ربما كان ذلك هو السبب الذي جعل أصوات الذئاب تشبه العويل؛ خلال آلاف السنين من التطور، استطاع البشر إدراك أن ذلك النوع بالذات من الأصوات يبقى عالقا في الهواء مدة طويلة، ويمكن له أن يتردّد إلى مسافات طويلة. من المعروف أن ذئاب السهوب تشنّ غارات طويلة المدى، وذلك كي تتفرق إلى جماعات تستطلع الموقف ومن ثم تنضمّ جميعها في الهجوم. بما أن الذئاب حيوانات تتّبع نظام القطيع، فهي تنتشر في مسافات بعيدة وواسعة عندما تمارس الصيد، وهذا النظام المتقدم لدرجة عالية من الاتصالات يفسّر الطريقة التي تمكّنها من البقاء متواصلة مع بعضها بعضا عبر مسافات شاسعة. في أكثر المعارك قسوة، تكون النتائج التي تريد الوصول إليها أكثر أهمية بالنسبة إليها؛ أما شكل تلك النتائج فهو شيء غير أساسي.

* * *

ازداد العواء خفوتا حتى اختفى تدريجيا؛ لكن في ذلك الوقت، وعلى حين غرة، سُمع عواء ذئب صغير يأتي من مكان ما خلف الخيمة وقطيع الخراف، مما بعث شللا مؤقتا في أوصال شن. هل استطاعت الذئاب التسلّل من الخلف؟ انطلق إيرلانغ راكضا، كان ينبح بشدة، ولحقته الكلاب الأخرى مباشرة. وثب شن على قدميه، أمسك بعصاه ومصباحه الكاشف، وأسرع يجري خلف الكلاب. عندما بلغ الخيمة، رأى إيرلانغ والكلاب الأخرى تدمدم فيما كانت تقف حول حظيرة جرو الذئب بشكل يدلّ على الارتباك.

بوساطة نور مصباحه الكاشف، استطاع شن رؤية الجرو، كان جاثما بجانب العمود الخشبي، وقد رفع خطمه باتّجاه السماء وهو يعوي. إذا ذلك هو المكان الذي أتى منه الصوت! تلك كانت المرة الأولى التي يسمعه فيها شن يعوي مثل الذئاب تماما، شيء ظنّ أن الجرو لن يفعله حتى يكتمل نموه. لكن ها هو ذا، لم يتجاوز عمره الأربعة أشهر بعد، وقد أضحى يحمل مظهر ذئب وحشيّ ناضج، ويتصرف مثله، شعر شن بالابتهاج مثل أب يسمع ابنه يقول *بابا* للمرة الأولى. انحنى، وضرب على ظهر الجرو برفق؛ استدار الجرو وأخذ يلعق ظهر يده، ومن ثم عاد يعوي.

كانـــت الكلاب تواجه حالة من الارتباك بحيث لم تتمكن من معرفة ما إذا كان ينبغي لها أن تقتل الجرو أو تجبره على التوقف عن العواء وحسب. لقد أدّى وجود عدوّ قاتل بين صفوفها إلى جعل الكلاب المدرّبة على رعي الخراف في حيرة من أمرها. توقف كلب يعود إلى جارهم غومـــبو عـــن النـــباح؛ جـــرت بعض الكلاب الأخرى لترى ما الذي كان يجري وهي تبدي اســتعدادها لتقديم المساندة. أما إيرلانغ فقد قفز خطوات داخل الحظيرة، وصار يلعق قمّة رأس الجرو، وبعدها انبطح إلى جانبه، وأصغى إليه وهو يعوي. حملق *أصفر* ويير في الجرو بكراهية؛ في تلك اللحظات القليلة، كان الجرو قد خان الكلاب التي تربّى وإياها لأشهر خلت، كاشفا عن هويـــته الحقيقية. لقد كان ذئبا، وليس كلبا، ذئبا لا يختلف بشيء عن أي ذئب وحشي يخوض معركة بين العواء والنباح. لكن عندما رأى *أصفر* ويير سيّدهما يبتسم، ويربّت على رأس الجرو، لم يعد بإمكانهما فعل شيء سوى التعبير عن غضبهما بالصمت.

جلس شن القرفصاء إلى جانب الجرو يصغي إليه وهو يعوي ويراقب حركاته. رأى كيف أن الذئب الصغير كان يرفع خطمه عاليا في الهواء قبل أن يبدأ بإصدار صوت رقيق، يستمر لمدة طويلة، وجد فيه شن شيئا من اللطافة؛ كان ذلك يشبه صوت الدولفين عندما يخرج خطمه من المـــاء، حيث يرسل موجات في كل الاتجاهات. تبيّن لشن أن توجيه الخطم إلى الأعلى في الهواء يمـــثل الأســـلوب الذي تتواصل من خلاله الذئاب مع أبناء جنسها التي تكون في أماكن بعيدة. كـــان عواؤها الطويل والحزين، والوضع الذي يتخذه الخطم في الهواء من الخصائص المميزة التي ســـاعدتها على البقاء في السهوب. لم يكن في وسع المرء اعتبار الإتقان الذي رافق تطور طبيعة الذئاب شيئا أقل من تحفة رائعة.

اندفعت الدماء تتدفّق في عروق شن. ليس من المحتمل أن يكون هناك واحد من الرعاة في أصقاع السهوب المنغولية كافة سبق له أن لمس ذئبا حيّا، وأصغى إلى عوائه وهو يتردّد في جوف اللـــيل. لم يسبق لأحد غيره من قبل أن سمع بصورة أكثر وضوحا مثل هذه الأصوات الصافية والـــرقيقة التي تلتفّ وتدور في حلقات؛ في الوقت الذي كان فيه العواء الذي صدر عن الجرو يحمـــل السّمات النموذجية المميّزة لطبيعة الذئاب، إلاّ أنه افتقر إلى أي أثر للحزن. على العكس من ذلك، كان الجرو يُطلق صيحاته بابتهاج، لقد تغلغل الشعور بالنشوة الغامرة إلى أعماقه؛ لأنه تمكـــن في آخـــر الأمر أن يخرج من فمه صوتا له نغمات شبيهة بعواء الذئاب، كل نغمة منها كانـــت أطول، وأعلى، وأكثر حدّة من سابقاتها. كان الجرو شبيها بمغنٍّ مبتدئ يتلقى انتقادات وإطـــراءات، ويعمل على تحسين أدائه الأول، وقد التصق على خشبة المسرح وقد غمرته موجة من التصفيق.

علـــى مدى عدة أشهر؛ كان قد صدر عن الجرو الكثير من الأشياء التي أثارت استغراب شـــن، لكنّ هذا الأمر أذهله حقا. منذ أن عجز عن تقليد نباح الكلاب، تحول الذئب الصغير

غريـــزيا إلى الأصوات التي كانت تصدرها الذئاب، وأتقنها على الفور. لكن كيف انتقلت إليه تلك القدرة؟ لم يكن ذلك ممكنا من الخارج، حتما ليس في ظلام الليل.

كان كل عواء يصدر عن الجرو يأتي بشكل طبيعي أكثر، يكون أعلى، وأشدّ رنينا من الذي قبله؛ وكل صوت منها كان يخترق قلب شن. يقال إن كلّ لحن مسروق لا يمكن قطّ أن يترك أثرا عميقا، لكن هذا الذئب الذي سرقه شن وقام بتربيته استطاع أن يُطلق لحنه المسروق حتى من دون مساعدة من السّارق، لحنا مؤثّرا ومعبّرا عن إصرار الذّات على الانتصار. ثم، أدرك شن أن الجرو إنمـــا كان يعوي من أجل أن يتم العثور عليه: إنه يطلق نداءه للبراري التي ينتمي إليها. فجأة صار العرق البارد يتفصّد من مسامات شن، وشعر بأنه محاصر بين الإنسان والذئب.

بعد ذلك أطلق الجرو عواء جعل كل تلك الحيوانات التي تقف أمامه تبدو أقزاما.

في بداية الأمر، لم تكن هناك أي استجابة لصرخات الذئب الصغير، ليس من قبل البشر، والكلاب، أو من الذئاب البعيدة لأنهم جميعا كانت قد داهمتهم مفاجأة، ولم يكونوا مهيأين لها بعد. لكن بالرغم من ذلك كانت الذئاب هي الأولى التي استجابت لندائه. بعد محاولات الجرو غير المتقنة لثلاث أو أربع مرات، توقّفت الذئاب التي في الجبال المحيطة عن نوبات عوائها ولاذت بالصمت.

خمّـــن شـــن أن الـــذئاب التي هنا – قادة القطيع، والذئاب المتمرسة في القتال، والذكور الكـــبيرة في القطـــيع، أو الإناث – لم يسبق لها أبدا أن سمعت عواء ذئب ينبثق من مخيّم للبشر، وحاول أن يتخيّل تأثير الصدمة التي داهمتها نتيجة عدم قدرتها على تصديق ما سمعته آذانها. لا بدّ مـــن أن يكون القطيع قد وقع في حيرة من أمره تماما، وتخيل شن أنها صارت تحدّق إلى بعضها بعضا، ثم لجأت إلى الصمت مؤقتا. وخمّن أيضا أن الذئاب التي هناك، عاجلا أم آجلا، ستدرك أن هـــذا الجرو هو واحد من أبناء جلدتها، وأن شعلة من نار الأمل ستضطرم في قلوب الأمّات من الذئاب التي سُلبت منها صغارها؛ إنها لا بدّ من أن تسعى إلى استرداد جرائها. وبفضل الجرو الـــذي كشف عن نفسه بشكل مفاجئ، كانت أسوأ مخاوف شن على وشك أن تغدو حقيقة ماثلة.

كانـــت الكلاب هي التي ردّت بعد ذلك على عواء الذئاب. انطلقت في نوبة من النباح المـــسعور، مـــلأت جوف الليل بضجيج لا يضاهيه شيء في الشراسة، مما قلب هدوء السهوب بالفعـــل رأسا على عقب. بدت الكلاب مستعدة لخوض معركة مميتة، حاولت تنبيه سادتها من البـــشر إلى أن قطـــيع الـــذئاب كان يشن هجوما مباغتا وأرادت منهم أن يُمسكوا ببنادقهم ويشتبكوا مع العدو.

استجاب الناس في آخر الأمر. كانت النساء اللواتي تولّين واجب الحراسة الليلية قد غرقن في الـــنوم نتـــيجة الإنهاك، ولم يسمعن عواء الجرو؛ لكن الضراوة الاستثنائية التي رافقت نباح

الكلاب هي التي أيقظتهن. بعد أن استيقظن، قطعت صرخاتهن المرتعشة سكون الليل، واخترقت أضـــواء مـــصابيحهن الكاشفة ستار الظلام. كان الحدث الأخير الذي يمكن لأي واحدة منهن تصور حدوثه هو أن يشنّ قطيع للذئاب هجوما تماما قبل الصولة التي يشنّها البعوض.

أثـــارت موجات النباح الضاري أعصاب شن زن. فهو الذي تسبّب في كل ذلك الهدير، وتـــساءل كيف يستطيع مواجهة غضب أعضاء فرقة الإنتاج عندما تشرق الشمس في الصباح؟ اعتراه قلق أن تأتي جماعة من الرعاة، وترسل جروه عاليا نحو تينغر، خصوصا وأن الجرو لم يُظهر أي اهتمام لأن يتوقف عن إثارة الضوضاء؛ استمرّ يعوي كما لو أنه كان يحتفل بطقس للعبور، لم يكـــن يتوقف إلاّ لمدّة تكفيه لترطيب حنجرته بقليل من الماء. بدأ الظلام يخلي مكانه لضوء شمـــس بـــواكير الـــصباح؛ نهضت النساء اللواتي لم يكنّ يؤدّين واجب الحراسة ليلا كي يحلبن الأبقـــار. وبدأ الذعر يدبّ في أوصال شن، وضع إحدى ذراعيه حول الذئب الصغير وأمسك خطمه بشدة بيده اليسرى ليوقفه عن العواء. لكن ليس من طبيعة الجرو أن يجبره أحد على القيام بـــشيء لا يـــريده، قاتل بكل قوته ليفكّ حصار قبضة شن. في غضون ذلك أصبح تقريبا ذئبا مكـــتمل النضج، أقوى بكثير مما تصوّره شن. واستطاع بسهولة التحرّر من الذراع التي تلتف حوله، وأدرك شن أن عليه الإمساك بالخطم وإلا تعرض للنهش بكل تأكيد.

أبدى الجرو مقاومة عنيفة، كانت عيناه تقدحان شررا، ونظراته حادة كالمثقاب، ذلك كل مـــا احتاج إليه شن ليُدرك أنه قد أصبح الآن عدوا. بينما كان شن لا يزال يمسك خطمه، أخذ الجـــرو يضرب بمخالبه، مما أدى إلى تمزّق مئزر شن، وجرح ظهر يده اليمنى. بعد أن شعر بألم الجرح صرخ شن: "يانغ كي! يانغ كي!". وسرعان ما انفتح باب الخيمة وخرج يانغ راكضا، حـــافي القدمين؛ وبعد ذلك بلحظات، نجح الرجلان في تثبيت الجرو على الأرض، حيث كان يلهث وينفث الهواء فيما حفر شقوقا في الأرض الرملية بمخالبه.

بينما كانت يد شن تنـــزف بشكل ملحوظ، بدأ الرجلان يعدان – واحد – اثنان – ثلاثة – قـــبل أن يتركا الجرو، ويتراجعا بسرعة إلى خارج الحظيرة. بقي الجرو هائجا يحاول استخدام الكثير مـــن روح القـــتال التي ما لبثت تعتمل في داخله، واندفع لمهاجمة سجّانيه اللذين تقهقرا، ولكن منعه وجـــود السلـــسلة الملتفة حول عنقه وجعلته يتراجع. ركض يانغ إلى داخل الخيمة ليجلب قليلا من مسحوق التعقيم، وضمادة من علبة الإسعافات الأولية، وبعدها عمل على معالجة جرح شن.

أدت كـــل تلك الضجة إلى إيقاظ غاو جيانـــزونغ، الذي خرج من الخيمة متعثّرا بخطاه، كـــان يُطلق اللعنات. "أنت تعامل هذا الذئب اللعين معاملة الملوك، يوما بعد يوم، وهو يعضّك بالرغم من ذلك. إذا لم تتخلص منه دعني أتولى أمره!".

– "كـــلا"، قـــال شن بانفعال، "لا تفعل شيئا. الذنب ليس ذنبه. لقد أغلقت فمه. ذلك جعله هائجا، من أجل سبب وجيه".

كـــان ضـــوء الصباح قد انتشر في غضون ذلك، لكن جرو الذئب لم يهدأ. لقد استمر بالـــوثب ومحاولـــة الانقـــضاض، كان يلهث، ويثير ضجة عالية إلى أن جثم أخيرا عند طرف الحظـــيرة، وركّـــز نظره إلى الجهة الشمالية الغربية من السماء ليعود إلى العواء من جديد. لكن الأمر الذي أثار الاستغراب، هو أنه على أثر النـــزاع المنهك الذي انخرط فيه للتوّ، لم يعد قادرا على العواء؛ كان قد نسي الصوت الذي أتقنه منذ مدة وجيزة. حاول مرة بعد أخرى، لكن ما خـــرج من فمه فقط كان سلسلة من أصوات نباح الكلاب التي جعلت إيرلانغ يهز ذيله بفرح من جهة، ويثير صيحات تعبّر عن الغبطة من أفواه الرجال الثلاثة الذين كانوا يتابعون النظر إليه مـــن جهة ثانية. بما أن جرو الذئب كان يشعر بالغضب والإحراج من فشله والرد الذي تلقاه نتيجة لذلك، فقد كشّر في وجه إيرلانغ، أبيه بالتبني.

- "الجـــرو الآن صار يعرف كيف يعوي"، قال شن بصوت ينمّ عن تعاسته، "مثل ذئب كـــبير. لا بـــدّ مـــن أن يكون جميع من في الفرقة قد سمعوه، وذلك يعني المتاعب لنا. ما الذي سنفعله؟".

لم يتأثر غاو جيانـــزونغ. "سأقول لك ما الذي يتوجب علينا القيام به. إذا لم نتخلّص منه فـــإن قطيع الذئاب سيحتلّ مواضع حول قطعاننا ليلة بعد أخرى، ويستمرّ في العواء بلا توقف، ممـــا يـــثير جميع الكلاب ويجعلها تنبح، ولن يحصل أي ذئب على أي خروف. وإذا استطاعت الذئاب أن تقتنص أحد خرافنا، فستواجه متاعب أكبر مما يمكنها تحمله".

- "لا نستطيع أن نقتله"، قال يانغ. "دعونا نطلق سراحه ونقول إنه هرب".

- "لا نستطيع أن نقتله"، قال شن مردّدا، وكان يصرّ على أسنانه، "ولا نستطيع أن نتركه يذهب! سنتريّث، يمكن أن نفعل ذلك ذات يوم. إذا كنا سنطلق سراحه فلن يحصل ذلك الآن. هـــناك كلاب في كل مخيّم، وستثب على الجرو حالما نتركه يذهب. في الوقت الحالي، علينا أن نرعـــى الخـــراف عند غروب الشمس، وسأتولى واجب الحراسة ليلا. بتلك الطريقة يمكنني أن أستمرّ في مراقبته خلال النهار".

- "أعـــتقد أن ذلـــك ما نستطيع أن نفعله فقط الآن"، قال يانغ. "إذا صدر أمر بقتله من قيادة الفرقة سنطلق سراحه بغفلة عن الكلاب".

- "أنتما شخصان حالمان"، قال غاو باستهجان وصرامة. "انتظرا فقط. سيأتي الرعاة إلى هـــنا في وقت أقرب مما تتوقعانه. ذلك اللعين جعلني أبقى يقظا طوال الليل، ولدي صداع يكاد يفطر رأسي. أقول لكما شيئا، إنني على استعداد تام لقتله".

* * *

سُمع صوت حوافر أحصنة قبل أن ينتهوا من ارتشاف شاي الصباح. انتاب شن زن ويانغ كـــي شـــعور عميق بشيء ينذر بالشر على وشك الوقوع، فأسرعا نحو الباب، حيث شاهدا

أوليجي وبلغي يدوران حول الخيمة وهما يمتطيان صهوتي حصانيهما، بدا أنهما كانا يبحثان عن جرو الذئب. في دورتيهما الثانية حول الخيمة اكتشفا السلسلة التي تؤدي إلى حفرة في الأرض. ترجلا عن حصانيهما ليلقيا نظرة عن قرب. "لا عجب أننا لم نعثر عليه"، قال بلغي، "إنه يختبئ هنا".

ركض شن ويانغ إلى هناك ليمسكا بسيري العنانين، ويربطا الحصانين إلى محور عجلة تجرها الثيران. وقفا من دون أن يفوها بكلمة، وكأنهما رجلان ينتظران إصدار الحكم.

جلس أوليجي وبلغي القرفصاء خارج الحظيرة، وأخذا يحدّقان إلى داخل الحفرة التي يختبئ فيها الجرو الذي شعر بالانزعاج لمجيء أناس غرباء يريدون تعكير صفو راحته. أخذ يعوي فيما كان رأسه يبرز إلى خارج الحفرة، وينظر شزرا إلى الرجلين الجاثمين.

- "لقد كبر منذ المرة الأخيرة التي رأيته فيها"، قال بلغي مُبديا استغرابه. "إنه أكبر من الذئاب الصغيرة التي رأيتها في البراري". استدار نحو شن زن. "أنت أفسدته"، قال. "حتى من خلال تأمين هذه الحفرة لتقيه شرّ حرارة الشمس. كنت أتصور أنك لو تركته في العراء في هذا الجو الحار كل يوم، ستكون قد جعلت من السهولة علينا أن نضطر إلى قتله، الشمس هي التي ستتولى ذلك بدلا منا".

- "بابا"، ردّ شن بحذر. "أنا لم أحفر هذه الحفرة، هو الذي حفرها. كاد أن يموت تحت الشمس، وبعد أن مضت فترة من الزمن توصل إلى فكرة الحفرة".

بدت على الرجل العجوز نظرة استغراب، وصار يُمعن النظر في الجرو. "لقد عرف كيف يفعل ذلك من دون أم تعلمه"، قال: "ربما لا يريد تينغر لهذا الجرو أن يموت، على أي حال".

- "الذئاب لديها عقول بارعة"، قال أوليجي. "إنها أذكى من الكلاب، وعلى نحو أو آخر فهي أذكى من البشر".

كان قلب شن زن يخفق سريعا. "إنني..."، قال بصوت متقطّع الأنفاس. "كنت أنا أيضا أشعر بالحيرة، وتساءلت ترى كيف استطاع هذا الحيوان الصغير أن يفكّر في ذلك. لم تكن عيناه قد فُتحتا بعد عندما أخذته من ذلك الوجار. إنه حتى لم يكد يشاهد أمه".

- "الذئاب تتمتع بذكاء طبيعي مذهل"، قال بلغي. "ربما تكون أمّاتها غائبة، لكن تينغر حاضر دائما ليعلّمها. لا بدّ من أنك قد رأيت كيف كان يعوي في الليلة الماضية. الذئاب هي الحيوانات الوحيدة في السهوب التي ترفع رؤوسها إلى السماء عندما تعوي؛ لن تشاهد أبدا بقرة، أو خروفا، أو حصانا، أو كلبا، أو ثعلبا، أو غزالا، أو مرموطا يفعل شيئا من هذا القبيل. هل تعرف السبب؟ لقد أخبرتك إنّ الذئاب تجسّد كبرياء تينغر وبهجته. حسنا، عندما تواجه الذئاب المتاعب فهي تنظر إلى الأعلى وتعوي حتى يأتي تينغر ليساعدها. إنها تستمدّ أكثر قدراتها مباشرة من تينغر. إنها تدرك كيف تطلب الإرشادات منه في الصباح، وترفع تقريرا له في المساء.

عـــندما يقع الناس في المتاعب هنا ينظرون عاليا إلى السماء، ويطلبون مساعدة تينغر، تماما مثلما تفعل الذئاب. إننا المخلوقات الوحيدة، نحن والذئاب، التي يسكن تينغر في قلوبها".

وهـــنت حـــدّة نظرات الرجل العجوز فيما كان يراقب الجرو. "في الواقع"، تابع كلامه، "نحن تعلمنا ذلك من الذئاب. قبل أن نأتي نحن المنغوليون إلى السهوب، كانت الذئاب قبلنا ترفع رؤوســها، وترسل أصواتها إلى تينغر. الحياة صعبة هنا، وخصوصا بالنسبة إليها. كثيرا ما كان كبار السن يَذرفون الدموع حزنا عندما يسمعون الذئاب تعوي في جوف الليل".

لقد أدرك شن أن ما قاله بلغي يمثل الحقيقة، لأنه كان قد لاحظ أن الذئاب والصيادين من البـــشر فقط هم الذين يبجّلون تينغر. كانت الحياة على هذه البقعة الجميلة، ومع ذلك القاحلة، مـــن الأرض تـــشكل عـــبأ ثقيلا على البشر، والذئاب، وفي محاولاتهم لمواجهة الإحباط كانوا يتمكنون من تقليل وطأة المعاناة من خلال صيحاتهم اليومية إلى تينغر. من وجهة النظر العلمية، كـــان شيئا صحيحا أن الذئاب تعوي وهي ترفع رؤوسها نحو القمر، وذلك من أجل أن تصل أصـــواتها إلى مسافة بعيدة وشاسعة. لكن شن فضّل التفسير الذي أعطاه بلغي. من دون وجود مساندة روحية، تُصبح الحياة شيئا لا يطاق. شعر شن بالدموع تترقرق في عينيه.

الـــتفت إليه الرجل العجوز. "لا داعي لأن تخفي تلك اليد عني. لقد خمشك الجرو، إنني متأكد. لقد سمعت كل شيء ليلة البارحة. تعتقد أنني جئت لقتله، أليس كذلك؟ حسنا، ينبغي أن تعلـــم أن بعـــض رعاة الأحصنة ورعاة الخراف قد جاؤوا لرؤيتي في وقت مبكر من صباح الـــيوم، وطلبوا أن تأمر الفرقة بقتل الذئب. تحدّثت مع أوليجي في الأمر، وقرّرنا أنك تستطيع الاحتفاظ به في الوقت الحالي، لكن إذا كنت تتوخى الحذر أكثر ليس إلاّ. دعني أخبرك شيئا، لم أشاهد يوما شابا صينيا مفتونا بالذئاب إلى هذا الحد".

لم يتفوه شن بشيء للوهلة الأولى. "هل حقا ستسمحان لي بالاحتفاظ به؟"، أخيرا تمكن شن من الكلام. "لِمَ؟ لا أريد أن أتسبّب بضرر للفرقة، وأكره أن أجعل متاعبك تتفاقم. كنت أفكّر في أن أصنع له كمّامة من الجلد لأمنعه من العواء".

– "لقد فات الأوان كثيرا على ذلك"، قال أوليجي. "كل الذئاب الأمّات هناك أصبحت تدرك أن لدينا جرو ذئب، وأتوقع أنها ستأتي إلى هنا الليلة. لكنني وبلغي كنا قد رتّبنا المخيمات بحيث تكون متقاربة جدا من بعضها بعضا. إذا أخذنا أعدادنا بعين الاعتبار – الناس، وما لديهم مـــن الكـــلاب، والبنادق – فمن غير المحتمل أن تهاجم الذئاب فعلا. ما يقلقني هو أننا عندما نفكك المخيمات لغرض الانتقال إلى المرعى الخريفي سنواجه خطرا جسيما".

– "حـــتى ذلـــك الوقت"، قال شن وهو يطمئنه، "تكون جراؤنا قد كبرت كثيرا، بحيث يـــصبح لدينا خمسة كلاب، من ضمنها إيرلانغ، قاتل الذئاب. سنخرج لتفقد الوضع أكثر من الآن، ويمكننا دائما أن نشعل المفرقعات النارية. الذئاب لن تزعجنا".

- "سنرى"، قال بلغي.

بينما كان لا يزال قلقا، قال شن، "بابا، ما الذي قلته لأولئك الناس الذين طلبوا قتل الجرو؟".

- "الذئاب كانت تطارد أحصنتنا مؤخّرا، وعانينا من خسائر كثيرة. إذا استطاع جرو الذئب أن يستدرج قطيع الذئاب إلينا، فسنتمكن من الأخذ بالثأر من الذئاب، ذلك ما بعث الارتياح في نفوس الرعاة"، قال بلغي.

- "إذا فقد أدّت تربية جرو الذئب إلى تحقيق أثر إيجابيّ واحد على الأقل"، قال أوليجي. "لكن لا تدعه يغرس أنيابه في مكان ما من جسدك. تلك ستكون كارثة. منذ ليال قليلة، حاول أحد المهاجرين من العمال أن يسرق قليلا من الروث المجفف من مسكن أحد الرعاة، فنهشته كلاب تلك العائلة بأنيابها. لقد أشرف على الموت بالفعل".

امتطى بلغي وأوليجي صهوتي حصانيهما، وانطلقا إلى المكان الذي كانت ترعى فيه الأحصنة، مما يعني أن هناك متاعب كبيرة لا بدّ وأن تكون قد حدثت لقطيع الأحصنة. فيما بقي شن يحدّق إلى الغبار الذي تصاعد خلفهما، لم تكن في وسعه معرفة ما إذا كان يشعر بالارتياح، أم أنه أصبح منفعلا أكثر من السابق.

25

تـــناول شن زن القطعتين الأخيرتين من اللحم، وأضاف إليهما قليلا من شحم الخراف، وطهـــى قدرا من العصيدة الثخينة، الغنية باللحم من أجل الجرو، الذي كانت شهيته للطعام قد ازدادت بـــسرعة مذهلة بحيث لم تعد تكفيه قدر واحدة. رجع شن إلى الخيمة وهو يتنهد كي ينال قسطا من النوم والراحة حتى يكون مستعدا للمعركة الخطيرة التي تنتظره ليلا. عند الساعة الواحدة بعد الظهر وبضع دقائق، أيقظته صرخات ما؛ أسرع يركض إلى الخارج.

كـــان زانغ جيوان يمتطي صهوة حصان ضخم يحمل شيئا ما. غطّت الدماء النصف الأمامي من حصانه، الذي كان يتصرف بعصبية وخوف، بدا متلكئا في الاقتراب من عربة الثيران. اندفعت الكلاب وأحاطت بالحصان وراكبه، فيما كانت تهزّ ذيولها. فرك شن عينيه الناعـــستين، وداهمه الرعب حين وجد مهرة جريحة ممدّدة على سرج زانغ. اندفع ليمسك بسير العنان ويهدئ من روع الحصان الضخم. كانت المهرة تعاني من ألم واضح، كافحت لتـــرفع رأســـها بينما استمرت الدماء تسيل من الجراح التي على رقبتها وصدرها، ملطخة الـــسرج والحصان الضخم، الذي جحظت عيناه من الخوف؛ أطلق الحصان صهيلا، ونبش الأرض بحوافره. بينما كان زانغ جالسا خلف السرج ويواجه صعوبة في النـــزول، خاف أن تسقط المهرة الدامية عن ظهر الحصان، وتفزع الحصان الضخم. تمسك شن بإحدى قائمتي المهـــرة الأماميتين فيما استطاع زانغ، بعد أن أخرج قدمه من الركاب بصعوبة، أن يترجّل وكاد أن يسقط على الأرض.

وقـــف كل منهما إلى أحد جانبـــي الحصان، وحملا المهرة ووضعاها برفق على الأرض. اســـتدار الحصان الضخم ونظر بحزن إلى المهرة. لم تكن قادرة على رفع رأسها، كان في وسعها أن تنظـــر إليهما بعينيها الجميلتين الواسعتين ليس إلاّ. صرخت بألم، وضربت الأرض بحوافرها الأمامية، ولكن بلا جدوى.

- "هل نستطيع إنقاذها؟"، سأل شن.

قال زانغ: "لقد فحص باتو الجرح وقال إنه من غير الممكن مساعدتها. لم نأكل اللحم منذ مدة طويلة. دعنا نقتلها. أرسل لاسورنغ مهرة جريحة أخرى إلى بلغي".

صـــار قلب شن ينبض باضطراب. أحضر حوضا من الماء لزانغ كي يغتسل. "هل حصل هجوم آخر على القطيع؟ إلى أي حدّ كان سيئا؟".

أجاب زانغ بشكل مكتئب: "لا تسأل. الذئاب قتلت والتهمت حصانين في الليلة الماضية، وجـــرحت حصانا آخر. أما لاسورنغ فقد دفع ثمنا باهظا؛ استطاعت الذئاب أن تقتل خمسة أو ستة من الأحصنة التي لديه. لست أدري ما الذي حلّ بالقطعان الأخرى، لكنني متأكد من أنهم ليسوا أحسن حالا. ذهب جميع قادة فرقة الإنتاج إلى هناك لتفقّدهم".

قال شن: "إنني أعرف أن قطيع الذئاب قد أحاط بالمخيم، وكان يعوي طوال الليل. لكن إذا كانوا هنا، كيف استطاعت الذئاب أن تهاجم الأحصنة؟".

– "ذلك هو الشيء الذي سبّب لهم الألم: هجوم شامل من أربع جهات، كانت الذئاب تـــوجّه ضـــربة من الشرق كي تحوّل الانتباه عن الغرب، وكانت تحمي بعضها بعضا، تتظاهر بالهجوم من أحد الجوانب بينما تصعّد زخم صولتها الرئيسة في الجانب الآخر؛ وكانت الذئاب تـستقدّم عـــندما تتمكن من ذلك، وإلاّ فهي تقيّد حركاتنا بحيث لا نتمكن من حماية المقدمة أو المؤخـــرة، أو كلّ من جهتي الشرق والغرب. كانت استراتيجيتها أكثر فتكا من تجميع القوات لـــشنّ مـــوجات من الصّولة على جبهة واحدة". انتهى من غسل يديه وأضاف يقول: "لنذبح المهرة بسرعة. لن نقدر على إخراج أي دماء من جسدها عندما تموت، ولن يكون مذاق اللحم مع الدماء المتخثرة طيبا".

– "إنهـــم على حق عندما يقولون إن رعاة الأحصنة يشبهون الذئاب أكثر من أي شيء آخـــر. تـــبدو حقا مثل راع حقيقي الآن، حتى شكلك صار شبيها بهم، مع شيء من وحشيّة وقسوة محارب قديم من محاربـــي السهوب". أعطى شن سكينه المنغولية ذات المقبض النحاسي إلى زانغ، وقال: "أنت من يفعل ذلك. لا أستطيع ذبح مثل هذه المهرة الجميلة".

– "الـــذئاب هي التي قتلت هذه المهرة"، قال زانغ، "وليس البشر. لا علاقة لهذا بالطبيعة البـــشرية. ســـأتولى الأمر. لكن ذلك فقط ما سأقوم به. عليك أن تقوم بالباقي؛ تسلخ الجلد، وتقطّع اللحم. موافق؟".

– موافق.

تناول زانغ السكين، وضع قدميه على جانب من صدر المهرة في الوقت الذي أمسك فيه رأسها وثبّته على الأرض. على غرار التقليد المتّبع في السهوب، جعل عيني المهرة تواجهان تينغر بيـــنما غـــرس السكين في رقبتها وقطع أحد الشرايين. لم تتدفّق من المهرة دماء كثيرة، بالكاد كانـــت الدماء تقطر منها بصورة بطيئة. كما لو أنه كان ينظر إلى خروف مذبوح، راقب زانغ المهرة وهي تكافح إلى أن ماتت في نهاية الأمر.

– "لقد ذُبحت واحدة في اليوم الماضي"، قال زانغ، "لكنها لم تكن كبيرة وسمينة مثل هذه. نحـــن رعاة الأحصنة نتناول وجبتين من الفطائر المحشوة بلحم الأحصنة. لحم المهرات أكثر رقة، ورائحـــته زكية، لكن الرعاة يأكلونه في الصيف وحسب عندما لا يتوافر سواه من الطعام. بعد

آلاف من السنين، صار لحم المهرات أشهى طعام في السهوب". بعد أن غسل يديه مجددا، جلس زانغ على عريش عربة المياه لمراقبة شن وهو يسلخ جلد الحصان.

شـــعر شن بالسعادة حين رأى كل ذلك اللحم الرقيق الذي تحت جلد المهرة. كانت مهرة مقبولة الحجم، تقريبا بحجم خروف كبير. "بعد مرور شهر، كدت أنسى تقريبا طعم اللحـــم"، قال: "في الواقع، أنا أتدبر أمري جيدا من دونه. الجرو هو الذي يشغل بالي. من دون الـــتهام اللحـــم، أصـــبح شيئا فشيئا يشبه الخروف، وأخشى أن يثغو ذات يوم مثل الحملان".

- "كانـــت هذه هي المهرة الأولى التي ولدت في هذه السنة، وكان كلٌّ من أبيها وأمها حصانا ضخما. إذا استذوقت لحمها سأجلب لك واحدة أخرى خلال بضعة أيام. الصيف هو الفـــصل الـــذي تمـــوت فـــيه الأحصنة. الأفراس تلد مهرات، والذئاب تحبّ أن تلاحق صغار الحيوانات. كل بضعة أيام يفقد أحد القطعان واحدة أو اثنتين من المهرات التي تلتهمها الذئاب، ولـــيس هـــناك ما يمكننا عمله لإيقافها. الأفراس تلد مئة وخمسين مهرا تضاف إلى كل قطيع. العـــشب جيّد والأفراس لديها حليب وفير، لذا فإن المهرات تنمو سريعا. إنها تركض في أرجاء المكان كثيرا، فلا تستطيع فحول الأحصنة والأفراس أن تتنبّه إليها طوال الوقت".

باستخدام ساطور، أزال شن المناطق التي عضّتها الذئاب عن رأس المهرة، ورقبتها، وقطّعها قطعا صغيرة. كانت الكلاب الستة قد أحاطت بشن والمهرة، فيما كانت خمسة منها تهزّ ذيولها كأنها القصب الذي تحركه رياح الخريف. كان إيرلانغ يمثل الاستثناء الوحيد؛ فقد انتصب ذيله بحـــدّة كأنه الحربة فيما بقي يراقب شن منتظرا ليرى كيف سيقسّم اللحم. بينما ركض الجرو، الـــذي لم يـــتذوق طعم اللحم منذ أيام طويلة، هنا وهناك بعصبية، وهو يصدر ضوضاء شبيهة بأصوات الكلاب.

قسّم اللحم والعظام كالمعتاد إلى ثلاثة أقسام كبيرة وثلاثة صغيرة. أعطى شن نصف الرأس ونصف الرقبة إلى إيرلانغ، الذي هزّ ذيله، وأخذ حصّته، وذهب ليستمتع بالتهامها في الظل تحت عـــربة الثيران. أما *أصفر* وبير، والجراء الثلاثة جميعها فقد حصلت على حصصها، وعدت إلى مناطق تغطّيها الظلال، أو مناطق قريبة من الخيمة. أراد شن للكلاب أن تغادر قبل أن يقطّع لحم الـــصدر والعظـــام التي اختارها إلى قطع صغيرة، ويملأ بها وعاء طعام الجرو بالكامل. بعد ذلك صـــبّ مـــا تبقـــى من الدماء التي سالت من صدر المهرة على العظام، قبل أن يمشي نحو الجرو ويصيح: "ذئب صغير، ذئب صغير، وقت الطعام".

كـــان الجلـــد الذي على رقبة الجرو قد نما وأصبح سميكا وخشنا. عندما رأى لحما طريا تغطيه الدماء، كافح بضراوة ضدّ السلسلة، بحيث بدا وكأنه ثور يسحب عربة، ويمضي بها إلى أعلـــى التلال؛ كان اللعاب يسيل من فمه. أسرع شن لحمل الوعاء، ووضعه أمام الجرو، الذي

وثب على اللحم، وكأنه كان يمزّق لحم حصان حي؛ كشّر عن أنيابه في وجه شن محاولا إبعاده. عاد شن للعمل على تنظيف جلد المهرة، استمر بنزع اللحم عن العظام، وتقطيع شرائح من اللحم الطري فيما بقي ينظر إلى الجرو. كان الذئب الصغير يزدرد اللحم بشكل مسعور، لكنه بقي محترسا من البشر والكلاب. انحنى جسده مثل القوس، كان متأهّبا لأن يسحب اللحم الطري إلى مخبئه عند الضرورة.

– ألا يمكنكم أنتم رعاة الأحصنة فعل شيء بشأن الذئاب؟

– لقد عملت راعيا منذ قرابة سنتين، وأعتقد أن أضعف نقطة في ما يتعلق برعي المواشي في السهوب هي تربية الأحصنة. كل قطيع فيه خمسمئة أو أربعمئة حصان، لكن هناك راعيين اثنين فقط لا غير. ذلك ليس كافيا البتة، حتى وإن أضيف إليهما طالب لكل قطيع. أي يوجد شخصان أو ثلاثة فقط يتناوبون الحراسة، مما يعني أن هناك شخصا واحدا ليس إلاّ يبقى يراقب القطيع في أي وقت من الأوقات. إنه أمر مستحيل.

– لماذا لا يخصّصون مزيدا من الرعاة لكل قطيع؟

– رعاة الأحصنة هم الضّواري في السهوب. يحتاج الأمر إلى وقت طويل لتدريب واحد منهم. لن يسمح أي منهم لشخص غير مؤهّل أن يعمل في تربية الأحصنة؛ الراعي يمكن أن يفقد نصف قطيعه خلال سنة. إنه عمل قاس، ومنهك، وترافقه مخاطر كثيرة. عندما تهبّ عاصفة من ذوات الشعر الأشيب، ربما تنخفض درجة الحرارة حتى تصل إلى ثلاثين أو أربعين درجة تحت الصفر، ويمكن أن يتطلب الأمر عملا مجهدا طوال الليل لتطويق الأحصنة الشاردة. ربما فقدت أطراف أصابعك بسبب قضمة الصقيع إذا لم تتوخّ الحذر. في الصيف، يمكن للبعوض أن يمتصّ كثيرا من دمك ودم أحصنتك حتى تشارف على الإغماء. الكثير من رعاة الأحصنة يتركون العمل بعد ثماني أو عشر سنين؛ فإما أن يزاولوا عملا آخر، أو يتوقّفوا نهائيا عن العمل بسبب الجروح التي قد تصيبهم. من بين الطلاب الأربعة الذين عملوا رعاة للأحصنة منذ سنتين، أنا الوحيد الذي لا أزال مستمرّا في هذا العمل. ليس هناك عدد كافٍ من الأشخاص المؤهّلين لممارسة هذا العمل.

– لماذا يهرب راعي الأحصنة من عمله، وكأنه مطلوب للإعدام؟

– توجد العديد من الأسباب. قبل كل شيء، الجوّ بارد للغاية في الشتاء بحيث إنهم يضطرون إلى الركض وأحصنتهم من أجل الحصول على شيء من الدفء. ثم في الربيع، تحتاج الأحصنة إلى التعرّق كي تطرح إهابها القديم، لذلك فهم يركضون معها. وهم يركضون بعكس اتّجاه الريح في الصيف أيضا للتخلص من البعوض، ويتقاتلون مع الأبقار والخراف على أرض الرعي الخصبة في الخريف، وهكذا فلا بدّ لهم من أن يتملّصوا من العمل. لكن السبب الأساسي الذي يدفعهم لأن يركضوا دائما هو الهرب من الذئاب. طوال السنة وهم يركضون من أجل

الــنجاة بحياهم. الكلاب ترفض البقاء مع قطيع للأحصنة؛ لأن القطعان تتنقل على الدّوام. لذا يتوجّب على الراعي أن يحرس عددا من الأحصنة الجبانة من دون مساعدة الكلاب. كيف يمكن له فعل ذلك؟ في الليالي غير المقمرة، غالبا ما تخرج الذئاب لتفترس الأحصنة. إذا لم يكن هناك كثير من الذئاب، ربما استطاع الراعي وأحصنته الفحول أن يوقفوا هجومها. لكن إذا شنّ قطيع كبير من الذئاب الهجوم، عندها يواجه قطيع الأحصنة حالة من الذعر ويسعى إلى الفرار، وكأنه جــيش مندحــر يــولي الأدبار. في أوقات مثل تلك ليس هناك شيء يتمكن الرعاة أو فحول الأحصنة من القيام به.

- "الآن صرت أعرف لماذا كان فرسان جنكيزخان يتمكنون من قطع المسافات الشاسعة بــسرعة"، تابع كلامه. "كانت الذئاب تدفع أحصنته إلى أن تركض ليلة بعد أخرى، وكانت تكتسب سرعة وقدرة على التحمّل تمكّنها من قطع مسافات طويلة. كثيرا ما شاهدت النــزاع العنــيد، والمأساوي من أجل البقاء الذي ينشب بين الأحصنة والذئاب. الذئاب تهاجم ليلا، بلا رحمة، وهي لا تتخلّى عن هدفها قطّ، ولا تُعطي الأحصنة فرصة للراحة والتقاط أنفاسها. عندما تُبطــئ في ســرعتها تتخلّف الأحصنة كبيرة السن، والمريضة، وبطيئة الحركة، والصغيرة منها، بالإضــافة إلى الأفــراس الحــوامل للتطويق وتلتهمها الذئاب وهي حية. أنت لم تشاهد منظر الأحصنة الذي يبعث على الحزن وهي تعدو سعيا للنجاة بحياتها. إنها تعدو وتعدو، ويتطاير الزبد مــن أفواهها، وتغرق في عرقها. يستخدم البعض منها كلّ ما لديه من قوة للهرب؛ إنها تموت حالمــا تــتوقف عــن الركض أو تقع أرضا من الإنهاك. إنها فعلا تركض إلى حتفها. الأحصنة الأســرع مــنها تستطيع أن تأخذ قسطا من الراحة، وتنتزع قليلا من العشب عندما تتوافر لها الفرصة. تكون عادة جائعة لدرجة يمكن معها أن تأكل أي شيء، حتى القصب اليابس، وتعاني مــن العطــش لدرجة أنها تشرب أي شيء، سواء أكان بولها القذر أو الماء الذي يختلط ببول الأبقار أو الخراف. تحتلّ الأحصنة المنغولية المرتبة الأولى من ناحية قوّتها، وقدرتها على المطاولة، وتنظيم صفوفها المنيعة، وقدرتها أيضا على تحمّل البرد والحرارة. لكن رعاة الأحصنة وحدهم هم الذين يعرفون أن كلّ هذه القدرات قد تطورت، وكان الدافع من ورائها سرعة الذئاب، وحدّة أنيابها".

بعــد أن أســره وصف زانغ، حمل شن لحم المُهرة والعظام إلى داخل الخيمة، وبعدها عاد فخرج لينشر الجلد على سقف الخيمة. "بعد أكثر من سنة على عملك في رعي الأحصنة"، قال: "أصــبحت خبيرا. أريد أن أسمع منك المزيد. الجوّ حار هنا. لنذهب إلى الداخل. تابع الحديث فيما أُنهي بعض أعمال الطهي".

هــناك داخــل الخيمة، أخذ شن يقطّع البصل الأخضر، ويصنع العجينة، ويفرم اللحم، ويسخن زيت الفلفل لأقراص الفطائر المحشوّة باللحم التي كانت شائعة كثيرا وسط الرعاة.

ارتـــشف زانـــغ قليلا من الشاي البارد وتابع كلامه: "إنني أفكّر في الأحصنة طوال الـــوقت. ومن وجهة نظري، فالذئاب هي التي عزّزت القدرة على التحمّل والخشونة لدى الأحـــصنة المنغولـــية، ممـــا قـــاد بدوره إلى نشأة سلاح الخيالة لدى الهونـــز، والأتراك، والمنغوليين".

- "وفقـــا لما دُوّن في كتب التاريخ"، قال شن، "كانت هناك أحصنة أكثر من البشر في الـــسهوب المنغولية القديمة. عندما كان المنغوليون يذهبون إلى الحرب يصطحب كل واحد من الخـــيالة خمسة أو ستة أحصنة معه ليمتطيها الواحد بعد الآخر، وهذا هو السبب الذي جعلهم يتمكـــنون مـــن قطـــع مسافة ألف لي يوميا. كانوا يشكلون جيشا بدائيا إلاّ أنه كان مزوّدا بالمحركات، جيشا متخصّصا في الحروب الخاطفة. كانت لديهم الكثير من الأحصنة بحيث عندما تـــصاب بعـــضها بجروح يستخدموها طعاما للجنود. كانوا يأكلون لحوم الأحصنة ويشربون دماءها، مما وفّر عليهم مصاعب تموين القوات".

ضحك شن. "ذلك صحيح. أتذكّر أنك قلت ذات مرة إن جميع قبائل السهوب التي اعـــتادت علـــى خوض غمار الحرب هنا، من كوانرونغ، والهونـــز، والتنغوس، والأتراك، وصولا إلى منغوليي الزمن الحاضر، قد فهمت أسرار وقيمة الذئاب. وذلك يؤدّي إلى فهم الأمور أكثر فأكثر بالنسبة إليّ. الذئاب هي التي أنتجت لدى المنغوليين طبيعة قتالية شرسة، منحتهم حكمة القتال المحنّك، وأفضل أحصنة الحرب. هذه المزايا العسكرية الثلاث أدّت إلى انتصاراتهم المذهلة".

بينما كان شن يصنع العجين، تابع كلامه: "أنت اكتشفت شيئا مهما، فقد استنتجت الطـــريقة الـــتي درّبت من خلالها الذئاب أحصنة المنغوليين الماهرة في المعارك. اعتدت على الاعـــتقاد أن رمـــز الـــذئب كان السبب الوحيد الذي جعل المنغوليين بمثل هذه الشجاعة والـــشراسة، بالإضافة إلى حكمتهم في الاستراتيجية العسكرية. لم أدرك أن الذئاب كانت تقوم بدور المدرّب لهم من دون قصد منها، مما أدّى إلى تدريب جيش من الأحصنة الشهيرة علـــى نطاق عالميّ لدى القبائل المنغولية. مثل هذه الأحصنة الفحلة كانت شبيهة بالأجنحة بالنسبة إلى الناس الذين امتلكوا مسبقا شخصية وحكمة من طراز استثنائي. أشعر بالذهول! أنت لم تهدر وقتك هناك".

ابتـــسم زانغ. "إنني مدين بهذا كله إلى تأثير شخص يحبّ الذئاب بصدق. فخلال السنتين الماضيتين، كنت قد أشركتني بما تعلمته من كتب التاريخ، وأنا ملزم بأن أردّ إليك بعض المعرفة المكتسبة من الحياة".

ضحك شن. "تلك عملية تبادل منصفة. لكن هناك شيء لا يزال غامضا بالنسبة إليّ. على وجه التحديد كيف قتلت الذئاب المهرات؟".

- لديها طرائق عديدة. إنني أكون دائما على أهبّة الاستعداد والحذر عندما نأخذ الأحصنة إلى بقعة يكون فيها العشب طويلا، أو تضاريس الأرض معقّدة. الذئاب تستطيع الزحف كالسّحالي. ومن دون أن تنظر إلى الأعلى، يمكنها أن تحدّد مكان فريستها بالاعتماد على الرائحة والصوت. كثيرا ما تُطلق الأفراس صيحات إلى مهراها، بصوت رقيق، مما يساعد الذئب على تحديد موقع المهرات في الوقت الذي تقترب فيه من هدفها بوصة بعد أخرى. إذا لم يكن هناك فحل من الأحصنة، سيقفز الذئب على إحدى المهرات ويمسكها من عنقها قبل أن يسحبها بعيدا كي يلتهمها في بقعة كان قد حدّدها مسبقا. لكن الذئاب سرعان ما تهرب إذا اكتشفت وجود الأفراس أو الفحول، وتعود في وقت لاحق من أجل أن تنهي على المهرة بعد أن يترك قطيع الأحصنة مكانه، لأن القطيع لا يقدر أن يأخذ المهرة الميتة معه.

- الذئاب الأكثر دهاء تكون بارعة بشكل خاص في مخادعة المهرات. عندما يعثر أحد الذئاب على فرس ترعى قريبا من مهرة، فهو يزحف إلى مكان يكون فيه العشب طويلا، ويبقى مستلقيا على ظهره، يختبئ في العشب ويُبرز أكفه، يحركها إلى الأمام والخلف. من مسافة بعيدة، تبدو الأكفّ وكأنها أذنا أرنب بري أو حيوان آخر ينظر حوله، لكنها لا يمكن أن تبدو على هيئة كلب أو ذئب. تتميز المهرات التي تكون قد ولدت حديثا بطبيعتها أنها فضولية، وهي تركض إلى ذلك المكان كي تنظر عن قرب إلى أي حيوان أصغر حجما منها. وليس على الذئب عندئذ إلا أن ينقضّ على عنق المهرة ويمزّقها ببراثنه قبل أن تتمكن الفرس من أن تجعله يتخلى عنها.

- "أحيانا أشعر أن الذئاب ليست حيوانات"، قال شن.

قال زانغ موافقا: "أنت على حق، إنها فعلا كذلك. عليك أن تتصور وحسب، الأحصنة تكون منتشرة على مساحة واسعة خلال النهار، مما يجعل من الصعوبة التأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام، حتى وإن بقينا مع الأحصنة. أما حين يأتي الليل، وتصبح الذئاب متوحشة، فتستمر في السرقة والاختطاف وقتما تشاء. إذا لم تتمكن من فعل أي من هذا وذاك، عندها تهاجم بشكل قطيع. تقوم الفحول بدور حماية الأفراس والمهرات وتبقيها بمأمن داخل القطيع في الوقت الذي تطرد فيه الذئاب بحوافرها وأسنانها. يكون من الصعب على قطيع متوسط الحجم من الذئاب اختراق خط دفاعي متماسك من اثني عشر فحلا ضخما. لكن حينما يكون المناخ سيئا ويستحوذ الجوع على الذئاب، تغدو فحول الأحصنة عاجزة. وذلك هو الوقت الذي يتوجّب علينا فيه أن نحمي القطيع باستخدام الأضواء والبنادق. إذا فشلنا في ذلك، فالذئاب ستدخل وسط قطيع الأحصنة وتقتل المهرات. خلال هذا الوقت تكون جراء الذئاب قد كبُرت وتحتاج إلى طعام أكثر من ذي قبل. إن لم تتمكن الذئاب من اصطياد الغزلان أو المرموط، تحوّل اهتمامها إلى المهرات.

– كم هو عدد المهرات التي تفقدونها كل عام؟

توقف زانغ لحظة للتأمل. "في السنة الماضية كان العدد في القطيع الذي نتولى حراسته أنا وباتو أكثر من مئة وعشر مهرات، لم يبقَ منها إلاّ نحو أربعين مهرة هذا الصيف. قتلت الذئاب سبعين منها أو التهمتها. تلك خسارة تصل نسبتها إلى ستين بالمئة، لكنها في الواقع أفضل نسبة خسائر في الفرقة. لقد بقي لدى القاطع الرابع نحو اثنتي عشرة مهرة في السنة الماضية، أي كانت نسبة الخسارة قد بلغت ثمانين بالمئة. لقد سألت أوليجي ذات مرة عن معدل الخسائر الإجمالي في المراعي كافة كل عام، فقال إنها تبلغ عادة نحو سبعين بالمئة".

– ذلك معدّل مرتفع جدًا للوفيات. لا أستغرب عندما أرى رعاة الأحصنة يكرهون الذئاب بمثل هذه الشّدة.

لاذ شن بالصمت فيما بدأ بحشو العجين.

غسل زانغ يديه لمساعدة شن على تحضير الفطائر. "لكننا لا نستطيع تدبّر أمورنا من دونها"، تابع كلامه، "بغضّ النظر عن مدى تعبنا أو صعوبة العمل. يقول باتو إن نوعية الأحصنة ستتدهور بانقراض الذئاب، وستصبح سمينة وكسولة، وغير قادرة على الركض. الأحصنة المنغولية تتميّز بكونها قصيرة قبل أي شيء آخر، ولن تباع بسعر جيد إذا لم تكن سريعة وقادرة على التحمّل، لأن العسكر لن يستخدموها كأحصنة حرب. علاوة على ذلك، فإن أعداد الأحصنة ستزداد في القطيع بصورة سريعة جدا بانقراض الذئاب. عليك تصوّر المسألة وحسب، يمكن أن يكون في القطيع الواحد أكثر من مئة مهرة في كل عام، أي أن معدّل النموّ يصل إلى عشرين أو ثلاثين بالمئة إذا بقي أغلبها على قيد الحياة. في كل عام هناك أفراس جديدة تصبح مهيّأة للولادة، مما يعني أن معدّل النموّ سيزداد أيضا. إن عدد الأحصنة في أي قطيع سيتضاعف بعد ثلاث أو أربع سنين. في ظروف اعتيادية، نحن نبيع الأحصنة التي يبلغ عمرها أربع أو خمس سنين فقط ونحتفظ بالصغار منها. يقول أوليجي إنه باستثناء القوارض والأرانب، فالأحصنة تؤدي إلى إلحاق أضرار بالمراعي أكثر من أي حيوان آخر. يمكن لحصان منغولي أن يستهلك من العشب ما يكفي لتغذية العديد من الأبقار، وربما ما يكفي لتغذية مئة خروف. ويشكو رعاة المواشي من أن الأحصنة تحرم الخراف من العشب. فإذا لم نسيطر على معدّل النموّ في قطيع الأحصنة، ففي غضون بضع سنين لن يتبقى للأبقار والخراف أي مساحة من العشب، وستتحول أولونبولاغ إلى صحراء".

ضرب شن لوح التقطيع بمرقاق العجين وقال: "إذا فالرعاة يستخدمون الذئاب كوسيلة للسيطرة على معدّل ولادات الأحصنة، في الوقت الذي يحافظون فيه على نوعيّتها، أليس الأمر هكذا؟".

– نعم. سكان السهوب هم أفضل من يطبّق الماديّة الديالكتيكية، وهم يتبنّون مبدأ الوسطية بشكل جيد، على العكس من الصينيين من الهان، الذين يفضّلون التطرف. إننا نروّج

لفكـــرة *الـــرياح الآتية من الشرق* والتي ستقهر رياح الغرب، وربما حدث العكس. لكنهم هنا خـــبراء في الاســـتفادة من التناقضات في إحداث حال من التوازن في الوقت الذي يحقّقون فيه هدفين من خلال عمل واحد.

– "لكن هذا النوع من التوازن المسيطر عليه يتّسم بالقسوة"، أجاب شن. "في الربيع يقوم رعاة الأحصنة بغارات على أوجار الذئاب؛ ينهبون ويقتلون مئة، وحتى مئتين من جراء الذئاب، ولا يقتلونها جميعها. أما في الصيف، فتكون المسألة معكوسة؛ حيث تبدأ الذئاب بقتل المهرات، تفتك بسبعين أو ثمانين بالمئة منها، لأنكم أنتم الرعاة لن تسمحوا لها بالاستيلاء على الحيوانات الـــصغيرة جمـــيعها. إن ثمن هذا التوازن المسيطر عليه يتجلّى بصورة نهر من الدماء المتدفقة. مما يتطلّب من الرعاة أن يكونوا متيقّظين إلى الأبد، وأن يبقوا دائما على أهبّة الاستعداد للقتال. هذا الـــنوع مـــن *الوســـطية* يعتبر أكثر فاعلية وأكثر واقعية من سياسة *الأرض الوسط* التي يتّبعها الصينيون من الهان".

قال زانغ: "في أيامنا هذه ندرك أن جميع المسؤولين ينحدرون بالأصل من مناطق فلاحية. إنهم لا يعرفون شيئا عن الحياة في السهوب. كل ما يشغل أذهانهم هو الكميّة، الكميّة، الكميّة. في نهايـــة الأمر سيخسرون كل شيء بسبب ضيق الأفق. لا نريد الذئاب، لا مزيد من الطلب علـــى الأحـــصنة المنغولية، لا شيء سوى رمال صفراء تهبّ على السهوب المنغولية الداخلية؛ ستموت الأبقار والخراف من المجاعة، ونحن سنرجع إلى بكين".

– إنـــك خيالي. من الناحية التاريخية، كانت بكين قد سقطت أكثر من مرة على يد الجـــيوش المنغولية، التي اتّخذتها عاصمة لها. المدينة التي لا تستطيع حتى أن تصدّ الأحصنة، كيف لها أن تصمد في وجه الرمال؟ إنه خطر أصفر من نوع جديد أقوى آلاف المرات من سواه.

– "ليس بإمكاننا فعل شيء حيال ذلك"، أجاب زانغ. "الملايين من القرويين يستمرّون في إنجـــاب الأطفال واستصلاح الأراضي. إن عدد الأطفال الذين يولدون كل سنة يساوي سكان مقاطعة كاملة. من الذي يستطيع إيقاف كل أولئك الناس من المجيء إلى السهوب؟".

تنهّد شن: "لا أحد، وهذا ما يثير قلقي".

أضـــاف زانغ: "لا أزال أحمل في قلبـــي عاطفة رقيقة للكوانترونغ والهونـــز، وكل منهما عرق بشري بارز باق حتى الآن. وهما العرقان اللذان أنتجا رمز الذئب، التقليد الذي وجد منذ ذلك الزمن".

– "كـــان لرمز الذئب تاريخ أطول بكثير من كونفوشيوسيّة الهان"، قال شن، "مع تميّزه باســـتمرارية وحيوية طبيعية أعظم. في منظومة الفكر الكونفوشيوسي كانت الكثير من الأفكار الأساسية، مثل الإرشادات الثلاثة، والفضائل الثابتة الخمس، قد عفا عليها الزمن وأصابها التنفـ

لكـــن الـــروح الجوهرية لرمز الذئب بقيت فاعلة وفتيّة، لأنها كانت قد انتقلت من خلال أكثر الأعـــراق تقـــدّما في العالم. ينبغي أن يُعدّ رمز الذئب واحدا من أعظم الموروثات الروحية التي خلّفـــتها الإنسانية، وتحمل قيمة حقيقية. سيكون هناك أمل للصين إذا كان بالإمكان إعادة بناء شخصيتنا القومية من خلال استئصال الأجزاء الفاسدة من الكونفوشيوسية، وتطعيمها بشتلة من رمـــز ذئب. ويمكن أن يرتبط ذلك مع الحفاظ على تقاليد كونفوشيوسية مثل المسالمة، والتركيز علـــى الـــثقافة، وتكريس الاهتمام بالدراسة. من المخجل أن يبقى رمز الذئب نظاما روحيا لم يـــدوّن منه إلاّ النـــزر اليسير. إن نقطة الضعف القاتلة التي يعاني منها العرق الذي يعيش على السهوب هي التخلف في مجال الثقافة المكتوبة. لم يكن مفكّرو الكونفوشيوسية مهتمّين بتسجيل ثقافة رمز الذئب، وإن كانوا على تماسّ مع أعراق السهوب منذ آلاف السنين. إنني أتساءل إن كـــان مفكّـــرو الكونفوشيوسية، الذين يكرهون الذئاب بشدة، قد حذفوا عن قصد كل شيء مـــتعلق بالذئاب من كتب التاريخ. أصبحت المسألة الآن تشبه البحث عن إبرة وسط كومة من القشّ إذا أردنا قراءة أي شيء يتعلق برمز الذئب في كتب التاريخ الصيني. الكتب التي نشتريها لا تساعدنا كثيرا، لذا علينا محاولة البحث عن مزيد من الكتب عندما نعود إلى ديارنا".

أضـــاف زانـــغ قليلا من الروث المجفّف إلى النار. "أحد أقربائي يعمل قائدا بمنصب ليس عظيم الشأن في معمل للورق، حيث تتكدّس الكثير من الكتب التي تتم مصادرتها في أكوام. لقد اعـــتاد العمـــال أن يلفوا سجائرهم من الورق الذي يأخذونه من الكتب التي تم تجليدها بعناية وإتقـــان قـــبل أن تُفرم وتتحول إلى كُوَمٍ. يستطيع أي شخص يحبّ الكتب أن يُعطي السجائر مقابل الحصول على الأعمال الكلاسيكية المطبوعة. إنني أكسب أكثر من سبعين يوانا من العمل في رعي الأحصنة، وهو أجر مرتفع إلى حدٍّ ما، لذا سأكون سعيدا إذا اشتريت سجائر لمبادلتها بالكـــتب. لكن منذ نشأة بلادنا كانت حكومتنا تشجّع الناس على قتل الذئاب. أولئك الذين يمارسون ذلك هم أبطال السهوب الجُدد. لن يمضي وقت طويل حتى يصبح الشبان المنغوليون، وخـــصوصا رعاة الخراف ورعاة الأحصنة الذين لم يحصّلوا إلاّ التعليم الابتدائي أو المتوسط في المدرسة، جاهلين تماما برمز الذئب. ما المغزى من وراء ذلك كله؟".

رفـــع شـــن الغطـــاء عـــن القدر. "ينبغي أن تكون للبحث العلمي الحقيقي علاقة بحبّ الاستطلاع، وأن يتناول مختلف الاهتمامات"، قال. "وليس أن يركّز على مسألة ما إذا كان ما يـــتعلّمه مفـــيدا أم لا. إلى جانـــب ذلك، لا يمكنك حقا القول إن تعلّم شيء ما غير مفيد إذا استطعت أن تحدّد من البداية ما لم تفهمه منه". كانت الفطائر المحشوة باللحم قد أُخرجت من المقلاة وسط غمامة متصاعدة من البخار الحار. نقل شن واحدة منها من يد إلى أخرى قبل أن يقـــضمها. "إنهـــا شهية"، قال. "في المرة المقبلة التي تصاب فيها مهرة بجروح، احرص على أن تنقلها إلى الخيمة".

- ســاكنو الخــيم الثلاث الأخرى يريدون ذلك أيضا، إذ تأخذ كل خيمة حصتها بالتناوب.

- "علــى الأقــل علــيك أن تجلــب لي الأجزاء التي نهشها الذئب لإطعام الجرو". أنهى الــصديقان كل أقراص الفطائر التي كانت في وعاء يتصاعد منه البخار، ونهض شن، وقد أتخم تماما. "لا أستطيع تذكّر عدد المرات التي استمتعنا فيها بتناول طعام الذئاب"، قال. "دعنا نلعب لعبة رمي أقراص الفطائر المحشوة باللحم على الذئب".

انتظرا أقراص الفطائر حتى بردت قبل أن يمسك كل منهما بقرص ويخرج من الخيمة، وهما يشعران بفرح غامر لرؤية الذئب الصغير.

- "ذئــب صغير، ذئب صغير، وقت الطعام"، صاح شن. استقرّ قرصان من الفطائر على رأس الذئب وجسده، مما جعله يسرع إلى داخل مخبئه فيما كان ذيله يتلوى بين قائمتيه. سارع أصفر ويير على الفور لالتقاط أقراص الفطائر. ضحك شن وقال: "إننا معتوهان. إنه لم يشاهد قطّ أقراص فطائر باللحم، فكيف له أن يعرف ما إذا كانت طيبة المذاق أم لا؟ الذئاب بطبيعتها لا تــثق بــالغير؛ سحقا، إنه حتى لا يثق بــي. ربما تصور أنها حجارة، لأن الأطفال المنغوليين الصغار الذي يمرون به لا يضيّعون فرصة إلاّ ويلقون الحجارة عليه".

مــشى زانــغ إلى الحفرة. "إنه حيوان صغير لطيف"، قال وهو يبتسم. "لا أكاد أستطيع الانتظار حتى أحمله وألاعبه".

- "إنــه لا يلعب سوى مع يانغ كي ومعي"، قال شن. "إننا الشخصان الوحيدان اللذان يمكننا أن نحمله. غاو جيانــزونغ لا يجرؤ على أن يمسّه قطّ، يخاف أن يعضّه. لا أعتقد أنه ينبغي لك المحاولة".

انحــنى زانــغ لينظر عن قرب إلى المخبأ. "ذئب صغير، لا تنسَ أنني أنا من جلب لك لحم الأحــصنة. لست من النوع الذي ينسى صديقا بعد أن يطعمه، ألست كذلك؟"، بقي يصيح مــرات عديدة، لكن الجرو كشّر عن أنيابه ورفض الخروج. كان زانغ على وشك أن يسحب السلــسلة عندما اندفع الجرو مسرعا خارج حفرته، وقد فتح فمه، وبدا مستعدّا للعضّ. تراجع زانــغ بسرعة فائقة وسقط على الأرض. لفّ شن ذراعه حول رقبة الجرو ليوقفه، ومن ثم صار يفرك رأسه ليعمل على تهدئته.

وقف زانغ وهو ينفض التراب عنه، قال: "ذلك ليس شيئا سيئا. لا يزال شرسا مثل ذئاب البراري. لن يكون شيئا مثيرا للضحك إذا تحوّل إلى كلب. سأجلب له المزيد من لحم الأحصنة عندما آتي في المرة المقبلة".

أخــبر شن صديقه زانغ بشأن المخاطر التي يمكن لعواء الذئب الصغير أن يسبّبها لهم. **أعاد** زانــغ كــتاب **ذئب البحار** وأخذ بدلا منه كتاب **تاريخ العالم**. "يمكنني أن أستنتج من خلال

خـــبرتي أن قطـــيع الذئاب سيأتي إلى هنا الليلة؛ يجب أن تتوخّى الحذر، وألا تسمح للذئاب أن تأخـــذ جـــرونا. إنها تخاف المتفجّرات، ألقِ مفرقعات نارية ذات الانفجار المزدوج إذا اخترقت الـــذئاب صـــفوف قطيع الخراف. تأكد من أن تكون تلك المفرقعات التي جلبتها لك في المرة الأخيرة قد جفت".

– لقـــد لفّها يانغ كي بورق شمعي، ووضعها داخل صندوق خشبـــي، لا بدّ من أنها قد جفـــت الآن. مـــنذ بضعة أيام نشب قتال بينه وبين بعض المهاجرين، وأشعل ثلاث منها. لقد جعلتهم يفقدون صوابهم.

امتطى زانغ جيوان صهوة حصانه، وانطلق عائدا إلى قطيعه.

26

بعـــد العشاء، جاء باو شنغوي إلى خيمة شن بعد أن زار بلغي، قدّم لشن ويانغ مصباحا كاشـــفا كبيرا يحتاج إلى ست بطاريات ليعمل؛ كان ذلك يمثل سلاحا، وأداة يستخدمها عادة رعاة الأحصنة المؤهّلون فقط. كانت الهدية ترافق أداء واجب من نوع خاص: "عليكما إضاءة هذا المصباح إذا اقتربت الذئاب من الخراف؛ بدلا من استخدام المفرقعات النارية، افسحا المجال للكلاب لتتولّى أمرها. كنت قد أخبرت الرجال الآخرين هنا أن يطلقوا كلابهم حالما يشاهدون ضوءي هذين المصباحين الكاشفين".

– "لم أدرك أن تربية هذا الذئب الصغير يمكن أن تؤتي ثمارها إلى هذا الحد"، قال باو وهو يبتسم. "إذا أتت الأم وباقي القطيع هذه الليلة، يمكننا أن نقتل سبعة أو ثمانية منها. أين تستطيع العثور على فرصة أفضل لإغراء الذئاب من وجود واحد من جرائها لدينا؟ في هذه المرة سنقلب الطاولة عليها. كونا على حذر، أنتما أيضا. يمكن لأحد هذه المصابيح أن يصيب شخصا بالعمى لعـــدة دقائـــق، ويـــستمر ذلـــك لوقت أطول بالنسبة إلى الذئاب. عليكما أن تهيّئا مجرفتيكما وعصويكما تحسبا لحصول أي شيء".

بعـــد أن أعطاه كل من شن ويانغ وعدا بذلك، غادر باو كي ينقل التعليمات إلى الخيم الأخـــرى، حـــيث منعهم من إطلاق أسلحتهم النارية، لأن ذلك من شأنه أن يُفزع الذئاب، ويجعلها تهرب وربما تسبب ذلك في جرح الناس أو حيواناتهم. بعد ذلك رحل.

تـــسببت الإثـــارة التي رافقت محاولة استدراج الذئاب بوساطة واحد من أبناء جنسها في تحفيز سكان السهوب، ودبّت الحيوية في أوصالهم، بالرغم من أن أحدا منهم لم يكن قادرا على توقع النتائج التي يمكن أن تترتب على ذلك، لأن هذه الفكرة لم تجرّب من قبل قطّ. جاء بعض الـــرعاة الشباب، الذين كانت كراهيّتهم للذئاب قد تزايدت بحدّة بحيث توقفوا عن زيارة شن ويانـــغ، الآن لمعايـــنة موقع الأرض عن قرب. بدوا مهتمين بإفراط باستراتيجية الصيد الجديدة هـــذه. "إناث الذئاب تحمي جراءها بكل ما أوتيت به من قوة"، قال أحد رعاة الخراف، "إنها حتما ستأتي إذا كانت تعرف أن واحدا منها موجود هنا. أرغب في رؤيتها هنا كل ليلة، يمكننا عندئذ أن نقتل الذئاب كل يوم".

– "الذئاب لا تُلدغ من جحر واحد مرتين أبدا"، قال راعي الأحصنة.

– "ما الذي يحصل إذا هاجمنا قطيع كامل من الذئاب؟"، سأل أحد رعاة الخراف.

- "إن كلابنا ستتفوّق عليها في العدد"، أجاب الراعي. "وإذا لم يكفِ ذلك، ننضمّ إليها بمصابيحنا وصيحاتنا. يمكننا أن نفتح النار أو نطلق المفرقعات النارية".

بعد أن غادروا، جلس شن ويانغ على بساط من اللبّاد بالقرب من جرو الذئب وقد أثقلت قلبيهما الهموم، شعرا بالذنب إلى حدٍّ كبير. "ذلك عمل يفتقر إلى الرحمة"، قال يانغ. "إذا نجحنا في إغراء الذئبة الأم فذلك يعني أننا بعد أن أغرنا على وجارها، فنحن الآن نستغلّ حبّ الأم الذي في قلبها من أجل قتلها. سنندم على هذا اليوم طوال حياتنا".

- "بدأت أتساءل من جديد في ما إذا كانت تربية هذا الجرو فكرة جيدة"، قال شن، كان يحني رأسه إلى الأرض. "لقد دفعت ستة من الجراء حياتها ثمنا مقابل أن يعيش هذا الجرو، ومن الذي يدري كم عدد الذئاب التي ستموت. لكنني لا أستطيع التوقف الآن. التجارب العلمية تشبه عمل القصّابة أحيانا. الأمر صعب على بلغي، وهو يحاول أن يقود الناس، هناك الكثير من الضغوط التي يواجهها. عليه أن يتحمّل الحزن الذي تسبّبه الذئاب عندما تذبح المواشي، بينما يشعر بالألم أيضا حين يضطرّ إلى قتلها. لكن من أجل السهوب والناس، عليه أن يفعل أي شيء ضروريا للحفاظ على توازن العلاقات التي يعتمد أحدها على الآخر. أتمنى لو كان في وسعي أن أطلب من تينغر أن يحذّر الذئاب الأمّات ألا تأتي الليلة، ليس الليلة أو ليلة الغد. ستقع مباشرة في الفخ. ليمنحني بعض الوقت، وسأرجع الجرو إلى أمه عندما يكبر قليلا".

في وقت لاحق من تلك الليلة، جاء بلغي لتفقّد استعداداهما للمعركة. جلس معهما وهو ينفث دخان غليونه بصمت. "الأحصنة ستعاني مرة أخرى عندما يأتي البعوض خلال أيام قليلة"، قال بهدوء، كما لو أنه يستشيرهما. "إذا لم نقتل الذئاب فلن تتبقّى لدينا أفراس صغيرة في هذه السنة، وذلك لن يرضي تينغر أيضا".

- "هل تعتقد أن الذئبة الأم ستأتي الليلة، بابا؟"، سأل يانغ كي.

- من الصعب قول ذلك. لم يسبق لي أن شاهدت يوما شيئا يتّسم بالقسوة مثل إغراء ذئبة أم لجروٍ تولى تربيته البشر. و لم أسمع بهذا أبدا أيضا. لكن المدير باو كان قد أعطى أمرا لنا أن نستخدمه كطعم. لقد ماتت الكثير من المهرات بحيث أصبحنا مُجبرين على أن نترك الأمر بأيدي رعاة الأحصنة ليقتلوا بضعة من الذئاب للتنفيس عن غضبهم.

ذهب الرجل العجوز، وأضحى المرعى هادئا، باستثناء صوت الخراف التي كانت تمضغ ما اجترّته من طعام، والأصوات التي تصدرها من وقت إلى آخر عندما ترفرف آذانها وهي تحاول أن تُبعد البعوض. كانت الموجات الأولى لحشود البعوض قد وصلت بهدوء، من دون عزف موسيقى عسكرية، كانت تشكل سربا صغيرا من طائرات التسلل والمخادعة وحسب؛ و لم تكن قد ظهرت بعد أي بوادر للقاذفات الثقيلة.

استمر الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث برفق لبعض الوقت قبل أن يعودا إلى الداخل. أوى شن إلى فراشه أولا، بينما بقي يانغ يحدّق إلى ساعة الرسغ التي توهّجت ليلا، وهو يمسك بالمصباح الكاشف الكبير، كان يراقب المنطقة بعين حذرة، وقد تدلت حقيبة الكتب المعبأة بالمفرقعات النارية من رقبته.

* * *

بعد أن أنهى جرو الذئب التهام لحم المهرة، جثم عند طرف حظيرته ينتظر حدوث شيء متوقّع، كان يشدّ على السلسلة حتى توتّرت وقد انتصبت أذناه، ركّز انتباهه إلى الأصوات التي طالما اشتاق لسماعها. بدت عيناه البراقتان كأنما تخترقان سلسلة الجبال؛ كان منظره مشوبا بالحزن كأنه طفل يتيم يشتاق إلى أقاربه.

سرعان ما تناهت أصوات العواء بعد منتصف الليل، حيث أطلقت الذئاب وابلا من القصف الثقيل بأصواتها التي أثارت ضجّة عارمة: عواء استمر بعناد آتيا من ثلاثة جوانب، الهدف منه إنهاك أعصاب العدو حتى يفقد صوابه. ردّت الكلاب على الفور بهجوم مقابل، واستجابت بنباحها الصارخ. بعدها توقف العواء إلاّ أنه بدأ من جديد حالما لاذت الكلاب بالصمت، في هذه المرة ازداد العواء شدّة. بعد جولات متعدّدة من العواء، صارت الكلاب تنبح بشكل متقطّع ليس إلاّ، كما لو أنه لم يكن هناك خطر مباشر يحدق بها، ومن أجل الاحتفاظ بقوة أصواتها لخوض حرب حقيقية.

خرج شن زن ويانغ كي بسرعة لمراقبة الجرو على ضوء النجوم الخافت. تردد صوت رنين السلسلة في الحظيرة فيما كان الجرو يدور في أرجاء المكان بلهفة وعصبية. عندما حاول أن يباشر بالعواء غرق صوته في خضمّ نباح الكلاب، فبدأ ينبح كأنه كلب، لأن إيرلانغ، *وأصفر*، ويير كانت قريبة منه. كان جزء من صوته نباحا، وجزء آخر منه عواء، بدا وكأنه يواجه متاعب في العثور على طريقته الخاصة في التعبير عن نفسه. قاد إيرلانغ الكلاب الأخرى، وجرى بعصبية إلى الأمام تارة وإلى الوراء تارة أخرى عند الطرف الشمالي الغربي لقطيع الخراف، كان ينبح باستمرار، كما لو أنه كان قد اكتشف مخابئ العدو. بعد وقت قصير سُمع عواء ذئاب من ذلك الاتجاه، كان العواء على ما يبدو أقرب إلى قطيع شن. توقفت كلاب الفرق الأخرى تدريجيا عن النباح، بينما بدا أن قطيع الذئاب كان يحتشد في التلال التي خلف خيمة شن. ارتعشت شفتا شن، وقال بصوت متهدج: "القوة الرئيسة للذئاب متّجهة إلى هنا، حيث يوجد الجرو. الذئاب حقا لا تنسى شيئا على الإطلاق".

فيما راح يانغ يزداد رعبا، أمسك مصباحه الكاشف بشدّة، وتلمّس بيديه باحثا عن المفرقعات النارية التي وُضعت في حقيبة كتبه ليعيد الثقة إلى نفسه. "إذا ركّزت الذئاب هجومها علينا لن أتردّد. سأرمي هذه المفرقعات النارية على القطيع، وأنت عليك أن تعطي الإشارة بالمصباح الكاشف".

أخـــيرا، توقّفت الكلاب عن النباح. همس شن ليانغ، "انبطح على بطنك، وراقب الجرو-سيعوي".

من دون تدخّل من الكلاب، كان الجرو ينصت إلى العواء الآتي من البراري. دفع صدره إلى الأمـــام، نتأت أذناه، وأغمض عينيه. كان قد تعلم كيف يصغي جيدا قبل أن يحاول تقييد الـــصوت. كانـــت الأصـــوات تناديه، وتلهّف لأن يحدد مصدرها، حوّل رأسه باتجاه مصدر الصوت. ثم بدأ يتلفت من حوله، ذلك لأن الأصوات كانت تأتي من ثلاث جهات مختلفة.

مـــن خلال الإنصات بعناية، اكتشف شن وجود اختلاف كامن في صوت العواء الذي تـــردّد في جـــوف الليل. في الليلة الماضية كانت الأصوات أكثر تماسكا، كما لو أنها أرادت أن تُزعج البشر ليس إلاّ، لكنه الآن استطاع أن يميز في ما بينها اختلافات واضحة، فبعضها كانت نـــبرتها عالية، والأخرى كانت منخفضة، وكأنها توحي برغبة في الاستجواب، والاختبار، وربما سمع عواء ذئبة أمّ تنادي جروها. سرت قشعريرة عبر جسده فيما كان يصغي.

كانـــت هناك الكثير من القصص التي تدور حول حبّ ذئبة أم لجرائها. وكي تعلّم صغارها الصيد كانت تتحمّل مخاطر جسيمة من أجل أن تمسك بأحد الحملان حيا في ظروف رهيبة؛ ومن أجـــل أن تحمـــي جراءها في الوجار كانت تقاتل الصيادين حتى الموت؛ ومن أجل تأمين سلامة الجـــراء، كانت تنقلها على الدوام إلى أماكن مختلفة كل ليلة؛ ومن أجل أن تطعمها كانت تلتهم الطعـــام حتى التخمة وتكاد معدتها أن تنفجر، ومن ثم تفرغ المحتويات من بطنها كي تأكل الجراء. ومن أجل مصلحة القطيع، تتولى الأمّات التي فقدت جراءها رعاية جراء غيرها وإرضاعها.

لقـــد أخـــبرهم بلغـــي أن الصيادين ورعاة الأحصنة لا يأخذون أبدا جميع الجراء التي قد يجدونها في أحد الأوجار بعد أن يقتلوا أمها. ستكون لدى الجراء الباقية كثير من الذئاب المربية والمرضـــعة، وســـتنمو وتـــصبح قوية مع توافر كل ذلك الحليب، وهذا هو السبب الذي جعل الـــذئاب المنغولية هي الأضخم، والأقوى، والأكثر ذكاء من بين كل الذئاب التي على الأرض. شعر شن برغبة في أن يضيف إلى كلام بلغي: "وذلك ليس كل شيء. إذ يمكن لحبّ الذئبة الأمّ أن يمتد حتى إلى أيتام البشر بالرغم من أن البشر كانوا أعداءها الأساسيين".

في تلـــك اللحظـــة، شعر برغبة شديدة تدفعه ليفكّ الرباط الجلدي، وليُخلي سبيل الجرو لينضم إلى أمّه، إلى جميع الأمّات الأخرى. لكنه لم يجرؤ على فعل ذلك. كان قلقا من أنه حالما يترك الجرو في منطقة المخيم التي تحت السيطرة، فإن كلابه وكلاب المناطق المجاورة ستمزقه إربا. و لم يجـــرؤ أيـــضا على أن يأخذه إلى مكان مظلم ويطلق سراحه، لأن ذلك من شأنه أن يضعه وسط أمّات مسعورة.

بدا أن الجرو كان يتقصّى الاختلاف في العواء، لكنه لم يكن يدرك شيئا بشأن الأصوات الـــتي كانت تأتي من الاتجاهات كافة. من الواضح أنه لم يستوعب نقاط الاختلاف الدقيقة في

العواء متباين النغمات، لم يكن يدرك كيف يردّ عليها. خفت العواء بشكل بطيء حتى تلاشى، بعد أن فشلت الذئاب في تلقّي أي نوع من الاستجابة. ربما أصاب الذئاب الارتباك والحيرة حين لم تفهم السرّ الذي كان وراء صمت الجرو.

في تلك اللحظة، رتّب الجرو وضعه من جديد، وقف مواجها لناحية الشمال الغربي، وخفض رأسه فيما أطلق أولى الصيحات المتوجّسة والمصحوبة بالضجيج. ثم أخذ شهيقا، رفع رأسه مرة أخرى، وأطلق النغمة الثانية. وفي نهاية الأمر استطاع أن يعوي، بالرغم من أن صوته كان غريبا إلى حدٍّ ما. فجأة توقف العواء الذي كان يُسمع من بعيد. ما ذلك الصوت؟ بقي قطيع الذئاب ينتظر.

بعدها بلحظة، سُمع صوت كأنه صدى لصوت الجرو آتٍ من جهة القطيع، ربما أطلقه ذئب صغير. كان في وسع شن الجزم أن الجرو بات متحيرا الآن؛ لم يفهم السؤال الذي طُرح عليه. بدا مثل حيوان أصمّ وأخرس قد استعاد سمعه وصوته فجأة، لكنه لم يكن يعرف ما الذي يقال، ولذلك السبب لم يكن قادرا على التعبير عن نفسه.

حين لم يتلقَّ الجرو أي استجابة أخرى، خفض رأسه، وتنفّس بعمق، وبعد ذلك رفع رأسه مجددا، وأطلق صوتا طويلا. في هذه المرة، وصل مدى صوته إلى الارتفاع الذي بلغه في الليلة السابقة. من الواضح أنه كان سعيدا بالنتيجة التي تمخّضت عنها جهوده، فأطلق عواء طويلا بعد آخر من دون أن ينتظر ردّا من القطيع.

توجّهت الكلاب تحت قيادة إيرلانغ بنباحها الضاري إلى الشمال الغربي، وعندما توقفت عن النباح، بدأ الجرو يعوي من جديد. شيئا فشيئا تعلّم الجرو أن يتجاهل تدخّل الكلاب، واستطاع بمهارة ودقة أن يعوي كالذئاب. بعد أن صدر عنه خمسة أو ستة أصوات عواء متتابعة توقف، وعدا نحو وعاء الماء حيث شرب منه قبل أن يعدو مجددا إلى البقعة ذاتها ليعوي من جديد. توقّف بعد لحظة، ونتأت أذناه ليُصغي.

ساد صمت لفترة طويلة، وتصاعد من بعدها عواء عميق، ومتجهّم على المنحدر الغربي. كان عواء قصير النغمات له نبرة مميزة، يحمل بين ثناياه إيحاء بالسلطة، وربما هو صادر عن أحد الذكور الكبيرة للذئاب. من خلال ذلك العواء أصبح في وسع شن أن يتخيل جسد الذئب القوي، وصدره العريض، وظهره الواسع، وحنجرته التي تطلق عواء جهوريا.

استغرب الجرو في بداية الأمر، وبعدها وثب بفرح غامر في الهواء. وبعد أن خفض رأسه ليتنفّس بعمق، توقّف، لم يكن يعرف كيف يردّ. لذا حاول تقليد العواء الذي سمعه للتوّ. كان صوته يوحي بكل وضوح أنه صدر من ذئب صغير، إلاّ أنه كان تقليدا جيدا. كرّر المحاولة مرات عديدة لكنه لم يتلقَّ جوابا.

أعمل شن زن ذهنه كي يستنتج معنى هذا الحوار وتأثيره. ربما كان الذكر الأكبر يسأل الجرو، "من أنت؟ صغير من أنت؟ أجبني!"، لكن الجرو بكلّ بساطة كان يكرّر الأسئلة، وحاول أيضا تقليد نبرة صوت الذكر الأكبر الآمرة، مما أدّى حتما إلى إغضاب الذئب الضخم، وزيادة الشكوك التي كانت تساوره.

من خلال التجرّؤ على تقليد أسئلة الذكر الأكبر، كشف الجرو عن تجاهله للسلطة والبروتوكول المتعارف عليه في قطيع الذئاب. لا بدّ من أن الذئاب الأخرى أدركت أن الجرو كان قد تجاهل بوقاحة مظاهر السلطة و لم يحترم الذئاب التي تكبره سنا، لأن الضوضاء التي انبثقت بعد ذلك من صفوف القطيع لفترة قصيرة، ربما خالطها شيء من الامتعاض، أو ربما دلّت على أن هناك نقاشا محتدما يجري الآن.

سرعان ما عاد الهدوء إلى صفوف قطيع الذئاب ثانية. أما الجرو، فكان قلقه قد بدأ للتوّ. بالرغم من أنه لم يفهم أسئلة الذكر الأكبر، أو مغزى غضب القطيع، إلاّ أنه شعر بأن الظلال التي كانت تلوح في الظلام قد تنبّهت إلى وجوده، وأرادت أن تتّصل به. كان متلهّفا للاستمرار في الحوار؛ لكنه لم يكن يعرف كيف يعبر عن نفسه، لذا بقي يكرر ما تعلمه منذ وقت قصير، يعوي في مواجهة الظلام. "صغير من أنت؟ أجبني! أجبني!".

لا بدّ من أن تلهّف الذئاب كان يزداد شدّة، لأنها لم تعرف ما الذي كان يحدث، ربما كانت أول قطيع للذئاب قد واجه منذ آلاف السنين مثل هذا الموقف الذي سبّبه جرو تربّى بين البشر من جهة، والكلاب، والخراف من جهة أخرى، ذئب صغير لا يتقن شيئا، وليس لوجوده معنى سوى أنه شيء مفعم بالهراء. هل هو ذئب حقا؟ لو كان كذلك، إذا ما العلاقة التي تربطه بأعداء الذئاب الطبيعيين؛ البشر وما لديهم من الكلاب؟ لقد بدا متلهفا للاتصال بقطيع الذئاب لكنه كان يتعايش أيضا بشكل جيد مع الكلاب ومع سادتهم من البشر. كان صوته جهوريا، فلا بدّ من أن يكون قد تغذى جيدا، وأن البشر وما لديهم من كلاب قد تعاملوا معه بطيبة، ما الذي كان يفكّر فيه؟

حاول شن أن يتوقع ما كانت تفكّر فيه الذئاب، وهي تحدّق إلى بعضها بعضا بعيونها الخضراء، فيما ازدادت شكوكها حول الجرو.

توقف الجرو عن العواء، ربما أراد أن يتلقّى الأجوبة من الظلال المعتمة؛ كان ينبش الأرض، وقد استبدّ به القلق، وتابع الانتظار بتلهّف.

أصيب شن بالإحباط، وساوره القلق بشأن الطريقة التي سيؤول إليها كل هذا. ربما كان الذئب الأكبر أب الجرو، لكن الجرو لم يعرف كيف يتواصل معه. شعر شن بالقلق من أن يفقد الجرو الفرصة لأن يكسب حبّ أبيه، وإذا حصل ذلك، عندئذ هل سينتمي الجرو الذي أصبح وحيدا إلى البشر الآن، ينتمي إليه هو، أم إلى يانغ كي؟

على حين غرة، قطع سكون الظلام عواء طويل النبرة. كان عواء رقيقا، وحنونا، وحزينا مليئا بالألم، والأسى، والاشتياق أطلقته الذئبة الأم. استمرت النبرة الختامية للصوت ترتعش مدة طــويلة، كان على ما يبدو عواء مشحونا بمعنى عميق وعاطفة شديدة. خمّن شن أن الذئبة ربما كانـــت تقـــول بصوتها: "أيها الجرو الصغير، ما زلت تتذكرني؟ إنني أمك. لقد اشتقت إليك؛ كـــنت أبحث عنك في كل مكان، وها أنذا الآن أسمع صوتك أخيرا. يا صغيري العزيز، أسرع بالعودة إلى أمك. كلنا مشتاقون إليـــ... يـــ... يـــ... ك".

ترنيمة ردّدتها أمّ لصغيرها، انتشر صداها في أرجاء السهوب القديمة والموحشة. لم يستطع شن أن يكبح انهمار دموعه؛ وكانت عينا يانغ كي تلمعان أيضا.

على ما يبدو فقد ترك ذلك العواء المتقطع الحزين أثره العميق في الجرو. دلّته فطرته أنه نداء مـــن عائلته التي ينتمي إليها، فصار يكافح بصورة مسعورة ليتخلص من سلسلته. كاد أن يختنق بالـــرباط الذي يطوق عنقه، فقد تدلى لسانه خارج فمه، وكان يلهث بصوت مسموع. بدأت الذئبة الأم تعوي مجددا، وسرعان ما انضمت إليها المزيد من الذئاب الأمّات بأصواتها المماثلة لها في الحزن، مما غمر السهوب بسحابة حزن عميق.

تـــصاعدت حـــدّة لحن عوائها الحزين الذي ظلّ يهبط بثقله مرة تلو الأخرى على أرض الـــسهوب في تلـــك الليلة حالكة السواد. بدا وكأن الذئاب الأمّات كانت تريد التنفيس عن مـــرارالها المتـــراكمة سنة بعد سنة نتيجة فقدان جرائها على مدى آلاف السنين، وأن تعبّر عن كروب كانت قد ألّمت بها في السهوب الشاسعة، والمظلمة عبر آلاف من سني الحزن.

نهض شن واقفا بصمت، وشعر بالبرودة تسري في عظامه، بينما مشى يانغ كي ببطء وقد بلّلـــت الدموع وجهه ناحية الجرو، حيث أمسك الرباط الذي يلتفّ حول رقبته، وأخذ يربّت على رأسه وظهره ليخفّف من حدّة انفعاله.

فيما وهن عواء الذئاب الأمّات تدريجيّا حتى تلاشى، أفلت الجرو من بين يديّ يانغ ووثب بعـــيدا، كما لو أنه خائف من أن تختفي الأصوات نهائيا. مضى مسرعا باتجاه الشمال الغربـــي وقد رفع رأسه بعزم وطيد ليرسل عواء طويلا مستمدّا من ذاكرته المحدودة.

غطس قلب شن في أعماقه. "لقد انتهى كل شيء"، همس ليانغ. "يمكن للذئاب أن تعرف بـــأن عواءه أضحى مختلفا عن عواء الذئبة الأم". بدا وكأنه كان يركّز ذهنه على تقليد الصوت الحـــزين والمفجوع. لكن صوته افتقر إلى القدرة اللازمة، وما دام لم يستطع الاستمرار بإطلاق عواء طويل النبرة، فقد لاذ قطيع الذئاب بالصمت.

كان شن يحدّق إلى المنحدر الذي ساد الهدوء في جوانبه فجأة، توجّس خيفة من أن يكون الغـــضب قـــد استولى على قلوب الذئاب الأمّات التي كانت تتطلّع بلهفة لرؤية جرائها. كيف يجرؤ على السخرية من معاناتها؟ لا بدّ من أن تكون الذئاب الخبيرة في طرائق نصب الفخاخ من

أجل إغراء فرائسها، الذكر الأكبر للقطيع وذئاب القيادة، التي غالبا ما رأت أبناء جلدها يقعون في الفخاخ التي نصبها البشر، قد استنتجت أن الجرو ربما كان يُستخدم طُعما لها، إنه الآن ليس إلاّ حيوانا يستدرجها بجاذبية مغرية تلحق بها الهلاك، وقد تنكر في صورة ذئب.

ربما استنتج قطيع الذئاب أنه كان كلبا وليس ذئبا. على أرض أولونبولاغ، كثيرا ما كانت تكتشف الذئاب الرجال وقد لبسوا ثيابا خضراء وهم يحملون البنادق على الدرب الذي يمتد إلى جهة الشمال. كانت ترافقهم دائما خمسة أو ستة كلاب ضخمة قد انتصبت آذانها بحدة، كأنها آذان الذئاب تماما؛ بعض تلك الكلاب كانت في وسعها أن تعوي مثلما تعوي الذئاب. كانت تـــشكل هي الأخرى تهديدا أكثر خطرا من تهديد الكلاب لدى السكان المحليين، وفي كل سنة كانـــت هـــناك ذئاب تسقط ضحايا لها. الشيء الأكثر احتمالا، ربما اتضح لها أن هذا الحيوان الصغير اللعين ليس إلاّ أحد تلك الكلاب التي لها آذان الذئاب.

وبعـــد كل هذا، ربما تصوّر قطيع الذئاب أيضا أنه كان ذئبا حقيقيا، هكذا استنتج شن، لأن الجـــرو كان قد بال على المنحدر عندما اصطحبه شن يوما في إحدى نـــزهاتهما المسائية. ربمـــا استطاعت الذئبة الأم اكتشاف رائحة جرائها. على كل حال، في الوقت الذي كانت فيه ذئـــاب السهوب تتميز بالذكاء، فإنها لم تفلح بسهولة في التغلب على الصعوبة التي نجمت عن حماقة الجرو في التعامل مع لغتها.

لم يزل الصمت جاثما على قطيع الذئاب.

على السهوب الهادئة، لم يعد يُسمع سوى عواء جرو مربوط بسلسلة. كانت حنجرته قد تـــورّمت، وصوته أضحى مبحوحا. لكن العواء الطويل الذي ما فتئ يصدر عنه كان شيئا محيّرا إلى حـــدٍّ كـــبير، شيئا غير مفهوم، بحيث توقفت الذئاب عن محاولاتها تقصّي كنهه، متجاهلة توسّـــلات الذئب الصغير بها لتقديم المساعدة. الآن خسر الجرو المسكين فرصته لأن يتعلم كيف يعوي معتمدا في ذلك على الذئاب.

شعر شن بأن قطيع الذئاب كان في طريقه للانسحاب.

صـــار المنحدر القاتم والكئيب هادئا على نحو مخيف، وكأنه مدفن تحت السماء على جبل شاغانول.

* * *

بعد أن شعر شن ويانغ كي بعدم رغبتهما في النوم، انشغلا بنقاش كان يتردّد في ما بينهما همـــسا؛ لم يكـــن أي منهما قادرا على أن يفسّر لصاحبه السبب الذي جعل الأمور تتحوّل إلى المسار الذي آلت إليه.

عند الفجر توقف الجرو نهائيا عن العواء؛ كان يبدو حزينا ويائسا، خمد بوهن على الأرض فيما تابع التحديق بعينين مفتوحتين على وسعيهما باتجاه المنحدر الذي يغشاه الضباب في محاولة

لـــرؤية الظـــلال القاتمة. تلاشى سديم الصباح ببطء، مما كشف عن منحدر معشوشب مألوف فـــارغ من أي أثر للظلال. أطبق الجرو جفون عينيه كما لو أنه سقط في هوة يأس يشرف بها على الموت. فرك شن جسد الجرو برفق، فيما تفاقم شعوره بوطأة الذنب، وقد توطّد في نفسه اعتقاد بأن الجرو خسر فرصته للانضمام من جديد إلى عائلته.

كانـــت فـــرق الإنتاج وبقية منتسبـــي الفرقة قد نجحوا في اجتياز ليلة مرعبة أخرى؛ لم يتعـــرض فيها أي مخيم للتهديد وبقيت المواشي سالمة. انشغل الرعاة المنذهلون بالحديث في ذلك الأمـــر، و لم يتمكنوا من فهم السبب الذي حدا بالذئاب الأمّات، التي كان من المتوقع أن تحمي جروها وتفديه بحياتها، أن تتراجع من دون قتال. حتى الرجال كبار السن كانوا يهزّون رؤوسهم اســـتغرابا. ســـتكون تلك أكثر الوقائع غموضا واستعصاء على التفسير التي شهدها شن خلال السنوات التي أمضاها في السهوب.

* * *

أصـــيب كل من باو شنغوي وبعض الرعاة، الذين كانوا قد توقّعوا النجاح في إغراء وقتل الـــذئاب، بخيـــبة الأمل. لكن باو جاء إلى خيمة شن ويانغ عند الفجر ليطري على أساليبهما المبتكرة وشجاعتهما، اللتين ساعدتا في انتزاع نصر غير مسبوق من خلال دحر العدو من دون خوض أي قتال. قال إن كلا منهما يستطيع الاحتفاظ بالمصباح الكاشف كجائزة، وأنه سيعمل علـــى تعميم تجربتهما وينشرها على الملأ. تنفس شن ويانغ الصّعداء بعد أن أيقنا أنهما على أقل تقدير يستطيعان الاستمرار في رعاية جرو الذئب.

عند اقتراب وقت ارتشاف شاي الصباح، جاء بلغي وأوليجي إليهما لارتشاف قليل من الشاي، وتناول أقراص فطائر باللحم.

كان أوليجي يتمتع بمعنويات عالية بالنسبة إلى شخص لم يكن قد نام جيدا الليلة الماضية. "كانـــت تلـــك لـــيلة رهيبة"، قال. "لقد شعرت بالقلق عندما بدأ قطيع الذئاب يعوي، لأن العـــشرات منها كانت قد أحاطت بكما من ثلاث جهات، وفي بعض الأحيان لم تكن تفصلها عنكما سوى مئة ياردة أو نحو ذلك. خشينا أن تمزق خيمتكما. كانت قريبة جدا".

- "لـــو لم أكـــن أعـــرف أن لديكما كل تلك المدافع المفرقعة، لأمرت جميع الأشخاص وأشرت إلى الكلاب بالمجيء إلى خيمتكما لإنقاذكما"، قال بلغي.

- "لماذا لم تهاجم الذئاب الخراف أو تحاول إنقاذ الجرو والجري به بعيدا؟"، سأل شن.

ارتـــشف الرجل العجوز رشفة من الشاي ونفخ الدخان الذي سحبه من غليونه. "أعتقد ربما يكون السبب في ذلك أن الجرو الصغير الذي لديكما لم يتكلم لغة ذئاب حقيقية، وكانت الكلاب تنبح، مما أربك الذئاب".

- أنت تقول لي دائما إن الذئاب لديها اتصال روحي. إذا لِمَ لم يخبرها تينغر بالحقيقة؟

– "بالطبع لم تكن كلابكما الثلاثة وبعض الكلاب الأخرى أندادا لها"، قال الرجل العجوز. "لكن جميع الناس وما لديهم من كلاب الذين هنا كانوا متأهّبين تماما لخوض معركة حقيقية، ولو قرّرت الذئاب أن تشنّ هجوما من إحدى الجبهات لوقعت في متاعب خطيرة. ربما كان المدير باو قادرا على خداع الآخرين، لكنه لا يمكن أن يخدع تينغر. لم يشأ تينغر للذئاب أن تقع في الفخ، لذا أمرها بالانسحاب".

ضحك شن ويانغ. ثم قال يانغ: "تينغر حكيم جدا".

– "من وجهة النظر العلمية"، قال شنّ موجها كلامه إلى أوليجي، "لِمَ لم تهاجم الذئاب؟".

فكّر أوليجي للحظة. "إنني لم أشاهد أو أسمع أي شيء مثل الذي حدث في الليلة الماضية. أعتقد أن قطيع الذئاب ربما كان قد اعتبر الجرو دخيلا. إن ذئاب السهوب لديها مقاطعتها الخاصة بها، وتلك الذئاب التي ليست لديها مقاطعة خاصة بها تترك المكان عاجلا أم آجلا. المقاطعة تعتبر شيئا أكثر أهمية بالنسبة إلى الذئاب من حياتها. الذئاب المحلية كثيرا ما تشتبك في نزال شرس مع الذئاب التي تأتي من مناطق أخرى. ربما تكلم جروك لغة غير مفهومة مع القطيع، وهي نفسها اعتقدت بأن الأمر لا يستحق أن تخوض قتالا من أجل جرو غريب. كان الذكر الأكبر هنا في الليلة الماضية، وليس من السهولة خداعه. لا بدّ من أن يكون قد اكتشف وجود فخّ ما، لأنه يفهم أن أسلوب الخداع هو المعيار في حسم الصراع على ساحة المعركة. لقد تزايدت هواجسه عندما رأى كيف كان الجرو قريبا إلى درجة كبيرة من البشر وما لديهم من الكلاب. لم يكن مستعدا للمجازفة إلا إذا توافرت نسبة سبعين بالمئة للنجاح، وهو لا يتعامل أبدا مع أي شيء لا يفهمه. إنه يتعامل مع الإناث بمودّة ولا يريد لها أن تنخدع، وذلك هو السبب الذي جعله يأتي ليتأكد من الموقف نيابة عنها. لقد قادها في تراجعها عندما تبيّن له أن هناك شيئا بدا غير مطمئن بالنسبة إليه".

أومأ شن ويانغ برأسيهما دلالة الموافقة.

ذهبا لتوديع ضيفيهما. فيما بقي الجرو يعاني من وطأة اليأس وقد ازداد نحولا بشكل واضح، كان جاثما على الأرض، وقد أراح ذقنه على ظهر كفيه، مصوبا نظرة حادة إلى المكان الذي يقع أمامه مباشرة. بدا وكأنه كان يرى أحلاما جميلة ومزعجة أيضا عن الليلة الماضية، وهو لا يزال غير قادر على العودة إلى الواقع.

توقّف الرجل العجوز عندما رأى الجرو. "يا له من ذئب صغير مسكين! القطيع لم يُرده، ووالداه لم يتمكنا من التعرف إليه. هل سيعيش بقية حياته مقيّدا بسلسلة؟ عندما أتيتم أنتم الصينيون إلى السهوب حطّمتم قواعدنا الراسخة في القدم. أشعر بقلبي يؤلمني عندما أراكم تقيّدون ذئبا صغيرا ذكيا مثل العبد. الذئاب تصبر كثيرا. انتظروا وسترون. سيهرب ذات يوم

مـــن هـــذه الأيام؛ ولن تتمكنوا أبدا من التغلب عليه، حتى لو أطعمتموه حملا صغيرا سمينا كل يوم".

لم يُـــسمع أي عواء للذئاب حول المخيم في الليلة الثالثة، أو الرابعة، عدا ما يتعلق بالعواء المـــستوحش الـــيائس للجرو الذي تصاعد فوق السهوب الهادئة، وتردّدت أصداؤه في جنبات الوادي. لم يتلقَّ أي استجابة. وبعد مرور أسبوع لم يجد بدا من التوقف.

بعـــد انقضاء بعض الوقت على ذلك، لم تأتِ أي ذئاب لمهاجمة الخراف أو الماشية التي في عهدة يانغ وشن، أو مواش تعود إلى فريقي الإنتاج القريبين. كانت النساء اللواتي يقمن بواجب الحراســـة الليلية جميعهن يتبسمن ويقلن لهما: "الآن نستطيع أن نحصل على نوم هانئ في الليل، ننام إلى أن يحين وقت حلب الأبقار".

خلال تلك الأيام، عندما كان الرعاة يتحادثون عن تربية الذئاب، لم يكونوا يذكرون شن بسوء. لكن لم يكن يعبّر أحد منهم عن اهتمامه بتربية جرو بنفسه، ولا حتى لغرض إخافة قطيع الذئاب. قال بعض الرعاة الكبار السنّ في القاطع الرابع: "لِمَ لا تتركونه يفعل ذلك؟ سنرى ما قد يحدث عندما يكبر الجرو، ويتحول إلى ذئب متوحش".

27

خــلال هــذه المدة، توافر لجرو الذئب طعام كاف، بفضل المؤن التي كان يأتي بها زانغ جـيوان مــن لحم الأحصنة. كان شن، كلما تذكر الطريقة التي تعتني بها الأمّات من الذئاب بجـرائها في القطـيع، يـشعر أنه يتحتّم عليه أن يقدّم للجرو طعاما أفضل وأكثر كمية، وأن يصطحبه كي يجولا معا لمرات عديدة. وبالرغم من أنه كان يحتفظ بأكبر كمية من اللحم المتوافر مــن أجل الجرو، إلا أن المؤن ما لبثت أن انتهت في نهاية الأمر، وكانت الأحشاء المتبقية بالكاد تكفي لوجبة إضافية واحدة. ولهذا ساورت شن الهواجس.

ذات مـساء أخـبره غاو جيانـزونغ أن هناك ثورا كان يرعى على أحد المنحدرات قد أصـابته الصاعقة فأردته قتيلا، وهكذا ففي الصباح الباكر من اليوم التالي ذهب شن إلى أعلى التل حاملا معه سكينا وكيسا من الخيش، إلاّ أنه كان قد تأخر كثيرا. لم يكن قد تبقى شيء من الـثور سوى الجمجمة وبعض العظام الأكثر صلابة؛ لم تترك الذئاب قطعة ولو صغيرة جدا من اللحم وراءها. جلس على الأرض متفحّصا العظام، ورأى علامات أنياب صغيرة الحجم كانت قـد خلفتها جراء الذئاب على العظام المتكسرة. لقد عملت الذئاب بالتعاون مع بعضها بعضا، كانـت الكبيرة منها تزدرد قطعا غليظة من اللحم بينما تلتهم الجراء القطع الصغيرة الممزّقة، مما أدّى إلى إنهـاء الثور بالكامل، حتى إن الذباب كان يئز بغضب ويتطاير بعد أن يأخذ قضمة أو بضع قضمات. صعد راعي أبقار عجوز من القاطع الثالث إلى أعلى التل بينما كان شن جالسا هناك؛ وتفحّص كومة العظام المتبقية التي تعود إلى حيوان من قطيعه. قال لشن، "لم يجرؤ قطيع الـذئاب علـى مهاجمـة الخراف، لذا قتل تينغر أحد الثيران من أجلها. انظر، لقد اختار تينغر اللحظة المناسبة تماما، في الليل، عندما يخلو المكان من أيّ من العمال ليتمكن أي ذئب من قنص الـثور وسحبه والتهامه. أيها الشاب، تينغر هو الذي يضع القواعد المتّبعة في السهوب ويعاقب الناس الذين يخرقونها". قرّب ركبتيه من خاصرة حصانه بينما بدت ملامح وجهه قاتمة، ومضى في سبيله ببطء إلى أسفل التل حيث كان يرعى قطيعه.

ظـنّ شـن أن القـواعد التي يتكلم عنها الرعاة الطاعنون في السن هي القوانين الطبيعية للـسهوب، أو بمعنى آخر، هي قوانين الكون. من الواضح أن تربية ذئب في ظل ظروف بدوية تعكّـر نمط الإنتاج. كان الجرو قد تسبب حتى الآن بمتاعب كثيرة في السهوب، ومن يدري ما هي نوعية المتاعب الجديدة التي ربما سيسببها في الأيام اللاحقة. عاد شن خاوي الوفاض، كان

رأسه مثل حلبة نـــزال تدوي فيها أفكار صاخبة. رفع رأسه ليحدّق إلى تينغر، تذكّر أبياتا من الشعر قيل فيها: "السماء تغطي الأرض كأنها سقف دنيوي"، و"السماء مظلمة، البراري شاسعة/ العشب ينحني عندما تهبّ الريح/ ليس من الممكن رؤية أي ذئب". في ذلك المكان، يعتبر قطيع الـــذئاب شيئا شبيها بالسراب، يبدو ويختفي في لمح البصر؛ وكثيرا ما سمع الناس بالأضرار التي كانـــت تلحقهـــا الذئاب بالسهوب، وكانوا شهوداً عليها، لكنهم نادرا ما شاهدوها بلحمها وشـــحمها، فارتـــسمت في أذهـــان الناس، صورة لذئاب ذات طبيعة غامضة، تتمتّع بالدّهاء والمراوغة، ويلفّها الغموض. كان ذلك أيضا السبب الذي جعل شن لا يتمكن من السيطرة على فـــضوله، ورغبته في أن يتعلم ويدرس طبيعتها. قدر تعلق الأمر بالجرو، كان يعلم أن لديه ذئبا حـــيا في بيـــئة تعـــتقد بمعتقدات رمز الذئب. لقد واجه الكثير من المتاعب، وتحمّل الكثير من الضغوط النفسية، وجازف كثيرا بحيث شعر بأنه لم يعد في وسعه التوقف حتى إذا أراد ذلك.

ذهـــب إلى مخيم العمال، حيث دفع ثمنا باهظا لشراء قليل من الدّخن. من دون الدخن، كان بإمكانـــه فقط إضافة المزيد من الحبوب إلى طعام الجرو، على أمل أن يحافظ ذلك النظام الغذائي على بقائه حيا إلى أن يحين أوان ذبح أحد الخراف. عندها يصبح قادرا على أن يُطعم الكلاب أيضا بعضا من اللحم. هناك في الخيمة كان على وشك أن يخلد إلى نوم خفيف وقت الظهيرة عندما سمع جراء الكلـــب الـــثلاثة تنبح بسعادة وتعدو إلى مكان بعيد. خرج شن ونظر ناحية الغرب؛ وجد إيرلانغ، *وأصفر*، وبير قد عادت من الجبال. كان إيرلانغ وأصفر يرفعان رأسيهما عاليا، وقد حمل كل منهما فريـــسة كبيرة في فمه. لقد جعل الجوع المستمر الذي يعتصر البطون الكلبين بير *وأصفر* يضطران إلى أن يتـــبعا إيـــرلانغ إلى أعـــالي الجبال للاصطياد. بدا واضحا أن يوم الكلاب كان جيدا؛ لم تتمكن الكلاب من ملء بطونها وحسب، وإنما استطاعت أيضا أن تجلب القليل من الطعام للجراء.

اندفع شن كي يرحّب بالكلاب، فيما كانت الجراء تتقاتل على الطعام الذي في أفواهها. وضـــع إيرلانغ فريسته على الأرض، ومضى يطارد الجراء ليبعدها، ثم عاد لالتقاطها من جديد، وعدا باتجاه مكانه الخاص. لمعت عينا شن ممتنّا حين رأى أن كلا من إيرلانغ *وأصفر* كان يحمل مرموطا، بينما كانت بير تحمل كلب مروج يبلغ طوله قدمين، وحجم رأسه بحجم ثمرة اللفت. تلك كانت المرة الأولى التي يرى فيها شن الكلاب التي لديه تعود بفرائس، أسرع يركض بفرح غامر ليأخذها منها.

كـــان الكلـــبان *أصفر* وبير متلهفين لتلقّي الثناء، وضعا فريستيهما عند قدميه ووثبا إلى الأعلى والأسفل، وهما ينبحان ويهزان ذيليهما ويعدوان في دوائر من حوله. حتى إن *أصفر* عمل حركة انفساخ[1] بقائمتيه الأماميتين، بينما كاد صدره ورقبته أن يلامسا جسد المرموط الميت، كان ذلك شيئا جديدا تماما على شن. بدا وكأنه أراد أن يخبره أنه هو الذي أمسك به. رأى شن

---

(1) انفساخ: حركة يباعد فيها البهلوان ما بين ساقيه حتى تصبحا على زاوية قائمة مع الجذع. (المترجم)

صـــفا من حلمات الضروع، المنتفخة في بطن المرموط فعرف أنه أنثى ما زالت تُرضع صغارها. ربّت شن على رأس الكلبين. "كلاب جيدة"، قال. "كلاب جيدة".

أما إيرلانغ، من ناحيته، فقد رفض التخلي عن فريسته؛ ودار ملتفا حول شن ومن ثم عدا باتّجاه جرو الذئب. حين رأى شن أن المرموط كان كبيرا وسمينا، ركض وأمسك بذيل إيرلانغ السميك، ثم انتزع المرموط منه. هز إيرلانغ ذيله ليظهر عدم اهتمامه. أمسك شن بالمرموط من إحدى قائمتيه الخلفيتين، خمّن أن وزنه كان يبلغ أكثر من عشرة أرطال، وهو ذكر له فراء لامع تـــراكمت على جسده طبقة سميكة من اللحم، بالرغم من أنه خلا من الشحم الذي ينمو لدى المـــرموط عـــادة في الخريف. قرّر شن الاحتفاظ باللحم له ولرفاقه في الخيمة؛ إنه طعام لذيذ لم يتمتعا بتناوله منذ مدة طويلة.

حمـــل شن الفرائس الثلاث، ومشى مبتهجا إلى الخيمة، فيما تبعته الكلاب الثلاثة، التي كانت تكشّر بلهو لبعضها بعضا. وضع شن المرموط الكبير داخل الخيمة، وأغلق الباب. أخذت الجراء تشمّ الفريـــستين الأخريين بتلهف؛ قرر شن أن يقدّم أنثى المرموط النحيلة لها، ويقدّم كلب المروج لجرو الذئب، وذلك كي يتذوق الطعام المفضل لدى الذئاب، وأن يتعلم كيف يأكل حيوانا بمفرده.

في الـــصيف، لا يـــساوي فرو المرموط شيئا يذكر؛ لن يشتري مركز التسوّق فرو حيوان واحـــد مـــنها، لـــذا قسم شن جسد المرموط إلى أرباع وقدّم ثلاث حصص، بجلدها ولحمها، وبالعظام والأحشاء، إلى الجراء، وأبقى الربع الأخير ليقدّمه إلى جرو الذئب. كانت الجراء تعرف بالضبط ما الذي ينبغي لها فعله عندما رأت اللحم الملطخ بالدماء. انبطحت على الأرض لتلتهم حصتها من دون قتال أو نباح. كانت الكلاب الكبيرة الثلاثة تهز ذيولها، مُبدية إعجابها بالطريقة الـــتي قسّم بها شن الطعام، وهو شيء كان قد تعلمه من كتاب جاك لندن **نداء الغاب**، ذلك الكتاب الذي عرف أنه لن يستردّه أبدا بعد أن أعاره لأحدهم، الآن وقد أصبح متداولا وسط الطلاب في فرقتين من فرق الإنتاج.

كانـــت بطون الكلاب الكبيرة منتفخة؛ لقد التهمت كفايتها من اللحم في الجبال. لكن إنجازهـــا لا يزال يحتاج إلى مكافأة، ذلك عرف راسخ على أرض السهوب. لذا خرج شن من الخـــيمة وهو يحمل أربع قطع من الحلوى، قدّم قطعتين منها إلى إيرلانغ، الذي التقطهما بفمه، ونظر إلى شن بطرف عينه وكأنه يراقبه ليرى كيف سيكافئ *أصفر* وبير. عندما رأى إيرلانغ أن الكلـــبين الآخـــرين قد حصلا على حصتيهما من الحلوى أيضا، مزّق غلاف الحلوى بسعادة بمخالـــبه وأنيابه، ثم صدرت عنه طقطقة فيما كان يمضغ قطع الحلوى. فعل *أصفر* وبير الشيء نفسه، لم ينـــزعجا على الإطلاق لأنهما حصلا على كمية أقل مما حصل عليه إيرلانغ. كاد شن أن يكـــون على يقين من أن إيرلانغ ربما اقتنص كل هذه الفرائس بمفرده، وأن الكلبين الآخرين قد ساعداه ليس إلاّ في حملها والرجوع بها.

جعلــت رائحــة الــدماء جرو الذئب مسعورا بحيث إنه انتفض واقفا على قائمتيه الخلفيتين، وكان يحاول أن ينشب براثنه في الهواء. حاول شن ألاّ ينظر باتجاهه، لأن ذلك من شأنه أن يجعله مهتاجا بحيث يسحب السلسلة بشدة حول عنقه. لم يهتم بشأن كلب المروج إلى أن انتهــى من العناية بالكلاب. كانت هناك أنواع كثيرة جدا من القوارض تنتشر في السهوب، والأكثر انتشارا من غيرها هي سناجب الأرض، وكلاب المروج، وفئران الحقول. تنتشر كلاب المروج في كل مكان، ودائما تكون موجودة ضمن نصف قطر على بعد خمس عشرة أو عشرين قدما من أي خيمة، حيث تقف خارج حفرها وتصدر وصوصتها بصوت مــرتفع. في بعض الأحيان، عندما تُنصب إحدى الخيم فوق حفرها مباشرة، تترك نظامها الغذائي الذي يعتمد على العشب وتتحول إلى أكل الحبوب التي تلجأ إلى سرقتها، إضافة إلى منتجات الألبان، واللحم، وتترك فضلاتها في حقائب أو أكياس الطعام، وأحيانا تقرض حتى الكــتب. عندما ينتقل الناس، كثيرا ما يجدون قوارض صغيرة داخل الجزم والأحذية التي لم ينتعلها ساكنو الخيم منذ مدة. كان منظر كلاب المروج الصغيرة التي توصوص مثل الديدان الــسمينة يبعث على القرف. وكان الرعاة والطلاب يكرهون الفئران أيضا؛ أما شن ويانغ فكانا يكرهانها بشكل خاص، لأن هذه القوارض قد أتلفت كتابين من كلاسيكيات الأدب ضمن مجموعتهما من الكتب.

حــسب رأي بلغي، في الأزمنة القديمة، كانت كلاب المروج الحية تُستخدم كأهداف من قبل صغار المنغوليين للتدرّب على رماية السهام.

كــان الأولاد المنغولــيون الصغار يختارون كلاب المروج كأهداف جيدة بسبب سرعتها وعيونها حادة الإبصار، حيث كان آباؤهم يحذرونهم ألاّ يعودوا إلى البيت إلاّ إذا أصابوا بالسهام عددا معينا منها. لقد اعتُبرت تلك، اللعبة المفضلة لدى الأولاد، وكانت السهوب تمثل الحديقة التي يتنــزّهون فيها، وكثيرا ما كانوا ينغمسون في ذلك النوع من اللهو حتى إنهم كانوا ينسون الرجوع إلى بيوتهم لتناول الطعام. عندما كانوا يكبرون، اعتادوا أن يستبدلوا أقواسهم الصغيرة بأقواس أخرى كبيرة ويمارسوا الرماية من فوق صهوات الأحصنة. كان جيبــي، وهو جنرال في جــيش جنكيــزخان استطاع أن يهزم روسيا، مشهورا بكونه رامي نبال بارعا قد تعلم الرماية بــتلك الطريقة. كان يستطيع أن يصيب بالسهم أحد كلاب المروج في رأسه وهو على صهوة حــصان يعدو سريعا ومن مسافة مئة ياردة. لقد قال بلغي إن الخيالة المنغوليين حموا السهوب وســاعدتهم مهــاراتهم في الرماية على دحر العالم بأسره. لقد كان إطلاق السهام على أصغر الأهداف أكثرها دهاء، وأكثرها صعوبة، وهي كلاب المروج، يشكل الطريقة التي شحذت من خلالها مهاراتهم في الرماية.

* * *

التقط شن كلب المروج من ذيله وتفحّصه. كان يرى حيوانات أكبر حجما عندما يخرج مـــع خـــرافه، لكن هذا الحيوان الذي يبلغ طوله قدما واحدة وجسمه أكبر من زجاجة حليب الأطفـــال بقليل يمكنه أن ينمو فقط على السهوب الخصبة المحاذية للجبال. لقد افترض أن لحمه ربما يكون مليئا بالشحم ورقيقا، ذلك لأنه من الأطعمة المفضلة لدى الذئاب. تخيّل كيف يمكن للجرو، حين يشم رائحة الدم، أن يثب عليه ويبتلعه كله.

حمله شن رأسا على عقب؛ وذلك كي تبقى الدماء تقطر من جروحه على الأرض الرملية. وبينما هو واقف خارج الحظيرة، صاح: "ذئب صغير. ذئب صغير، حان وقت الطعام".

صار الجرو يحدّق بشدة حتى احمرت عيناه؛ لم يسبق له على الاطلاق أن شاهد طعاما مثل ذاك، لكـــن رائحة الدم أنبأته أنه شيء طيب. وثب مرة بعد أخرى، لكن شن بقي يرفعه عاليا؛ ثبّت الجرو الساخط عينيه على كلب المروج السمين، وليس على شن، الذي أصرّ على أن يجعل الجـــرو ينظـــر إلـــيه هو قبل أن يناوله الطعام، ولكن بعد أن رأى الجرو الحيوان الميت تغيّرت تصرّفاته؛ أضحى الآن أكثر شبها بذئب بريّ شرس، وقد كشّر عن أنيابه وكانت براثنه تنهش الهـــواء. انفـــتح فمه على سعته، كاشفا عن أنيابه الأربع، حتى خطّ اللثة الذي يمتدّ نحو جوفه. ارتعـــدت فرائص شن من نظرة الجرو المرعبة. استمر بتحريك الفريسة مرات أخرى، إلاّ أنه لم يستطع أن يحوّل نظرة الجرو إليه. وأخيرا تخلى عن المحاولة ورمى الفريسة إليه. بعد ذلك قرفص إلى جانـــب الحظيرة، متوقعا من الجرو أن يبادر إلى تمزيق الحيوان إلى قطع ويزدرده على الفور. لكـــنه اســـتغرب مما فعله الجرو حين أمسك بكلب المروج وعلقه في الهواء؛ كان ذلك شيئا لم يستطع أن يقدّم له تفسيرا ولا يمكن له أن ينساه.

كما لو أن الجرو أمسك بقطعة فولاذ حارة، فقد أسقط فريسته فورا وتراجع مبتعدا عنها. ومن ثم وقف على بعد بضع أقدام إلى الوراء، مدّ عنقه وجسده وأخذ يحدّق إلى الحيوان القارض المـــيت بذعر واضح؛ استمرّ ذلك لثلاث دقائق، حتى لم يعد الخوف ظاهرا في عينيه. بعد ذلك تقـــوّس ظهره ووثب سبع أو ثمانيَ مرات في الهواء قبل أن يعدو على عجل وينقضّ على كلب المـــروج. انتـــزع قضمة، وقفز راجعا وحدّق إليه مجددا لبعض الوقت. عندما رأى أن الحيوان القـــارض لم يكن يتحرك، انقضّ عليه ثانية، منتزعا قضمة أخرى، وبعدها توقف ليحدّق إليه. وأعاد ذلك ثلاث أو أربع مرات قبل أن يهدأ أخيرا.

حلت نظرة رزينة محلّ النظرة الشرسة في عيني الجرو. مشى نحو كلب المروج وتوقف إلى جانبه. أحنى قائمته اليمنى بوقار، ثم اليسرى؛ لمس كلب المروج بالجانب الأيمن من ظهره قـــبل أن يتدحرج على الأرض. بعدها نهض، نافضا الرمل عن جسده، وشدّ على السلسلة حتى توتّرت، وعدا إلى الناحية الأخرى من الحيوان القارض، حيث أعاد تلك العملية، ولكن بسياق معكوس.

راقب شن المشهد بفضول وأعصاب متوترة، لم يكن متأكدا مما كان الجرو يفعله، أين تعلم تلك الحركات، وما الذي جعله يلمس جانب الحيوان القارض ويتدحرج على الأرض؟ كان الجرو يشبه ولدا صغيرا أعطيت له دجاجة مشوية كاملة ليأكلها بمفرده للمرة الأولى في حياته: فهو متلهف للأكل لكنه لا يعرف من أين يبدأ، لذا كان يقلبها المرة تلو الأخرى بين يديه. أعاد الجرو تلك الخطوات ثلاث مرات.

لم يصدّق شن ما رأته عيناه. كان قد أعطى الجرو الكثير من اللحم اللذيذ، وأحيانا قدم له لحما طازجا من إحدى الفرائس، لكن الذئب الصغير لم يفعل أي شيء مثل ذلك من قبل. ما الشيء المختلف بالنسبة إلى كلب المروج هذا؟ هل كانت طريقة يتّبعها الجرو في تهنئة نفسه لأنه حصل على حيوان كامل؟ أم كان طقسا يؤديه قبل الأكل؟ كان في سلوكه الذي يوحي بمظاهر الاحترام، والتبجيل.

أطال شن التفكير حتى آلمه رأسه، وأدرك أن الحيوان الذي قدّمه إلى الجرو هذه المرة كان مختلفا. بغض النظر عن كونه طعاما طيبا، إلاّ أنه كان دائما يقدّم إلى الجرو قطعا مكسرة من العظام ونتفا من اللحم، طعاما يعالجه البشر ثم يقدم إليه. لكن هذا الطعام شيء طبيعي، بري، لم تلمسه يد، حيوان حي، مثله هو نفسه، له رأس وذيل، جسد وأكف، جلد وفرو، تماما مثله مثل الثيران، والخراف، والأحصنة، والكلاب. ربما كان هذا يمثل بالنسبة إلى الذئاب طعاما *حيا*، بشكله المميز، وجبة لا تتناولها إلاّ الذئاب رفيعة المنزلة، فهي وحدها المؤهلة للاستمتاع بها.

استنشق الجرو نفسا عميقا من الهواء لكنه لم يبدأ الأكل حالا. اهتز جسده لينفش فروه قبل أن يتقدم ببطء ويلتف حول الحيوان الميت. بعد ذلك صارت عيناه ضيقتين؛ تدلّى لسانه خارجا من جانب فمه؛ رفع قائمتيه ثم وضعهما على الأرض برفق، مثلما تفعل تلك الأحصنة البيضاء في سيرك روسي عندما تؤدّي حركات كانت قد تدرّبت عليها جيدا ضمن عروض محدّدة لها بوضوح. بعد العديد من الدورات المماثلة كهذه الدورة، تسارعت خطوات الجرو لكنه لم يغيّر نطاق الدائرة التي رسمها بآثار قوائمه على الأرض الرملية.

شعر شن بوخزة في جمجمته، لقد تذكر تلك الدائرة الغامضة، والمرعبة التي كانت قد رسمتها الذئاب قرب كدس أحصنة الحرب الميتة في أوائل الربيع. تلك الدائرة رسمتها عشرات الذئاب التي كانت تعدو حول أكداس عالية من جثث الأحصنة. كان كبار السن يعتقدون أنها رسالة استفهام وفروض شكر تقدّمها الذئاب لتينغر. تلك الدائرة كادت أن تكون كاملة الاستدارة، وكذلك بدت الدائرة التي رسمها الجرو على الرمال؛ وعند مركز كلا الدائرتين كانت هناك فريسة.

هل كان على الجرو أولا أن يقدم الشكر لتينغر قبل أن يستمتع بالتهام وجبة من الطعام الطازج؟

استمر الجرو يتحرك حركة دائرية سريعة ومتواترة. لم يكن قد تناول لحما طريا طوال اليوم وكان يتضوّر جوعا. في الحالات الاعتيادية كان منظر اللحم الذي تلطخه الدماء من شأنه أن يحوّل ذئبا جائعا إلى ذئب مسعور. إذا، لماذا يتصرف هذا الجرو ضدّ نواميس الطبيعة، ويمارس حركات تتناسب مع طبيعة كائن متعلق باعتقاد ما، ويتغلب بذلك على جوعه ليؤدي مجموعة معقدة من *الطقوس الاعتقادية*؟ هل هناك نوع من المعتقدات البدائية كانت تسود وسط الذئاب، معتقدات يمكن لها أن تهيمن على سلوكها من خلال طاقة روحية قوية، حتى بالنسبة إلى جرو ذئب كان قد انفصل عن قطيعه قبل أن يفتح عينيه؟

وأخيرا، توقف الجرو. جثم قريبا من كلب المروج وهو يلهث، انتظر إلى أن أصبحت أنفاسه اعتيادية قبل أن يلعق شفتيه مرتين. كانت هناك شعلة مضطرمة من الجشع ونظرة جوع صارمة تبرق في عينيه؛ تحوّل فجأة من ذئب بدائي إلى ذئب متوحش جائع. انقضّ على فريسته وصار ينهشها، ومن ثم دسّ رأسه في أحشائها ومزق نصف الحيوان القارض بجلده وفرائه، مما كشف عن كتلة دامية من اللحم. كان جسده يهتزّ بعنف طوال الوقت، كان يمزّق ويلتهم. وبعد أن ابتلع اللحم والعظام من أحد جوانب كلب المروج، استخرج الأحشاء الداخلية وازدرد كل شيء دون أن يستثني شيئا، حتى بقايا العشب لاذع المذاق الذي كان داخل المعدة، أو البراز الذي في الأمعاء.

فيما كان الجرو منهمكا بالأكل ازداد سلوكه وحشية وضراوة؛ كان يصدر شخيرا مصحوبا بإيقاع معبّر عن الفرح، مما بعث ارتعاشات سرت على العمود الفقري لشن. ازدادت وحشية وشراسة الجرو في طريقة افتراسه للحيوان القارض، تعامل مع أجزاء جسد كلب المروج باهتمام مماثل: اللحم، والعظام، والجلد، والفراء، والمثانة، وحتى المرارة، جميعها كانت ذات مذاق لذيذ بالنسبة إليه. وفي غضون وقت لا يكاد يذكر لم يبقَ سوى الرأس والذيل القصير. لكن ذلك لم يجعله يتوقف؛ رفع الرأس ببراثنه عاليا ونهش نصفه، ومن ضمن ذلك الأسنان. بعد ذلك أنهى النصف الآخر. لم يسلم حتى عظم الذيل الهش الذي يغطيه الشعر؛ حيث نهشه وقطعه إلى قسمين، وما لبث أن استقرّ في جوفه. في نهاية الأمر لم يتبقَّ سوى بُقع من الدماء والبول على الأرض الرملية. لكن ذلك لم يشبع جوعه، إذ استمر يحملق في شن ليتأكد أخيرا من أن يديّ الشاب كانتا فارغتين؛ وهكذا دبدب بتثاقل قاطعا نصف المسافة باتجاه شن، ثم استلقى على الأرض وهو يرسل نظرة تشوبها خيبة الأمل.

الآن عرف شن أن الجرو لديه ولع بقوارض السهوب، لأنها كانت قد أيقظت غرائزه الكامنة، وربما كان ذلك هو السبب الذي حمى أولونبولاغ من التعرض لأضرار القوارض على مدى آلاف السنين.

اعتملت مشاعر الحب والحنان في قلب شن إزاء الذئب الصغير. كان في وسعه أن يستمتع بمشاهدة دراما رائعة في كل يوم تقريبا؛ لقد تمتّع الجرو دائما بالحيوية وعمق التفكير، كان

مـــشحونا بالقدرة على إعطاء دروس مهمة مما حوّل شن إلى أكثر المعجبين به إخلاصا وحرصا على الاستفادة.

في الوقت الذي كان فيه الجرو يحدّق باشتياق إلى جراء الكلاب التي كانت تقضم العظام، عاد شن إلى الخيمة ليسلخ جلد المرموط. قطع الرأس ومنطقة الرقبة التي نهشتها الكلاب، ووضع القطـــع في حوض ليقدمها وجبة عشاء للجرو. بعد ذلك قطّع اللحم إلى شرائح. امتلأت القدر باللحم الذي يكفي لوجبة طيبة سيتناولها ثلاثة أشخاص.

* * *

في المـــساء جلـــس الجرو برزانة في حظيرته التي تغطيها الرمال، كان وجهه مقابلا لناحية الغـــرب وهو يراقب بتلهف نصف قرص الشمس الغاربة الذي كان في طريقه للاختفاء ببطء. حالما خلّفت الشمس المتلاشية وراءها بقعا ضئيلة ليس إلاّ من الضوء على قمة التل المعشوشب، نهض فالتف حول نفسه مواجها الخيمة، وقام بسلسلة من الحركات الغريبة، وكأنما كان يضرب على طبل، أو ينقضّ على طعام، أو يؤدّي حركات شقلبة. ثم حرك سلسلته ليذكر شن أو يانغ أن الوقت قد حان ليأخذاه للتريض.

تـــناول شن بعض اللحم قبل أن يعود الآخران حتى يتمكن من اصطحاب الجرو للتريض، عـــند ذلـــك تبعه إيرلانغ وأصفر. كان هذا هو الوقت الذي يتمتع فيه الجرو بشيء من الحرية والانطـــلاق وقت الغسق الذي يمثل أسعد اللحظات في اليوم بالنسبة إلى الجرو، حتى إنه كان يـــتطلّع إليه بلهفة أكثر حتى من وقت تناول وجبة الطعام. لكن التنقل برفقة ذئب لم يكن شيئا مماثلا للتنقل برفقة كلب ذئبـــي. ذلك لأنه أكثر الأشياء إثارة للاستمتاع بالنسبة إلى الجرو، إلاّ أنه أكثر الأعمال إنهاكا وصعوبة في اليوم بالنسبة إلى شن.

مـــع شـــهيته الضارية للطعام، أصبح الجرو أكبر حجما بكثير وأطول بقدم تقريبا من أي كلـــب يماثله في العمر ويزيد على وزن جرو من جراء الكلاب بنصف مرة. كان قد تخلى عن شعر الولادة، والذي حل محله فراء رمادي – أصفر اللون لامع. كان خطٌّ من الفراء قاتم اللون ينتصب طويلا وبشكل مستقيم فوق عنقه، يكاد يشبه فراء ذئب كبير من ذئاب البراري. اتخذ رأسه الذي كان في السابق مستديرا شكلا مسطّحا يمتدّ إلى الأمام، وثمة بقع بيضاء اللون تتخلّل الفراء. وقد استطال وجهه أيضا، مع نتوء رطب يتوّج خطما صلبا وخشنا كأنه سدادة زجاجة مطاطـــية. كـــان شن يحب أن يقرص ذلك الخطم، مما يجعل الجرو يعطس؛ وهي أدنى علامات التعاطف المحبّبة التي كان يُبديها الجرو. وقد كَبُرت أذناه بحيث صارتا صلبتين وطويلتين وكأنهما ملعقتان مدببتان. ومن مسافة بعيدة كان يبدو مثل ذئب متوحّش.

كانت عيناه أكثر الأشياء إثارة للخوف فيه، ومع ذلك فإنهما تمثلان الجزء الأكثر روعة في وجهـــه. إنهمـــا عينان مستديرتان، لكنهما تنحرفان إلى الأعلى ونحو الخارج، وهما أكثر إثارة

للـــصدمة والذهول من العينين المرسومتين على وجه أحد الممثلين في أوبرا بكين. كانت الزوايا الداخلـــية لعينـــيه تنحرف إلى الداخل لتشكل خطّا داكنا هو مجرى للدموع، مما أضفى عليهما مظهرا مخيفا بشكل مميز.

تشكل حاجبا الجرو من كتلتي فراء خفيف رمادي - أصفر اللون، لم يكونا مؤثرين على وجـــه التحديد في إظهار الغضب. لذلك السبب، فقد كانت العينان هما اللتان تحملان مفتاح اللغـــز. لكن الشيء الأكثر إثارة للرعب من سواه هي التجاعيد التي تتشكل على امتداد خطمه عندما كان يغضب.

لقـــد اخـــتلفت عينا الجرو بصورة جوهرية عن عيون البشر أو الحيوانات الأخرى. كان بـــياض العينين شبيها أكثر بصفار الكهرمان، مما جعل شن يشعر بأن لهما قدرة على النفاذ إلى بـــواطن ســـيكولوجية البـــشر والحيوانات معا. كانت لدى الجرو حدقتان صغيرتان، معتمتان وموحـــشتان، مـــثل الفتحة الصغيرة التي في الغليون الطويل الذي يستخدمه الرجل الأسود في إحـــدى قصص شرلوك هولمز[1]. عندما كان الجرو يغضب لم يكن شن يجرؤ على أن ينظر في عينيه.

بعـــد أن اعتاد الجرو عليه أكثر، استغلّ شن لحظات السعادة التي يتمتع فيها ليمسك أذنيه ويحتضن وجهه. كان في ذلك الوقت قد قرأ ملامح ذلك الوجه بإمعان أكثر من مئة يوم، وصار يعـــرفه جيدا. كثيرا ما رأى تلميحا بابتسامة باهتة رائعة، لكن في مرات أخرى كان يرى فيها تعبيرات بثت الرعب في نفسه. العينان وحدهما كانتا تجعلان القشعريرة تسري إلى أسفل عموده الفقـــري، وكثيرا ما أصبح مثل شخص معتوه استبدّ به الرعب عندما كان الجرو يكشف عن أنيابه الأربع الحادة والأشدّ فتكا من أنياب أفعى الكوبرا. وغالبا ما فتح فم الجرو وفرك أصابعه على الأنياب. كانت أنيابا قوية وشديدة الصلابة، أطرافها أكثر حدّة من المثقاب، وتميزت مادة المينا التي تغطي الأنياب بكونها أصلب من تلك التي تغطي أسنان البشر. كان تينغر يحبّ الذئاب ويفـــضّلها علـــى غيرهـــا مـــن المخلوقات، ولهذا فقد أعطاها مثل هذا الوجه المفعم بالسّطوة والاقتدار، والذي لا يخلو من وسامة أيضا، بكل أسلحته المرعبة.

على مدى أسابيع، كانت قوة الجرو قد ازدادت بسرعة كبيرة، وكذلك وزن جسده. لم يعـــد شـــن قادرا أن يتنقل وهو يصطحب معه الذئب؛ كان هو نفسه يتعرّض للسحب طوال الطـــريق. في اللحظـــة التي تركا فيها الحظيرة واصطحبا معهما جرو الذئب، سحب الجرو شن باتجاه المنحدر العشبـــي وكأنه ثور يجرّ عربة. حاول شن ويانغ تسريع خطواتهما لمساعدة الجرو علـــى اكتساب قوة في قائمتيه وشحذ مهارته في الجري. استخدم الجرو كل ما أوتي به من قوة

---

(1) شرلوك هولمز: شخصية المحقق السري في قصص الكاتب الاسكتلندي آرثر كونان دويل (1859-1930م).

كـــي يـــسحبهما إلى الأمـــام عندما كان يصيبهما الإنهاك ويعجزان عن اللحاق به في الجري، وأحيانا كان ذلك يستغرق ساعة أو أكثر.

كانـــت يد شن زن تؤلمه، وذراعه قد تخدرت، وتفصّد منه عرق غزير. لكن الهواء كان لطـــيفا ونقـــيا بشكل ملحوظ هنا أكثر مما هو عليه في بكين، وكثيرا ما دفع به الجرو إلى أن يركض سريعا، ويقطع مسافات طويلة بحيث يغدو وجه شن شاحبا وساقاه متشنجتين. في بداية الأمـــر، كان قد خطّط لأن يركض برفقة الجرو ليعزّز في نفسه طابع الخشونة. لكنه سرعان ما فقـــد ثقته بنفسه حينما فجّر الجرو طاقاته الكامنة من أجل الاستمرار في الجري من دون توقف إلى مسافة بعيدة؛ حتى إن أسرع الأحصنة المنغولية لا يمكنها مجاراة الذئاب في الركض. بدأ شن ويانغ يقلقان بشأن الطريقة التي تمكنهما من *المشي* مع الجرو حين يبلغ سن النضج. إذا لم يتوخّيا الحذر فقد يسحبهما حتى يوقعهما وسط قطيع للذئاب ذات يوم.

في بعض الأحيان كان الجرو يُلقي بشن ويانغ على الأرض، مما كان يثير الفرح الغامر لدى النـــساء والأطفال في خيمهم. وبالرغم من معارضتهم لهما في تربية جرو الذئب، إلاّ أنهم كانوا يستمتعون بمشاهدة طالبين من بكين وهما يتنقلان وقد اصطحبا معهما الجرو، منتظرين من تينغر أن يعاقبهما على *تجربتهم العلمية تلك*.

ذات يـــوم قـــال أحد الرعاة، وهو رجل متوسط في العمر كان يعرف قليلا من اللغة الروسية مخاطبا شن: "البشر لا يستطيعون ترويض الذئاب، ولا يمكن للعلم أن يقدّم المساعدة في هذا المجال".

دافـــع شن عن نفسه بأن قال إنه يبغي فقط مراقبة ودراسة سلوك الجرو وليست لديه نيّة لترويـــضه. لكن لا أحد منهم كان مستعدًّا لأن يصغي إليه. كانت فكرة تزويج الذئب بكلبة صـــيد قد انتشرت عبر المراعي، مثلها مثل قصة الجرو الذي كان يُسقط الشباب على الأرض، وأصـــبحت نوعا من المزاح يتناقله الرعاة. قالوا إنهم سينتظرون حتى يسمعوا عن الذئب الذي افترس الكلبة.

* * *

جرى الجرو بمرح، كان يجرّ شن وراءه، الذي استمر يلهث ويلتقط أنفاسه بصعوبة محاولا اللّحـــاق به. في بداية الأمر كان الجرو يعدو بلا هدف، لكن في الأيام الأخيرة بدأ يسحب شن إلى جهة الشمال الغربـــي، حيث يتركّز عواء الذئاب ليلا. ازدادت لهفته حدّة. ترك شن الجرو يقـــوده إلى أي مكان أراد الذهاب إليه. عبرا معا أحد الوديان ووصلا إلى منحدر ليس حادًّا؛ ذلك كان أقصى مدى استطاعا الوصول إليه.

رأى شن أنهما قد أصبحا على بعد ثلاثة أو أربعة لي من الخيمة، مما أثار في نفسه شيئا من القلـــق. لكن، مع الحماية التي يوفّرها له الكلبان وعصاه، قرّر ألاّ يجبر الجرو على الرجوع. بعد ذلـــك تابعـــا العدو مسافة نصف لي، أو نحو ذلك قبل أن يبطئ الجرو من سرعته ليشمّ كل ما

يعترض طريقه: كومة روث أبقار، ورابية جرداء صغيرة، وقطعة عظم بيضاء، وبقعة معشوشبة، وصخرة، وأي شيء ملقى على الأرض. استمر يشمّ طريقه حتى وصل إلى بقعة من العشب، وعلى حين غرة انتصب الفراء على ظهره وكأنه ريش منفوش. ومَضت عيناه استغرابا وفرحا، بينما بقي يشمّ العشب كما لو أنه أراد أن يدفن رأسه فيه. ومن ثم نظر إلى أعلى وأخذ يعوي باتّجاه الشمس الغاربة. كان عواء مشوبا بالحزن، ونواحا كئيبا، وليس ذلك العواء المشحون باللهفة والسعادة الذي اعتاد أن يصدره في الماضي. ربما كان يشكي إلى أبناء جلده من حياته في السجن، هكذا ساورت شن الظنون.

صار إيرلانغ وأصفر يشمّان العشب أيضا، وانتصبت شعيرات ظهريهما. فيما كانا ينبشان التراب وينبحان بأصوات مسعورة، تبين لشن أن الجرو والكلبين قد اكتشفت رائحة بول ذئاب. حرّك العشب بحذائه. كانت هناك العديد من سيقان العشب قد تلطخت بلون أصفر عند القاع. فاحت رائحة لاذعة سرعان ما انقضّت على أنفه، مما جعل أعصابه تتوتّر؛ هذا كان بولا جديدا، مما يعني أن الذئاب ما زالت قريبة في مكان ما حول المخيم.

دثرت الشمس الغاربة أرض المنحدر بظلال قاتمة. هبّت رياح رقيقة فوق العشب المتماوج، مما جعله يبدو مشابها لظهور قطعان من الذئاب. ارتعش شن، خائفا من وجود كمين ما. في ذلك الوقت تماما رفع الجرو قائمته ليبول.

من الواضح أن الذئبة الأم كانت قد فقدت جروها، لكنه الآن تعلم كيف يبعث لها برسالة. لو أنه استطاع الاتصال بها لحصلت نتائج غير قابلة للتصور. ومن دون أن ينتظر شن ليفكّر للحظة واحدة، سحب الجرو إلى الوراء. وبعد أن قُطعت عليه رغبته وخطّته للعثور على أمه، تابع الجرو التحديق وهو جاثم على الأرض قبل أن يندفع ويثب في وجه شن مثل حيوان متوحّش حقيقي.

تراجع شن بعيدا على نحو فطري، لكنه تعثّر وسقط قرب بقعة من العشب. عضّ الجرو بوحشية على ربلة ساق شن. صرخ شن فيما شعر بألم حارق وذعر يسري في جسده. كانت الأنياب قد اخترقت سرواله وانغرست في لحمه. انتفض على الفور، وسحب عصاه ملوحا بها إزاء خطم الجرو. لكن الجرو كان قد أضحى متوحّشا؛ رفض التزحزح من مكانه، وكأن الشيء الوحيد الذي كان من شأنه أن يرضيه هو نهش قضمة من ساق شن.

أصيب الكلبان بالذهول، لكنهما ما لبثا أن انتفضا واستردا نشاطهما. تشبّث أصفر برقبة الجرو وحاول أن يجره، بينما نبح إيرلانغ بصوت مسعور في وجهه. أدى النباح الصاعق أخيرا إلى هزّ كيان الجرو وجعله يتخلى عن تصميمه.

كاد شن أن ينهار من هول الصدمة. رأى دماءه تلطخ أنياب الجرو الصغيرة. كان إيرلانغ وأصفر لا يزالان يكبحان حركة الذئب الصغير، لذا أمسكه شن من رقبته وحمله بعزم بين ذراعيه، بينما استمر الجرو بالصراع والزمجرة، وقد توهّجت عيناه، وكشّر عن أنيابه.

صرخ شن في الكلبين حتى توقفا عن النباح. وتوقّف الجرو عن النزاع أيضا. عندما أرخى شن قبضته، انتفض الجرو من بين يديه وتراجع بعيدا، كان يحدّق إلى شن بصرامة، بينما بقي شعر ظهره منتصبا. شعر شن بالغضب والذعر في آن واحد. "ذئب صغير"، قال وهو يستردّ أنفاسه بصعوبة، "هل أصابك العمى؟ كيف تجرؤ على أن تعضّني؟"، وأخيرا أدى الصوت المألوف إلى جعل الجرو يتراجع عن جنونه البهيمي. دفع برأسه إلى الأمام ليتمعّن في الرجل الواقف قبالته، وكأنه عاد بشكل بطيء يتعرّف إلى شن. لكن لم يكن ثمة تلميح بالاعتذار في عينيه.

كان جرح شن ينزف، نزت الدماء وتسربت إلى داخل حذائه. قرفص ليتحسّس قدميه، ودسّ عصاه بقوة داخل حفرة أحد القوارض، ثم أدخل الحلقة المعدنية للسلسلة عبر هذا العمود المؤقت. شعر بالخوف من أن يعطي منظر الدم للجرو أي فكرة غير صحيحة، تقدّم بضع خطوات واستدار حول نفسه قبل أن يجلس على الأرض ليخلع حذاءه ويطوي ساق سرواله. كانت هناك أربعة ثقوب ضئيلة في ربلة ساقه. من حسن حظه كان نسيج السروال شبيها بقماش القنّب، وقد خفّف معظم زخم العضّة، لذا لم تكن الجروح عميقة. ضغط شن على الجلد الذي حول الجروح ليُخرج منها دما نقيا ويتخلص من السموم، وهي حيلة كان قد تعلمها من الرعاة. بعد أن أخرج نحو نصف حقنة طبية من الدم، مزّق قطعة من قميصه، ولفها حول الجرح.

وقف شن ثانية، أمسك بالسلسلة، وأدار رأس الجرو باتجاه الخيمة. أشار إلى الدخان المتصاعد من الخيمة، وصاح: "ذئب صغير، ذئب صغير، حان وقت الطعام، وشرب القليل من الماء". كان قد استنتج مع يانغ أن تلك هي الطريقة الوحيدة لإقناع الجرو بالعودة بعد كل نزهة. عندما سمع جرو الذئب ذكر الطعام والماء، سال اللعاب من فمه، ونسي ما حدث للتوّ، سحب شن وراءه وعدا باتجاه الخيمة.

ركض الجرو مسرعا إلى وعاء طعامه، كان ينتظر طعامه وشرابه بلهفة شديدة، لذا أدخل شن الحلقة الحديدية في العمود وأغلق السدادة، ومن ثم قدّم إلى الجرو رقبة المرموط ونصف وعاء من الماء، فما كان منه إلاّ أن تجاهل الرقبة، ودسّ وجهه في وعاء الماء، وأخذ يبتلعه ابتلاعا. من أجل ضمان رجوع الجرو بإرادته كل مرة بعد جولة التريّض، كانا قد توقفا عن تقديم الماء إليه طوال اليوم قبل الخروج به. بعد أن يكون قد عدا حتى يتضور جوعا وعطشا، فقد اعتاد أن يجرهما للرجوع به لدى مجرد ذكر الماء.

دخل شن الخيمة للاعتناء بجرحه. ذهل غاو جيانزونغ من منظر الجروح بحيث أجبر شن أن يعطيه وعدا بالذهاب إلى الطبيب ليحصل على حقنة طبية للعلاج. لم يشأ شن المجازفة بأن تتعرض ساقه لالتهاب، لذا امتطى صهوة حصانه قاصدا خيمة الطلاب في القاطع الثالث، حيث

طلب من الطبيب حافي القدمين، بينغ الصغير، أن يحقنه بحقنة مضادة لداء الكلب، ويدهن ساقه بمـــرهم ما، ويربط الجروح بضمادات طبية، بينما توسّل إليه ألاّ يخبر أي شخص بشأن العضة، مقابل ذلك قال إنه سيسمح لبينغ بالاحتفاظ بكتاب كان قد استعاره منه وأن يعيره أيضا كتابين آخرين، وهما **سيرة حياة نابليون ورواية بلزاك**[1] (الأب غوريو).

وافق بينغ على ذلك، وبالرغم من أنه لم يكفّ عن التذمر. "لا تعطيني عيادة الفرقة سوى ثـــلاث أو أربع عبوات من المصل المضاد لداء الكلب في كل مرة"، قال. "حتى الآن استخدمت اثنتين منها لعلاج عمال كانوا قد تعرّضوا لعضّات من كلاب الرعاة، يجب أن أذهب إلى هناك في هذه الأيام الحارة".

استرضى شن الرجل، بالرغم من أنه لم يكن واعيا تماما لما تفوه به؛ كل ما كان يفكّر فيه الآن هو كيف يستطيع الإبقاء على الجرو. لقد عضّه أخيرا، ووفقا لقوانين السهوب فإن الكلب قد يُقتل إذا عضّ الخراف، وقد يواجه الضرب حتى الموت في مكانه إذا نهش إنسانا. أما في حالة جـــرو ذئب يعضّ إنسانا، فليس هناك من سبيل إلى الخلاص. لقد شكلت تربية ذئب حتى الآن خـــرقا *لقوانين الطبيعة*، وأصبح بقاؤه على قيد الحياة منذ الآن مهدّدا بالخطر. تغاضى شن عن الـــتفكير في جـــرحه، وعاد يمتطي صهوة حصانه، فيما كان يعمل ذهنه مفكرا في الأمر طوال الطريق إلى المخيم، تمنى لو استطاع أن يجد طريقة ينقذ بها الجرو.

هناك في الخيمة، سمع يانغ وغاو يتناقشان بشأن الطريقة التي يمكن لهما بها أن يتعاملوا مع جـــرو قد بدأ يعضّ الناس للتوّ. "يا له من حيوان!"، قال غاو صارخا. "إذا كان قد هاجم شن زن، فأي شخص يمكن أن يسلم منه؟ علينا أن نقتله. ما الذي يحصل إذا عضّ شخصا آخر؟ في الخـــريف، عندما ننتقل إلى المرعى الجديد، ستكون القواطع متباعدة عن بعضها بحيث لا أدري كـــيف يستطيع شخص ما الحصول على حقنة مضادة لداء الكلب. إن عضّة الذئب أسوأ من عضّة الكلب. يمكن للواحدة منها أن تقتل إنسانا".

قـــال يانغ كي بصوت خافت: "إنني خائف من أن الفرقة لن تعطينا المزيد من اللقاحات. إنهـــا غالـــية الثمن بحيث يحتفظون بها للناس الذين قد يتعرضون لعضّة ذئب أو كلب في مواقع العمـــل. مـــا أفكّر فيه هو أن علينا إطلاق سراح الجرو بأقصى سرعة ممكنة. وإلا فسيرسلون شخصا ما ليقتله".

– أنـــت تـــتكلم عن إطلاق سراح ذئب حتى الآن كان قد عض إنسانا. كيف يمكن أن تكون بهذا الغباء؟ لن ينجح ذلك، ليس الآن.

---

(1) أونـــوريه دي بلـــزاك: كاتـــب فرنسي شهير (1799–1850م) ألف سلسلة طويلة من الروايات بعنوان (الكومـــيديا الإنـــسانية) تصل إلى 90 رواية، سعى فيها إلى إعطاء صورة شاملة عن المجتمع المعاصر في فرنسا خصوصا وعرض جوانب الطبيعة البشرية كافة. (المترجم)

عـــرف شن ما الذي ينبغي له عمله. أطبق على أسنانه وقال: "لقد توصّلت إلى قرار. لن نقـــتله، ولن نطلق سراحه. إذا قتلناه الآن فستكون الجروح قد أصابتني عبثا، وستضيع جهودنا التي بذلناها خلال هذه الأشهر. وإن أطلقنا سراحه سيكون هذا بمثابة حكم بالإعدام. حتى إذا رجع إلى الذئاب فإنها ستعامله على أنه دخيل، أو ذئب خائن. كيف يستطيع البقاء معها إذا؟".

– "إذا، ما الذي سنفعله؟"، قال يانغ وهو ينظر نظرة مبهمة.

– كل ما يمكننا فعله الآن هو أن نُجري عملية جراحية للأنياب الصغيرة. نقطع الأطراف الحـــادة لها، وهي أقوى سلاح قاتل لدى الذئب. سيبقى قادرا على العضّ، لكنه لن يتسبّب في نـــــزيف، ولن تكون هناك حاجة إلى حقن مضادة لداء الكلب. يمكننا أن نقطّع له اللحم إلى قطع صغيرة ليأكلها.

هزّ يانغ رأسه. "ذلك شيء ممكن، لكنه حكم بالإعدام أيضا. الذئب بلا أنياب لا يستطيع البقاء حيا هنا".

– إنه الشيء الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه. على كل حال، أرى أنه علينا عدم التوقف هـــنا فقط لأنني تعرضت للعضّ وحسب. ربما تعاود الأطراف الحادة لأنيابه الصغيرة النموّ من جديد. في الوقت الحالي هي تشكل تهديدا لنا.

في صـــباح اليوم التالي قام شن ويانغ بإجراء العملية الجراحية للجرو قبل سوق خرافهما إلى المرعـــى. وبعد إعطاء الجرو الكثير من الطعام لإرضائه، أمسك به يانغ من مؤخرة رأسه وفتح فمه عنوة بإبهاميه. كان الجرو معتادا على مثل هذه الألاعيب، ولم يبالِ بهما كثيرا. بينما وقفا مواجهين للشمس، وألقيا نظرة فاحصة إلى داخل فم الجرو. كانت الأنياب شفافة إلى حدّ ما، والجذر يكاد يكـــون مـــرئيا. كان في وسعهما أن يدركا أنهما لن يُتلفا الجذور إذا شذبا الأطراف الحادة فقط. فيتمكن الجرو من المحافظة على أنيابه، التي قد تصبح حادة مجددا قبل مضي وقت طويل.

ترك شن الجرو يشمّ ويلعب بمقلمة الأظافر قليلا كي لا يخاف منها. بعدها فتح يانغ فمه بقوة، وسارع شن إلى تشذيب أطراف الأنياب بعناية، حيث قطع نحو ربع طول كل منها. لقد ظـــنّ أن تـــشذيب أنـــياب الجرو سيكون عملا صعبا مثل خلع أنياب نمر، لذا كانا قد استعدا لاحـــتمال ربط الجرو، ومصارعته خلال القيام بالجراحة الإجبارية. إلاّ أن العملية الجراحية لم تـــستغرق ســـوى أقـــل من دقيقة، من دون أن تسبب جروحا لأحدهما أو للجرو. لعق الجرو الـــسطوح المتكـــسرة، كان يبدو أنه غير مدرك لما خسره. وضعاه على الأرض برفق. أرادا أن يقدّما إليه شيئا طيبا ليلتهمه، لكنهما قررا ألاّ يفعلا ذلك خوفا من إيذائه.

الآن تنفس شن الصعداء، لم يعد يساوره القلق من أن يعضّ الجرو شخصا ما. ولكن بعد أيام قليلة ساورهما الحزن نتيجة ما أقدما عليه. "إن تشذيب أنياب ذئب هو عمل أشد قسوة من إخصاء رجل"، قال يانغ معلقا.

كان شن قد تساءل: "هل ابتعدنا كثيرا عن غرضنا الأصلي من وراء تربية جرو ذئب؟".

شـــعرا أيضا بالندم على إعطاء الكتب إلى بينغ الصغير. فمن بين المئة طالب أو نحو ذلك الموجودين في الفرقة، كانا هما الوحيدين اللذين أحضرا معهما رزما من الكتب الكلاسيكية التي أديـــنت بوصفها *إقطاعية، ورأسمالية، وتعديلية*. بعد انصرام أول سنتين عاصفتين، كان الضّجر والملـــل قد استبدّا بالطلاب حتى دفعاهم إلى التهام الكتب الممنوعة التهاما بشكل سري للغاية. حينما تجري استعارة أحد الكتب يكون هناك أمل ضئيل جدا في استرجاعه. لكن لم يكن أمام شن خيار آخر. كان باو شنغوي بالتأكيد سيقتل الجرو حالما يسمع عما حصل من أفواه الرعاة. ومـــثلما اتضح لاحقا، كانت الأعمال الكلاسيكية قد أدت الغرض منها؛ مضت مدة طويلة لم يسمع فيها أحد في الفرقة أن شن زن قد عضّه جرو الذئب الذي يربّيه.

28

ربما يُعتبر الجزء الشرقي من وسط منغوليا الداخلية بمثابة المنطقة التي تنتشر فيها أكبر حشود للبعوض من أي مكان آخر في العالم، إذ يجد البعوض هناك مساحات رحبة صالحة للسكنى فوق كثير من الأنهار والبحيرات، والعشب الطويل الكثيف، وفي أوكار المرموط التي يسبت فيها؛ حيث يعيش البعوض على إمدادات لانهاية لها من الدماء، سواء أكانت الباردة منها أو الحارة: دماء البشر، والماشية، والخراف، بالإضافة إلى فئران الحقول، والأرانب البرية، والثعابين، والمرموط، والغزلان المنغولية. كانت حشود البعوض مؤخّرا، التي أصابها السّعار نتيجة امتصاصها دماء الذئاب، قد تسبّبت في انهيار عصبي لطالب عمره ستة عشر عاما، حيث تم إرجاعه إلى بكين.

كان ذلك الصيف على وجه التحديد فصلا من فصول سنة تعِسة بسبب ضراوة هجمات البعوض.

بعد ظهيرة أحد الأيام، كان شن زن جالسا وقد لفّ حول مكان جلوسه ناموسيته الواقية المضادة للبعوض وهو منشغل بالقراءة. نهض فجأة، ووضع على وجهه قناعا شبيها بذلك الذي يضعه مربّو النّحل، التقط مقشّة ذباب مصنوعة من شعر حصان، ومضى خارج الخيمة محكمة الإغلاق ليرى ما الذي كان يفعله جرو الذئب. كان ذلك هو الوقت المحدّد من اليوم الذي يشن فيه البعوض أعتى الهجمات. مشى شن حتى وصل إلى بقعة صاخبة أكثر إثارة للرعب من صفارة إنذار تنبئ بحدوث غارة جوية.

يفتقر بعوض أولونبولاغ أصفر اللون وكبير الحجم إلى ذكاء الذئاب، فهو يهاجم من دون أدنى اكتراث لبقائه على قيد الحياة. إنه يلاحق أي مخلوق حالما يشمّ رائحته، ولا يهتمّ مطلقا للأعداد التي تموت منه بضربة قاتلة من ذيل حصان أو بقرة، ولا تجعلها الأعداد المسحوقة المبعثرة على الأرض لرفاقها إلاّ أن تستمر في سعيها وراء نشوة امتصاص الدماء.

كانت فتحة القناع الواقي لشن مغلقة تماما في وجه حشود البعوض. انتابه شعور بالذعر عندما رأى أن البعوض لم يكن يحتشد بأعداد كثيفة وحسب، لكنه ظهر أكبر حجما من المعتاد. لم تكن أجنحته تتوقف عن الحركة بسرعة كبيرة بحيث إن أجساده وحدها، التي هي بحجم روبيين صغيرين جدا، كانت قابلة للرؤية بالعين المجردة، وتصور شن نفسه فجأة وكأنه رجل غارق في بحيرة بينما كان ينظر إلى كميات هائلة من العوالق.

لم يكـــن حصان شن الأبيض المقيد يبدي اهتماما برعي العشب وهو واقف وسط حوض للسماد. وبما أن الحوض كان مليئا بروث الخراف، وفارغا من أي عشب، فقد وفّر له نوعا من الملجـــأ المؤقت ضدّ البعوض. كان يمنحه شيئا من الحماية، لكنها ليست كافية، لأن الحشرات كانـــت قد غطت جلد الحصان بالكامل وكأنها طبقة من قشور الأرز. تنبّه الحصان إلى اقتراب شن منه، الذي سبقته حركات خفق شبيهة بحركة المروحة، واتجه نحوه ببطء شديد. سارع شن إلى رفع الأربطة عن الحصان، وقاده إلى عربة الثيران، حيث كانت هناك أعداد أقل من البعوض، وبعدها استبدل الأربطة. لم يتوقّف رأس الحصان عن الحركة إلى أعلى وأسفل، كان الذيل يلتف في الهـــواء بغـــضب بحركة دائرية حول بطنه، وقائمتيه الخلفيتين، وخاصرته، بينما شكّل فمه سلاحه الوحيد ضدّ الهجمات التي كانت تتوالى عليه من المقدمة. كانت هناك عشرات الآلاف من الحشرات التي جعلت الشعر متباعدا عن جلد الحصان وغرست إبرها الماصّة في لحمه. عندما كانـــت بطونها تمتلئ تماما، كانت تبدو له وكأنها أشجار السنفورينة الغربية[1] الصغيرة، لكنها حمـــراء اللون ولامعة. استمر الحصان يهز ويضرب بذيله بكل قوة، مما أدى إلى ظهور لطخات دامـــية في الأماكن التي لسعها الذيل، إلى أن ترطب ذيله بالدماء، والتصقت الشعيرات ببعضها بعـــضا، وانتصبت مثل خيوط البساط. سبب ذيله ميدان قتال مشبع بالدماء؛ وأضحى الحيوان الأبيض الآن يبدو وكأنه حصان اجتاز ممرا ضيقا يعجّ بذئاب متعطّشة للدّماء.

استخدم شن مقشّته للمساعدة على إبعاد البعوض عن صهوة الحصان وقائمتيه الأماميتين. عـــبر الحيوان عن امتنانه بانحناءة من رأسه. غير أن المزيد من البعوض تجمّع حولهما، موجة إثر موجة، ولم يعد في وسع حصان شن أن يحرّر نفسه منه.

تركـــزت أفكار شن على جرو الذئب، فترك الحصان وركض إلى الحظيرة، حيث وجد الحفـــرة مغمورة إلى نصفها بالماء، مما جعل من المستحيل على الجرو أن يختفي من البعوض. لم يوفّـــر له شعره الصيفي الخفيف إلاّ حماية ضئيلة ضدّ الإبر التي كانت تهاجمه، وصارت الأجزاء المكـــشوفة مـــن جلد خطمه، وأذنيه، وجفونه، ووجهه، ورأسه، وبطنه أهدافا سهلة لمثل هذه الصولات التي جعلت الذئب المسكين على شفير الجنون. بالنسبة إلى بعوض السهوب، ربما كان دم الـــذئب مادة منشّطة، ولهذا السبب واجه الجرو هجوم سحابة صفراء من الحشرات الطائرة. لم يكن للتدحرج والالتفاف على الأرض تأثير يذكر، فاضطر إلى الركض بجنون حول حظيرته، غير قادر حتى على إخراج لسانه عندما كان يصل إلى مرحلة الإنهاك؛ لو فتح فمه حتى ليتنفّس، لامـــتص الحشرات إلى داخل بلعومه. بعد لحظة، توقف عن الجري، التفّ حول نفسه مشكّلا جـــسده بـــشكل دائري ليصبح مثل كرة، بينما كانت قائمتاه الخلفيتان مطويتين تحته وقائمتاه الأماميتان تغطيان خطمه، ذهل شن عندما اكتشف أن الذئب الصغير، ذلك الطاغية على أرض

(1) السنفورينة الغربية: شجيرة تنمو في شمال أميركا. بيضاء الثمار. (المترجم)

الـــسهوب، يمكن أن ينتهي به الأمر إلى مثل هذا الوضع المخزي بسبب هجمات البعوض. ومع ذلك فقد كانت عينا الجرو مليئتين تماما بالحيوية، ونظرته لا تزال مفعمة بالغطرسة في اختراقها للبواطن وغير خانعة شأنها دائما.

قـــال بلغـــي ذات مرة لشن: "تأتي بعد أوبئة البعوض دائما أوبئة الذئاب، لأن الحشرات القاتلة تترك وراءها ذئابا مسعورة تتضور جوعا، ولذلك فإن البشر والمواشي التي لديهم يدفعون الـــثمن. كانـــت أكـــبر مصادر الرعب في السهوب ترتبط بالأوبئة، وخصوصا ما يتعلق منها بالبعوض والذئاب". كان قد جثم شعور بالخوف فوق صدور الفرقة بكاملها.

لقد بدا واضحا أن الجرو كان يتعرّض للنهش، ولكن لم يبدُ عليه أنه قد فقد شيئا من وزنه. استمرّت هجمات البعوض ليلَ نهارَ، إلاّ أنه بقي يعدو حول حظيرته حتى أكثر مما اعتاد عليه. بعد أن واجهـــه بلاء البعوض بصخبه وعنفه، كانت طبيعته العنيدة قد سارعت إلى الصمود، ولم تجعله يـــصاب بالانهيار؛ ولم تتقلّص شهيته حتى ولو بمقدار ضئيل. لقد اكتنـــز الذئب الصغير في الواقع لحمـــا كـــثيرا في خـــضمّ ذلك الفصل المليء بالأوبئة. ودأب شن على رعايته مثل أب أو عاشق خرف. ما دام يوجد دائما لحم للأكل وماء للشرب، فالجرو يستطيع تحمل أي شيء.

لكـــن الآن، وبلا سابق إنذار، بدأ الجرو يقفز في إرجاء المكان كما لو أنه قد أصيب بمسّ مـــن الجنون. كانت إحدى البعوضات قد استطاعت التسلل من تحت بطنه، وغرست إبرتها في عـــضوه الذكـــري الصغير. لم يترك له الألم المبرح خيارا سوى التوقف عن محاولة التملص من مهاجمـــة البعوض، وأن يرفع قائمته الخلفية كي يحك بأنيابه الصغيرة. في اللحظة التي فعل فيها ذلك، هجمت المئات من البعوض على بطنه وغرست فيها إبرها مما سبب له ألما لا يطاق وصار يتلوّى من العذاب.

ترك شن الجرو لعذاباته، وأمسك بمنجله، ألقى السلة المصنوعة من أغصان الصفصاف على ظهـــره، وركض باتجاه مجرى مائي في جهة الغرب حيث تنمو زنابق الوادي. في السنة السابقة، حـــين كانـــت أعـــداد البعوض أقل بكثير، كان قد ذهب إلى هناك مع غاسماي لقطف زنابق الـــوادي. بعـــد وقت قصير من الانتقال إلى أرض الرعي الجديدة، كانت الأمطار قد هطلت، وخـــرج شن ليحدّد الأماكن التي تنمو فيها زنابق الوادي بوفرة أكثر من غيرها. بالرغم من أن الأمطـــار قد تسببت بانتشار بلاء البعوض، إلاّ أنها أيضا كانت قد ساعدت على نمو مساحات واســـعة من زنابق الوادي، وفي الوقت الذي بلغت فيه الحشرات الماصّة للدماء ذروة نشاطها، كانـــت الـــرائحة العطرة لتلك الأعشاب الطبيّة قد ملأت الهواء. نظر شن إلى الأعلى نحو تينغر وقال: "هذا النبات هو الذي يجعل بقاء البشر على السهوب أمرا ممكنا".

لم تكـــن هناك نسمة من الرياح تنساب على المجرى المائي الذي يحيط به العشب، وأصبح قمـــيص شن القطني السميك منقوعا بالعرق. كانت حشود من البعوض قد غرست إبرها حتى

منتـــصفها في النسيج السميك، و لم يستطع شن حتى أن يزيحها عنه؛ تحوّل القميص إلى وسادة تغـــرس فـــيها الحشرات الطائرة دبابيسها. لم يكن لديه وقت للقلق بشأن ذلك؛ تركها تموت هناك، وتصلّب على خازوق قميصه. لكنه شعر في ذلك الوقت بألم لاسع وكأنه طعنة بسكين حادة على كتفه؛ لطم البقعة وسحب يده ليجدها قد تلطخت بالدماء.

دخـــل شـــن البقعة التي كانت تنتشر فيها زنابق الوادي، حيث انخفضت أعداد البعوض بشكل مثير للاستغراب. لقد نمت النباتات، بسيقانها ذات الألوان الرمادية – الزرقاء – البيضاء، على الأقل إلى ارتفاع يبلغ ثلاث أقدام؛ أما الأوراق فكانت لها سطوح ريانة مزغبة. هناك رأى ذلـــك النـــبات الطبـــــي مـــرّ المذاق، زنابق الوادي التي لم تمسّها أي من الأبقار، والخراف، والأحـــصنة، ولـــذلك فقـــد نمت بمثل هذه الوفرة. حالما رأى النباتات طويلة السيقان تباطأت حـــركته، وأمسك منجله بإحكام، وانحنى بحذر وكأنه يتخذ وضعيّة تأهّب للمعركة. كان هو والطلاب الآخرون من بكين قد تلقّوا تحذيرا من قبل الرعاة كبار السن من أنه ينبغي لهم توخّي الحذر بشكل خاص عندما يشاهدون زنابق الوادي من حولهم خلال خروجهم لرعي خرافهم؛ ولأن هناك لا يوجد إلاّ القليل من البعوض، فكثيرا ما تختبئ الذئاب داخل هذه الأجمات، حيث تـــتلوى حول نفسها على الأرض وتسحق النباتات بأجسادها كي تغطي فراءها بتلك الرائحة اللاذعة، وهي مادة طبيعية طاردة للبعوض.

لم يجـــرؤ شـــن على المجازفة بالاقتراب كثيرا من الأجمة من دون وجود الكلاب برفقته، توقف وصاح مرتين. لم يلاحظ أي حركة. انتظر بضع دقائق، ثم مشى ببطء مقتربا من إحدى الأجمـــات، حتى أصبح وسط النباتات، حيث شعر وكأنه وصل بر الأمان. نظر إلى أكثف بقعة كان في وسعه رؤيتها، وبدأ يقطف زنابق الوادي كالمجنون، حيث تلطخ منجله باللون الأخضر، وتـــشبّع الهـــواء من حوله بالرائحة الطبية النفاذة. تنفس بعمق، كما لو أنه أراد أن يملأ أعماقه بالرائحة.

بعد أن ملأ سلته بزنابق الوادي التي قطفها، توجّه شن عائدا إلى المخيم، كان يركض تقريبا، واستمرّ طوال الطريق يتنشّق حفنة من تلك الزنابق، ويضغطها حتى يستخرج منها العصير، ويفرك به ظهر يده. ومثلما توقّع، فقد اجتذب الجلد المكشوف أعدادا قليلة جدا من البعوض.

حالما عاد إلى خيمته، ألقم النيران المضطرمة في الموقد بروث بقر مجفف، ثم أسرع إلى الخارج ليُحضر سبعة أو ثمانية أحواض ماء متكسّرة، ملأها بالنباتات الموجودة في سلة الصفصاف. اختار أكبر حوض من بينها، ووضع فيه بعضا من قطع الروث المشتعلة، وغطاها بزنابق الوادي. فتصاعد من الحوض دخان كثيف أبيض مشوب برائحة زنابق الوادي على الفور.

حمل شن الحوض إلى طرف حظيرة الجرو، ووضعه باتجاه الريح، وبقي يراقب بينما كانت النـــسمات تنشر الدخان فوق الحظيرة. تُعدّ زنابق الوادي أعتى الأعداء بالنسبة إلى البعوض؛ إنه

يتراجع عند أول نفحة من عطرها حتى إذا كان في ذلك الوقت يمتصّ الدم من إحدى ضحاياه. لم يستغرق الأمر إلاّ لحظة واحدة فقط حتى أصبح النصف الأكبر من الحظيرة خاليا من البعوض.

لقـــد أتـــت زنابق الوادي لنجدة الجرو، لكن الشّرر المتطاير من الرّوث المشتعل والدخان جعلاه يرتعش خوفا. وثب وقد ظهرت في عينيه نظرة مرتعبة، وجرى بعيدا عن الحوض بقدر ما أتاحـــت له السلسلة، حيث استمر بالنـــزاع. مثله مثل جميع الحيوانات في البراري، كان الجرو يخاف إلى حدّ الموت من النار والدخان. عرف شن أن هذا الخوف كان قد انتقل جيلا بعد جيل عن أسلاف الجرو. أضاف المزيد من زنابق الوادي إلى النار، وهز الحوض ليغمر الذئب الصغير بالدخان. كان عليه أن يدرّب الجرو كي يتكيّف مع العلاج بالدخان، لأنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بوساطتها أن ينجو من بلاء البعوض المهول. هناك في البراري، يمكن لأمه أن تقوده إلى أعالي الجبل لغرض الوصول إلى أجمة زنابق الوادي والتخلص من البعوض. لكن في هذا المخيم، كان شن مضطرا إلى أن يؤدّي دوره كأب بديل، ويبعد البعوض عنه بالدخان.

استمر الدخان يتصاعد وجرو الذئب يكافح للخلاص، حتى كاد أن يخنق نفسه. لكن شن رفـــض السماح لنفسه بأن تتأثر بذلك؛ تابع إضافة المزيد من النباتات إلى النار. وفي نهاية الأمر توقف الجرو عن الصراع، كان منهكا مستنفد القوى، وأجبر على الوقوف وسط الدخان وهو يـــرتعش. وبالرغم من أنه كان خائفا من الدخان، إلاّ أنه بدا أكثر استرخاء الآن بعد أن رحل البعوض. وحين شعر بغرابة ذلك الوضع، نظر من حوله، ثم خفض رأسه ليتفحص بطنه. كانت الحشرات الصغيرة المهاجمة التي ما فتأت تنخسه هناك، وجعلته يقفز مرارا في الهواء، قد اختفت هي الأخرى. ولاحت نظرة في عينيه، امتزجت فيها الحيرة والمرح فيما تصاعدت وتيرة عزيمته.

تتابع الدخان متصاعدا في دوامات زحفت بهدوء باتجاه الجرو، الذي انكمش جسده عندما رآه؛ وحـــين تطايرت بضع شرارات من الحوض، كاد أن يطير تقريبا إلى بقعة بعيدة قدر الإمكان عـــن الدخان. لكن كل ما كان ينتظره هناك هو حشد من البعوض الذي طوقه من كل جانب، وهاجمه بلا رحمة. لم تُجد نفعا تغطيته لوجهه في مثل هذا الموقف، بدأ يجري حول الحوض بجنون مـــرة أخـــرى. فيما تباطأت سرعته بعد عشر دورات أو نحو ذلك، بدا فجأة وكأنه قد استوعب حقيقة وجود عدد أقل من البعوض في بعض الأماكن مقارنة بغيرها، وأن تلك الأماكن هي تلك التي تغطيها سحب الدخان. حدّق بعينين مفتوحتين على اتساعهما وكأنهما لا تصدقان ما تريانه من تأثير الدخان الأبيض، لكنه سرعان ما أمضى المزيد من الوقت داخله أكثر مما أمضاه خارجه. عمل الجرو الصغير الذكي على تسريع مسار أفكاره لتحليل ما كان يحدث من حوله. ومع ذلك، لم يتلاشَ خوفه من الدخان، وتخبّط بين اللجوء إلى الدخان والابتعاد عنه.

اكتـــشفت الكلاب التي كانت تستلقي تحت عربة الثيران الدخان بسرعة. تعرف كلاب السهوب جميعها فضائل الدخان الأبيض. توهّجت نظرات اهتمام في عيونها وهي تقود الكلاب

الصغيرة بتلهف متّجهة بها إلى المكان الآمن الذي يغطّيه الدخان؛ الآن بعد أن ابتعد البعوض عن أجسادها، احتلت مواضع كان فيها الدخان كثيفا لدرجة كافية، لكنه لم يكن خانقا، وتمدّدت بارتـياح، اسـتمتعت بالكامـل بفرصة أتيحت لها لتتمكن أخيرا من النوم. كانت هذه أولى المـواجهات بالنـسبة إلى الكـلاب الصغيرة لتدرك فوائد دخان زنابق الوادي. حيث لحقت بالكلاب الكبيرة إلى داخل الفسحة المغطاة بالدخان وهي ترفل بالابتهاج؛ وجدت هي الأخرى بقعـا استلقت فيها وخلدت للراحة. احتلّت ستة من الكلاب المنطقة المحظورة التي تضمّ حظيرة الجرو واستلقت هناك، مما شكّل منظرا بدا أنه قد أثار استغراب الجرو.

ظهـرت الـسعادة جلية في عينيه وهو ينظر شزرا، فتح فمه، وارتفع ذيله عاليا. كثيرا ما حاول استدراج الكلاب لتلعب وإياه، لكنها كانت تتجاهله باستمرار. غير أنها في هذا اليوم قد جاءت من دون دعوة منه، بما فيها يير، تلك الكلبة التي كانت تكره الجرو، وشعر الجرو بالإثارة أكثـر ممـا كان سيشعر بها لو قُدّمت إليه ستة فئران سمينة. نسي خوفه على الفور وهو يندفع مقـتحما سحابة الدخان، ووثب على ظهر إيرلانغ، ثم تدحرج هناك على الأرض برفقة الجراء الإنـاث. الآن أضـحى الذئب المنعزل يشكل فردا ضمن عائلة سعيدة. أخذ يشمها، ويقبلها، ويلعقها مرة بعد الأخرى. فكّر شن وهو يتأمل المشهد، سيكون من الصعوبة العثور على ذئب أكثر سعادة منه.

مع وجود جميع الكلاب وجرو ذئب وحيد، بدأت الكمية المحدودة من الدخان تفقد شيئا مـن تأثيرها وكان *سيّد* الحظيرة كريم النفس قد أُقصيَ بعيدا من قبل زائريه من ذوات الأنياب التي اقتحمت عليه مقاطعته الخاصة. حاول الرجوع إلى الداخل، لكن الجراء الذكور سدّت عليه الطريق. بدا واضحا أنه كان يعاني من الإرباك، وتحمّل هجمات البعوض فيما حاول جاهدا أن يستنتج مغزى سلوك الكلاب. بعدها ببضع لحظات سطع نور البصيرة في عينيه. تبدّدت نظراته المـستفهمة. لقـد أدرك حينها أن الكلاب لم تأتِ إليه لترافقه في اللعب، ولكن أتت من أجل الاختـباء في مكان آمن مشبع بالدخان الأبيض، الدخان الذي خاف منه بداية لكنه كان يغمر منطقة مريحة لا تجرؤ أن تقتحمها أيّ من حشرات البعوض اللعينة. وهو مكان خاص به. للمرة الأولى في حـياة الـذئب الصغير واجه أسوأ المواقف، مما جعله يغضب. هجم مقتحما سحابة الـدخان، وقد تأهبت براثنه وبرزت أنيابه، وذلك ليطرد الجراء إلى خارج منطقته. تحدّاه واحد مـنها رافـضا أن يتزحزح من مكانه فسحبه بعيدا عن الدخان من أذنه، وتراجع وهو يصرخ متألما. عاد الجرو ليحتل منطقته، حيث كان الدخان كثيفا لدرجة كافية لإبعاد البعوض، ولكن لـيس لجعله يختنق، واستلقى على الأرض ليستمتع بالراحة التي وفرها له الخلاص من البعوض. أبقى الجرو، الذي تطوّر فضوله وحاجته إلى الوصول إلى بواطن الأشياء إلى حدّ كبير، عينه على الحوض، كان منبهرا من الطريقة التي ينبعث فيها الدخان إلى الأعلى.

سمع شن صوت حوافر أحصنة تقترب. كان حصانه هو الآخر يبحث عن ملجأ آمن تحت مظلـــة الدخان البيضاء. أسرع شن إليه، رفع عنه الأربطة، وقاده إلى الطرف البعيد من حظيرة الـــذئب، ومـــن ثم استبدل الأربطة. طارت طبقة الحشرات السميكة *قشور الأرز* نحو الأعلى، وصهل الحصان الأبيض بشدة، خفض رأسه، وخلد إلى النوم، بينما ظلت عيناه شبه مفتوحتين.

في خـــضمّ بلاء البعوض المروّع، كان حوض زنابق الوادي يبدو وكأنه قد احتوى على كمـــيّة مـــن الفحـــم في زمهرير عاصفة ثلجية أنقذت جرو ذئب، وحصانا كبيرا، وستة من الكلاب. تلك المخلوقات الثمانية جميعها هي الحيوانات المفضلة لدى شن، وشعر بالارتياح من فكرة أنه استطاع المجيء لنجدتها عندما كانت بحاجة ماسة إليه.

اضطرمت نيران زنابق الوادي في كل مخيمات الفرقة تلك الليلة، كانت هناك المئات منها ترســـل دخانـــا كثيفا شوهد على ضوء القمر، وقد أحدث ما يشبه صورة تنين عملاق يتلوى ويرقص في الهواء. كما لو أن السهوب البدائية كانت على حين غرة قد دخلت عصر الصناعة، فانتـــشرت على ربوعها مداخن المصانع التي تنفث دخانا أبيض شكّل بانوراما مذهلة. لم يكبح الدخان هجمات البعوض المسعورة وحسب، وإنما كان له تأثير رهيب على الذئاب التي كانت تتضور جوعا خلال ذلك البلاء.

في وقت ما قبل انبلاج ضوء الفجر، رأى شن أن بعض المخيّمات البعيدة قد توقّفت عن إحـــراق زنابـــق الـــوادي. بعد ذلك سمع صيحات النساء اللواتي تولّين واجب الحراسة الليلية، وأصـــوات طـــلاب بكـــين وهم يسوقون الخراف عائدين بها إلى حظائرها. إما أن يكونوا قد استخدموا كل ما لديهم من زنابق الوادي، أو أن شخصا ما كان يكتنـــز *فطائر* أبقاره المجففة الثمينة ولا يريد التفريط بها.

ازدادت حـــشود الـــبعوض كثافة، وغدت الحركات التي دبّت في وسطها أكثر نشاطا، كانـــت تئز بصوت أعلى. لم يعد يسود السلام في نصف مخيمات الفرقة، حيث تصاعد صياح البـــشر ونـــباح الكلاب في جوف الليل، كانت خلال ذلك الوقت المزيد من أضواء المصابيح الكاشفة تلوح في الظلام.

فجأة بدّدت هدوء الليل طلقتان ناريتان، وغطس قلب شن زن في أعماقه. لقد داهم قطيع الـــذئاب المكـــان مـــن جديد. بعد أن تحمّلت الذئاب معاناة غير قابلة للتخيل بسبب عضّات البعوض، كانت قد اكتشفت إحدى الثغرات. تنهّد شن فيما كان يتساءل: تُرى على رأس من وقعت هذه الكارثة! وفي الوقت نفسه كان قد ارتاح إلى فكرة راودته؛ إن انبهاره بالذئاب قد انتهى بنتيجة لصالحه. كلما فهم المرء الذئاب أكثر كلّما كان أقل عرضة لكارثة.

عـــاد الـــسكون إلى السهوب بعد فترة من الزمن. وقبل وقت قصير من شروق الشمس، بدأت قطرات الندى تتجمّع، رطّبت أجنحة البعوض وجعلته يهبط على الأرض. كانت النيران

قد خفُتت تدريجيا، لكن الكلاب بقيت حذرة كعادها دائما، وتابعت جولاها لتتأكد من أن كل شيء كان يجري على ما يرام. لا بدّ من أن الوقت قد حان تقريبا للنساء لأن يخرجن لحلب الأبقار، خمّن شن، مما يعني أن قطيع الذئاب قد تراجع. غطّى رأسه بزوج من سترات الفراء الخفيفة وسرعان ما خلد إلى النوم، تلك كانت المرة الأولى التي استمتع فيها بنوم حقيقي خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية. نام نحو أربع ساعات نوما عميقا.

* * *

كان اليوم التالي مشحونا بالكثير من الألم بالنسبة إلى شن وهو يرعى خرافه على الجبل. فقبل الغروب بقليل، عندما ساق قطيع الخراف عائدا به إلى المخيم، شعر كأن هناك ممسحة أرجل فُرشت للترحيب به: هناك، وجد جلدي خروفين كبيرين مفروشين على سقف الخيمة؛ كان جرو الذئب وجميع الكلاب تستمتع بمرح بالتهام لحم الضأن والعظام الكبيرة. دخل الخيمة ليرى شرائح من لحم وضعت على الرف بدلا من أواني وأدوات المطبخ، وعُلّقت على جوانب الخيمة كافة. ورأى قدرا مليئة باللحم تغلي على الموقد.

– "تعرض قطيع أولوندن الذي في الشمال لهجوم في الليلة الماضية"، أخبره يانغ. "مثله مثل دورجي، فإن أولوندن منغولي من شمال شرق الصين وقد جاء إلى السهوب منذ سنوات طويلة. كانت عروس جديدة تنحدر من منطقة نصف زراعية ونصف بدوية قد انضمت لتوّها إلى العائلة، وهي ما زالت معتادة على النوم ملء جفنيها ليلا. بعد أن أشعلت نيرانا في بضعة أماكن، استلقت ونامت قريبا من القطيع. حسنا، لقد انطفأت النيران، وذهبت الخراف بعيدا مع الريح. اعترضت الخراف بعض الذئاب التي قتلت مئة وثمانين خروفا منها، وجرحت أعدادا قليلة. لحسن الحظ، كان نباح الكلاب مسموعا لدرجة كافية لإيقاظ الناس الذين كانوا في الخيم. حمل الرجال بنادقهم وامتطوا صهوات أحصنتهم، مما جعل الذئاب تهرب خوفا من أصوات البنادق. لو كانوا قد تأخروا قليلا لتعرض القطيع بأكمله للهلاك، ولما بقي الكثير من الخراف على قيد الحياة".

– "كان باو شنغوي وبلغي مشغولين طوال اليوم"، قال غاو جيانزونغ، "حيث جمعا ما استطاعا من الرجال وطلبا منهم جميعا القيام بسلخ جلود الخراف الميتة وإخراج أحشائها. لقد تم نقل نصفها إلى البلدة لتباع بأسعار زهيدة للموظفين والعمال؛ أما ما تبقى منها فقد وزّع علينا جميعا في الفرقة، حيث أعطي خروفان لكل خيمة مجانا، لكن ينبغي إعادة الجلدين. جلبنا معنا خروفين كبيرين، واحد منهما كان ميتا، والآخر كان لا يزال حيا. لا أعرف كيف يمكننا الاحتفاظ بهذه الكمية من اللحم في مثل هذا الجو الحار".

كان شن زن صامتا، شعر بسعادة غامرة. "هل سبق لكم أن سمعتم عن شخص يربي جرو ذئب قد اشتكى من كثرة اللحم؟"، بعدها سأل: "كيف سيعاقب باو شنغوي تلك العائلة؟".

- عليهم أن يدفعوا الثمن. ستُستقطع نصف أجورهم كل شهر حتى يعلن باو أنهم قد دفعوا ما يكفي. كانت غاسماي وجميع نساء الفرقة الأخريات قد وجّهن اللوم إلى ذلك الزوج المغفل وأمه على تركهما عروسا جديدة أتت من خارج المنطقة لتتولى الحراسة ليلا خلال بلاء البعوض. عندما أتينا للمرة الأولى إلى هنا، كانت غاسماي والأخريات يخرجن معنا ليلا لمدة شهرين قبل أن نتركهن يقمن بمهمة الحراسة بمفردهن. لقد عنّف باو هو الآخر الزوج وأمه بشدة، وأخبرهما أنهما قد جلبا العار لجميع المنغوليين من منشوريا. لكنه حرص على أن يستفيد العمال الذين من بلدته الأصلية من نتائج الكارثة، وذلك من خلال إعطاء ثلث الخراف الميتة إلى وانغ العجوز، الأمر الذي بعث البهجة في نفوس أبناء بلدته.

- "تلك الزّمرة من الناس قد استفادت حقّا من هجوم الذئاب"، قال شن.

فتح غاو جيانزونغ زجاجة من الشراب المحلي للسهوب. "إن تناول اللحم الذي وهبته لنا الذئاب"، ترنم منشدا بصوت مرتفع، "سيجعل مذاق هذا الشراب لذيذا على نحو مميّز! تعالوا، يا شباب، اشربوا فيما نحن نتناول الوليمة".

راق ذلك ليانغ كي، الذي قال وهو يضحك: "أعتقد أنني سأطهي وأضع في القدر! الجميع كانوا ينتظرون رؤية ما قد يحصل لنا نتيجة قيامنا بتربية جرو ذئب. ما الذي حدث بالتالي؟ ينبغي لنا أن نضحك من شخص آخر. إنهم لا يعرفون حقيقة الأمر، لكن الذئب يمكن أن يعلم الناس دروسا، ليس فقط في الطريقة التي يسرق فيها المرء دجاجة وحسب، ولكن أيضا كيف تحتفظ بالأرز الذي استخدمته في إغرائها".

جعلهم ذلك جميعا يضحكون.

استلقى الجرو داخل الحوض الذي يلتهم فيه الطعام، كان مُتخما بحيث لم يعد في وسعه الحراك. لكن شن لاحظ كيف كانت عيناه تحرسان اللحم المتبقي داخل الحوض؛ وكأنه حيوان متوحّش يحرس فريسته. تلك كانت، على نحو ما، وجبة طعام وفّرها له أبناء سلالته من الذئاب باعتبارها إغاثة ما بعد الكارثة، هكذا تصوّر شن بمرارة وسخرية.

29

تطلّب الأمر من باتو وزانغ جيوان يومين كاملين، وفي أثناء ذلك كان كل منهما قد استبدلا الأحصنة أربع مرات، كي يسوقان قطيع أحصنتهم إلى قمة أحد الجبال التي تقع شمال غرب المرعى الجديد. إذا أُخذت الرياح القوية بعين الاعتبار، لم تكن ثمة حاجة إلى القلق من أن تتقهقر الأحصنة، وتعود إلى الوراء لتعدو في مهب الريح. كان الرجلان منهكين للغاية إلى حدّ أنهما كانا يشعران أن سيقانهما قد التصقت بالسرجين، و لم يكونا واثقين من أنهما يستطيعان حتى الترجّل عنهما. لكن بعد استنشاق أنفاس عميقة عدة مرات، تمكّنا من التدحرج عن سرجيهما، والاستلقاء بلا حراك على الأرض. فتحا مئزريهما عند موضع الرقبة للسماح لهواء الجبل البارد بالتسلل، وتجفيف صدريهما المتصبّبين عرقا.

هبّت رياح من الجهة الشمالية الغربية؛ كانت البحيرة تمتد في الوسط من السهول الجنوبية الشرقية، حيث انتشر القطيع على قمة الجبل المعتدلة في استدارتها. انطلقت الأحصنة تعدو على الفور، وقد فضّلت الغطس في الماء على الركض مع الرياح لتخليص أجسادها من البعوض الذي يمتصّ دماءها، فاتجهت نحو بحيرة البط البري، وسحقت الآلاف من حوافر الأحصنة الأرض مما جعل حشود البعوض تتطاير خارج الأعشاب الطويلة؛ هبطت هذه الحشرات الجديدة، والتي كانت جائعة جدا، على جلود الحيوانات التي كان العرق يغطيها وهي تعدو، نهشتها بوحشيّة حتى إن الحيوانات المرتعبة، في أثناء محاولاتها إبعاد الحشرات المهاجمة باستخدام حوافرها وأسنانها، كانت تتعثر وتسقط فوق بعضها بعضا بجنون.

بعد أن مضى قطيعهما متجها إلى أسفل الجبل، خلُد باتو وزانغ إلى النوم، حتى إنهما لم يزرّرا ياقة مئزريهما. اكتشف البعوض تلك الفتحات فهاجم رقبتي الرجلين، ولكن حتى إبره اللاسعة لم توقظهما.

خلال اندفاعه الجنوني نحو بحيرة البط البري، جرّ قطيع الأحصنة معه حشودا من البعوض وكأنها معطف ترابيّ. كادت دماؤها أن تجفّ تقريبا من كثرة ما امتصّ منها البعوض، لكنها كانت ظمآنة لدرجة أن أي قطرات عرق لم تكن تنزّ من مسامها. وثبت إلى داخل الماء، كانت يائسة إلى حدّ جعلها، بدلا من أن تغسل البعوض الذي على جلودها، أن تبادر فورا إلى إرواء ضمئها، ونسيت حتى أن تشقّ طريقها نحو المياه العميقة. قتل الماء البارد البعوض وأوقف لسعاتها؛ وصهلت الأحصنة تعبيرا عن ابتهاجها نافضة

الحــشرات الميــتة عــن أجسادها، والتي غطّت سطح البحيرة حتى بدت وكأنها طبقة من القشور.

استيقظ الرجلان وتنبهت الأحصنة في الوقت ذاته تقريبا. لم يكن أيّ منهما قد تناول شيئا مــن الطعــام لأيام عديدة، لذا امتطى باتو وزانغ صهوتي حصانيهما وتوجّها إلى أقرب خيمة، حيث ارتشفا أكبر قدر ممكن من الشاي واللبن المختر الذي تطفو عليه الرغوة، وأكلا من اللحم أكثر ما استطاعا تناوله. بعدها عادا إلى النوم مجددا. صعدت الأحصنة الجائعة إلى الضفة لترعى العــشب. كانت أشعّة الشمس المرتفعة في كبد السماء تشوي جلودها، وتشقّق الوحل بعد أن جفّ وقد كان يوفّر لها الحماية، مما جذب انتباه حشود جديدة من البعوض. كان العشب الذي ينمو على جوانب البحيرة قد اقتاتت عليه قبل ذلك قطعان الخراف بكثافة، ومن أجل ألاّ تتضوّر جــوعا ولتــسترد قواها توجسا من هجوم قطيع للذئاب، فقد عادت الأحصنة إلى منحدرها الأصــلي، حــيث واجهت هناك المعاناة من جديد نتيجة صولات البعوض فيما كانت ترعى العشب الطويل.

* * *

كــان هناك اجتماع مرتقب لجميع الكوادر سيُعقد في خيمة بلغي. "الغيوم ليست كثيفة ولا خفــيفة بــشكل مميّز"، قال الرجل العجوز، "لا تتوقّعوا هطول أي أمطار. في هذا المناخ الرطب الحار، ربما استطاع البعوض أن يلتهم أحصنتنا وهي حية. ليس لدينا ما يكفي من الناس لمــراقبة مواشــينا علــى النحو المقبول، وبعد الكارثة التي داهمت قطيع الخراف ذاك، لا يمكننا التفريط بأي شخص لتقديم المساعدة لرعاة الأحصنة كي يأخذوا قسطا من الراحة"، وهكذا فقد قرّر باو شنغوي وبلغي تخصيص كادر الفرقة للاهتمام بالخراف.

بالرغم من ذلك كان زانغ جيوان، وقد وهن جسمه من الإنهاك وعدم الراحة، يعرف أنه حالمــا يــتمكن من تجاوز الكارثة الحالية، سيُسمح له بأن يرعى الأحصنة بمفرده في السهوب. شــجّعه شن ويانغ كثيرا، على أمل أن يصبح أحد الطلاب، الذين ينتمون إلى الخيمة التي يربّى فيها جرو الذئب، راعي أحصنة من الدرجة الأولى.

ولكن عند الظهيرة ازدادت حرارة ورطوبة الهواء؛ لم يكن هناك من احتمال لهطول أمطار كثيفة في الليل، وتبددت الآمال في سقوط ولو رذاذ خفيف. كان سكان السهوب يتطلّعون إلى إمكانية هطول المطر، لكنهم كانوا يخافونه أيضا. فالأمطار الغزيرة تساعد على منع البعوض من الطــيران، إلاّ أنها في ما بعد ستولد مزيدا من الحشرات، إذ عندما ارتوت الأعداد المتزايدة منها نتــيجة امتصاصها لدماء الذئاب، وُلد منها نسل جديد ذو طبيعة وحشية وأكثر ميلا للهجوم. تحــولت أولونبولاغ إلى جحيم على الأرض، وكان زانغ جيوان يستعدّ لاقتحام ذلك الجحيم، لقد أراد الانضمام إلى رعاة الأحصنة الآخرين ليذهبوا إلى السهوب التي تكثر فيها المستنقعات.

لكـــن بلغـــي كـــان قد ساق القطيع، برفقة كل من باتو وزانغ، متجهين به إلى منطقة صـــحراوية على بعد ستين أو سبعين *ليا* نحو الجنوب الغربـــي، حيث يندر فيها وجود العشب والمياه، مما يعني وجود القليل من البعوض. كانت المنطقة تشكل حاجزا مؤقتا على بعد نحو مئة *لي* مـــن الحـــدود. حذا رعاة قطعان الفرق الثلاث الأخرى حذو بلغي، حيث ساقوا أحصنتهم بأقصى سرعة ممكنة إلى تلك الأراضي القاحلة.

- "كانت هذه الصحراء ذات مرة أرض رعي خصبة من أراضي أولونبولاغ"، قال بلغي لـــزانغ، "فـــيها جداول وبحيرات وفيها أيضا أفضل أنواع العشب الموجود في أي مكان آخر. الماشية والخراف يمكن أن تسمن ببطء من دون حاجة إلى أن تتخم أجسامها بكميات كبيرة من العـــشب الذي يتضاءل باستمرار". نظر نحو السماء وتنهد. "وهذا ما أصبحت عليه في فترة لا تتجاوز سنين قليلة. الرمال ملأت حتى قيعان الأنهار الجافة".

- "كيف حدث ذلك؟"، سأل زانغ.

أشار الرجل العجوز إلى القطيع. "لقد رعت فيه القطعان حتى تحوّل إلى خراب، هي والمهاجـــرون الذين جاؤوا من الجنوب. لم تكن البلاد قد تحرّرت إلاّ منذ مدة وجيزة، ولم تكن هناك كثير من السيارات. الجيش يحتاج إلى أحصنة؛ وكذلك الفلاحون والناس الذين يعملون في نقل المواد، ومن ضمنها الأخشاب في الشمال الشرقي. البلاد وجميع من فيها من البشر، كما يبدو، كانت بحاجة إلى الأحصنة. من أين كان يمكن أن تأتي كل هذه الأحصنة الجيدة؟ من منغوليا طبعا. لقد أعطيت لنا الأوامر أن ندّخر أفضل المناطق التي في السهوب للأحصنة. جاء الناس من الجنوب إلى هنا لاختبار، وانتقاء، وشراء الأحصنة، وقبل أن نتنبّه إلى أنفـــسنا، كـــان المكان قد تحول إلى مضمار سباق للأحصنة ذات النوعية الرديئة. على مدى القرون لم يكن أي من الحكام قادرا على تحمّل أن تتحوّل هذه الأرض إلى منطقة تربّى فـــيها الأحصنة. لم تمضِ سنوات طويلة حتى تحوّلت الأرض إلى خراب. والآن، بما أنها قد أصـــبحت صحراء، فإن لها بالرغم من ذلك فائدة واحدة، وهي أن أعداد البعوض هنا أقل نـــسبيا مـــن حـــشوده هناك، لذا يمكننا سوق الأحصنة إلى هذا المكان عندما ينتشر بلاء الـــبعوض. لقـــد أعطى أوليجي أمرا أن تستخدم هذه البقعة الرملية عندما تكون الوسيلة الوحـــيدة للحفاظ على سلامة القطعان لا غير. أراد أن يراقب المنطقة ويقدّر الفترة الزمنية التي ستحتاج إليها السهوب لتسترد عافيتها، ولتتخلص من التربة الرملية. لكن أظن أن عليه تقديم استقالته هذه السنة".

- "بابا"، قال زانغ، "الآن بعد أن أصبح وجود الشاحنات والجرارات مألوفا بشكل كبير، وحلـــت الـــدبابات محـــل الخـــيالة في أوقات الحروب، لن تبقى هناك حاجة كبيرة إلى وجود الأحصنة. فهل ستتمكّن السهوب من أن تحقق انبعاثا من جديد؟".

هزّ الرجل العجوز رأسه. "الرجال وما لديهم من الجرارات أسوأ من هذا، وبسبب الاستعدادات المتزايدة للحرب قرّرت السلطات أن تشكل فيالق للإنتاج والإنشاءات على السهوب. الناس وما يستقدمونه معهم من جرارات في طريقهم إلى هنا".

لم يتفوه زانغ بكلمة واحدة. لم يكن يتوقّع أن تتشكل فيالق في هذه السرعة.

- "في الأزمنة القديمة"، تابع الرجل العجوز كلامه، "كانت محارف الفلاحين والنيران مصدر مخاوفنا. الآن هناك الجرارات. منذ بضعة أيام مضت، كتب أوليجي وبعض الرعاة الطاعنون في السن رسالة إلى سلطات إقليم الحكم الذاتي في منغوليا الداخلية يطلبون منهم فيها ألاّ يحولوا أولونبولاغ إلى منطقة زراعية. من يدري إذا كانت ستُجدي نفعا؟ كان باو شنغوي يمرّ بحالة عصبية قاسية مؤخرا. يقول إنه من المؤسف ترك هذه الأرض من دون استغلال، في الوقت الذي يمكن فيه أن تحوّل إلى مزارع، وعاجلا أم آجلا، ستُستغلّ في... توسيع... توسيع إنتاج الحبوب".

تصاعد أنين صامت من أعماق زانغ. "الآن بعد أن دخلنا عصر الجرارات الزراعية، كان الصراع بين أولئك الذين عاشوا بعيدا عن السهوب وأولئك الذين عاشوا على أرضها واهتموا بها، قد اقترب من مرحلة نهاية اللعبة".

فيما بدأ الليل يرخي سدوله، دخلت أربعة من قطعان الأحصنة بايان غوبي، وهي منطقة تبلغ مساحتها عدة عشرات لي مربع، حيث كانت الأرض الرملية الرطبة تفسح المجال، بين الحين والآخر، لنمو أنواع مختلفة من النباتات الصحراوية التي كانت تصل، بشكل يثير الاستغراب، إلى ارتفاع طويل في فصل الأمطار. لم تعد هناك أي علامات تدلّ على أن هذه الأرض كانت ذات يوم أرضا للرعي؛ بدلا من ذلك، فهي تبدو وكأنها موقع إنشاءات مهجور. "السهوب ليس لها إلا حياة واحدة"، قال بلغي. "على جذور العشب الذي يصلح للأكل أن تزيح الأحراش البرية من طريقها، لكن حالما تُجتثّ تلك الجذور فإنّ الأحراش والرمال هي الغالبة".

تحرّكت القطعان إلى قلب الصحراء. بالرغم من وجود أعشاب قليلة ذات قيمة بالغة تصلح للأكل، إلا أن الغياب النسبي للبعوض أتاح لبلغي إمكانية إراحة الأحصنة، ومنحها مهلة وجيزة للتخلص من الحشرات الفتاكة.

امتطى باو شنغوي صهوة حصانه، وانطلق يعدو برفقة أوليجي. "هذا كل ما نستطيع القيام به الآن"، قال لهم بلغي. "علينا أن نتركها تمضي الليل وهي جائعة. في الصباح، عندما يسقط الندى على الأرض، يمكننا أن نسوقها إلى المستنقعات لتأكل، وبعدها نسوقها عائدين عندما يهاجمنا البعوض مجدّدا. لن يزداد وزنها كثيرا، لكن بإمكانها على الأقل أن تبقى على قيد الحياة".

تنفّس باو الصعداء. "بفضل حكمتكما أنتما معا، استطاعت هذه الأحصنة البقاء على قيد الحياة. لقد استبدّ بي قلق فظيع خلال الأيام القليلة الماضية".

لكن جبين أوليجي المتغضّن كان يشي بهواجسه. "لا يمكنني التوقف عن القلق من أن يكـــون قطيع الذئاب يتربّص بالقطعان. أي شيء نفكّر فيه نحن يمكن للذئاب أن تفكّر فيه أيضا".

– "لقـــد وزّعـــت كميات إضافية من الذخيرة على الرعاة. أشعر بالقلق من أننا لن نجد الذئاب. آمل أن تأتي الذئاب في أقرب وقت"، قال باو.

في اللـــيلة الأولى، بعـــد أن تخلـــص الرعاة من إزعاج البعوض والذئاب، كانوا يشعرون بالارتـــياح الـــتام في الـــصباح، عندما منع الندى البعوض من الطيران. قاد الرعاة على الفور أحـــصنتهم مـــتوجّهين بها إلى المستنقعات، حيث التهمت العشب طيب المذاق. وفيما بدّدت الـــشمس قطـــرات الندى، انتفض البعوض وطار في الهواء، فرجعت الأحصنة إلى الصحراء من تلقـــاء ذاتها. تكرر ذلك الوضع في الليلة التالية. أما في الليلة الثالثة، فقد أرسل لهم باو شنغوي زوجـــا من الخراف الكبيرة على عربة خفيفة؛ جلس الرعاة، بعد أن قطع عليهم ذلك نومهم، مـــتحلقين حول النار بعد حلول الظلام، وكانوا يرفلون بالسعادة وهم يأكلون ويشربون. غنوا وصـــخبوا فـــيما كانـــوا يلتهمون الطعام ويحتسون الشراب، مما أفزع أي من الذئاب المحتمل وجـــودها في المنطقة. لقد ازدادت قدرة زانغ على احتساء الشراب بشكل ملحوظ خلال السنة الـــسابقة؛ والآن كـــان يشرب، ويسلّي الآخرين بأداء *أنشودة الشراب*، ويصدح بالغناء بأعلى صوته؛ بدا صوته كأنه حمل نبرات عواء ذئب متماوجا طويلا.

في صـــباح الـــيوم الـــرابع، جاء مراسل يمتطي صهوة حصان، كان يعدو نحوهم مسرعا ليخـــبرهم أن اثنين من المسؤولين في فيالق الإنتاج والإنشاءات قد زارا قيادة الفرقة، وأرادا من أوليجي وبلغي أن يقدّما لهما تقريرا موجزا. لم يكن لدى الرجلين أي خيار آخر سوى الرجوع إلى هناك، لكن قبل أن يغادرا، شدّد بلغي على أهمية الالتزام بالحذر على الدوام.

حالما غادر الزائران الرسميان، بدأ بعض الرعاة الشباب يفكّرون ويتحدثون في شأن النساء اللـــواتي تـــركوهن خلفهـــم. وفيما هبطت ستر ظلام الليل عليهم، امتطى اثنان منهم صهوتي حـــصانيهما وانطلقـــا بعيدا للبحث عن شابات في طريقهن للخروج إلى الحراسة الليلية. كان لمـــصطلح *حراسة ليلية* معنيان في أولونبولاغ، وإذا كان هناك شخص ما يسعى للمزاح في هذا المجال، فإن الشابات سيبقين متيقظات طوال الليل ينتظرن.

* * *

التهمت القطعان جميع العشب الذي على الأرض، حتى إنه لم يتبقَّ منه سوى سيقان جافة. كانـــت قدرة الأحصنة على التحمّل، بعد أن حُرمت من أن تقتات العشب ليلا، قد تضاءلت. لكن فحول الأحصنة كانت كأنها حراس سجن لا يعرفون سبيلا للجزع أو الاستسلام، ظلت تـــراقب بحرص بالغ أفراد عوائلها، توقف كل حصان يمكنه أن يتقدم ولو بضع خطوات باتجاه

المستنقعات. تعرّضت الأحصنة جميعها لعقوبة الجوع، ولكن فحول الأحصنة حافظت على دورياتها الصارمة.

في المكان الذي اختبأت فيه الذئاب منتظرة بصبر، وسط الأحراش الطويلة، كانت هي الأخرى تتضوّر جوعا، بعد أن جذبتها رائحة اللحم الذي كان يطهى في المعسكر. منحتها نُدرة البعوض فرصة لتعزيز قواها، وكانت متأهّبة لخوض غمار القتال. توقّع باتو أن يكون نصف قطعان ذئاب أولونبولاغ مختبئا في مكان ما في الصحراء، بالرغم من أنها لم تكن حتى ذلك الوقت قد وجدت الشجاعة الكافية للهجوم. كان الرعاة مسلّحين ومستعدّين لأي طارئ؛ لقد احتلت فحول الأحصنة شديدة البأس مواقع لها على محيط المنطقة التي انتشرت عليها الأحصنة. تطلعت بعضها لإطلاق العنان لغرائزها الوحشيّة، فكانت تضرب الأرض بحوافرها، وتصهل مهدّدة إزاء ظلال الذئاب التي كانت تلوح في الظلام، كما لو أن كل ما أرادته هو أن تغرس أسنانها في العمود الفقري لأحد الذئاب، وتقذفه عاليا في الهواء، وعندما يرتطم بالأرض تسحق جمجمته بحوافرها القوية. ومع ذلك، فقد وجدت الذئاب بقعا واهنة في صفوف الأحصنة؛ لم تكن هناك كلاب برفقتها. لم يكن لدى سكان السهوب ببساطة أدنى اهتمام بتدريب كلاب العائلة على حراسة قطعان الأحصنة.

بعد العشاء، قام باتو باصطحاب زانغ إلى الطرف البعيد للبحث عن آثار الذئاب وسط الأحراش. استمرا في البحث طويلا، ووسّعا من نطاق دائرة البحث، لكنهما لم يعثرا على آثار جديدة. أدّى ذلك إلى التخفيف قليلا من وساوس باتو، إذ إنه قبل ذلك ببضعة أيام، عندما استطلع المنطقة، وتوغّل إلى مسافة بعيدة، كان قد اكتشف وجود زوج من الذئاب، بالرغم من أنه لم يشاهد قبل ذلك أي ذئاب في الأوقات التي كان فيها عنصر الأمان حول القطعان متراخيا نسبيا. أدرك تماما أن الذئاب قبل أن تشنّ أي هجوم، فإنها غالبا ما تُبعِدُ أنفسها عن هدفها لغرض إرباك المواشي وخداعها باختلاق تراجع زائف.

لسبب غريب، شعر زانغ جيوان بالتوتر؛ كانت الأجواء يسودها سلام أكثر من اللازم مثلما بدت بالنسبة إليه. كان هو وباتو يفكّران في آن واحد في حال الجو، ونظرا معا إلى السماء. لم يشاهدا أي نجوم، وكانت هناك سحب قاتمة تجثم بثقلها على صدر الصحراء. فاستدارا، وانطلقا عائدين إلى المخيم.

قبل منتصف الليل، أضاءت المصابيح الكاشفة الأرض الرملية. كان الرعاة الذين لا يهابون شيئا وما لديهم من فحول الأحصنة شديدة البأس قد عملوا معا على تطويق القطعان. بدا على بعض الحيوانات الأضخم حجما وكأنما شعرت بوجود الذئاب؛ تحركت نحو الحافّات لتشكل جدرانا من اللحم والدماء لحماية الأفراس، والأحصنة الصغيرة، والمهرات، والتي لم تتزحزح عن خواصر أمّاتها. تخيل زانغ أن في وسعه سماع النبضات السريعة لتلك المئات من قلوب الأحصنة، وهي نبضات كانت مماثلة في ترددها لنبضات قلبه.

بعـــد منتصف الليل، وعقب هبوب الرياح القوية تفجّرت أصوات فرقعة الرعد. اهتزّت الأرض وتمايلـــت الجـــبال، مما جعل الأحصنة تتدافع وهي تتشتّت مذعورة. استدارت فحول الأحصنة، وتقهقرت، وصارت تضرب الأحصنة المذعورة الهاربة محاولة إرجاعها بقوة حوافرها الفتاكة. صاح الرعاة بأعلى أصواقم، واستخدموا سياطهم لمساعدة فحول الأحصنة في الحفاظ على تماسك الخطّ الدّفاعي الأخير. لكن سلسلة أخرى من قصف الرعد تَبِعَت البرق، واندفعت عبر الـــسماء كأنهـــا نهايات أسلاك كهربائية بلاستيكية تتلوّى بعصبيّة، وتشقّ طريقها إلى الأسفل باتجاه القطعان، فانفصلت الأحصنة عن بعضها بعضا وكأنها سدود متهاوية، واخترقت الحافّة الدّفاعية التي شكّلتها فحول الأحصنة والرعاة. وانطلقت تعدو مهووسة وقد استبد بها مسّ من الجنون.

طغى قصف الرعد على الصرخات فكتمها، وبدّد أصوات الصهيل، وحتى صوت إطلاق الـــنار. شوّهت صواعق البرق حزم الضوء المنبعثة من المصابيح الكاشفة، وفي لمحات وجيزة على ضـــوء يكاد أن يعمي الأبصار، كانت الأشباح الرمادية للذئاب قد أصبحت مرئية وهي تتسلّل بين القطعان. شحبت وجوه الرعاة من هول المنظر.

- "ذئاب!"، صاح زانغ جيوان بصوت لم يكن حتى هو قادرا على تمييزه. "الذئاب هنا!"، للمـــرة الأولى في حـــياته، أضحى شاهدا على هجوم مكثّف منسّق تشنّه قطعان من الذئاب، يـــساعدها على ذلك دويّ الرعد الذي يصمّ الآذان، وصواعق البرق المكهربة التي كان يرسلها تينغـــر الغاضب. كأنها جيوش هبطت من السماء إلى الأرض لتأخذ ثأرها من السهوب، كانت الذئاب موطّدة العزم على إنجاز مهمّتها الإجرامية؛ إبادة الأحصنة المنغولية، التي شكل وجودها وبالا على السهوب.

واجهت الأحصنة المرعوبة زخم هجوم شنته عليها من جميع الجوانب ذئاب مزهوّة بقوّتها. بـــدأت تعدو لتنجو بحياتها. تحت جنح الظلام، وبمساعدة الرعد الذي جعل القلوب تتوقف عن نبـــضها، والبرق الذي خطف الأبصار، اخترقت الذئاب جميع الدفاعات مثل السهام، والتقت بعـــضها بعـــضا عند المركز، حيث استدارت وشنّت صولاتها، مما أدى إلى إرباك شامل وسط الأحـــصنة التي داهمها الفزع، وهو بالضبط ما كانت تحتاج إليه الذئاب لتهاجم الأحصنة كلا على انفراد.

كانـــت المهـــرات أولى ضحاياها. فبعد أن فوجئت الأحصنة الصغيرة بالضوء والصوت المخـــيفين للرعد والبرق للمرة الأولى في حياتها، شُلّت حركاتها، وأطاحت بها الذئاب الضخمة الواحدة بعد الأخرى. وفي غضون دقائق معدودة، تمدّدت اثنتا عشرة مهرة أو أكثر على الأرض الـــرملية بعد أن قضت نحبها، أو كانت تعاني وهي تموت. بقيت المهرات الأكثر شجاعة قرب أمّاتهـــا فيما كانت هذه تسابق الريح؛ وحين كانت تفشل في العثور على أمّاتها، كانت تتفادى الذبح من خلال التسلل بحثا عن آبائها الأشدّ بأسا.

بحث زانغ جيوان عن مهرته المفضلة، تلك التي أسماها بياض الثلج، خاف أن تكون مرئية بـــشكل أوضح من غيرها، فتغدو أكثر عرضة للهلاك، في ذلك الظلام الذي يغلّفهم جميعا كأنه الكفـــن. وفيما أضاءت صاعقتان صفحة السماء، رأى شن زوجا من فحول الأحصنة يقاتلان بأســـنانهما وحوافرهما لحماية مهرة بيضاء من هجوم ثلاثة ذئاب. التصقت المهرة بأبيها وكأنما التـــصقت به بالغراء، حتى لملمت شيئا من الشجاعة، ورفست مهاجميها. كان مصدر الشجاعة الأكـــبر لـــدى الـــذئاب يتمثّل في السرعة؛ وفي اللحظة التي رأت فيها الذئاب أن سرعتها قد خذلـــتها، عـــادت تختفي وراء ستارة الليل الأسود بحثا عن مهرة أخرى تعسة. صاحت فحول الأحصنة للأمّات في القطيع، لأنها كانت الحيوانات الأخرى الوحيدة التي لديها الشجاعة ورباطة الجـــأش لتحمي ذريتها، وهو الشيء الذي فعلته بكل ما أوتيت بها من قوة وهي تشقّ طريقها باتّجـــاه أفراسها، بينما كانت مهراتها إلى جوارها. تمكنت أشدّ فحول الأحصنة ضراوة، وأكثر الإناث والمهرات شجاعة من تفادي الهجوم الأول للبرق في الأعلى، والذئاب في الأسفل، حيث شكلت حواجز واقية مؤلفة من عوائل من الأحصنة التي تكتّلت مع بعضها بعضا.

بالـــرغم مـــن ذلـــك، فقد كان الجزء الأكبر من تماسك قطيع الأحصنة قد انهار. كانت الذئاب المدرّبة غريزيا في المعارك قد رمت أنفسها إلى حمم القتال، وكأنها قنابل فتّاكة، مما أرسل مـــوجات متعاقبة إلى الخارج كأنها حلقات متماوجة على بحيرة. لم يبقَ أي أثر لوسائل الحماية المتوافرة لدى الرعاة، وفي غضون نصف ساعة تقريبا، كانوا قد فقدوا إلى حدٍّ ما التواصل في ما بينهم.

أشـــار باتو، وهو يكاد يفقد أعصابه بالكامل، بضوء مصباحه الكاشف، وصاح: "انسوا الجانب الجنوبـــي الشرقي! ركّزوا على سوق الأحصنة إلى الشمال الغربـــي! لا تتركوها تتّجه نحـــو الحدود!"، أدى هذا النداء إلى انتزاع الرعاة من لجّة ارتباكهم، فانطلقوا جميعا يعدون وهم على صهوات أحصنتهم، بلا استثناء، باتجاه الشمال الغربـــي.

كـــان أول طعم للنصر تتذوّقه الذئاب قد عزّز من إرادتها وزاد من شهيتها. لم تقتنع بقتل المهرات بطيئة الحركة التي كانت قد انفصلت عن أمّاتها، فاتجهت إلى الأحصنة الصغيرة التي بعمر ســـنتين وثلاث سنوات والتي صعقت رعبا. بعد أن بدأت الذئاب هجومها بصورة منفردة على تلـــك الأحـــصنة، صارت تهاجم الآن بشكل مجموعات مؤلفة من ذئبين وثلاثة ذئاب، كانت المجمـــوعة الـــواحدة مـــنها تطـــيح بعدة أحصنة صغيرة في كل هجمة، تمزّق أوتارها العضلية وشـــرايينها، فتنبجس تيارات من الدماء تشقّ طريقها نحو السماء مثيرة الرعب والرهبة في بقية أفراد القطيع بحيث لم تكن الأمات الناجية تعبأ بشيء سوى النجاة بحياتها.

أمـــا وقـــد انجلى الرعد والبرق من السماوات، فقد كانت صيحات الرعاة ومصابيحهم الكاشفة قد استعادت تأثيرها؛ بدأت الأحصنة الهاربة تعود إلى عوائلها بعد سماعها صهيل فحول

الأحـــصنة. اتجه القطيع صوب الشمال، كان يلملم وهو في طريقه شتات جنود من الأحصنة. شكلت ثلاثون أو أربعون من فحول الأحصنة القوية خطا أمام القطيع، وأطلت من الأعلى على الـــذئاب التي استدارت وولت الأدبار. أعطى ذلك إشارة للأحصنة الضعيفة والصغيرة والجريحة للانـــضمام إلى القطـــيع، وقد مثّل مصدرا لخلاصها، في الوقت الذي عاد فيه الكثير من فحول الأحـــصنة بعوائلها التي تقلصت أعدادها راجعة بها إلى كنفها، حيث توالت الصيحات لأفراد العائلة للانضمام إلى بعضها بعضا.

انسحب قطيع الذئاب بشكل منتظم، لم يكن على ما يبدو على عجلة من أمره ليرجع إلى الحـــيوانات الـــتي ســـقطت أرضا والبدء بالوليمة، فقد اختار بدلا من ذلك ملاحقة الأحصنة الشاردة قبل أن يتمكن الرعاة وفحول الأحصنة من إعادتها إلى القطيع. اندفع باتو وبعض الرعاة الكبار المتمرسون نحو المقدمة لإحصاء فحول الأحصنة، فاكتشفوا أن ثلثها قد أصبح من المتعذر العـــثور عليه. هذا التطور الفظيع جعل باتو يذهب إلى آخر القطيع، حيث أخبر الرعاة الأربعة بضرورة الانفصال عن بعضهم بعضا إلى زوجين، وتوسيع منطقة التطويق نحو الشرق والغرب. كـــان الرعاة الآخرون قد أبلغوا بأن يسوقوا حيواناتهم إلى الأمام. وأخيرا تم إرسال زانغ جيوان إلى الجنوب الشرقي لإبعاد الذئاب من تلك المنطقة.

انطلقـــت الذئاب التي في الشمال الغربـــي للالتحاق بتلك التي في الجنوب الشرقي، والتي انهمكـــت بقتل مسعور؛ بعض من عوائل الأحصنة كانت قد فقدت جميع مهراتها. بعد انضمام قـــواتها إلى بعـــضها بعضا، أسرعت الذئاب لمطاردة الأحصنة الكبيرة المريضة والمعاقة. تصاعد صـــراخ وصـــهيل من ناحية الشمال الغربـــي مقتربين أكثر فأكثر، لكن الذئاب ركزت على القـــتل، حـــيث أُرجئ الأكل إلى وقت لاحق. بعد أن رأى زانغ عجز أحد الرجال عن إبعاد الذئاب، قرّر الرجوع وتقديم المساعدة في تحريك القطعان. بدت الذئاب، بمعرفتها الواسعة بمناخ السهوب، كأنها تنتظر اللحظة المناسبة للإقدام على خطوتها التالية الكبيرة.

كـــان الـــرعاة قد ساقوا الأحصنة مسافة ثلاثة أو أربعة لي من التل الرملي حين انتفضت حـــشود البعوض التي خرجت من المستنقعات وكأنها سحابة كثيفة لتغطي القطيع بدثار سميك. على الفور غرست أكثر حشرات البعوض شراسة في تلك السنة إبرها في لحم الأحصنة. بعد أن نجت الأحصنة من هجمات مزدوجة للبرق والذئاب، أطلقت العنان لحال غير مسيطر عليها من الجنون.

هـــبط ســـوط العقـــاب مباشرة تقريبا على جلود حماة القطيع، فحول الأحصنة. كانت الأحـــصنة القوية، بجلودها الملساء الخالية من الشعر تقريبا وعضلاتها المشدودة، قد عانت لأيام عـــدّة، تلطخـــت ذيولها بالدماء وصارت لزجة، حتى تدهورت قدرتها على طرد البعوض إلى الصفر. كانت الحشرات تركز اهتمامها الأكبر على جفون فحول الأحصنة وأعضائها التناسلية،

ممـــا أفقدها صوابها، وجرّدها من عقلها وشعورها بالمسؤولية. في تلك اللحظة تلاشت قوة عدوّ البعوض، والرياح، وكان ذلك مؤشرا للاتجاه الذي ينبغي أن يسلكه القطيع من أجل أن يسبّب بحركته ولو نـــزرا يسيرا من الرياح. تركت فحول الأحصنة، بعد أن نهشت عيونها حتى غدت عمـــياء تقريبا وشبه مجنونة، إناثها وذريتها وعدت كأنها عاصفة هوجاء لتخترق بأجسادها نفق الرياح.

خـــرج الـــرعاة من وراء التل الرملي، حيث كانت هناك حشود قليلة من البعوض، و لم يكونـــوا يرتدون أقنعة. على الفور انهالت على وجوههم، ورقابهم، وأيديهم لسعات الحشرات الـــتي مـــصّت دماءهم بلا رحمة. تورمت جفونهم، وأضحت عيونهم مجرد شقوق، ووجوههم كانـــت سميـــنة، كما لو أنها احترقت. انتفخت شفاههم لدرجة أنها كانت تنتفض من الألم، وغدت أصابعهم ثخينة حتى إنهم كانوا يُمسكون أعمدة أنشوطاتهم بصعوبة. تجاهلت الأحصنة أوامر ممتطييها، تقهقرت ووثبت بجنون. في لحظة كانت تُخفض رؤوسها وتمطّ أعناقها للتخفيف مـــن اللسعات؛ وفي اللحظة التالية راحت تشبّ وتعدو من جديد، واستطاعت بصعوبة أن تمنع نفسها من الوقوع والتشقلب على الأرض، و لم تكن تولي أدنى اهتمام بمن يمتطيها.

توقف القتال مؤقتا بالنسبة إلى الرجال وما لديهم من الأحصنة في الوقت الذي غطسوا فيه معـــا في بحـــر متلاطم من البعوض. كانت أغلب أحصنة القطيع تعدو على غير هدى في مهبّ الريح، الشاردة منها في المقدمة، متّجهة نحو الشمال الغربـــي.

لـــسع مجـــنون، وجـــري مجنون، وقتل مجنون؛ بعوض، وأحصنة، وذئاب. توليفة من أنواع الـــبلاء - رعد وبرق، ورياح، وبعوض، وذئاب - هبطت مثل سوط العقاب على قطعان أحصنة أولونـــبولاغ، ومرة ثانية شعر زانغ جيوان بكيانه يتزعزع وقد أدرك صعوبة الحياة على السهوب؛ انتابته الشكوك في أن يكون في وسع أي عرق آخر من البشر على الإطلاق البقاء على قيد الحياة في مـــثل هذه البيئة القاسية. هوى باتو على حصانه بالسوط، كان وجهه قد أضحى بلون الرماد، ضرب الحيوان على رأسه كي ينسيه لسعات البعوض. أما زانغ جيوان، فبعد أن توقف وهو منبهر بهذا العرض المفعم بالجسارة والإقدام، استدار بثقة وشجاعة، ومضى مسرعا إلى الأمام.

- "أجبروا القطيع على الاتجاه غربا!"، صاح باتو. "هناك رمال في تلك المنطقة! تحركوا! تحركوا! احرصوا على ألاّ تتّجه نحو الحدود".

- "هيا! هيا!"، صاح الرعاة استجابة لندائه.

جـــذبت انتباه زانغ جيوان صرخة ما؛ رأى حصانا متعثرا يلقي بالرجل الذي يمتطيه على الأرض. لم يأتِ أحد لمساعدته؛ كانوا مركزين اهتمامهم على الاندفاع إلى الأمام.

لكن كيف كان يتوقع من أحصنة منهكة بثقل ممتطييها أن تلحق بأخرى شاردة ليس على صـــهواتها شيء وقد أفزعتها هجمات البعوض والذئاب؟ حين عجز الرعاة عن سوق الأحصنة

باتجـــاه الغرب تبدد آخر أمل لديهم. ومع ذلك، صاح باتو والرجال الآخرون بأعلى أصواهم، وواظبوا على المطاردة.

علـــى حين غرة، مزّقت ستر الظلام حزم ضوئية آتية من جبل بعيد. "الفرقة قد أرسلت فـــريقا للنجدة!"، صاح باتو. وتعالت صيحات الرعاة بابتهاج فيما كانوا يضيئون مصابيحهم الكاشـــفة لإرشـــاد القادمين الجدد إلى موقع القطيع. تفجّرت صيحات عالية من الرعاة الذين خلـــف الجـــبل بينما كانوا يندفعون كالعاصفة صاعدين أحد المرتفعات، وكاشفين المنطقة التي أمامهم بأضواء مصابيحهم الكاشفة، وكأهم أرادوا تكوين حاجز يمنع الأحصنة من الهرب. كل هـــذا قـــاد إلى تطويق القطيع وجعله يستدير ويرتدّ على أعقابه. وبينما أجبرت الأحصنة على التكتل قرب بعضها بعضا، كانت تسحق البعوض الذي بين أجسادها.

عند هذه النقطة الفاصلة، ظهر بلغي ضمن المشهد وكأنه شيخ قبيلة، فتولى تحمّل المسؤولية علـــى الفور؛ دبّ النشاط من جديد في أوصال الرعاة لدى رؤيتهم شيخهم ملك الذئاب وهو يطـــل عليهم ممتطيا صهوة حصانه، فما كان منهم إلا أن شنوا صولة على قطيع الذئاب، الذي داهمته المفاجأة، وأضحى غير واعٍ لما يجري بسبب الصراخ والأضواء الوهّاجة. لكن الذئاب مع ذلـــك عرفت صوت بلغي، مثلما بدا واضحا، لأن الذئب الأكبر استدار وسارع إلى التراجع، بيـــنما لحقـــته الذئاب الأخرى على الفور. كان هدفها واضحا؛ لقد رجعت مباشرة إلى ميدان القتال الأول، حيث أرادت أن تأكل أكبر قدر ممكن من فرائسها قبل الاختفاء وسط الجبال.

بـــرفقة كـــل مـــن باو شنغوي وأوليجي، قاد بلغي اثني عشر أو أكثر من رعاة الخراف والمواشي، بالإضافة إلى طلاب بكين، لجمع شتات قطيع الأحصنة مع بعضها بعضا، والانطلاق إلى الملجأ الرملي. وتم إرسال أحد الرعاة لإسعاف الراعي الجريح الذي وقع عن صهوة حصانه. مضى شن زن ممتطيا صهوة حصانه إلى زانغ جيوان لمعرفة ما حدث خلال الليل وأخبره أن بلغي وأوليجي، بعد أن توقعا هجوما على الأحصنة، كانا قد نظّما فرقة إنقاذ حتى قبل أن تسوء حالة الجو. "إنه هجوم قريب!"، قال زانغ. "كان من المحتمل أن نخسر القطيع جميعه في هذه المرة".

مـــا إن أصبحوا بأمان على التل الرملي، حتى أُضيئت السماء بالنور. أحاط الرعاة ببعض الأحصنة الشاردة، لكن خسائر القطيع كانت جسيمة. لقد قُتلت أربعة أو خمسة من الأحصنة كـــبيرة السن، والمريضة، والمعاقة، وكذلك قُتلت اثنا عشر أو ثلاثة عشر من الأحصنة الصغيرة الـــتي لا يتجاوز عمرها السنتين. كانت المهرات هي التي عانت أكثر من غيرها، فقد أطاحت الـــذئاب بخمـــسين أو ستين منها، مما جعل عدد الخسائر الكلي يتجاوز السبعين فردا من أفراد القطـــيع. لقد ساهمت فرقعة البرق، والرياح، والبعوض في تفاقم المذبحة هذه المرة، لكن القاتل الحقيقي كان، كما هو دائما، الذئاب!

استطلع باو شنغوي المشهد الذي أمامه على التل الرملي وأرض المستنقعات. "ألم أخبركم بـأن إبـادة الذئاب تشكل أهم أولوياتنا عند فتح المرعى الجديد؟"، قال بغضب: "لكنكم أيها الـناس لا تستمعون لما يقال. حسنا، انظروا حولكم؛ هذا هو عقابكم نتيجة عدم الإصغاء إلى تحذيري! من الآن فصاعدا، أي شخص يتكلم لصالح الذئاب سيفقد عمله، ويُرسل إلى الالتحاق بدورة دراسية. وعليه أن يدفع التعويضات مقابل خسائرنا!".

بيـنما كـان بلغي يضع قبضة فوق الأخرى، نظر نحو السماء؛ كانت شفتاه تتحركان، وعرف كلٌّ من شن وزانغ جيدا ما كان يقوله.

– "الـسيطرة علـى السهوب صعبة للغاية على رجل واحد"، همس شن، "وأي شخص يحاول ذلك يمكن أن ينتهي به الأمر لأن يغدو كبش فداء يتحمل تبعة الإخفاقات".

ذهب زانغ ناحية باو شنغوي. "لا يستطيع أي شخص أن يسيطر على كارثة طبيعية بهذه الجـسامة"، قـال. "أعتقد أننا اجتزنا الكارثة بأقل الخسائر الممكنة، نحن محظوظون لأن بلغي وأوليجـي كانـت لديهما البصيرة النافذة لإرسال القطيع إلى هذه المنطقة قبل خمسة أيام. كنا سنخسر القطيع بأكمله لو لم يفعلا ذلك".

– "لا يهمـني مـا تقوله"، قال باو مصرّا على رأيه. "تلك الذئاب قد قتلت الكثير من أحـصنتنا في الليلة الماضية. البعوض لا يقتل الأحصنة، مهما كانت أعداده كثيرة. هل كان من المحتمل أن يحدث هذا لو أبيدت الذئاب عندما أردت ذلك؟ لقد أمضى قادة الفيلق الأيام القليلة الماضـية في مقرّات الفرق. لو شاهدوا جميع هذه الأحصنة الميتة، لكانوا قد أنـزلوا رتبتي عقابا لي: هذه القطعان من الذئاب ليست إلاّ وباء، وسنستمر في قتل الذئاب حتى لا يبقى منها شيئا. تلك هي الطريقة الوحيدة التي نحمي من خلالها مواشينا. الفيلق يستعدّ للتحرك نحو مراعينا، وإذا لم تقـتلوا الـذئاب عن بكرة أبيها سأطلب منهم القيام بذلك. سيكون ذلك عملا سهلا، مع شاحناهم، وعرباهم، وبنادقهم الرشاشة".

خـرج الرعاة في مجموعات لإزالة الآثار المتخلفة عن مشهد المذبحة، حيث شغلهم ذلك العمل المحزن طوال الصباح.

ارتعشت المهرات الناجية عندما رأت أجساد تلك الأحصنة الميتة. كان الدرس الذي كتب بالـدماء سيجعلها أكثر يقظة وشجاعة في المرة المقبلة التي تمر فيها بكارثة من هذا النوع. لكن فكرة مزعجة خطرت في ذهن شن زن: هل ستكون هناك مرة مقبلة؟

30

أنهـــت أمطـــار خريفية باردة هطلت بصورة مفاجئة فصل الصيف على سهوب منغوليا الداخلية مما أدى إلى تجمّد حركة حشود البعوض.

كان شن زن يحدّق باهتمام شديد إلى السهوب الهادئة، ظنّ أنه قد فهم السبب الذي يجعل البعوض والذئاب بمثل هذه الحالة المسعورة. تكون فصول الصيف مدتها قصيرة هنا، لكن فصول الخـــريف تكـــون مدتها أقصر، حيث تتبعها فصول الشتاء التي تستمر ستة أشهر طويلة، وهي فصول الموت بالنسبة إلى الحيوانات التي لا تسبُت، ومن ضمنها البعوض الذي كان نصفه يموت حـــتى إذا استطاع الاختباء داخل حفر المرموط. بدون فراء سميك وشحم مكتنـــز، لن تتمكن الذئاب من البقاء على قيد الحياة خلال فصل الشتاء، حيث تُقتل أكثر الذئاب الهزيلة، والطاعنة في الـــسن، والجريحة. وذلك هو أيضا السبب الذي يدفع البعوض إلى الاستفادة من فصل النمو قـــصير المدى لامتصاص أقصى ما يستطيع من كميات الدماء؛ كانت الهجمات المسعورة تمثّل ســـبيلها الوحـــيد لإنقـــاذ حياتها الخاصة. ويجب على الذئاب كذلك أن تشترك بمعارك دموية استعدادا للشتاء، ولاحتمال حصول مجاعة في الربيع اللاحق.

بقـــيت قائمتان أماميتان متعفنتان، والأحشاء الداخلية من المهرة التي خُصّصت لخيمة شن زن. كـــان الجرو قادرا على الاستمتاع بفترة يملأ خلالها معدته حتى التخمة، في الوقت الحالي كـــان اللحم المتعفن كافيا لأن يقيم موائد لأيام قليلة مقبلة. أنبأه خطمه أنه ما زال هناك المزيد من الطعام، لذا فقد تمتّع بمزاج جيد. كان يلعق اللحم الطازج، والملطخ بالدم الذي يُقدم له، إلاّ أنه لم يكن يبالي عندما يصبح اللحم متعفنا، ويعجّ بالديدان واليرقات، حيث كان يزدردها مع اللحم. "لقد صار وكأنه حاوية نفاياتنا"، قال غاو مازحا.

الـــشيء الذي أثار استغراب شن أكثر من سواه هو أن الجرو لم يكن يصاب بالمرض قط، بغـــض النظر عن قذارة وتعفن الطعام الذي كان يقدّم له. لقد أعجب شن ويانغ بقدرة الجرو علـــى تحمّل البرد، والحرارة، والعطش، والروائح العفنة، والقذارة، والجراثيم. من المحتّم أن ينبهر المـــرء بجنس من الحيوانات كانت قد بقيت منذ ملايين السنين من عمليات الانتقاء في بيئة غير قابلة للتخيل، وغير مرحبة بوجودها مطلقا.

كلمـــا كـــان الجرو يكبر كان يصبح أكثر وسامة وجمالا. الآن أصبح واحدا من ذئاب السهوب من جميع النواحي. زوّده شن بسلسلة أطول، وجرّب أن يناديه باسم ذئب كبير. لكن

الجرو فضّل الإبقاء على اسمه القديم. كان شن كلما ناداه *بذئب صغير*، يأتي الجرو مسرعا ليلعب معــه، ويلعــق يديه، ويفرك جسده على ركبتيه، ويقفز على بطنه، وحتى يستلقي على الأرض ويكشف بطنه لشن ليحكّها له. لكنه كان يتجاهل شن إذا ناداه *ذئب كبير*. يتلفّت حوله ليعثر على من كان شن يناديه.

ضحك شن منه. "إنك ذئب معتوه. هل يجب أن أناديك بذئب صغير حتى عندما تكبر؟"، أخرج الجرو لسانه، كما لو أنه أراد مشاكسة شن.

انبهـــر شن بكل جزء من جسد الذئب، بينما كان يجد متعة خاصة بمداعبة أذنيه. لأنهما كانــتا أول جــزء في جسده قد نمتا حتى أصبحتا كبيرتين، وكانتا تنتصبان على الفور بثبات، وحدّة، وحرية لا يفسدها شيء، وتوحيان بشدة الحذر. لقد امتلك الجرو شعورا متزايدا بالوعي بالنفس الذي هو شيء غريزي لدى ذئاب السهوب.

داخــل الحظــيرة، جلس شن القرفصاء يداعب أذني الجرو. لكن الجرو ما كان يسمح له بفعــل ذلــك إلاّ بعد أن يدعك أسفل أذنيه ورقبته، مما يجعله يرتعش برضا. لقد أحبّ شن أن يطــوي أذنيه إلى الخلف ومن ثم كان يراقبهما وهما تقفزان وترتدان لتأخذا الوضع المستقيم من جديــد. حينما كان يطوي الأذنين في الوقت نفسه، فكانتا تعودان حينئذ إلى وضعهما السابق واحــدة بعــد الأخرى، وليس مع بعضهما بعضا، ويترافق ذلك عادة مع صوت طقطقة تفزع الجرو كأنه يسمع حركات معادية.

* * *

منذ مدة من الزمن، كان شن قد لاحظ وجود أعداد متزايدة من العربات العسكرية على السهوب، كانت تثير وراءها سحبا من الغبار، وهو منظر أثار الانقباض في نفسه. لقد أدرك أنه كان ينتمي إلى المجموعة الأولى، وربما الأخيرة، من صينيي الهان الذين عاشوا بالفعل، وشاهدوا أنماط حياة الرعاة من البدو في الأصقاع البعيدة من منغوليا الداخلية. لم يكن صحافيا أو سائحا، بــل كــان يشعر بمتعة العيش، ويفتخر كونه أحد الرعاة البدو. وكان لديه موقع يستطيع منه المراقبة وهو سعيد به: أولونبولاغ، حيث يختبئ هناك بعيدا عن عيون الآخرين في بقعة ما زالت تطــوف في أرجائها أعداد كبيرة من الذئاب. بالإضافة إلى ذلك فهو قد تولى تربية جرو ذئب كان بنفسه قد التقطه من أحد الأوجار.

لقــد عقــد العزم على حفظ مشاهداته وتأملاته في قلبه، وألاّ يهمل أدقّ تفاصيلها. في المــستقبل سيروي قصته للأصدقاء والعائلة مرارا وتكرارا، حتى يأتي ذلك اليوم الذي يرحل فيه عن هذا العالم. إنه لشيء يثير الحزن في النفس أن يمضي كل هذا الزمن الطويل منذ أن ابتعد فيه أسلاف الإمبراطور الأصفر عن أصولهم التي تمتدّ جذورها في أعماق السهوب. سرعان ما ستبلغ أنمــاط حياة البداوة نهايتها المحتومة، ولن تسنح فرصة للصينيين أبدا لأن يعودوا إلى هذا المكان

المفعـــم بالنقاء، والذي تنتمي إليه أصولهم ليؤدوا فروض الطاعة والاحترام إلى أمّهم التي كانت تحكم أسلافهم.

هل ينبغي له أن يطلق سراح الجرو سرّا، ويعيده إلى السهوب القاسية، ولكن المنفتحة على الحرية، ويردّ له حياته كذئب؟ لم يجرُؤ على ذلك. لقد خسر الجرو السلاح الذي يحتاج إليه في الـــبقاء في السهوب عندما قام شن بتشذيب أطراف أنيابه. لم تعد أنيابه حادّة كالمثقاب، لكنها صارت مستديرة وكليلة، أسوأ من أنياب الكلاب.

كـــان الـــشيء الذي يؤلم شن أكثر هو الشقّ الذي أحدثته الكماشة في أحد أنيابه. لقد توخّى الحذر ألاّ يلحق ضررا بالجذور، لكن الشقّ، بالرغم من أنه كان ضئيلا، إلاّ أنه كان يمتد قلـــيلا إلى الأسفل. بعد ذلك بمدة تنبّه إلى وجود تلوّث في الناب؛ لقد تحوّل لون الناب إلى لون أســـود، كأنه ناب متسوسة لذئب عجوز. كلما رأى شن تلك الناب السوداء، كان قلبه يؤلمه. ربما سقطت الناب خلال سنة. الأنياب تمثل مصدر الحياة بالنسبة إلى ذئاب السهوب. لو بقيت للجرو ثلاث أنياب غير قاطعة فلن يتمكن حتى من تمزيق اللحم، فما بالك بالصيد والقتل.

مـــع مضي الوقت، ازداد يأس شن عمقا حين رأى نتائج قراره غير الصائب تتجلى أمام عينيه. لم يكن في وسعه أن يعيد الجرو إلى السهوب، ولا أن يرحل ذات يوم متوغلا في أعماق الـــسهوب لزيارة صديقه الذئب. ندم على عدم تحريره للجرو قبل ذلك بأسابيع، عندما جاءت الذئبة الأم من أجله. يبدو أن البحث العلمي لم يكن من شأنه، فهو لا يتمتع بالمزاج الملائم، ولا يمـــتلك المـــؤهّلات الكافية للقيام به. لم يكن جرو الذئب فأرا للاختبار يربى لأغراض التشريح الطبـــي، لكنه كان صديقه ومعلّمه.

* * *

انتظر سكان السهوب بلهفة وصول فيلق إنتاج وإنشاءات منغوليا الداخلية. كانت الرسالة التي وقّعها بلغي، وأوليجي، وآخرون من الرجال كبار السن قد حقّقت الغرض منها؛ لقد قرّر الفيلق أن تُستثمر أولونبولاغ للرعي، على أن تتحول أولونبولاغ إلى كتيبة للمراعي، ويخصّص قـــسم من الأرض للزراعة. سيجري تحويل المراعي المتبقية وكل أراضي اللجان الأخرى للإنتاج الزراعـــي. وستكون منطقة نهر ماغوزي، حيث تربّى أحصنة حرب أوجيمشن الشهيرة، مزارع واسعة النطاق، مما لا يترك سوى منطقة صغيرة لكلّ من الزراعة والرعي.

لقـــد شمل التصميم الأساسي الذي وضعه الفيلق مُسبقا أراضي أولونبولاغ العريقة في القدم. وتضمّنت الفكرة الرئيسة القضاء بسرعة على نمط إنتاج حياة الرعي والبداوة الذي كان سائدا في المـــنطقة مـــنذ آلاف الـــسنين، وتـــشييد المستوطنات الثابتة. وسيعمل الفيلق على توفير الأموال والتجهيزات، إلى جانب فرق هندسيّة، وذلك لبناء منازل من الحجارة ذات سقوف من القرميد، وحظائـــر ثابتة للحيوانات مبنية بالإسمنت والحجارة؛ وكذلك فهي ستحفر الآبار، وتعبّد الطرقات

السريعة، وتشيّد المدارس، والمستشفيات، ومكاتب البريد، وصالات الاجتماعات الرسمية، والمحالّ التجارية، وقاعات المسرح والسينما. وستعمل الفرق كذلك على استصلاح الأراضي الخصبة لغرض زراعة الأعشاب والحبوب التي تُستخدم لإطعام الحيوانات، بالإضافة إلى الخضروات. وستُهيّئ فرقا للحصاد الميكانيكي والنقل، ومحطّات للجرارات. ستزيل كلّ أثر للأضرار التي خلّفتها الذئاب، والأمراض، والحشرات، والقوارض. وستعزّز قدرة السهوب على مكافحة الكوارث التي تحدث بشكل مألوف. لقد أرادوا أن يضمنوا حياة مستقرة تدريجيا للرعاة، الذين عاشوا منذ آلاف السنين في ظل أكثر الظروف قسوة وصعوبة، حتى يرفلوا بالسعادة ورغد العيش.

تطلع الطلاب والرعاة الشباب، بالإضافة إلى أغلب النساء والأطفال، إلى وصول الفيلق، كانوا يتوقعون رؤية بشائر المستقبل الجميل الذي وصفه باو شنغوي، وكوادر الفيلق. لكن معظم الرعاة الطاعنين في السن من جهة، ومتوسطي الأعمار من جهة أخرى، لاذوا بالصمت. ذهب شن زن للتحدث إلى الرجل العجوز. تنهّد بلغي، وقال: "كنا دائما نريد تشييد مدرسة لأطفالنا، وراودتنا الآمال ألاّ نضطرّ بعد اليوم إلى أن نأخذ مرضانا إلى مستشفى اللواء على عربة تجرها الثيران أو الأحصنة. ليست لدينا مستشفى، والكثير من الناس قد ماتوا لأسباب تافهة. ولكن ما الذي سيحدث للسهوب؟ إنها حتى الآن واهنة لا تقوى على تحمّل ثقل المواشي. إنها مثل عربة ثيران يمكنها أن تحمل عددا محدودا من الناس والحيوانات لا غير. المزيد من الناس مع آلاتهم سيؤدي إلى انقلاب العربة، وعندما يحدث ذلك، فأنتم من صينيي الهان سترجعون إلى دياركم ليس إلاّ. لكن ماذا عنا نحن؟".

كان الأمر الذي يشغل بال شن أكثر من مشاغل بلغي هذه هو مستقبل الذئاب. حالما يأتي الفلاحون سيكون مصير البجع، والبط، والإوز البري بين أمرين: إمّا أن تُؤكل، أو تطير إلى أماكن بعيدة. لكن الذئاب ليست طيورا. هل سينتهي بها الأمر، بعد أجيال متعاقبة عاشت في السهوب، أن تتعرّض للإبادة عن آخرها، أو أن تطارد إلى خارج الصين، موطنها الأصلي؟

بعد أن صبّ كوبين من الشاي، قال يانغ لشن: "من كان يفكّر في أن الفيلق سيكون هنا بهذه السرعة؟ لقد كرهت الحياة العسكرية في زمن السلم، وقد تمكنت بصعوبة أن أتفادى إرسالي إلى فيلق هيلونغيانغ للإنتاج والإنشاءات. من كان يفكّر في أن أصبح ذات يوم خاضعا لسلطة نظيره الذي في منغوليا الداخلية؟ لا أعرف ما الذي سيحدث لأولونبولاغ، لكن علينا أن نفكر في شيء نفعله للذئاب، وبسرعة".

فيما كانا يتحادثان، أقبل نحوهما حصان يعدو سريعا عبر ممرّ عربات الثيران، مخلّفا وراءه سحابة طويلة من الغبار الأصفر. عرفا من نظرة واحدة أن زانغ جيوان قد عاد للحصول على شيء من الراحة.

* * *

جلسوا على الأرض لتناول القليل من الدخن المطهي والمغلي بوساطة البخار، ولحم الضأن المطهي مع الفطر، والمتبّل بزهور كراث بري.

– "لديك حصان سريع، ويبدو أنك قد أتيت مسرعا محمّلا بجعبة من الأخبار"، قال يانغ لزانغ، "إذا أخبرنا عن الفيلق".

– حسنا، لقد أصبح مكتب الفرقة الآن مقرّا للفيلق، مع وصول المجموعة الأولى من الكوادر، نصفهم منغوليون والنصف الآخر من الهان. ربما يكون واجبهم الأول هو إبادة الذئاب. لقد استبدّ بهم الغضب عندما عرفوا أن عدد الأحصنة الصغيرة التي قتلت كان كبيرا. قالوا إن الخطوة الأولى التي ينبغي للجيش تنفيذها بصورة تقليدية عندما يصل إلى السهوب هي أن يزيل قطّاع الطرق عن وجه الأرض. في هذه المرة سيقتلون الذئاب أولا. لقد أرسلوا رجالهم فعلا. يقولون إنهم يفعلون ذلك من أجلنا، لكن ذلك جعل المنغوليين الطاعنين في السن في وضع حرج. إن محاولة شرح فوائد الذئاب لفتيان من الفلاحين يلبسون زيا عسكريا يشبه تماما تفسير معزوفة موسيقية لثور. الذئاب مكتنزة بالفراء الآن، وجلودها تباع بأعلى الأسعار. إن كوادر الفيلق لا يتلقّون رواتبَ جيدة؛ حتى ضبّاط الأركان والموظفون لا يتقاضون سوى ستين أو سبعين يوانا تقريبا في الشهر. يمكن لجلد الذئب أن يوفّر لهم عشرين يوانا، بالإضافة إلى مكافأة. ذلك هو السبب الذي جعلهم متلهفين للبدء في العملية".

تنهّد يانغ كي. "أيتها الذئاب المنغولية"، قال، "لقد اقتربت النهاية بالنسبة إليك. الموقف قد تغيّر؛ عصر الأبطال قد انتهى. أسرعي بالفرار إلى منغوليا الخارجية".

31

في الصباح الباكر توقفت عربتان عسكريتان مكشوفتا السقف إلى جوار خيمة شن زن. حين رأى جرو الذئب أجساما عملاقة وشمّ رائحة الغازولين للمرّة الأولى، اندفع مسرعا إلى داخل حفرته. أما الكلاب، من جهة أخرى، فقد أحاطت بالعربات وهي تنبح بجنون. خرج شن ويانغ مسرعين لإيقاف الكلاب عن النباح وطردها بعيدا.

انفتح الباب ليكشف عن باو شنغوي وأربعة جنود، اتّجهوا مباشرة إلى حفرة جرو الذئب. لم يكن شن، ويانغ، وغاو يعرفون ما الذي كان يحدث، فاتجهوا نحوهم. حاول شن أن يبقى هادئا. "أيها المدير باو، لقد جئت بشخص ما لرؤية جرو الذئب".

ابتسم باو. "دعني أعرّفكم إلى بعضكم بعضا". أشار إلى ضابطين في الثلاثين من عمرهما. "هذان الرجلان ينتميان إلى السرية المتقدمة للفيلق، ضابط الركن زو وضابط الركن باتيل". ثم أشار إلى السائقين. "وهذا هو العجوز ليو وهذا هو الفتى وانغ. إنهم سيثبتون مواطئ قدم لهم هنا ثم يستقدمون عوائلهم عندما يكتمل تشييد المنازل في موقع مكتب الفيلق. لقد أرسلوا لمساعدتنا على قتل الذئاب".

صافحهم شن، كان قلبه ينبض بعنف. دعاهم إلى الداخل لارتشاف الشاي.

- "لا داعي إلى ذلك"، قال باو. "سنرى الجرو أولا. أخرجه لنا؛ هؤلاء الضباط جاؤوا إلى هنا خصيصا لرؤيته".

أجبر شن نفسه على أن يبتسم. "إذا، فأنتم مهتمّون بالذئاب، أليس كذلك؟".

بلهجة ساكني مقاطعة شانغزي[1] المميّزة بخشونتها، قال زو بمودّة: "الذئاب قتلة متعطشة إلى الدماء، لذا تم إرسالنا من قبل قادة الفرقة والفيلق إلى هنا لإبادتها. نحن لم نشاهد ذئاب السهوب أبدا، ولهذا السبب فإن العجوز باو قد اصطحبنا إلى هنا".

أضاف باتيل، الذي تكلم بلهجة ساكني مقاطعة شاندونغ[2]، قائلا: "العجوز باو يقول إنك وآخرين تعرفون الشيء الكثير عن الذئاب، وإنكم ماهرون في قتلها والاستيلاء على جرائها، وإنك تربي واحدا منها لتتمكن من دراسة طبيعة الذئاب عن كثبٍ. إنها خطوة ذكية، وشجاعة. سنحتاج إلى مساعدتك عندما نذهب لمطاردتها".

(1) شانغزي: مقاطعة تقع في القسم الشرقي من وسط الصين. (المترجم)

(2) شاندونغ: مقاطعة ساحلية تقع شمال شرق الصين. (المترجم)

كان الرجال يتمتعون بروح المودّة والألفة، وشعر شن أنه في حال أفضل بعد أن علم أنهم لم يأتوا إليه لقتل الجرو. "الذئاب... الذئاب حيوانات معقّدة"، قال بتلعثم. "سيتطلّب الأمر أياما لأن أخـبركم بكـل مـا أعرفه عنها. لنذهب ونرى الجرو الآن. ابقوا في الخلف؛ ولا تدخلوا الحظيرة. إنه يعضّ الغرباء. كاد أن يعضّ شخصا من منتسبـي الفرقة ذات مرة".

تناول شن قطعتيَ لحم من كيس، وأخذ لوحا خشبيا قديما يُستخدم لتقطيع اللحم عليه قبل أن يمـشي بهـدوء باتجاه فتحة الوجار. وضع اللوح على الأرض وصاح، "ذئب صغير، ذئب صغير، وقت الطعام". انطلق الجرو إلى خارج الوجار، ووثب فورا على اللحم. سارع شن ودفع باللـوح حـتى أغلق به المدخل قبل أن يخرج من الحظيرة بسرعة. كان الجرو عادة يتغذى في الصباح وما بعد الظهيرة. لكن هذه هي المرة الأولى التي يقدّم له فيها طعاما في وقت مبكر بعد الظهر، مما جعله سعيدا للغاية؛ صار يمزّق اللحم بنهم. تراجع باو والآخرون بعيدا عنه.

قـرفص الأشـخاص المـراقبون في شبه دائرة. مع وصول هؤلاء الرجال وروائحهم غير المألوفة، بدا أن الجرو كان يتصرف بشكل غريب. وبدلا من أن يهاجمهم مهدّدا، مثلما اعتاد أن يفعـل، دسّ ذيله بين قائمتيه وجعل جسده يبدو أصغر حجما مما هو عليه، فيما نقل قطعة من اللحم إلى الطرف البعيد من الحظيرة، حيث وضعها على الأرض، ومن ثم رجع ليحضر القطعة الثانـية. وبينما انتصبت شعيرات عنقه، تقدّم خطوات وبدأ بالتهام اللحم، لكنه لم يكن مرتاحا لوجود عدد كبير من الناس الذين أحاطوا به. بعد بضع قضمات، بدّل من سلوكه، حيث صار خطمه متغضّنا وكشّر عن أنيابه، وهجم على الجنود. داهمتهم نظراته المتوحّشة، وسرعته بشكل غـير متوقع، فما كان من الرجال الخمسة المرتعبين جميعا إلا أن تراجعوا وسقطوا على الأرض. حتى مع وجود السلسلة، لم يكن الجرو يَبعد عنهم إلاّ ثلاث أقدام فقط.

اعـتدل الـضابط باتيل في جلسته، ونفض التراب عن يديه. "هذا حيوان متوحش حقا، وأكثر جشعا من كلابنا الذئبية. لقد أنقذتنا السلسلة".

- "لم يبلغ عمره سنة بعد، وقد أصبح الآن كبير الحجم مثل حجم كلب ناضج"، قال زو. "شـكرا لـك لأنـك أتيت بنا إلى هنا، سيد باو. الآن أشعر حقا وكأنني في ميدان معركة". استدار نحو باتيل. "الذئاب أسرع وأكثر دناءة من الكلاب. هجماتها تشبه البرق في سرعتها".

أومـأ باتيل برأسه فيما استدار الجرو ووثب على اللحم، ازدرده فيما كان يصدر زمجرة خشنة ومهدّدة.

قدّر الرجلان قياسات حجم الجرو ببصيرتيهما وألقيا نظرة فاحصة إلى فرائه وجلده. لقد استنتجا أن من الأفضل التصويب على الرأس أو الصدر جانبيا. ذلك يمكن أن يقتل الذئب من دون إلحاق ضرر بالجلد.

- "هـؤلاء الفتـيان يعرفون عملهم جيدا"، قال باو، بينما كان وجهه مشرقا، "كان جميع الرعاة وأغلب الطلاب يتّخذون موقفا معارضا من تربية هذا الجرو، لكنني أخبرهم أن يستمروا في عملـهم. إذا عـرفت عـدوك مثلما تعرف نفسك، لا يمكنك أن تخسر في معركتك معه. لقد اصطحبت الكثير من الناس إلى هنا ليروا الجرو. إن الصينيين، الذين يخافون الذئاب، متلهفون أكثر مـن غيرهـم لرؤيتها. إنهم جميعا يعترفون بأنه حيوان أفضل من تلك التي يشاهدونها في حديقة الحـيوانات. إنهـا فرصـة نادرة لرؤية ذئب حي عن قرب بالنسبة إليهم. هذا هو الذئب الوحيد الموجود هنا. عندما تصل قيادة الفيلق للتقصي سأجعل من هذا المكان أول نقطة يتوقفون عندها".

- "إنني متأكد من أنهم سيأتون عندما يسمعون عن جرو الذئب المنغولي الشهير". بعدها استدار زو نحو شن. "عليك التأكد من أن السلسلة والعمود يوفران الأمان".

نظـر باو إلى ساعته. "والآن لنرجع إلى العمل. لقد جئنا إلى هنا ليس لغرض رؤية الجرو وحـسب، ولكن لنطلب من أحدكم مرافقتنا أيضا. هؤلاء الرماة الماهرون قد أرسلوا لمساعدتنا علـى إبادة بلاء الذئاب. لقد أطلق الضابط زو النار على صقر كان يحلق عاليا في السماء يوم أمـس. مـن الأرض كان يبدو مثل حبة البازلاء. لم يتطلب ذلك سوى طلقة واحدة. إذا أي منكم سيرافقنا؟".

غطـس قلب شن في أعماقه. ها قد وصل عدو ذئاب أولونبولاغ الفتاك. على إثر النموّ السريع لأعداد الفلاحين الوافدين، كانت العربات العسكرية، وقوات الخيالة قد شقت طريقها تدريجيا حتى وصلت أخيرا إلى الحدود. "رعاة الأحصنة يعرفون أين يمكن العثور على الذئاب"، قال باكتئاب. "أحضروا واحدا منهم لإرشادكم".

- "الـرعاة كبار السن لن يوافقوا على المجيء"، قال باو، "وأنتم الرعاة الشباب لا فائدة تُرجـى مـنكم. لقـد ذهب جميع الرعاة المتمرسون إلى الجبال لرعاية الأحصنة. ولأن هذين الضابطين قد تكبدا عناء المجيء إلى هنا وقطعا كل هذه المسافة من الطريق، فلا بدّ من أن يرافقنا أحدكما، هذه المرة لا غير".

- لماذا لا تطلب ذلك من دورجي، إنه أشهر قاتل ذئاب في الفرقة؟

- "سبق أن اصطحبه نائب القائد وإياه. القائد لي يعشق الصيد، خصوصا وهو يتنقل على عربة متحركة". ألقى نظرة أخرى على ساعته. "كفى تضييعا للوقت".

بعد أن أدرك شن أنه ليس لديهم من خيار، قال ليانغ، "لِمَ لا تذهب أنت؟".

- إنني لا أعرف الذئاب مثلما تعرفها أنت. إنها... من الأفضل أن تذهب أنت.

- "سأحـسم الأمر"، قال باو وقد نفد صبره. "شن، أنت سترافقنا. لكن إذا كنت مثل بلغي، دائما تترك الذئاب تفلت من الفخ، وتتسبّب في عودتنا فارغي الأيدي، فسأقتل جروك. لا أريد مزيدا من الهراء. والآن هيا نذهب".

شحب وجه شن؛ تقدم فطريا خطوة ليسد عليهم الطريق نحو الجرو. "حسنا، سأذهب. إنني مستعد".

* * *

شقت العربتان طريقهما باتجاه الغرب، تصاعدت على إثر ذلك سحابتان من الغبار الأصفر.

لم يكن شن قد ركب سيارة منذ مدة تزيد على سنتين. إنها فرصة نادرة لممارسة الصيد بمثل هذه الطريقة التي كانت ستجعله يشعر بالانبهار الشديد بالذئاب لو كان قد وصل لتوّه إلى السهوب، ولو لم يكن قد تعلّم دروسا من الذئاب. يا له من شيء مثير، يا له من شيء ممتع أن يندفع المرء عبر السهوب الشاسعة مثل الريح لمطاردة الذئاب! لا بدّ من أن يشعر المرء حينها بالاقتناع أكثر مما لو كان يصطاد الثعالب مع الأرستقراطيين البريطانيين، أو يصطاد الدببة في إحدى الغابات الثلجية مع القياصرة الروس، أو حين يشارك في حملات الصيد بالتطويق بمرافقة آلاف الأحصنة، مثلما كانت تفعل ذلك عائلة المانشو الإمبراطورية.

لكن في تلك اللحظة بالذات، كانت الرغبة الوحيدة التي شعر بها شن هي أن تتعطل العربة. شعر كأنه خائن يقود جيشا لاعتقال أصدقاء له. كان باو يعرف حقيقة شعوره إزاء الذئاب، وتساءل كيف يستطيع أن يحمي جرو الذئب الذي لديه وينقذ حياة الذئاب الأخرى.

لقد بدأت حملة إبادة الذئاب التي أراد الفيلق أن يشنّها منذ مدة في أنحاء السهوب كافة. في هذه المرة، ستجري مطاردة الذئاب حتى تخرج من الصين بل حتى تخرج من مسرح التاريخ، بعد أن حلّت عليها اللعنة، وأدينت بسبب سمعتها الرهيبة، وعندها سيمحى من الذاكرة أي أثر من آثارها وإنجازاتها التي لا يمكن أن تقدّر بثمن. لم يكن هناك من أحد سوى بلغي، والرجال الذين كرّسوا حياتهم للسهوب وعشقوا رمز الذئب، وصديقيه في الخيمة يمكن لهم أن يفهموا إلى أي مدى كان حزينا. لقد تجلّى الأسى الذي كابده شن في تفكيره الذي تميز بكونه متطورا جدا، وقديم الطراز في الوقت ذاته.

على أرض أولونبولاغ، كان المرء يواجه نوعا مختلفا من الرياح كلما اجتاز خمسة أميال، ونوعا آخر من الأمطار كلما اجتاز عشرة أميال أيضا. الآن سارت العربة التي ركب فيها شن على طريق ترابي وموحل. كانت رياح الخريف التي تعوي تساعد على تصفية الأفكار التي تجول في رأسه. استنتج أن عليهم الذهاب إلى مكان يمكنهم فيه العثور على الذئاب، لكنه مع ذلك مكان تستطيع الذئاب أن تهرب منه بسهولة.

استدار نحو باو الذي كان جالسا في المقعد الخلفي. "إنني أعرف أين توجد الذئاب، لكن العربة ستكون عديمة النفع. المكان وعر، ويكثر فيه القصب".

حـــدّق إلـــيه باو. "لا تلعب معي. البعوض يتركز في مناطق القصب في هذا الوقت من الـــسنة، ولـــن تجد ذئابا هناك. هل تعتقد أنني لا أعرف ذلك بعد ممارستي لصيد الذئاب خلال الأشهر الستة الماضية؟".

قـــال شـــن موضحا قصده: "ما أعنيه هو أننا لا نستطيع التوغّل في الجبال، أو في منطقة القـــصب، وعلينا التوجّه إلى التلال الرملية والمنحدرات الكبيرة غير الحادة حيث لا يوجد هناك الكثير من البعوض".

لكـــن باو ما كان ليسمح له بأن يوقعه في الفخ بتلك السهولة. "لقد طارد رعاة الأحصنة الذئاب حتى ذهبت بعيدا عقب تلك الحادثة التي وقعت للأحصنة الصغيرة على التلال الرملية. لم نـــشاهد أي مـــنها يوم أمس عندما ذهبنا مسرعين إلى هناك. يمكنني القول إننا لن نستفيد من كفاءتـــك اليوم. لذا أصغِ إليّ جيدا، إنني لا أتراجع عن كلمتي. نحن لم نقتل أي ذئب يوم أمس، وهو ما سبب لنا اكتئابا شديدا". سحب باو نفسا من سيجارته ونفث الدخان نحو رأس شن.

أدرك شـــن الصعوبة في خداع شخص يتمتع بدرجة من الدّهاء كانت كافية بالنسبة إليه لأن يتسلق درجات السلم من قاع البيروقراطية. "أعرف بقعة أخرى من الأرض الرملية"، قال، "في الـــشمال الغربـــي من جبال شاغانوول. إنها منطقة رملية لا ينمو فيها إلاّ قليل من العشب بـــسبب الـــرياح، لكن هناك الكثير جدا من الفئران وكلاب المروج، وأعداد قليلة من المرموط أيضا. الآن بعد أن أدركت الذئاب أنه لم يتبقّ لها واحد من الأحصنة لتلتهمه، فهي تدرك أيضا أن عليها الانتقال إلى أماكن أخرى توجد فيها الكثير من الحيوانات الصغيرة".

قرر شن أن يأخذهم إلى ركن يقع في أقصى شمال غرب المراعي، حيث التربة رملية ضعيفة والعـــشب قلـــيل. كـــان ذلـــك هو الآخر مكانا جيدا يصلح لتفادي لسعات البعوض ورعي الأحـــصنة، لكنه قريب من الحدود ولا يأخذ الرعاة أحصنتهم قط إلى هناك. كان شن يأمل أن يستطيع الجنود رؤية الذئاب التي يمكنها بسهولة عندئذ الهرب واجتياز الحدود.

فكّـــر باو في الاقتراح مليا. ابتسم وقال: "ربما أنت على حق. لماذا لم أفكر في ذلك؟ سيد ليو، اتّجه شمالا. ذلك هو المكان الذي سنذهب إليه اليوم، هيا انطلق بأقصى سرعتك".

أضـــاف شـــن قائلا: "من الأفضل لنا أن نمشي إذا أردنا قتل الذئاب. هذه العربة تصدر ضوضاء عالية، والذئاب ستجري وتختبئ داخل العشب عندما تسمع صدى وقع عجلاتها على الأرض. لقد هطلت أمطار كثيرة هذه السنة، والعشب صار كثيفا، مما يجعل من السهولة عليها أن تختفي عن أنظارنا".

قال الضابط زو: "ما عليك إلاّ أن تعثر على الذئاب، واترك الباقي لي".

شعر شن أنه اقترف خطأ جسيما.

انطلقوا مسرعين إلى الشمال الغربـي، متتبّعين ممرا قديما كان قد مهّده الرعاة الذين كانوا يتنقلون موسميا من مرعى إلى آخر. كان عشب الخريف قد نما مجدّدا على مراعي استيلاد الحملان، التي رعت فيها المواشي في الربيع، فيما كان العشب الكثيف يتهادى كالأمواج، بينما رقّطته أقحوانات متمايلة. انبعث أريج قوي هو من الخصائص النموذجية للعشب الخصب حتى ملأ شذاه أنوفهم. تبعتهم بضعة من طيور السنونو ذات لون أرجواني لتأكل الفراشات وغيرها من الحشرات التي أثارتها عجلات العربة، لكنها سرعان ما تخلفت عنهم، لتحل محلها طيور أخرى ليس إلاّ، مما أوجد قوسا أرجوانيا بعد آخر.

تنشّق شن العطر المبهج لعشب الخريف وزهوره. هذا هو المكان الذي كان من المؤمل أن يرجعوا إليه كي تولد الحملان هناك. كان سبعون بالمئة من دخل المراعي يأتي من مبيعات الأصواف والخراف، لذا كانت مراعي الاستيلاد مكانا في غاية الأهمية، إنها مصدر من مصادر الحياة. كان شن يولي اهتماما خاصا بالمراقبة على طول الطريق ورأى أن هناك عشبا رائع النمو، وكأنه حقل حنطة تم الاهتمام به بعناية فائقة. لم تنصب أي خيمة هنا منذ أن انتقل فريق الإنتاج إلى المراعي الصيفية. شعر بنوع من الامتنان تجاه الذئاب ورعاة الأحصنة. كان مثل هذا المرعى المغري، الذي يعبق بالعطر الفواح سيتعرض إلى الدمار من قبل الغزلان، والأرانب البرية، والفئران لولا وجود الذئاب.

كل شيء رآه شن ضمن بانوراما الخصوبة هذه كان قد أسهم في تفاقم الصعوبة التي واجهها رعاة الأحصنة الذين، بالرغم من الحرارة والبعوض، قد عملوا ليلا ونهارا للسيطرة على شهية الأحصنة وهجماتها النهمة من خلال سوقها إلى مرعى على التلال لترعى عشبا من الدرجة الثانية، كان متناثرا في أماكن متفرقة كأنه لحية الماعز، أو عشبا خلفته الماشية والخراف وراءها. لم يكونوا أبدا يسمحون للأحصنة أن تقترب من مرعى الاستيلاد. وفي الوقت الذي كانوا فيه يحبون أحصنتهم مثلما يحبون حياتهم، فإنهم كانوا يعاملونها، عندما تقترب للرعي، وكأنها لصوص أو جراد. ولولا وجود رعاة الأحصنة لما بقي في هذا المرعى، وهو مصدر للحياة، شيء سوى فضلات تلك الأحصنة من العشب الذي لم يُهضم جيدا، وكتل من العشب الميت الذي أفسده بول الأحصنة. كيف يمكن للجنود القادمين من مناطق زراعية أن يفهموا كل ذلك؟

هذه الأفكار جعلت من المستحيل على شن أن يتمالك نفسه. "انظر كيف أن هذه المراعي محميّة جيدا؟". قال للضابط زو. "عندما جاءت الفرقة إلى هنا لغرض استيلاد الحملان في الربيع كانت عشرات الآلاف من الغزلان قد اندفعت إلى هنا من منغوليا الخارجية. لم نتمكن من مطاردتها وإبعادها، حتى باستخدام البنادق. حين كانت تهرب خلال النهار، فهي تعود ليلا لتتقاتل على العشب مع النعاج الوليدة. من حسن الحظ أن الذئاب كانت موجودة، وفي خلال

أيام قليلة اختفت الغزلان. ولولا وجود الذئاب لما بقي عشب للنعاج، ولا حليب للحملان التي ولدت؛ ولكنا قد خسرنا عشرات الآلاف من الحملان. الرعي يختلف كثيرا عن الزراعة. عندما تحدث كارثة ما، فإن أسوأ الخسائر التي يمكن أن يتكبدها الفلاح هي خسارة محصول سنة، لكن أي كارثة تحصل هنا، ربما تعني خسارة جهود ثماني أو عشر سنوات، ويمكن أن يصل ذلك إلى مجموع دخل أحد الرعاة طوال حياته".

هزّ زو رأسه، بالرغم من أن عينيه اللتين تشبهان عيني صقر كانتا تتابعان البحث في أرجاء السهوب. وبعد وهلة قال: "كيف يمكنكم الاعتماد على الذئاب في قتل الغزلان؟ ذلك شيء متخلف كثيرا. الرعاة لا يمتلكون إلاّ بنادق رديئة، وهم رماة غير بارعين، ولا تتوافر لديهم شاحنات. عليكم أن تروا في الربيع المقبل. سنستخدم السيارات، وبنادق الصولة، والأسلحة الرشاشة. لا يمكن لأي غزال أن يفلت من بين أيدينا، ولو كان عددها كبيرا. كنت أصطادها في ناحية الغرب. أفضل طريقة في ذلك هي إضاءة المصابيح الأمامية ليلا؛ إنها تخاف الظلام، لذا فهي تتجمّع حول الضوء. وبعد ذلك تستمر أنت في القيادة وتطلق النار خلال المسير. باستطاعتك أن تقتل مئات منها في ليلة واحدة. إذا، فأنتم لديكم غزلان هنا. هذا شيء رائع. كلما كانت أعدادها أكثر كلما كان ذلك أفضل. سيحصل منتسبو مقر قيادة الفرقة والفيلق الزراعي على اللحوم الآن".

- "انظروا!"، قال باو شنغوي بصوت خافت، وكان يشير إلى يساره.

نظر شن من خلال منظاره المقرب وقال: "إنه ثعلب. دعونا نمسك به".

راقبه باو جيدا. "نعم"، قال، وهو محبط. "ليس إلاّ ثعلبا. انسَ أمره". ثم استدار إلى زو، الذي كان قد رفع بندقيته. "لا تطلق النار. الذئاب لديها آذان حادة السمع. سنرجع بخفي حنين إذا أفزعتها".

- "هذا يوم حظ سعيد بالنسبة إلينا"، قال زو بفرح. "أينما توجد ثعالب، فهناك ذئاب حتما".

كلما اقترب الرجال من المرعى الرملي رأوا مزيدا من أشكال الحياة البرية: سنونو الرمال، وطيهوج الرمال، وثعالب الصحراء، وفئران الرمال. كانت طيور طيهوج الرمال الحمراء بطيئة الحركة هي الأكثر انتشارا؛ طارت أمامهم في أسراب كبيرة، بينما صدر عن احتكاك ريشها صوت مثل صوت هديل الحمام. أشار شن إلى المرتفع قليل الانحدار الذي يبعد عنهم مسافة قصيرة، وقال: "المنطقة الرملية خلف ذلك المرتفع تماما. يقول الرعاة كبار السن إنه كان هنا مرعى واسع وغدير. لكن منذ سنوات عديدة مضت، عانت أولونبولاغ من جفاف مرعب، مما أدّى إلى جفاف البحيرات، والأنهار، والينابيع، كل عيون الماء جفت ما عدا ذلك الغدير. لذا تم سوق المواشي إلى هنا من أجل المياه. من الفجر وحتى الغسق، كانت أعداد كبيرة من الحيوانات تصطف هنا، واستمرت تدوس العشب وترعى. لم يمضِ إلاّ أقلّ من سنتين حتى تحول المرعى إلى

أرض قاحلة. من حسن الحظ أن هذا الغدير لم يجفّ، وعاد العشب لينمو بصورة بطيئة. لكن لا بـدّ لـنا من انتظار عقود أخرى من السنين قبل أن يعود المرعى إلى حالته الأصلية. السهوب تتعرض إلى الدّمار بسهولة بحيث تتحول إلى صحراء كلما تجاوزت طاقتها الاستيعابية".

كانـت الفئران تفرّ مسرعة وهي تصأصئ بعيدا عن العجلات. "تشمل طاقة الاستيعاب تلك الفئران أيضا"، قال شن. "التدمير الذي تسببه الفئران أسوأ بكثير ممّا تسبّبه المواشي. الذئاب هـي السبب الرئيس في جعل السهوب بمنأى عن التعرض للإنهاك المفرط. إذا قتلت ذئبا سأفتح بطنه، وأريك ما الذي تحتويه. في هذا الفصل يمكنك أن تعثر بالأساس على فئران، فئران الحقول بالتحديد".

– "لم أكن أعرف أن الذئاب تأكل الفئران"، قال زو.

– الجـرو الذي أربيه يأكلها. إنه يبتلعها حتى الذيل. السهوب لا تواجه بلاء الفئران لأن الـرعاة لا يقتلون الذئاب. إذا فعلتم ذلك الآن، ستنتشر الفئران بوحشية، وذلك سيؤدي حتما إلى كارثة على السهوب.

قاطعه باو. "عليك أن تتنبّه إلى مهمتك وتبحث عن الذئاب".

فـيما اقتـربوا أكثر من المرتفع، توتّرت أعصاب الضابط زو. تفحّص انبساط الأرض، وطلـب مـن السائق أن يتجه غربا. "إذا وجدت ذئاب هنا، فلا نستطيع مداهمتها على الفور. يجب أن نقضي على ذئب الحراسة أولا".

دخل الرجال واديا غير عميق يمتد من الشرق إلى الغرب. أحاطت الجبال بالممر الضيق من اليـسار، والتلال الرملية من اليمين. فيما نظر زو من خلال منظاره عالي الكفاءة، منقّبا الأرض العشبية في كلا الجانبين وهمس: "هناك ذئبان على التل إلى جهة اليمين". التفت ليشير إلى العربة الـتي كانت في الخلف. رأى شن الذئبين أيضا، كانا كبيرين، ويعدوان باتجاه الغرب، على بعد ثلاثة أو أربعة لي.

– "لا تذهب إلى هناك"، قال زو للسيّد ليو. "سنتّبع الممرّ الترابـي، ونحافظ على سرعة العربة نفسها. انظر إن كنت تستطيع أن تسوق العربة بموازاة الذئاب بحيث أستطيع إطلاق النار جانبيا عليها".

– "فهمت". استدار العجوز ليو باتجاه الذئاب بسرعة أكبر قليلا.

من الواضح أن الرجل كانت لديه خبرة قتالية. مضى باتجاه الذئاب على ذلك النحو بحيث لم يقلّص المسافة التي تفصله عنها وحسب، وإنما أوهم الذئاب أيضا بأنهم عابرو سبيل ليس إلاّ، وأنهم لم يكونوا يطاردونها. كانت عربات دورية المركز الحدودي تتبع قوانين صارمة تمنع الجنود من إطلاق النار في ظروف استثنائية، مما ساعد في الحفاظ على سرية وجودهم ومنحهم عنصر المباغتة. ونتيجة لهذا، فقد اعتادت الذئاب على وجود العربات في المنطقة.

حين رأى شن أن الذئاب لم تسرع في حركتها، شعر بوخزة في قلبه، وتوجّس خيفة من أنهـــا ستواجه المتاعب هذه المرة. لم تكن هذه عربات دورية اعتيادية؛ هؤلاء الرجال جاؤوا إلى هـــنا لقـــتلها. كانوا قناصين ماهرين لم يسبق للذئاب أن واجهت نظيرا لهم. كان مرمى نيران بنادقهم أكبر بكثير مما كان عليه مرمى نيران بنادق الرعاة.

أصبحت العربة تقريبا بموازاة الذئاب، وتقلصت المسافة التي تفصلهم عنها من ألف وخمسمئة يـــاردة إلى سبعمئة أو ثمانمئة ياردة؛ ازداد توتر الذئاب وأسرعت الخطى قليلا. لكن السيارات التي تحركت على الممر المغبر أربكتها؛ لم تكن قبل ذلك محترسة من البشر. تساءل شن فيما إذا كانت الـــذئاب تحاول إغراء مطارديها أو صرف انتباههم إلى مكان آخر. اتّخذ الراميان موضع التأهّب وصوّبا على الهدف، شعر شن بقلبه يقفز حتى بلغ حنجرته؛ ثبّت نظرته إلى حركات الضابط زو، على أمل أن تتوقف العربة عندما يطلق النار، وربما منح ذلك التوقف الذئاب فرصة للنجاة.

كانوا على وشك اللحاق بالذئاب؛ تقلصت المسافة إلى أربعمئة أو خمسمئة ياردة. توقفت الـــذئاب ونظرت باتجاه العربة؛ ومن ثم، بدا وكأنها قد رأت البنادق، فانطلقت على الفور تعدو باتجـــاه المرتفع الصخري. دوّت أصوات إطلاق النار. سمع شن صوت الطلقات ورأى الذئبين يسقطان في وقت واحد تقريبا. "تصويب ممتاز!"، صاح باو.

فجـــأة تـــصبب العرق البارد من شن. لم يكن يعتقد أن يتمكن رجلان في عربة متحركة إصـــابة هدفـــيهما من المحاولة الأولى ولا الذئاب أيضا على ما يبدو. لكن بالنسبة إلى قناصين بـــارعين لم يكن هذا سوى شيء فاتح للشهية. أعطى الضابط زو أمرا للسيد ليو، "اتجه بسرعة إلى المـــنطقة الـــرملية. هـــيا نذهب إلى هناك فورا". بعد ذلك أشار إلى العربة الأخرى. ذهبوا مسرعين إلى التل الرملي الذي في جهة اليمين.

قـــاد العجوز ليو عربته على التل مخترقا سهوبا رملية، حيث اتجه إلى أقرب وأعلى نقطة. وقـــف زو بينما كانت يده تمسك بمقبض يدوي مستطلعا المنطقة. كانت هناك مجموعتان قليلتا العـــدد بعـــيدتان من الذئاب تتنقلان منفصلتين عن بعضهما بعضا في الناحية الشمالية الغربية متّجهة مباشرة إلى الشمال. رأى شن من خلال منظاره أربعة أو خمسة ذئاب كبيرة في القطيع الـــذي اتجه شمالا، بينما كانت معظم الذئاب الثمانية أو التسعة التي في القطيع الآخر مجرّد جراء متوسّطة الأحجام ولدت في تلك السنة.

– "لـــنذهب وراء القطـــيع الذي يتّجه شمالا"، قال زو. ثم استدار نحو العربة التي خلفه، وأشار باتجاه المجموعة الشمالية الغربية. انفصلت العربتان وبدأت المطاردة.

كانت السهوب الرملية، بتلالها المنخفضة، تشكل ميدان معركة مثاليا بالنسبة إلى العربات. "تمـــسّكوا جيدا وراقبوني"، صاح العجوز ليو. "أستطيع أن أسقط واحدا منها من دون أن أطلق النار!".

مـــضوا بـــسرعة بالغة بحيث كان المرء يشعر أنهم كادوا أن يطيروا. تلألأت في ذهن شن عـــبارة *ســـرعة قاتلة*. على أرض السهوب، الغزلان وحدها هي القادرة على المنافسة إزاء هذه السرعة؛ حتى أسرع الأحصنة بأنشوطات خيالتها، أو الذئاب لا يمكنها أن تجاري تلك السرعة، حـــتى لـــو كانت تركض إلى حتفها. طاردت العربتان قطعان الذئاب كأنهما الموت ذاته. بعد عشرين دقيقة، صارت الذئاب التي كانت تبدو من بعيد بحجم حبات السمسم هي الآن بحجم حبات بازلاء خضراء، ثم صار يكبر حجمها ببطء حتى قاربت حجم حبات فول الصويا. لكن زو لم يطلق النار، مما حيّر شن. إذا كان يستطيع إسقاط صقر بحجم حبة بازلاء خضراء، فلِمَ لا يطلق النار الآن؟

– "الآن؟"، سأل باو.

– "لا تزال بعيدة جدا"، قال زو. "إذا أطلقنا النار الآن، سيتفرق القطيع. لكن إذا انتظرنا حتى نقترب أكثر، يمكننا قتل ذئبين آخرين من دون أن نفسد الجلود".

قال العجوز ليو وقد استبدت به الإثارة، "ربما استطاع كل واحد منا اليوم الحصول على جلد ذئب".

– "تنبّه لطريقك فقط"، قال زو. "سنصبح طعاما للذئاب إذا انقلبت العربة ونحن في داخلها".

مـــروا بكثيب رملي، وعلى حين غرة ظهرت أمامهم جثة ثور هائل ملقاة على تل رملي صغير. بدت قرونه المتكسرة مثل رماح أو بنادق، أو كأنها قرون وعل تستخدم كعائق في ميدان معركة قديم. تمكنت الذئاب من الوثوب فوقه، لكنه شكل عقبة كان من المستحيل على العجوز لـــيو اجتيازها، فصار يلف عجلة القيادة، مما جعل العربة تتمايل وتجنح جانبيا، وابتعد إطاراها الأمامـــيان عن الأرض. ارتمى الراكبون في مقاعدهم وكادوا أن يقذفوا إلى خارج العربة؛ كانوا يصرخون من الذعر.

احـــتكت العـــربة بكومة العظام؛ كان شن لا يزال مذهولا ويشعر بالدوار، حتى بعد أن استردت العربة وضعها المعتاد. عرف أن الذئاب قد بدأت باستخدام الطوبوغرافيا في تراجعها، وأن خدعـــتها هذه كادت تؤدي إلى تحطم العربة وقتل جميع من فيها. صرخ باو شنغوي، فيما بدا وجهه شاحبا كالرماد: "أبطِئ الحركة! أبطِئ الحركة!".

مـــسح العجوز ليو العرق البارد عن جبهته وأبطأ حركة العربة، مما وسّع المسافة الفاصلة بينهم وبين الذئاب.

– "كـــلا، تحـــرك بأقصى سرعة!"، صرخ زو فيما أصبحت الأحراش البرية ضمن مرمى البـــصر على الأرض الرملية. لقد سبق لشن أن أتى إلى هذا المكان ليرعى الخراف، وهو يعرف المـــنطقة جـــيدا. صاح: "الأرض التي أمامنا منخفضة أكثر ومليئة بالأحراش. يمكن بسهولة أن ننقلب. أبطِئ الحركة".

لكـــن لم يكن للكلمات أي تأثير على زو، الذي أمسك بمقبض يدوي، وكان يحدّق إلى الأمام مباشرة. "أسرع! أسرع!"، صاح.

ضغط العجوز ليو على دواسة الوقود حتى لامست أرض العربة، وانطلقت العربة بأقصى ســـرعتها، من وقت إلى آخر كانت عجلاتها ترتفع عن الأرض جميعها أو تسير بشكل منحرف على عجلتين. أمسك شن بمقبض يدوي فيما كان خائفا، ويرى شبح الموت يلوح أمامه، شعر بأحشائه تتقلب وتختض.

أدرك أن الـــذئاب كانت تستخدم جغرافية الأرض لصالحها وهي تفرّ لتنجو بحياتها، وأن مطارديها لن يقدروا على اللحاق بها حالما تدخل الأراضي المنخفضة.

صرخ العجوز ليو: "تلك ذئاب لعينة ذكية. لماذا تعدو نحو مكان مثل هذا؟".

قال الضابط زو ببرود: "تمالك نفسك. هذا ليس تمرينا، إنها حرب!".

اســـتمرت المطـــاردة المجنونة مسافة سبعة أو ثمانية لي أخرى، اقتربوا خلالها من الأراضي المنخفضة، والتي ترقّطت بنباتات برية بدت وكأنها بقايا أشجار مقطوعة. لكن الذئاب صارت تقترب رويدا رويدا حتى دخلت ضمن المدى المطلوب. "التف دورة كاملة!"، صاح زو. استدار ليو بالعربة حول نفسها كأنها سفينة حربية، بينما اتجهت بنادقها الثقيلة إلى الجانب. كان زو قد وضـــع الذئاب في المكان الذي أراده لها. "أطلق النار!" سقط الذئب الأضخم حجما، أصابه في الرأس. تبعثر قطيع الذئاب، لكن رصاصة أخرى أسقطت ذئبا ثانيا.

في الـــوقت نفسه تقريبا، كانت الذئاب المتبقية قد وصلت إلى الأحراش الجافة، وأصبحت خارج مرمى النار. عدت باتجاه الحدود واختفت عن الأنظار وسط الأعشاب. صمتت البنادق في ناحـــية الـــشمال الغربـــــي فيما توقفت العربة في المكان الذي التقى فيه المنحدر بالأرض المنخفضة.

قال زو وهو يمسح العرق عن حاجبه: "تلك الذئاب ذكية جدا. كان ينبغي أن أتمكن من إصابة المزيد منها".

رفع باو إبهاميه تعبيرا عن الإعجاب. "ذلك عمل مذهل! أربعة ذئاب في وقت لا يتجاوز ثلاثين دقيقة. كنت أحاول القيام بهذا العمل منذ ستة أشهر، ولم أقتل حتى الآن ذئبا واحدا".

قـــال زو، فيما كان لا يزال تحت تأثير نشوة عارمة: "الطوبوغرافية معقّدة كثيرا هنا، إنه مكان جيّد لحرب عصابات مع الذئاب. لا أستغرب من عدم القدرة على إبادتها".

تحـــركت العربة ببطء باتجاه الذئاب الميتة. كان الذئب الثاني قد أصيب في الصدر، كانت دمـــاؤه تلطـــخ الأرض المعـــشوشبة التي من حوله. حمل باو وليو الجثة الثقيلة إلى العربة. ركل العجـــوز لـــيو الذئب. "هناك لحم في جسد هذا الذئب يكفي لإطعام عشرة أشخاص". فتح صـــندوق العربة الخلفي، أخرج حقيبة مصنوعة من القنب، ووضعها على المقعد الخلفي. بعدها

أخرج كيسين كبيرين من الخيش، وأدخل كل ذئب في واحد منهما قبل أن يحمل الكيسين إلى صندوق العربة. ترك الباب الخلفي مفتوحا، حيث كان ينوي تحميل الجثتين الباقيتين.

أراد شن أن يشق بطن أحد الذئاب ليرى ما الذي بداخلها، لكن الجنود لم يكن لديهم اهتمام بسلخ جلودها هناك. "هل تنوون حقا أن تأكلوا لحم الذئاب؟"، سأل. "إنه حامض الطعم. الرعاة لا يأكلونه أبدا".

– "هراء"، قال العجوز ليو. "لحم الذئاب ليس حامضا؛ إنه مثل لحم الكلاب. لقد سبق لي أن أكلته في بلادنا. إنه أفضل من لحم الكلاب إذا كنت تعرف كيف تطهيه. انظر إلى مدى سمن هذا الذئب؟ لا يختلف طهي لحم الذئاب كثيرا عن طهي لحم الكلاب. تضعه في ماء بارد لمدة يوم واحد للتخلص من الرائحة الحادة للحم الطرائد، ثم تضيف إليه الثوم والفلفل الحار وتغليه عدة ساعات. إن رائحته تكون رائعة. في بلادنا، يمكن أن تخرج القرية بكاملها لطلب القليل إذا طهيت قدرا منه. الجميع يقولون إن لحم الذئب يعطيك الشجاعة".

– "الرعاة هنا يمارسون شيئا يسمّى الدفن تحت السماء"، قال شن، وقد تبطن كلامه بنوع من الخبث. "عندما يموت شخص ما، تحمل العائلة الجسد إلى أرض المدفن لتجعله طعاما للذئاب. هل أنتم حقا على استعداد لأكل لحم الذئاب التي تأكل لحم البشر؟".

لم يكترث ليو لكلامه. "أعرف كل شيء عن ذلك. إنه ليس شيئا مهما طالما أنت لا تأكل المعدة والأمعاء. الكلاب تأكل فضلات البشر، لكن هل سمعت بشخص يقول إن الكلاب قذرة؟ إننا نستخدم الغائط البشري في تسميد الخضروات. هل تعتبرها قذرة؟ نحن الصينيون نحب أن نأكل لحم الكلاب والخضروات. الفيلق جنّد الكثير من الناس في صفوفه بحيث تم تقنين تناول لحم الضأن. لقد جنّ جنون الناس وهم لا يفكّرون إلاّ في أكل اللحم. هذه الذئاب لن تكفي لإطعامهم جميعا. لكن هناك خرافا في العالم أكثر مما هناك من ذئاب". ظنّ ليو أنه كان يقول شيئا مسليا.

ضحك الضابط زو. "لقد أصدر قادة الفرقة لي أمرا في ما يخصّ لحم الذئاب قبل مجيئي إلى هنا. يجب أن أنقل هذه الذئاب إليهم الليلة. بعضهم يقولون إن لحم الذئب يمكن أن يعالج التهاب القصبات الهوائية، وكان قليل من الأشخاص الذين يعانون من ذلك المرض قد سجّلوا أسماءهم لهذا الغرض. إنني مثل الطبيب. إن قتل الذئاب عمل رائع؛ فأولا، تتخلص من بلاء يعاني منه الناس؛ وثانيا، تحصل على جلده؛ وثالثا، تساعد المرضى؛ ورابعا، تتدبر أمر الناس الذين يتلهفون لأكل اللحم. هل رأيت؟ إنها أربعة طيور بحجر واحد. أربعة مقابل واحدا!".

أدرك شن أنه لن يقدر أبدا على إخماد رغبتهم الجامحة في قتل الذئاب حتى إذا أراهم معدة ذئب مليئة بالفئران الميتة.

قاد ليو العربة عائدا إلى المكان الذي سقط فيه الذئب الأول. كان الرأس مهشّما، لأن الرصاصة اخترقته من الخلف، مما أخرج مادة الدماغ وكانت الدماء تنز على الأرض. شعر

بالارتياح حين لم يشاهد شريطا من اللون الأبيض على رقبة الذئب وصدره. لم يكن ذلك ملك الذئاب الأبيض. لكنه كان متأكدا من أنه أحد الذكور الكبرى التي قادت بضعة ذئاب سريعة لإغراء العدو ليبتعد عن القطيع. لكن الذئب لم يكن متهيئا لمقاومة أشياء مثل العربة والقناصين الماهرين وأسلحتهم الحديثة.

بعد أن مسح كل من ليو وباو الدماء ومادة الدماغ بكتل من العشب، وضعا الذئب داخل الكيس وهما يشعران بالسعادة، وحملاه إلى الباب الخلفي للعربة، وربطاه هناك. "إن حجم رأس هذا الذئب بحجم ثور عمره سنتان تقريبا"، قال ليو معلقا. صعدوا إلى العربة التي توجهت نحو الضابط باتيل.

التقت العربتان، أشار باتيل إلى كيس مصنوع من القنب مليء بشيء ما على المقعد الخلفي وصاح: "لم نجد شيئا سوى جذوع أشجار صفصاف مقطوعة ولم نستطع التحرك. كان علي أن أطلق النار ثلاث مرات كي أصيب جروا. هذا القطيع كله كان من الإناث والجراء، إنها عائلة كبيرة واحدة".

قال زو بانفعال: "الذئاب التي هنا ذكية جدا. لقد تركت الذكور أفضل طرائق الانسحاب للإناث وجرائها".

صاح باو: "ذئب آخر! إنه نصر. نصر عظيم! هذا أسعد يوم منذ المجيء إلى المرعى. أخيرا، إنها فرصة للتنفيس عن غضبي. لنذهب ونأخذ الذئبين الميتين الآخرين. لقد أتيت بالطعام والشراب، بإمكاننا أن نحتفل".

قفز شن إلى الخارج ليتفحص الجرو. فك رباط الكيس ورأى أنه كان شبيها بجروه لكنه أكبر. استغرب من أن يكون جروه أصغر من الجراء البرية بالرغم من أنه كان يقدّم له أفضل الطعام الذي يتمكن من الحصول عليه. كان الجرو البري قد اكتمل نموه في أقل من سنة، وتعلم الصيد، وكيفية إطعام نفسه. لكنه مات على يد الإنسان في الوقت الذي كانت فيه حياته على وشك أن تبدأ. دعك شن رأس الجرو الميت كما لو أنه كان يلمس الجرو الذي لديه؛ لقد مات هذا الجرو لأنه أراد الإبقاء على جروه.

تحركوا جنوبا. شعر شن بالتعاسة وهو يلتفت إلى الوراء ويلقي نظرة باتجاه سهوب الحدود. في أقل من ساعة، قُتل ذئب من الذكور الكبيرة، وذئب قائد في نوع من الهجوم لم يسبق لهما أن واجها مثيلا له أبدا. وولّت الذئاب الباقية هاربة عبر الحدود وربما لن ترجع قط. كيف تستطيع البقاء من دون قائد قوي؟ قال بلغي ذات مرة: "إن أي قطيع ذئاب خارج مقاطعته الخاصة به يكون في حال أسوأ من حال كلب أضاعه صاحبه".

عادوا إلى المكان الذي انطلقت منه الرصاصة الأولى. كان الذئبان شديدا البأس قد همدا وسط دمائهما، وقد أحاطت بهما حشود من الذباب. لم يكن شن قادرا على تحمل المنظر،

فمشى بعيدا ليختلي بنفسه، وجلس على العشب محدّقا إلى السماء البعيدة عبر الحدود. ما الذي سيفكّر فيه بلغي لو عرف أن شن قد أرشد الرجال ومكنهم من اصطياد الذئاب؟ كان قد علمه الشيء الكثير عن الذئاب، والآن ها هو ذا يستخدم تلك المعرفة في قتلها. لم يعرف كيف يمكنه أن يواجه الرجل العجوز. عندما يحل الليل، ستأتي الذئاب باحثة عن قتلاها، ولن تجد سوى بقع من الدماء. ستمتلئ السهوب بعواء حزين في تلك الليلة.

حمل السائقان أكياس الخيش إلى العربة الثانية ووضعاها تحت المقعد الخلفي.

فوق بعض أكياس الخيش العريضة التي فرشت على العشب وضعوا العديد من زجاجات شراب السهوب، وكيسا كبيرا من الفول السوداني المتبل، واثنتي عشرة خيارة، وعلبتي لحم بقر مطهو، وثلاث علب لحم، ووعاء مليئا باللحم الطازج. ذهب باو شنغوي، فيما حمل زجاجة شراب بيده، مع الضابط زو إلى شن وسحباه راجعين به إلى موقع المأدبة التي كانت تقام في الهواء الطلق. ربّت باو على ظهره. "أيها الفتى شن"، قال، "اليوم أبليت بلاء حسنا، وقد أسديت لي معروفا عظيما. من دون وجودك، ما كان صيادونا سيحظون بفرصة لإظهار مهاراتهم".

رفع الجنود الأربعة كؤوسهم واقترحوا أن يشربوا نخب شن زن. "اشرب"، قال زو. "هذا نخبك. بفضل تفتيشك عن الذئاب، فقد أخذتنا إلى المكان الذي نريده. لقد جعلنا المدير باو نجوب في أرجاء المكان حتى قطعنا مسافة أكثر من مئة لي، و لم نتمكن قط من رؤية ذئب واحد. هيا تعالَ، اشرب. إننا مدينون لك بالشكر".

كان وجه شن قد أضحى شاحبا مثل وجوه الأشباح؛ أراد أن يقول شيئا ما لكنه أحجم عن قول أي شيء. وبدلا من ذلك، فقد تقبل الكأس وأفرغها في جوفه، تمنّى أن يجد له مكانا يبكي فيه كثيرا. لكنه بحركة فطرية التقط خيارة طازجة وبدأ يأكل. كانت حدائق العمال الخاصة قد بدأت الآن تنتج الخيار، الذي لم يتذوّقه لأكثر من سنتين. ربما ولد جميع الصينيين من الهان ليكونوا فلاحين. وإلا لماذا التقط خيارة من بين كل الأشياء الأخرى؟ لقد تحولت نضارتها الرقيقة إلى عصير مر المذاق في فمه.

ربت زو على ظهره. "ينبغي لك ألاّ تشعر بالندم على الذئاب التي قتلناها، أيها الفتى شن. أستطيع أن أدرك وجود روابط عاطفية بينك وبينها بعد أن قمت بتربية واحد منها بنفسك، وأنك تأثرت بآراء الرعاة القدامى. من المؤكد أن الذئاب ذات فائدة بالنسبة إلى السهوب من خلال قتلها الأرانب، والفئران، والغزلان، والمرموط. لكن ذلك الأسلوب هو أسلوب بدائي للتفكير بالأمر. نحن نعيش في عصر تحلّق فيه الأقمار الصناعية التي صنعها الإنسان في الفضاء. يمكننا حماية السهوب باستخدام سبل علمية. سيرسل الفيلق مذرارات[1] المحاصيل لإبادة الفئران".

(1) مذرار: ماكنة لرش النباتات بمبيدات الحشرات. (المترجم)

تفاجـــأ شـــن لسماع ذلك حتى كاد أن يفقد رشده، لكنه فهم على الفور ما الذي كان يعنـــيه زو. "كلا، لا تستطيعون ذلك"، قال. "إذا كانت الذئاب، والثعالب، وثعالب الصحراء، والصقور تأكل الفئران الميتة، ستموت جميعها ولن يبقى منها شيء".

- "ما فائدة الإبقاء على الذئاب إذا ماتت كل الفئران؟"، قال باو.

- "الـــذئاب لها منافع كثيرة"، قال شن مستمرّا في المجادلة. "إنني أحاول أن أجعلك تفهم أن الذئاب يمكنها أن تقلل من عدد الغزلان، والأرانب، والمرموط".

انفجـــر العجـــوز ليو ضاحكا، كان وجهه محمرّا من كثرة احتسائه الشراب. "الغزلان، والأرانـــب البرية، والمرموط جميعها طرائد معروفة. لن يبقى منها ما يكفي للناس عندما يفدون من بلادنا، وحتما لن يبقى منها شيء للذئاب".

32

بعــد أن انــتهوا من تناول الطعام، تجاذب باو شنغوي أطراف الحديث لفترة قصيرة مع الضابط زو، ومن ثم انطلقت العربتان مسرعتين باتجاه الشمال الشرقي.

- "إنــنا نــسير على الطريق الخطأ"، قال شن زن. "من الأفضل أن نعود أدراجنا ونتبع آثارنا".

قــال باو: "نحن على بعد مئة وأربعين ليا عن الفرقة، وعلينا أن نجعل الأمر يستحق عناء رحلة العودة الطويلة".

قال الضابط زو: "إذا تجنبنا المناطق التي أطلقت منها النار ربما نصادف مزيدا من الذئاب. وإذا لم نــصادف ذئابــا ربما نعثر على ثعالب، ولن يكون ذلك سيئا أيضا. علينا اتباع التقاليد العسكرية الرائعة في المحافظة على زخم القتال وتراكم الانتصارات".

خــلال وقــت قــصير وصلوا إلى مراعٍ شتوية شاسعة حيث امتدت أمامهم هكتارات وهكــتارات مــن العشب الذي بدا في عيني شن كالأشواك الحادة. كان هذا عشبا شتويا من نوعــية ممــتازة، له سيقان يبلغ طولها قدمين وشرابات[1] مثل نباتات الذرة يصل طولها إلى يــاردة واحــدة. ونادرا ما كانت ثلوج الشتاء تغطيها بالكامل؛ شكلت كل من السيقان والــشرابات غذاء جيدا للمواشي. بإمكان الخراف الوصول حتى إلى الأوراق المدفونة تحت الــثلج. خلال شهور الشتاء السبعة يُسهم هذا المرعى في إبقاء المواشي على قيد الحياة وفي حالة انتعاش.

جعلــت ريــاح خريفية العشب يتلاطم مثل الأمواج، تلك الرياح التي كانت تأتي من الحدود وتنتشر بعد أن تقطع كل ذلك الطريق إلى العربات فتغمر عجلاتها؛ اخترقوا الموجات العــشبية كأنهم كانوا يركبون على متن سفن سريعة. تنفّس شن الصعداء. حتى التلسكوب ســيكون عديم النفع في العثور على الذئاب، أو على مرعى يزخر بكلّ هذا العشب الأخضر الطــويل والكثــيف. شــعر بامتنان متجدد لذئاب السهوب ولرعاة الأحصنة. لقد حافظت السهوب التي كانت تبدو في الواقع خالية تماما من الشوائب على نقائها من خلال جهودهما. كــل منهما قد عمل بجهد دؤوب لإنجاز الواجب الملقى على عاتقه. كلما كان شن يسمع

---

(1) الشرابة: عناقيد زهرية ذكرية كثيفة النمو وطويلة على أطراف الأغصان أو سيقان بعض أنواع النباتات وخصوصا الذرة. (المترجم)

الـــرعاة يتـــرنّمون بأغـــان شعبية يتردد فيها صدى لأصوات الذئاب، كان يشعر بالسعادة، ويعـــرف أن الـــرعاة من خلال أغانيهم كانوا يعترفون أنهم مدينون للذئاب على دورها في المحافظة على المرعى الشتوي.

تابعت العربتان سيرهما إلى الأمام، حاملتين على متنهما صيادين ثملين قليلا، كانوا يمشطون الأراضـــي الطبيعـــية بالنواظير بحثا عن الذئاب. كان شن ضائعا في خضم أفكاره الخاصة، هذه كانـــت المـــرة الأولى التي يحظى فيها بفرصة لتأمل الجمال البدائي للمرعى الشتوي قبل وصول الناس إليه وما لديهم من المواشي.

لم يكن هناك عمود دخان متصاعد، ولا أحصنة، أو أبقار، أو خراف. بعد ستة أشهر من الـــراحة بـــدا المرعى أكثر إيحاء بالكآبة من مرعى الاستيلاد في فصل الربيع، حيث تنتشر هناك الكـــثير من حظائر الحيوانات، وسقائف الخزن، والآبار محاطة بمصاطب حجرية، والآثار أخرى للمجهـــود البـــشري. في المرعى الشتوي، كان الناس وما لديهم من المواشي يأخذون المياه من الـــثلج، ويقللون الحاجة إلى الآبار والمصاطب التي تحيط بها. تكون الحملان والعجول قد كبرت تمامـــا، لـــذا بـــدلا من السقائف والحظائر، كان يشكل الرعاة شبه دائرة من مصدّات الرياح للخراف باستخدام العربات، والأسوار المتحركة، وقطع كبيرة من اللباد.

كانـــت العـــربتان تسيران عبر ممرّ قديم. أصبحت التربة رملية وصلبة، لكن العشب كان قصيرا وكثيفا. اكتشف شن ثلاث بقع سوداء على العشب ليست بعيدة كثيرا عن يمينه. عرف أنـــه ثعلب كبير كان واقفا على قائمتيه الأماميتين يلقي نظرة على البشر الذين كانوا يمرّون عبر المرعى. حولت شمس ما بعد الظهيرة البرتقالية لون فراء الثعلب الأبيض إلى لون أصفر خفيف، مما جعله غير قابل للتمييز عن شرابات العشب. كانت البقع الثلاث السوداء التي فوق رقبته في الواقع تمثل أذنيه وخطمه.

حـــين كانوا يذهبون لاصطياد الثعالب، كثيرا ما كان بلغي يلفت انتباه شن إلى مثل تلك البقع السوداء الثلاث، وخصوصا على أرض تغطيها الثلوج. كان الصيادون المتمرّسون يـــصوّبون أســـلحتهم إلى تلك البقع. لا يستطيع ثعلب السهوب الماكر أن يخدع صيّادي السهوب، لكنه تمكن من تحويل الصيادين الجالسين قرب شن، والذين يتمتعون ببصر حاد إلى رجـــال عُمـــي. بقي شن هادئا، ولم يشأ رؤية المزيد من سفك الدماء. تلك الثعالب الجميلة والماكرة خبيرة باقتناص الفئران. وفيما اقتربت العربتان أكثر اختفت البقع السوداء ببطء في العشب الكثيف.

فـــيما تابعوا مسيرهم، انتصب أرنب بري واقفاً على العشب وهو يحدّق إليهم. كان لونه مقاربـــا للون الشرابات، لكن أذنيه الكبيرتين أفسدتا مظهر التمويه الذي تنكر فيه. همس شن: "هناك أرنب سمين أمامكم. إنها أعداء السهوب. أتريدون اصطياده؟".

- "ليس الآن"، قال باو شنغوي. "سنصطاد الأرانب بعد أن نقتل جميع الذئاب".

لم يكن الأرنب خائفا من مرور العربتين، ولم يخفض رأسه ويختفي حتى صاروا قريبين منه بمسافة عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة. ازداد عطر الأعشاب الشوكية قوة. حين أدركوا أنهم لن يجدوا أي فريسة هنا، استدار الصيادون واتجهوا نحو مراعي الخريف التي تتخللها التلال.

هنا كان العشب أقصر، إلاّ أن الرعاة جعلوا ذلك المكان أرض مراعيهم الخريفية بسبب وفرة حبوب العشب. في فصل الخريف تكون حبوب الحنطة البرية، والبرسيم، والبازلاء مكتنزة بالدهن والبروتين. وتسمن الخراف سريعا هناك من خلال أكل الحبوب التي تنزعها من النباتات. لم يكن الدخلاء، الذين لا يفهمون أساليب الحياة البدائية، قادرين على جعل خرافهم تسمن بصورة كافية لتبقى على قيد الحياة في الشتاء، وربما ماتت أعداد كبيرة من الحملان في الربيع عندما لا تتمكن النعاج من إنتاج ما يسدّ حاجتها من الحليب.

لقد تعلم شن كل شيء تقريبا عن السهوب من بلغي خلال السنتين اللتين عاشهما وإياه. مدّ يده وانتزع قبضة من حبوب العشب، ثم فركها بين راحتي يديه. كانت الحبوب ناضجة؛ ذلك تقريبا هو الوقت الذي تنتقل فيه فرقة الإنتاج عادة إلى مرعى الخريف.

وسّع العشب القصير مدى نظرهم، وأتاح لسائقي العربتين من أن يزيدا من سرعتيهما. اكتشف باو شنغوي وجود بعض فضلات الذئاب الطرية على التراب. كان ردّ فعل الصيادين على ذلك أن ازدادت إثارتهم؛ بدأ شن يقلق ثانية. أصبحوا الآن على بعد ستين أو سبعين ليا من المكان الذي كانوا قد استخدموا فيه بنادقهم، والذئاب التي هنا لن تكون محترسة إزاء عربات ذات محركات تقترب سريعا من الشمال، فليست هناك أي آثار لوجود البشر.

- "ذئب! ذئب!"، صاح ثلاثة من الصيادين بإلحاح خافت بعد أن اجتازوا منحدرا خفيفا. فرك شن عينيه ورأى ذئبا هائل الحجم، يضاهي النمر في حجمه، على بعد نحو ثلاثمئة ياردة أمامهم. على أولونبولاغ، كثيرا ما تخرج الذئاب الكبيرة، شديدة البأس، وسريعة الحركة وحيدة، وفي الوقت الذي كانت تبدو فيه وحيدة، إلاّ أنها في الواقع تؤدّي مهمة الاستطلاع للقطيع.

بدا كما لو أن الذئب العملاق قد فزع فاستيقظ من قيلولة قصيرة بفعل صوت عجلات العربتين؛ اندفع يعدو مخترقا العشب الكثيف الذي غطى أحد الأخاديد. ضغط العجوز ليو على دواسة الوقود بشدة وصرخ باهتياج: "لا تفكّر أبدا في أنك تستطيع الفرار!"، ومن خلال محاولة إغلاق طريق الهرب عليه، أجبر الذئب أن يلتفّ حول نفسه، وينظر إلى قمة التل، كان سريعا

مثل غزال تقريبا، لكن عربة الضابط باتيل سدت عليه طريقه. هجموا على الذئب من اتجاهات متعاكسة، إلا أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى أقصى سرعتهم، بينما عدا الذئب بأقصى سرعة استطاع بلوغها.

اختلف الصيادون في ما بينهم. صاح زو، "هيا أطلق النار أنت، لديك مجال أفضل للتصويب".

– "كلا"، ردّ باتيل. "أنت أفضل رامٍ، أطلق النار عليه".

أومأ باو بيديه وصرخ: "لا تطلقوا النار. لا يطلق النار منكم أحد. أريد جلدا خاليا من ثقوب الرصاص. أريد أن أسلخ جلده وهو حي. جلد حي، بفرائه الصافي، والبراق سيباع بأفضل سعر".

– "إنها فكرة عظيمة!"، صاح الصيادون وسائقاهم بصوت واحد. حتى إن العجوز ليو رفع إبهامه في وجه باو. "راقبني. سأطارد ذلك الحقير حتى أسقطه أرضا".

انضم الفتى وانغ إليهم: "سأطارده حتى يسعل دما".

جعل المنحدر الخفيف من السهولة عليهم المناورة، وهذا الذئب لم يكن قادرا على الهرب من هجوم بسلاح ميكانيكي ذي شعبتين. كان الزبد يتصبب من فمه في ذلك الوقت. وما ينبغي أن تكون معركة محتدمة بين إنسان وذئب، أصبحت الآن ليست أكثر من مصدر تسلية للبشر. تلك كانت المرة الأولى منذ وصول شن إلى السهوب التي يرى فيها الناحية المدهشة التي يتفوق فيها البشر على الذئاب. بعد أن هيمنت الذئاب المنغولية على السهوب آلاف السنين، أضحت الآن أكثر إثارة للشفقة من الأرانب.

تبع السائقون الماهرون مسارات تكاد تكون ممهّدة، كانوا يسرعون عندما يعدو الذئب بخطوات أسرع، ويبطئون عندما تتراخى خطوات الذئب، أجبروه طوال الوقت على أن يستمر بالعدو من خلال إطلاق الأبواق والمحافظة على مسافة خمسين أو ستين ياردة بينهم وبينه. كان الذئب يعدو سريعا، لكن المطاردة استمرت باطّراد كي تصل إلى ذروتها؛ بعد عشرين ليا، صار الذئب يلهث بشدة، انفتح فمه إلى أقصى مدى، وكان يعاني من صعوبة في التقاط أنفاسه.

عدا الذئب محاولا أن ينجو بحياته، كان يستنفد إرادته في الصمود وشدة بأسه؛ لكنه مع ذلك بدا وكأن في وسعه أن يعدو إلى الأبد، ما دام العدُو لا يستطيع اللحاق به. تمنّى شن لو تظهر أمامهم فجأة حفرة هائلة أو منخفض سحيق في الأرض، أو كومة عظام ثور؛ وهو لن يكترث حتى لو قفز إلى خارج العربة.

كانت وجوه الصيادين، بعد أن استبدّت بهم نشوة المطاردة، مشرقة وقد مال لونها إلى الأحمر، كما لو أنهم سكارى. صاح باو: "هذا الذئب أضخم من أي ذئب حصلنا عليه من قبل. إن جلده يكفي لصنع بطانية من دون الحاجة إلى خياطة عدة قطع مع بعضها بعضا".

- "دعونا لا نبيع الجلد"، قال زو. "دعونا نقدّمه إلى قائد الفيلق".

- "إنها فكرة جيدة"، قال باتيل. "بتلك الطريقة فإن قادة الفيلق سيعرفون كيف هي الذئاب التي هنا، وما مدى الخطر الذي تشكله على السهوب".

خبط العجوز ليو على عجلة القيادة. "سهوب منغوليا الداخلية غنية إلى درجة أننا خلال سنة أو نحو ذلك سنحصل جميعا على منازل أفضل من تلك التي حصلنا عليها في المدينة".

أطبق شن قبضتيه بشدة حتى إنهما كانتا تتصببان عرقا. كان ذلك كل ما استطاع عمله ليمنع نفسه من لطم ليو على رأسه. لاحت صورة الجرو أمام عينيه، وسرى تيار دافئ عابرا إلى قلبه، وكأن طفلا رضيعا ينتظره في البيت. تهاوت ذراعاه إلى جانبيه؛ شعر بجسده فارغا من الرأس إلى أطراف أصابع القدمين.

أخيرا طاردوا الذئب نحو منحدر طويل ومنفتح على نطاق واسع، ليس فيه أي أخدود، ولا قمّة تلّ، ولا حفر، ولا منخفضات، لا شيء يمكن للذئب استخدامه للدفاع عن نفسه. في خضمّ أصوات الأبواق الصارخة للعربتين، بدأت حركة الذئب تتباطأ، كانت قائمتاه ترتعشان من الإعياء.

أمسك باو ببندقية زو، وأطلق رصاصتين على بعد أقل من ياردة عن الذئب، كادتا أن تحتكان بفرائه. ذلك هو الصوت الذي تخاف منه الذئاب أكثر من غيره، واستنزف الذئب آخر ما تبقى من قوته؛ بعد أن اجتاز نصف لي آخر أو نحو ذلك، توقّف، واستدار، وجثم على الأرض متّخذا وضعه الأخير.

توقفت العربتان وهما تصدران هديرا على بعد نحو ثلاث أو أربع ياردات منه. وثب باو إلى خارج العربة وهو يمسك بندقيته؛ حين رأى أن الذئب لا يتحرك، ثبّت حربته ومشى متّجها إليه. كان الذئب ينتفض بعنف، وكانت عيناه شاردتين لا تركزان على شيء. بقي هامد الحركة فيما اقترب باو منه، ومن ثم طعنه في فمه، ومع ذلك لم يصدر عنه أي ردّ فعل. ضحك. "لقد طاردنا مغفلا". ثم مدّ يده وفرك رأس الذئب، كأنه كان يربت على رأس كلب أليف.

ربما كان باو أول رجل خلال آلاف السنين قد تجرّأ على لمس رأس ذئب حيّ جاثم في البراري. تهاوى الذئب على الأرض فيما كانت يد باو تتحرك باتجاه أذنيه.

* * *

عاد شن زن إلى المخيم وهو يشعر أنه خائن، وجد من الصعوبة بمكان أن يدخل الخيمة. تردّد قبل أن يمشي أخيرا حتى دخل، حيث وجد زانغ جيوان يتحدث بغضب مع يانغ كي وغاو جيانزونغ عن حملة الفرقة لإبادة الذئاب. "الجميع جنّ جنونهم رغبة في القتل. الصيادون

والعمـــال يستخدمون الشاحنات والسيارات، لقد قدّموا لهم كل ما يحتاجون إليه من الغازولين والذخيرة. حتى الأطباء قد انضموا إليهم. إنهم يحقنون سموما لا رائحة لها ولا لون في نخاع عظام الخراف الميتة التي أخذوا يلقون بها في ما بعد في البراري. ليست لدي أي فكرة عن عدد الذئاب الـــتي قامـــوا بتسميمها. الشيء الأسوأ من ذلك هو طواقم إدامة الطرقات التابعة للفيلق. إنهم يـــستخدمون أي ســـلاح في إمكانهم العثور عليه، حتى إنهم وجدوا طريقة تعتمد على إدخال المتفجـــرات في عظام الخراف، ثم تلويثها بشحم خراف، وبعدها يتركونها في أماكن تتردّد إليها الذئاب. تؤدي تلك العظام المفخخة إلى تفجير رؤوس الذئاب عندما تعضّها. لقد وضع العمال قـــنابل عظـــام الخراف في كل مكان. كانوا حتى الآن قد قتلوا العديد من كلاب الرعاة. لقد ســـقطت الذئاب في هاوية معركة خاسرة مع البشر. أصبح الناس في كل مكان يغنون: اقتلوا الـــذئاب! جيلا بعد جيل، لن نتوقف عن القتال حتى تموت كل بنات آوى. سمعت أن الرعاة قدموا شكوى إلى المنطقة العسكرية".

– "العمال الذين في فريقنا قد انضموا بدورهم إلى المنازلة"، قال غاو. "لقد قتلوا خمسة أو ســـتة ذئـــاب كـــبيرة. هؤلاء الفلاحون الذين تحولوا إلى رعاة صاروا أكثر مهارة حتى في قتل الـــذئاب؛ لقـــد كلفـــني الأمر زجاجتين من الشراب لمعرفة الطريقة التي يفعلون بها ذلك. إنهم يـــستخدمون فخـــاخ صـــيد الذئاب، لكنهم أكثر مهارة في ممارسة الخداع من الرعاة. الرعاة يـــضعون فخاخـــا بالقرب من الخراف الميتة، وبعد فترة قصيرة من الزمن سرعان ما تكتشف الذئاب الأمر. إنها تصبح حذرة في الاقتراب من الخراف الميتة الملقاة في البراري؛ لن تلمسها حتى يـــأتي الذكـــر الأكبر، وبحاسّة شمه الحادة، يتمكن من معرفة مكان الفخ بالشم، ويخرجه، لكن العمـــال يفعلـــون ذلـــك بشكل مختلف. إنهم ينصبون الفخاخ في أماكن توجد فيها الكثير من الذئاب، وليست هناك خراف ميتة أو عظام على أرض مستوية. هل تستطيع أن تخمّن ما الذي يـــستخدمونه كطعـــم؟ لا يمكنك أن تخمّن ذلك بعد مليون سنة. إنهم يغمسون روث الخيل في شـــحوم خراف مذابة ويجفّفونه. وبعدها يفتّتونه إلى قطع صغيرة ينشرونها حول الفخاخ. ذلك هـــو الطعم. عندما يمرّ ذئب من هناك فإنه سيشمّ رائحة شحم الخراف، لكنه لن يكون محترسا لأنـــه لا يرى خرافا ميتة أو عظاما. يبقى الذئب يشمّ المكان من حوله، وعاجلا أو آجلا سيقع في الفـــخ. يا لها من طريقة قاسية! قال وانغ العجوز إن تلك هي الطريقة التي يقتلون بها الذئاب في بلدته الأم".

لم يقـــدر شن على تحمّل سماع المزيد، فخرج ومشى نحو حظيرة جرو الذئب، نادى على الجـــرو بصوت رقيق، كان من الواضح أنه قد افتقده في ذلك اليوم. كان الجرو ينتظر شن عند طـــرف الحظـــيرة، بينما انتصب ذيله. جثم شن على الأرض وحمل الجرو لفترة طويلة، لامس وجهه رأس الجرو. بدا القمر يوحي بالبرودة في هذه الليلة الخريفية المتجمّدة؛ أضحت الأصوات

المـــرتجفة الـــصادرة عن عواء الذئاب مجرد ذكريات بعيدة على المرعى الجديد. لم يعد شن قلقا بشأن الذئاب الأمّات التي يمكن أن تأتي بحثا عن الجرو؛ الآن تمنى لو تأتي لتأخذه إلى الشمال عبر الحدود.

سمـــع وقع خطوات خلفه؛ كان ذلك يانغ كي، الذي قال: "يقول لامياف إنه رأى ملك الذئاب الأبيض يقود قطيعا للذئاب اجتاز الحدود قبل أن يبدي الفيلق أي ردّ فعل. لا أتصور أنه سيعود أبدا إلى أولونبولاغ".

لم يستطع شن أن ينام تلك الليلة.

33

بإمكانك أن تروّض دبّا، أو نمرا، أو فيلا، ولكن ليس بإمكانك أن تروض ذئبا منغوليا.

كـــان الجرو يحبّذ أن يواجه الاختناق على أن ينقل إلى مكان جديد. غادرت أبقار فرقة الإنـــتاج وخـــرافها بعد وقت قصير من انبلاج ضوء الفجر، وعبرت قافلة عربات النقل، التي كانـــت قد انفصلت إلى عدة مجموعات، مرتفعا جبليا غربيا وهي في طريقها إلى أرض المراعي الخريفية. لم يكن أولئك الأشخاص الذين كانوا من ضمن القسم الثاني، ومنهم خيمة الطلاب، مـــع عـــرباهم الثقيلة الست التي تجرها الثيران، قد بدأوا الرحلة حتى الآن، بالرغم من أن بلغي وغاسماي كانا قد أرسلا ناسا مرتين لإخبارهم بضرورة البدء بالمسير على الدرب.

اقـــتطع زانغ جيوان جزءا من وقته لمساعدهم على التحرك، لكنه هو وشن زن عجزا عن التعامل مع الجرو العنيد الذي كان يتصرف بشراسة. لم يكن شن يظنّ على الإطلاق أهم يمكن أن يخفقـــوا في الانتقال بعد أن بذلوا الكثير من المحاولات الهوجاء مع الجرو خلال الأشهر الستة الماضية.

كـــان الـــذئب الصغير مجرد جرو فطمته أمه مؤخّرا لا يتجاوز طوله قدما عندما وضعوه داخـــل صندوق خشبـــي يُستخدم لحفظ فطائر لحم البقر الجافة حين انتقلوا من مراعي الربيع. بعـــد انقـــضاء صيف من الأكل بشراهة، كان قد كبر حتى صار ذئبا متوسط الحجم. لم يكن لديهم قفص كبير يكفي ليوضع فيه الآن، وحتى لو توافر لديهم قفص لن يقدر شن على وضعه فـــيه؛ وإلى جانب كل ذلك ليس هناك حيّز يمكن أن يوضع فيه. العربات كانت غير كافية قبل كـــل شيء. لقد تم تحميل العربات الست جميعها إلى أقصى سعتها على نحو محفوف بالمخاطر (كـــتب الطلاب فقط كانت قد ملأت عربة بالكامل) بحيث إها غدت عرضة لأن تنقلب، أو تـــتحطم في أثـــناء الرحلة الطويلة. كان المناخ يشكل العامل الحاسم في اختيار موعد الانتقال؛ وكانت الفرقة تريد تفادي الأمطار الوشيكة، أما شن فقد واجه موقفا صعبا.

تفصّدت جبهة زانغ جيوان عرقا بدا كأنه فقاعات. "ما الذي كنت تفعله خلال كل هذه المدة؟"، قال متذمّرا. "كان يتوجب عليك أن تدرّب الذئب كي يعتاد على مرافقتك".

– "هـــل تظنّ أنني لم أحاول؟"، ردّ شن بانفعال. "كنت أستطيع أن أسحبه على الطريق عندما كان صغيرا، لكن ذلك لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. طوال فصل الصيف كان يسحبني إلى حيث يريد هو، وإذا ما حاولت فرض إرادتي، كان يهدّد بأن يعضّني. الذئاب ليست كلابا؛ إها

تفضل الموت على أن تتغير. هل سبق لك أن رأيت ذئبا يؤدي عروضا في السيرك مثل النمر أو الأسد؟ لا يستطيع أي مدرّب للحيوانات القيام بذلك. أنت عايشت ذئابا أكثر مني، لا بد من أنك تدرك ذلك".

صرّ زانغ على أسنانه وقال: "سأحاول مجدّدا. إذا لم ينجح الأمر في هذه المرة سيكون علينا أن نتخذ إجراء صارما". مشى ناحية الجرو، بينما حمل عصا الرعاة بيده، وانتزع الحلقة الحديدية من شن. حالما بدأ يسحب السلسلة، كشّر الجرو عن أنيابه وأخذ يزمجر، بقي ملتصقا في موضعه من خلال الانحناء إلى الوراء وكان يتشبث بالأرض ببراثن قوائمه الأربع. سحب زانغ بكل قوته لكنه لم يستطع أن يجعل الذئب الصغير يتزحزح من مكانه. لذلك استدار حول نفسه ووضع السلسلة على كتفه ليسحبه كأنه حمّال يجرّ زورقا على نهر يانغزي.

لم يتمكن من تحريك الجرو إلاّ بصعوبة بالغة، وقد حفرت كفاه أخاديد في التربة الرملية، وتشكلت كومتان صغيرتان من التراب عند نهايتهما. لم يكن الجرو راضيا عن كونه يُسحب عنوة، فحوّل ثقله إلى الأمام وتهيأ للانقضاض، مما حدا بزانغ جيوان إلى أن يقفز ويسقط أرضا على رأسه وقد غطى التراب وجهه. أدى ذلك إلى أن يتراجع الجرو إلى مسافة أبعد، والآن اشتبك الإنسان والذئب في فوضى عارمة، لم يكن فم الجرو يبعد أكثر من قدم عن حنجرة زانغ. اندفع شن مرتعبا نحوهما، أمسك الجرو من رقبته، وحمله بعيدا. كان الجرو لا يزال مكشّرا في وجه زانغ.

كان كلا الرجلين يلتقطان أنفاسهما بصعوبة، ووجهاهما شاحبين. "إننا في ورطة كبيرة"، قال زانغ. "رحلة الانتقال تتطلب يومين أو ثلاثة، مما يعني أنها ذهابا وإيابا تستغرق خمسة أيام على الأقل. لو كانت يوما واحدا لاستطعنا أن نتركه هنا ونرجع بعربة فارغة. لكن حراس سقيفة الأصواف والعمال لم ينتقلوا بعد، وإذا تركناه هنا مدة أطول من ذلك، فإمّا أن يقتلوه، أو يقتله صيادو الذئاب في الفيلق. علينا إجباره على التحرّك معنا. كيف نفعل هذا؟ سنربطه بحبل وراء إحدى العربات".

– لقد ربطته منذ أيام، و لم ينجح ذلك. كنت على وشك أن أخنقه خلال المحاولة. الآن أفهم المعنى الذي وراء مفهوم حيوانات البراري طليقة العنان، والموت قبل الاستسلام. الذئب يفضّل أن يختنق حتى الموت على أن يتبع أوامرنا. أعتقد أننا وقعنا في ورطة.

– "لا يمكنني تقبل ذلك"، قال زانغ. "لماذا لا تجرب ذلك أولا مع أحد جراء الكلاب لتريه ذلك؟".

هز شن رأسه. "جربت ذلك أيضا. لا فائدة".

– "لنجرب ثانية". أتى زانغ بعربة ثيران محمّلة، ربط حبلا حول عنق أحد الجراء، وربط الطرف الآخر للحبل بمحور العجلة الخلفية. ثم التفّ حول الذئب، فيما كان الجرو المطيع مربوطا خلف العربة.

- "سـنذهب إلى مكـان جميل"، قال زانغ وهو يمشي، محاولا كسب ثقة الجرو. "انظر، هكذا، اتبع العربة. إنه شيء سهل. أنت أذكى من الكلب؛ أنت تعرف كيف تفعل هذا، أليس كذلك؟ إليك، انظر جيدا".

صـار الجرو يحملق في الكلب الصغير، فيما رفع رأسه عاليا تعبيرا عن الازدراء. أخذ شن يتلاطف مع الذئب ويتزلف له، سحبه وراء الكلب الصغير بضع خطوات، بالرغم من أنه كان في الواقع هو الذي كان يُسحب من قبل الجرو، وقد تبعه لأنه كان يحبّ جرو الكلاب، وليس لأنـه أراد أن ينفّذ أوامرهما. بعد إتمام دورة واحدة أدخل شن الحلقة الحديدية في عريش العربة علـى أمل أن يتبع الجرو العربة. لكن في اللحظة التي رُبطت فيها السلسلة بالعربة سحبها الجرو بكل قوته، وكافح بشدة أكبر مما كان يفعل إزاء العمود الخشبـي الذي رُبط فيه في السابق مما جعل العربة الثقيلة تهتز وتصدر صريرا.

راقب شن المشهد الذي أمامه: لم تبقَ خيمة واحدة أو خروف واحد في المكان. بدأ الذعر ينـتابهما. إذا لم يتمكـنا من المسير عاجلا، فلن يصلا إلى موقع المخيم قبل حلول الظلام. مع المجموعات الكثيرة التي توزّعت عليها القافلة والعدد الكبير من الالتواءات والمنعطفات التي على الطريق، ما الذي سيحصل لخراف يانغ كي وأبقار غاو جيانـزونغ إذا تعرّضت للضياع؟ كيف يمكن للرجلين أن يتوقفا قليلا لتناول الطعام أو ارتشاف الشاي؟ وهناك أيضا المزيد من المخاطر التي تتمثّل في الحراسة الليلية، حين يكون الجميع منهكين ولا كلاب لديهم. إذا حدث شيء ما للخراف بسبب الجرو سيواجه شن الانتقاد ثانية، وربما أطلقوا النار هذه المرّة عليه.

أخيرا زاد الانفعال من صلابة قلب شن. "ربما يموت إذا سحبناه معنا، لكنه حتما سيموت إذا تـركناه، لذا دعنا نسعى للحياة على طريق الموت، ونجرّه وراءنا. هيا حرك العربات ودعني أمتطي صهوة حصانك. سأسير في الجزء الخلفي مع الجرو".

تـنهد زانـغ. "مـن الواضح أن تربية ذئب في ظروف حياة البداوة تكاد أن تكون أمرا مستحيلا".

حـرك شن العربة التي ربط إليها الكلب الصغير والجرو إلى مؤخر القافلة. بعد ذلك ربط الحبل الممتد من الثور الأخير بعريش العربة التي في المقدمة. "لنذهب"، صاح.

ولأن زانغ لم يستطع الجلوس على العربة، فقد سار على قدميه وهو يُمسك الحبل المربوط بالثور الأول. بدأت العربات بالسير على الدرب، واحدة تلو الأخرى. تبع الكلب الصغير العربة الأخـيرة عندما تحركت، لكن الجرو بقي في مكانه حتى عندما توتّرت السلسلة التي يبلغ طولها ثـلاث ياردات. كان غاو جيانـزونغ قد اختار أفضل وأسرع ستة ثيران للقيام بالرحلة. لقد اتـبعوا عادات السهوب وذلك بعدم تغذية الثيران بشيء سوى الماء لمدة ثلاثة أيام. حين تكون معدها فارغة فذلك أفضل وقت لجعلها تعمل بجدّ. وهكذا عندما أصبحت الثيران على الطريق

لم يعد الجرو ندا لها؛ كان يجذب بعنف محاولا الرجوع إلى الوراء، لكنه سقط على رأسه قبل أن يتمكن من تثبيت براثنه في الأرض.

ذهـــل الذئب الصغير، واستبدّ به الغضب، وكافح، وأنشب براثنه بوحشية فيما تدحرج وتقلب حول نفسه ونهض على قائمتيه مرة بعد أخرى. عدا بضع خطوات، ثم توقف وحفر في الأرض. لكـــن بعد ذلك، حالما ساروا عبر الممر الممهّد واكتسبت العربات سرعة، تعثّر الجرو ووثـــب هـــنا وهـــناك إلى مسافة عشر ياردات أو نحو ذلك قبل أن يسحب نفسه إلى الوراء، وتجرجر على الطريق كأنه كلب ميت، بينما كان العشب القصير الخشن يقشط طبقة من فرائه.

رفعت الكلبة الصغيرة رأسها لتنظر نحو الجرو بتعاطف؛ صدر عنها أنين، وحركت كفيها كمـــا لو أنها أرادت القول له أن يمشي مثلها، وإلا سيُسحب حتى يموت. لكن رأس الجرو كان مليئا بالغطرسة التي تمنعه من التصرف مثل كلب، فتجاهلها واستمر بالمقاومة...

اســـتطاع شن أن يرى أن الجرو كان يفضّل تحمّل الألم، ويكافح ضدّ السلسلة على أن يُقاد على الدرب مثل كلب. كانت مقاومته تؤشّر على الاختلاف الجوهري بين الذئاب والكلاب؛ وبين الذئاب والأسود، والنمور، والدببة، والفيلة؛ وبين الذئاب ومعظم البشر. لا يوجد ذئب في السهوب يمكنه أن يستسلم للبشر. لقد عبّر، برفضه اتباع غيره، أو الانقياد لأحدهم، عن معتقد جوهري لدى أي ذئب منغولي، وذلك ينطبق حتى على جرو لم يسبق له أن تلقّى تعليما من أفراد قطيع الذئاب.

فيما استمر الجرو بالصراع، كانت حصباء الدرب وحبات الرمال تحك كفوفه حتى سالت مـــنها الـــدماء؛ منظر وجّه طعنات إلى قلب شن. كان الذئب، ذلك الرمز الذي يبجّله سكان الـــسهوب العنيدون منذ آلاف السنين، مسكونا بهواجس قدرة روحية تثير الخجل والحسرة في نفـــوس البشر. هناك عدد قليل من الناس يمكنهم العيش وفقا لذلك القانون من دون انحناء أو مساومة؛ وعدد أقل من ذلك أيضا يستطيعون فرض وجودهم على قوة خارجية منيعة.

جعلـــت هذه الأفكار شن يدرك أن فهمه للذئاب ما زال ضحلا لدرجة لا تكاد تُصدّق. منذ مدة طويلة كان يعتقد بأن الطعام، أو بمعنى آخر القتل، هو الشيء الأكثر أهمية بالنسبة إلى الـــذئاب؛ مـــن الواضح أن تلك الأمور لم تكن هي المسألة. لقد اعتمد في ذلك الافتراض على فهمـــه لسلوك البشر. لم يكن الطعام ولا القتل يمثلان الغرض من وجود الذئاب؛ بل إن الغرض الجوهـــري مـــن وجـــودها هو تجسيد حرّيتها المبجّلة التي لا مفرّ منها، واستقلالها عن غيرها، وجارامـــتها. هـــذا هو المبدأ الذي جعل كل من كان يعتقد بشكل راسخ برمز الذئب من بين الرعاة أن يقبل بإرادته أن يُنقل جثمانه إلى أرض المدفن الصوفي تحت السماء، على أمل أن تحلق أرواحهم بحرية جنبا إلى جنب مع أرواح الذئاب.

بعد قطع مسافة أربعة أو خمسة لي، فقد الجرو العنيد نحو نصف الفراء الذي حول رقبته، وكانـــت الـــدماء تسيل من هناك. تلاشت البطانات السميكة التي على أكفّه بفعل الاحتكاك

بالأرض، مما كشف عن اللحم الطريّ الذي تحتها. وفي نهاية الأمر لم يعد في وسع الجرو المنهك حتى أن يتدحرج ويتقلّب حول نفسه؛ حتى أضحى كأنه ذئب محتضر يسحبه حصان سريع بعد أن تعلــق بعمود أنشوطة، وتوقّف عن الصراع. عندما بدأت قطرات الدماء تتساقط من رقبته، عرف شن أن الرباط الذي حول عنقه قد فتح جرحا هناك. صاح على العربات بالتوقف، وقفز عن صهوة حصانه، التقط الجرو المرتجف عن الأرض، ومشى وقد حمله بين ذراعيه مسافة ياردة تقريبا كي يُرخي انشداد السلسلة. تلطخت ذراعاه بالدماء التي كانت تنــزف من رقبة الجرو وقد بدا مشرفا على الموت، خدش يدي شن ببراثن كفيه التي أصبحت كليلة بسبب الحكم عليه بالــتعذيب، وكانــت في ذلك الوقت عبارة عن قطعة من الدماء. واختلطت دموع شن بدماء الذئب.

صــعق زانغ جيوان حين رأى حالة الجرو. مشى هنا وهناك، لكنه لم يكن يدري ما الذي ينبغي عمله، قال: "كيف يكون بمثل هذا العناد؟ ألا يريد أن يعيش؟ ما الذي سنفعله الآن؟".

لم تكــن لدى شن أي فكرة عمّا يتوجب عليه القيام به باستثناء أن يحمل الجرو؛ كانت الارتعاشات تكاد تفطر قلبه.

- "لــن يــسمح لنا بأن نسحبه معنا الآن، وهو لم يكبر بعد إلى درجة كافية"، قال زانغ جــيوان، بيــنما كان يمسح العرق عن جبهته. "حتى إذا تمكنا من إيصاله إلى المراعي الخريفية سننتقل كل شهر. كيف نستطيع اصطحابه معنا؟ أعتقد... أعتقد أن علينا أن... نطلق سراحه، هنا... ونتركه يعيش معتمدا على نفسه".

أصــبح وجه شن رماديّ اللون كالفولاذ. "أنت لم تتولَّ تربيته!"، صاح. "إنك لا تفهم. هل تريده أن يعيش معتمدا على نفسه؟ ذلك يماثل قتله. سأنتظر حتى أراه يبلغ مرحلة النضج. ثم سأتركه يعيش".

تحفــزت مشاعره وقد عقد العزم على فعل شيء، وثب شن على قدميه، وركض باتجاه العربة المحمّلة بروث البقر وغيرها من المواد، وفيما كانت أنفاسه تتلاحق من شدة الغضب، فك الحــبل وحــرك العــربة إلى مؤخر القافلة. بعدها تناول سلة مصنوعة من أغصان الصفصاف، وتخلــص مــن نــصف روث البقر الجاف الذي فيها. لقد قرر تحويل السلة إلى واسطة لنقل السجين، زنــزانة سجن مؤقت ينقل فيها الجرو.

- "هــل أنت مجنون؟ هذه الحمولة من الوقود هي التي تمكننا من الأكل وارتشاف الشاي علــى طريق الرحلة. إذا سقطت الأمطار، لن يكون في استطاعتنا أن نأكل شيئا. وسنحتاج إلى روث جــاف لأيام بعد وصولنا إلى هناك. كيف تجرؤ على التخلص من ذلك وحسب لتتمكن من نقل الذئب؟ الرعاة لن يغفروا لك هذا، ولا حتى غاو جيانــزونغ".

عاد شن بسرعة لتحميل العربة. "أستطيع أن أقترض قليلا منه من غاسماي عندما نصل إلى المخيم الليلة. بعد ذلك وعندما نصل المرعى الجديد سأذهب لأجمع روث البقر. اطمئن، ستحصل على وجبات طعامك وترتشف ما تريده من الشاي".

بعد أن نجا الجرو بصعوبة من الموت، وقف بعناد على الأرض بالرغم من الألم الذي كان يعاني منه في أكفه؛ كانت قوائمه ما زالت ترتعش، واستمرت الدماء تقطر من فمه، لكنه مدّ رقبته بصلابة وثبّت أعقابه تأهّبا لاحتمال أن تتحرك العربة من جديد. حدّق إلى العربة وقد ارتسمت في عينيه نظرة تحدٍّ كانت توحي أنه على استعداد للقتال حتى الموت، حتى لو احتكت أكفه بالأرض وظهر اللحم الحي، وبرزت العظام. قرفص شن ووضع الجرو على الأرض بينما اتّجهت أكفه إلى الأعلى في الهواء. ثم ذهب ليحضر مسحوقا طبيا كي يداوي أكفه ورقبته. حين رأى الدماء تقطر من فمه تناول شن قطعتين من اللحم، نثر المسحوق فوقهما، وقربهما من فم الجرو الذي ازدردهما على الفور. كان شن يأمل في أن يساعد الدواء على إيقاف النزيف. ثم أعاد ربط السلة، ورتّب الحمولة من جديد لفسح مجال على العربة. بعد أن فرش قطعة من جلد الخراف غير المدبوغ، مزّق نصف بطانية ليستخدمها كغطاء، لم يكن المكان كافيا لاستيعاب الذئب إلاّ بصعوبة. لكن كيف سيتمكن من إدخاله السلة؟

بعد أن فكّ السلسلة، طوى شن كميّ سترته وحمل الجرو. لكن حالما تقدم خطوة باتجاه العربة حتى بدأ الجرو يزمجر ويكافح للتملص. لذلك ركض شن، على أمل أن ينجح في دفع الجرو داخل السلة. لكن قبل أن يصل إلى هناك، أطبق الجرو فمه على ذراعه ورفض أن يتركها. صرخ شن من الألم والخوف. تصبّب عرق بارد فجأة من جسده.

لم يتركه الجرو حتى وضعه ثانية على الأرض. هز شن ذراعه ليخفّف من حدة الألم. نظر إلى ذراعه فوجد أنها لم تكن تنزف، لكن كانت هناك أربع ندوب أرجوانية اللون على الجلد.

أصبح وجه زانغ شاحبا كأنه شبح. "أنت محظوظ لأنك قطعت الأطراف الحادة لأنيابه، وإلا لغرس أنيابه عميقا في ذراعك. لا أتصور أن باستطاعتنا الاحتفاظ به بعد الآن. عندما يكبر، حتى الأنياب غير الحادة ربما حطمت ذراعك".

– لا تتكلم عن أنيابه، حسنا؟ لولا ذلك، ربما كنت قادرا على إعادته إلى السهوب. الآن أصبح معاقا. كيف يستطيع أن يبقى حيا بأنياب ليست قادرة حتى على اختراق الجلد؟ لقد أفسدت طبيعته، لذا علي أن أطعمه. الآن بعد أن أصبح الفيلق هنا، وهم يتحدثون عن الاستقرار، سأشيّد له حظيرة من الحجر بعد أن نستقر، ولن نحتاج إلى السلسلة.

– "حسنا"، قال زانغ، "لن أحاول منعك. لكن علينا أن نجد طريقة لوضعه على العربة ونبدأ بالمسير. دعني أحاول، ما دمت أنت جريحا".

- "سأحمله أنا"، قال شن. "إنه لا يعرفك، ويمكن أن يعضّك من أنفك فيقطعه. سأقول لك شيئا. عليك أن تقف هناك وتحمل بطانية اللباد ثم تغطي السلة حالما أدسّه في داخلها".

- هل أنت معتوه؟ سيعضّك، وبصورة قاسية، إذا حملته ثانية. الذئاب لا تعرف الرحمة عندما تغضب. سيتّجه فورا إلى حنجرتك إذا لم تحترس.

توقّف شن لوهلة. "يجب أن أحمله، حتى لو عضّني. أعتقد أنني سأضحي بمعطف مطري". أسرع نحو إحدى العربات وأخرج معطفه المطري العسكري، الذي كان مصنوعا من قماش القنب أخضر اللون في جانب منه وجلد مطاط أسود اللون في الجانب الآخر. ثم أخرج قطعتين إضافيتين من اللحم ليُشغل الجرو في الوقت الذي حاول فيه التوقف عن الارتعاش، ثم فتح المعطف المطري وغطى به الذئب الصغير. أطبق عليه قبضتيه بشدة بحركة سريعة، وحمل الجرو الذي ظل يكافح بشكل مسعور، كان مشوّشا وغير قادر على رؤية أي بقعة ليعضّها، اتجه به إلى العربة، حيث دفعه داخل السلة، هو والمعطف. أسرع زانغ ورمى بطانية اللباد على السلة. في الوقت الذي استمر فيه الجرو بالمقاومة، وقد أخرج رأسه من فتحة شقّها في المعطف المطري، كان قد أصبح سجينا الآن. بعد أن انتهى الرجلان من ربط غطاء اللباد جيدا بوساطة حبل من شعر عنق فرس، تهاوى شن على الأرض، كان يلهث وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ويتصبّب عرقا. استدار الجرو في سجنه الجديد، مما دفع شن أن يقفز على قدميه ليكون مستعدا في حال مزّق الجرو بطانية اللباد، أو خبط رأسه بالسلّة.

أصبحت العربات الآن مستعدّة للسير على الطريق، لكن شن شعر بالقلق من أن سلة الصفصاف المهلهلة لن تكون قوية إلى درجة كافية لتحمل ذئبا غاضبا وقويّا. صار يلاطفه ويتزلف إليه، حتى إنه دفع عدة قطع من اللحم إلى داخل القفص. بعد أن أرجع الكلاب إلى مؤخر القافلة لتؤنس وحشة الجرو، أشار إلى زانغ بالتحرك. وجد شن عصا في إحدى العربات، حيث هيأها للضرب على السلة لإيقاف الجرو عن الصراع في حالة الضرورة، بينما امتطى صهوة الحصان وسار إلى جانب العربة كي يراقبه. توقع أن يحاول الجرو بكل تأكيد شق فتحة في السلة ليتخلص من سجن أسوأ بكثير من أي سلسلة.

لكنه لم يكن بحاجة إلى القلق، لأنهم حينما بدأوا بالتحرك، توقف الجرو عن المقاومة؛ بدلا من ذلك بدا الخوف واضحا في عينيه، وهو أمر لم يشهده شن قط من قبل. لم يجرؤ الجرو على أن يستلقي، خفض رأسه، وتقوّس ظهره، بينما انحشر ذيله بين قائمتيه، وانتصب واقفا يحملق بحدة في شن، الذي راقبه فيما كان يزداد شعورا بالذعر، إلى حد أن جسده انكمش حتى غدا كأنه كرة. لم يكن يأكل، ويشرب، ويزمجر، أو يعضّ؛ وكأنما قد أصابه دوار البحر، لقد فقد كل قدرة على المقاومة.

صُدم شن من هذا التحول في مسير الأحداث، اقترب من العربة حتى التصق بها كانوا يجتازون مرتفعا جبليا. ظهر من خلال عيني الجرو أن الصراع الذي كان محتدما في رأسه قد هدأت ثورته، بالرغم من أنه كان منهكا بشكل واضح، وبالرغم من الجروح التي أصابت أكفه، وفمه الذي ما زال ينزف. لكنه لم يجرؤ على الاستلقاء ليرتاح، كما لو أنه شعر بخوف غريزي من حركة العربة ومن الارتفاع عن الأرض. بعد ستة أشهر أمضاها شن مع الجرو، كان لا يزال مندهشا من سلوكه المتكرر، الذي لا يمكن أن تسبر أغواره.

سارت القافلة سريعا لكن بسلاسة. بينما كان شن يمضي قدما وإياها وهو يمتطي صهوة حصانه، وسرعان ما غرق في خضمّ أفكاره. كيف أصبح الجرو الذي كثيرا ما تصرف بعنف خائفا وضعيفا فجأة إلى هذا الحد؟ كان ذلك شيئا غريبا على ذئب من ذئاب السهوب. هل تواجه جميع الشخصيات البطولية نقطة ضعف مهلكة؟ هل يمكن أن يحمل ذئب السهوب الذي اعتقد شن أنه قد تطور حتى وصل إلى ما هو عليه، عيبا في شخصيته؟ تحول انتباهه إلى الصعوبات التي ستواجهه حتما خلال التنقلات المتكررة التي يقومون بها في الشتاء. سيكون الجرو قد كبر تماما عندئذ، ولن تتوافر ببساطة مصادر كافية لنقله من مكان إلى آخر. لم تتّضح ملامح أي حلّ محتمل في ذهنه.

شمّت الثيران رائحة الأبقار بعد أن صعدت التل، وتسارعت خطاها لغرض اللحاق بالقوافل التي سبقتها بمسافة.

* * *

فيما كانوا يمرّون عبر ممرّ جبلي عند حافة المراعي الصيفية، اقتربت شاحنة خفيفة في الاتجاه المعاكس، وكانت تجرّ وراءها سحبا من الغبار، وبدلا من انتظار العربات حتى تفسح لها الطريق، فقد تابعت الشاحنة مسيرها على الكتف الترابي وعبرت بجانبهم.

رأى شن جنديين يحملان البنادق، وبعض العمال من الفرقة، وأحد الرعاة الذي كان يرتدي مئزرا خفيفا. لوّح الراعي لهم، كان ذلك دورجي، فوصل قلب شن إلى حنجرته ثانية من منظر قتلة الذئاب الماهرين الذين كانوا في الشاحنة بعد أن اكتسبوا سمعة سيئة نتيجة قتلهم للذئاب. اتّجه بحصانه إلى مقدمة القافلة. "إن دورجي يقود الناس لاصطياد الذئاب من جديد؟". تساءل شن.

– "لا يوجد شيء هنا سوى الجبال، والبحيرات، والجداول"، قال زانغ. "لن تكون الشاحنة ذات نفع في أماكن مثل هذه، إذا، كيف سيصطادون الذئاب؟ لا بدّ من أنهم رجعوا للمساعدة على رفع سقيفة الحزن".

عندما وصلوا إلى السهوب، أقبل حصان يعدو مسرعا باتجاههم من القافلة التي أمامهم. رأوا أنه بلغي كان يمتطي صهوة حصانه، كان يبدو كئيبا. "هل دورجي هو الذي في تلك الشاحنة؟"، سأل وهو يلهث.

أكدا له أنه هو. "تعالَ معي إلى موقع المخيم القديم"، قال بلغي لشن. ثم استدار نحو زانغ جيوان. "تابع طريقك مع العربات؛ سنرجع بعد قليل".

– "تأكد من الجرو كلما استطعت"، همس شن لزانغ. "إذا سبب لك أي متاعب، لا تفعل شيئا حتى أعود". بعدها انطلق حصانه يعدو برفقة الرجل العجوز.

– "لا بدّ من أن دورجي يقود أولئك الناس لاصطياد الذئاب"، قال بلغي. "في هذه الأيام، تلقى مهاراته طلبا كبيرا. ولأنه يتحدث اللغة المندرينية، فقد أصبح مستشارا للفيلق في قتل الذئاب، إنه يترك الأبقار ليرعاها أخوه الأصغر. صار يصطحب الناس في رحلات صيد كل يوم. إنه على وفاق تام مع المسؤولين. منذ بضعة أيام، كان أيضا قد ساعد أحد رماة الفرقة الماهرين في إصابة عدة ذئاب. الآن هو بطلهم".

– كيف سيصطادون عندما لا يوجد شيء سوى الجبال والأنهار؟ لست أفهم.

– عندما أخبرني أحد رعاة الأحصنة أنه يقودهم إلى موقع المخيم القديم، عرفت ما الذي يفعله.

– ماذا؟

– إنه يضع طعما مسموما، وينصب الفخاخ في موقع المخيم القديم. الذئاب المسنّة، والمريضة، والجريحة تعيش وضعا بائسا بحيث إنها تعتاش على العظام التي خلفها القطيع، أو الطعام الذي تركه الناس وما لديهم من كلاب. إنها تعيش وهي تتضوّر جوعا معظم الوقت. وهكذا كلما انتقل الرعاة إلى مكان جديد، تبحث تلك الذئاب عن الطعام وسط الرماد والقمامة في المخيمات القديمة. إنها تأكل أي شيء تجده في طريقها، جلود خراف متعفنة، وعظاما نتنة، وجماجم الخراف، وطعاما خلّفه الناس وراءهم، وما شابه ذلك. حتى إنها تنبش الحفر التي دفنت فيها الكلاب، والخراف، والأبقار الميتة. الرعاة الطاعنون في السن يعرفون هذا. في بعض الأحيان، عندما كان ينسى الرعاة شيئا في مكان ترحّلهم في أثناء ترحالهم، كانوا يعودون إلى المكان لاسترجاعه فيعثرون على آثار للذئاب. بما أنهم يعتقدون بإخلاص باللاّمية، فهم يدركون أن تلك الذئاب تعيش في حال تعسة، لذا فهم لا ينصبون الفخاخ قط أو يتركون طعما مسموما وراءهم. كان بعضهم أيضا يتركون طعاما للذئاب المسنّة عندما ينتقلون إلى مكان آخر.

تنهّد الرجل العجوز. "لم يتطلب الأمر من الدخلاء وقتا طويلا حتى تعلموا كل شيء عن الذئاب المسنّة. لقد اقتفى دورجي خطوات أبيه، وذلك بترك خراف ميتة بعد حشوها بالسموم ونصب الفخاخ عند الانتقال إلى مكان آخر. إنهم يعودون بعد أيام قليلة لسلخ جلود الذئاب الميتة أو التي وقعت في الفخاخ. ما هو باعتقادك السبب الذي جعل عائلته تبيع جلودا أكثر من أي فرد آخر؟ إنهم لا يعتقدون باللاّمية، ولا يكنّون احتراما للذئاب. لا يبالون باستخدام أكثر

الوســـائل المتاحة قسوة لقتل الذئاب جميعها، ومن ضمنها الذئاب المسنّة والجريحة. هل فهمت قصدي؟ الذئاب لا يمكنها أبدا بلوغ مستوى الشرّ الذي وصل إليه البشر".

فــيما طفحـــت عيناه بملامح الحزن والأسى، تابع الرجل العجوز كلامه، وكانت لحيته ترتعش، "هل تعرف كم هو عدد الذئاب التي قتلوها مؤخّرا؟ الذئاب خائفة للغاية بحيث لا تجرؤ علـــى الخروج بحثا عن الطعام. أتصور أنه حتى إن الذئاب التي تتمتع بصحة جيدة ستذهب إلى الموقـــع القديم بحثا عن الطعام، الآن بعد أن انتقلت الفرقة. دورجي مخادع أكثر من الذئاب. إذا استمرّوا في قتلها فلا أحد هنا ستصعد روحه إلى تينغر، وستمنى السهوب بالشؤم".

عـــرف شن أنه ليس هناك شيء في وسعه قوله من أجل التخفيف من جروح هذا الصياد الأخـــير من الرعاة البدو. ليس هناك أحد يمكنه إيقاف التفجّر السكاني للفلاحين، أو الحدّ من استباحة الفلاحين للسهوب. لم يكن قادرا على التخفيف من ثقل مشاعر الرجل العجوز، كل ما استطاع فعله هو قول: "راقبني. سأزيل كل تلك الفخاخ".

اجـــتازا المرتفع، واتجها نحو أقرب موقع مخيم، شاهدا آثار عجلات خلّفتها الشاحنة، التي كانـــت قـــد ســـارت نحو الجانب الآخر من المنحدر. اقتربا من الموقع بحذر، لم يكونا يريدان لحصانيهما الوقوع في فخّ من الفخاخ.

تفحّص الرجل العجوز المنطقة، وأشار إلى حفرة كانت قد استُخدمت للطهي، "دورجي ماهـــر في نصب الفخاخ. هل رأيت ذلك الرماد؟ يبدو كما لو أن الريح قد جرفته إلى هناك، لكـــن في الواقع كان هو الذي رشّه على الفخاخ. وقد ترك اثنين من حوافر الخراف الخالية من اللحم بالقرب منها. لو كان في تلك الحوافر أي لحم فإن الذئاب ستشك في الأمر. لكن الحوافر الخالية من اللحم تعتبر من الفضلات، إنها تُلقى هناك بانتظار أن تنخدع بوجودها الذئاب ليس إلاّ. كان قد لوّث يديه بالرماد لحجب الرائحة البشرية قبل أن ينصب الفخاخ. الذئاب وحدها هي التي تتمتّع بحاسة الشمّ الأكثر حدّة من سواها من الحيوانات بحيث يمكنها تعقّب رائحته. أما الذئاب المسنّة فقد ضَعُفَت حاسة الشمّ لديها مع تقدّم العمر".

ارتجف شن من هول الصدمة ومن الغضب، لم يستطع أن يتفوه بشيء.

قال الرجل العجوز وهو يشير إلى نصف جثة خروف ميت، "أؤكد لك أن ذلك الخروف قـــد تم تسميمه. سمعت أن لديهم نوعا من السموم القوية التي أحضروها وإياهم من بكين. لا تستطيع الذئاب أن تشمّ رائحتها، لكن حالما تبتلعها تموت حتى قبل أن تنفث دخان غليونك".

– إذا، سألقي بتلك الجثة في بئر مهجورة.

– توجد مواقع مخيمات كثيرة جدا. لا تستطيع أن تفعل ذلك فيها جميعها.

عـــادا لامتطاء صهوتي حصانيهما، وتفحصا أربعة أو خمسة مواقع. لم يترك دورجي شيئا في بعـــض المواقـــع، لكنه كان قد نصب الفخاخ أو وضع السموم في أخرى. لقد خطط لعمله

جيدا، واستخدم الكثير من وسائل الخداع. كان يستخدم أساليب متباينة، حيث عمل حواجز ترابية صغيرة بين المخيمات، فإذا أمسك أحد الفخاخ بذئب في مكان ما، لن يؤثر ذلك على الفخاخ الأخرى التي كانت قد نُصبت في بقعة مجاورة.

شاهدا أيضا أن المواقع التي فيها سموم كانت أكثر من المواقع التي فيها فخاخ. كان قد استفاد من حفر الطهي والرماد الذي فيها، وهو السبب الذي جعله يتمكن من إنهاء عمله على عجل؛ لم يكن مضطرا إلى استحداث حفر جديدة لينصب فيها الفخاخ.

كان عليهما التوقف هناك، وإلا سيراهما دورجي. التفّ الرجل العجوز بحصانه وهو يتمتم: "هذه هي فقط الذئاب التي في مقدورنا إنقاذها". عندما وصلا إلى أحد المواقع التي كان دورجي قد عمل فيها، ترجّل الرجل العجوز عن صهوة حصانه، ومشى باتجاه قائمة خروف متعفنة. أخرج جرابا صغيرا مصنوعا من جلد الخراف، فتحه، ونثر قليلا من مسحوق أبيض مائل إلى اللون الرمادي فوقه. عرف شن تماما ما الذي كان يفعله. تلك المادة عبارة عن سمّ حيوانات رديء النوعية يباع في الجمعية المحلية؛ لم يكن فعالا جدا، لكن كان له رائحة قوية تؤثر على أكثر الذئاب والثعالب غباء. سيذهب عمل دورجي أدراج الرياح الآن بعد أن صار بالإمكان اكتشاف السم من قبل معظم الذئاب.

إن الرجل العجوز على كل حال، أذكى من دورجي، هكذا فكّر شن. لكن خطر في باله سؤال: "ما الذي قد يحصل إذا تبددت رائحة السمّ مع الريح؟"، تساءل.

قال الرجل العجوز: "لا داعي إلى القلق. الذئاب تستطيع أن تشمّ رائحة السمّ حتى إذا كنا نحن لا نستطيع أن نفعل ذلك".

في بعض الأماكن كانت هناك فخاخ، طلب بلغي من شن أن يلتقط بعض عظام الخراف، ويرميها على الفخاخ كي تنغلق. تلك هي في الواقع إحدى الوسائل التي تتعامل بها الذئاب المسنة الماكرة مع الفخاخ.

بعد ذلك انتقلا إلى الموقع التالي، و لم يرجعا حتى كان الرجل العجوز قد استخدم كل السموم رديئة النوعية التي كانت بحوزته.

- بابا، ما الذي يحصل لو رأوا في طريق عودتهم أن الفخاخ قد أبطل عملها؟

- "ربما يكونون قد ذهبوا بعيدا لاصطياد الذئاب، إنهم لا يقلقون كثيرا بشأن هذه الفخاخ"، قال الرجل العجوز.

- لكن ما الذي يحصل لو عادوا لتفقّد الفخاخ، واكتشفوا أن شخصا ما قد عبث فيها؟ ربما وقعت في متاعب جسيمة، واتّهموك بإفساد حملة إبادة الذئاب.

- لن يكون أهمية ذلك بأهمية المتاعب التي ستواجهها الذئاب. من دون وجود الذئاب ستهيمن الفئران والأرانب على السهوب. عندئذ، حينما تتلاشى السهوب، هم أيضا سيواجهون

المتاعب. لا يمكن لأي مخلوق أن ينجو من ذلك. لقد نجحنا في إنقاذ بضعة ذئاب. ينبغي لنا أن نـــشعر بالسعادة إزاء ذلك. يا ذئاب أولونبولاغ، اهربـــي وأنقذي حياتك، اهربـــي إلى مكان بعـــيد. إذا أردت الصدق، فإنني أتمنى أن يعود دورجي والآخرون فعلا ليشاهدوا ما فعلته. لدي حساب يجب أن أصفّيه وإياهم.

وصـــلا إلى قمة المرتفع، حيث شاهدا العديد من طيور الإوز البري تصيح بأصوات حزينة وهـــي تدور في الهواء، باحثة عن أبناء جنسها. كبح الرجل العجوز سير عنان حصانه، نظر إلى الأعلى، وتنهّد. "حتى الإوز البري يكاد لا يشكل سربا واحدا. لقد التهموا جميع الإوز تقريبا". اســـتدار لينظـــر صـــوب المراعـــي الجديدة التي كان قد عثر عليها. ترقرقت الدموع في عينيه الكئيبتين.

تذكـــر شن الفردوس الجميل الذي وجدوه عندما وصلوا للمرة الأولى إلى المراعي الجديدة بـــرفقة الـــرجل العجوز. لم يمضِ سوى صيف واحد حتى حوّل الناس منطقة بحيرة البجع رائعة الجمال إلى مقبرة للبجع، والإوز البري، وللذئاب. "بابا"، قال، "إننا نؤدّي عملا خيّرا، إذا لماذا أشعر بأن علينا أن نتسلّل كاللصوص هنا وهناك؟ أشعر برغبة في أن أبكي".

- "هـــيا لا تتـــردّد في البكاء. يراودني الشعور نفسه أنا أيضا. كانت الذئاب قد رافقت أرواح أجيال من الرجال المنغوليين القدامى، إذا، لِمَ تتركني وراءها؟"، نظر عاليا إلى تينغر بوجه شقّت فيه الدموع أخاديد وصار ينتحب مثل ذئب عجوز.

تـــسرّبت الدمـــوع على وجه شن أيضا، انضمّت إلى دموع الرجل العجوز التي كانت تتساقط على أرض أولونبولاغ الموغلة في القدم.

* * *

تحمّـــل جـــرو الذئب آلامه على مضض، لقد وقف داخل القفص يومين كاملين. كانت عـــربتا شن زن وزانغ جيوان قد وصلتا أخيرا إلى منحدر سلس ينمو فوق ترابه عشب خريفي كثـــيف في مـــساء الـــيوم الـــثاني. كان جارهم، غومبو، منشغلا في نصب خيمته. أما غاو جيانـــــزونغ فكان في ذلك الوقت قد أطلق الأبقار نحو المرعى الجديد وبقي ينتظر شن وزانغ عـــند موقـــع خيمة كان بلغي قد اختاره لهم. وكانت خراف يانغ كي أيضا تقترب من الموقع الجديد.

نصب شن وصديقاه خيمتهم بسرعة. أرسلت غاسماي بايار إلى هناك يحمل سلتين مليئتين بـــروث البقر المجفّف. بعد الرحلة التي استغرقت يومين، تمكن الأصدقاء الثلاثة أخيرا من إضرام نار للطهي وغلي ماء للشاي، وعاد يانغ كي قبل العشاء، وقد حمل معه مفاجأة للجميع؛ عريش عربة مهترئ كان يسحبه وراءه، ووقود يكفي لطهي بضع وجبات، مما خفف من سخط غاو جيانـــزونغ أخيرا، والذي كان مستاء بسبب الروث الذي ألقى به شن.

مـــشى الرجال الثلاثة متّجهين إلى عربة السجن. عندما رفعوا بطانية اللباد، صُدموا عندما رأوا فـــتحة بحجـــم كـــرة القدم في أحد جوانب سلة الصفصاف، كان الجرو قد استحدثها مستخدما مخالبه وأنيابه الكليلة.

نظر شن عن قرب فرأى لطخات دماء على فروع الصفصاف الممضوغة. سارع مع زانغ لإنـــــزال الـــسلة، عـــندها وثب الجرو على الأرض المغطاة بالعشب. فكّ شن الطرف الآخر للسلسلة، وحمل الجرو ونقله إلى مكان قريب من الخيمة حيث غرس العمود، وأدخل السلسلة، ووضـــع السدادة فوقه. بدا الجرو، بعد رحلة العذاب والاهتزاز، وكأنه لا يزال يشعر بتأثيرات العربة المتحركة، لأنه سرعان ما استلقى على العشب. حين تمدد على ذلك النحو، لم تكن أكفه الجريحة تلامس أي شيء صلب؛ كان منهكا للغاية بحيث لم يستطع حتى أن يرفع رأسه.

أمسك شن بالجرو وفتح فمه عنوة بإبهاميه. لم تكن هناك كثير من الدماء تسيل من الجرح الذي أصاب حنجرته، لكن إحدى أنيابه كانت تنـــزف. بينما أمسك شن رأس الجرو بإحكام، طلب من يانغ كي أن يتحسّس الناب. حرك يانغ الناب إلى الخلف وإلى الأمام. "الجذر متراخٍ، لـــذا فإن الناب ربما تكون عديمة النفع". بالنسبة إلى شن، فقد شعر بأن ذلك شيء أسوأ من أن يفقد سنّه هو.

استمر الجرو يقاوم الألم مدة يومين، ألحق عددا من الجروح الخطيرة في جسده وأتلف نابا. ترك شن الجرو حرا، حيث بقي يلمس الناب التالفة بلسانه، وهي علامة واضحة على أنها كانت تؤلمه. أحضر يانغ بعض الأدوية لمعالجة جروح أكف الجرو وعالجها بحذر.

بعد العشاء، قام شن بتحضير وعاء من الطعام الليّن إلى حدّ ما، حيث وضع فيه معكرونة متبقـــية من وجبات سابقة، وقطعا صغيرة من اللحم، والحساء. بعد أن برد الطعام قدّمه للذئب الصغير الذي التهمه على الفور. بالرغم من ذلك أدرك شن أن الجرو كان يعاني من متاعب في البلع؛ بدا كما لو أن شيئا ما كان عالقا في حلقه. بعدها عاد الجرو يلمس الناب التالفة بلسانه، وسرعان ما بدأ بالسّعال، وبصق شيئا من الطعام الملطخ بالدم، غير الممضوغ جيدا. غطس قلب شـــن في أعماقه؛ لم يكن الجرو يعاني من ألم ناب تالفة وحسب؛ وإنما هناك شيء ما قد أصاب حلقه أيضا. لكن أين يمكنه العثور على طبيب بيطري يوافق على فحص جرو ذئب؟

– "الآن فهمـــت شيئا ما"، قال يانغ كي لشن. "الذئاب لا تعرف الاستسلام، ليس لأن القطـــيع لا يقبل الخونة أو المخنثين، ولكن لأن البيئة التي لا ترحم هي التي تنبذ الفرد الذي لا يصلح للبقاء".

– "هذا الجرو دفع ثمنا باهظا مقابل الحفاظ على طبيعته الوحشية، التي لا تقبل الترويض"، قـــال شـــن بحزن. "هل يمكنك أن تعرف كيف ستكون عليه ملامح شخصية المرء في مرحلة النضج، وهو في الثالثة من عمره ليس إلاّ، وكيف ستكون عليه شخصيته في مرحلة الشيخوخة

وهــو في السابعة من عمره؟ لكن في ما يتعلق بالذئاب، الأمر يتطلب ثلاثة أشهر لا غير لتدرك طبيعة ذئب ناضج، وسبعة أشهر للتعرف إلى طبيعته كذئب عجوز".

في صــباح الــيوم التالي، عندما كان شن ينظف حظيرة الذئب، رأى أن الفضلات التي كانت في الظروف الاعتيادية تميل إلى اللون الرمادي قد أضحت سوداء اللون. أصيب بالذعر، وفــتح فم الجرو بسرعة فرأى حلقه ما زال ينــزف. اضطر بمساعدة يانغ كي إلى أن يبقيا فم الجــرو مفتوحا بينما حاول أن يرش قليلا من الدواء على الجرح مستخدما أعواد الطعام وقطعة مــن اللــباد. لكن الجرح كان عميقا جدا بحيث لم تصل إليه أعواد الطعام. جربا أي شيء في متــناول أيديهما، جميع أنواع العلاجات المنــزلية المتاحة، إلى أن أصابهما الإنهاك، شعرا بالندم لأن أحدهما لم يدرس علم البيطرة.

في الــيوم الرابع، بدأ لون الفضلات الأسود يختفي تدريجيا، واسترد الجرو حيويّته. فتنفّس الرجلان الصعداء.

34

لم توجّه أي دعوة إلى بلغي مرة أخرى لحضور اجتماعات فيلق أو فرقة الإنتاج. وكثيرا ما كان شن يراه في خيمته، يعمل بصمت في خياطة الجلود.

كانـــت سيور الأعنة، والشكائم، والأربطة التي تصنع من الجلود وتستخدم في التعامل مع الأحـــصنة، والأبقار، والخراف، وكذلك الأحصنة التي يمتطيها الرعاة قد أصبحت جميعها رقيقة بفعـــل أمطار الصيف والخريف؛ بعد أن جفّت الجلود تحت الشمس، وتصلبت وصارت تتشقّق بـــسهولة، مما جعلها أقل تحملا. لم يكن شيئا غريبا أن يقطع حصان سير عنانه أو يهشم رباطه ويجري عائدا إلى القطيع.

بعـــد أن توافـــر لديه كثير من وقت الفراغ، كان بلغي قادرا على صنع تجهيزات جلدية جديـــدة لعائلـــته، ولرعاة قاطع الأحصنة، وطلاب بكين. غالبا ما اقتطع شن زن، ويانغ كي، وغاو جيانـــزونغ جزءا من وقتهم واستفادوا منه في تعلّم صناعة الجلود على يد الرجل العجوز. بعد أسابيع قليلة أصبحوا قادرين على إنتاج سيور أعنة وسياط مقبولة. حتى إن يانغ استطاع أن يصنع رباطا لتقييد الأحصنة، والذي هو أكثر صعوبة من كل المواد الأخرى في صناعته.

تحولت خيمة الرجل العجوز الواسعة إلى ورشة للأشغال الجلدية. تكوّمت المواد التي كان قد انتهى من صناعتها في أكداس عالية؛ بينما اخترقت الهواء رائحة الجلد المغمّس في الملح. وما كانوا يحتاجون إليه الآن هو فقط إضافة زيت المرموط.

يستخرج من حيوانات المرموط أفضل أنواع الزيوت في السهوب. خلال فصول الشتاء القاســـية، كـــان الـــزيت المستخلص من الخراف وحيوانات أخرى قد تصلّب؛ أما زيت المرموط، الذي يعتبر الاستثناء الوحيد، فيمكن أن يبقى سائلا حتى في درجات الحرارة التي تهـــبط تحت الصفر. تلك هي إحدى الخصائص التي تتفرد فيها السهوب، ويجدها المرء في منازل جميع الرعاة. عندما تهبّ عواصف ثلجية من ذوات الشعر الأشيب في أعماق الشتاء، كان ما يحتاج الناس إلى أن يفعلوه لحماية وجوههم من قضمة الصقيع، أن يدهنوها بطبقة مـــن زيـــت المرموط. كانت الفطائر المنغولية المصنوعة من الطحين تقلى في زيت المرموط فتكتسب لونا بنيا ذهبيّا ومذاقا شهيّا؛ ولا يتناول المرء تلك الفطائر عادة إلاّ خلال مآدب الزفاف، أو يقدم إلى الضيوف المميزين. وفي حال الإصابة بالحروق يكون للزيت تأثير فعّال كمرهم علاج مميز.

يـــشكل زيـــت المرموط وجلوده مصدرين مهمين للدخل بالنسبة إلى الرعاة. ففي فصل الخريف، عندما تصبح جلود المرموط سميكة كفاية، يذهب الرعاة نحو الجبال لاصطيادها، حيث يحتفظون باللحم لأنفسهم ويرسلون الجلود والزيت إلى مركز التسوق لمبادلتها بكتل من الشاي، والحرير، والبطاريات، والأحذية، والحلويات، والاحتياجات اليومية. كانت قطعة جلد المرموط الكبيرة تباع بأربعة يوان، ويباع كاتي[1] واحد من الزيت بيوان واحد على الأقل. وبما أن الجلود تعتبر مادة مثالية لصناعة معاطف النساء، فقد كانت تصدّر ضمن عمليات التبادل التجاري مع البلدان الأجنبية.

لكن الدخل المتأتي من ممارسة الصيد لم يكن ثابتا. ولا تختلف الحيوانات البرية التي تعيش علـــى الـــسهوب كثيرا عن أشجار الفاكهة في مناطق أخرى من الصين؛ هناك سنوات مثمرة وسنوات مجدبة، والمناخ هو الذي يحدّد ذلك، ونموّ الأعشاب، والكوارث الطبيعية. لكن الرعاة على أولونبولاغ كانوا يعرفون كيف يسيطرون على مستوى ممارستهم للصيد، وهم لا يضعون في حسباهم أبدا معدّلا للنموّ خاصا في كلّ سنة. إلهم يصطادون كثيرا إذا توافرت أعداد كثيرة مـــن الحـــيوانات، ويصطادون بمعدّل أقلّ إذا لم تتوافر إلاّ أعداد قليلة منها، ويتوقفون نهائيا عن الـــصيد عـــندما يندر وجود حيوانات. لقد استمرّ الوضع على ذلك المنوال آلاف من السنين، وذلك هو السبب الذي أدّى إلى أن تتوافر لهم دائما الكثير من الحيوانات ليصطادوها. في أغلب الأوقـــات كانوا يبيعون جلود المرموط؛ لكنهم لا يبيعون الزيت، لأنه يُستخدم لأغراض واسعة الـــنطاق، وبالأخص في الأشغال الجلدية، حيث يصبغ الجلد بلون بني غامق، ويضفي عليه رقة ومـــرونة. كان الجلد يحافظ على الملح الذي فيه إذا أضيف إليه زيت المرموط باستمرار خلال موسم الأمطار، وهذا يؤدي إلى إطالة مدّة جودته وتقليل معدل تكرار وقوع الحوادث. وغالبا ما كانوا يستنفدون الزيت المتوافر لديهم قبل حلول موسم الصيد.

بينما كان بلغي منشغلا بأدواته التي يستخدمها في الأشغال الجلدية، ذات يوم، قال مخاطبا شن: "لم يتبقَّ لديّ سوى نصف قنينة من الزيت، وأشتهي أن آكل لحم المرموط. فطعمه يكون أفضل في هذا الوقت من السنة. في الأيام الماضية، لم يكن الأرستقراطيون يأكلون لحم الضأن في هذا الوقت. وغدا سأصطحبك لاصطياد المرموط".

– "عـــندما تعودون بالمرموط إلى المخيم"، قالت غاسماي، "سأدعوكم لارتشاف الشاي وتناول بعض الفطائر المقلية بزيت المرموط".

– "تلـــك أخـــبار عظيمة"، قال شن، "لكن لا يمكنني الاستمرار بالمجيء إلى هنا من أجل تناول الطعام".

---

(1) كـــاتي: وحـــدة وزن في الـــصين وجـــنوب شـــرقي آسيا تساوي نحو رطل إنكليزي وثلث الرطل. (المترجم)

ضحكت غاسماي. "منذ أن بدأت تربّي الجرو، نسيت كل شيء عني. كم عدد المرات التي أتيت بها لترتشف الشاي خلال الأشهر القليلة الماضية؟".

– أنـــت قائدة القاطع، وحتى الآن تسببت لك بالكثير من المتاعب بسبب إصراري على تربية ذلك الجرو. لم أجرؤ على المجيء لرؤيتك.

– "لـــولاي أنـــا"، قالت غاسماي، "لكان جروك سيواجه القتل من قبل الرعاة منذ مدة طويلة".

– ماذا قلتِ لهم؟

ابتسمت غاسماي. "قلت لهم إن الصينيين يكرهون الذئاب ويأكلونها، جميعهم ما عدا شن زن ويانـــغ كي، هذا كل شيء. إنهما يعاملان الجرو مثل طفلهما بالتبني. سيصبحان مثلنا تماما نحن المنغوليين عندما يدركان طبيعة الذئاب".

شعر شن أنها قد غمرته بجميلها، فشكرها كثيرا معبرا لها عن امتنانه.

ضـــحكت غاسماي بصوت مرتفع. "يمكنك أن تشكرني بصنع بعض المعجنات لي. أريد مـــنك أيضا شيئا من الخبز المسطح الذي تحضّره وتحشوه بلحم الضأن". جعل ذلك شن يشعر بالسعادة. بعد ذلك غمزت بعينيها وأشارت إلى الرجل العجوز المغموم. "بابا يحبّ تلك الفطائر الصينية بلحم الضأن أيضا".

ضـــحك شـــن. "مـــا زالت لدينا نصف حزمة من البصل الأخضر كان زانغ جيوان قد اشـــتراها من منطقة مكتب الفرقة. سأحضرها لكما الليلة، ويمكنكما أنت وبابا أن تأكلا كما تريدان".

لاحـــت ابتسامة باهتة في عينيّ الرجل العجوز. "لا حاجة لنا إلى أن تأتي بلحم ضأن؛ كنا قـــد ذبحنا خروفا. الفطائر التي يحضرها غاو جيانـــزونغ بلحم الضأن أفضل حتى من تلك التي تقدّم في المطاعم. عليك أن تطلب من يانغ كي وغاو جيانـــزونغ المجيء ليشربا وإيانا".

في تلـــك اللـــيلة. كـــان غاو قد علّم غاسماي طريقة تحضير حشوة الفطائر، كيف تلفّه بـــالعجين، ومـــن ثم قلـــي الفطائر. ثم صاروا يغنون، ويأكلون، ويشربون إلى أن وضع الرجل العجـــوز صـــحنه فجأة على الأرض وقال: "الفيلق يريد من الرعاة الاستقرار في مكان واحد، يقولون إننا بتلك الطريقة لن نمرض كثيرا، وإن المجهود الذي نبذله في العمل سيتقلص. ما رأيك؟ أنتم الصينيون تحبّون أن تستقرّوا في مكان واحد، أليس كذلك؟".

– "لـــسنا مـــتأكدين مـــن أن الرعاة يمكنهم أن يغيّروا نمط حياتهم البدوي بعد كل هذه الـــسنين"، قال يانغ كي. "أنا شخصيا لا أعتقد ذلك. العشب القصير الذي هنا لا يتحمل أن تـــدوس عليه المواشي، لذا ينبغي للناس وما لديهم من مواشٍ الانتقال إلى موقع مختلف بعد شهر أو شهرين. إذا استقر بنا المقام في مكان واحد لن تمضي سنة واحدة على المنطقة المحيطة بنا حتى

تتحوّل إلى أرض رملية، ولن يكون المكان سوى صحراء. إلى جانب ذلك، كيف وأين يفترض بأي عائلة أن تختار مكانا لتستقر فيه؟".

هــز الــرجل العجوز رأسه. "من الجنون الترويج لبناء المستوطنات على السهوب. الناس الــذين يفــدون من المناطق الفلاحية لا يعرفون شيئا عنها. إنهم يحبون الاستقرار، وذلك شيء جــيد. لكــن لماذا يجبرون الآخرين على أن يفعلوا الشيء ذاته؟ الكل يعرف أن الحياة ستكون أســهل حــين نتوقف عن التنقل. لكننا مارسنا ذلك لأجيال متعاقبة. إنه الشيء الذي يريد منا تينغر أن نفعله".

- خذ أراضي المراعي، على سبيل المثال: كل مرعى موسمي له وظيفة منفصلة يؤديها. في مرعى الاستيلاد الربيعي ينمو عشب من نوعية جيدة، لكنّه قصير الساق. والمواشي ستموت إذا اجــتاحت العــشب عاصفة ثلجية شتوية. لا يمكننا الاستقرار هناك. وفي المراعي الشتوية ينمو عــشب طــويل الساق، لكنه لا يدوم مدة طويلة إذا بقيت المواشي ترعى هناك خلال المواسم الثلاثة الأولى. أما المرعى الصيفي فيجب أن يكون قريبا من المياه، وإلا فإن الحيوانات ستموت من الظمأ. لكن تلك المياه جميعها موجودة في الجبال، والحيوانات تتجمد حتى الموت في الشتاء. نحــن ننــتقل إلى مرعى خريفي من أجل حبوب العشب، لكن هل ستبقى حبوب العشب إذا اســتمرت المواشي ترعى في الربيع والصيف؟ كل مرعى فيه كثير من الجوانب السلبية لكنّ فيه ميــزة واحــدة تكفــي. المغزى من وراء حياة الرعي والبداوة يتمثل في تجنب الجوانب السلبية والاســتفادة من تلك الميزة المتفرّدة في كلّ مرعى. إذا بقينا في بقعة واحدة، عندها سنواجه كل الجوانب السلبية، ولن نحصل على أي ميزة. كيف يمكننا إذا الاستمرار في ممارسة الرعي؟

أومأ الطلاب الصينيون الثلاثة برؤوسهم موافقين على كلامه. بالطبع كان في وسع شن أن يرى ميزة واحدة في الاستقرار - ذلك سيجعل من السهولة عليه أن يربــي جروه - لكنه بقي صامتا.

شرب الرجل العجوز كثيرا، وأكل أربع فطائر كبيرة محشوة بالبصل الأخضر ولحم الضأن، لكن مزاجه بدا سيئا أكثر.

تــبادل شن ويانغ كي نوبات الحراسة في صباح اليوم التالي حتى يتمكن من الذهاب إلى الصيد برفقة بلغي. كان هناك كيس من الخيش وضعت فيه عشرات الفخاخ قد ربط على سرج حــصان الرجل العجوز. تكون فخاخ المرموط بسيطة الصنع عادة: عمود خشبــي يبلغ طوله قدمين، وأنشوطة فولاذية مصنوعة من ثمانية أسلاك خفيفة ملفوفة ببعضها بعضا. ينصب الصياد الفــخّ من خلال غرس العمود الخشبــي بالقرب من جحر المرموط، ويضع الأنشوطة على بعد نحــو بوصتين فوق المدخل. عندما يغادر أحد حيوانات المرموط الجحر، يعلق في الأنشوطة من رقبته أو إحدى قائمتيه الخلفيتين.

- "في المرة الأخيرة التي استخدمت فيها فخاخا من صنع يديك"، قال شن، "لم أصطد أيَّ مرموط كبيرا. لماذا حصل ذلك؟".

ضحك بلغي حتى كاد أن يختنق. "لأنني لم أعلّمك السر الذي يمكّنك من صيد المرموط بالفخّ، ذلك هو السبب. إن صيادي أولونبولاغ لا يكشفون عن أسرارهم قطّ للدخلاء، وذلك خوفا من أن يقتلوا جميع الحيوانات. لكنني رجل صرت عجوزا، لذا سأعلمك أسراري. الدّخلاء يستخدمون فخاخا ثابتة، لكن المرموط حيوان ذكي؛ إنها تعصر أجسادها لتنزلق إلى خارج الأنشوطة. إن فخاخي مرنة وهي تزداد ضيقا عند أقل ملامسة. حالما تمسك بالمرموط، إما من الرقبة أو من قائمته الخلفية، لن يتمكن أبدا من الفرار. لذا فقبل أن تنصب فخا تحتاج إلى أن تجعل الأنشوطة أقصر طولا، ثم توسعها. عندما تفلتها من يدك، راقبها وهي ترتد لتنغلق".

- كيف تبقيها مفتوحة؟

- عليك أن تعمل خطافا صغيرا باستخدام سلك، ثم تُدخل الخطاف في فتحة الأنشوطة وتثنيه برفق قليلا، لكن ليس برفق مبالغ فيه. إذا لم يكن الخطاف منحنيا لدرجة كافية، ستؤدي الرياح إلى انغلاق الأنشوطة. أما إذا كان الخطاف منحنيا أكثر، فلن تنغلق الأنشوطة من تلقاء ذاتها ولن تمسك مرموطا واحدا. ينبغي أن يؤدّي ذلك دوره الصحيح، وأن يكون مرنا. عندما يدخل المرموط عبر الفخ، فهو يلمس السلك عند نقطة محددة وتنغلق الأنشوطة بسرعة. افعلها على ذلك النحو، وستحصل على سبعة حيوانات مرموط كبيرة باستخدام عشرة فخاخ فقط.

خبط شن على جبهته. "عمل بارع!"، قال. "لا أستغرب من أن فخاخي لم تنجح على الإطلاق. كان في وسع المرموط أن يدخل ويخرج مثلما يشاء".

- سأريك لاحقا. الأمر ليس سهلا، لأن عليك أن تأخذ في الاعتبار أيضا حجم الحيوان، والممرات التي قد يسلكها. هناك خطة إضافية دائما. يمكنك أن تراقبني؛ وبعدها ستتعلّم كيف تفعل ذلك بنفسك. لكن لا تكشف هذا السر لأي شخص آخر.

- "لن أفعل"، وعده شن.

- هناك شيء آخر. عليك أن تصطاد الذكور فقط، أو الإناث التي ليست لديها جراء. إذا أمسكت بأم وجرائها عليك أن تتركها وشأنها. ليس هناك منغولي واحد من السهوب يمكنه أن يخرق القوانين التي وضعها الأسلاف، وهذا هو السبب، فبعد ممارسة صيد المرموط منذ مئات السنين ما زلنا نحصل على لحم مرموط للأكل، وجلد مرموط للبيع، وزيت مرموط للاستخدام. المرموط يدمّر السهوب، لكنه مفيد بالنسبة إلينا. في الماضي، كان الرعاة الفقراء يعيشون خلال فصول الشتاء القاسية على صيد المرموط. أنتم الصينيون لن تعرفوا مطلقا كم هو عدد المنغوليين الفقراء الذين أنقذت حيوانات المرموط حياتهم.

تسارعت خطوات الحصانين وهما يعدوان على العشب الخريفي الكثيف، كانت حوافرهما تركل الفراشات وتجعلها تطير بألوانها المتنوعة: مخملية، وبرتقالية، وبيضاء، وزرقاء. وكانت هناك أيضا جنادب خضراء، وصفراء، ومتعددة الألوان وغيرها من حشرات الخريف. حوّمت بضعة طيور سنونو فوق الرؤوس، وصدحت بأصواتها الحادة؛ أحيانا كانت تنقضّ إلى جانب الحصانين تماما، وأحيانا ترتفع عاليا في السماء، تمتّعت بوليمة الحشرات التي وفّرها لها الرجلان والأحصنة. عندما أكلت طيور السنونو، ظهرت لها وجبة أخرى لتأكل حتى التخمة. أشار الرجل العجوز نحو التلال بعصاه وقال: "ذلك جبل المرموط في أولونبولاغ. الحيوانات التي هناك سمينة ومكتنزة بالفراء؛ بالنسبة إلينا هو جبل الكنز. سنجد أيضا أعدادا وفيرة من المرموط على تل صغير في جهة الجنوب، وآخر في الشمال. في غضون أيام قليلة ستأتي عوائل الرعاة، إذ سيكون من السهولة الإمساك بالمرموط في هذه السنة".

– ما السبب في ذلك؟

أصبحت عينا الرجل العجوز داكنتين فيما كان يطلق حسرة طويلة. "مع وجود أعداد قليلة من الذئاب يصبح من السهولة إيقاع المرموط في الفخاخ. الذئاب تأكل المرموط حتى تكتنز أجسادها بالشحم في الخريف؛ من دون الشحم لن تستطيع البقاء على قيد الحياة في الشتاء. إنها لا تقتل سوى الحيوانات الكبيرة، وهكذا يتوافر لديها مرموط لتأكله في كلّ سنة. في هذا المكان، الرعاة والذئاب وحدهم يفهمون القوانين التي سنّها تينغر".

* * *

عندما اقتربا من جبل المرموط شاهدا بعض الخيم في أحد الوديان. كان دخان الطهي يتصاعد قرب الخيم، وهناك عربة كبيرة وأخرى تحمل المياه، مما أعطى لهما الانطباع أنه موقع عمل مؤقت.

– "أوه، كلا! إنهم سبقونا مرة أخرى"، كان وجه الرجل العجوز يبدو كئيبا وهو يندفع باتجاه موقع نصب الخيم، وعيناه تتوهجان غضبا.

كان في وسعهما أن يشمّا الروائح العبقة للحم المرموط وزيته حتى قبل وصولهما إلى الخيم. سارعا بالترجل عن صهوتي حصانيهما فشاهدا قدرا هائلة الحجم كانت قد وضعت على موقد. كانت مليئة إلى منتصفها بزيت المرموط المغلي الذي ظهرت فيه جثة مرموط كبيرة وهي تُقلى بعد أن سبق سلقها وإزالة شحومها. بدا لون اللحم بنيا وذهبيا وهشا. بعد أن أخرج أحد العمال الشباب مرموطا مقليا، أضاف حيوانا آخر قد سلخ جلده وانتزعت أحشاؤه إلى القدر. كان وانغ العجوز وعامل آخر جالسين فوق صندوق خشبي مقلقلا، ووُضع إلى جانبه وعاء فيه صلصة صفراء اللون، وطبق من الملح والفلفل، وآخر فيه بصل أخضر. كانوا يشعرون بالفرح وهم يشربون ويمضغون اللحم.

كان هناك حوض كبير في مكان قريب مليء بالمرموط المسلوخ، أكثرها حيوانات صغيرة لا يتجاوز طولها القدم. وضعت على العشب عدة ألواح أبواب خشبية واثنتا عشرة سلة صفصاف. كانت جلود حيوانات المرموط مختلفة الأحجام، يصل عددها إلى ما يقارب المئتين من جلود المرموط قد فرشت لتجفّ. دخل شن برفقة الرجل العجوز إحدى الخيم ورأى أكثر من مئة جلد جاف مكومة إلى ارتفاع الخصر. وسط الخيم كانت هناك علبة غاز ارتفاعها يصل إلى ثلاث أقدام مملوءة إلى نصفها بزيت المرموط؛ وكذلك علبتان أصغر حجما.

خرج الرجل العجوز مسرعا من الخيمة ومشى ناحية الحوض، حيث أزاح جانبا حيوانات المرموط الأصغر حجما التي في الأعلى بعصاه. وجد تحتها بضعة حيوانات مرموط إناث نحيفة ذات شحم قليل، أثار منظرها الغضب في نفس الرجل العجوز بحيث خبط على الحوض بعصاه وصاح بالعجوز وانغ: "من قال لك إنك تستطيع قتل الإناث وجرائها؟ هذه الأرض من ممتلكات الفرقة؛ لقد نجت حيوانات المرموط هذه بفضل جهود أجيال من الرعاة. كيف تجرؤ على فعل ذلك! انظر إلى الأعداد التي قتلتها منها دون ترخيص!".

استمرّ العجوز وانغ يأكل، كان ثملا تقريبا. "ما كنت لأجرؤ على قتل المرموط في منطقتك"، قال بلا اهتمام. "لكن هذه لم تعد منطقتك، أليس كذلك؟ الفرقة التي تتكلم عنها هي الآن جزء من الفيلق، صحيح؟ لقد أُرسلنا إلى هنا من قبل رئيس الأركان سون، الذي قال إن المرموط لا يدمّر السهوب وحسب؛ وإنما يعتبر أيضا المصدر الرئيس للطعام بالنسبة إلى الذئاب قبل حلول الشتاء. إذا قتلنا جميع حيوانات المرموط فلن تتمكن الذئاب من البقاء في الشتاء. لذا فإن المرموط يقع ضمن حملتنا التي نشنّها لإبادة الذئاب. الأطباء في مستشفى المقاطعة أيضا يقولون إن المرموط يحمل الوباء. مع الأعداد الكبيرة من الناس الذين يفدون إلى هنا، من الذي سيتحمّل المسؤولية إذا مات شخص نتيجة عضّة من أحدها؟".

صمت بلغي لوهلة، لكنه سرعان ما لم يعد قادرا على أن يسيطر على غضبه. "ينبغي لك ألاّ تفعل ذلك، حتى إذا صدر الأمر من الفيلق!"، صاح. "ما الذي سيستخدمه الرعاة في صنع المواد الجلدية إذا قتلتم جميع حيوانات المرموط؟ من الذي سيكون مسؤولا إذا انقطع سير عنان حصان شخص ما، مما قد يؤدي إلى فزع الحصان وجرح راكبه؟ أنتم تخربون عملية الإنتاج".

تجشّأ العجوز وانغ. "لدينا أوامر من مراجعنا العليا، فمن الطبيعي أن يتحمل شخص ما المسؤولية. اذهب وتحدّث معهم إن شئت. لماذا تصرخ في وجوهنا نحن الذين نقوم بالعمل الشاق؟"، رمق كيس الخيش الذي كان على سرج حصان الرجل العجوز. "أنت قد جئت لاصطياد المرموط، أليس كذلك؟ إذا، فأنت تستطيع أن تفعل ذلك، ونحن لا نستطيع، أليس الأمر كذلك؟ إنك لا تربي هذه الحيوانات، فأي شخص يقتلها لا بد من أن تكون من نصيبه".

ارتعشت لحية الرجل العجوز من الغضب، وقال: "انتظر. سأذهب وأستدعي رعاة الأحصنة. هذه الجلود وهذا الزيت يجب أن يسلما إلى الفرقة".

– لقد طلب مطعم ضباط الفيلق لحما وزيتا، من الذي سيستولي عليهما. يمكنك أن تستدعيَ ما تشاء من الأشخاص وتأخذها بالقوة إذا أردت، لكن شخصا ما سيتولى أمرك لاحقا. أما بالنسبة إلى الجلود، حسنا، المسؤولون هم الذين يريدونها، والمدير باو سيسلّمها إليهم بنفسه.

بينما كانت يداه تتدليان بشكل هزيل إلى جانبيه، خنق الرجل العجوز ثورة غضبه و لم يتفوه بكلمة.

قال شن زن ببرود: "أنت حقا فخور بنفسك، ألست كذلك؟ وبقنصك جميع حيوانات المرموط الميتة تلك، الكبير منها والصغير. ما الذي ستقتنصه في السنة المقبلة؟".

– أنتم أيها الناس تدعوننا بالمهاجرين؟ مهاجرون، مهاجرون، مهاجرون لا عقل لهم. لماذا نقلق بشأن السنة المقبلة؟ نحن نذهب إلى أي مكان فيه طعام، ولا نقلق أبدا بشأن السنة التي تأتي بعد ذلك. أنتم تهتمون كثيرا بالمرموط، لكن من الذي يبالي بنا نحن المهاجرين؟

عرف شن أنه من غير المجدي مناقشة عقل هؤلاء الأوغاد. الآن لم يشأ إلاّ أن يعرف كيف استطاعوا قتل هذا العدد الكبير – هل تعلموا نصب الفخاخ؟ – لذا فقد بدّل من نغمة كلامه. "كيف تمكنتم من الإمساك بهذا العدد الكبير من حيوانات المرموط؟"، سأل.

– "إذا فأنت تريد أن تتعلم منا"، قال وانغ بعجرفة. "حسنا، لقد تأخرت كثيرا. لم يتبقّ هناك الكثير من الجحور. لقد أرسلنا حمولة عربة من اللحم والزيت منذ يومين. لكن، إذا كنت حقا تريد أن تعرف، إذا اصعد إلى ذلك التل وألقِ نظرة. عليك أن تسرع وإلا ستضيّع كل شيء".

ساعد شن الرجل العجوز على امتطاء صهوة حصانه، ومن ثم صعدا إلى قمة التل. هناك على المنحدر الشمالي الشرقي كان أربعة أو خمسة رجال منحنيين، ومنشغلين بالعمل. ذهب شن وبلغي باتّجاههم. "توقفوا!"، صاح الرجل العجوز. "توقفوا!". نهض العمال ونظروا من حولهم.

ارتجف شن من المنظر الذي رآه. كانت هناك ستة جحور مرموط منتشرة على جانب التل، والتي هي كما عرف شن، مترابطة في ما بينها. وقد تم إغلاق أربع فتحات منها بالصخور.

الشيء الذي أرعب شن أكثر من سواه أنه وجد العامل الذي يشرف عليهم يحمل بيده مرموطا صغيرا لا يتجاوز طوله قدمين. كانت سلسلة من المفرقعات النارية مربوطة بذيل المرموط الذي كان يكافح للتخلّص من قبضة الرجل، وقد ربط الذيل أيضا بحبل ملفوف بدوره

حول قطعة لباد قديمة بحجم قبضة اليد. كانت قد نثرت نقاط حمراء اللون من الفلفل الحار على قطعة اللباد بكاملها، حيث فاحت منها رائحة وقود الديزل. إلى جانب ذلك العامل، كان هناك عامل آخر يحمل صُندوقا من الثقاب. لو كان شن والرجل العجوز قد تأخرا لحظة واحدة لوضع العمال المرموط الصغير داخل الحفرة، وأشعلوا المفرقعات النارية كي يمتلئ الجحر بالدخان.

أسرع الرجل العجوز ودسّ قدمه في الحفرة. بعدها جلس على الأرض وصاح بالعاملين، أمرهما بإلقاء ما كانا يحملانه بأيديهما، ولأنهما كانا قد عملا تحت إشراف بلغي خلال الصيف، فلم يجرؤوا على مناقشته.

لم يسبق لشن من قبل أن شاهد مثل هذا المخطّط الجشع والخبيث في ممارسة الإبادة. جراء مـــرموط تحمل مفرقعات نارية إلى داخل الجحور، بالإضافة إلى فلفل حار ووقود الديزل، خطة من شأنها أن تمحوها من الوجود.

يُعرف عن حيوانات المرموط أنها تحفر أعمق جحور الحيوانات، وأكثرها حدّة في الانحدار على السهوب، وتكون ذات تركيب معقد للغاية من الداخل، مع آليات تضمن لها الحماية من الـــدخان. إذا حاول الرجال إجبارها على الخروج باستخدام الدخان، فإنها تسارع إلى إغلاق الممـــرّ الـــضيّق الذي عند الفتحة الرئيسية. لكنها في هذه الحال ستصبح عالقة بعد أن تباغتها المفاجـــأة نتيجة الطريقة التي تفتقر إلى الرحمة التي يتّبعها هؤلاء العمال؛ الصيادون الذين أتوا من مناطق شبه رعوية. كان حيوان المرموط الصغير سيعدو مرتعبا مباشرة إلى الحيوانات المختبئة في قـــاع الكهـــف، وقبل أن تحظى بفرصة لإغلاق الممر، ستنفجر المفرقعات النارية ويجبر الدخان اللاذع أي مرموط موجود في الجحر على الهرب. وبما أنه لم تكن هناك سوى فتحة واحدة قد تُـــركت مفتوحة، فستستقبلها العصيّ وأكياس الخيش. شيء بسيط لكنه غير قابل للتصوّر في مـــدى قسوته؛ كل ما كان العمال يحتاجون إليه هو مرموط صغير يُستخدم كطعم. في غضون أيـــام قلائل، كان الرجال قد مسحوا بالفعل جبل مرموط وجد هناك منذ آلاف السنين؛ لقد أشرف حيوان المرموط الآن على الانقراض.

خـــبط بلغي عصاه على الأرض بشدّة، تناثرت على إثر ذلك قطع متكسرة من الصخور. كـــادت عيناه تخرجان من رأسه، وصرخ: "اقطعا هذه المفرقعات النارية! اقطعا الحبل، وأدخلا المرموط الصغير في الجحر!".

نفذ العاملان ما طلب منهما بتمهّل، فكّا الحبل لكنهما رفضا ترك المرموط. جاء العجوز وانـــغ إلى هناك على عربة خفيفة. لم يعد يبدو عليه أنه ثمل. قدّم سيجارة للرجل العجوز وهو يبتـــسم ابتسامة عريضة، ثم استدار ليوبخ العاملين. تقدّم نحو الرجل الذي كان يحمل المرموط، انتزع الحيوان منه، وقطع الحبل. بعد ذلك رجع إلى الرجل العجوز وقال: "لا تقلق؛ سأترك هذا الحيوان يذهب".

نهض بلغي ببطء واقفا على قدميه، ونفض التراب عنه. "اتركه يذهب في هذه اللحظة. ولا تتدخل أبدا في عملنا مجددا".

ابتسم العجوز وانغ بشكل متزلّف. "لن أجرؤ على ذلك"، قال. "إنني أنفذ الأوامر ليس إلاّ. لن نوقف الذئاب عند حدّها إذا لم نقتل جميع حيوانات المرموط، إذا، فهذا يعدّ جزءا من تقليل البلاء الذي يلحق بالناس. لكنك على حق، طبعا. فمن دون زيت المرموط لن تكون سيور الأعنة قابلة للتحمّل طويلا، ويمكن أن تقع حوادث كثيرة. نحتاج إلى أن نترك بعض المرموط للرعاة".

وضع المرموط على سطح الأرض خارج الحفرة، حيث أسرع الحيوان للاختفاء عن الأنظار.

تنهّد العجوز وانغ: "أقول لك بإخلاص، من الصعب جدا الحصول على ما يحتويه جحر واحد من هذه الحيوانات. لقد واجهنا متاعب كبيرة في الإمساك بهذا المرموط الصغير اليوم. لأننا كنا نستخدم المفرقعات النارية، حتى صارت حيوانات المرموط تخاف كثيرا أن تخرج".

لم يكن الرجل العجوز يبدي شيئا من المرونة على الإطلاق، قال، "لم ينتهِ الأمر بيننا بعد. عليك أن ترسل المواد إلى مكتب الفرقة حالا. لو علم لامياف والرعاة الآخرون بما يحصل هنا، لأتوا جميعا، وأطاحوا بخيمتك وعرباتك".

– سنجمع حاجياتنا ونرحل من هنا. سأخبر المدير باو بنفسي.

نظر الرجل العجوز إلى ساعته. بدا واضحا أنه كان قلقا على جبل المرموط الذي يقع شمالا، قال: "سأذهب لرؤية شخص ما. سأعود بعد قليل". امتطيا هو وشن صهوتي حصانيهما ومضيا باتجاه الطريق السريع الذي يقع قرب الحدود.

انفجرت مفرقعات نارية خلفهما بعد أن عبرا بضع تلال، ومن ثم عاد كل شيء هادئا. قال الرجل العجوز: "لقد خُدِعنا". ثم استدار ومضى يمتطي صهوة حصانه إلى قمة التل، حيث شاهدا هو وشن وانغ العجوز، بينما كان يغطي فمه وأنفه بقطعة قماش مبللة، ويوجّه العمال للإمساك بحيوانات المرموط وقتلها. كانت حيوانات ميتة قد تناثرت في ذلك الوقت على الأرض خارج جحر المرموط، فيما استمر دخان كثيف لاذع يتصاعد منه. تعرضت حيوانات المرموط القليلة المتبقية للضرب بالعصي حتى الموت في اللحظة التي خرجت فيها. كان الرجل العجوز يسعل بعنف، لذلك ساعده شن على الصعود إلى مكان بعيد، وأخذ يخبط برفق على ظهره.

بينما كانت قطع رطبة من القماش تغطي وجوههم، بدا العمال وكأنهم قطّاع طرق؛ سارعوا إلى وضع حيوانات المرموط في كيس خيش، حيث ألقوه في ما بعد في العربة قبل أن يصعدوا إليها ويقودوا العربة إلى أسفل الجبل.

– "كيف استطاعوا الإمساك بمرموط صغير آخر بهذه السرعة؟"، سأل شن بلغي.

– ربما كانوا قد أمسكوا باثنين منها، وقد خبأوا واحدا داخل كيس مصنوع من القنّب لم نـتمكن مـن رؤيته. أو إنهم ربما ربطوا المفرقعات النارية بعمود طويل. ليسوا أكثر من قطّاع طرق، إنهم أسوأ من لصوص الأحصنة في الأيام الغابرة!

نهض بلغي واقفا متوكئا على عصاه واستطلع جحور المرموط، الآن أضحت فارغة تماما. كـان جسده يرتعش؛ انسابت الدموع على وجهه. "يا لها من قسوة! إنني أعرف هذه الجحور جحـرا جحرا"، قال. "كنت أنصب الفخاخ هنا برفقة أبـي في صباي. لقد كانت أجيال من عـائلتي تـصطاد المرموط هنا، والآن لا يوجد مزيد منها. سنة بعد أخرى، كانت الحيوانات تـصأصئ بسعادة. ذلك الجحر كان مكتظا بالحيوانات منذ أكثر من مئة سنة، وقطّاع الطرق هـؤلاء قـد مـسحوه خلال مدة لا تتجاوز الزمن الذي يستغرقه المرء في نفث دخان بضعة غليونات من التبغ".

كان شن منـزعجا مثل بلغي، لكنه حاول مواساة الرجل العجوز. "لا تغضب أكثر من ذلك، بابا. لنذهب ولنرَ ما إذا كان هناك أي شيء بمقدورنا أن نفعله".

فـيما كانا يمضيان في طريقهما، تباطأت خطى حصانيهما من وقت إلى آخر للرعي على العشب. رأى شن بأن العشب كان أكثر اخضرارا هنا مما هو عليه في أرض المراعي. كان ذا سيقان أكثر سماكة وتكاد الحبوب تتفجّر منه. اكتشف أكداسا صغيرة منه مكوّمة علـى الأرض، كـل واحدة منها كان حجمها بحجم عش طائر العقعق، وعرف أن فئران الحقـول كانت منشغلة عنه بتجميع العشب وتركه خارج جحورها ليجفّ قبل أن تعاود حمله ونقله إلى الداخل.

كبح الرجل العجوز عنان حصانه في مكان كان العشب فيه أكثر كثافة. "لنتوقف ونأخذ قسطا من الراحة"، قال. "يمكن للحصانين أن يأكلا قليلا من العشب الجيد الذي جمعته الفئران. أترى كيف أنها تمر بحال من الانتعاش، الآن بعد أن رحلت الذئاب؟ هذه الأكداس أكبر حجما عدة مرات هذه السنة مما كانت عليه في السنة الماضية".

تـرجلا عن حصانيهما، ورفعا الشكيمتين عنهما كي يتمكنا من الرعي. أزاح الحصانان بسعادة سطح العشب الجاف أصفر اللون جانبا للوصول إلى العشب الأخضر الذي تحته. بينما كانت عصارات خضراء تسيل من فميهما، أصدرا صهيلا فيما كانا يجتران العشب كومة بعد أخـرى، حـيث تخلل الهواء أريج منبعث عن العشب الغضّ. رفس الرجل العجوز كومة منها ليكـشف عن حفرة بحجم كوب الشاي؛ وأخرج فأر كبير رأسه متفحصا ما يجري من حوله. عـندما رأى شخصا يلمس كومة عشبه التي أعدّها للشتاء، انطلق خارج الحفرة، وصار يعضّ حـذاء الرجل العجوز، ثم عاد مسرعا إلى حفرته مثيرا الضوضاء. بعدها بلحظات سمعا صوت ارتعـاش مكتوم. استدارا في الوقت المناسب ليشاهدا فأر حقول لا يتجاوز طوله قدما واحدة

يعـــضّ إحدى قوائم الحصان بأسنانه، وكان في ذلك الوقت ينـــزف دما. انطلق صئي عالٍ في أرجاء المكان من حولهما.

– "ما الذي يحلّ بالعالم"، صاح الرجل العجوز بغضب. "عندما يتجرّأ فأر إلى حدّ يكفي لأن يعضّ حصانا؟ إذا استمروا في قتل الذئاب، ستباشر الفئران في التهام البشر". ركض شن إلى هناك، أمسك بسيري العنانين، وربطهما بقوائم الحصانين الأمامية بحيث تأكد من أن الحصانين غطيا الفتحة بحوافرهما قبل أن يبدأا بالأكل.

ركل الرجل العجوز بعض الأكداس الأخرى. "انظر كيف أنها قريبة من بعضها؟ لقد اختارت أفضل العشب؛ حتى خراف زنغيانغ المخصّصة للتزاوج لا تحصل على عشب بمثل هذه الجودة. إن الفئران التي لا تلتقط إلاّ العشب الجيد هي أسوأ من جزازات العشب التي تقطـــع العشب الرديء إلى جانب الجيد. إذا اختزنت ما يكفيها لهذا الشتاء فلن يموت منها الكثير بسبب الجوع أو البرد، مما يعني أنه سيتوافر لدى الإناث منها حليب غزير في الربيع لـــتلد مزيدا من الفئران. ستنهب منا عشبنا وتملأ الأرض بالمزيد من الحفر. في السنة المقبلة ســـتجتاح أرجـــاء المكان. انظر، عندما تكون هناك أعداد أقل من الذئاب على السهوب، تتحول الفئران من لصوص إلى قطّاع طرق، فهي لا تحتاج بعد ذلك إلى التسلل خلسة هنا وهناك".

فيما كان شن ينظر إلى أكداس العشب، امتزج الحزن الذي في صدره بالخوف. إنها الآن معـــركة بـــين البشر والفئران تدور رحاها على السهوب في كل خريف. كانت الفئران عدوّا يتـــسلل خلسة، ومع ذلك فإن لديها نقطة ضعف واحدة. فمن خلال الحفر عميقا في الأرض لتخزين طعامها هناك للشتاء، تحتاج إلى أن تكدّس العشب في الخارج ليجفّ، وإلا فإنه سيتعفّن داخـــل جحورها. ذلك جعل منها هدفا واضحا مما يمنح فرصة للناس لأن يشنّوا حملاتهم لإبادة الفئران.

عندما كان يكتشف أحد الرعاة أكواما من العشب على أرض المراعي، كان يُصدر إنذارا لفرق الإنتاج للرجوع بالخراف، والأبقار، وحتى الأحصنة لالتهامها. كان عشب المراعي يتحوّل لـــونه من اللون الأخضر إلى الأصفر منه، بينما تبقى الأكوام التي تكدّسها الفئران خضراء اللون وفواحة بالأريج، وذات حبوب زيتية. عندها تتقاتل المواشي في ما بينها على أكل العشب، ولا تمـــضي بـــضعة أيام حتى تُنهي أكل أكوام العشب تلك جميعها قبل أن تجف. كان ذلك شكلا طبيعيا من أشكال السيطرة على تنامي أعداد الفئران.

لكن البشر وما لديهم من مواشٍ كانوا يحتاجون إلى تعاون الذئاب وإياهم حينما كانوا يـــشنّون غـــاراتهم في الخريف. هذا هو الوقت الذي تصل فيه الفئران إلى ذروة نموّها، إنه الـــوقت الملائم تماما بالنسبة إلى الذئاب لأن تتغذّى على لحومها. كان من السهولة بمكان

الإمـــساك بالفئـــران التي تقطع العشب، وتنقله إلى داخل جحورها، والانتباه إلى أكداس العشب التي كانت تدلّ الذئاب على الأماكن التي يمكنها العثور فيها على أكبر القوارض. لكن الشيء الأكثر أهمية أن الذئاب تجعل الفئران تتوخّى الحذر خلال الموسم الحاسم الذي تجمـــع فـــيه العـــشب، مما يؤدّي بصورة غير مباشرة إلى تضوّرها جوعا في الشتاء. البشر يـــسوقون ما لديهم من مواشٍ لتأكل العشب، بينما تمثل الذئاب عنصرا رادعا للفئران من قطع العشب كما تشاء.

مـــنذ آلاف السنين، كانت الذئاب والبشر، إلى جانب ما لديهم من مواشٍ، يعملون جنبا إلى جـــنب للسيطرة الفعالة على نموّ أعداد الفئران. العشب الذي تجمعه يؤخّر عملية الاصفرار، حيث يؤمّن للمواشي بدوره العشب الأخضر لمدّة عشرة أيام تقريبا، وهو وقت إضافي لتخزين الشحوم. وبذلك، فإن المعارك التي تُشنّ بصورة مشتركة من قبل الرجال والذئاب تحقّق أغراضا عديدة. في أثناء ذلك الوقت، في المراعي الشتوية البعيدة، التي تكون بمنأى عن متناول البشر وما لديهم من مواشٍ، تعكّر الذئاب نشاطات جمع العشب التي تقوم بها الفئران، وتأكلها في ما بعد. كـــيف يمكن للفلاحين أن يفهموا استراتيجيات حرب السهوب، التي كانت في نهاية الأمر قد حافظت على حياتهم جميعا؟

امـــتلأت بطـــئا الحصانين بعد أن أتخما نفسيهما بالأكل قرابة نصف ساعة. لم تكن مواشـــي الفرقة قادرة على أكل كل تلك الكميات الهائلة من أكداس العشب. إزاء مشهد معـــركة لا ســـابقة لها، بدا الرجل العجوز ضائعا في لجّة أفكاره. "هل بإمكاننا أن نسوق أحـــصنتنا إلى هـــنا؟ كلا، ذلك لن يجدي نفعا. المراعي تعود للخراف والأبقار. إن سوق الأحـــصنة إلى هـــنا من شأنه أن يعكّر النظام الراسخ في القدم. لكن هناك الكثير جدا من الأكداس بحيث إن آليات رزم الأعشاب لن تكون قادرة على إنجاز المهمة. إنها كارثة تجري على قدم وساق أمام أعيننا".

– "كارثة من صنع الإنسان"، قال شن بغضب.

عادا ليمتطيا صهوتي حصانيهما وتابعا سيرهما متجهين شمالا، فيما كانت أفكار كلّ منهما مشتّتة تماما. في الطريق، شاهدا مزيدا من أكداس العشب، بعضها أكثر كثافة من الآخر، امتدت على طول الطريق إلى الحدود.

عـــندما اقتربا من جبل المرموط الصغير الذي إلى الشمال، سمعا فرقعة عالية لم تكن شبيهة بـــإطلاق النار، ولا بتفجير مفرقعات نارية. بعد ذلك عاد الهدوء من جديد. تنهّد بلغي. "لقد وجـــد قادة الفيلق الشخص المناسب تماما لأن يكون مستشارهم في إبادة الذئاب". قال، فيما كانت نغمة اليأس تتخلل صوته: "أينما توجد الذئاب ستجد دورجي، حتى في آخر نقطة تصل إليها الذئاب على الحدود".

نخسا حصانيهما للمضي بشكل أسرع، واجهتهما على الفور سيارة عسكرية قادمة من أسفل الوادي. جذبا سيري عناني حصانيهما عندما توقفت السيارة العسكرية. شاهدا بداخلها رامـيين بالإضافة إلى دورجي. كان الضابط زو هو الذي يقود السيارة، وقد جلس دورجي في المقعد الخلفي، وحاملا كيس خيش ملطخا بالدماء ملقى عند قدميه. كان صندوق السيارة مليئا أيـضا. صوّب الرجل العجوز نظره إلى البندقية ذات السبطانة الطويلة التي كانت بيد الضابط باتـيل. أدرك شن أنها كانت بندقية من العيار الخفيف، شيء لم يسبق للرجل العجوز أن رأى مثيلا له؛ لم يتمكن أن يبعد نظره عنها.

- "هل تصطادان المرموط؟"، سأل باتيل. "لا حاجة لكما إلى ذلك. سأعطيكما اثنين مما لدينا".

- "هـل هناك سبب يمنعنا من الذهاب إلى هناك؟"، سأل بلغي، وكان يحدّق بشكل حاد إلى الرجل.

- لقـد قتلـنا جمـيع الحيوانات التي خارج الجحور، أما التي في الداخل فلا تجرؤ على الخروج.

- "ما الذي تحمله بيدك؟"، سأل بلغي. "لماذا هي طويلة هذه السبطانة إلى هذا الحد؟".

- "إنهـا تستخدم لصيد البط"، قال باتيل. "الذخيرة من العيار الصغير مناسبة تماما لقتل المرموط، إنها تحافظ على الفراء سليما فعلا. خذها، ألقِ نظرة عليها".

تناول الرجل العجوز البندقية وتفحصها، كما تفحّص الرصاص بدقة.

أراد باتـيل أن يعرض للرجل العجوز ميزة بندقيته، فنـزل من السيارة وأخذها من بلغي. اكتشف وجود فأر يصأصئ على كومة من العشب خارج حفرته على بعد نحو عشرين يـاردة. صـوّب على الهدف، وأطلق النار، فتناثر رأس الفأر. اهتز الرجل العجوز من أعماق كيانه.

ضـحك الضابط زو. "الذئاب كلها رحلت إلى منغوليا الخارجية"، قال. "لقد اصطحبنا دورجـي إلى كل مكان، لكننا لم نرَ ذئبا واحدا. من حسن الحظ أنني قد جلبت البندقية وإياي لقـتل المرموط. إنها حيوانات غبيّة بحيث لم تعدو حتى لترجع إلى جحورها عندما اقتربنا منها، كما لو أنها كانت تنتظر رصاصاتنا لتصيب أجسادها".

- "هـذان الـرجلان يستطيعان إصابة رأس مرموط من مسافة خمسين ياردة"، قال دورجـي مبديا إعجابه. "قتلنا أي حيوان وجدناه في طريقنا. كان ذلك أسرع بكثير من نصب الفخاخ".

- "لماذا لا تعود أدراجك إلى المخيم؟"، قال باتيل. "سأوصل مرموطين كبيرين إلى خيمتك في طريق عودتنا".

انطلقت السيارة سريعا قبل أن يستردّ الرجل العجوز وضعه الطبيعي بعد الصدمة التي داهمته عندما شاهد قدرة هذا السلاح الجديد على الفتك بالحيوانات. وفيما تلاشى الدخان والغبار اللذان انتشرا على إثر دوران عجلات السيارة العسكرية، استدار بلغي ولفّ سير العنان على رقبة الحصان كي يتركه يسلك طريقه راجعا إلى المخيم. الجميع يتحدثون عن مدى معاناة الإمبراطور الأخير للصين، فكّر شن وهو يمتطي صهوة حصانه إلى جانب الرجل العجوز. لكن ظهر جليا أن آخر الرعاة من البدو كان يعاني أكثر من ذلك. لا بدّ أن يكون من الصعب أكثر على المرء أن يتقبل تخريب سهوب يبلغ عمرها عشرة آلاف سنة على أن يتقبل الإطاحة بسلالة ما يبلغ عمرها ألف ،سنة. بدا ذلك الرجل العجوز، الذي كان ذات يوم مُفعما بالحيوية والطاقة، كأنما قد تضاءل، وانكمش جسده فجأة حتى صار حجمه بنصف حجمه الأصلي. شقت الدموع طريقا لها عبر تجاعيد وجهه، وتساقطت على بقع من الأقحوان البري ذات لون أزرق وأبيض.

لم يعرف شن كيف يمكن له أن يخفّف من أسى الرجل العجوز، أمسك عن الكلام، قبل أن يتمتم أخيرا بصوت متلعثم: "بابا، عشب الخريف حقا خصب في هذه السنة... أولونبولاغ حقا جميلة... ربما في السنة القادمة...".

- "السنة المقبلة؟"، أجاب الرجل العجوز بصوت جاف. "من يدري ما الأشياء الاعتباطية التي يمكن أن تحدث في السنة المقبلة؟ في الماضي، كان حتى الرجل الأعمى العجوز يستطيع رؤية جمال السهوب ببصيرته. إنها لم تعد جميلة الآن. أتمنى لو أنني كنت أعمى حتى لا أضطر إلى أن أراها تتعرض للدمار".

تمايل على السرج فيما كان حصانه يتقدم بخطوات متثاقلة. أغمض عينيه. انبثقت من بين شفتيه أصوات ترنمت بلحن قديم، لحن تشوبه السكينة، أصوات امتزجت بعطر العشب الأخضر والأقحوان الذابل. بدت تلك الأغنية، في نظر شن، وكأنها هدهدة بسيطة للأطفال قبل أن يخلدوا إلى النوم:

القبّرات تغني، ها قد جاء الربيع إلى هنا؛
المرموط يسقسق، السحلبية الأرجوانية تزهر؛
الغرانيق الرمادية تصيح، ها قد جاء المطر إلى هنا؛
جراء الذئاب تعوي، القمر يرتفع في السماء.

أنشد الأغنية ذاتها مرة بعد أخرى، فيما كان اللّحن يتحوّل إلى نغمة أوطأ حدّة، وكلمات الأغنية تصبح غير قابلة للتمييز، كأنها جدول تنبع مياهه من مكان ناء، يقطع السهوب الشاسعة

قبل أن يختفي بين العشب المتماوج. تساءل شن زن ما إذا كانت أغنية الأطفال هذه قد أنشدها أطفـــال كوانترونغ، والهان، والتنغوس، والأتراك، والكيتان، علاوة على ذرية جنكيزخان. هل يمكن أن يغني أطفال المستقبل في السهوب تلك الأغنية أو حتى يفهموها؟ أم ستمتلئ رؤوسهم بالأسئلة: ما هي القبّرات؟ ما هو المرموط؟ ما الغرانيق الرمادية؟ ما الذئاب؟ ما الإوز البري؟ ما هي السحلبية؟ ما هو الأقحوان؟

حلقـــت بضع قبّرات عاليا فوق السهوب الشاسعة، المائل لون عشبها إلى اللون الأصفر؛ رفرفت بأجنحتها في الهواء، كانت تترنّم بتغريدات واضحة النبرات وسعيدة.

35

ذابـــت أوائـــل ثلوج الشتاء، مما جعل الهواء مفعما بالرطوبة، في الوقت الذي أضفت فيه بـــرودة وانتعاشا على الحقول. كان عشب الشتاء الكثيف على الحقول البرية مصفرا وذابلا، له منظر كئيب بحيث غدت الأرض تشبه هضبة صحراوية لا ينمو فيها أي عشب.

احـــتفظت السماء وحدها بلونها الأزرق نفسه الذي تلونت به في أواخر الخريف. كانت الـــسماء تـــبدو عالـــية، والغيوم متناثرة، وكأنها بحيرة صافية. حلقت العقبان عاليا في السماء، وظهـــرت أصـــغر من بقع صدأ على مرآة. بما أن العقبان لم تكن قادرة على اقتناص المرموط والفئـــران، الـــتي كانت تمر في ذلك الوقت بفترة السبات داخل جحورها، فقد اضطرت إلى التحلـــيق عالـــيا باتّجاه الغيوم من أجل أن توسّع نطاق بحثها عن الأرانب، لكن الأرانب البرية المنغولـــية، والتي كان في وسعها أن تموّه أنفسها جيدا من خلال تغيير لونها، كانت قد اختفت داخل العشب الطويل، وصار من الصعب حتى على الثعالب أن تعثر عليها. لقد قال بلغي ذات مرة إن الكثير من العقبان كانت تتضوّر جوعا حتى تموت في كل شتاء.

عـــندما غطّـــت الثلوج النصف الأسفل من العشب، توافرت للمواشي كميات أقلّ من العشب لترعى عليه شتاء، مما اضطر الرعاة إلى الانتقال مرة كل شهر على الأقل. حالما تتحول أرض المراعـــي إلى لون أبيض نتيجة كل ذلك الرعي، كانوا يسوقون ما لديهم من قطعان من الأبقـــار والخراف متّجهين إلى حقل ثلجي آخر يميل لونه إلى الاصفرار، تاركين العشب المتبقي تحت الثلوج للأحصنة، والتي تستطيع نبشها وإخراجه بحوافرها.

لم تكـــن تلك التنقلات تأخذهم إلى أماكن بعيدة جدا، بل إلى مسافة تكفي للابتعاد عن المكان الذي سبق للمواشي أن كانت ترعى فيه لا أكثر. أي عملية انتقال كانت تستغرق نصف يـــوم عـــادة، ويعتـــبر ذلك وقتا قصيرا بالنسبة إلى جرو الذئب ليتمكن من محاولة عضّ ونهش القفـــص ويحاول جاهدا أن يخرج منه. تنفّس شن الصّعداء، لأنه تمكّن أخيرا، بعد أسبوعين من التفكير المضني، من إيجاد حلّ لمشكلة بقاء الجرو حيا خلال تنقلاتهم المستمرة.

اســـتنبط كـــل من شن ويانغ بدورهما طريقة تمكنهما من إدخال الجرو إلى القفص: كانا يُدخلانـــه في سلة توضع على الأرض، ويغطّيانه، ثم يرفعان عريش عربة الثيران، ويدفعان العربة حـــتى تصبح فوق السلة بينما يكون الجرو في داخلها. كل ما عليهما القيام به بعد ذلك هو أن يُخفـــضا العربة ويُحكما ربط السلة إليها، وبذلك يصعد الجرو إلى العربة بأمان. وعند وصولهم

إلى موقــع جديــد كانا ينفذان ذلك الإجراء بطريقة معاكسة. كانا يأملان أن يستمرا في نقل الجــرو بالطريقة ذاتها في كل مرة حتى يستقرّ بهم المقام أخيرا في مكان واحد محدّد، حيث يمكن لهما أن يشيدا له حظيرة من الحجارة؛ وتلك ستكون نهاية متاعبهما ويستطيعان العيش جنبا إلى جــنب مــع الجرو. أرادا أن يربياه هو وجراء الكلبة معا، ولأنها كانت قد نشأت بالأساس مع جــرو الــذئب، فمن شأن ذلك حتما أن يؤدّي إلى النتائج المطلوبة؛ بضع بطون من الكلاب الذئبية، وسلالات أصيلة من ذئاب السهوب.

كــان شــن ويانغ يمضيان الكثير من وقتهما برفقة الجرو، يدعكان رأسه، وهما يتجاذبان أطــراف الحــديث. في لحظات مثل هذه، كان الجرو يلقي رأسه على ساق أحدهما، فيما تنتأ أذناه، ويصغي بلهفة إلى حديثهما. أما عندما يكون منهكا، فكان يهزّ رأسه، ويحك رقبته على سيقانهما، أو يرفع رأسه حتى يحكّان أذنيه أو وجنتيه. جعل ذلك المشهد الرجلين يزدادان توغّلا في أعماق الخيال بشأن حياتهما التي كانا يمضيان أيامها برفقة الجرو.

قال يانغ فيما كان يحمل الجرو ويفرك فروه: "ذئبنا الصغير لن يحاول الهرب لو أنجبت أنثاه بطنا من الصغار من صلبه. الذئاب تهتم بعوائلها، والذكور منها تعتبر نموذجا للأزواج. ما دام لا يقترب من هذا المكان ذئب من البراري، لن نضطر إلى تقييده بسلسلة؛ بإمكانه أن يلعب على السهوب ويعود إلى الحظيرة من تلقاء نفسه".

هــزّ شــن رأسه. "لن يكون ذئبا لو فعل ذلك. إنني لا أنوي إبقاءه هنا. كان حلمي في الــبداية أن أحــصل على صديق حقيقي من الذئاب. إذا امتطيت صهوة حصاني، ومضيت إلى التلال قريبا من الحدود وصحت، *ذئب صغير، ذئب صغير، حان وقت الأكل*، فإنه سيأتي بعائلته جميعها، مجموعة من ذئاب السهوب الحقيقية، ويركض بسعادة نحوي. لن تكون هناك سلاسل حول أعناقها، وأنيابها ستكون حادة، وستكون ذئابا قوية. سيتقلب على العشب وإياي، ويلعق حنكــي، ويعضّ ذراعي، لكن ليس بقسوة. أما الآن وبعد أن اختفت أنياب الجرو الحادة، فإن حلمي بقي مجرد حلم".

تــنهّد شــن قليلا. "لكنني لا أريد أن أيأس. يراودني خيال جديد الآن: أنني قد أصبحت طبــيب أسنان، ووضعت في فم الجرو أربعة أسنان فولاذية حادة. في الربيع المقبل، عندما يكبر تمامــا، سأنقله سرّا إلى الحدود، وأطلق سراحه في جبال منغوليا الخارجية، حيث لا تزال هناك قطعــان مــن الذئاب. ربما يكون أبوه، ملك الذئاب الأبيض، قد استطاع أن يشقّ طريقه إلى الحــرية، ويؤسّــس قاعدة لها هناك. هذا الجرو ذكيّ إلى درجة كافية ليعثر على أبيه، وعندما يجــتمعان ببعضهما بعضا، من المؤكد أن يتمكن ملك الذئاب الأبيض من اكتشاف رابطة الدم التي تجمعه بالجرو ويرحّب بعودته. بعد أن تسلح الجرو بأسنانه الفولاذية الحادة، سيكون ذئبا لا يقهر، وربما تولى أيضا منصب الملك خلال بضع سنين".

- من الواضح أن الذئب الصغير يحمل أفضل الجينات من بين جميع ذئاب أولونبولاغ. إنه عنيد وذكي للغاية؛ ينبغي له أن يكون الملك اللاحق للذئاب. لكن إذا استطاع الرجوع إلى منغوليا الحقيقية، حيث يسكن قليل من الناس في مقاطعة شاسعة. هناك عشرون مليونا من السكان في منغوليا الحقيقية، التي هي رائعة الجمال ومكان يحظى فيه رمز الذئب بكثير من التقدير والاحترام؛ إنها تخلو من الفلاحين الذين يكرهون الذئاب، ويريدون قتلها ليس إلاّ. السهوب الشاسعة والخصبة هي المكان الذي ينبغي لذئبنا الصغير أن يعرض فيه قدراته. لقد ارتكبت جريمة عندما دمّرت مستقبل جرو ذئاب صغير متميّز مثل هذا.

ثبت يانغ نظره على الجبال البعيدة، وازداد الضوء المنعكس على عينيه عتمة. تنهد، وقال: "لو كنت قد أتيت إلى هنا قبل عشر سنين، ربما تحقّق حلمك، لكن الخيالات الأخيرة التي راودتك كانت أملا كاذبا. أين يمكنك العثور على عدة خاصة بعلاج الأسنان؟ حتى مستشفى اللواء لا تتوافر فيها مثل تلك الأدوات. الرعاة كبار السن يضطرّون إلى أن يقطعوا مسافة ثمانمئة لي للوصول إلى مستشفى الاتحاد كي يعالجوا أسنانهم. ما الفرص المتاحة لاصطحاب ذئب إلى هناك؟ توقّف عن الأحلام. علينا مواجهة الحقيقة".

تلك الحقيقة كانت تتمثل في جروح الجرو. لقد تماثلت أكفه للشفاء، إلاّ أن الناب المسودة صارت تزداد رخاوة يوما بعد آخر، واللثة تتورّم. لم يعد يمزّق اللحم الذي كان يقدّم له، وفي بعض الأحيان، عندما يُرغمه جوعه على نسيان كل شيء عن الناب التالفة، كان يتناول قضمة، لكن الألم يجعله يسقطها ويفتح فمه على اتساعه ليمتص الهواء البارد. كان في السابق يلعق الناب التالفة حتى يخفّ الألم قبل أن يبدأ بالأكل ثانية، أما الآن فصار يمضغ الطعام على جانب واحد، وبصورة بطيئة جدا.

الشيء الذي كان يقلق شن أكثر من غيره هو الجرح الذي أصاب حلق الجرو، والذي لم يكن قد شُفي بعد تماما. استمر ينثر المسحوق الطبي على الطعام، لكن الجرو بقي يعاني من متاعب في البلع، بالرغم من توقّف النزيف. كان يسعل على الدوام. لم يجرؤ شن على طلب المساعدة من العيادة البيطرية، فكل ما استطاع أن يفعله فقط هو استعارة الكتب لدراستها بنفسه.

* * *

كانت الأبقار والخراف التي تخصّص لحومها لإطعام الناس خلال فصل الشتاء قد ذُبحت وجُمّدت. تم تخصيص ستة خراف لكل واحد من الرجال الأربعة الذين يسكنون في خيمة شن، أي ما مجموعه أربعة وعشرون خروفا. وأعطيت لهم بقرة واحدة كذلك. وبقيت حصّتهم من الحبوب على حالها، ثلاثون جنا كل شهر، بينما استلم الرعاة، بالرغم من أنهم كانوا يمنحون المقدار نفسه من اللحم، تسعة عشر جنا لا غير من الحبوب. ونتيجة لذلك، فقد توافر في خيمة

شن كمية من اللحم كافية للجميع: الناس، والكلاب، وجرو الذئب. بالإضافة إلى هذا، هناك خراف كانت قد ماتت بسبب البرد والمرض، ولأن الرعاة لا يأكلون لحومها، لذا كانوا يقدّمونها طعاما للكلاب وللجرو. لم يعد شن قلقا بشأن إيجاد كمية كافية من اللحم لإطعام الجرو.

كان شن وغاو جيانزونغ يأخذان أكبر كمية اللحم المجمّد إلى سقيفة الخزن الخاصة بقاطعهم، وهي عبارة عن ثلاث غرف مشيّدة بالطابوق في المرعى الربيعي. لم يبقوا إلا سلة من اللحم في الخيمة، وكانا يترددان على السقيفة من وقت إلى آخر لإعادة خزن تموينهم.

تتميز أيام الشتاء بكونها قصيرة على السهوب، فهي تتكون من ست أو سبع ساعات ليس إلاّ تمضيها الخراف في الرعي، ونادرا ما تتجاوز نصف الوقت الذي كانت تمضيه الخراف في الرعي صيفا. لكن، باستثناء العواصف ذات الشعر الأشيب، فالشتاء يعتبر وقت راحة بالنسبة إلى الرعاة. كان شن يخطّط لأن يمضي مزيدا من الوقت في رفقة الجرو، وأن يخصّص وقتا إضافيا للقراءة، وتدوين الملاحظات. انتظر بلهفة أن يرى أي نوع من التصرف سيُبديه الجرو خلال الأيام المثلجة. يتركز اهتمام الناس في السهوب على مراقبة الطبيعة الوحشية للذئاب، والانبهار بحكمتها، والغموض الذي يلفّها، وكان شن واثقا من أن الجرو لن يخيّب ظنّ المعجب الوحيد به.

خلال الشتاء الطويل والقاسي، واجهت الذئاب التي كانت قد فرّت عبر الحدود ظروفا أصعب عشرات المرات مما شهدته على هذا الجانب من الحدود، بينما عاش جرو الذئب الذي لديه في مخيّم للرعاة تتوافر فيه كميات كبيرة من اللحوم. كان فراؤه الآن قد نما بشكل كامل، وبدا أكبر حجما، كل جزء فيه أضحى في مظهره شبيها بذئب ناضج. عندما دسّ شن أصابعه في فرائه السميك كان في وسعه أن يشعر بالدفء الذي يسري في جسد الجرو، كأنه قطعة نحاس ساخنة، شعر أنه أكثر دفئا من القفازات. لكن الجرو ما زال لا يستجيب لنداء اسمه الجديد الذي أعطي له: ذئب كبير. كان يتظاهر بالصمم إذا نادوه به، لكنه يركض بمرح ليقفز على سيقانهم وركبهم حين ينادوه بالذئب الصغير. وغالبا ما كانت رفقته من جراء الكلبة تدخل الحظيرة كي تلعب مع الجرو، فهو لم يعد يعضّها بقسوة. في بعض الأحيان كان يصعد على ظهورها، كما لو أنه أراد التزاوج معها. فيما كان يانغ كي يراقب ذلك السلوك الحميم المشوب بالعنف، ابتسم، وقال: "يبدو أن بإمكاننا توقع حدوث شيء ما في السنة التالية...".

* * *

هناك أشياء ذات علاقة بطبيعة الجرو الذئبية لم تكن لتتغير على الإطلاق: أولا، لم يكن أحد يستطيع الاقتراب منه وهو يأكل، حتى شن أو يانغ؛ وثانيا، إنه لا يسمح أبدا لأي شخص أن يسحبه ويمضي به على الطريق عندما يخرج وإياه للتنزه، وأي شخص يحاول ذلك عليه أن

يـــواجه مخاطر القتال لينجو بحياته. حاول شن دائما أن يحترم قوانينه الخاصة التي وضعها لنفسه. أصبح شوق الجرو للطعام ورغبته في الاستمتاع به أقوى بكثير خلال شهور الشتاء المتجمّدة مما كانا عليه في الفصول الأخرى. وفي كل مرة كان شن يطعمه فيها، كان يلاحظ أن الجرو كان يزمجر ويكشّر عن أنيابه مما يضطر شن إلى الخروج من الحظيرة، ومن ثم يشعر الجرو بالأمان إلى حدٍّ كاف فيعود إلى تناول طعامه. وحتى في ذلك الوقت كان يستمر في الزمجرة بشكل هستيريّ في وجه شن. بالرغم من كونه لم يستردّ وضعه الطبيعي تماما نتيجة الجروح التي أصابته، إلاّ أنه كان يكتسب قوة، وبدا أنه قد عوض ما فقده من الدماء من خلال شهيته المفرطة.

بالرغم من ذلك، فقد أثرت الناب التالفة، والجرح في فمه على طبيعته الذئبية؛ صار الآن يحتاج إلى أن يقضم سبع أو ثمانيَ مرات من أجل أن يبتلع وجبة واحدةً كان ذات مرة قادرا على ازدرادها في ثلاث قضمات. تساءل شن ما إذا كان سيتعافى في يوم من الأيام.

احتـــرقت المراعـــي الشتوية كآبة أثقل وطأة من تلك التي تسود في أعماق الخريف عند مـــنطقة الحدود التي نادرا ما كان يزورها البشر. لقد بدت السهوب الهادئة، والمتلفّعة بالكآبة، والمتمـــرّغة بالرتابة فاقدة للحياة أكثر من أي وقت مضى. كان ثمة شعور لا نهاية له وأسى لا حـــدود له، يتفاقمان على نحو متكرر في نفس شن زن؛ ظنّ أنه على وشك أن يفقد عقله، أو يصاب بالشلل نتيجة السأم لولا وجود الجرو والكتب التي أحضرها من بكين. أخبره يانغ كي ذات مـــرة بأن والده عندما كان طالبا في إنكلترا سمع أن معدل حالات الانتحار كانت نسبتها مـــرتفعة كـــثيرا وسط الأوروبيين الذين كانوا يعيشون قريبا من القطب الشمالي. إن ما يعرف بالكآبـــة السلافية، التي كانت شيئا شائعا منذ قرون على السهوب الروسية والأرض الجرداء في سيبريا، لها صلة وثيقة بفصول الشتاء الطويلة والمظلمة على الحقول الثلجية الشاسعة. لكن ترى كـــيف اســـتطاع المنغوليون العيش آلاف السنين في بيئة مماثلة وتمكنوا من الحفاظ على عافية أجـــسادهم، والارتقـــاء بروحهم المعنوية؟ لا بدّ من أنهم طوروا تلك القدرات نتيجة معاركهم المكثفة، والعنيفة، والقاسية التي خاضوها ضدّ الذئاب، هكذا استنتج شن.

من الناحية المادية، كانت ذئاب السهوب تشكل نصف أعداء سكان السهوب، لكنها في الواقع مثلت بالنسبة إليهم معلّميهم الروحانيين. عندما واجهت الذئاب عمليات الإبادة، لم تعد الشمس التي كانت تشرق بلونها الأحمر تضيء السهوب، وسبّب الوضع المستقر الراكد حالا من الاكتـــئاب، والذبول والضجر، والمزيد من أعداء الروح بملامحهم المرعبة، تلك الحال المريعة هي التي قوّضت عاطفة الذكورة التي كانت تميّزهم منذ آلاف السنين.

بعد اختفاء الذئاب، كانت مبيعات الشراب على أولونبولاغ قد تضاعفت تقريبا.

رمز الذئب، روح السهوب، رمز الروح الحرة الوثّابة التي لا تقهر لسكان السهوب.

* * *

كـــبر الذئب الصغير أكثر؛ وازدادت السلسلة قصرا. لم يكن الجرو مرهف الإحساس حـــيوانا يسهل خداعه، اعترض دائما، مثل سجين يحتجّ، على سوء معاملته عندما اكتشف أن طـــول السلـــسلة لا يتناسب وحجمه. صار يسحبها بكل ما أوتي به من قوة، يشدها بعنف، ويـــرتطم بالعمود الخشبـــي بتصرف معين وكأنه كان يريد منه أن يقنع شن أن يجعل السلسلة أطول؛ لم يكن يتوقف أبدا حتى يقتنع ويحصل على ما أراده، وإن كان ذلك يعني تعرّضه للموت خنقا.

أضـــاف شن بضع بوصات إلى طول السلسلة، بينما بقي الجرح الذي في فم الجرو بحاجة إلى المـــزيد مـــن الوقت ليشفى. لكن مع ذلك كان على شن الاعتراف بأن السلسلة ما زالت قصيرة جدا بالنسبة إلى الجرو الذي أصبح كبيرا. السبب الوحيد الذي منعه من أن يجعلها أطول هـــو إدراكه أن توسيع المسافة التي يستطيع الجرو أن يجري فيها من شأنه أن يمنحه قدرة مضافة على سحب السلسلة. شعر شن بالقلق من أن يتمكن الجرو ذات يوم من إضعاف متانة السلسلة نتيجة استمرار الشدّ عليها، أو أن يحطمها.

ظهر على الجرو خلال انشغاله بمعركته ضدّ سجنه أنه كان يفرح بكل بوصة تضاف إلى السلـــسلة. حالما أصبحت السلسلة أطول، بدأ يركض بجنون بشكل دوائر، وكأنه كان يحتفل بالبوصـــات القلـــيلة المضافة التي أتاحت له مزيدا من الحرية. كان الشعور بالإحباط والضجر يتلاشـــى من صدر شن في كل مرة كان يجلس فيها قريبا من الجرو، كما لو أن دماء ذئب قد نقلت إليه وجعلت النشاط يدبّ في أوصاله.

فـــيما كان مستمرا في مراقبته، أدرك أن الجرو لم يكن يحتفي بالبوصات المضافة إلى طول سلسلته وحسب، فبعد أن خفت الاهتياج، بقي يعدو، وشعر شن أن غرائزه الذئبية كانت تحثه ليـــضاعف تدرّبه على اكتساب السرعة، أو إنها رغبة ملحة للتعبير عن مهارات مكتسبة. كان يكـــافح ضـــد سلسلته بقوة أكبر مما اعتاد أن يفعله خلال الصيف والخريف. وفيما ازداد قوة ونـــضجا يوما بعد يوم، كان يلقي نظرة إلى السهوب ويبدو الاشتياق واضحا في عينيه؛ كأنما أضـــحى من السهل عليه - إلى حدٍّ ما - أن يمدّ أكفه ويلامس الحرية، مما جعله يكره السلسلة أكثـــر فأكثـــر. أدرك شن مدى قسوة سجنه للجرو إلاّ أنه شعر بأن الجرو سيموت حتما إذا هرب، وبقي يطوف متشردا في الأرض الثلجية في أعماق الشتاء، في ذلك الوقت الذي تكاد لا تقدر فيه حتى الذئاب الكبيرة على البقاء على قيد الحياة.

استمر الجرو يقاتل السلسلة، والتي كانت تؤخر التئام الجرح الذي في فمه. كان شن يشعر بـــألم في حنجرته هو كلما نظر إلى الجرو. لكن كل ما استطاع فعله هو أن يتفحص السلسلة، ربـــاط الجلد الذي حول العنق، والعمود مرات أكثر من ذي قبل، وذلك لمنع الجرو من الهرب أمام عينيه نحو أرض الحرية حيث ينتظره الموت.

اجتاحت قلب شن نوبات من الشعور بالذنب. في هذه البقعة الجرداء، غير المأهولة من الأرض، كان يستمتع برفقة ذئب صغير أنتج تدخّله بمولد حياته قدرة على مساعدته لاجتياز ذلك الشتاء الذي بدا وكأنه بلا نهاية. لقد تعلم شيئا كثيرا عن التصادم بين طبيعة ومصير نوعين من الكائنات الحية جمع بينهما القدر على أرض خصبة ومع ذلك فهي أرض يباب يغطيها العليق. صار يبجّل الذئاب بعد طول انبهار بها. هل كان من الضروري حقا أن يلجأ إلى سجن الجرو وحرمانه من حريته وسعادته من أجل أن يهزم جهل الصينيين من الهان، وانحيازهم، وأن ينجح في دراسته لطبيعة الذئاب؟

غطس شن عميقا في لجّة شكوكه وقلقه في ما يتعلق بمجموعة من الأعمال التي فكّر في أن يقوم بها.

كان الوقت قد حان بالنسبة إليه ليقرأ قليلا، لكنه بدا غير قادر على تحريك قدميه. شعر بارتباط روحي وعاطفي غريب يشده نحو الجرو، وأخيرا جرجر نفسه بعيدا عنه، بالرغم من أنه بقي ينظر باستمرار إلى الخلف، وهو يتساءل عما يمكن أن يقدّمه للحيوان السجين.

* * *

في نهاية الأمر تركت ملامح مزاج الجرو بصمتها على وجهه.

كان شن زن دائما يفكّر في أن ضياع الجرو في مناخ الشتاء القاسي ليس سوى خطة لا مجال لتفاديها وُضعت من قبل تينغر، الذي كان قد أطلق هجوما استغرق عمرا كاملا على ضمير شن، وذلك كي يشعره أن الذنب الذي اقترفه لا يمكن أبدا أن يغتفر.

ساءت حالة الجرح الذي كان الجرو يعاني منه ذات ليلة لم تهب فيها نسمة هواء، ليلة مظلمة غير مقمرة لم تنبح فيها الكلاب ولا لمع فيها أي ضوء للنجوم. كانت أولونبولاغ القديمة هادئة، لا أثر فيها للحياة، وكأنها فسحة من الاخضرار جثمت عليها صخرة مرقّطة بالمتحجرات.

في الهزيع الأخير من الليل استيقظ شن على صوت اهتزاز عنيف للسلسلة. تسارع في نفسه شعور ثقيل بالذعر جعل ذهنه صافيا بشكل غير اعتيادي، وسمعه حادا على نحو غير مألوف بالنسبة إليه. استطاع أن يميز، وسط فوضى خشخشة السلسلة، عواء ذئاب غامض كان يتناهى إلى سمعهم من الجبال عبر الحدود. بدت أصوات العواء المتقطعة وكأنها كانت تصدر من ذئاب مسنة وحزينة، متلهفة وغاضبة. ربما كانت قطعان الذئاب المندحرة التي انسحبت من أرضها الأصلية تتعرض لهجوم من ذئاب أقوى جاءت من الجانب الآخر للحدود؛ ربما كان ملك الذئاب الأبيض وبعض ذئاب جريحة ومستوحشة قد بقيت وحيدة، بعد أن ذهبت جنوبا نحو الأرض الحرام التي تقع بين علامة الحدود والطريق السريع. لم يكن باستطاعتها أن تعود إلى مكانها القديم المشبع بالدماء. لكن عواء ملك الذئاب الأبيض كان يبدو شبيها بنداء عاجل لجمع شمل الذئاب المندحرة والمشتتة لخوض معركة أخيرة.

كان قد مضى أكثر من شهر منذ أن سمع فيها شن للمرة الأخيرة ذئاب أولونبولاغ الحرة وهـــي تعوي بأصوات متهدّجة، وواهنة، ومتلهّفة تبعث من خلالها رسالة جعلت مشاعر القلق تـــتفاقم في نفـــسه. تساءل عمّا إذا كان بلغي ينتحب في تلك اللحظة، لأن سماع عواء يوحي باليأس كان شيئا أسوأ بالنسبة إليه من عدم سماع أي شيء. لقد تقلصت منذ زمن أعداد أغلب ذكـــور الذئاب الأكثر قوة، والأشد ضراوة، والأكثر ذكاء على أيدي الصيادين. بعد أن غطّت الثلوج أرض السهوب بدثار أبيض، صارت سيارات الجيش غير ذات نفع، لذا كان الصيادون قـــد استبدلوها بالأحصنة السريعة، واستمروا باصطياد الذئاب، التي بدا كما لو أنها قد فقدت القدرة على إيجاد طريق للخلاص من قبضتهم، وإنشاء مقاطعة جديدة لها.

لقـــد شكل هذا أعظم أسباب الخوف لدى شن. كان رجوع الذئاب وعوائها الذي طال غـــيابه قد أضرم من جديد جذوة الأمل، والاشتياق، والمقاومة، والروح القتالية في نفس الجرو. ومـــثل أمير مسجون في السهوب، سمع صيحة أبيه العجوز، وأراد أن يطلق نداء لطلب النجدة. وازدادت لهفة الجرو، وسخطه، وعنفه إلى حد كبير بحيث أراد الاستجابة لذلك العواء الصاخب الذي كان يشبه قذيفة مدفع.

لكن حنجرته الجريحة لم تسمح له بالرد على أبيه وأبناء جلدته. أصبح مسعورا وهو يكابد لهفـــته، وازداد تهوّرا، ووثب يقفز هنا وهناك، نخع السلسلة والعمود الخشبـــي، كان غافلا عن احـــتمال تعرّضـــه لجـــرح مميت. شعر شن بالأرض المتجمّدة تتحرك تحت قدميه؛ حين تأمل الـــضجيج والـــصراخ والزمجرة المتذمرة التي كانت تنبعث من الحظيرة، تصور أن جرو الذئب سيعدو بكل قوة للخلاص من أسره، ويندفع بشكل أهوج، وإن صار يسعل وينفث الدماء.

أزاح عـــنه غطاء اللباد مذعورا، وسارع إلى ارتداء سرواله الموشى بالفرو، ومئزره قبل أن يندفع مسرعا إلى خارج الخيمة. استطاع رؤية الدماء على شعاع مصباحه الكاشف. كان الجرو ينـــــزف بغـــزارة، لكنه تابع الجري والارتطام، وتدلى لسانه بصورة غير طوعية بفعل الطوق المشدود. كانت السلسلة متوتّرة تماما، كأنها قوس وصل إلى ذروة انشداده قبل تكسره. علقت رقاقات ثلج ملطخة بالدماء على صدره، بينما تناثرت خرز من قطرات الدماء على الأرض.

ركض شن نحوه، من دون أن يولي اعتبارا لشيء، محاولا الإمساك به من رقبته، لكن الجرو قضم قطعة كبيرة من جلد الخراف، وانتزعها من كم مئزر شن في اللحظة التي مدّ فيها يده إليه. ذهـــب يانـــغ كي إلى هناك مسرعا وقد استبدّت به المخاوف، لكن حتى مع وجودهما معا لم يتمكنا من الاقتراب، كان الجنون الذي طالما تنامى في داخل الجرو قد حوله إلى شرير له عيون محمرّة من الهوس بالقتل، أو إلى ذئب انتحاريّ شرس، يستشيط غيظا. سارعا إلى إحضار قطعة كـــبيرة وسمـــيكة وقذرة من اللباد تستخدم لتغطية روث الأبقار، واندفعا نحو الجرو لتغطيته بها وطرحه على الأرض.

بدا الجرو مشغولا بنـــزاع دام من أجل الحياة أو الموت، فقد استبدّت به طبيعته الوحشية بـــشكل كامـــل؛ أخذ ينشب مخالبه في الأرض، ويعضّ اللباد، وأي شيء تصل إليه أكفه، بقي رأسه يهتز لتحرير نفسه من السلسلة. شعر شن أنه هو نفسه يكاد يفقد صوابه، لكنه أجبر نفسه علـــى الهدوء كي يصيح بصوت خافت، "ذئب صغير، ذئب صغير"، أخيرا، استنفد الجرو كل طاقـــته واستسلم ببطء. تهاوى شن ويانغ على الأرض منهكين، كانا يلهثان لالتقاط أنفاسهما كما لو إنهما كانا قد اشتبكا في صراع بالأيدي مع ذئب متوحش.

على ضوء الفجر، أزاحا قطعة اللباد ليشاهدا نتائج صراع الجرو المسعور للتحرر، واشتياقه وحـــبه لأبيه: كانت الناب الملتهبة الآن تبرز من فمه؛ لقد انكسر الجذر عندما نهش الجرو قطعة اللـــباد. كانت الدماء تنـــزف منه، ربما صارت جروحه أسوأ بسبب اللباد القذر. وما زال فمه ينـــــزف الآن على نحو أسوأ مما كان عليه عندما انتقل للمرة الأولى إلى هنا. ظهر واضحا أن الجرح القديم قد انفتح من جديد.

اصطبغت عيناه بحمرة الدماء، واستمر الجرو يزدرد الدماء أيضا، وانتشرت الدماء في كل مكـــان: على مئزريهما، وعلى قطعة اللباد، وداخل الحظيرة، كان منظرا أسوأ بكثير من منظر مهرة مذبوحة. وتحولت الدماء سريعا إلى جليد. التوت ركبتا شن من الذعر وصدر عنه صوت متلعثم: "انتهى كل شيء. سيموت حتما".

- "ربما فقد نصف كمية دمائه"، قال يانغ كي. "سينـــزف حتى الموت إذا لم نفعل شيئا من أجله وبسرعة".

لم يعرفا كيف يمكنهما إيقاف النـــزيف. في نهاية الأمر امتطى شن صهوة حصانه، وذهب لطلب المساعدة من بلغي.

صعق الرجل العجوز من منظر الدماء التي لطخت ملابس شن، وقرر مرافقته. "هل لديك شيء لإيقاف النـــزيف؟"، سأل الرجل العجوز.

أحـــضر شن أربع قنانٍ من مسحوق يونان الأبيض. دخل بلغي الخيمة، حيث وجد رئة خروف مطبوخة، غمسها بماء دافئ من زجاجة خوائية[1] ما جعلها تصبح هشّة. قطع القصبات الهوائـــية الصلبة عن الرئة، وفصلها إلى نصفين قبل أن يرشّ المسحوق على سطح الرئة الرقيق. خـــرج وهـــو يحملها واتّجه إلى الحظيرة حيث طلب من شن أن يقدّمها طعاما للجرو، أمسك الجـــرو بها والتهم أحد النصفين حالما دفع شن حوض الطعام إلى الداخل. كاد يختنق، لأن الرئة كانـــت قـــد انـــتفخت بعد أن امتصّت الدماء التي في المريء. بقي العضو الهشّ في الحلق مدة قصيرة، وكأنه قطعة قطن تعمل على كبح جماح الدم، قبل أن ينـــزل ببطء إلى جوفه. سلطت

(1) زجاجة خوائية: زجاجة محاطة بوعاء بينها وبينه حيز مفرغ من الهواء. (المترجم)

الرئة المتضخمة ضغطا على الأوعية الدموية في الوقت الذي ساعدت فيه على معالجة المريء، مما قلل النـــزف بشكل بطيء بعد أن ابتلع الجرو نصفي الرئة.

هـــزّ الرجل العجوز رأسه وقال: "لا جدوى. لقد نـــزف كثيرا، وهو مجروح في حلقه، جـــرحه قاتل. حتى إذا استطعت إيقاف النـــزف هذه المرة، هل يمكنك أن توقفه في المرة التالية الـــتي يسمع فيها عواء الذئاب؟ هذا شيء فظيع يحدث للجرو. أخبرتك ألاّ تفعل ذلك، لكنك أصـــررت علـــى تربيته. إن رؤيته على هذه الحال هي أشد قسوة علي من أن تُدخل سكّينا في بلعومـــي. إنها ليست حياة مناسبة لذئب؛ ولا حتى الكلاب يمكنها تحمل مثل هذه التعاسة. إنه شيء أسوأ من وضع العبيد المنغوليين القدامى. الذئاب المنغولية تحبذ الموت على العيش هكذا".

توسّـــل شن الرجل العجوز. "بابا، أريد أن أربيه حتى يصبح ذئبا كبيرا. أرجوك، هل من طريقة لإنقاذه؟ أرجوك، علمني كل ما تعرفه من علاجات".

حـــدّق الرجل العجوز إليه. "ما زلت تريد أن تربيه؟ عليك أن تقتله الآن، بينما لا يزال شـــبيها بذئب ويمتلك روح ذئاب حقيقية. بتلك الطريقة سيموت وكأنه في معركة، مثل ذئاب البراري. لا تتركه يموت ميتة دنيئة، مثل كلب مريض! دع روحه تكمل دورتها".

لم يستطع شن أن يمنع يديه من الارتعاش. لم يتخيل أبدا أنه ذات يوم سيضطر إلى أن يقتل الجـــرو بـــيديه، والذي قام بتربيته مواجها في ذلك صعوبات لا تصدّق. بينما كبح دموعه التي كانـــت على وشك أن تتفجر، بذل محاولة أخيرة متوسّلا الرجل العجوز: "بابا، أرجوك. كيف أستطيع أن أقنع نفسي بقتله؟ يجب أن أنقذه، حتى لو كان هناك طيف ضئيل من الأمل".

بـــدا وجه الرجل العجوز قاتما وكئيبا. بدأ يسعل من شدة الغضب. بصق البلغم من فمه وصرخ، "أنتم الصينيون لن تفهموا مطلقا طبيعة الذئاب المنغولية".

تـــصاعد تـــيار الغضب في رأسه، امتطى صهوة حصانه، وبعد أن ضرب جنب الحصان بسوطه بشراسة، انطلق يعدو باتّجاه خيمته من دون أن ينظر إلى الوراء.

. شعر شن بأن قلبه قد تلقّى ضربة ذلك السوط.

وقف الصديقان، شن ويانغ، على الأرض الثلجية كأنهما عمودان خشبيان، كانا ضائعين تماما في خضمّ أفكارهما.

نظر يانغ إلى الأسفل. "هذه هي المرّة الأولى التي يغدو فيها بابا غاضبا إلى ذلك الحدّ منا. الجرو في الواقع لم يعد جروا بعد الآن. لقد كبر إلى حجم ذئب ناضج، وهو يمكن أن يقاتلنا من أجل نيل حـــريته. إنها حقا أنواع من الكائنات تضحّي من أجل اعتقادها بالحرية أو تفضل الموت. انظر إليه؛ إنه لن يعيش. أعتقد أنه ينبغي لنا اتباع نصيحة بابا وأن نمنح الجرو الكرامة التي يستحقها".

كانـــت الدمـــوع في ذلك الوقت قد شكلت سلسلة من الخرز الجليدي المنثور على وجه شـــن. تـــنهّد وقال: "الأمر لا يتعلق بكوني لست أفهم ما قاله بابا. لكن في كيفية قدرتي على

إقناع نفسي بذلك؟ لو أصبح لدي ابن ذات يوم، لا أتصور أنني سأتعلق به على النحو الذي فعلته مع الجرو. امنحني فقط بعض الوقت للتفكير".

بعد أن فقد الجرو معظم دمائه، نهض على قدميه وهو يرتجف وسار خطوات إلى جانب الحظيرة، حيث صار ينبش الثلج المتكوم على طرفها. فتح فمه وأسرع شن ليمسك به. "لا بدّ من أنه يحاول تخدير الألم بالثلج"، قال ليانغ. "هل أتركه يفعل ذلك؟".

- أعتقد أنه عطش. وكيف لا يعطش بعد أن فقد الكثير من الدم؟ أرى أن تتركه يفعل أي شيء يريده؛ اتركه يكون سيّد مصيره من الآن.

ترك شن الجرو يزدرد كميات من الثلج ملأت فمه. أصبح واهنا بعد أن داهمته لفحة البرد والألم، اهتزّ جسده بعنف، كأنه واحد من عبيد السهوب القدامى وقد انتزع منه مئزره الفرو عقوبة له. أخيرا، لم يعد قادرا على الوقوف، سقط على الأرض، حيث أخذ يكافح للالتفاف حول نفسه، وغطى وجهه بذيله.

كان الجرو ينتفض بعنف في كل مرة ازدرد فيها هواء باردا ملأ رئتيه، ولم تتوقف التشنجات إلا عندما أطلق شهيقا. استمر على تلك الحال مدة طويلة، مما جعل قلب شن يرتعش بدوره. لم يكن أبدا قد رأى الجرو يعاني من مثل هذا الوهن والعجز. ذهب وأحضر قطعة سميكة من غطاء اللباد، وحين غطى بها الجرو، شعر كما لو أن روح الذئب كانت تغادر جسده شيئا فشيئا، كما لو أنه لم يعد ذلك الجرو الذي رباه.

في وقت الظهيرة، طهى شن قدرا من العصيدة وضع فيها قطعة غليظة من إلية خروف. بعد أن بردها بشيء من الثلج، حملها إلى الجرو. بالرغم من أن شهيته الاعتيادية ما زالت تحتفظ بضراوتها ونظرته ما زالت أيضا توحي بالنهم، إلاّ أنه لم يعد قادرا على الأكل مثل ذئب حقيقي، توقف عدة مرات عن الالتهام ليسعل وينفث دما. لقد كان من الواضح أن جرح حلقه لم يلتئم بعد. لقد بقيت قدر عصيدة اللحم التي كان الجرو ينهيها عادة في وجبة واحدة يومين كاملين بعد أن كان يلتهم يوميا ثلاث وجبات منها.

خلال اليومين اللاحقين، كان شن ويانغ يتناوبان على مراقبة الجرو، بينما بلغ قلب كل منهما حنجرته. لكنه كان يأكل كمية أقل تدريجيا، وبالكاد استطاع أن يبتلع شيئا عدا دماءه التي سالت في وجبة سابقة. امتطى شن زن صهوة حصانه بعد أن حمل معه ثلاث قنانٍ من شراب السهوب قاصدا طلب المساعدة من الطبيب البيطري للفرقة. ألقى الطبيب البيطري نظرة إلى الدم الذي تناثر فوق الأرض، وقال: "لا تقلق. من حسن الحظ إنه ذئب؛ لو كان كلبا لمات منذ زمن طويل".

لم يعطِه الطبيب البيطري حبة دواء واحدة، امتطى صهوة حصانه من جديد وذهب لزيارة خيمة أخرى.

في صـــباح اليوم الثالث خرج شن من الخيمة ورأى أن الجرو قد أزاح غطاء اللباد جانبا، واستلقى على ظهره، كان يمدّ رقبته ليلتقط بصعوبة أنفاسا قصيرة وسريعة. أسرع مع يانغ إليه لتفحـــصه، وقد داهمهما الهلع بغتة. كانت رقبته متورّمة إلى درجة أنها كادت أن تخترق الرباط الذي حولها، وهو ما جعله يلوي رأسه إلى الخلف كي يتنفّس. أرخى شن الرباط بسرعة حيث أرجع حلقته إلى مسافة ثقبين؛ بقي الجرو يتنفس الهواء بمشقة، بينما حاول جاهدا النهوض على قائمتـــيه. فـــتحا فمه عنوة، شاهدا على الفور أن حلقه كان ملتهبا بشكل فظيع، كما لو أنه أصيب بورم خبيث، وأن جلده متقرح.

ارتمى شن على الأرض وهو في حالة يأس مطبق. كافح الجرو ليرفع نفسه فينهض، أو يـــسحب نفسه فيجلس قبالة شن، انفتح فمه دون إرادة منه، وتدلى لسانه من جانب فمه. ســـال لعاب ملطخ بالدم من زاوية فمه فيما جلس ينظر إلى شن، وكأنه كان يراقب ذئبا عجوزا، وكأنه أراد أن يخبره بشيء ما. كان يتنفس بصعوبة بالغة بحيث لم يصدر عنه أدنى صوت. انسابت الدموع على وجه شن؛ حمل الجرو من عنقه ولمس برأسه وأنفه رأس الجرو وخطمه للمرة الأخيرة. تلاشى كل أثر للقوة لدى الجرو وبدأت قائمتاه الأماميتان ترتعشان بعنف.

وثـــب شـــن على قدميه فجأة وركض إلى جانب الخيمة، حيث وجد مجرفة ذات مقبض مكسور. استدار، وحمل المجرفة معه، وقد أخفاها خلفه، ركض باتجاه الجرو، الذي كان لا يزال جالـــسا وهو يلهث بشدة، لكنّه بدا على وشك أن ينقلب على الأرض من جديد. تقدّم شن خطوات منه، ووقف وراءه، رفع المجرفة، وهوى بها بكلّ القوة التي يمتلكها على رأس الجرو. لم يصدر عن الجرو أي صوت فيما تهاوى على الأرض، بقي ذئبا منغوليا حقيقيا حتى النهاية تماما.

في تلـــك اللحظة شعر شن بأن روحه هو قد انسحقت وخرجت نتفا متفرقة من جسده؛ بدا وكأنه صار يسمع مرة أخرى صوت روحه وهي تغادر جسده عبر قمة رأسه، لكن في هذه المرة يبدو أنها كانت ترحل إلى الأبد. وقف متجمّدا في مكانه من حظيرة الذئب وكأنه شبح من رقاقات ثلجية بيضاء.

جـــاءت جمـــيع الكـــلاب إلى المكان وهي لا تدري ما الذي حصل، وأخذت تشمّ جثة الذئب؛ ثم هربت بعيدا وهي مذعورة، جميعها عدا إيرلانغ، الذي بقي ينبح بغضب على شن زن ويانغ كي.

قـــال يانغ وهو يذرف الدموع: "علينا أن نحذو حذو بابا، ونهتم بالأمور الباقية. سأسلخ الفرو. لماذا لا تدخل الخيمة وترتاح".

– "لقد أغرنا على الوجار معا، وأمسكنا بالجرو معا"، قال شن وقد تجمّدت أعصابه، "لذا علينا أن نسلخ الفرو معا".

حاولا جاهدين السيطرة على أيديهما المرتعشة، وخلعا بحذر جلد الجرو عن جسده. كان الفـــراء يبدو كثيفا ولامعا، لكن لم تكن على جسد الجرو سوى طبقة خفيفة من الشحم. ألقى يانـــغ الجلـــد على سقف الخيمة بينما أحضر شن كيس خيش نظيفا ليضع فيه الجسد، ومن ثم ربطـــه خلف سرج حصانه. امتطيا صهوتي حصانيهما متجهين نحو التلال، حيث وجدا سطحا صخريا تغطيه فضلات الصقور. أزاحا الثلج عنه، ووضعا جسد الجرو برفق على السطح.

علـــى تلك الأرض الباردة، المدفن المحفوف بالوقار تحت السماء، لم يعد الجرو الذي خلع جلـــده يبدو بمثل حالته القديمة. بالنسبة إلى شن، كان يشبه أي ذئب كبير آخر قد سُلخ جلده بعـــد أن مـــات في مـــيدان المعركة. حين وقف شن زن قبالة الجثة البيضاء ذات المنظر الفظيع لجروهما الغالي، لم يذرف هو ولا يانغ كي دمعة واحدة.

علـــى الـــسهوب المنغولـــية، يأتي كل ذئب تقريبا إلى الحياة وقد تلفّع بمعطف ضبابـــي، ويتـــركها بعـــد أن يسلخ جلده، مخلفا وراءه شجاعته، وقوته، وحكمته، إضافة إلى السهوب الجميلة إرثا للبشر. في هذه اللحظة، كان الجرو قد خلع عنه ثوب المعركة التي خاضها، وتخلّص من سلسلته؛ لقد تمكّن أخيرا من أن يطوف في أرجاء السهوب الشاسعة بحرية، تماما مثل أفراد قطيعه، وكل ذئاب السهوب الأخرى التي ماتت خلال حملة الإبادة. سيعود إلى القطيع، وينضم من جديد إلى صفوف محاربـــي السهوب، لأن تينغر لن يرفض روحه أبدا.

نظرا إلى السماء في وقت واحد، حيث شاهدا صقرين كانا في ذلك الوقت يحومان بشكل دائـــري فـــوق رأسيهما. نظرا إلى أسفل وشاهدا الجثة وقد أوشكت أن تتجمّد، لذلك امتطيا صهوتي حصانيهما على عجل وهبطا إلى أسفل التل. على الأرض المنبسطة، التفتا إلى الوراء ليريا الـــصقرين يحومان قريبا من السطح الصخري. لم تكن الجثة قد تجمّدت بالكامل، لذلك سيمنح الجرو مدفنا سماويا سريعا وتأخذه الصقور إلى تينغر في عليائه.

في الـــوقت الـــذي عاد فيه شن ويانغ إلى الخيمة، كان غاو جيانـــزونغ قد جلب عمودا طـــويلا من شجر البتولا ووضعه إلى جانب الباب. عبأ الجلد بعشب جاف أصفر، بينما أدخل شن زن حبلا جليدا رفيعا عبر منخري الجرو وربط إحدى نهايتيه بطرف العمود. رفع الطلاب الثلاثة العمود، وغرساه في ركام ثلجي قرب باب خيمتهم.

هـــبت ريح شمالية غربية شديدة وجعلت جلد الجرو يرفرف في الهواء، تخلّل رداء المعركة، الذي خلعه صاحبه توا وبدا كما لو أنه قد ارتدى بزة رسمية استعدادا لحضور مأدبة في السماء، تصاعد دخان شاحب اللون من مدخنة الخيمة، وانتشر حتى استقر تحت الجلد، مما جعل الجرو يبدو وكأنه كان يمتطي الغيوم، ويلتف هنا وهناك بنشاط وحيوية، ويرقص بحرية وسعادة وسط الدخان السديمي. في تلك اللحظة لم تكن ثمة سلسلة حول رقبته، ولا سجن ضيق الجدران يحدّ من حركته، ولا قيد يكبل قدميه.

تتبّعت نظرات شن الفارغة من أي تعبير ذلك الشكل الذي كان يبدو وكأنه ما زال حيا وهو يتراقص مع الريح؛ لم يترك الجرو وراءه سوى قشرته الخارجية التي بقيت تتحرك رافضة أن تمـــوت، ذلـــك الـــشكل الجميل بمنظره الآسر ما زال يحتوي على روحه الحرة التي لا تعرف الاستسلام. على حين غرة، تمايل الشكل الأنبوبـــي الطويل، والذيل بفروه الكثيف بضع مرات كأنـــه تـــنين طائـــر، حلّق وسط تيارات الثلوج المدومة والغيوم المنجرفة. كانت الريح تعوي، والشعر الأشيب يتطاير. صعد الجرو، مثل تنين ذهبـــي طائر، على الغيوم والضباب، رحل مع الـــثلوج والريح، حلق بسعادة باتجاه تينغر، إلى النجم سيريوس، إلى الكون الحرّ في الفضاء، إلى المكان الذي احتشدت فيه أرواح جميع الذئاب المنغولية التي ماتت في المعارك منذ آلاف السنين.

في تلك اللحظة، أيقن شن زن أنه قد رأى بأم عينيه رمز ذئبه الخاص به وحده.

خاتمة

في وقت مبكر من الربيع الثاني الذي حلّ بعد اختفاء الذئاب من أولونبولاغ، أرسل فيلق الإنتاج والإنشاءات في منغوليا الداخلية أمرا بتقليل أعداد الكلاب حتى يتسنى لهم إنقاذ الخراف والأبقار ذات القيمة العالية، وذلك لتوفير كميات اللحوم التي كانت تحتاج إليها الوحدات الزراعية. وكانت أُولى الضحايا تعسة الحظ هي جراء الكلاب. لقد انتهى الأمر بجميع الجراء التي ولدت مؤخّرا تقريبا لأن تقذف في الهواء، وترسل أرواحها إلى تينغر، تصاعد نحيب حزين صادر عن إناث الكلاب، كان في وسع المرء سماعه في كل مكان من السهوب. في بعض الأحيان شوهدت أمّات الكلاب وهي تحاول انتزاع الجراء التي أخفاها أصحابها خلف ظهورهم؛ وغالبا ما كانت تقفز هنا وهناك في دوائر وهي تمسك الجراء في أفواهها. انتحبت النساء؛ ذرف الرجال الدموع. غدت الكلاب الكبيرة أكثر نحولا يوما بعد آخر.

بعد ذلك بنحو ستة أشهر أطلق شخص ما يستقل إحدى الشاحنات التابعة للفيلق النار على إيرلانغ، وقتله بعد أن ترك الخيمة، وكان غارقا في لجة أفكاره هناك على العشب. حمل القاتل جسده. بينما استبد الغضب بشن والطلاب الثلاثة الآخرين، ذهبوا مسرعين إلى مقرّ قيادة الفيلق، لكن لم يتبين وجود أي شخص مذنب. كان الصينيون الذين وصلوا إلى هناك مؤخّرا قد اتحدوا، وكان لهم رأي واحد بشأن مسألة أكل الكلاب، فقد أخفوا القاتل كما لو أنهم كانوا يخفون بطلا يتعرّض للمطاردة من قبل عنصر قادم من كوكب غريب.

بعد ذلك بعدة سنين، وفي صباح يوم باكر، في أثناء هبوب عاصفة ثلجية ذات شعر أشيب، شوهد رجل عجوز وآخر متوسط العمر، على عربة يجرها ثور، يتوجهان نحو الطريق السريع قرب الحدود؛ على العربة تمدد جسد بلغي. كانت اثنتان من البقاع الثلاث من الأرض المخصّصة للدفن تحت السماء قد هُجرتا مسبقا، لأن بعض الرعاة قد تبنّوا عادة الهان في الدفن تحت الأرض. كان الرجل العجوز قد أصرّ على أن تُرسل جثته إلى مكان ربما ما زالت تطوف فيه ذئاب متبقية، لذا حمل رجلان من أبناء عمومته جثمانه إلى الأرض الحرام شمال الطريق السريع الذي يشكل الحدود.

قال ابن عمه الأصغر سنا: "الذئاب التي في الشمال كانت تعوي طوال الليل، و لم تتوقف حتى بزوغ الفجر".

كان شن زن، ويانغ كي، وزانغ جيوان يعتقدون أن بلغي قد يعاني أكثر من معظم الناس، لكنه كان أوفر الناس حظا أيضا، فهو آخر المنغوليين الذين يحظون بالدفن تحت السماء، والعودة إلى تينغر.

لم يمضِ وقت طويل على ذلك، حتى تم تنسيب شن ويانغ وغاو للانضمام إلى مقرّ القيادة، حيث أصبح يانغ مدرّسا في إحدى المدارس المتوسطة، وأرسل غاو ليسوق الجرارات، أما شن فقد عمل حارسا في أحد المخازن. كان زانغ جيوان هو الوحيد الذي بقي في مكانه، راعيا للأحصنة.

تـــركوا الكلبة يير وجراءها عند باتو، بينما تبع الكلب الوفي أصفر شن. لكن في كل مرة كانت تأتي فيها غاسماي على عربة الثيران برفقة الكلاب، كان أصفر يمضي وقتا ممتعا مع عائلته، ويتـــبع العربات في طريق عودها إلى فريق الرعي. لم يكن أحد قادرا على منعه، ولا يعود أصفر إلى شن إلا بعد أن يمضي بضعة أيام هناك. كان يعود بغضّ النظر عن بعد المسافة التي ينتقل إليها قاطـــع الرعي، وحتى من مسافة مئة لي؛ لكنه كان يبدو دائما غير سعيد عند عودته. كان شن قلقـــا دائمـــا من أن يحصل شيء ما لأصفر على الطريق، لكن دواعي قلقه سرعان ما تتلاشى عـــندما يظهـــر أصفر من جديد. لم يكن يحرم أصفر من المتعة والحرية لأن يبقى مع عائلته في الـــسهوب. لكن بعدها بسنة، *ضاع* أصفر. كان الناس في السهوب يعرفون أن كلابهم لا يمكن أن تضيع، أو أن تأكلها الذئاب، إذ لم يعد هناك من ذئاب الآن؛ وحتى لو كانت هناك ذئاب، فـــإن قطيعا للذئاب لن يقتل أبدا كلبا وحيدا. لا بدّ من أن يكون أصفر قد قتل من قبل الناس، أولئك الذين لا ينتمون إلى السهوب.

عاد شن ويانغ إلى مكان يسكنه أناس صينيون على الأغلب، كانوا يعيشون حياة مستقرة. كـــان معظـــم الناس الذين يعيشون من حولهما جنودا محترفين ترافقهم عوائلهم التي جاءت من مناطق الصين كافة، بالإضافة إلى جنود من فيلق جيش الطلاب الذين أتوا من تيانجنغ وتانغشان. لكنهم من الناحية الوجدانية كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون أبدا أن يعيشوا حياتهم على النّمط المميّز للهان. بعد انتهاء وجبات العمل والدراسة، كثيرا ما كانا يتسلقان على تلّ صغير يقع في مكـــان قريب، حيث كان في وسعهما التحديق إلى المسافات الشاسعة الممتدة أمامهما صوب الـــشمال الغربـــي، وعاليا نحو تينغر، بحثا عن أي أثر للجرو ولبلغي على السحب التي يخترقها ضوء وهاج يعمي الأبصار تلك التي فوق رأسيهما.

في سنة 1975، تم تسريح فيلق الإنتاج والإنشاءات في منغوليا الداخلية بصورة رسمية، لكن مـــنطقة نهـــر ماجوزي، بعشبها الخصب ومائها الغزير، كانت في ذلك الوقت قد تحوّلت إلى صـــحراء بفعل أعمال الفلاحة. إلاّ أن معظم العمال – إلى جانب مفاهيمهم وأسلوب حياتهم، بالإضـــافة إلى مـــنازلهم، وآلياتهم، وعرباتهم، وجراراتهم – كانوا قد استقرّوا هناك. انتكست أولونـــبولاغ بمرور السنين، وكان من شأن خروف يقتله ذئب أن يبقى موضوعا للحديث عدة أيام، بينما بقيت المزيد من الأحصنة تتعثّر بحفر الفئران، وتجرح أنفسها، ومن يمتطيها.

بعـــد ســـنوات من ذلك، وقبل أن يعود شن زن إلى بكين ليشترك في امتحان القبول في الجامعـــة، كـــان قد استعار حصانا ليودّع باتو وعائلته. بعدها قام برحلة خاصّة لزيارة الوجار

القـــديم الـــذي ولـــد فـــيه الجرو. لم يزل الوجار مظلما، عميقا، وصلبا، وإن كانت شبكات العنكبوت قد غطّت المدخل، وكان هناك زوج من الجنادب الخضراء النحيفة يكافحان للتخلص مـــنها. أزاح شن العشب جانبا لينظر إلى الداخل، فاقتحمت أنفه رائحة التراب، لم تكن تشبه رائحـــة الـــذئاب اللاذعة القوية. نما عشب طويل على الأرض خارج الكهف في المكان الذي لعـــبت فيه الجراء السبعة ذات مرة، وتقلبت تحت أشعة الشمس. جلس شن إلى جانب الوجار مدة طويلة، لكن لم يكن برفقته جرو ذئب، ولا كلاب صيد، ولا حتى جرو كلب.

* * *

في صيف السنة الثلاثين على إرسال طلاب بكين إلى أولونبولاغ، غادر شن زن ويانغ كي العاصمة في سيارة جيب زرقاء اللون من نوع شيروكي في طريقهما إلى السهوب.

لـــدى تخرّج شن من أكاديمية العلوم الاجتماعية، التحق بمعهد الشؤون القومية في إحدى الجامعـــات حـــيث أجرى بحثا حول إصلاح النظم. وبعد أن نال يانغ شهادة البكالوريوس في القانون، تابع دراسته لنيل شهادة الماجستير، ونال إجازة لممارسة القانون. في غضون هذا الوقت كان قد أنشأ مؤسسة قانونية في بكين تتمتع بسمعة محترمة.

لم يتوقف الصديقان، اللذان أصبح كل منهما الآن في الخمسين من عمره، عن التفكير في الـــسهوب؛ لكـــنهما كانا يخافان الرجوع إليها. عندما حلت السنة الثلاثون بالتحديد، وهي ذكـــرى ســـنوية مهمـــة في حياة الإنسان الصيني، قررا الرجوع لرؤية أصدقائهما، إلى سهل أوجيمـــشن العظيم الذي كانا يخافان زيارته، وإلى كهف الذئب العجوز الذي يقع أسفل جبل بلاك روك.

كانـــت السماء ذات زرقة صافية عندما دخلت سيارة الجيب منغوليا الداخلية، لكن أي شـــخص كان قد أمضى فترة طويلة هناك، لا بدّ له من أن يعرف أن تينغر لم يكن على سابق عهـــده. كانـــت السماء توحي بالجفاف، وخالية من الغيوم؛ وتينغر السهوب صار الآن تينغر الـــصحراء. تحت السماء الجافة الحارة، لم يعد بالإمكان رؤية أي عشب أخضر اللون كثيف؛ كانـــت بقـــع من التربة الرملية الصلبة تملأ الفسحات المتناثرة التي بقيت من السهوب الصفراء الجافة، كما لو أن صفائح عملاقة من الورق الرملي الصقيل قد فرشت على الأرض الشاسعة.

علـــى الطـــريق السريع، الذي غطت نصفه رمال جافة، كانت قوافل الشاحنات المحمّلة بالأقفـــاص الحديديـــة المهـــيأة لـــنقل الخراف والأبقار تشق طريقها بأصوات محركاتها الهادرة باتّجاههما، وتجر وراءها أعمدة كثيفة من الغبار الأصفر نحو حواضر الصين. لم يشاهدا إلا نادرا خـــيمة أو قطيعا من الأحصنة أو الأبقار على طول الطريق؛ وبين الفينة والأخرى كانا يلمحان قطـــيعا للخراف، لكنها كانت خرافا صغيرة ونحيفة، ذات صوف أسود اللون قذر، ومتشابك ببعضه بعضا. حتى الخراف *المعالجة* كانت تبدو أفضل منها. كاد اليأس أن يقضي على كل أمل

راود الصديقين من جدوى رحلتهما، ويجعلهما يتراجعان عنها، لم يشأ أي منهما للسهوب الندية والخصبة التي ما زالت غصة في قلب كل منهما أن تستبدل بذلك المنظر المغبّر الجاف.

انحرف يانغ إلى جانب الطريق، وتوقف، وفيما كان ينفض الغبار عن جسده، قال لشن: "كنت منشغلا جدا خلال العقد المنصرم بحيث لم يتوافر لدي وقت للرجوع. الآن بعد أن أصبح الأشخاص الذين يعملون في شركتي قادرين على العمل بصورة مستقلة، وجدت أخيرا بعض الوقت، لكن إذا أردت الصراحة، فإنني خائف من رؤية السهوب. لقد جاء زانغ جيوان لزيارة هذا المكان في الربيع الفائت وأخبرني بحالة التصحّر. وذلك أدى إلى تأخري لأحصل على مزيد من الوقت لتحضير نفسي وجدانيا. لكنني خائف من أنها ربما تكون أسوأ مما أتخيل".

خبط شن على عجلة القيادة. "لم لا أتولى القيادة عنك؟ لم تمضِ سوى عشرين سنة منذ أن توفي بابا، وها نحن نرى النهاية التعسة التي توقّعها. ينبغي لنا حقا أن نبجّله، وإلى جانب هذا فإن وجار الذئب الصغير سيمتلئ بالرمال إذا انتظرنا بضع سنوات أخرى. ذلك الوجار هو الأثر الوحيد المتبقي للذئاب التي هيمنت على السهوب آلاف السنين".

- "إنني أفتقد أوليجي أيضا"، أضاف شن. "أحب حقا رؤيته مجددا حتى أسأله عن الذئاب والسهوب. إلا أنه لسوء الحظ كان يشعر بالأسى والمرارة على السهوب بحيث تركها بعد أن تقاعد عن العمل، وهو يعيش اليوم في المدينة مع ابنته، حيث يمرّ بحال النقاهة من المرض. ولأن الصين ليس فيها نظام تنافسي وعلمي وديمقراطي لاختيار الناس الذين يتمتعون بالكفاءة العالية، فإن الأشخاص المخلصين، الذين يقولون رأيهم بصراحة، يُحرمون من فرص الارتقاء. وبما أن أوليجي كان خبيرا نادرا بالذئاب والسهوب، فقد دفن تحت الرمل الأصفر لنظامنا الجديد، والذي هو أسوأ بكثير من رمل السهوب الأصفر، لأن النظام كان المصدر الحقيقي للعاصفة الترابية التي اجتاحت ذلك المكان".

استمرت سيارة الجيب تشق طريقها في مواجهة الريح والغبار الجاف حتى قطعت أكثر من خمسمئة ميل، وحين اقتربا من أولونبولاغ اسمرت أذرعهما وصارت خشنة من لفحة الشمس. دخلا أولونبولاغ في اليوم التالي، وفي نهاية الأمر شاهدا مساحات مترابطة ببعضها بعضا من المراعي المتناثرة، فهذه كانت، على كل حال، منطقة حدودية متاخمة لسهل أوجيمشن العظيم. لكن لم يكن في وسعهما تحمل النظر إلى البقعة التي تحت أقدامهما، لأن عيونهما لن تقع إلا على صخور، تحت العشب تماما، تحت سطح التربة الرملية. في بعض الأحيان كانت هناك نباتات فطر بري طويلة نحيفة ورمادية اللون بدت وكأنها براعم الفاصولياء. في الماضي، كان السماد المتفسخ الذي يؤخذ من فضلات المواشي هو الذي يرى أسفل العشب الكثيف.

شعر شن ويانغ بالقلق. كانا يعرفان أن هناك، في مكان يبعد عنهما بمسافة، نهرا قديما يعود إلى ألف سنة، يصل مستوى مياهه الغزيرة إلى ما فوق ركب الخيل أو حتى إلى بطونها.

الشاحنات الكبيرة هي العربات الوحيدة التي كان يمكنها عبوره، وعلى السيارات الصغيرة، مثل سيارة الجيب التي يستقلانها، أن تسرع في سيرها إذا أرادت الحصول على فرصة لاجتيازه. خلال فصل الأمطار، عندما تفيض مياه النهر، كان يتعطل إيصال البريد، ويؤدي ذلك إلى حدوث نقص في الطعام والمتطلبات الأخرى لمدة أسبوعين، أو حتى لمدّة شهر. فيما كان شن ويانغ يتحادثان عن الطريقة التي يستطيعان بها عبور النهر، وصلا إلى ضفة النهر القريبة. كانت نظرة واحدة ليس إلاّ كافية لحسم النقاش. لقد انخفض مستوى مياه النهر التي كانت تتدفق بسرعة عارمة في الأيام الماضية حتى كشفت عن قاع النهر الصخري؛ لا شيء تبقى منه سوى رمل رطب وقليل من المجاري المائية كأنها الديدان التي كانت تتقاطع مع الصخور الجافة. عبرت سيارة الجيب النهر بسهولة، لكن الأسى كان يجعل نبضات قلبيهما أثقل وأبطأ.

بعد وقت قصير من عبور النهر شعرا كما لو أنهما قد دخلا ميدانَ معركة؛ أعمدة إسمنتية، وأسيجة من الأسلاك منتشرة في المكان الذي كان ذات مرة أولونبولاغ الشاسعة والخصبة، مما أجبر سيارة الجيب أن تسير عبر ممرات أوجدتها الأسيجة التي تشبه حلقات السلسلة. تفحّص شن الأسيجة التي كانت تطوّق مناطق تصل مساحة كل منها إلى مئات الهكتارات. كان العشب الذي داخل المحميّات أطول كثيرا من العشب الذي خارجها، لكن المظهر الإجمالي لتلك المساحات ما زال يوحي أنها ليست إلا مراعٍ متناثرة، لأنه كان في وسع المرء رؤية التربة الرملية تحت العشب.

قال يانغ كي: "تلك هي ما يسمونها *كولون* العشب. فبعد أن يتسلم الرعاة قطعة من أرض المراعي وبعض المواشي، يقومون بتشييد الأسيجة حولها لغرض استيلاد الحملان، وهم لا يعيشون هنا خلال الفصول الثلاثة الأخرى".

- "كيف يكفيهم هذا العشب القليل؟"، سأل شن.

أجاب يانغ: "سمعت أن الرعاة يقلّصون عدد المواشي، بعضهم يقلل عددها الإجمالي إلى النصف".

اجتازا مناطق بضعة كولونات أعشاب أخرى، حيث شاهدا ثلاثة أو أربعة منازل مبنية بالقرميد الأحمر، ذات سقوف مرصوفة بالآجر، وحظائر استيلاد. لكن كان من الواضح أنها كانت خالية في تلك اللحظة، إذ لم يكن هناك دخان يتصاعد من المداخن، ولا كلاب أو عجول قريبة من الأبواب الأمامية. ربما ذهب الناس لرعي مواشيهم في أعالي الجبال، حيث تحظى الحيوانات بالحرية في التجوال.

عندما نظر شن إلى الأسيجة التي كانت تشكل حلقات سلسلة، قال بانفعال: "في الماضي، من كان يجرؤ على تشييد سياج على سهوب تشتهر بأحصنة الحرب التي من أوجيمشن؟ في الليل، يمكن للحصان أن يتعثر فيها، وفي أسوأ الحالات كان سيموت وهو يكافح للخلاص

مـــنها. لكـــن الأحـــصنة التي كانت حوافرها ذات مرة تهزّ العالم قد سيقت خارج السهوب المنغولـــية. لقد سمعت أن رعاة الخراف الآن يستخدمون الدراجات البخارية، وهي علامة على الازدهـــار يعرضونها على شاشة التلفزيون. في الواقع، حصل ذلك لأن السهوب لم تعد قادرة علـــى إطعـــام الأحصنة، والتي اختفت بعد اختفاء الذئاب. ستتبعها الأبقار والخراف في وقت قـــريب، إنـــني واثـــق من ذلك. تحولت سباقات الأحصنة إلى سباقات دراجات بخارية، وربما تطـــورت ذات يوم إلى سباق بين اللاجئين وبيئتهم. لقد شهدنا حالة نصر مذهل لمجتمع زراعي علـــى مجـــتمع رعوي بدوي. لقد تطورت سياسة الحكومة الحالية حتى تبنّت مفهومَ بلد واحد ونظـــامين – لكـــن هناك مفهوما ما زال عميق الجذور في وعي الهان – ومناطق كثيرة ونظام واحـــد. لم يكن ليعنيهم سواء أكانت هناك أرض زراعية أو أرض للمراعي، غابة أو نهر، مدينة أو أريـــاف؛ كـــل مـــا كانوا يطمحون له أن يمزجوها مع بعضها بعضا من أجل إنتاج نكهة مـــوحّدة. مع النصر المذهل ذاك تدفقت كميّات عجيبة من الإعانات المالية، لكن لا يمكن أبدا إعادة الحياة إلى السهوب حتى لو استمرت الإعانات المالية تتدفّق طوال القرن اللاحق".

ســـارا عـــبر الممرّ المغبّر الذي يؤدّي إلى موقع قيادة سرّيتهم السابقة، كانا متلهفين لرؤية الرعاة أو، من أجل الاستفسار عن ذلك الأمر بالذات، أي شخص آخر. لكنهما اجتازا المرتفع الجبلي المألوف لديهما، ليكتشفا أن الموقع القديم قد حلت محله سهوب رملية صفراء ميتة تهيمن علـــيها الفئران التي كانت آثارها تتلوى كالأفاعي عبر الأرض وسط أكوام من الرمال الجافة. اختفـــى صفّ منازل القرميد والطابوق. فيما قاد شن السيارة حول مقر السرية الذي كان يعجّ بالحـــياة في وقـــت من الأوقات، لم يشعر بالقلق من الارتطام بأي من الجدران، لكن عجلات الـــسيارة انغرســـت عدة مرات في جحور الفئران المنهارة. لم يمضِ إلا عقدان من الزمن، لكن بقايا الماضي كانت قد غمرتها بالكامل رمال صفراء، كما لو أنها مُسحت عن وجه الأرض.

تـــنهّد شـــن. "الفئران هي الملوك الآن على سهوب تخلو من الذئاب. إنها تحفر جحورا عمـــيقة، وتخزن كميات كبيرة من الطعام مما يمنحها الهيمنة على السهوب. نحن نحب أن نسمع أي شـــخص ينادي *اقتلوه!* عندما يعبر فأر الشارع، لكننا في أعماقنا نبجل الفأر، ونضعه على رأس لائحة أبراجنا".

اســـتلم يانغ عجلة القيادة، وقاد السيارة بسرعة أكبر متّجها نحو تل قريب. نظرا صوب الـــشمال حيث شاهدا بعض الأبقار، وبضعة من الأحصنة ودخانا يتصاعد من مداخن، لكنهما مع ذلك لم يبصرا خيمة واحدة. اتجه يانغ نحو أقرب مصدر للدخان.

كانا قد قطعا مسافة اثني عشر ليا عندما تصاعد عمود من الغبار الأصفر على ممرّ ترابـــي مـــن مسافة بعيدة. تمنّى شن أن يكون ذلك أحد الرعاة وقد امتطى صهوة حصان سريع، لكن عـــندما اقترب الراكب مسافة كافية، شاهدا دراجة بخارية لامعة من نوع ياماها. كان الراكب

مراهقا منغوليا يرتدي سترة كأنها قميص وقبعة مثل التي يلبسها لاعبو البيسبول. توقفت الدراجة فجـــأة وهـــي تصدر هديرا بالقرب من سيارة الجيب. ذهل شن عندما رأى بندقية من العيار الخفـــيف معلّقة على كتف الشاب، وصقرا متوسّط الحجم مربوطا على المقعد، وكانت الدماء تقطر منه. تذكر شن تلك النظرة المخيفة المليئة بالرعب التي ارتسمت في عيني بلغي عندما رأى للمـــرّة الأولى أحد تلك الأسلحة، واستغرب من رؤيته لشاب منغولي يمتلك واحدا منها، بغضّ النظر عن كونه يركب دراجة متطورة، عالية الكفاءة وذات عجلتين.

رحـــب يانغ بالشاب باللغة المنغولية وقدّم نفسه له. بدت نظرة لامبالاة شاردة على وجه الـــشاب أبـــيض البشرة. كان يحدّق إلى سيارة الشيروكي، وأخبره بلغة صينية مشوبة بلهجة شـــاندونغ أنـــه الابـــن الأصغر لشولو، وهو يمضي عطلته المدرسية الثانوية الصيفية في عاصمة الاتحـــاد. تطلـــب الأمر من شن بضع لحظات ليستذكر أن شولو كان أحد الدّخلاء، وهو من الكـــوادر الثانوية، وكان يعمل في الإنشاءات الأساسية لقيادة المراعي القديمة. لقد أخبره زانغ جـــيوان وغيره من زملاء الدراسة القدامى بأن مستخدمي المراعي والجنود المتقاعدين من الفيلق الـــذين اســـتقروا هـــناك كانوا جميعهم قد منحوا أراضي ومواشي بعد أن تغير النظام المتبع في السهوب. صاروا رعاة على طراز الهان، مما أضاف نسبة ثلاثين بالمئة إلى السكان الذين استقروا في المراعي في أولونبولا غ.

سأل شن الشاب: "لماذا أطلقت النار على الصقر؟".

– من أجل اللهو.

– أنت طالب مدرسة ثانوية. ألا تعرف أن من المفترض بك حماية الحيوانات البرية؟

– الصقور تقتنص الحملان، فكيف لا أطلق النار عليها؟ هناك الكثير جدا من الفئران هنا بحيث إن الصقور تأتي من منغوليا الخارجية. ما الذي يحصل لو قتلت بضعة منها!

سأل يانغ عن منـــزل باتو وغاسماي. أشار الشاب إلى جهة الشمال، وقال: "إنه على الجانب الآخـــر من الطريق السريع عند الحدود، إنها آخر وأكبر حظيرة مبنية بالحجارة موجودة في الشمال". ثم انعطف بدراجته وانطلق مسرعا نحو التلال والصقر وإياه، من دون أن ينظر إلى الوراء.

فجأة شعر شن ويانغ أنهما مثل الدخلاء؛ توجّسا خيفة من أن أحدا لن يرحّب بوجودهما هناك. قال يانغ: "لنذهب إلى منـــزل باتو. بوجوده هو وغاسماي يمكننا أن نشعر أننا ننتمي إلى هذا المكان".

انطلقـــت سيارة الجيب متّجهة نحو الطريق الحدودي عبر الممرّ القديم الذي سلكاه عندما انتقلوا إلى مرعى جديد. تأمل شن التلال بنظرة فاحصة بحثا عن المرموط لكنه لم يشاهد واحدا مـــنها، حتى بعد أن قطعت السيارة اثني عشر ليا تقريبا. "هل تتصور حقا أنك ستجد المرموط الآن بعد أن صارت لدى المراهقين بنادق صيد؟"، سأل يانغ. وتوقّف شن عن البحث.

اجـــتازا بضعة منازل مأهولة، لكن عدت وراءهما كلاب قليلة، وتلك التي لم تعدو كانت كلابا صغيرة. عندما اجتازا إحدى الخيم لم يريا مزيدا من تلك المشاهد المخيفة التي تُشعر المرء أنـــه محاصر ومطارد، ويمكن أن تعضّه عشرة كلاب كبيرة ذات شعر كثيف. حتى الكلاب التي نبحت باتجاههما كانت تفتقر إلى تلك الضراوة المؤثرة إلى حد بعيد في طرد الذئاب.

قال يانغ: "الآن بعد أن انقرضت الذئاب، ستنقرض الكلاب أيضا، وعندما يحدث ذلك، لن يبقى أي أثر للمعارك. من دون معارك لا يستمر في الوجود سوى الكسالى والخاملين. ربما أصبحت كلاب السهوب حيوانات أليفة مدللة حتى قبل الكلاب التي تعيش في بكين".

دخلــت ســيارة الجيب القاطع الثاني بأرضه الذهبية التي كانت تعد كنـــزا ثمينا؛ مراعي الاســتيلاد الربيعية. لكن الشيء الذي تلقاهما بالترحيب هو أرض قاحلة أحادية اللون، وعشب مختلط بالرمال، مع غبار أصفر وحبيبات ملحية تمتزج بالهواء. احمرت عينا شن فيما كان يحدّق إلى جـــبل بلاك روك البعيد إلى الشمال الشرقي من حقول العشب، تمنّى لو استطاع أن يطلب من يانغ كي التوجه مباشرة نحو التلال الواقعة عند سفح الجبل.

قال يانغ: "كنت أشاهد فيلم *مملكة الحيوان* على التلفزيون على الدوام لمدّة عشرين سنة، وكـــنت كلمـــا شـــاهدته مرات أكثر كلما ازداد غضبـــي منك ومن نفسي. لولاك أنت، لما شـــعرت أنني مذنب إزاء السهوب إلى هذا الحد. الجراء السبعة تلك كانت من أفضل الذئاب، كل واحد منها كان يمثل عينة نموذجية من النوع الذي ينتمي إليه، وجميعها ماتت بأيدينا. كنت المتواطـــئ رقم واحد معك. حتى ابني، كلما ذُكر الأمر أمامه، كان يدعوني بالغبـــي والجاهل. فلاحون! قساة! من المنظور القانوني ينبغي أن تقع على عاتقي مسؤولية جسيمة، لأنني ساندتك عـــندما أردت الإغـــارة على وجار الذئاب. لو لم أذهب معك في تلك الليلة لما كانت لديك الشجاعة أن تفعل ذلك بمفردك. لقد ارتكبنا جريمة، وذلك شيء لا يمكن إنكاره مطلقا".

كان شن صامتا.

تابـــع يانـــغ كلامه: "أنت أمضيت عشرين سنة في دراسة نماذج النظم، الاقتصادية منها والـــسياسية، والقـــضايا الحـــضرية والريفية في الصين والخارج. لماذا تعود، في نهاية الأمر، إلى موضوع الشخصية القومية؟".

– هـــل تعـــتقد أن بالإمكـــان الوصول إلى حلّ للمشاكل الأخرى إذا لم تُحلّ تلك المشكلة؟

فكّـــر يانغ في المسألة لبعض الوقت قبل أن يردّ. "أتصور أنك على حق. لقد وجدنا حلا لهذه المعضلة منذ أن أثارها الكاتب لو زون منذ أكثر من نصف قرن. نحن الصينيون غير قادرين علـــى تخليص أنفسنا من ذلك العيب. مضت عشرون سنة على إطلاق حملة الإصلاحات، وقد أحرزنا قليلا من التقدم، لكن ما زالت أقدامنا ترتعش".

وصلت سيارة الجيب إلى نقطة مرتفعة على الطريق السريع التي استطاعا منها إلقاء نظرة إلى الأسفل على خط الحدود الذي بدا وكأنه بلا نهاية، وهي علامة جعلتهما يحدّقان مذهولين وقد اتسعت عيونهما. كانت المنطقة العسكرية التي يبلغ عرضها عشرين ليا والأرض الحرام تخترقها مواقع سكن أعداد متزايدة من البشر والمواشي، وقد أصبحت مرعى يعجّ بالنشاط. ذلك هو المكان الأول الذي شاهداه حتى الآن استحق حقا أن يسمّى بالمرعى، بعد أن قطعا بوساطة السيارة مسافة خمسمئة ميل.

كان طول العشب يصل تقريبا إلى نصف ارتفاع ذلك العشب الذي اعتادا على رؤيته، لكنه بقي محافظا على لونه الأخضر القاتم. وبما أن هذا الجزء من السهوب كان محميّا بالمنطقة العسكرية المحظورة منذ عقود من الزمن، لم تظهر فيه أي علامات واضحة على التصحّر. ربما ساعدت الرطوبة الآتية من السهوب البدائية التي تقع عبر الحدود على إضفاء ظلال من الخضرة الندية، المشبعة بالرطوبة على الأرض، والتي حلت محل مشهد الجفاف والذبول الذي استقبلهما على امتداد الطريق.

كانت هنالك منازل مشيّدة بالقرميد الأحمر ذات سقوف مبلطة بالآجر على الأرض التي رقّطتها الحظائر المبنية بالحجارة، وكأنها حصون تنتشر على خطّ الحدود. لقد بُنيت المنازل جميعها على أراض مرتفعة، من الواضح أن جميع العوائل كانت قد استقرت وسط المراعي. شاهدا عشرات قطعان الخراف والأبقار وهي ترعى العشب. لكن الشيء الذي أثار استغراب الرجلين أن حجم قطعان الخراف ربما بلغ ثلاثة آلاف خروف في كل قطيع، وبعضها بلغ أربعة آلاف. من الواضح أن حياة الرعي البدوية قد استبدلت منذ وقت طويل بمستوطنات ثابتة للرعي مما جعل حجم القطعان يصل إلى تلك الأعداد الكبيرة.

أخرج يانغ منظارا مقربا واستكشف المنطقة بعناية. "هذه قطعان كبيرة الحجم جدا"، قال. "لم يسبق لنا، لا أنا ولا أنت، أن تولينا مسؤولية رعي مثل هذا العدد الهائل من الخراف أبدا. إن عددها يصل إلى ضعف عدد الخراف التي كنا نرعاها. ألا يموت الرعاة من الإنهاك؟".

قال شن: "القطعان التي اعتدنا أن نرعاها كانت تعود إلى الملكية الجماعية. لكن مع وجود قطيع تعود ملكيته للقطاع الخاص، لا يعتبر الحجم مشكلة. إن لم يتمكن فرد معين من السيطرة بصورة جيدة على العمل، باستطاعته أن يستأجر الناس لرعي القطيع مما يوفّر فرصا إضافية للعمل. الأرباح دائما تزيد الحافز للعمل، وبذل جهد أكبر".

حين واجه شن مثل هذا المرعى المستقر الذي كان ينبض بالحيوية، صارت ركبتاه تخبطان ببعضهما بعضا. شعر بأن ما كانا يشاهدانه هو في الواقع نوع من انتعاش مزيف، يحدث تماما قبل أن تموت سهوب منغوليا الداخلية.

انـدفعت دراجتان بخاريتان وحصان كان يجري مسرعا باتجاه سيارة الشيروكي؛ وأخيرا رأى شـن زن رجـلا يمتطي صهوة حصان؛ شيء لم يرَه منذ مدة طويلة. وصلت الدراجتان البخاريتان إليهما قبل الحصان، وكان رجل مفتول العضلات يرتدي مئزرا أزرق اللون يركب واحدة منهما. صاح شن ويانغ في وقت واحد: "بايار! بايار!".

عندما قفزا من سيارة الجيب احتضن بايار شن بعناق حميم. "شن زن!"، صاح. "شن زن! آنيانغ – أمي كانت تعلم أنك قد رجعت عندما أبصرت الجيب، لذلك أخبرتني أن أحضر إليك لأرشـدك إلى الطريق". عانق شن مرة أخرى قبل أن ينتقل بالعناق إلى يانغ كي. "لقد علمت آنيانغ أنك ستأتي مع شن زن. تعالا يمكنكما البقاء معنا".

كان برفقة بايار شابان مراهقان، أحدهما في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، والآخر في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره. قال بايار، "رحّبا بالجد شن والجد يانغ". رحّب الفتيان بهما وأحاطا بالشيروكي لتفحصها عن قرب. "إنهما يمضيان العطلة الصيفية"، قال بايـار. "عادا من مدرستهما التي في عاصمة الاتحاد. أريد لهما أن يلتحقا بالكلية في بكين حتى تهـتمان أنتما بهما. اركبا سيارتكما. آنيانغ تكاد تفقد صوابها وهي تنتظر وصولكما، منذ أن سمعت من زانغ جيوان أنكما قد رجعتما".

تبعا في سيارتهما الجيب الدراجتين البخاريتين والحصان، واتجها نحو عمود الدخان المتصاعد مـن أبعـد مدخنة. كان كلٌ من باتو وغاسماي، الآن بعد أن اصطبغ شعر رأسيهما بالشيب، قد سـارا مسافة اثنين لي للترحيب بهما. قفز شن من سيارة الجيب. "آنيانغ!"، "آنيانغ! باتو!"، عانق بعـضهما بعـضا فيما كانت الدموع الحارة تتدفق من عيونهما وتسيل على وجهيهما. سقطت دموع غاسماي على كتف شن، فيما كانت تلكمه بقبضتيها وتقول بسخط: "احتجت إلى عشرين سنة حتى ترجع! لقد رجع طلاب آخرون أكثر من مرة. تصورت أنني سأموت قبل أن تأتي".

– "لا يمكنك أن تموتي"، قال شن. "إنني الشخص الذي يستحق الموت، لذا دعيني أذهب قبلك".

مـسحت غاسمـاي دموعها بيديها المتصلبتين، وقالت: "كنت أعرف أنك ستنسى كل شـيء، حتى بابا وإيجي، عندما دفنت أنفك في الكتاب، إذا، كيف استطعت تذكر منـزلك الذي في السهوب؟".

– "كنت أفكّر في السهوب كل يوم خلال العشرين سنة الماضية"، قال شن. "إنني أؤلف كتابا عن هذا المكان وعن عائلتك. لا يمكنني أبدا أن أنسى منـزلي على السهوب. لقد عشت زمنا هنا، برفقتك، طوال تلك المدة".

ساعدهما شن في الصعود إلى سيارة الجيب وعاد بهما إلى منـزلهما. كانت لديهما حظيرة هائلـة مبنية بالحجارة، يصل حجمها إلى ضعف الحظيرة التي هناك في موقع فريق الرعي. فيما

مروا بالحظيرة رأى، إلى الغرب من السياج، منـــزلين جديدين واسعين مجهّزين بهوائي استقبال التلفـــزيون، ومولدات تعمل على طاقة الريح. تحت النافذة وقفت سيارة جيب قديمة صنعت في بكـــين ذات سقف من القنب بهت لونه. غطت التربة الرملية أنحاء المنطقة؛ لا شيء كان ينمو هناك غير خضروات برية على بقاع متناثرة يصل ارتفاعها إلى الخصر. ركن شن السيارة قرب أحـــد المـــنازل، وقد شعر بإحباط شديد لأنه الآن، بعد عشرين سنة، لم يعد قادرا على دخول الخيمة التي كان يعيش فيها الرجل العجوز.

أنـــــزل شـــن ويانغ صناديق سكائر وشرابا من السيارة، وأنواعا من المشروبات المعلبة، وهلاما وحلويات بالحليب، وشالات، ولفافات ركبة، وأحزمة جلدية، وقداحات، وغيرها من الهدايا، مثل مبيدات الحشرات. حملوا ما أحضروه وإياهم إلى داخل غرفة الجلوس التي بنيت على طراز منغولي، والتي تجاوزت مساحتها مئة قدمٍ مربع، كانت مؤثّثة بالأرائك، ومناضد الشاي، وبتلفـــزيون ومسجل فيديو، وخزانة تحتوي على المشروبات ولوازم الشرب. في وسط الحائط عُلقـــت لوحة كبيرة من القماش الأصفر المزخرف ظهرت عليها صورة لجنكيزخان. بدت عينا الخان العظيم المنحرفتان كأنهما كانتا تراقبان أفراد سلالته من المنغوليين وضيوفهم بنظرة حانية. أمضى شن بضع لحظات وهو واقف باحترام أمام الصورة.

قالـــت غاسماي: "كان أحد أقارب بابا قد أحضر وإياه هذه الصورة من منغوليا الخارجية عـــندما زار أولونبولاغ. قال إننا نعيش حياة رغيدة هنا وأن طرقنا ممهدة، لكن تعليمنا ومراعينا ليست جيدة مثلما هو موجود لديهم".

جلسوا جميعا لارتشاف قليل من الشاي بالحليب وتناول منتجات طازجة. كانت غاسماي قد كـــبرت الآن فلم تعد تحب الحلوى بالحليب كما كانت في السابق، لكنها أثنت على لفتتهما تلك. قالت وهي تبتسم: "لقد تذكرتني إذا! في ذلك الوقت قدّمت الحلوى للكلاب، و لم تقدّمها لي".

سرعان ما أحبت غاسماي حلوى الفواكه الهلامية، والتي تذوقتها للمرة الأولى. قلدت في ذلـــك شن زن، صارت تلوك مربعات الجيلاتين في فمها، واحدة بعد الأخرى، وهي تضحك. "كيف عرفت أنني فقدت جميع أسناني؟ هذه الحلوى تناسب تماما امرأة عجوز بلا أسنان".

لمـــس شن جانب رأسه وقال: "أنا أيضا تقدّمت في العمر. انظري إلى الشيب هنا؟ وقد فقـــدت بضع أسنان أيضا. لكن كيف يمكن أن أنساك؟ لقد أخبرت الكثير من الناس في بكين قـــصتك عـــندما كنت تمسكين بذيل أحد الذئاب وتكسرين عظم ذيله، بمفردك ليس إلاّ. أراد الكثير منهم المجيء إلى السهوب لمقابلتك".

قالت وهي تهزّ يديها: "كلا، كلا. قال قريبنا الذي من منغوليا الخارجية إن لديهم محميّة خاصـــة للـــذئاب وكانوا قد منعوا صيدها. على التلفزيون هم يتحدثون أيضا عن حظر صيد الذئاب. إذا لماذا تستمر بإخبار الناس عن الأمر السيئ الذي فعلته؟".

كـــان الظلام قد بدأ ينتشر، ومن الخارج تناهت الأصوات المألوفة لقوائم الخراف. خرج شـــن ويانغ، حيث أحاطت بهما الخراف التي كانت تتدفق باتجاههما كالطوفان. شاهدا راعيا كان يرتدي ملابس صينية يسوق القطيع وهو يمتطي صهوة حصان. اعتقد شن أن الرجل لا بدّ مـــن أن يكون مستخدما جديدا في السهوب. ذهب ويانغ نحوه لمساعدته في سوق القطيع إلى داخل الحظيرة. ابتسم باتو. "أرى أنكما لم تنسيا مهنتكما القديمة. حتى بعد مرور عشرين سنة تتذكران ألا تسوقا الخراف بشكل سريع حين تكون بطونها ممتلئة".

ضـــحك شن. "لن أنسى أبدا أي شيء عن السهوب. هذا قطيع هائل الحجم. كم عدد الخراف التي هناك؟".

قال باتو: "تقريبا أربعة آلاف".

أطلـــق يانـــغ صفيرا، وقال: "إذا كان معدّل سعرها يصل إلى مئة وخمسين يوانا أو أكثر، فأنـــت تـــتكلم عـــن نحو سبعمئة ألف يوان للخراف وحدها. فإذا أضفت الأبقار إلى ذلك، والمنازل، والسيارات، والدراجات البخارية، فأنت قد أصبحت مليونيرا".

– "الممتلكات على الأرض الرملية لا يعتمد عليها"، أجاب باتو. "لو تحوّل هذا المرعى إلى صـــحراء، مـــثلما حـــصل لتلك المراعي التي تعود إلى الدخلاء، عندها سنعود رعاة فقراء من جديد".

– "كم عدد الخراف التي يمكن لمراعيك استيعابها؟"، سأل يانغ.

فـــيما كان باتو يغلق بوابة الحظيرة، قال: "مع وجود مياه أمطار كافية، يمكن للمراعي أن تستوعب أكثر من ألفي خروف، لكنها لا تستوعب إلا ألفا في حالة الجفاف، وهو ما عانينا منه باستمرار خلال السنين الأخيرة. لم تسقط أمطار كافية منذ أربع أو خمس سنين. إن الاحتفاظ بألف رأس منها فقط يعتبر شيئا صعبا جدا للغاية".

استغرب شن. "إذا لماذا ما زلت تربّي هذا العدد الكبير؟".

– ربما ستتحدث عن الاستيعاب، صحيح؟ الرعاة هنا ينتمون أصلا إلى قاطع الرعي الذي كانـــت تشرف عليه غاسماي، وقد تدربوا على يد بابا. إنهم يفهمون أهمية القدرة الاستيعابية، ويولون عناية بالغة بالسهوب. سأقوم بتربية نصف عدد القطيع لمدة ستة أشهر فقط، وأبيع ألفين مـــنها قبل تساقط الثلوج. ذلك يعني بيع ألف وأربعمئة أو أكثر من الحملان الكبيرة التي ولدت هذه السنة، بالإضافة إلى بضع مئات من الخراف بنية اللون، والنعاج المسنّة. عندئذ يتوافر لدينا مـــا يكفي من العشب لتغذية المتبقي من القطيع لمعظم أيام الشتاء، ولتعويض النقص أقوم بشراء أكوام كبيرة من العشب الأخضر بشيء من النقود التي أحصل عليها من بيع الخراف. في أواخر الـــصيف أو أوائـــل الخريف، سأسوق الخراف نحو الجبال. ونتيجة حالات الجفاف فإن أكثرية حشود البعوض قد ماتت، ويمكن للخراف أن تعيش وتكتسب قليلا من الشحم في الجبال.

رجعــوا إلى غرفة الجلوس. "العوائل التي تعيش ضمن قاطعنا ما زالت تتبع أساليب الحياة المنغولية القديمة"، تابع باتو كلامه: "إننا نربــي خرافا أكثر عندما يكون العشب غزيرا، وأعدادا قلــيلة منها عندما يصبح العشب رديئا. عندما نربــي خرافنا، فنحن نتبع نواميس تينغر ونراعي حالة العشب، ونتجنب الناس الجشعين. لكن، بالطبع، فإن الدخلاء لا يعرفون شيئا عن القوانين القديمة، لذا فهم كثيرا ما يتسللون بخرافهم إلى هنا لتأكل عشبنا عندما يستهلكون عشبهم. إنه شـــيء مـــزعج جـــدا. ثم هناك السكارى من المنغوليين المحليين. إنهم يبادلون كل الخراف التي خصّصتها لهم الحكومة مقابل الشراب. بعدها عندما تهرب زوجاتهم ويتشرد أطفالهم، ويعيشون علــى بدل الإيجار الذي يحصلون عليه من تأجير مراعيهم، وهو ما يصل تقريبا إلى عشرة آلاف أو عشرين ألف يوان كلّ سنة".

- من الذي يستأجر مراعيهم؟

- "الدخلاء الذين من مناطق فلاحية - رعوية"، قال باتو بسخط. "هؤلاء الناس لا يبالون بـــشأن القدرة الاستيعابية، لذلك فهم يربون ألفين أو ثلاثة آلاف خروف على الأرض التي لا يمكنها تحمل أكثر من خمسمئة خروف. تبقى خرافهم ترعى الأرض بضع سنوات حتى تحولها إلى رمـــال؛ بعـــدها يتخلون عن استئجار المراعي، ويبيعون خرافهم، ويرجعون إلى ديارهم لمزاولة مختلف الأعمال اعتمادا على النقود التي جمعوها هنا".

- "لم أتخيل أبدا أن يصل الدخلاء في الواقع إلى هذه الدرجة من سوء التصرّف"، قال يانغ لشن. "عاجلا أم آجلا سيدمّرون السهوب بالكامل".

شعر شن بثقة أكبر في ما يتعلق بمراعي باتو وغاسماي، ومشروعهما العائلي، وقال: "إنني سعيد حقا لأن أراكم تعيشون حياة كريمة".

هزت غاسماي رأسها. "السهوب الكبيرة تلاشت، ومراعينا الصغيرة لن تستمر مزدهرة إلى الأبد. الأرض جافة، وتينغر يرفض أن يمنحنا المطر. مراعينا تغدو أسوأ في كل سنة. ينبغي لي أن أسجّل أربعة أولاد في المدرسة، ثم أدخر بعض النقود حتى يمكنهم أن يتزوجوا ويبنوا بيوتا في ما بعد. هناك أيضا نفقات العلاج الطبــي والمدّخرات التي نحتاج إليها في الأيام الصعبة. الفتيان في هـــذه الأيـــام لا يهتمون إلاّ بيومهم الراهن وهم يريدون شراء أي شيء تقع عليه أعينهم. لقد شـــاهدوا ســـيارتك الجيب المبهرجة الآن ليس إلاّ، وأخذوا على الفور يحاولون إقناع بايار أن يـــشتري لهـــم سيارة مثلها. إنني خائفة من أنه حالما يرحل الكبار، سيتجاهل الشباب القوانين القديمـــة ويـــربون أكـــبر عدد ممكن من الخراف كي يمتلكوا سيارات جديدة، ومنازل كبيرة، وملابس جميلة".

- "الآن فهمت السبب الذي جعلهم يلحون علي لمعرفة سعر سيارة الجيب حالما ترجلت منها"، قال يانغ.

- "ينبغي للمنغوليين أيضا أن يطبقوا مسألة تحديد النسل"، تابعت غاسماي كلامها. "السهوب لا تستطيع أن تستوعب الأعداد الكثيرة من الأطفال. يجب على الولدين الرجوع لرعي الخراف إذا لم يفلحا في الحصول على كلية؛ ثم عليهما أن يقسما مساحة المنزل والخراف بعد أن يتزوجا. كل قطيع منها سيكون أصغر حجما، مما يجعلهما يرغبان في تربية عدد أكبر. لكن حجم المراعي لا يزداد. العشب سيزول إذا بنيت بضعة منازل أخرى على قطعة الأرض الصغيرة هذه".

كان بايار يذبح خروفا في الخارج؛ بعد فترة دخلت زوجته، وهي امرأة منغولية قوية البنية مثل غيرها، وقد حملت طبقا كبيرا مليئا حتى حافته باللحم. أخرج شن ويانغ المعلبات وغيرها من الأطعمة المحفوظة. بالرغم من أن الظلام لم يكن حالكا تماما، فقد أضيئت المصابيح في غرفة الجلوس.

قال شن لباتو: "يا رجل، إنها مصابيح براقة. الآن لم تعودوا أنتم الرعاة تستخدمون مصابيح الزيت المستخرج من شحم الخراف. في الأيام الخوالي كثيرا ما احترق شعري عندما كنت أحاول القراءة على ضوء مصباح زيتي".

- "كم من الوقت تستمر الكهرباء من المولد الذي يعمل على طاقة الرياح؟"، سأل يانغ.

ضحك باتو. "عندما تهبّ الرياح، فالمولّد سيهدر طوال اليوم ويخزّن الكهرباء في بطاريات يمكن أن تدوم إلى ساعتين. إذا لم يكن ذلك كافيا، فلديّ مولد كهرباء صغير يعمل على الديزل".

بعد وقت قصير سُمعت أبواق سيارات في الخارج؛ كان جميع أفراد *قبيلة* غاسماي تقريبا قد وصلوا في سيارات ودراجات بخارية، حوّلوا غرفة الجلوس الفسيحة إلى علبة سردين. كان أصدقاء السهوب القدامى على وجه التحديد مشحونين بالألفة والمودة؛ ظلت خبطات ودودة بالقبضات تتوالى على شن ويانغ، اللذين اضطُرّا في ذلك الوقت إلى أن يحتسيا كثيرا من الشراب بحيث صارا يترنحان ويتلفّظان بأشياء تافهة.

حذا لامياف، ولاسورنغ، وسانجاي، وغيرهم من الأصدقاء القدامى حذو الآخرين، وطلبوا السيارة من يانغ، الذي كان يمر بحالة شرود ذهن بسبب الشراب، فوافق على طلباتهم جميعا. "لا توجد مشكلة. لا توجد مشكلة أبدا. واقصدوني عندما تحتاجون إلى رفع قضية ما تتعلق بالقضاء". بعد ذلك رمى بالمفاتيح إلى لامياف.

ضحك الآخرون جميعا بصخب، قبل أن تصدح أصواتهم بالغناء. كانت الأغنية الأخيرة قد ذاع صيتها وهي لمغن منغولي شهير جدا اسمه تينغيير. تعالت أصوات هادرة، وقديمة، وحزينة، ذات رنين شبيه بعواء الذئاب.

استمر الشرب والغناء طوال الليل؛ ولم تتوقف الدموع عن التدفق.

في أثـناء مأدبـة الشراب، صدرت *أوامر* لشن زن ويانغ كي كما لو أهما كانا رجلين مطلقـين عـادا مـن بكين. ستقام مأدبتان كل يوم، كل واحدة منهما في بيت عائلة مختلفة، وسـيتخلّلهما تـناول المشروبات، والأكل، والغناء. تحولت سيارة الشيروكي الزرقاء إلى عربة للرعاة القدامى لاختبار طبيعة قيادة السيارات والتنـزه، ولنقل الشراب الذي كانوا يحضرونه. كانـت تستخدم أيضا لنقل الأصدقاء من قواطع أخرى، مما حول الباحة التي أمام منـزل باتو إلى مرأب للسيارات.

بعـد ظهـيرة اليوم التالي، كانت تقريبا نصف سيارات ودراجات الفرقة متوقفة خارج منـزل باتو، لكن لم يكن هناك إلا عدد قليل من الأحصنة. قال أحد الرعاة: "ربما كان الناس سـيتركون تـربية الأحصنة المنغولية لولا صعوبة رعي الخراف على الدراجات البخارية خلال فـصول الشتاء المثلجة. لقد بقي فقط قطيع واحد من أربعة قطعان للأحصنة كانت لدى الفرقة الثانية، ويبلغ حجمه نصف حجم قطيع الأحصنة الذي كان في السابق".

– "الـذئاب تلاشت، والعشب أضحى بقعا متناثرة"، قال باتو. "الأحصنة كسولة، ولا تستطيع العدو سريعا. إها أصغر حجما من ذي قبل. لم يعد أحد يريد شراء أحصنتنا بعد الآن".

لاحـظ شـن أن جميع الرجال من كبار السن الذين هم من جيل بلغي قد رحلوا. كان طلاب المدرسة الثانوية الذين درّسهم يانغ كي يشكّلون الآن قوة العمل الأساسية.

خلال ثلاثة أيام كان الرجلان قد شربا كثيرا بحيث إن معدل ضغطهما قد ارتفع، وعانيا مـن تـسارع في نبـضات القلب. لكن لحسن الحظ، كانت الحدائق التي زرعها الهان مليئة بالخـضروات الطازجة، لذلك فقد استمتعا بتناول كميات كبيرة من السلطة خلال كل وجبة طعـام؛ لـولا ذلك لكانا سيعانيان من مشكلة مستوى الكولسترول. توقفت نصف نشاطات الرعـي في القاطع بسبب سلسلة حفلات الشرب التي أقيمت على شرفهما، واضطرت العوائل إلى أن تعـتمد في ذلـك الشأن على مساعدة خارجية. قال أحد العمال المستأجَرين لشن إهم كانـوا يحصلون على مئتي يوان شهريا بالإضافة إلى خروفين كبيرين، ومن ضمن ذلك المسكن والمأكل. وكانوا يحصلون أيضا على مكافآت في نهاية كل سنة على جهودهم المتميزة في العمل.

أمضى الصديقان ذلك اليوم في منازل مضيفيهما السابقين، وناما هناك.

في الـيوم الرابع من زيارهما بقي شن يدردش مع غاسماي وعائلتها حتى وقت متأخر من الليل.

في الـصباح الباكر من اليوم الخامس ركب شن زن ويانغ كي سيارة الشيروكي وتوجها نحو جبل بلاك روك.

صـار الجبل تدريجيا ضمن مرمى البصر فيما اجتازت سيارة الجيب الطريق السريع الذي عند الحدود. أبطأ يانغ كي سرعته وهو يقود عبر ممرّ ترابـي يخترق السهوب.

تنهد شن وقال: "إن وجود الذئاب يمثل الدليل البيئي على وجود السهوب. حين تنقرض الذئاب تفقد السهوب روحها؛ الحياة هنا قد تغيرت تماما. إنني أفتقد إلى السهوب البدائية بخضرتها وخصوبتها".

قال يانغ وهو يفرك صدغه بإحدى أصابعه: "أنا أيضا أحنّ إلى الماضي. حالما وصلت إلى هنا، امتلأ رأسي بمشاهد الرعي. ربما مضت ثلاثون سنة، لكن يبدو كما لو أن ذلك قد حصل يوم أمس".

دخلت سيارة الجيب الآن المراعي التي تقع جنوب الطريق السريع، حيث كان العشب قصيرا إلى درجة أنه بدا معها وكأنه يحتضن الطبقة السطحية من التربة، كأنه يغطي أرض تدريب على كيفية قيادة السيارات. تحول يانغ بالسيارة إلى خارج الممرّ الترابي متوجّها إلى جبل بلاك روك.

كان بستان القصب الذي على سفوح التلال قد اختفى منذ أمد بعيد مخلّفا وراءه أرضا جرداء مصفرة ينمو عليها عشب قصير متناثر هنا وهناك، عبرت عليه سيارة الجيب صاعدة مرتفعا غير حاد.

سأل يانغ: "هل تعتقد أننا نستطيع العثور على وجار الذئب الصغير؟".

- "كيف يمكن لطالب أن ينسى موقع منزل معلّمه؟"، قال شن بحزم. "سنتوقف عند التلال التي على سفح الجبل قرب الوجار القديم، ويمكننا أن نمشي المسافة المتبقية. يجب أن نمشي".

فيما اقتربت سيارة الجيب من المكان الذي ولد فيه الجرو، شعر شن بلهفة مفاجئة، وكأنه مجرم حرب قديم يطلب المغفرة في حفل تأبيني، والذي كان، في هذه الحال بالذات، أرضا دفن فيها سبعة من جراء الذئاب المنغولية التي قتلها بنفسه. لم تكن خمسة منها قد فتحت عيونها بعد أو حتى فطمتها أمّها، والستة جراء الأخرى كانت لتوّها قد تعلمت الركض. وقد قُطعت أنياب الجرو السابع، وسُلبت منه حريته بسلسلة خلال حياته القصيرة التي عاشها، وفي النهاية هشّم رأسه. لقد أقدم شخص يعشق الحرية ويحترمها أكثر فأكثر كلما مرت الأيام على ارتكاب عمل شنيع من النوع الذي يقترفه أشدّ الناس تجبّرا واستبدادا. بقي يعاني من عذاباته وهو يقف وجها لوجه أمام مشهد الجرائم الدموية التي اقترفها في شبابه. أحيانا كان يمتعض حتى من نتائج بحثه التي توصّل إليها، لأن فضوله واهتمامه ببحوثه على وجه الدّقة هما اللذان انتزعا سعادة وحرية سبعة من جراء الذئاب. كانت المخطوطة التي أكملها قد كُتبت بدمائها، ذئاب تدفقت في شرايينها دماء نبيلة لملك الذئاب الأبيض. طوال أكثر من عقدين، بقي يتعذب من ثقل هذا الدّين الدموي الذي في عنقه. لكنه فهم أيضا السبب الذي جعل سكان السهوب الذين كانوا يقتلون الذئاب يقدمون أجسادهم طواعية هدية لها في نهاية حياتهم. لم يكن ذلك ببساطة؛ لأن

أرواحهـم مـن شأنها أن تصعد إلى تينغر، أو نتيجة لاعتقادهم بضرورة *إعادة اللحم بعد أكل اللحم*. ربما شعروا أيضا بعقدة ذنب ثقيلة، وأرادوا تسديد دين في أعناقهم لذئاب السهوب التي كانوا يبجّلونها. لم يعد هناك أي أثر للمدافن تحت السماء على السهوب.

خـلال العقدين الماضيين، كثيرا ما كان الذئب الصغير المحبوب واللطيف والمسكين يزور شن في أحلامه ويراود أفكاره، ولكن ما من مرة حاول فيها الجرو أن ينهشه، أو أن يسعى إلى الانتقام منه. كان الذئب الصغير دائما يعدو نحوه بمرح، ويلف قائمتيه حول ساقي شن، ويحكّ رأسه على ركبتي شن، ويلعق يديه وحنكه. وفي أحلامه، طالما استفاق شن على السهوب ليرى الذئب الصغير قريبا من رأسه، وكان على نحو فطري يغطي رقبته بيده. لكن الجرو كان ينتظره حـتى يـستيقظ وعندها يتقلّب ببساطة على العشب كاشفا عن بطنه ليحكّها له. في أحلام لا يحـصى عـددها خلال العقدين الماضيين، لم يكن الذئب الصغير يُظهر أيّ امتعاض؛ وبدلا من ذلـك كان يتصرف بشكل مفعم بالمودّة والحنان مثل أي طفل محبوب. لكن الشيء الذي أثار الحـيرة في نفـس شن هو أن الجرو لم يكرهه أو يكشّر في وجهه، بل كان دائما يُظهر صداقة وحنان الذئب. هذا النوع من العاطفة الراسخة في القدم، الحب الممتزج بالكآبة، والرّقة، والبراءة لا يمكن أبدا العثور عليه في عالم البشر.

لـدى رؤية الصخور المتخلخلة، والعشب البري على المنحدر الأجرد، بدا يانغ غارقا في اسـتذكار حملـة الإبـادة الوحشية التي حدثت منذ قرابة ثلاثين سنة مضت؛ لاحت مشاعر بالذنب، وتأنيب الضمير بشكل واضح في عينيه.

* * *

توقفت سيارة الجيب، وأشار شن إلى منطقة منبسطة وهو يقول: "ذلك هو المكان المؤقت الذي اختبأت فيه الجراء. كنت أنا من حفر الأرض واستخرجها؛ كنت أنا المذنب. لقد تقوّض الكهـف عـندما تركت أولونبولاغ، ولم يعد له من أثر الآن. دعنا نمشي من هنا إلى الوجار القـديم". بيـنما سار شن في المقدمة، وهو يحمل حقيبة على ظهره، تقدّما خطوات عبر ممرات متعرّجة باتّجاه التل الصغير.

عندما وصلا إلى التل، شاهدا البقعة المظلمة التي كانت بالأصل تختفي وراء عليق كثيف، وسيقان عشب طويلة قد تحولت إلى منحدر قاحل. واختفت الخيمة الخضراء التي كان يشكلها القـصب، وتستخدمها الذئاب كغطاء تختبئ خلفه. بعدها بمسافة ياردات عدة أصبح الكهف الـذي جثم على التلال منذ أكثر من مئة سنة تقريبا ضمن مرمى البصر. الآن بعد أن انكشف تمامـا، بـدا أكبر من السابق، وكأنه كهف مهجور يستقر على تل من الراسب الطفالي[1] في

(1) الراسب الطفالي: تربة خصبة مؤلفة من طين ورمل ومادة عضوية وغيرها... (المترجم)

مقاطعة شانغزي الشمالية. حبس شن أنفاسه، واندفع يتسلق قمة التل، وفيما كان يقترب أكثر، أدرك أن الكهف لم يزل كما كان بالحجم نفسه. لكنه بدا وكأنه أكبر حجما لأنه لم يعد ينمو فيه عشب طويل يحجب أركانه. لم يتغير شكله كثيرا، بفعل سنوات من الجفاف، لكن الأرض كانت مليئة بالحصى والتراب. بعد أن صعد شن خطوات إلى الأعلى ليجثم قريبا من الكهف، انتظر بضع ثوان ليهدأ قبل أن ينظر إلى الداخل، حيث رآه مليئا إلى منتصفه بالشجيرات المتساقطة وسيقان العليق. أخرج مصباحا كاشفا من حقيبة الظهر كي يضيء المدخل فوجد الانحناء الذي في النفق مسدودا كله تقريبا بالصخور، والرمل الأصفر، والأحراش. جلس على الأرض وهو يائس، وحدّق إلى فراغ الكهف القديم.

أضاء يانغ مصباحه الكاشف ووجّه شعاعه نحو النفق. "هذا هو"، قال، "هذا هو الكهف. كنت قد زحفت إلى الداخل من هنا. في ذلك الوقت، كنت مرتعبا وكدت أفقد صوابي، كنت خائفا من احتمال مواجهة الذئبة الأم، وخفت أن تهاجمني الذئاب التي كانت في الخارج. لا أعرف من أين حصلنا على الشجاعة في ذلك الوقت".

بينما انحنى يانغ، صرخ في جوف الكهف، "ذئب صغير، ذئب صغير، حان وقت الأكل. شن زن وأنا قد أتينا إلى هنا لرؤيتك". تصرّف وكأنه كان ينادي الجرو مرة أخرى على أرض المراعي الجديدة، حيث حفر الذئب الصغير وجارا خاصا به. لكن في هذه المرة لم يقفز الجرو إلى خارج الوجار.

نهض شن ونفض التراب عن ثيابه، ثم قرفص على الأرض لينتزع العشب النامي أمام مدخل الكهف. بعد ذلك أخرج سبع قطع من السّجق كان قد جلبها من بكين. كانت أكبر قطعة فيها من حصّة الجرو الذي رباه. بعد أن وضعها باحترام على الأرض، أخرج سبعة أعواد بخور، ثبتها في الأرض، وأشعلها. أخيرا، قطع الصفحة الأولى من مخطوطته التي كان قد أكمل كتابتها، وأحرقها كقربان. بينما كانت شعلة اللهب تلتهم اسم شن والعنوان، *رمز الذئب*، تمنّى شن لو أن روح كل من الجرو والرجل العجوز، بلغي، تتقبلان وعده وشعوره العميق بالندم. لم تخفت النار حتى وصلت إلى إصبعه. ثم أخرج زجاجة من الشراب المفضّل لدى الرجل العجوز، ورشّه على الأرض الرملية التي حول الكهف، كان يعلم بأن الرجل العجوز قد ترك آثار قدميه قريبا من كل وجار قديم للذئاب على مراعي أولونبولاغ. لقد أزعج الرجل العجوز بتجاهل اعتراضاته على تربية جرو ذئب، وذلك أمر لم يكن قادرا أبدا على التكفير عنه.

مدّ شن ويانغ أذرعهما، بينما اتجهت راحات الأيدي إلى الأعلى، ونظرا إلى تينغر، بينما تتبّعا بنظراتهما الدخان الأخضر الذي تصاعد ليصل إلى روح كلّ من الجرو والرجل العجوز.

أراد شن أن يصرخ بأعلى صوته، "ذئب صغير، ذئب صغير... بابا، بابا... جئت إلى هنا لأراكما". لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، لأنه حتى وإن فعل فهو يعلم في قرارة نفسه أنه لم

يكن يستحق ذلك. لم يجرؤ على أن يقلق روحيهما، خاف أن يفتحا عيونهما ليشاهدا *السهوب* الصفراء المحتضرة التي كانا يعشقانها.

بينما وقف شن زن في مواجهة جبل الذئب الهادئ، لم يكن يعرف متى يمكنه أن يعود مجددا إلى هناك.

* * *

في ربيع سنة 2002، اتصل باتو وغاسماي هاتفيا بشن زن ليقولا له: "لقد تحوّلت نسبة ثمانين بالمئة من مراعي أولونبولاغ الآن إلى صحراء. في غضون سنة أخرى ستتغيّر المنطقة، جميع مقاطعاتها، من مستوطنات رعي ثابتة إلى حظائر لتربية الأبقار والخراف، بشكل أو بآخر ستكون شبيهة بحظائر الحيوانات التي في قراكم الفلاحية. كل عائلة ستبني صفوفا من المنازل الكبيرة".

لم يعرف شن زن ما الذي يقوله.

بعد بضع سنوات هبّت عاصفة رملية من نوع التنين الأصفر بدت واضحة أمام ناظريه عبر زجاج نافذة منزله، مما حجب السماء والشمس. تكفّنت أرجاء بكين بالغبار الخانق الدقيق. تحولت المدينة الإمبراطورية للصين إلى مدينة مكفهرّة من الرمال الصفراء.

وقف شن وحيدا إلى جانب نافذة منزله، نظر بعيدا إلى الشمال وقد ساوره شعور بالخراب. الذئاب تقهقرت حتى غدت ضربا من الأساطير، والسهوب صارت ذكرى نائية. انقرض مجتمع الرعي وحياة البداوة؛ حتى إن آخر أثر كانت قد تركته الذئاب على سهوب منغوليا الداخلية - الكهف القديم لجرو الذئب - لا بدّ من أن يكون قد دفن الآن تحت الرمال الصفراء.

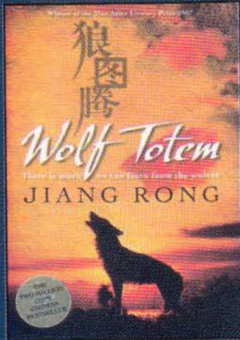
«جدل وجداني مكثف يتناول العلاقة المعقدة المتداخلة بين البدو والمستوطنين الدخلاء من الفلاحين، بين الحيوانات والبشر، بين الطبيعة والثقافة. إن السرد المتدفق يقدم إلينا تفاصيل نابضة بالحياة ويخلق تأثيراً قوياً يتراكم شيئاً فشيئاً. إنه كتاب لا يشبه غيره من الكتب».

– أدريان كلاركسون، رئيس لجنة تحكيم جائزة «مان-آسيا» الأدبية

قال الرجل العجوز: «الذئاب أذكى من الرجال في الحرب، نحن المنغوليون تعلمنا منها كيف نصطاد وكيف نطوّق، وكيف نقاتل في الحرب، إنكم حيث تعيشون لا وجود لقطعان الذئاب، لذلك لن تتعلموا القتال في الحرب، وبالتالي، لن تستطيعوا الفوز فيها لمجرد أنكم كثيرو العدد ولديكم أراضٍ شاسعة، إن السرّ كله يكمن في ما إذا كنتم ذئاباً أم خرافاً».

«رمز الذئب» سرد قصصي لحياة مؤلفها في فترة السبعينيات يعتمد فيها على تجربته الشخصية التي عاشها على السهوب المنغولية المتاخمة للحدود مع موطنه الصين.

ولد **يانغ رونغ** في يانغ سو سنة 1946. انتقل مع عائلته سنة 1957 إلى بكين حيث كان يعمل والده، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية التحق بأكاديمية الصين الوسطى للفنون الجميلة 1966. اضطر إلى قطع دراسته مؤقتاً سنة 1967 بسبب الأحداث السياسية في الصين وأعمال الشغب، فتطوع الشاب البالغ من العمر آنذاك 21 عاماً للعمل في سهوب منغوليا الداخلية، وبالتحديد ضمن لواء أوجيمشن الشرقي، حيث عاش وعمل مع السكان المحليين من البدو حتى بلغ الثالثة والثلاثين من عمره. كان قد اصطحب معه في ذلك الوقت صندوقين يحتويان كتباً من الأعمال الكلاسيكية للثقافة الغربية المترجمة إلى اللغة الصينية، وأمضى 11 سنة منهمكاً بدراسة مكثفة خاصة بتاريخ الشعب المنغولي وتقاليده وثقافته، مما طوّر لديه انبهاراً تدريجياً بالميثولوجيا وبخاصة تلك التي تحيط بالذئاب على السهوب المنغولية، حيث كان يمضي الكثير من أوقات فراغه بالاستماع إلى القصص والأساطير المتوارثة هناك والتي يدور معظمها حول الذئاب، وقد قام بالفعل بتربية ذئب صغير يتيم ليدرس عن قرب سلوكه، وليكتشف سر تبجيل سكان سهوب منغوليا للذئاب، والدروس التي استنبطوها منها في تاريخهم القديم الذي حققوا خلاله انتصارات عجيبة. إنها في الواقع محاولة فريدة من نوعها لاستكشاف الأسرار العميقة الغور التي تكتنف تأريخ وحضارة العالم.



ISBN 978-9953-87-864-5





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف